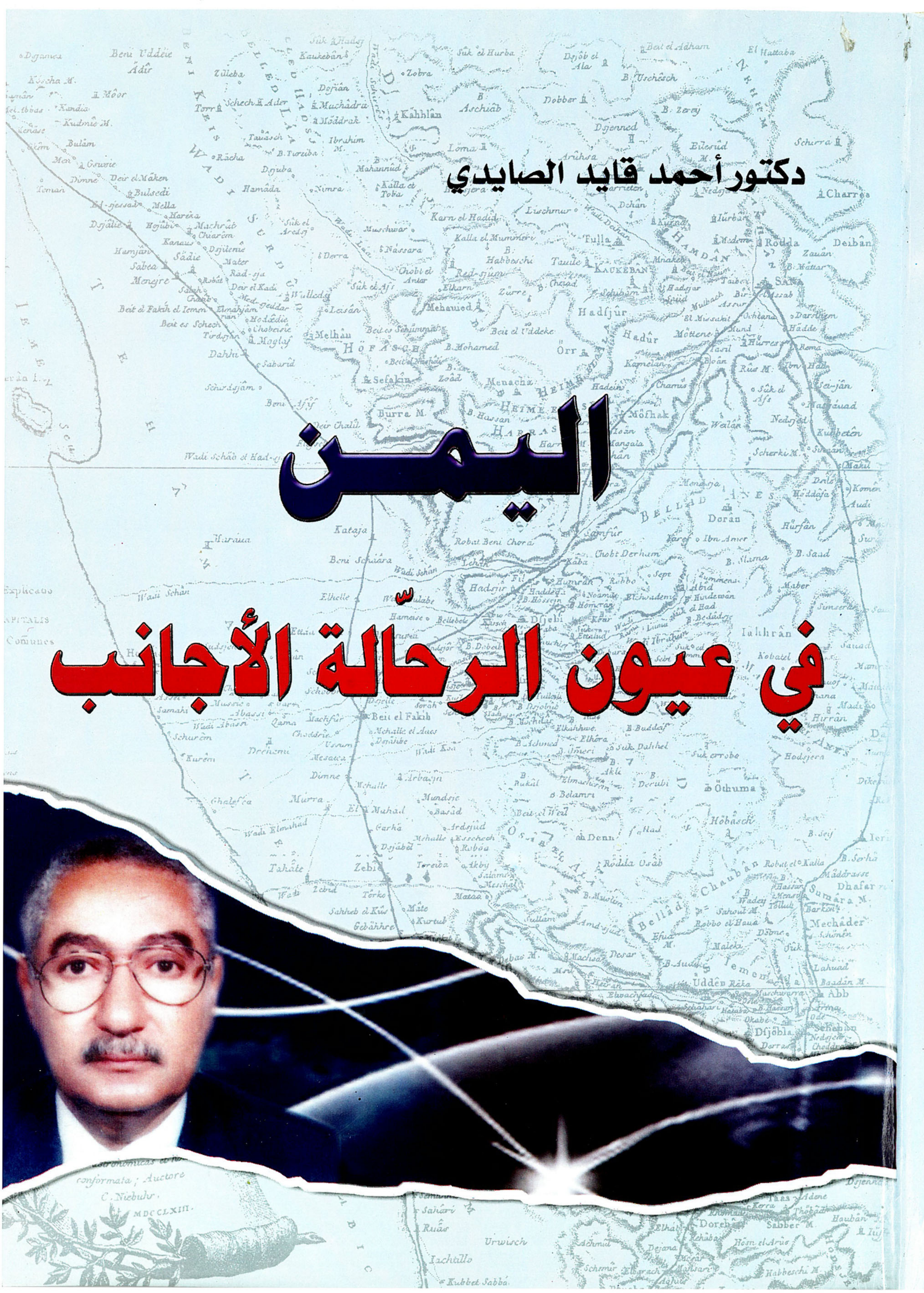
دكتور أحمد قايد الصايدي

اليمن

في عيون الرحّالة الأجانب



اليمن في عيون الرحّالة الأجانب

دكتور أحمد قايد الصايدي

دكتور أحمد قايد الصايدي

اليمـــن
في عيون الرحّالة الأجانب

اسم الكتاب: اليمن في عيون الرحالة الأجانب

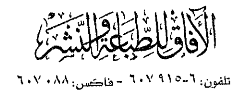
اسم المؤلف: دكتور أحمد قايد الصايدي

الطبعة: الأولى ٢٠١١م

إخراج: الآفاق للطباعة والنشر

الناشر: مركز الدراسات والبحوث اليمني

يشكر مركز الدراسات والبحوث اليمني المهندس الأستاذ/ محمد أحمد الخطري على دعمه في طباعة مجموعة من الكتب الصادرة عن المركز، وهي مبادرة جديرة بالتقدير والاقتداء.



تلفون: ٦-٦٠٧٩١٥ - فاكس: ٦٠٧٠٨٨

فهرس الموضوعات

مقدمة

تمثل كتابات الرحّالة الأجانب عن اليمن صورة تستحق التوقف عندها، لما تتضمنه من رؤية الآخر للإنسان اليمني وللأرض اليمنية. وهي رؤية تكونت من التقاء عنصرين: أولهما، الثقافة الخاصة بالمجتمع، الذي قدم منه أولئك الرحّالة، وثانيهما، المشاهدة الميدانية والمعايشة اليومية لمجتمع، لاينتمي إلى تلك الثقافة، مجتمع له ثقافته وتاريخه المختلفين، وبالتالي له قيمه المختلفة ونظرته الخاصة إلى العالم. مثل هذا اللقاء، الذي يبدو من وجوه كثيرة، لقاءً بين عالمين مختلفين، أثمر لدى بعض الرحّالة وعياً جديداً، برحابة المجتمع الإنساني وتنوعه، وإمكانية تعايشه وتفاهمه، في ظل احترام متبادل لخصوصياته، وقيمه وأساليب حياته. في حين طغى على البعض الآخر من الرحّالة الإطار الثقافي، الذي ينتمي إليه، فحكم هذا الإطار نظرته إلى الآخر، وولد لديه ضيقاً في الرؤية وإحساساً بالتفوق، واستخفافاً بالثقافات المغايرة والقيم المباينة وأساليب الحياة المختلفة، عما ألفه ونشأ عليه. ونجم عن ذلك ميل إلى السلوك المترفع والأحكام المسبقة والنظرة الدونية إلى الآخرين. ويستطيع القارئ أن يتبين هذين الموقفين المتباينين، في ثنايا ماقدمه الرحّالة من وصف لرحلاتهم، تباين بين الدقة والعمق، بين السطحية والتسرع، بين التواضع والترفع.

ولعل أول رحّال أوربي زار اليمن وترك وصفاً لما شاهده وعايشه فيه، هو الإيطالي لودوفيتشو دي بارثيما **Lodovicho di Barthema**، الذي وصل إلى عدن عام ١٥٠٨م واعتقل وأرسل إلى رداع، عاصمة الدولة الطاهرية. وكان ذلك في عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب، أعظم حكامها، الذي تولى الحكم من عام ١٤٨٩م وحتى عام ١٥١٧م، وقتل بالقرب من مدينة صنعاء، كما هو معروف، على أيدي المماليك، الذين احتلوا اليمن وتفوقوا على المقاومة اليمنية بأسلحتهم النارية، التي دخلت اليمن لأول مرة، وجعلت المعارك بين اليمنين والغزاة المماليك معارك غير متكافئة، فرجحت كفة المماليك، وتمكنوا من القضاء على جميع الدويلات اليمنية القائمة في ذلك الحين، وعلى رأسها الدولة الطاهرية. وقد مكث ذلك الرحّال في السجن ثلاثة أشهر، ثم أطلق سراحه، وتمكن من الطواف في اليمن، فزار صنعاء، ثم تعز فزبيد، ومنها صعد في الجبال إلى ذمار. ومن ذمار عاد إلى عدن، ليغادرها نحو الهند. وتضمن وصفه لرحلته معلومات جغرافية عديمة القيمة، كما قدم، بصورة عرضية، معلومات أخرى غير ذات بال. فلم يكن مهتماً، اهتماماً حقيقياً بتدوين معلومات دقيقة، بقدر ماكان مهتماً بتقديم وصف لمعاناته الشخصية، خلال تلك الرحلة.

وتلت رحلة ذلك الإيطالي رحلة فرنسية عام ١٧٠٨م، هي الرحلة الأولى التي قام بها الفرنسيون إلى اليمن. ثم قاموا برحلة أخرى عام ١٧١٢م، توجت بنتائج ذات قيمة من الناحية

العلمية. حيث وصلت، في ذلك العام، سفينتان فرنسيتان إلى ميناء المخا. وبطلب من الإمام المهدي، محمد بن الحسن، الذي كان يعاني من ورم في أذنه، سافرت مجموعة من الفرنسيين، على رأسها الضابط الفرنسي دي لاجريلوديري **de la Grelaudiere**، الذي كان يعمل رئيساً للحرس في جامعة بوندشيري في الهند، والتحق بالسفينتين ليعود معهما إلى فرنسا. وضمت المجموعة ممرضاً، قام بمعالجة الإمام، في عاصمته، قرية المواهب، القريبة من مدينة ذمار. وسجلت هذه الرحلة معلومات قيمة عن اليمن، من النواحي السياسية والجغرافية والإجتماعية والإقتصادية، كما سجلت وصفاً دقيقاً، مدعماً بالرسوم التوضيحية، لشجرة البن، يعتبر أول وصف علمي لهذه الشجرة، التي بفضلها عرف الأوربيون اليمن، في ذلك الزمن، كما عرفوا ميناءه الشهير (المخا)، الذي أصبح اسمه إسماً لقهوة البن، المتميز بجودته، في العالم.

أما الرحلة الأكثر أهمية في تاريخ الرحلات الأوربية إلى اليمن، فهي رحلة البعثة الدينماركية، عام ١٧٦٣م، التي ضمت ثلاثة علماء متخصصين، ومعهم رسام وطبيب وطباخ، وصلوا إلى ميناء اللحية في ٢٩ ديسمبر عام ١٧٦٢م، ولقي خمسة منهم نهايتهم، بسبب مرض الملاريا، الذي نشب في أجسادهم في سهول تهامة، ولم ينج منهم سوى كارستن نيبور، وهو أكثرهم شهرة، فيما بعد. فقد تولى بمفرده اتمام مهمة البعثة، وأصدر عام ١٧٧٢م، بعد عودته إلى أوربا، وصفاً للرحلة، في ثلاثة مجلدات، إضافة إلى مجلد رابع، أجاب فيه على مئة سؤال، شملت مختلف المجالات الجغرافية والطبيعية والإجتماعية والتاريخية واللغوية، كانت قد وُجهت إلى البعثة، قبل مغادرتها كوبنهاجن، من علماء في مختلف الجامعات الأوربية. وما تزال تلك الرحلة تحتل المرتبة الأولى في تاريخ الرحلات الأوربية إلى اليمن، لشمول نتائجها العلمية، ولما حققته من سبق في تقديم وصف علمي لليمن أرضاً وبشراً، بموضوعية، افتقرت إليها بعض الرحلات اللاحقة، وماتزال دليلاً لاغنى عنه، حتى اليوم، لكل الرحالة والباحثين، المهتمين باليمن[1].

وفي عام ١٨١٠م قدم إلى اليمن العالم الألماني أولرش سيتزن، الذي انطلق من الحديدة إلى زبيد وضوران وصنعاء وذمار ويريم وتعز ثم عدن، ومنها إلى المخا. ولقي حتفه وهو في طريقه من المخا إلى تعز. وكان في نيته أن يتجه إلى مأرب، لمشاهدة السد القديم، ثم يواصل رحلته إلى حضرموت، ومنها إلى عمان والساحل الممتد إلى الخليج العربي، ثم يعود عن طريق البحر، من ميناء

---

(1) للإطلاع على وقائع الرحلة ونتائجها العلمية، أنظر كتابنا (المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠م).

مسقط إلى المخا، كما أوضح ذلك في رسالة كتبها وهو في المخا، بتاريخ ١٧ نوفمبر ١٨١٠م. ولكن مقتله في ظروف غامضة، لم تُعرف تفاصيلها حتى اليوم، حال دون تحقيق رغبته.

وفي عام ١٨٢٥م ، وصل إلى اللحية، عن طريق القنفذة، باحث في علم النبات، هو إيرنبيرج هيمبرش **Ehrenberg Hemprich**، لم تعط رحلته اهتماماً يذكر. ويبدو أنها لم تحرز نتائج تستحق الإهتمام.

وفي عام ١٨٣٤م كُلف ضابط البحرية البريطاني، ولستد **L.R.Wellstedt**، بعمل قياسات لشواطئ شبه الجزيرة العربية. وخلال مهمته تلك زار الشواطئ اليمنية، في عامي ١٨٣٤م و ١٨٣٥م، وتمكن من القيام برحلات قصيرة إلى المناطق الداخلية، كان أهمها تلك الرحلة، التي زارفيها حصن الغراب، في حضرموت، مصطحباً معه كل من هولتن **Hulton** و كروتندن **Cruttenden**، وهما رحّالان إنجليزيان، تابعان أيضاً للبعثة الإنجليزية، المكلفة بعمل قياسات لشواطئ شبه الجزيرة العربية. وعثر ولستد في حصن الغراب على نقوش يمنية قديمة، من بينها نقش، على درجة عالية من الأهمية، مكون من عشرة أسطر، قام كل من هولتن وكروتندن بنسخه، وعرف فيما بعد ب(نقش حصن الغراب). وتمكن ولستد بعد ذلك من زيارة بعض المواقع الأثرية القريبة من حصن الغراب.

وفي عام ١٨٣٦م قام الإنجليزيان هولتن وكروتندن برحلة، انطلقت من المخا، عبر بيت الفقيه، إلى صنعاء. وعادا من صنعاء على الطريق نفسه. وعثر كروتندن في صنعاء على بعض النقوش، كما شاهد في حديقة الإمام رأس تمثال قديم، مصنوع من المرمر، جُلب من منطقة مأرب.

وفي العام نفسه، ١٨٣٦م قدم إلى اليمن مبشر يهودي، ألماني الجنسية، إسمه يوسف فولف**Joseph Wolff**، سلك في رحلته، من المخا إلى صنعاء، الطريق نفسه، الذي سلكه كل من هولتن وكروتندن، مصطحباً معه أربعة جمال، محملة بنسخ من التورات، لتوزيعها على الجماعات اليهودية في اليمن.

أما عالم النبات الفرنسي، باول إميل بوتا **Paul Emile Botta**، فقد تمكن عام ١٨٣٧، رغم عدم توغله في داخل اليمن، تمكن من زيارة جبل صبر و جمع أنواعاً من النباتات، لم تكن قد عرفت في أوربا، حتى ذلك الحين.

وفي عام ١٨٤٣م توغل الرحّال الألماني أدولف فون فريده **Adolf von Wrede**، في حضرموت وزار مناطق لم تطأها قدم أوربي قبله، ولم تطأها لوقت طويل بعده. ورغم إنجازه العلمي الكبير، فقد جوبهت جهوده بالتجاهل، الذي بلغ حد اتهامه بالغش والكذب. ولم يقبل أحد من الناشرين في بلده نشر مادونه عن رحلته. ولما عثر على ناشر إنجليزي، أبدى استعداده لنشر نتائج

تلك الرحلة، ضرب فريده سوء الحظ مرة أخرى، عندما انتحر المترجم، الذي كان مكباً على ترجمة نتائج الرحلة إلى الإنجليزية، وبموته اختفت معه الخرائط والرسومات، التي أعدها فريده، ولم يكتب لتفاصيل الرحلة أن تظهر باللغة الإنجليزية. واختفى فريده ومعه نتائج رحلته، بعد أن عمل لبعض الوقت في خدمة أحد النبلاء، في مقاطعة فستفاليا الألمانية. ولكن رحلة فريده أخذت مكانها، الذي تستحقه، عندما سلط الرحّال الألماني هاينرش فون مالتسان **Heinrich von Maltzan** الضوء عليها، بعد أن تمكن من العثور على تفاصيلها ونشرها، عام ١٨٧٠م. أما فريده نفسه فلم يعلم أحد عن مصيره شيئاً. وحظيت رحلة فريده أخيراً، باهتمام من قبل الأوساط العلمية، لم يحظ به صاحبها. وتضمنت نتائج الرحلة، في ما تضمنته، تفاصيل دقيقة عن حياة الجماعات البدوية في حضرموت وعن عاداها وتقاليدها، كما تضمنت معلومات وملاحظات قيمة، عن الأرض والسكان وتحديد بعض المواقع الأثرية والنقوش اليمنية القديمة.

وفي العام نفسه، ١٨٤٣م، الذي تجول فيه فريده في حضرموت، زار اليمن الرحّال الفرنسي يوسف أرنود **Joseph Arnaud**، الذي كان أول رحّال أوربي تمكن من الوصول إلى مأرب، عاصمة السبئيين، إذا ماastثنينا ماقيل عن وصول سيتزن قبله، وهو أمر لا يتوفر دليل مؤكد عليه. فقد لقي سيتزن حتفه وهو في طريقه من المخا إلى تعز، كما أسلفنا. وباختفائه اختفت حقيقة وصوله أو عدم وصوله إلى مأرب. أما أرنود فقد بلغ مأرب، وكان ذلك فتحاً جديداً. فقد ظلت الرحلات، حتى مجيئ أرنود، تدور في المنطقة نفسها، الممتدة من عدن إلى صنعاء، إلى اللحية، إلى المخا، ثم حضرموت. مع أن معظم المناطق الغنية بالآثار القديمة تقع خارج حدود هذه المنطقة. وهذا يفسر ضآلة ما أمكن جمعه من نقوش يمنية، قبل رحلة أرنود. وتمكن أرنود من السفر من صنعاء إلى مأرب، بمرافقة بعض من رجال القبائل، الذين ضمنوا سلامته. وبفضلهم تمكن من زيارة مأرب وما حولها وشاهد آثار حرم بلقيس وسد مأرب، وغيرهما من الآثار، ونسخ بعض النقوش. وعاد إلى صنعاء مع قافلة، من القوافل المحملة بالملح الصخري، عبر صرواح، التي شاهد آثارها ونسخ بعض نقوشها. فكان بذلك أول أوربي زار تلك المناطق وحمل منها نسخاً لستة وخمسين نقشاً يمنياً، شكلت فتحاً جديداً في الدراسات اليمنية القديمة.

وفي عام ١٨٦٠م تمكن ضابط إنجليزي أن يجمع حوالي أربعين لوحاً برونزياً، أغلبها من منطقة عمران، أودعت فيما بعد في المتحف البريطاني.

وفي نهاية عام ١٨٦٩م. قدم إلى اليمن الرحّال الفرنسي، اليهودي الديانة، يوسف هاليفي **Joseph Halevy**، ليتابع خطى من سبقوه ويقدم إنجازات، تتخطى كل ما أنجزوه، حتى ذلك الحين، لاسيما في مجال نسخ النقوش اليمنية القديمة. إضافة إلى ماجمعه من معلومات اجتماعية وجغرافية وتاريخية، عبر رحلة، اتسمت بالمغامرة، طرق فيها مناطق لم يطرقها أحد من الرحّالة قبله، فتنقل في مناطق الجوف، حتى وصل نجران، وعاد من نجران، عبر الجوف أيضاً، حتى بلغ مأرب.

ومن مأرب عاد إلى صنعاء، بعد أن تمكن من نسخ مئات النقوش (٦٨٦نقشاً) واكتشف آثار مدن قديمة، تعتبر من أهم مدن الحضارة اليمنية، كبراقش ومعين وغيرهما.

وتبع هاليفي سلسلة من الرحّالة، تكاثرت أعدادهم وزاد اهتمامهم باستكشاف اليمن أرضاً وإنساناً وتاريخاً. فشهدت عقود سبعينيات وثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر رحلات متلاحقة، قام بها: الألماني مالتسان **Maltzan** (١٨٧٢م)، في مناطق اليمن الساحلية،من عدن إلى حضرموت. والإنجليزي ميلينجن **Millingen** (١٨٧٣م)، من الحديدة إلى صنعاء وكوكبان، ثم العودة إلى الحديدة. والإيطالي مانزوني **Manzoni**، الذي قام بثلاث رحلات، خلال الأعوام ١٨٧٧م _ ١٨٨٠م، إنطلاقاً من عدن، وزار مناطق عديدة، منها الحوطة وتعز وذمار وصنعاء ومناخة والحديدة، واهتم بدراسة اللهجات اليمنية. وتاجر الكتب والتحف القديمة، اليهودي الفلسطيني شابيرا **Schapira**، الذي انطلق أيضاً من عدن، عام ١٨٧٩م، إلى صنعاء وعمران وكوكبان والطويلة، ثم صنعاء ومنها إلى الحديدة، عبر مناخة. وزيجفرد لانجر **Siegfried Langer**، الذي بدأ رحلته عام ١٨٨٢م من الحديدة إلى صنعاء، عبر بيت الفقيه وضوران. وأراد أن يزور ريدة وصعدة، ولكن الوالي التركي، منعه من ذلك، خوفاً من أن يصيبه مكروه، وامره أن يغادر صنعاء إلى الحديدة. فعاد عبر مناخة، واتجه من الحديدة إلى عدن. ومن عدن أراد أن يبلغ حضرموت، عبر لحج ويافع. ولكنه قتل قرب وادي بناء. وفي العام، الذي لقي فيه لانجر مصرعه، قدم إلى اليمن إدوارد جلازر **Eduard Glaser**، في رحلة امتدت من عام ١٨٨٢م، حتى عام ١٨٨٤م، زار خلالها الحديدة ومناخة وصنعاء وعمران وصعدة وخمر والطويلة وحجة. ثم أتبعها برحلة ثانية، من عام ١٨٨٥م حتى عام١٨٨٦م، ورحلة ثالثة، من عام ١٨٨٧م حتى عام ١٨٨٨م، ورحلة رابعة، من عام ١٨٩٢م حتى عام ١٨٩٤م. وتعتبر رحلات جلازر من أهم الرحلات، التي قام بها الرحّالة الأوربيون إلى اليمن، من حيث نتائجها العلمية. وخلال السنوات التي شهدت رحلات جلازر العلمية، زار اليمن عدد من الرحّالة، منهم: المبشر الإنجليزي هيج **Haig**، عام ١٨٨٧م. والفرنسي دفلرس **Deflers**، مرة في عام ١٨٨٧م، ومرة أخرى عام ١٨٩٤م. والألماني شفاينفورث **Schweinfurth**، بين عامي ١٨٨٨م و ١٨٨٩م. والإنجليزي هارس **Harris**، عام ١٨٩٢م. والإيطالي روسّي **Rossi**، عام ١٨٩٧م. واستهل القرن العشرين، الرحّال الألماني **Hermann Burchardt**، الذي قام برحلتين، الأولى عام ١٨٩١م، والثانية عام ١٩٠٩م. وهناك إشارات إلى أنه قام برحلة عام ١٩٠٢م. ولكننا لم نعثر على ما يؤكد ذلك وقد انتهت رحلته الأخيرة عام ١٩٠٩م بقتله، قرب وادي الدور، في منطقة العدين، وقتل معه رفيق رحلته، الإيطالي بنزوني **Benzoni** ، الذي رافقه من المخا، عبر تعز وإب، باتجاه العدين، التي لم يبلغاها.

وتتابعت رحلات الرحّالة الأوربيين إلى اليمن، على امتداد النصف الأول من القرن العشرين. ولعل أشهرهم العالمان الألمانيان، فـون فيـسمن **von Wissmann** وكـارل راثيـنس **Carl Rathjens**، اللذان زارا اليمن مراراً عديدة، اعتباراً من نهاية عشرينيات القرن الماضي. وخلفـا دراسات علمية متميزة، عن اليمن. وقد سبق أن تناولت في كتابي (العلاقات اليمنية الألمانية) شطراً من حياة كارل راثينس، وعلاقته بالإمام يحي بن محمد حميد الدين، وما كُلف به، من قبل الإمـام، من مهام في أوربا، اضطر إلى القيام بها تطوعاً، نظراً لعدم وجود تمثيل دبلوماسي خارجي لليمن في ذلك الحين، ودون مقابل مالي، نظراً لطبيعة الإمام يحي، المعروفة(2).

وقد لفت نظري التغيير الواضح، الذي حدث بعد ثورة ١٩٦٢م ، في اهتمامـات الرحّالـة الأجانب. إلى درجة أنني يمكن أن أتردد في إطلاق صفة الرحّالة عليهم، بعد ذلك التـاريخ. فقـد أصبح الطابع الغالب لاهتماماتهم، هو طابع البحث العلمي، لا الرحلات الإستكشافية. فـشهدت عقود مابعد الثورة، قدوم عدد كبير من طلاب الدراسات العليا ومن الأساتذة الجامعيين والباحثين. كل منهم قدم لدراسة موضوع محدد. فنشط بذلك البحث العلمي، ونُشرت العديد من الكتـب والبحوث العلمية حول اليمن، بمختلف اللغات الحية. وقد ضمنت هذا الكتاب نموذجاً من تلـك البحوث، كنت قد ترجمته ونشرته، في مجلة دراسات يمنية، في شهر سبتمبرعام ١٩٨٣م، وهو بحث عن الطب التقليدي في اليمن، أعده الباحث الألماني الدكتور أرمن شوبن **Armin Schopen**.

ومن بين الرحلات الكثيرة، التي قام بها الأوربيون، منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وحتى القرن العشرين، اخترت عدداً محدوداً، يفي بالغرض من هذا الكتاب، وهو التعـرف علـى نظرة الأوربيين إلى اليمن أرضاً وإنساناً، من خلال مادونوه، أثناء تجوالهم في مناطقه المختلفـة. وفي هذا السياق وجدت تميزاً في نظرة شيخ الرحّالة كارستن نيبور **Carsten Niebuh**، الذي حاول جاهداً أن يتفهم طبيعة الإنسان اليمني ويتبين ملامح شخصيته، من خلال الإطار الثقافي، الـذي ينتمي إليه اليمنيون، لامن خلا الإطار الثقافي الأوربي. فعبر بذلك عن نظرة موضوعية، وعن قدرة عالية على فهم الآخرين، وقدر يثير الدهشة، من التواضع والإحساس الإنساني، اللذين افتقر إليهما كثير من الرحّالة. ولهذا حرصت على أن أضم إلى هذا الكتاب بعض ماسجله نيبور عن الشخصية اليمنية، رغم أن ماضممته هنا، مجرد وريقات قليلة، سبق نشرها، في كتابي المكرس لرحلة نيبـور، التي قام بها مع رفاقه، أعضاء البعثة العلمية الدينماركية عام ١٧٦٣م. ولعل حرصي هذا يرجع إلى سببين: أولهما ماتميز به نيبور، من قيم أخلاقية، تستحق التقدير، وتفرض على المرء أن لايغفله، عند الحديث عن الرحلات والرحّالين الأوربيين. وثانيهما أن صدور كتاب، يستعرض أهـم رحـلات الأوربيين إلى اليمن، سيبقى ناقصاً إذا غابت عنه رحلة نيبور، التي تعتبر من أهم الـرحلات، إذا لم

---

(2) أنظر كتابنا، العلاقات اليمنية الألمانية (١٩٢٧م ــ ١٩٤٠م)، دراسة وثائقية، القاهرة، ١٩٩٢م.

تكن أهمها على الإطلاق، لما مثلته من فتح جديد، ومن ريادة، لا يستطيع أحد حتى اليوم، رغم كثرة الرحلات، التي تلتها، أن ينكرها أو ينكر تميزها. ويمكن أن أضيف سبباً ثالثاً، إلى السببين المذكورين، وهو ضرورة التأكيد على ملامح الشخصية اليمنية، التي رسمها نيبور، من خلال اتصاله المباشر بالإنسان اليمني، وهي ملامح لابد أن يدفعنا اعتزازنا بها، إلى المحافظة عليها، والعناية بها، في تربيتنا المترلية وفي مناهجنا الدراسية، وفي سلوكنا اليومي.

ولعل القارئ لن يندهش، عندما يلاحظ بأني قد استهللت موضوعات الرحّالة الأجانب، وجميعهم جاؤوا من الغرب، برحلة وحيدة، جاءت من الشرق، في زمن مغرق في القدم (القرن العاشر قبل الميلاد). وهي رحلة قصدت من وضعها في مستهل هذا الكتاب، التأكيد على روابطنا، التي أهملت، ببلدان الشرق وانتمائنا التاريخي إليه، وضرورة الإهتمام به، ثقافة وسياسة واقتصاداً. لعلنا بذلك نعيد وصل ماانقطع، ونعزز موقفنا، في علاقاتنا مع الغرب، التي اتسمت بعدم التكافؤ واختلال التوازن، في جميع النواحي السياسية والإقتصادية والثقافية. وليس بخاف اليوم أن ماوصلنا إليه في العصر الحديث، من أوضاع غير ملائمة، ، يرجع في جزء كبير منه، إلى عدم التكافؤ واختلال التوازن، في هذه العلاقات.

وسيلاحظ القارئ أيضاً أنني وضعت مقدمة تعريفية لبعض الرحّالة، ولم أضع لآخرين. والسبب في هذا أنني تمكنت من العثور على معلومات عن البعض، ولم أفلح في الحصول على معلومات عن البعض الآخر. وكنت أمام خيارين: فإما أن أصرف النظر عن وضع مقدمات للرحلات جميعها، على القاعدة، التي نلزم أنفسنا بها عادة، عند إعداد البحوث العلمية، وهي (انتهاج طريقة واحدة في كل البحث)، أو أن أضع مقدمة، حيث يمكنني ذلك، وأصرف النظر، حيث تقف أمامي صعوبة العثور على معلومات كافية، تمكنني من التعريف بالرحّال، تعريفاً معقولاً. وقد رجحت الخيار الثاني، على قاعدة (مالايدرك جله، لايترك كله).

كما سيلاحظ القارئ أنني ترجمت بعض الرحلات ترجمة حرفية، وبعضها الآخر اكتفيت بعرضها، عرضاً لايبعد كثيراً عن الترجمة الحرفية. والسبب هو أن الرحلات الأخيرة هذه كانت قد نشرت بالصورة، التي سيقف عليها القارئ في هذا الكتاب، ولم أر مايدعو إلى إحداث تغيير فيها، فأبقيتها هنا، على الصورة نفسها، التي نُشرت بها من قبل.

أما الهوامش، فهي جميعها هوامش مضافة مني إلى الترجمة. ماعدا هوامش الموضوع الأخير، وهو بحث الدكتور أرمن شوبن، عن (الطب التقليدي في الجمهورية اليمنية)، فهي من وضع الباحث نفسه. ولكي أميزها عن سواها من هوامش الكتاب، ألحقتها مباشرة في نهاية البحث.

وأود هنا أن أكرر ماسبق أن لفت الإنتباه إليه مراراً عديدة، في كتابات سابقة. وهو الصعوبة، التي يواجهها من يقوم بترجمة كتابات الرحالة الأجانب، في ضبط أسماء الأماكن. فاعتماد الرحّال على السماع في كتابة الإسم بالحروف اللاتينية، يؤدي إلى وقوعه في أخطاء، تجعل ارجاع الإسم

بعد ذلك إلى أصله العربي أمراً صعباً، وأحياناً مستحيلاً، بسبب اختلاف اللهجات، وبالتالي مخارج الحروف، من منطقة إلى أخرى في اليمن، واشتمال الأبجدية العربية على حروف، غير موجودة في اللغات الأوربية، فتعجز أذن الرحّال عن التقاطها، ويستحيل عليه كتابتها بالحروف اللاتينية، حتى لو تمكن من التقاطها. وفي معظم الأحيان، ومن خلال التجربة لايفيد الرجوع إلى الخرائط، ولا معاجم البلدان، ولاحتى سؤال المواطنين في المنطقة، التي مر منها الرحّال. فقد تبين، من خلال الإستفسار، أن طرقاً ذكرت، لم تعد مطروقة، وقرى إما اندثرت أو أخذت أسماء جديدة، ووديانا ومناطق لم تعد معروفة بأسمائها القديمة. ولمواجهة هذه الصعوبة سلكت في الترجمات، التي سبق نشرها، مسلكاً ظننته معقولاً. فالإسم، الذي اعتقدت أنني قد أفلحت في التعرف عليه، وضعته باللغة العربية، والإسم، الذي تولد لدي بعض الشك حوله، مع شيئ من الترجيح حياله، وضعته، على سبيل الحيطة، باللغة العربية وبالحروف اللاتينية، جنباً إلى جنب. أما الإسم، الذي لم أعتقد بأني قد تعرفت عليه، ولم أطمئن إلى أي ترجيح حياله، فقد وضعته بالحروف اللاتينة وحسب. وقد تأكد لي فيما بعد، أنه قد جانبني الصواب، في بعض مااعتقدته ومارجحته. فرأيت أنه قد يكون من الأسلم أن أبقي الإسم بالحروف اللاتينية ، تماماً كما كتبه الرحّال نفسه، تاركاً للقارئ مهمة قراءته، كما هو في النص الأجنبي، لعله يكون أقدر مني في التعرف على أصله العربي. ولم أستثن من هذه الطريقة سوى الأسماء المعروفة والمشهورة، التي لايمكن أن يخطئ المرء في التعرف عليها، حتى وإن تباينت صور كتابتها، من رحّال إلى آخر، مثل صنعاء وعدن والحديدة والمخا وبيت الفقيه وأمثالها، وكذا الأسماء، التي حرص الرحّال نفسه على ضبط كتابتها بالحروف ا لعربية.

وأخيراً أتمنى أن أكون قد أسهمت بهذا الجهد المتواضع، في لفت النظر إلى ماكتب ويكتب عن اليمن، في الشرق وفي الغرب، من معلومات، بعضها دقيق وبعضها غير دقيق، بعضها نزيه وبعضها غير نزيه، بعضها موضوعي، وبعضها الآخر كتب تحت تأثير الأوهام والأحكام المسبقة. الأمر الذي يلقي على كواهل القادرين منا، من الأكاديميين والباحثين والمثقفين، مهمة غربلة كل ماكتب عن اليمن، وتصحيح مايتوجب تصحيحه. حتى لايبقى بأخطائه، مصدراً معتمداً للباحثين، ومرجعاً غير دقيق، لمن يرغب في التعرف على اليمن وأهله، فلا يكتسب إلا معرفة مشوهة، بسبب تقاعس القادرين من أبناء اليمن: ولم أر في عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام.

والله من وراء القصد

أحمد قايد الصايدي

صنعاء ٢٢/٥/٢٠١٠م

رحلة الملك الصيني (moوانج) إلى بلاد الملكة الأم، ملكة سبأ

تأليف فون أ. فوركه
Von A. Forke

مقدمة:

نهضت أوربا نهضتها الحديثة، وأخذت تبني حضارتها وتمدنها، على قواعد حضارة العرب وإنجازاتهم العلمية، وأخذ العرب يتراجعون إلى كهوف التخلف، شيئاً فشيئاً، حتى نسوا ماضيهم المجيد وتقطعت الصلة، بينهم وبين كل إنجازاتهم ومساهماتهم، المؤثرة في مسيرة الحضارة البشرية، فأصبحوا غرباء على كل علم، جاهلين لكل فن من الفنون، التي كانوا قد برعوا و أبدعوا فيها وتتلمذ العالم على أيديهم. وغدوا ينظرون إلى التقدم الأوربي بذهول واندهاش، و بإحساس مرضي بالدونية والعجز.

منذ ذلك الحين انشدّت الأنظار إلى أوربا، وأصبح الإقتداء بالأوربيين والتشبه بهم، ولو تشبهاً مظهرياً، مدعاة للتميز والتباهي. ولانقطاع صلتنا بمخزوننا الحضاري، الذي امتزجت فيه مختلف حضارات الشرق والغرب، عدا عن حضارات العرب القدماء، في اليمن وأرض الرافدين ومصر، جهلنا روابطنا المتينة بالشرق، وخيل إلينا أن أوربا وحضارتها هي البدء وهي المنتهى. ولم نعد ندرك أننا جزء من الشرق، بانتصاراته وانكساراته، بحضاراته وتخلفه، وأن وشائجنا معه، هي الأقوى والأسبق والأبقى. ونظراً لحالتنا العقلية هذه، ولارتباط حياتنا الحديثة بالعالم الغربي، سياسة وصناعة وأسواقاً وتعليماً، أخذنا نرصد كل شيء يدخل ضمن هذه العلاقة، صغر أو كبر. وكان من الطبيعي أن تكون رحلات واستكشافات الرحالة والمستكشفين الغربيين لأقطارنا العربية، واحدة من تلك الأشياء، التي شدّت اهتمامنا. ولم نستطع أن نلتفت إلى الشرق، الذي نحن جزء منه ، تربطنا به وشائج أقوى وأقدم. ولم نعد نهتم بعلاقاتنا المغرقة في القدم، التي يجب احياؤها، كجزء من حالة الدفاع عن النفس والذات، تجاه جبروت الغرب وطغيانه، ولا بمصالحنا المشتركة، التي يجب تعزيزها، في محاولة لخلخلة قبضة المصالح الغربية الممسكة بخناقنا. إن الإلتفات إلى المحيط الشرقي

وإلى ما يربطنا به تاريخاً ومصيراً، يبدأ بالتفتيش عن تلك الروابط المغرقة في القدم. وكما نهتم بدراسة وترجمة الرحلات القادمة من الغرب، ربما لانشدادنا إلى الغرب، وربما لتوفرها ولإمكانية الحصول عليها دون عناء، فإن التفتيش عن رحلاتنا القديمة والحديثة إلى الشرق، ورحلات الشرق إلينا، من شأنه أن يسهم في ردم الهوة، التي اتسعت بيننا وبينه، وإعادة اللحمة، لخدمة الحاضر والمستقبل. كما من شأنه أن يجعل جوانب الحياة، في بلدان الشرق وشعوبها، قريبة إلى أذهاننا وتصوراتنا ووجداننا. وهو أمر هام، يمهد لإعادة اكتشاف مصالحنا المشتركة وروابطنا، التي ما كانت يوماً ضعيفة في الماضي، ويجب أن لا تبقى ضعيفة في الحاضر والمستقبل. ولابأس أن نستعين، في سعينا إلى إعادة اكتشاف الشرق وعلاقتنا به، بما كتب في الغرب عنه، مثلما استعنا ولانزال، بما كتبه الغربيون ، في إعادة اكتشاف أنفسنا والتعرف على حضارتنا. هذه بعض خواطر، جالت في ذهني، وأنا أقرأ قصة الرحلة، التي قام بها الملك الصيني مووانج، إلى العربية السعيدة، في القرن العاشر قبل الميلاد، وزار خلالها بلاط ملكة سبأ وأكل على شاطئ بحيرتها الإصطناعية (سد مأرب) واصطاد في جبال اليمن وسهولها، وسجل مؤرخوه وقائع هذه الرحلة، مشوبة بالخيال، متداخلة بالأسطورة، ولكنها مبنية على واقعة تاريخية، حتى وإن بهتت تفاصيلها، بفعل العديد من الإضافات، التي فعل فيها الخيال فعله، والتي بلغت أوجها في التزاوج بين الحقيقة والأسطورة، في عملية تحويل ملكة سبأ إلى الإلهة شيبا أو سيبا، ومانسج حولها من أساطير، استقرت في الذهن الشعبي الصيني وشعوب البلدان المجاورة ، ولا تزال امتداداتها موجودة حتى اليوم، كجزء من الإرث الثقافي لتلك الشعوب، رغم انقطاع الصلة، بين هذه الأساطير وبين منبعها الأول، بلاد العربية السعيدة، وملكتها السبئية.

ولأترك القارئ بين يدي الرحلة، أو بالأصح الدراسة، التي أعدها فون أ. فوركه، ونشرها عام ١٩٠٤ م، بعد أن جمع أجزاء مادتها مما نقش عن الرحلة على قصب الخيزران، واستعان، في مناقشاته لوقائع وتفاصيل الرحلة، بالعديد من المراجع التاريخية الصينية القديمة.

الرحلة:

منذ القدم لم تقتصر علاقات الصين على الدول المجاورة لها، بل امتدت إلى البلدان البعيدة. ورغم النظام الصيني المنغلق، تجاه التأثيرات الخارجية، فقد عملت الصين على إقامة علاقات سياسية وتجارية، حتى مع البلدان الأجنبية، التي لم تكن تربطها أية صلة بها. وهكذا فإن تلك الإمبراطورية الشرقية العظيمة لم تكن تعيش، في أي وقت من الأوقات، في عزلة مطلقة، كما كان يُعتقد .

وتعتبر الروايات الكثيرة، حول الشعوب الأجنبية، التي تحتويها كتب التاريخ الرسمي، وبعضها ذات قيمة تاريخية عالية، تعتبر شاهداً حياً على ذلك. ومن هذه الروايات، الرواية المعروفة، عن بعثة تانج شين، إلى تركستان وفرغانة وسوجينيا وبكتيا وبارتيا، في عام ١٢٢ ق. م.، والرواية الأخرى، عن بعثة كان ينج، السيئة الحظ، إلى الأمبراطورية الرومانية، عام ٩٧ ق. م.، التي لم تبلغ البلاط الروماني، بسبب عدم معرفتها بالطريق البحري، عبر المحيط.

أما بالنسبة للعرب فقد عرفهم الصينيون عن قرب، بعد أن استولت دولة الخلافة الإسلامية على أرض الفرس وتوغلت في قلب آسيا وأصبح العرب تقريباً جيراناً للصينين. وقد أورد المؤرخون الصينيون في مؤلفاتهم أخباراً عن العرب، ابتداءاً من عهد دولة تانج الصينية (٦١٨م ــ ٩٠٧ م). وقام بريتشنايدر **Bretschneider** بتلخيص تلك الأخبار في دراسته القيمة الصادرة، في لندن عام ١٨٧١ م، بعنوان :

(The Knowledg Possessed by The ancient chinese of The Arabs and Arabien Colonies).

غير أن معرفة الصينين بالعرب وما جاورهم ترجع إلى زمن أقدم بكثير، مما أورده هؤلاء المؤرخون، يصل في رأيي إلى القرن العاشر قبل الميلاد. وهو ماأعتقد أن بإمكاني إثباته، في ما سأورده هنا. وبالطبع فإن تتبع هذه الصلة في المادة التاريخية ليس بالأمر الهين، بل إن الأمر يحتاج إلى جهود كبيرة. ومع ذلك فإني أعتقد أن بالإمكان استخلاص نفس النتائج، التي يمكن أن تصل إليها الأبحاث المستفيضة. وذلك من المعلومات المتناثرة، المتوفرة لنا حتى الآن.

ومن الصعوبات الكبيرة، التي تواجه الجهود البحثية، تلك الصعوبة، المتمثلة في تعمد الصينيين تسمية البلدان والشعوب الأجنبية بأسماء مختلفة تماماً عن أسمائها المعروفة لنا. ليس هذا فحسب، بل وتغييرهم لهذه الأسماء، بتغير الأسر الصينية الحاكمة. فدولة الخلافة الإسلامية كان يطلق عليها، في عهد دولة تانج (تاشيه كو). وخلال حكم المنغوليين (١٢٨٠م ــ ١٣٦٨م) سميت بلاد العرب

(تين فانج). وفي عهد دولة المنج (١٣٦٨م ـ ١٦٢٨م) سميت (تين فانج، أو تين تانج). وسميت مكة (موشيا)، وتسمى الآن، وفقاً للنطق الأوربي (آ ـ لا ـ بي). وفي الغالب لا يعرف الكتاب الصينيون أن هذه الأسماء المختلفة تعني البلد نفسه.

ونظراً لعدم امتلاكهم المعرفة، الكافية بالكتب التاريخية والجغرافية واللغوية، فان معظم مؤلفاتهم ذاتها، التي تتناول تاريخ الشعوب الأجنبية، مبهمة للغاية. وحتى عالم الدراسات الصينية الأوروبي، يجد صعوبة بالغة في التعرف على المواقع الجغرافية، استناداً إلى أسمائها الصينية، رغم الإمكانيات العلمية المتوفرة له. إذ يجد نفسه مضطراً إلى البحث، من خلال السياق، الذي أورده المؤلف، ومن خلال الوصف، الذي غالباً ما يكون غير دقيق، عن معنى يمكن فهمه.

ويبدو استناداً إلى المصادر الصينية، أن معرفتهم الأولى ببلاد العرب قد توفرت لهم، من خلال الرحلة الشهيرة، للملك مووانج ، ملك شو (١٠٠١ ـ ٩٤٦ ق. م)، التي قام بها إلى الغرب البعيد ، عام ٩٨٥ ق. م.. وفي شرح قديم، للمادة المدونة على قصب الخيزران ، قدّر الشارح مسافة الرحلة ذهاباً وإياباً بـــ ١٩٠ ألف لي ، أي ما يعادل ٩٥ ألف كيلومتر، وهذا التقدير بطبيعة الحال تقدير مبالغ فيه للغاية، إلا أنه رغم ذلك يرينا كم هي بعيدة، في تصور الشارح، تلك البلاد، التي وصل إليها مووانج. وفي تلك البلاد زار الملك الملكة (سي وانج مو)، التي يمكن ترجمة اسمها حرفياً بـــ (الملكة الأم، ملكة الغرب). وكان لهذه الرحلة تأثير عميق في نفوس الشعب الصيني. وما لبثت (سي وانج مو) أن أصبحت شخصية اسطورية، وتحولت إلى إلهة ذات جلال وبهاء، تحلق فوق عالم غامر بالسعادة والهناء.

ففي ذلك الزمن، عندما وصل الملك إلى الغرب البعيد، كانت تحكم هناك ملكة عظيمة، وصف الإنجيل، في سفر الملوك، الإصحاح العاشر، بلاطها الفخم، اسمها بلقيس، ملكة سبأ، صديقة سليمان. أفلا نكون مصيبين الآن، إذا قلنا أن (سي وانج مو)، التي استقبلت الملك مووانج، ليست إلا ملكة سبأ المشهورة ؟.

ولعل الصينيين قبل مووانج لم يكونوا قد غادروا مرتفعات وسط آسيا، ولذا لم يكن لديهم تصور، بأن هناك خارج الصين أمماً متحضرة. ولابد أنهم كانوا يتصورون، أن خارج الصين مجرد بلدان قاحلة، مسكونة بجماعات متوحشة، تماماً مثلما هو حال الجماعات المجاورة للصين. والآن تمكن ملكهم من زيارة بلد غني مزدهر. ليس هذا فحسب، بل وتحكمه ملكة. وكان لا بد لهذا

الإكتشاف العجيب، من أن يؤثر تأثيراً قوياً في الخيال الشعبي للصينيين. وأصبحت المعلومات، حول غنى مملكة سبأ ونباتاتها النادرة وحيواناتها وسكانها، مادة غنية لنسج العديد من الأساطير. وهكذا أدخل الخيال تحويراً على شخصية الملكة، وحولها إلى الإلهة (سي وانج مو).

والآلهة، وكذا الجان، في الأساطير اليونانية، هي عبارة عن جبال أو أنهار أو نجوم أو بعض قوى ومظاهر الطبيعة، تم تشخيصها، أي تحويلها إلى شخصيات (آلهة أو جان)، أو هي عبارة عن بشر، تم رفعهم إلى مستوى الآلهة، وأضيفت إليهم صفة الحياة الخالدة. ويكفي أن نتذكر هنا الثمانية الآلهة الخالدين، وكذا كوان يو، في زمن الأمبراطوريات الثلاث، الذي تحول إلى إله الحرب، كوان تي، والمهندس لوبان، معاصر كونفشيوس، في عهد دولة لو، الذي أصبح إله الحرفيين، والإلهين الحارسين لأبواب المنازل، شين شو باو و واي شيه كونج، وهما محاربان عاشا في عهد دولة تانج، وإلهة البحار ماتسو باو، التي عاشت في ماي _ شو بمقاطعة فوكين.

وتدخل (سي وانج مو) عادة في عداد أنصاف الآلهة. وبناءً على هذا يمكننا أن نفترض، بأن شخصيتها الأسطورية قد انطلقت من شخصية تاريخية حقيقية تماماً، كما هو الحال بالنسبة للآلهة التي أشرنا إليها. وليس هناك ملكة أنسب من الملكة الشهيرة، التي حكمت العربية السعيدة، تصلح ملكة لعالم الأرواح السامية المباركة.

ويبدو لي أن اسم (سي وانج مو) في حد ذاته، يؤكد أن المقصودة به هي فعلاً ملكة سبأ. فالترجمة الحرفية للإسم هي، كما ذكرنا سابقاً (الملكة الأم ، ملكة الغرب). فالحاكمة، التي سميت بهذا الإسم، تجاوزت في مكانتها وجلالها كل حكام الغرب. مما حدا بالصينيين إلى تسميتها بملكة الغرب. ولأن الصينيين عادة لا يميلون إلى إعطاء إسم غامض، كهذا الإسم، الذي لاشك أنهم قد عرفوه، لايميلون إلى إعطائه لحاكمة بلد، فإنه يبدو لي أن الإسم (سي وانج مو)، ولاسيما في مقطعه الأول (سي) يتضمن اسم بلد. فالمعنى الأساسي للإسم (سي **Si**)، هو (الغرب). ولكن يمكن أيضا أن يعني إسم منطقة معينة. فكلمة (سي **Si**) تنطق في بعض اللهجات الصينية (سا). وهذا يقترب من لفظ (سبأ) بالفتحة، كما أن اسم (سبأ) في العبرية هو (شيبا). ولما كان الصينيون يميلون، كما هو معروف، إلى اختصار الأسماء الأجنبية، فيكتفون بالمقطع الأول منها، فإن اسم الملكة الأم، ملكة سي أو سا، يمكن أن تعني ملكة سيبا أو سبأ.

ولكن لماذا تتحدث المصادر الصينية عن الملكة (الأم، ملكة سبأ)، ولا تكتفي بالحديث عن (ملكة سبأ)؟. إن الصينيين لم يعرفوا في تاريخهم أبداً حق النساء في الملك. والنساء اللاتي حكمن في بعض الفترات، إنما حكمن بوصفهن وصيات على العرش، يتعهدن الحاكم الصغير، الذي لم يبلغ سن الرشد بعد. وهذا التصور في الذهن الصيني تم إسقاطه على سبأ. ولكن الأمر لدى الساميين يختلف، في أزمنتهم القديمة. حيث كان هناك حق للمرأة في الحكم. مما يعني أنه كان يوجد نظام، تخلف النساء بموجبه الملك المتوفى، في الحكم. ولم يشر المؤرخون العرب، الذين تعتبر رواياتهم عن التاريخ القديم، روايات غير موثوقة على أي حال، لم يشيروا إلى ابن ملكة سبأ، كولي للعهد. فحسب رواية حمزة الأصفهاني، خلف الملكة في الحكم أخو والدها. أما رواية المسعودي، فتذكر أن الحكم قد آل بعدها إلى سليمان. وأما زواج الملكة من سليمان، فلا يعدو كونه خرافة، ذات طابع ديني. وتذهب الروايات، إلى أنها ابنة الملك هدهاد، وإلى أنها خلفته في الحكم. وهناك روايات أخرى، تذهب إلى أنها ابنة أمير اسمه (اليشرح).

وقد وثقت رحلة الملك مو إلى بلاد الملكة الأم، توثيقاً تاريخياً، لا يدع مجالاً للشك في صحتها. ففي الحوليات المكتوبة على قصب الخيزران، نقرأ عن هذه الرحلة، أنه في العام السابع عشر (من حكمه) قام الملك برحلة استطلاعية إلى جبال كون _ لون، وزار سي وانج مو.

وهذه الحوليات الخيزرانية، هي إحدى مصادرنا الرئيسية، عن تاريخ الصين القديم. وهي عبارة عن تدوين، يرجع إلى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، كتب بأسلوب موجز وبليغ، يترك لدى القارئ انطباعاً جيداً، ويوحي بالثقة. وفي الفترة نفسها تقريباً، أورد الفيلسوف (لي تسي) هذه الرواية :

"بعد ذلك استقبل الملك، من قبل سي وانج مو، بحفاوة بالغة. وأقامت له مأدبة، على جدول ماء جارٍ، وأنشدته خلالها أنشودة، رد عليها بأنشودة أخرى. وكانت كلمات الأنشودتين كلمات جميلة".

وتم عرض لقاء موونج بملكة سبأ، بصورة أكثر تفصيلاً، في (موتاين _ تسي شوان). وهو كتاب يتضمن وصفاً رائعاً خلاباً لرحلة الملك مو، يرجع إلى القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد. وسوف نقف عنده، وقفة أطول فيما بعد. وهذا الكتاب ليس كتاباً تاريخياً، بتفصيلاته وجزئياته، بل إن معظمه من وحي الخيال. ولكن مع ذلك فإني أعتقد أن شأنه شأن معظم ما كتب من مؤلفات

رائعة، عن تاريخنا في العصور الوسطى، يحتوي في جوهره على عنصر تاريخي. وهذا هو بيت القصيد بالنسبة لي.

ومما يستحق الذكر هنا، أن المصادر الأكثر قدماً، وكذا (موتاين _ تسي شوان)، لا تتحدث عن سي وانج مو كإلهة، بل كأميرة. ويشعر المرء بالأسف، لعدم اعطاء كتاب (شي شي) عناية أكثر، لزيارة الملك مو لبلاد سي وانج مو، والإكتفاء، كما هو واضح، بمجرد الإشارة إليها. ففي تاريخ الأسرة الحاكمة (شاين) ورد ما يلي: "حظي تساو فو، بفضل براعته في قيادة عربة السباق، برضا الملك مو، ملك شو. وحصل الملك على مجموعة رباعية، مكونة من حصان أسود غامق وحصان أسود فاتح وحصان متعدد الألوان وحصان ذي آذان خضراء. وانطلق بهذه المجموعة، في رحلة استطلاعية نحو الغرب، الذي أعجبه، إلى درجة نسي معها العودة إلى بلاده". ويتضح من خلال شي شي، الجزء ١٢٣ ص ٦، الذي سأعود لتناوله فيما بعد، أن شخصية (سي وانج مو) كانت معروفة لسي ما شاين.

إن استبعاد وجود حقيقة ما، لمجرد أن كاتباً لم يذكرها، بافتراض أن لو عرفها لذكرها، يعتبر حجة واهية، بنيت عليها أحكام خاطئة كثيرة. فكما ذكرت في مناسبات أخرى، أنه من السذاجة أن ننكر وجود سور الصين العظيم، استناداً إلى عدم ذكره من قبل ماركو بولو، الذي لا بد أنه قد شاهده أثناء رحلته. كما أن الرحالة، الذين زاروا الصين في العصور الوسطى، وتركوا لنا مذكرات، حول رحلاتهم، لم يتحدث من بينهم، سوى أودورك، عن أن الصينيين يصطادون السمك بواسطة قاق الماء، وأنهم يتركون أظافرهم تنمو ولا يقصونها، وأن نساءهم يعمدن إلى ضغط أقدامهن، لتبقى صغيرة، وأن امبراطورية الصين تنقسم إلى إثنا عشرة مقاطعة. فهل لا بد أن ننكر وجود هذا كله، لمجرد أن كاربيني وروبركو وماركو بولو وابن بطوطة قد سكتوا عنه. وبما أن المرء لا يستطيع أن يخمن الأسباب، التي أدت بمؤلف إلى عدم ذكر أمر من الأمور، فإنه من البديهي عدم امكانية بناء أي استنتاج على هذا السكوت.

وفي موضوعنا هذا، فإن رحلة الملك مو إلى ملكة سبأ قد اكتسبت مصداقيتها. وأعتقد أن شي شي، وهو أفضل مصدر لدينا عن تاريخ الصين القديم، قد أكدها، رغم اكتفائه بمجرد الإشارة إليها.

وكتب الشارح المعروف كوباو (٢٧٦م ــ ٣٢٤ م)، الذي كان له باع طويل في مجال أبحاث التاريخ القديم، والذي قام بشرح عدد من الكتب التاريخية، من بينها كتاب شان _ هاي _ كنج، وكتاب موتاين _ تسي شوان، كتب في مقدمته لكتاب شان _ هاي _ كنج، مهاجماً سي ماشاين وعلماء آخرين، وقفوا ضد الكتاب المذكور، كتب حرفياً ما يلي: "قال شي شي: حصل الملك مو على الأحصنة الأصيلة، الأسود الفاتح والمبرقع وذي الآذان الخضراء، وعين تساو لسواقة العربة، وانطلق في رحلة استكشافية نحو الغرب. وهناك زار سي وانج مو وأعجب بتلك البلاد، إلى حد أنه نسي موضوع العودة إلى بلاده".

وبما أنه لا يمكن افتراض أن كوباو نقل هذه العبارات عن شي شي، نقلاً خاطئاً، أو تعمد، بسوء نية، أن يضع على لسان سي ما شاين كلاماً لم ينطق به، فإننا نعتقد أن كوباو كانت بين يديه نسخة أخرى من شي شي ، غير النسخة المتوفرة بين أيدينا اليوم، وأن هذه النسخة الأخيرة هي نسخة غير كاملة، ولابد أن تستكمل استناداً إلى نسخة كوباو. ويتأكد لنا نقص النسخة، التي بين أيدينا، لشي شي، من خلال مضمونها، وكذا من خلال مايقتضيه سياق الحديث عن الحصان البني، وهو اسم أحد أحصنة موونج الثمانية الشهيرة، التي ورد ذكرها لدى كل من لي تسي ومو تاين _ تسي شوان كاملة.

وتؤكد اعتقادي هذا ملاحظة، سجلها الشارح شانج _ شان، من عهد دولة شين (٢٦٥ _ ٤٢٠ م)، في حديثه عن لي تسي، في الجزء الثالث، تضمنت أن النسخة القديمة، من شي شي، ذكرت الرحلة إلى بلاد سي وانج مو بصورة واضحة. حيث قال شانج _ شان: "ورد في شي شي: أحضر تساو فو للملك الحصان متعدد الألوان والحصان البني والحصان الخالي من البقع، وتولى سواقتها خلال الرحلة. وزار الملك بلاد سي وانج مو، التي أعجب بها إلى حد أنه نسي العودة إلى بلده".

ويبدو أن تأليه ملكة سبأ بدأ في القرن الثالث قبل الميلاد. فقد ذكرها شوانج تسي، الذي عاش متأخراً بعض الشيء عن لي تسي، واعتبرها قديسة، من قديسات الطاو. وذلك بقوله، في سياق حديثة عن اعتناق عقيدة الطاو: "سي وانج مو إعتنقت الطاو واستقرت في شاو _ كونج. ولا يعرف أحد منذ متى ولا إلى أي زمن". ومنطقة شاو كونج منطقة غير معروفة.

ونقل هوانان تسي، الذي عاش في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، نقل الملكة إلى عالم الأساطير، حيث كتب: "التمس هو يي الحصول على إكسير الحياة من سي وانج مو. وسرقت هنج أو الإكسير وفرت به إلى القمر". وقد عاش هو يي، حسب ماتقول الأسطورة ، في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، في عهد القيصر ياو. أما هنج أو ، وتسمى أيضاً شانج أو، وهي زوجة هو يي، فتعتبر إلهة القمر .

وعلى أيدي كتاب متأخرين، ولاسيما من الكتاب الطاويين وأمثالهم، من المشغوفين بقصص الخوارق والمعجزات، تعاظمت باستمرار الشخصية الأسطورية لملكة سبأ، وأصبحت تركب على عربة، يجرها تنين. أما رسلها فكانوا ثلاثة طيور خضراء ...إلخ.

إن رحلة برية من الصين إلى بلاد العرب، في القرن العاشر قبل الميلاد، لايمكن بطبيعة الحال أن تكون أمراً سهلاً. ولكن هذا لا يجعلنا نتسرع في اعتبارها غير ممكنة. فنحن لا نعرف إلا القليل جداً، عما كان عليه وسط القارة الآسيوية في ذلك الحين. وربما أن الطريق ووسائل المواصلات لم تكن حينذاك بأسوأ مما كانت عليه، عند بداية القرون الوسطى، حينما تمكنت طلائع الرحالة الأوروبيين من الوصول إلى الصين. فضمن تلك الظروف تقدم الشرق، وإن كان تقدماً بطيئاً. وما من شك في أن الشعوب الآسيوية قد اتصل بعضها ببعض تجارياً في ذلك الزمان. ولاسيما الصينيون والسبئيون، البعيدون عن بعضهم، والذين كانوا معروفين منذ القدم، كتجار مرموقين . فكان السبئيون يرسلون بضائعهم إلى الفرس والبكتيين **Bakterern**. أما الصينيون فكانوا يرسلون بضائعهم إلى الأسكيتيين **Skythen** والبارثيين **Parther**. وكان البارثيون وسطاء بين الشرق الأقصى والغرب الأقصى. وكان الرومان، في القرن الأول الميلادي، يستخدمون طريق القوافل الممتدة، التي ربما كانت موجودة في عهد الإسكندر الأكبر، وهي طريق تنطلق من هيرابولس، على نهر الفرات، باتجاه بحر قزوين، عبر إديسا وأكباتانا وهيكاتوموبوليس، عاصمة البارتيين، ثم عبر منطقة الهيركانيس **Hyrkanies** ومارجيانا، وعبر بكتيا **Baktrien** إلى برج الحجر في طشقند، الواقعة في تركستان الروسية، ومن هناك تواصل عبر طريق تاين ـ شاين إلى تركستان الصينية.

وعلى أي حال فقد كانت رحلة الملك مو وانج إنجازاً عظيماً. وما كان يمكن أن ينجزها إلا رجل همام ، لديه عزيمة قوية ورغبة جامحة في الإقدام على المغامرات، وهي صفات لا توجد في معظم الحكام الصينيين. ولو كانت هذه الرحلة قد نسبت إلى حاكم صيني آخر، لكان لدينا سبب

كاف للشك في صحتها. أما مووانج فقد كان يمتلك الصفات، التي يمتلكها الرحّال الشغوف بالإستكشاف، فقد كان ذكياً ونشيطاً. وهذا ما تبرهن عليه الحملات العسكرية المختلفة، التي قادها، في حدود الإمبراطورية، ضد أعدائها. وقد ورث من والده حب الصيد، فكان يتوغل في رحلات صيده إلى مناطق بعيدة. ولكن هواه الأول كان للرحلات الإستكشافية، التي أنفق فيها معظم فترة حكمه، كما لاحظ ف. فريس، في كتابه (موجز تاريخ الصين، فينا ١٨٨٤م، ص٣٤)، وهي ملاحظة ثاقبة جداً. وقليل من حكام الصين القديمة كانت لهم صفات مميزة. وكان مووانج واحداً منهم. لذا تميز بكونه الملك الرحّال.

ويتضمن كتاب تسو ـ شوان، الذي يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، الفقرة التالية، التي أوردها كوباو في مقدمته لشان ـ هاي ـ كنج: "لقد كانت أمنية حياة مووانج، التي تمنى من كل قلبه أن يحققها، هي أن يطوي العالم كله بعجلات عربته وحوافر خيله".

وبعبارة مماثلة قال سوشي (١٠٣٩ ـ ١١١٢ م) في كتابه (كو شي): "تمنى الملك (مو) أن يحقق أمنية قلبه وأن يرتحل إلى كل الأصقاع وأن تعرف عجلات عربته وحوافر خيله العالم كله".

وقال شينج شياو (١١٠٨ ـ ١١٦٢ م) في كتابه (تونج شي): "حصل الملك على ثمانية أحصنة أصيلة، كانت تسير يومياً مسافة ألف لي، وقد عين تسوفو سائقاً للعربة، وتاقت نفسه إلى أن يُريْ آثار عربته وحوافر خيله للجهات الأربع ولأطراف العالم الثمان".

إن شغف الملك بالترحال يشكل سبباً كافياً لتفسير رحلته إلى الغرب البعيد. وهناك ربما دافع آخر، فقد كان مووانج يؤمن بالسحر، شأنه في ذلك شأن الكثير من ملوك الصين القدماء. وكان أحد أهم أهداف السحر، هو بلوغ الحياة الخالدة، عن طريق العثور على مايسمى ب(إكسير الحياة)، أو الدخول إلى الأجواء المباركة، بامتلاك هذه المادة السحرية. وروي أن كثيراً من الأمراء الصينيين أرسلوا بعثات، للبحث عن الجزيرة المباركة. من أمثال أمير واي، كما ذكر هوان وين (٣١١ ـ ٢٧٩ ق. م.).

ويبدو لي من المحتمل جداً أن الملك مو وانج نفسه قد انشد إلى عملية البحث هذه. ولأنه لم يجد شيئاً فقد استمر في بحثه، متوغلاً في السفر، حتى وصل إلى بلاد العرب وقابل ملكة سبأ.

وربما أن أحد السحرة أوحى له، بأن اليمن السعيد بملكتها، ملكة سبأ، هي أرض الخلود. وهذا الإحتمال ليس بعيداً عما ورد في كتاب لي تسي، الجزء الثالث، القسم الأول. فقد ورد أنه

قدم إلى موﻭانج ساحر، أو مشتغل بالكيمياء، من بلاد بعيدة، في أقصى الغرب، واستطاع بفنونه أن يسيطر على الملك سيطرة كاملة. ولعل هذا الساحر كان عربياً، فالعرب اشتهروا في قديم الزمن بالسحر. حتى أن فيثاغورس وديموقريطس تتلمذا في علوم التطبيب والكهانة على أيديهم. ووفقاً للمصادر العربية فإن أهل الشحر، الذين يقطنون في غرب ظفار كانوا سحرة.

وضع الساحر المذكور الملك تحت التنويم المغناطيسي وأسلمه للتصورات الوهمية. وكما ورد في النص ، أن الساحر التمس من الملك أن يسافر معه. وفي الحال أمسك الملك بأطرافه وطار معه إلى السماء. وهناك أراه قصره المرصع بالذهب والأحجار الكريمة المتلألئة، كما أراه بعض عجائب السماء. وعندما عاد الملك إلى نفسه "شعر وكأنما هو يهوي في الفضاء واستيقظ ليجد نفسه في مكانه الأول، وحوله الخدم أنفسهم، الذين كانوا موجودين من قبل، وأمامه مايزال قدح النبيذ، لم يُشرب بعد، والطعام مايزال طازجاً ...تساءل الملك، من أين جاء؟ فرد عليه مرافقوه، إنه كان جالساً مطرقاً لم يغادر مكانه ...بعد ذلك أحس الملك بالضياع. وبعد ثلاثة أشهر طرح السؤال نفسه على الساحر مرة أخرى، فأجابه الساحر: لقد حلقت مع روح الملك، أما الجسم فكيف له أن ينتقل ؟ وكيف يمكن أن يكون المكان الذي توقفنا فيه مكاناً مختلفاً عن قصر الملك؟ والمنطقة التي تجولنا فيها مختلفة عن حديقة الملك؟. تحلل الملك من عاداته وتخلص لبعض الوقت من شكوكه، مما أدى إلى حدوث التحول الكامل". وهل يستطيع المرء أن يبلغ الحالة المثلى، وهو في وضع يسيطر عليه فيه مزاجه المتوتر وانفعالاته؟ "شعر الملك بغبطة غامرة، ولم يعد ينشغل بمشاكل الحكم أو يهتم بخدمه وزوجاته. لقد أصبح يتحرق شوقاً للسفر إلى البلاد البعيدة. وأعطى أوامره بأن تسرج الثمانية الأحصنة الأصيلة".

بعد ذلك يبدأ وصف الرحلة إلى بلاد سي وانج مو. لقد أراد الملك أن يستكشف، ليرى إن كان ما رأته روحه في تحليقها موجوداً على الأرض. وهناك أمر لم تبرزه الرواية، ولكن أعتقد أن بإمكاننا افتراضه، وهو أن الساحر، الذي ينتمي إلى الغرب البعيد، قد تولى بنفسه قيادة هذه الرحلة، التي دفع الملك إلى القيام بها، باستخدامه التنويم المغناطيسي. ولكي يُري الملك الجنة الموجودة على الأرض، قاده إلى بلاط ملكة سبأ المهيب.

بعد كل ماتقدم، يمكننا النظر إلى رحلة الملك مو إلى الغرب البعيد، وزيارته للملكة سي، كواقعة تاريخية حقيقية. أما تطابق شخصية هذه الملكة، التي زارها الملك مو، مع شخصية ملكة سيبا

أو سبأ، فإنه يمكنني هنا أن أسوق أدلة مختلفة، ترجح هذا الأمر: كالتوافق الزمني، بين رحلة الملك والفترة التي حكمت فيها ملكة سبأ، واحتمال انبثاق اسطورة الإلهة (سي وانج مو) من الذكريات، التي استقرت في الذهن، عن فخامة وجلال بلاط الملكة السبئية، و إمكانية أن (سي)، في الإسم (سي وانج مو)، ليس سوى اختصار لإسم (سبيا)، بالاكتفاء بالمقطع الأول في الإسم (سي _ با)، كما سبق إيضاحه.

وهذه الإحتمالات الكبيرة جداً تفضي بنا إلى يقين كامل، إستناداً إلى ما سنقتطفه في ما يلي من إستشهادات، مأخوذة من مصادر، معظمها من شان _ هاي _ كنج، وهو المصدر الجغرافي الصيني الأكثر قدماً.

وتتباين الآراء حول كتاب شان _ هاي _ كنج، فللعلماء الصينين آراء تختلف عن آراء العلماء الأوربيين. فأولئك يرونه مؤلفاً قيماً للغاية. وهؤلاء يعتبرونه مجرد قصص خرافية، ليس لها قيمة علمية. وفي الواقع فإن أجزاءً من الكتاب، ولاسيما تلك التي تتناول البلدان الأخرى غير الصينية، مليئة بالقصص الخرافي الساذج والخوارق والعجائب، التي يمكن بسهولة أن تستخدم للحكم، حكماً سلبياً، على الكتاب بكامله. ولكن إذا ما دُرس الكتاب بدقة وتمعن، فسوف يتضح أن كثيراً من هذه القصص الخرافية، تتضمن معان عميقة. وعندما يضع المرء في اعتباره أن جميع الشرقيين يهتمون، أكثر منا، بشحن تعبيراتهم اللغوية بالصور الخيالية والبلاغة الأدبية، وأن هذا يقودهم إلى المبالغات المفرطة، ويجعل ملاحظاتهم غالباً بعيدة عن الدقة، فإنه يصبح بالإمكان فهم مواضع كثيرة في كتاب شان _ هاي _ كنج، تبدو للوهلة الأولى مجرد تصورات خيالية أو عبارات جوفاء، لا معنى لها. وقد أعطى بي يوان، آخر محقق لكتاب (شان _ هاي _ كنج)، وهو عالم متميز في تاريخ الصين القديم، أعطى في مقدمته المثال المميز التالي، عن الطريقة، التي يمكن للمرء بها أن يفسر كتاب شان _ هاي _ كنج: "إن شان _ هاي _ كنج لا يورد أشياءً خارقة. إن الخوارق قد اقتصرت على جانب الشرح والتفسير فحسب. فبالنسبة لطائر البوم وكلب البحر، يقول مثلاً، إن لهما وجهاً بشرياً. وعبارة (وجه بشري) تعني أن في وجهيهما بعض الملامح المشابهة لوجه الإنسان. وبنفس الطريقة يقول المؤلف، إن الببغاء وأحد أنواع القردة يمكنهما أن يتحدثا. وهذا أيضاً يعني أن هناك شيء من التشابه بين نطقهما، وبين النطق البشري. وعلى هذا النحو، منح التصوير

البياني، في زمن لاحق، الحيوان هيئة إنسان. ولايزال تشبيه البوم وكلب البحر بالإنسان سارياً حتى اليوم ".

هذا النهج في التفسير اتبعه شليجل، منذ وقت قريب، في مقال حول مشكلة الجغرافيا، منشور في (تونج باو، الجزء الثالث، ١٨٩٢م)، وتوصل إلى نتائج مهمة. لقد استطاع أن يبرهن على وجود عدد من الجماعات البشرية، التي ورد ذكرها في كتاب شان _ هاي _ كنج، والتي كان يعتقد أنها من صنع الخيال. فحدد زمن ومكان وجودها. وتوصلت أنا أيضا إلى نتائج مماثلة، كما سيتضح في ما يلي:

إنني أستبعد أن يكون كتاب شان _ هاي _ كنج أكثر قدماً من عهد دولة شو، وهو ماذهب إليه بعض النقاد الصينيين. وبالطبع يمكن أن تكون بعض المواد، التي تضمنها هذا الكتاب، من زمن أقدم. لقد اشتغل العلماء، في عهد دولة شو، رسمياً بالجغرافيا، كما يدل على ذلك وجود مركز للجغرافيا، كان يعمل فيه ٢٢٤ موظفاً. ولا بد أن مواد جغرافية قديمة قد جمعت وحفظت فيه. إنني أميل إلى وجهة النظر القائلة، بأن كتاب شان _ هاي _ كنج، في شكله الحالي، يرجع إلى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد. فأسلوبه هو الأسلوب الذي كان سائداً في أواخر عهد دولة شو. وهو أسلوب مختلف تماماً عن أسلوب كو _ وين القديم، الذي نجده في كتابي شو كنج وشيكنج. لقد ذكر سي ما شاين ، كتاب شان _ هاي _ كنج دون إيراد إسم المؤلف، ذكره إلى جانب الفصل الجغرافي من شوكنج وإلى جانب يو _ بين _ شي. وعلى ذلك فإن سي ماشين لابد أنه عاش في القرن الثاني قبل الميلاد (١٦٣ ــ ٨٥ ق. م.). وفي ذلك الحين كان شان ــ هاي ــ كنج قد أصبح كتاباً معروفاً. فإذا كانت فقرتان متماثلتان في كل من لي تسي ولو شي شون _ شيو، قد أخذتا من شان _ هاي _ كنج، كما ذهب إلى ذلك بي يوان، فإن هذا برهان كاف، لكون كتاب شان _ هاي _ كنج يرجع إلى القرن الرابع أو القرن الثالث قبل الميلاد.

وكتاب شان _ هاي _ كنج ليس كتاباً واحداً، كما يبدو. بل هو كتاب مكون من عدة أجزاء، ضُم بعضها إلى بعض. مما يعطي انطباعاً، كما لو أن ناقدين أو ثلاثة قد اشتغلوا في النص القديم، فوسعوه بملاحظات وإضافات جديدة. ولكن الأسلوب في كل الأجزاء هو أسلوب واحد. لعله يرجع إلى عملية تنقيح تمت في القرن الرابع أو القرن الثالث قبل الميلاد. وهذا يفسر ورود فقرات حول الموضوع نفسه، في مكانين أو ثلاثة أماكن مختلفة، فيها كلمات متشابهة.

فماذا يحدثنا كتاب شان ـ هاي ـ كنج عن بلاد الملكة الأم، ملكة الغرب؟

في الكتاب السادس عشر. في الفصل المخصص للبلدان الواقعة في غرب الصحراء الممتدة، نقرأ الفقرة التالية، بعد وصفٍ لبلدان خلابة عديدة: "في الغرب يقع جبل الملكة الأم والوديان والجبال المطلة على البحر. إنها بلاد وو، حيث يسكن شعب وو".

أما بلاد وو فنستطيع أن نفهم معناها من فقرة مشابهة، وردت في الكتاب السابع، تتحدث عن البلدان الواقعة غرب المحيط. فمع مراعاة القواعد الصوتية وطرق اختصار الأسماء، يمكننا أن نقرأ اسمها على النحو التالي: بو ـ وو ـ شي. ويفسر بي يوان الإسم على النحو التالي:

(بو) تعني جزيرة. (وو) تعني يروي، والمعنى باللغة المجازية خصبة وتثمر عن طريق الري. أما (شي) فتعني الصحراء. وعلى ذلك فإن الترجمة الحرفية للإسم كاملاً تصبح: الصحراء، التي تحولت بواسطة الري إلى ما يشبه الجزيرة الخصبة. أو بترجمة حرة: جزيرة الصحراء الخصبة المروية. ولا يمكن أن ينطبق هذا الإسم على مكان آخر، أفضل من انطباقه على العربية السعيدة، بلاد السبئيين. فبواسطة الري الإصطناعي، تحولت أرض اليمن، الواقعة في جنوب غرب الصحراء العربية، بحسب شهادات الأقدمين، إلى جنة على الأرض. ومن هنا جاءت تسميتها العربية السعيدة. وهي تسمية قريبة من مضمون التسمية الصينية (جزيرة الصحراء الخصبة المروية)، التي وردت في الكتاب السادس عشر. والعرب أنفسهم يسمون بلادهم جزيرة العرب. وأصل كلمة عرب، في اللغة السامية، هو القفر، أو الصحراء القاحلة. وفي اللغة العبرية كلمة (عربة) تعني صحراء. وهكذا تصبح الترجمة الحرفية لجزيرة العرب هي (جزيرة الصحراء).فسكان الأرض المروية إذاً، وبعد عملية الإختصار، يصبح اسمهم (شعب وو)، وهو ما يعني سكان العربية السعيدة، أي سكان أرض سبأ.

وسكان أرض سبأ هؤلاء عرفهم أيضاً لو ـ شي ـ شون ـ شين (من القرن الثالث قبل الميلاد)، وذكر أمراً خاصاً يتميزون به، وهو أنهم يأكلون بيض العنقاء. وسوف نرى فيما يلي مايقصده بالعنقاء. أما نص الفقرة، التي ذكر فيها ذلك فهو: "إلى الغرب من الرمال المتحركة، وإلى الجنوب من جبال الرصاص، يوجد بيض العنقاء، الذي يأكله سكان وو". فإسم الرمال المتحركة يطلق عادة على صحراء جوبي **Gobi**. ولكنه يمكن أيضاً أن يطلق على صحراء الجنوب العربي. أما جبال الرصاص، فيمكن أن تكون جبال عُمان. حيث يوجد معدن الرصاص. وقد شاهد نيبور

هناك منجماً للرصاص. وعلى ذلك فإن مكان وجود بيض العنقاء، المشار إليه، هو في جنوب غرب صحراء الجنوب العربي بالقرب من اليمن.

وقد ذكر هوانان تسي، في الجزء الرابع (شعب وو)، ضمن الستة وثلاثين شعباً، الذين يعيشون في الجانب الآخر من الصحراء، في الغرب البعيد: "الشعب الأبيض وشعب وو، والنساء والفرسان ...إلخ ". وقد ورد ذكرهم جميعهم أيضاً في كتاب شان _ هاي _ كنج. ويقصد بالشعب الأبيض، على أي حال، أية قبيلة من قبائل القوقاز. وكما وصفهم شان _ هاي _ كنج، في الجزء السابع، فإنهم بيض البشرة وشعور رؤوسهم طويلة، والنساء مقاتلات والفرسان يرتدون قمصاناً صفراء وقبعات ويحملون سيوفاً. ومن هذه الرواية يمكن استنتاج، أن شعب وو لايبعد كثيراً عن مناطق القوقازيين، ذوي البشرة الفاتحة. وبحسب شان _ هاي _ كنج، فإن الشعب الأبيض كان يسكن إلى الشمال من شعب وو. فهل يمكن أن يكون المقصود بالشعب الأبيض اليونانيين في آسيا الصغرى؟.

وفي حكاية الثمان مناطق السماوية، الواقعة في الأقطاب الثمانية، التي تمثل النقاط الثمان، المنتهية عندها حدود الأرض، يقول هوانان تسي: "الغرب يعني جبال الذهب أو الصحراء المروية". وبلاد العرب عرفت لدى القدماء، بأنها بلاد الذهب. وقد ذكر استرابو، في الجز السادس عشر، أن الذهب يوجد لدى النبط، في شمال بلاد العرب، وبأحجام تصل إلى حجم ثمر الجوز.

أما بلينيوس، الجزء السادس، فقد ذكر أن السبئيين يمتلكون معظم الذهب والغابات، الأكثر غنى بالبخور، كما يمتلكون الحقول المروية، رياً جيداً، والكثير من الشمع والعسل. وقد دلت زيارة ملكة سبأ لسليمان أيضاً على مدى ثراء السبئيين بمعدن الذهب. ويوجد منجم غني جداً بالذهب، على مسافة يومين إلى الشرق من صنعاء، العاصمة الحالية لليمن (كما ذكر اسبرنجر **Sprenger,geographie,S. 284**). وقد كان اليمن أكثر إنتاجاً للذهب منه للفضة **(Sprenger,S.58)** . وتحدث الجغرافي العربي، الهمداني، في فصل خاص، عن المناجم في اليمامة وديار ربيعة، فذكر أنه يوجد منجم للنحاس ومنجم للفضة وخمسة مناجم للذهب **(Sprenger,S . 52)**.

من كل هذه الإشارات، التي أوردناها، يبدو لي من الممكن أن نستنتج، أن مملكة الملكة الأم، ملكة سبأ، كانت أشبه بجزيرة وسط الصحراء، غير بعيدة عن البحر، حيث ورد ذكر جبال مطلة

على البحر، وقد تحولت بالري الإصطناعي إلى أرض شديدة الخصوبة. وتتبع تلك الأرض الخصبة هضبة غنية بمناجم الذهب. وإلى الشمال منها يسكن قوقازيون، ذوي بشرة فاتحة وشعور طويلة.

ويواصل شان _ هاي _ كنج، في الجزء السابع، روايته عن الجزيرة الصحراوية، المروية رياً جيداً، على النحو التالي: "في جزيرة الصحراء المروية رياً جيداً يغرد طائر اللوان **Luan vogel** وترقص العنقاء بتلقائية. ويأكل السكان بيض العنقاء ويشربون سائلاً حلو المذاق. وكل أمانيهم ما تلبث أن تتحقق من تلقاء نفسها. وتتآلف أكثر الحيوانات تبايناً وتعيش في مجموعات، إلى الشمال من الأربع حيات، ذات الأنواع المختلفة. ويحضر الناس البيض بكلتا اليدين ويأكلونه. ويمضي طائران أمامهم يدلانهم على الطريق إلى البيض".

وفي الجزء السادس عشر، من شاي _ هاي _ كنج، فقرة مشابهة، نصها على النحو التالي: "في الصحراء، المروية رياً جيداً، يأكل الناس بيض العنقاء ويشربون سائلاً حلو المذاق. وكل ما يتمنون، من أصناف الطعام والشراب، يجدونه متوفراً بين أيديهم ... ويغرد طائر اللوان وترقص العنقاء بتلقائية وتتجمع حولها كل أنواع الحيوانات. وتسمى تلك المنطقة، الصحراء المروية رياً جيداً".

والسائل حلو المذاق، الذي يشربه سكان الصحراء ، ليس شيئاً آخر غير المن، الذي ورد ذكره في التورات (٢ موسى ١٦)، والذي أنزله الرب من السماء على بني إسرائيل، في جبل **SIN**، بالقرب من سيناء. وفي الصباح كان الندى ملقى حول المعسكر. وبعد أن تلاشى، شوهد في الصحراء كقطع الجليد الصغيرة المدورة الملقاة على الأرض. وعندما شاهده بنو اسرائيل، قالوا لبعضهم: "هذا من". لأنهم لم يعرفوا ماهو. ولكن موسى قال لهم: "إن هذا هو الخبز، الذي أعطاكم الرب لتأكلوا منه". ومصدر المن شجر منتشر في كل أصقاع بلاد العرب. وهو نوع من أنواع الأثل. ويستخرج بوخز النتوءات الصغيرة في الأغصان الرطبة، التي بزغت لتوها. ولا يلبث السائل المنساب، ذو المذاق العسلي أن يتجمد ويجف، ثم يتساقط في قطر ثقيلة إلى الأرض، ويكون له شكل قطع شبيهة بقطرات الندى ولون أصفر فاتح. ومذاق المن شبيه بمذاق العسل. ولايزال العرب حتى اليوم يدهنون به الخبز. وفي جزيرة سيناء يعتبر سلعة تجارية. ويجمع هناك حوالي ٦ إلى٧ قناطير سنوياً. ويعصره البدو بعصارة صغيرة من الصفيح ويبيعونه للحجاج.

(Vgl. Schoenfeld, Reise Durch Die Sinaihalbinsel,im Globus Bd. 85 Nr.16,S.250,1904) .

أما ريتر (Ritter,Erdkunde,Bd.12,S.596) فذكر أن مركز انتاج المن هـــو نجـــد، في وسط بلاد العرب، ومن هناك يصدّر إلى البحرين، في شرق بلاد العرب.

ويعني الصينيون بالسائل الحلو أو المذاب الحلو، نوع من الطعام، يتناوله العباقرة والكائنات الروحية. ونجد أصل الأسطورة مبسوطة أمامنا في كتاب شان _ هاي _ كنج، في الفقرتين اللتين أوردناهما. ولعل الملك مو نفسه قد وجد السائل الذهبي الحلو وسط الأثل، في الصحراء، وفسر مصدره، على أنه هبة إلهية، تماماً كما فسره اليهود. وعلى ذلك فإن افتراض أن هذا السائل يستخدم شراباً للآلهة، هو افتراض يمكن فهمه. أما طائر اللوان ، فليس سوى نوع من أنواع العنقاء، أي طائر خرافي. ويعتبر الأوربيون بشكل عام أن طائر فنج، أو فنج هوانج، هو طائر العنقاء. رغم أن وصف هذا الطائر لا يتطابق مع العنقاء اليونانية، وليس هناك سوى بعض التشابه بينهما.

ويمكننا الآن التعرف على الفنج هوانج. إن سكان الصحراء يحضرون البيضة بكلتا اليدين، ويدلهم طائران على الطريق إلى البيض. والعنقاء تغني وترقص وتلتف حولها الحيوانات. فلماذا لا بد أن يحضر سكان الصحراء البيضة بكلتا اليدين، ولا يكتفون بإحضارها بيد واحدة، كما هو الحال في إحضار البيض الآخر؟. بالطبع لأن هذه البيضة كبيرة الحجم، لا يمكن احضارها بيد واحدة. وليس هناك سوى نوع من البيض حجمه بهذا الكبر، وهو بيض النعام. فهل طائر فنج هوانج هو بعينه طائر النعام؟. لا يساورني أدنى شك، في أن طائر النعام، وليس طائر الديك البري، كما يُعتقد عادة، هو أصل فنج هوانج ملك الطيور. وإذا كان تصوير فنج هوانج، من قبل الرسامين الصينيين، يبرز تشابهاً واضحاً بينه وبين الديك البري، فإن هذا يرجع إلى أن الرسامين الصينيين لم يكونوا قد رأوا النعام. ولذا فإن الديك البري كان هو النموذج، الذي وجدوه أمامهم، فاتخذوه موضوعاً لإبداعهم الفني. إن الديك البري في الصين منتشر، ويدخل في نظر الناس ضمن الأشياء الإعتيادية، إلى درجة أن الخيال الشعبي لا يمكن أن يختاره ويجعل منه صورة لطائر خرافي. في حين أن الطائر البري، الشديد الضخامة، في الغرب البعيد، هو أكثر ملاءمة لهذه الصورة. إن الوصف الذي قدمه شان ـــ هاي ـــ كنج، وغيره من المصادر القديمة، للفنج هوانج، ينطبق تمام الإنطباق على النعامة، ولا ينطبق أبداً على الديك البري.

وقد رأينا سابقاً أن لو _ شي _ شون ـــ شين، وهو كتاب من القرن الثالث قبل الميلاد، ذكر أن شعب وو، سكان الصحراء، يأكلون بيض العنقاء، أي بيض النعام. أما يو _ يانج _ تسا _ تسو، من القرن الثامن الميلادي، فيخبرنا بأن للعنقاء مقعداً خاصاً: "إنه شيء عند قدمي العنقاء، أشبه بالحجر الأبيض. ومن وقت إلى آخر تأتي العنقاء وتقدم له ولاءها. ففي المكان، الذي تجلس عليه، تعمد إلى حفر حفرة بعمق ثلاثة أقدام، وتضع فيها حجراً مدوراً أشبه بالبيضة، ذا لون شديد البياض. وتؤدي العناية الحانية، التي تبذلها، إلى جعلها تشعر بالهدوء والراحة".

وفي فقرة أوسع في صياغتها من الفقرة، التي وردت في يو ـــ يانج _ تساو _ تسو، جاء في شين تانج شي، أن العنقاء تحفر في المكان، الذي تستقر فيه، حفرة بعمق قدمين إلى ثلاثة أقدام. وقد إستغرب مؤلف الكتاب هذا التصرف، الخاص بالطائر الروحاني، وهو تصرف مناف لطبيعته، فهو، بحسب ما هو معروف عنه، لا يستقر إلا على أغصان شجر الووتونج. فكيف يهبط إلى الأرض ويتخذ منها مستقراً. وليس هذا وحسب، بل ويحفر حفرة فيها. ورأى المؤلف أن هذا الأمر لا يمكن فهمه، ولكن لا بد أن له تفسيراً في الطبيعة.

إننا هنا بالتأكيد أمام بيض النعام، الذي يبدو كحجرة بيضاء كبيرة. إن النعامة تعامل بيضها بعناية وحنو، أثناء فترة الحضانة. فتحفر لها عشاً عميقاً في رمال الصحراء، لتختفي فيه، أثناء فترة الحضانة حتى عنقها. وبالطبع لا يمكن أن يخطر ببال النعامة أن تقود العرب إلى عشها ذاك، كي ينتزعوا منه بيضها، كما ورد في شان _ هاي _ كنج. إن هذا التصور الخاطئ في الكتاب المذكور يمكن إرجاعه إلى طبيعة أنثى النعام. فإنها إذا ما أُفزعت وهربت خارج عشها، أخذت تصرخ باحثة عن الذكر، الذي يعيدها بالقوة إلى عشها، كما يؤكد ذلك جميع العرب. ومن هنا جاءت تسمية ذكر النعام بسليم، أي القوي. ولأن الأنثى والذكر بهذه الطريقة يعودان مسرعين إلى العش، فإنهما بذلك يقودان من يطاردهما نحو العش.

وتنطبق صفات العنقاء، التي أوردها شان _ هاي _ كنج، تمام الإنطباق على النعام. ولا بد أن أعترف، بأن هذه الصفات لم تكن معروفة لي من قبل، وأنني لم أتعرف عليها إلا من خلال هذا الكتاب القديم. ولعل هذا هو حال زملاء التخصص. فالعنقاء ترقص وتغرد والحيوانات تتجمع حولها. هذا ما ورد في شان _ هاي _ كنج.

والآن لنر ما يقوله بريم عن النعام (Brehm ,Tierleben,Bd.5,S.693,18): "عند الظهيرة تكون النعام قد ملأت بطونها بالطعام فتخلد إلى الراحة لبضع ساعات، إما بالجلوس أحياناً على رسغ أقدامها، وأحياناً بالإستلقاء على بطونها، أو تصول وتجول بحيوية ومجون، ترقص رقصاً لا أجمل منه، حيث تتحرك ضمن دائرة، نحو الأمام ونحو الخلف، رافعة أجنحتها، ملوحة بها وهي مرتعشة، كما لو أنها تحاول أن تطلقها في الفضاء". ويضيف برم (Brehm,S.699): "يسعى ذكر النعام إلى إظهار رغبته في الحب، بطريقة تعبيرية خاصة وبحركات راقصة، حيث يجثو أمام الأنثى، على رسغي قدميه ويحرك رقبته ورأسه حركات منتظمة ويرتعش بكل جسمه ويضرب الهواء بجناحيه ويصرخ، مع إرجاع رقبته إلى الخلف، ويغلق منقاره ثم يدفع كل الهواء، الذي بداخله، بكل قوة، فيؤدي هذا إلى انتفاخ رقبته، انتفاخاً هائلاً، مطلقاً ثلاثة أصوات منتظمة، تذكرنا بزئير الأسد، المنبعث من منطقة بعيدة، أو بزمور باخرة. ويكون الصوت الثاني أعلى من الصوت الأول، أما الصوت الثالث فأكثر عمقاً من الأول، مع مده وخفضه عند النهاية، شيئاً فشيئاً، حتى يتلاشى ".

وعلى ذلك فإن شان _ هاي _ كنج محق، عندما تحدث عن غناء العنقاء (النعامة)، فالصوت الذي يطلقه ذكر النعام، يتكون من طبقات صوتية مختلفة، طويلة أو قصيرة، متصلة أو متقطعة، يتلو بعضها بعضاً، بفواصل زمنية محددة. لقد جاء في شان _ هاي _ كنج، أن الأصوات الخافتة تسمع كالأجراس، أما الأصوات العالية فكأصوات الطبول.

وحول ما ورد عن تجمع الحيوانات حول النعامة، فإن هذا الأمر ينطلق من حقيقة، أن حيوانات كالضباء والحمار الوحشي، وغيرها من الحيوانات ذات الأربع، تميل إلى التجمع مع النعامة. وذلك لأن النعامة تملك القدرة، بحكم ارتفاع جسمها، على الرؤية البعيدة، مما يمكنها فوراً من ملاحظة أي خطر قادم، فتطلق إشارات الإنذار، ليلوذ الجميع بالفرار. إنها تقوم، دون أن تتعمد ذلك، بدور الحراسة، لمن هم حولها.

إن فرضيتي، بأن فنج هوانج، العنقاء الصينية، ليست طيراً آخر غير النعامة، يمكن إثباتها أيضاً عن طريق الخط، إثباتاً قاطعاً. فالكلمة الصينية (فنج) تكتب حديثاً بطريقة معينة. أما في كو _ وين فقد كتبت بطريقة أخرى، يمكن نطقها اليوم (بيينج)، وتعني طائراً ضخماً، أشبه بالطائر الخرافي (الرخ). لقد كانت الكلمة، برسمها القديم، تستخدم بمعنى فنج، أي العنقاء، وبمعنى بيينج، أي الطائر الضخم. ولم يتم التمييز بين المعنيين، عن طريق النطق، إلا في وقت متأخر. وهذا يعني أن

العنقاء والرخ في الأصل كانا شيئاً واحداً، ولم يجعل الإنسان منهما طائرين مختلفين إلا في وقت لاحق. إن الرخ هو تصور خيالي، مبالغ فيه، لطائر النعام. ووصف المصادر الصينية له ولسيقانه الطويلة، هو وصف ينطبق على النعام.

ويتضح مما ورد في كتاب وانج شونج لون هينج (القرن الأول الميلادي)، أن الصفة المميزة للعنقاء قديماً كانت حجمها الضخم. ولا يمكن اعتبار أن ظهور فنج هوانج في قصور العديد من الحكام، كما روي ، لا يمكن اعتباره حقيقة تاريخية. وكل ما في الأمر أن فنج هوانج، أي العنقاء، لكونه قد اعتبر طائراً مقدساً، فإن الحديث عن ظهوره يضفي على حكومة القيصر صفة الحكومة المباركة. ففما ورد في الكتاب المذكور(Lun-Heng,16,12,5): "في عهد القيصر هسباو هسوان (٧٣ ــ ٤٨ ق. م) استقرت عنقاء في حديقة شانج لين. ثم بعد ذلك استقرت على شجرة في الباب الشرقي لقصر شانج لو، كان ارتفاعها خمسة أقدام... في عهد حكومة وانج مانج (٩ ــ٢٣ م) ظهر طائر ضخم، بحجم الحصان، ريشه متعدد الألوان وملامحه أشبه بملامح التنين. وقد استقر، مع عشرة طيور أخرى، في شي _ هسين، بولاية بيا. وفي عهد هسوان تي ظهرت عنقاء واستقرت على الأرض، وكان ارتفاعها خمسة أقدام، وهو مايمكن أن يساوي ارتفاع الحصان". وهذا الحجم يساوي تقريباً حجم النعامة، التي يبلغ ارتفاعها مترين تقريباً.

وبحسب رواية موتين تسي شوان، في الجزء الثالث، عرف الملك مو النعامة في بلاد العرب، وأمر باصطيادها، من أجل ريشها. فبعد أن قدم وصفاً لزيارة ملكة سبأ، واصل الحديث، مع بعض الفجوات هنا وهناك، على النحو التالي: "في تنج واي (اليوم ال ٣٣٠) أقام ابن السماء وليمة في جبل الوين ... وشاهد الطيور. وفي شي يو (اليوم ال ٣٣٢) أقام وليمة على نهر يو. وأصدر أمراً إلى رجال الجيوش الستة بأن يجمعوا الريش. لقد كان هناك ... مروج وبحيرات ومرتفعات وسهول ووديان وهضبات. وقد انتزع ريش الطير الضخم. وبعد أن انتهى جنود الجيوش الستة من ذلك، وصلوا إلى السهل الواسع ... أقام ابن السماء وليمة طعام ضخمة للوزير الأول وللأمراء والأعيان. وفوق تل الريش كافأ ضباط الكتائب. وبعد ذلك أمر بعزف مقطوعة كونج _ لو ... وانطلق رجال الجيوش الستة في أرجاء السهل الواسع، يصطادون. وعادوا بكم هائل جداً من الصيد. لقد اصطادوا كمية كبيرة من الطيور والحيوانات. واستغرقت عملية الصيد تسعة أيام. بعد ذلك عسكروا على تل الريش. ولنقل جلود وفراء ورؤوس الطيور والحيوانات، التي تم إصطيادها،

كان لا بد لهم من أن يستعيروا العربات اللازمة لذلك. وبهذه الصورة اصطحب ابن السماء معه مئة عربة مليئة بالريش".

إذاً فقد شاهد الملك مو وانج، في جبال اليمن، النعام وأمر بجمع ريشها. ولربما أن جنوده قد قتلوا هذه الطيور أثناء ذلك. وبعد أن عاد إلى السهل الواسع، أي الصحراء، نظم عملية صيد، دامت تسعة أيام، سقط فيها عدد لا يحصى من النعام ومن الحيوانات الأخرى.

ويبدو أن مئة عربة لنقل الريش هو عدد مبالغ فيه جداً. وعلى أي حال أُطلق على التل، الذي حمل الصيادون إليه ريش النعام، إسم (تل الريش). ولا يمكن بأي حال أن نفهم من هذا الإسم أن هناك تلاً مكوناً من ريش النعام. ويبدو أن هذا الفهم الخاطئ قد راود ذهن شارح نصوص قصب الخيزران، إذ كتب مايلي: "وفي رحلته نحو الشمال سار الملك ألف لي، على الرمال المتحركة، وألف لي على أكوام الريش". وحتى اتجاه الرحلة نحو الشمال هو تحديد غير صحيح.

إن أقدم وصف متوفر بين أيدينا للعنقاء، هو وصف هان _ شي _ واي _ شوان، الذي يرجع إلى عام ١٥٠ قبل الميلاد. وهو ينطبق إلى حد ما على النعامة، ولا ينطبق أبداً على الديك البري. فقد ورد فيه : "من ناحية الشكل يبدو فنج من الأمام أشبه بالوزة البرية، ومن الخلف كوحيد القرن، وفكه الأسفل فك سنونو، ومنقاره منقار ديك، ورقبته رقبة حية، وذيله ذيل سمكة، وجبهته جبهة رهو، وخدوده خدود بطة مندرين، وله مظهر التنين، وظهره ظهر سلحفاة، وريشه ملون بخمسة ألوان، وارتفاعه يبلغ أربعة إلى خمسة أقدام".

وإذا ما أراد المرء أن يشبه النعامة، التي تختلف عن كل الطيور، بطير واحد معروف، فإنه يمكن أن يقول إنها تبدو كالوزة. وماكان للصينيين أن يعطوا تشبيهاً أفضل من هذا. وفي كتاب بين _ تساو _ كانج _ مو صورت النعامة كالوزة، ولكن بسيقان الحيوانات الثديية. ولعله بسبب عدوها، الشبيه بعدو الحصان، أو عدو الضبي، شبهت مؤخرها بمؤخرة وحيد القرن. (وذكر بلينيوس، في الجزء العاشر، أن حوافر النعامة مكون كل منها من فلقتين، وتبدو شبيهة بحوافر الأيل). إنها تستخدمها للإمساك بالحجارة، التي تقذف بها من يطاردها. وللنعامة رقبة طويلة أشبه برقبة الحية وجبين عالي كجبين الرهو. والمنطقة المحيطة بالعينين ذات لون أصفر، كما هو الحال بالنسبة لبطة المندرين، ومنقارها كمنقار الديك أو السنونو، أما تشابه ذيلها وذيل السمك فلم أستطع فهمه. وأما مظهر التنين، فلعل ذلك يرجع إلى الريش المجعد المتموج. وأما تشبيه ظهر النعامة

بظهر السلحفاة المقوس، فهو تشبيه موفق جداً. إلا أن ألوان ريش النعام ليست خمسة ألوان. ووفقاً لما ورد في كتاب شان هاي كنج وفي كتاب شو وين، فإن النعامة كلها تحمل خمسة ألوان. فالريش القصير لذكر النعام لونه أسود، والريش الطويل لونه أبيض، ولون السيقان أصفر رمادي، والمنقار أصفر، والجزء العاري من الرقبة، وكذا الأفخاذ، لونها أحمر. وهذه هي الألوان الرئيسية لدى الصينيين، لم ينقص منها سوى اللون الأزرق، وهو اللون الخامس. وهذا اللون الخامس يوجد في النعامة الصومالية، حيث أن الجزء العاري من جسمها أزرق رمادي. وعلى أي حال فإن التعبير الصيني، المستخدم هنا، لا يعني سوى أن جسم النعامة متعدد الألوان. وقد تعرف الصينيون على النعامة للمرة الثانية، عبر رحلة، قام بها شانج شين، عام ١٢٢ قبل الميلاد.

وفي كتاب شي شي، الجزء ١٢٣، صفحة ٦، ورد ذكر الطائر الضخم (أي النعامة)، الذي بيضه كبير، بحجم قِدْر من الطين. وجاء ذكره باعتباره واحداً مما تتميز به سوريا. بالطريقة بنفسها ورد في كتاب شين هان ـ شو، في الجزء ٩٦ أ، صفحة ١٣، ذكر النعامة ضمن منتجات سوريا. ويبدو أن وصول أول نعامة إلى الصين كان عام ١٠١ م، حين أرسل ملك بارثيا إلى ملك الصين نعامة وأسداً. وسمى الناس النعامة (طائر البارثيين). ولم تأت هذه التسمية من فراغ، ففي ذلك الوقت كان البارثيون يحكمون جنوب إيران أيضاً، حيث لا يزال النعام يوجد في بعض مناطقها حتى اليوم. وفي شين هان شو، الجزء ٩٦ أ، صفحة ١٤، ورد الإسم المحلي للنعام، وهو الطائر الحصان. ولم تأت التسمية المألوفة الآن، وهي (الطائر الجمل)، إلا في زمن متأخر. وقد ذكرنا سابقاً أن وانج شونج حدد حجم العنقاء بحجم الحصان.

والنعام هو طائر مألوف في المناطق المسماة (المنطقة الحيوانية الأثيوبية)، التي تضم أفريقيا وجنوب بلاد العرب، حتى المنطقة المدارية والأجزاء الجنوبية من إيران، المحاذية لمياه الخليج. ويتجاوز وجود النعام هذه المنطقة بعض الشيء إلى صحراء بلاد الرافدين. أما المنطقة القديمة، في وسط آسيا، فلم تكن أبداً موطناً للنعام.

وكما عرفنا المنطقة الأثيوبية، كموطن ل (فنج هوانج) ملك الطيور، لا بد أن نبحث فيها أيضاً عن موطن (كي_ لين)، ملك ذوات القوائم الأربع. وفي الواقع إن تحديد كي لين، باعتباره هو نفسه وحيد القرن، ليس أكثر جدوى من تحديد فنج هوانج، باعتباره العنقاء. فالمصادر الصينية أثبتت أن الأسطورة قد رسمت الكي لين على صورة الزرافة. ومع أن معظم المصادر زودت الكي

لين بقرن واحد، إلا أن القرن لم يعتبر العلامة المميزة الرئيسية. ولعله من المحتمل جداً، أن افتراض وجود قرن للكي لين، قد جاء نتيجة لسوء فهم إحدى الفقرات الواردة في كتاب شكنج، حيث كان الحديث فيها يدور حول قرون الكي لين. وقد ورد في كتاب (إره _ يا)، بوضوح تام، أن للكي لين جسم أيل، خالي من القرون، وذيل ثور، وله قرن. ولكن مصادر أخرى قديمة أشارت إلى أن كلمة قرن يمكن فهمها بمعنى الفرد وبمعنى الجمع. فقد قال شارح كتاب كونج _ يانج: "إنه مثل الأيل الخالي من القرون، ولكن له قرون".

وجاء في كتاب شو وين: "إن كي لين حيوان طيب القلب، له جسم حصان وذيل ثور، وله قرون ممتلئة". وتحدث وانج شونج، في لون هينج، الجزء السادس عشر، باستفاضة عن كي لين، المزود بقرنين. وهكذا فإن أحداً في القرن الأول الميلادي لم يفترض أن الكي لين ليس له سوى قرن واحد. بل إن الكي لين رُسم في كتاب تو _ شو _ شي شين بقرنين.

إن أدق وصف للكي لين يوجد في سيرة محمد (الرسول صلى الله عليه وسلم)، وهو وصف لا يدع مجالاً للشك في أن المقصود به هو الزرافة. فضمن وصف الممالك المحمدية، الواقعة إلى الغرب من الصين ، وُصفت مملكة عدن. وفي الوصف فقرة تتعلق بالكي لين، ترجمها هـ . ك. في مجلة شيناريفيو، العدد السادس، صفحة ٢٧٧، وذلك على النحو التالي: "ساقاها الأماميتان طولهما أكثر من تسعة أقدام، والخلفيتان حوالي ستة أقدام. ورأسها محمول على رقبة طويلة. وطول جسمها حوالي ستة عشر قدماً. وهي مرتفعة من الأمام ومنخفضة من الخلف. ولا يستطيع الإنسان ركوبها. ولها قرنان صغيران في رأسها، يقعان داخل أذنيها. وذيلها أشبه بذيل البقرة، في حين أن جسمها يشبه جسم الأيل. وأخفافها مفلطحة ومكونة من ثلاثة أقسام. وطعامها المفضل هو الذرة والبقوليات وكعك القمح".

وترد أيضاً في التاريخ الرسمي لدولة منج أسماء الكي لين، أي الزرافات، والأسود والنعام ، باعتبارها حيوانات العرب. وقد لا يصح هذا بالنسبة للزرافة، إذا ما اعتبرنا أن بلاد العرب، أو عدن، ليست سوى شبه الجزيرة. فالزرافة لا توجد إلا في أفريقيا. ولكن الصينيين كانوا يعنون ببلاد العرب شبه الجزيرة العربية والمستعمرات العربية في الساحل الشرقي من أفريقيا.

ولأن الصينيين قد عرفوا الزرافة في عهد شو القديم ، فإني أعتقد أنهم قد عرفوها من خلال رحلة الملك مو، رغم أن المصادر لم تذكر ذلك. بل إني أود الإفتراض، أنه حتى الإسم كي لين ، هو

اسم أفريقي، وبالتحديد إسم حبشي. فبحسب سالت (أنظر Ritter,Erdkunde, Bd. 1,S.212) تسمى الزرافة في أمهرا الحبشية (جيرتا كيلشين). أفلا يمكن أن يكون كي لين قد أخذ من كيلشين؟.

والآن لنواصل مع شاي _ هاي _ كنج حديثه عن منتجات الصحراء المروية رياً جيداً، أي مملكة سبأ، حيث واصل ملاحظته حول توفر كل مايتمناه السكان طعاماً لهم بالقول، في الجزء السادس عشر: "لديهم ورود حلوة المذاق وسفرجل حلو المذاق أيضاً ونباتات بيضاء يعتبرونها كاللحم"، أي يأكلونها كاللحم.

وليس من السهل معرفة الورود التي يقصدها. وفي موضع آخر يقول شان _ هاي _ كنج، أن الورود الحلوة ذات غصون وجذوع وأوراق صفراء. وهذا قد يجعلنا نفكر بالأقحوان، الذي يسمى أيضاً زهور النجمة، وهو أرجواني ، يعبق بالرائحة الطيبة ومذاقه حلو ويستعمل لأغراض علاجية. ووفقاً للإعتقاد الطاوي، فإن تعاطيه يطيل العمر. وبحسب معرفتي، فإن هذه الورود الشتوية الأثيرة عند الصينيين واليابانيين، غير موجودة في بلاد العرب. أما السفرجل، فإن بلاد العرب لديها سفرجل ممتاز للغاية، ويصدر من عُمان حتى إلى الهند. وأفضله ذلك الموجود في اليمن، ولاسيما في جبل صبر، حيث يكون ناعماً، يتصف بالطراوة وعدم الصلابة، أفضل مما هو في الحبشة وإيران.

ولكن ماهو المقصود بأن سكان العربية السعيدة يتناولون نباتات بيضاء، كما يتناولون اللحم؟. يبدو لي من المحتمل جداً أن المقصود بذلك هو شجيرات القات، التي يأكل العرب أوراقها، فزراعة القات منتشرة في كل أنحاء اليمن. وأحسن أنواعه يوجد في جبل صبر. حيث يكسو كل مناطق الجبل بخضرة ترتاح إليها النفس. وقد تحسنت أحوال الناس المعيشية بسبب زراعته. ولا يتناول الرسل، الذين غالباً ما يطول سفرهم عدة أيام، وهم على ظهور حيوانات الركوب، لا يتناولون في العادة، خلال السفر، شيئاً سوى أوراق القات، التي يمكنهم الحصول عليها في المناطق الجبلية.

لقد كان الرحّال بوتا يتلقى في كل مساء ربطة من أغصان القات، من قبل أحد المشايخ، وقد وصف مجلس القات بقوله: "تتناثر بعد الطعام أغصان القات، التي انتزعت أوراقها، فتغطي أرضية غرف الأعيان. وهو مظهر من مظاهر الرفاهية. إن أغصان القات الخضراء الطازجة، ذات الرائحة

المميزة، تعتبر ملازمة لمجالس الأنس". وكل ضيف يأخذ منها بقدر ما يحب. ويتناول المرء بشكل خاص الوريقات الصغيرة الطازجة، الشبيهة بالبراعم، ويمضغها. ويعتبر القات لدى السكان البسطاء بديلاً عن القهوة. إن هذه العادة قديمة جداً. سبقت عادة استعمال القهوة بزمن طويل. وبحسب نيبور فإن هذا النبات، شأنه شأن نبات القهوة، قد جاء إلى اليمن من الحبشة.

ونعود إلى لحديث عن حيوانات مملكة سبأ. فبالإضافة إلى الزرافة والنعام ورد في كتاب شان _ هاي _ كنج أنواع أخرى من حيوانات مملكة سبأ، وهي ثلاثة أنواع من الأحصنة السوداء والبيضاء، وثلاثة أنواع من الطيور الخضراء. والنوع (شوي) هو نوع متميز من الأحصنة السوداء والبيضاء. وربما هو الحصان الأرقش وهو حصان يختلط فيه الشعر الأسود والأبيض. ولعل لون شعره ضارب إلى الزرقة أو إلى السمرة. إن الحصان ذا الشعر الأسود الداكن المختلط بالأبيض يسمى (باو)، أي الأسود. وذا الشعر الرمادي المختلط بالأبيض يسمى (ين)، أي الرمادي. ولذا يبدو لي من المستبعد جداً أن يذهب شان _ هاي _ كنج ، إلى أن من خصائص بلد ما، أن يوجد فيه ثلاثة أنواع من الأحصنة الضاربة إلى الزرقة. ومن المشكوك فيه أيضاً أن يضيف إلى ذلك أنه يوجد من الأحصنة الضاربة إلى الزرقة، وهو لون متفرع أصلاً من الأبيض والأسود، ثلاثة أنواع متفرعة عنه. ولا يمكن أن يصنف الصينيون أنواعاً أخرى من الأحصنة المختلطة الألوان، ضمن النوع (شوي)، بل الأرجح أن يطلقوا عليها أسماء أخرى، من الأسماء الكثيرة التي لديهم، وذلك بحسب ألوانها. ولذا فإنني أفترض أن الإسم (سان _ شوي) يعني ثلاثة أنواع من الحمير الوحشية ذات الشعر الأسود والأبيض المختلط، ولاسيما أن لها خطوطاً سوداء ورمادية على خلفية صفراء وبيضاء. ونظراً للإفتقار إلى تسمية محددة للحمار الوحشي، استُخدم هذا اللفظ (شوي)، كإسم اضطراري. إن الحمير الوحشية لا توجد في بلاد العرب، وهناك أنواع كثيرة منها، بعضها يعيش في وديان الصومال وبعضها في منطقة النيل الأبيض وبعضها في المنطقة الساحلية لأفريقيا الشرقية الألمانية. ولكن حتى تلك الأنواع، التي تعيش في عمق أفريقيا، تتنقل في حالات الجفاف، حتى تصل إلى الحبشة. وعلى ذلك فإن إشارات شان _ هاي _ كنج إلى وجود ثلاثة أنواع من الحمير الوحشية في بلاد سبأ، لا يعني أنها موجودة في اليمن نفسه، بل في المستعمرات السبئية، في مناطق الساحل الشرقي لأفريقيا. وكما أسلفنا فإن الصينيين يهتمون، عند وصفهم للبلدان الأجنبية،

بالتقسيمات السياسية، أكثر من اهتمامهم بالتقسيمات الجغرافية. ولا يضعون تمييزاً بين الوطن الأم والمناطق الملحقة به.

إن الإرتباط الوثيق بين بلاد العرب والساحل الأفريقي أمر مسلم به من قبل علماء الشعوب، الذين يرون أن قبائل النيجر في شرق أفريقيا، كالصوماليين، هي شعوب يختلط فيها الجنس العربي وجنس النيجر. أما الأحباش فهم عرب، هاجروا إلى الحبشة "غالباً يحدث سيل من الهجرات المتعاقبة لشعب إلى وسط شعب آخر، كما هو الحال بالنسبة لسكان شبه الجزيرة العربية، الذين نزحوا إلى المناطق الأفريقية المواجهة. وهو ما يجعل من منطقتين مختلفتين منطقة واحدة". هذه الكلمات قالها راتسل في سياق حديثه عن الشعب الاريتيري **(Ratzel,Voelkerkunde,Bd.2,S.396)**. إن الهجرات هنا لم تحدث بصورة واحدة كبيرة، بل عبر حركة متصلة، أشبه بالتسلل أو التسرب المستمر إلى داخل البلاد. وجزء كبير من هذه الحركة حدث في أزمان مغرقة في القدم. ويزعم الصوماليون أنهم من أنسال أحد أبناء نوح. وكان ملوك سبأ يبسطون سلطانهم على الصومال. وكان ملوك الصومال من آل بري ، يحكمون الصومال، كعمال لملوك سبأ فحسب. ويقول سكان شواطئ البحر الأحمر الجنوبية، إن الحبشة وبلاد العرب كانتا في الماضي أرضاً واحدة، وإن زلزالاً قوياً تسبب في فصلهما وأحدث شقاً ضخماً بينهما، هو البحر الأحمر. ووفقاً للتراث الحبشي، فإن حكام الحبشة هم من نسل سليمان وملكة سبأ. وتذهب الرواية التاريخية إلى أن ملكة سبأ قد حكمت أكسوم. وعلى أي حال فإن التراث، يعززه تشابه الجنس واللغة والخط، يشير إلى وجود علاقة متينة بين الحبشه والعربية الجنوبية، منذ زمن مغرق في القدم. وكانت الحبشة مستعمرة يمنية، خاصة في عهد الحميرين. كما كانت الصومال ومناطق شرق أفريقيا، في القرن الرابع قبل الميلاد، قد أصبحت أيضاً مستعمرة يمنية. وفي بيريبلوس ورد الحديث عن الساحل الأفريقي، كجزء من بلاد العرب. ولم يشكل البحر الأحمر عائقاً، بالنسبة للإتصال بينهما. فقد ورد في استرابو، الجزء السادس عشر، أن العرب كانوا ينتقلون على قوارب جلدية، عبر مضيق البحر إلى الحبشة.

أما عن الثلاثة الأنواع الخضراء من الطيور، فيذكر شان _ هاي _ كنج ما يلي : "لها رؤوس حمراء وعيون سوداء. ويسمى أحدها (بيرول الكبير) والثاني (بيرول الصغير) والثالث (الطائر الأخضر)". وعادة ما يشار إلى هذه الطيور الخضراء جميعها بأنها طيور البيرول، أي الشحرور

الذهبي. ومع أن هذا التحديد يبدو قريباً من مضمون النص، إلا أنه تحديد غير صحيح. فالبيرول ليس أخضراً وليس له رأس أحمر ولا عيون سوداء. أما وفقاً لوصف بين تساو كانج مو، فإن له ريشاً أصفر وجناحاه وذيله مخططة باللون الأسود وعيناه شديدتا الإحمرار.

ومن هنا جاءت أسماؤه الصينية المختلفة مثل : الطائر الأصفر والطائر الأسود الأصفر والطائر الأصفر الأسود والقفاز الذهبي والبالطو الأصفر. وإني أرى أن الطائر الأخضر، برأس أحمر، إنما هو الببغاء. وأعتقد أن بإمكاني أن أعزز رأيي هذا بما ذكره شارح تسو شوان تويو (٢٢٢ _ ٢٨٤ م)، في شرحه للإسم الصيني الوارد في تسوشوشوان، والذي يعني الببغاء.

وليس هناك بعد دليل أكيد على وجود الببغاء في بلاد العرب. ووفقاً للخرائط الحيوانية، يمر خط الحد الشمالي لانتشار الببغاء من مضيق عدن. وتبقى بلاد العرب خارج هذا الخط. وبين الهند وأفريقيا، حيث توجد الببغاء، هناك فجوة كبيرة، تشمل جنوب بلاد العرب وإيران وبلوتشستان. ولكن الأبحاث الحيوانية في هذه البلدان ماتزال سطحية جداً، مما لا يسمح باستبعاد احتمال وجود ببغاء فيها. وقد ذكر شيسني (**Finsch, die Papageien. Bd.2,S.5,1868**) أنه اكتشف في العراق نوعاً من أنواع الببغاء. وذكر ديدورس سيكلوس (2,53,2) في وصفه لبلاد العرب أن الببغاء توجد في سوريا. ويبدو أنها كانت توجد أيضاً ببغاء في جنوب منطقة آشور. وهذا يعني أنه من المحتمل أن الببغاء كانت تعيش في بلاد العرب، في القرن العاشر قبل الميلاد، على الأقل في المناطقه الخصبة. إذ أن الببغاء لا تحب أن تعيش في الصحراء. ولذا فهي حتى في أفريقيا لا تقترب من المنطقة المدارية.

ومع ذلك فإننا يمكن أن نبحث عن موطن الثلاثة طيور الخضراء، التي ذكرها شان _ هاي _ كنج، في مستعمرات شرق أفريقيا، التابعة للعربية الجنوبية. إن وصف شان _ هاي _ كنج ينطبق أكثر ما ينطبق على نوع من الببغاء القزمة، صغيرة الحجم، خضراء، كلون الحشائش الخضراء، ولاسيما على ذلك النوع منه، الموجود في الحبشة. وهناك أنواع مختلفة من الببغاء القزمة في غرب أفريقيا وفي جنوب أفريقيا.

وإذا كان شان _ هاي _ كنج قد اعتبر أن الببغاء هي البيرول، فإنه يمكن ارجاع ذلك إلى ما بين هذين الطائرين من أوجه شبه. فكلاهما يتسم بالفخامة: أحدهما ذهبي اللون، مخطط فوق الذيل والجناحين باللون الأسود، والآخر له لون الحشائش الخضراء، وذيله أسود، أو مخطط باللون

الأسود، وجناحاه ملونان. والحب الذي يجمع الذكر والأنثى، معروف، فهما لا يفترقان أبداً. ويعتبر البيرول لدى الصينيين رمزاً للحب الزوجي. ويطير الذكر والأنثى دائماً جنباً إلى جنب. وقد سمى شان _ هي _ كنج الببغاء أيضاً باسمها الحقيقي. حيث تعيش في جبال غرب الصين. وهي بحسب وصفه "طائر، يبدو شكله كشكل البوم، له ريش أخضر ورأس أحمر ولسان آدمي. ويستطيع أن يتكلم، ويسمى (ينج _ مو)، أي الببغاء". وبما أنه استخدم بوضوح اسم الببغاء، ووصفها بأن لونها أخضر ولها رأس أحمر، وهو نفس الوصف الذي وصف به الطير الأخضر، لذا فإننا لا نخطيء إذا قلنا بأن هذا الطائر هو الببغاء الخضراء، وأن الببغاء الخضراء المقصودة، هي الببغاء القزمة الخضراء.

وواصل شان _ هاي _ كنج حديثه عن منتجات بلاد سبأ، فذكر مزيداً منها "العقيق واليشب والجواهر الخضراء والأخشاب البيضاء والمرجان والرصاص الأبيض والرصاص الأخضر والكثير من الفضة والحديد".

وقد ذكر موتين _ تسي _ شوان أن الملك مو حمل معه قطعة من العقيق. ومن المعروف أن بلاد العرب هي من أهم البلدان المنتجة للعقيق. وأفضل أنواعه موجود في اليمن، موطن السبئيين. ووفقاً للمصادر العربية، فإن العقيق يُستخرج من جبل شبام في اليمن. ولا بد بعد استخراجه من كشط سطحه، إذ يكون عادة مكسواً بطبقة من الحجر. كما يوجد العقيق في جبل هران وجبل الهان، وكلاهما في اليمن. وأما اليشب فيوجد في مناطق مختلفة من بلاد العرب، مثل منطقة ذمار في اليمن. وأما ما ترجمت اسمه بالجواهر الخضراء، فربما أنه (اليشم) أو ربما يكون المقصود به أحجار كريمة خضراء أخرى، ليس لها إسم محدد. فالصينيون لديهم أسماء محددة لمختلف أنواع الأحجار نصف الكريمة، أما الأحجار الكريمة، التي ليست لهم بها معرفة كاملة كالأحجار نصف الكريمة، فيلجأون عند الحديث عنها إلى وصفها وصفاً معقداً. ولا يمكن الجزم، استناداً إلى المصادر الصينية، في ماإذا كان المقصود بهذه الأحجار دائماً اليشم فعلاً، لأن الصينيين يفرقون بينها وبين اليشم. فإذا كانت ملاحظه واي _ ليو صحيحة ، بأن هذه الأحجار موجودة في الإمبراطورية الرومانية، فإن هذه الأحجار إذاً لا يمكن أن تكون هي اليشم ، لأن اليشم لايوجد بأي منطقة في غرب آسيا. كما أن اليشم ليس شفافاً، ولعله أقرب إلى الزمرد.

وكانت للزمرد، من بين الأحجار الكريمة، التي كانت تستخرج قديماً في بلاد العرب، كانت له مكانة مهمة. ويروي استرابو (17,55) أن العرب يستخرجون الزمرد وأحجاراً كريمة أخرى من محاجر في البرزخ، الواقع بين برينكي Berenike وميوس Myos، في الساحل الأفريقي من البحر الأحمر. ويعدد ديودروس سيكولوس (2,52) مجموعة من الأحجار الكريمة، التي توجد في بلاد العرب، وعلى رأسها الزمرد، ويؤكد أنها لا توجد أية أحجار كريمة تضاهي الأحجار العربية، سواءً في لمعانها أو وزنها أو نعومتها.

أما الخشب الأبيض، الذي جاء ذكره مرتبطاً بذكرالأحجار الكريمة والمرجان، فلا بد أنه نوع قيم من الأخشاب ذو لون أبيض، وربما يكون خشب الصندل، الذي ينبت النوع الأصلي منه في الهند فقط، في ساحل ملبار. حيث يحصل عليه العرب عن طريق التبادل التجاري، ولا ينمو في بلادهم (Ritter, Erdkunde, (Bd.12,S.250). ولكن الهمداني ذكر بأنه ينمو شجر في بلاد العرب، في منطقة خولان ، خشبه شبيه بخشب الصندل الهندي، ويستخدم لنفس الأغراض، التي يستخدم لها خشب الصندل (Sprenger, Geographie, .S.58). ويختلف المرجان الحجري الأبيض اللون عن المرجان الثمين الأحمر اللون. فالمرجان الثمين لا يوجد إلا في البحر الأبيض المتوسط، أما المرجان الحجري فينمو في البحر الأحمر، كما ينمو بكميات قليلة في الخليج العربي، كما أشار إلى ذلك بلينيوس.

وكما اتخذ المؤرخون الصينيون انتاج المرجان الثمين في منطقة تاشين، أساساً، استندوا إليه في تعريف هذه المنطقة، بأنها الأمبراطورية الرومانية، فإن ذكر الصحراء المروية رياً جيداً، كمنطقة انتاج للمرجان الحجري، يشير بصورة مباشرة إلى بلاد العرب. فالبلاد التي وجد فيها المرجان الحجري، لا بد أن تكون بلاداً ملامسة للبحر، ولا يمكن أن تكون بلاداً واقعة في عمق إحدى القارات. وإن كانت المصادر الصينية القديمة قد أشارت إلى أن المرجان الحجري ينمو كشجرة على جبال كون لون، في وسط آسيا، فإن المصادر المتأخرة تتضمن الرؤية الصحيحة، وهي أن المرجان الحجري، شأنه شأن المرجان الثمين، يتكون وسط مياه البحر.

وبحسب وصف لو _ شي _ شون _شين ووصف هوانان تسي لبلاد العرب، وهي بلاد شعب وو، سبق أن رأينا، أنه يوجد فيها ذهب وخام الرصاص. أما شان _ هاي _ كنج فقد كان أكثر تحديداً للرصاص. فذكر خام الرصاص الأبيض وخام الرصاص الأخضر. وزاد على ذلك

فذكر أيضاً الفضة والحديد. ووفقاً لما ذكره استرابو فإن النبط كان لديهم الذهب والفضة، ولم يكن لديهم الحديد والنحاس. أما الهمداني فقد تحدث عن مناجم الفضة في شبام، كما ذكر ستة مناجم، دون أن يحدد نوع المعادن. ورأى البعض أن واحداً من هذه المناجم هو منجم فضة. ورأى آخرون أن واحداً منها هو منجم حديد. وكان يوجد في العربية الجنوبية قديماً منجم غني جداً بالفضة، في الرضراض (Sprenger Geographie , S.52,53,58). وذكر الهمداني أنها توجد مناجم فضة ونحاس في شبام Semam، تستخرج من قبل آلاف من عبدة النار (المجوس) Glaser ,Geschichte undGeographie Arabiens,s,2,S.348. وذكر ريتر أنه عُثر قديماً على الفضة في جبل تسيبا TSIba في اليمن Ritter, Erdkunde,12,S .714.

وكان العرب قديماً يصنعون دروعاً حديدية ذات شهرة كبيرة، سميت بالدروع السلوقية، حيث كانت تصنع من حديد، يستخرج من منجم في منطقة سلوق الكدرا (Kedera). وعثر في وقت متأخر، بعد أن انهار المنجم ، على نفايات الحديد والفضة وقطع من الذهب (Glaser , S.19) . ويشتهر أيضاً جبل نقم في اليمن بوجود الحديد فيه. ومن هذا الحديد تصنع الأسلحة.

لقد قادتنا المعلومات، التي وردت في كتاب شان _ هاي _ كنج، حول خصائص البلاد، التي سكنتها سي وانج مو، إلى العربية الجنوبية. ويمكننا الآن أن نؤكد أكثر، بأن هذه البلاد، لا سواها، هي بلاد الملكة، التي زارها الملك مو. وذلك من خلال مصدرين تاريخيين إضافيين، أرخا لدولة هان، وهما شي شي، وهوهان شو. فقد ورد في كتاب شي شي "أن أناساً مسنين من البارثيين سمعوا أن الماء الهادئ والملكة الأم، ملكة سي كانا في (تياوشي)، ولكنهم لم يروهما". أما كتاب هوهان شو، المؤرخ المتأخر لدولة هان، فيعبر عن ذلك بصورة أكثر وضوحاً، في سياق حديثه عن تاشين، أي الإمبراطورية الرومانية: " البعض يقولون إنه في غرب الإمبراطورية يوجد الماء الهادئ وصحراء رملية، بالقرب من مقر الملكة الأم، ملكة سي. هناك تقريباً حيث تغيب الشمس".

هاتان الفقرتان تتفق احداهما مع الأخرى وتكملان بعضهما. وبما أن (تياو شي) تعني الإمبراطورية السلوقية، وبالتحديد سوريا بالمعنى الضيق، التي كانت في زمن رواية شي شي هذه هي ما تبقى من الإمبراطورية السلوقية العالمية. فإني أرى، كما رأى بريتشنايدر، أن الماء الهادئ، أو الماء الضعيف، هو البحر الميت. وقد كانت الإمبراطورية السلوقية تضم أيضاً جزءاً من بلاد العرب.

ولذا فمن المحتمل أن بلاد ملكة سبأ قد أُدخلت ضمن هذا الجزء. وهو أمر لا يتفق بالضرورة مع الواقع. وقد تحاشى هو هان شو هذا التصور غير الدقيق.

وفي عهد دولة هان الثانية (٢٥ _ ٢٢٠ م) انتهت الدولة السلوقية. وأصبحت سوريا، منذ عام ٦٤ قبل الميلاد، إقليماً رومانياً. ولذا فإن رواية هو هان شو دقيقة جداً، حينما ذكرت أن البحر الميت يقع في غرب تاشين ، التي تعني الإمبراطورية الرومانية الشرقية في آسيا، بما في ذلك سوريا. أما الصحراء الرملية ، التي تمتد إلى مقر الملكة الأم، ملكة سي، فإنها الصحراء السورية — العربية. وكلتا الفقرتين لا تدلان على أن ملكة سبأ كانت ماتزال تعيش في بلاد العرب في زمن هان، بل استخدمتا اسم الملكة الأم، ملكة سي، لإعطاء دلالة جغرافية.

وقد ورد في شان _ هاي _ كنج، كما رأينا، أن جبل الملكة الأم يقع في بلاد وو، التي عرفنا أنها بلاد سبأ. وفي مواضع أخرى حدد شان _ هاي _ كنج هذا الجبل، على أنه (كون لون). فإذا قبلنا أن هذا الجبل يعني الجبال الشاهقة، الواقعة بين منغوليا وتركستان والتبت أو (كوكونور)، كما تذهب إلى ذلك معظم المصادر الصينية، فإننا سنجد أنفسنا عندئذ أمام تناقض يصعب حله. فمقر ملكة سي لا يمكن أن يكون في العربية الجنوبية وفي منغوليا في آن معاً. ولابد عند ذلك أن نحسم أمرنا، فنأخذ بإحدى الفرضيتين ونترك الأخرى. وإني بدون تردد سأختار العربية الجنوبية. إن الروايات حول بلاد شعب وو تتسق، وبشكل منطقي، مع الظروف والمعطيات الواقعية. أما كون لون فقد رُبطت به كل الأساطير الخاصة بالإلهة وانج مو وقدراتها الخارقة. ولذا فإن اطلاق اسم الأولمب الصيني على كون لون، هو أمر ليس بعيداً عن الصواب. ومن العجيب أنها لا توجد جبال أقل مناسبة لتكون مقراً للأرواح الخالدة ولا أقل ملاءمة للصورة الخيالية الصينية، عن سي وانج مو، من الجبال الواقعة بين منغوليا وتركستان والتبت. إنها أكثر جبال الأرض جفافاً و أفقرها تنوعاً. فالشعاب جرداء، مليئة بالحصى ومغطاة بأكوام هائلة من الصخور المتساقطة من قمم وحواف الجبال. والوديان سحيقة ضيقة، ولا أثر للنبات فيها. في حين أن الإشارات في الكتابات الصينية، عن كون لون، تقدم صورة مناقضة لهذه الصورة. فهي تقدم بلداً جبلياً غنياً بالنبات والحيوان في منطقة مدارية.

لقد اندهش العلماء الأوربيون للوهلة الأولى، عندما قرأوا في المصادر الجغرافية عن زنوج كون لون. وتقبل ريموسات موضوع وجود شعب زنجي في وسط آسيا، بجرأة كبيرة. أما كلابروث

فقد برهن، في مقال له حول زنوج كون لون (Journal asiatiaqe 2.Bd.12,S.32)، على أن الصينيين يعرفون أكثر من منطقة بهذا الإسم (كون لون)، وأن هناك أيضاً جزيرتين صغيرتين في المياه الساحلية لكمبوديا، تسميان (بولو كوندور). ولإن كان هذا صحيحاً، إلا أن وجهة نظر كلابروث، بأن الزنوج المذكورين هم ملاويي بولو كوندور، هي وجهة نظر خاطئة. ولا بد أن يسلم هو نفسه، بأن اسم الزنوج لا يناسب الملاويين أبداً. فليس هناك أي وجه شبه بين الملاويين وبين الزنوج. ووفقاً للوصف وللرسم، اللذين تضمنتهما المصادر الصينية، فإن الأمر يتعلق بزنوج حقيقيين، أجسادهم تبدو كما لو أنها دهنت بطلاء أسود. كما أن ما ذكره كتاب سان ـــ إتساي ـــ أهوي، عن وجود طائر ضخم، أي نعامة، في بلاد أولئك السود، لا يناسب بولوكوندور مطلقاً. كما أن الملحق الياباني للكتاب المذكور قد أوضح، بصورة جلية للغاية، بأن الأمر هنا يتعلق بزنوج أفريقيين، كانوا يأتون إلى اليابان على سفن هولندية، غالباً كبحارة، ويتمتعون بخفة في الحركة أشبه بخفة القرود. أما فرضية كلابروث، القائلة بأن زنوج كون لون هم في الأصل سود آسيويون (لم يحدد وطنهم)، وأن هذه التسمية قد أُخذت في وقت متأخر وأطلقت على الأفارقة، فليست سوى محاولة يائسة للتفسير، تدل على المأزق، الذي وجد كلابروث نفسه فيه. لقد اصطحب واحد من أوائل المبعوثين العرب إلى الصين، عام ٩٧٧ م، اصطحب معه ضمن مرافقيه رجالاً، لهم عيون غائرة وأجسام سوداء، كانوا يدعون عبيد كون لون. فهل يعقل أن يبدأ ذلك العربي أولاً بالبحث عن خدم له سود، في جزيرتين صغيرتين صخريتين لا أهمية لهما، هما جزيرتا بولو كوندور، بدلاً من أن يأخذهم معه من وطنه؟.

وحتى ما ورد في تاريخ دولة سونج، أنه في سومطرا يعزف عبيد كون لون في الإحتفالات ويضربون الأرض بأقدامهم وهم يغنون، لا يدل على أن سومطرا هي موطن هؤلاء العبيد. لقد اتخذ العرب من سومطرا في ذلك الحين محطة مهمة للغاية في خط تجارتهم مع الصين. وكان العبيد منذ القدم مادة تجارية بالنسبة للعرب. وبالطبع كانوا يبيعوهم في سومطرا أيضاً. وقد أشارت الكلمات القليلة، في سونج شي، بوضوح إلى الرقصات الزنجية المعروفة، التي يكون ضرب الأرض بالأقدام جزءاً هاماً جداً فيها.

وبالنظر إلى توفر الطائر الضخم المسمى (بينج)، يرى بورتر سميث، أن كون لون ربما تكون جزيرة موريتوس أو جزيرة مدغشقر (China Review 8,S.18). ولا أعتقد أن جزيرة

موريتوس يمكن أن تكون واردة، فحيوان الدرونته (Dronte, Didus Ineptus) الذي كان يعيش قديماً فيها ثم انقرض، لا يمكن أن يكون هو المثال الذي صور على منواله طائر البينج. إذ أن حجمه لا يتجاوز كثيراً حجم الإوز. وقد يمكن التفكير بأن الجزيرة المقصودة هي جزيرة مدغشقر، التي كان فيها طائر النعام المنقرض أكبر حجماً بكثير من طائر النعام الأفريقي، ولكن هناك ما يجعلها مستبعدة، إذ لا يوجد فيها أي نوع من أنواع الحيوانات اللبونة ضخمة الحجم. وكل مافيها هو نوع غريب من الليمور (Iemuren). وبحسب رواية نان إيشي يوجد في مملكة كون لون، عدا عن النعام، يوجد وحيد القرن.

إن الإسم الصيني لزنج كون لون هو (تسنج سي). وكإسم ثانوي يستخدم تسنج كي. ويعود الفضل لكلابروث، في البرهنة على أن الإسم، الذي هو بالأصل غير صيني قد اشتق من الإسم الفارسي (زنجي)، ويكتبه العرب (زنجيّ). وهذا يقودنا إلى حيث يجب أن نبحث عن زنج كون لون، ثم عن كون لون نفسها. ويعني اسم زنجي لدى العرب أثيوبي أو حبشي. وكان لفظ الزنج معروفاً لدى القدماء. وورد اللفظ في المعجم العربي اللاتيني وفي كتابات الجغرافيين العرب القدماء، مثل ابن حوقل. وسميت أرض الحبشة الداخلية ب(الزنج)، في حين اقتصر استخدام اسم الحبشة على الشريط الساحلي، الموازي لجزيرة العرب على البحر الأحمر.

فكون لون هي إذاً هضبة الحبشة. ولعل اسم كون لون يعني (كوللو) الحبشي، وهو أعلى جبل في الهضبة الحبشية، في مقاطعة شوا. ولعل ما ذكره بو ووشي (القرن الثالث الميلادي) من أنها توجد في الإمبراطورية الرومانية، على ساحل بحر الغرب، كون لون الصغيرة، يشير إلى جبال الحبشة. وكانت الحبشة في القرن الأول الميلادي تقع في دائرة التأثير الثقافي اليوناني، أي تأثير روما الشرقية، التي اطلقت عليها المصادر الصينية أيضاً اسم تاشين.

ووفقاً لشرح كتاب إره يا، فإن لفظ كون لون يطلق على الجبال المدرّجة، وعلى وجه التحديد على الجبال التي ترتفع في ثلاثة مستويات، مما يجعل الإفتراض، بأن كون لون في وسط آسيا، أمراً غير مقبول. وعلى عكس ذلك فإن هذا ينطبق تماماً على هضبة الحبشة، التي يشاهد المرء فيها ثلاثة مستويات، كل منها يمثل منطقة مناخية وثقافية مختلفة.

وإذا قرأنا ما كتبه شارح كتاب شوي شنج (القرن الخامس ـــ السادس الميلادي)، حول كون لون، فإننا سنرى أن الشارح أراد أن يقدم وصفاً للهضبة الحبشية، "إن جبل كون لون يتكون من

ثلاثة مستويات، يسمى المستوى الأدنى (السياج الشجري) أو (الغابة). ويسمى المستوى الأوسط (حديقة الفواكه الإلهية) أو (هبوب النسيم)، ويسمى المستوى الأعلى (المدرّج العلوي) أو (الردهة السماوية)". وأضاف شارح متأخر إلى هذا الوصف، أن المياه تنحدر إلى الوديان والشعاب من "الجبل ذي الثلاثة مدرجات".

وتسمى منطقة المستوى الأدنى، في الهضبة الحبشية (كولا). ويسود فيها طقس حار للغاية. وهي مليئة بالنبات والحيوانات الإستوائية. وتتكون غابتها من نباتات المستنقعات والخيزران والعليق والأشجار المدارية. وأشجارها كثيفة، إلى درجة أن أشعة الشمس لا تنفذ من خلالها. وبصورة عامة فإن قيعانها مليئة بعدد لا يحصى من الشعاب والمنحدرات والمسايل، التي تندفع فيها المياه الصاخبة من أعلى الجبال. وبعد مواسم الأمطار تتشكل في هذه المنطقة مستنقعات واسعة. وتسمى منطقة المستوى الأوسط (منطقة الكروم المرتفعة). ويسود فيها ربيع دائم وطقس لطيف بديع، أشبه بطقس جنوب أوربا. وتترعرع فيها جميع أنواع فواكه المنطقة المعتدلة، بما في ذلك الأعناب. وتقع في هذه المنطقة أكثر المدن الحبشية ازدحاماً بالسكان، الذين كثيراً ما يعمرون إلى ما يزيد على مئة عام. ألا يمكن أن يكون هؤلاء هم الخالدون، الذين يعيشون في كون لون، كما يحكي التراث الصيني؟. أما المستوى الأعلى، اعتباراً من ارتفاع ٢٤٠٠ م، فيسمى (الأرض المرتفعة). ويتناسب مع ما سماه الصينيون المدرج العلوي.

وكما رأينا سابقاً، فإنه يوجد، وفقاً لرواية سان تاسياتو هوي، نعام حبشية في كون لون. ويروي المصدر نفسه، حول الزنج البدائيين، أنهم يبيعون بعضهم بعضاً عبيداً للتجار الأجانب، مقابل ملابس ومواد غذائية (**klaproth,Ebd.S.234 ff**). ونقتبس من كتاب تاي بينج يولان (من القرن العاشر الميلادي) عن تاريخ المتوحشين الجنوبيين، نقتبس حول السكان والإنتاج، التفاصيل التالية: "تنتج مملكة كون لون عاج الفيلة وخشب الصندل (الأفريقي) والتمور والبلور الصخري وقرون وحيد القرن. وعندما يهاجم البدائيون المتوحشون المنطقة فإنهم يحولون مجاري المياه إليها ويغمرونها بالكامل، فلا يستطيع السكان أن يتحركوا في أي اتجاه، ويبقون في أماكنهم ويموت الآلاف منهم جوعاً. أما من يبقى على قيد الحياة فتقطع أياديهم اليمنى من المعصم ويخلى سبيلهم".

إن الفيلة ووحيد القرن هي من الحيوانات، التي تتميز بها منطقة الغابات الحبشية. أما مهاجمة سكان المنطقة، فلا تعدو أن تكون نوعاً من قصص المغامرات الخيالية، ولربما أنها تنطلق من الحقيقة التالية: وهي أن قبائل الشنجلا، وغيرها من القبائل الزنجية، يقطنون في منطقة كولا **kolla** الحارة، وفي موسم الأمطار يغادرون مناطق سكنهم ، التي سرعان ما تغمرها مياه السيول العاتية ويلوذون بالجبال، حيث يتخذون من كهوفها سكناً لهم، حتى تنحسر المياه، فيعودون إلى مساكنهم في السهول. إنهم سكان الكهوف. وكانت المنطقة الساحلية التابعة للحبشة، والمتاخمة لخلجان البحر العربي، تسمى في الزمن القديم الكهف. وتتسم علاقة الأحباش، الذين يسكنون القيعان المرتفعة، والذين هم من أصل عربي يسود تلك القيعان، تتسم علاقتهم بالشنجل بالعداوة المميتة. وما أن يبدأ موسم الأمطار، الذي يحيل أرض الشنجل كلها إلى مستنقعات، حتى يشن سكان القيعان المرتفعة عملياتهم الحربية ضد الشنجل. ولاتعدو العمليات عن كونها عمليات انقضاض ومطاردة، تهدف إلى أسرهم وتحويلهم إلى عبيد. والذين لايصطحبونهم معهم كعبيد، يعمدون إلى قتلهم. وقد اعتاد الأحباش منذ القدم أن يتقاضوا الإتاوات عبيداً من الشنجل .

وحتى شان هاي كنج، الذي شأنه شأن هواي نان تسي، ينسج الكثير من الحكايات عن كون لون، حتى هو يقدم لنا بعض المؤشرات المهمة جداً، في تحديد هذا الجبل: "في الجنوب من بحر الغرب، على حافة الصحراء الرملية، خلف النهر الأحمر وأمام النهر الأسود، ينتصب جبل كبير اسمه كون لون ...بالقرب منه جبل تنبعث منه نار متوهجة، لو قذف المرء فيها شيئاً لاحترق". ويمكن أن يكون المقصود ببحر الغرب، البحر الأبيض المتوسط، وبالصحراء الرملية، الصحراء الكبرى. ولا توجد جبال فيها براكين، في كون لون الصينية المفترضة. ولكنها توجد على حافة الهضبة الحبشية. فبركان بوري، قرب مصوع على البحر الأحمر، وبركان أورتيل، أو أرتلي، وغيرهما، لاتزال نشطة حتى اليوم (**Reclus,Bd.10,S.216**) .

وحول الحيوانات في كون لون، يخبرنا شان ــ هاي ــ كنج، في الجزء الثاني، مايلي: "هناك يوجد حيوان له شكل الماعز، ولكن بأربعة قرون، ويسمى (تولاو)، ويفترس الإنسان. كما يوجد طائر له شكل الدبور، ولكن بحجم البط، ويسمى (شين يوان). فإذا ما لسع طائراً أو حيواناً، أدى ذلك إلى موت الملسوع. وإذا ما لسع شجرة يبست الشجرة. كما يوجد طائر يسمى (السمّان)، يصدع بكل ما يأمره الله بتنفيذه ...ويوجد حيوان له شكل الكلب، ولكن بملامح فهد، قرونه

شبيهة بقرون الثور، يسمى (شياو)، وعواؤه أشبه بنباح الكلب. وعندما يظهر، فإن ذلك يعتبر بشيراً بموسم غني بالمحاصيل. ويوجد هناك أيضاً طائر، يبدو كديك بري، لكنه أحمر اللون، اسمه (هسنج يو)، يقتات السمك، ولصوته عندما يعلو وقع كلمة (لو). وعندما يظهر يكون ذلك نذيراً بالفيضان، الذي يغمر الأرض".

إن الماعز ذا الأربعة قرون، هو دون شك (الريم) ذو الأربعة قرون. فهو الحيوان الوحيد، من بين الحيوانات التي تجتر الطعام. وللذكر منه أربعة قرون، يكون الأماميان منها أصغر من الخلفيين. وحجم هذا الحيوان اللطيف بحجم الغزال الشاب. وتبدو له، في الرسم الموجود في بريم، ملامح الماعز

(Frenzal,Enzyklopaede,derNaturwissenschaft,unterTetraceros,Bre m,Tierleben,Bd3,(S.388. أما الإضافة الساذجة، بأن ذلك الماعز يفترس الإنسان، والتي على أي حال ابتدعها أحد كتاب شان ــ هاي ــ كنج، ليضيف إلى الموضوع عنصراً، على درجة عالية من الغرابة، فإنها لا تستحق منا شيئاً من الإهتمام. إن الريم ذا الأربعة قرون يعيش في الهند، ويفترض أنه لا يعيش في أي مكان آخر خارج الهند. فإذا كان الحال كذلك، فإن وجوده في الحبشة غير وارد. و على ذلك، فإن ما ذكره شان ــ هاي ــ كنج غير صحيح. أما الطائر، الذي يبدو كالدبور، ولسعته قاتلة، فإني أعتقد أن شان ــ هاي ــ كنج قد بالغ، حتى عمل من الناموسة فيلاً ومن الحبة قبة، فحول ذبابة التسي تسي إلى بطة. إن طائراً له هيئة البط ومزود بإبرة يلسع بها، هو طائر لا وجود له. وما يوجد فعلاً وللسعته تأثير، شبيه بالتأثير، الذي تحدث عنه شان ــ هاي ــ كنج، إنما هو ذباب التسي تسي، السيء السمعة، الذي يوجد في المنطقة المدارية الأفريقية. إن لسعة من هذه الحشرة الغريبة، التي يقل حجمها عن حجم الذباب لدينا، لكفيلة بأن تجلب الموت المؤكد، للحيوانات الأليفة، كالخيل والأبقار. وكم هو عجيب أن ينطلق خيال الكتاب الصينيين القدماء، فيحور هذه الحقيقة النادرة، ويصورها تصويراً مبالغاً فيه.

ولا يخبرنا شان ــ هاي ــ كنج عن الطريقة، التي يعبد بها طائر السمان الإله شانج تي، إله الصينيين الأكبر. ووفقاً لروايته، فإن كون لون ليست مقراً لسي وانج مو فحسب، بل هي أيضاً مقر للإله شانج تي. ويطير السمان، في رحلة تنقله إلى أفريقيا وآسيا الصغرى، يطير في أفواج كبيرة، ليكون شاهداً على إطعام اليهود في الصحراء (٢ موسى ١٦).

والآن ما هو الحيوان الشبيه بالكلب، الذي ينبح أيضاً كالكلب ولكنه حيوان أبرش، أي مبرقع، تتداخل في جسمه ألوان متعددة كالفهد؟ إنه الضبع، وعلى وجه التحديد الضبع الأبرش. أما الصفة الأخرى، وهي أن له قروناً كقرون الثور، فلا تعدو كونها صفة إضافية، أوحى بها الخيال الجنح، ويمكننا تجاهلها. إذ أنه لا يوجد أي نوع من أنواع الكلبيات، وهو فصيل من الثديات، له قرون.

ويمكن التثبت من صحة تشخيصنا هذا، من خلال المزيد من الملاحظات، التي يقدمها شين يي شنج (من القرن الرابع إلى الخامس الميلادي) حول هذا النوع من الحيوانات الكلبية: "له بطن، ولكن ليس فيها الأجزاء الخمسة الداخلية (القلب، الكبد، المعدة، الرئة، الكلية)، وله أحشاء، ولكنها مستقيمة، وليست ملتفة، فإذا ما افترس شيئاً، نفذ عبرها مباشرة. يهاجم البشر الخيرين ويسير في ركاب الأشرار. هكذا فطرته السماء. إسمه هون تون. وقد ورد في شون شيو، أن هون تون، هو ابن القيصر هونج، الإبن الذي كان عديم الفائدة. ويعيش هذا الحيوان عادة في الكهوف. ولا يظهر أية حركة، إلا عندما يقضم فريسته بأسنانه، ويلوي ذيله على شكل قوس نحو الخلف، ويرفع وجهه مقهقهاً نحو السماء".

وفي حين ينتشر الضبع المخطط في كل أفريقيا وجنوب آسيا، حتى منطقة الباي في البنغال، فإن الضبع الأبرش، موضوع حديثنا هنا، لا يعيش سوى في جنوب وشرق أفريقيا، ولاسيما في الحبشة، حيث يسمى (سوبي). وهو مبرقع بالألوان: الأسود والبني والرمادي والأبيض. ويتميز هذا الحيوان بوجود منطقة، بين الذيل وفتحة الشرج، على شكل محفظة كبيرة، يفرز الحيوان من خلالها مادة خضراء كريهة. إن ملاحظة عملية الإفراز هذه قد قادت الصنيين إلى الإعتقاد، بأن بطن الضبع ليست عادية، وأن كل ما يفترسه، لعدم التفاف أحشائه، يخرج مباشرة من مؤخرته. ويعتقد الأحباش والعرب أن الضباع هي بشر مسحورون، وعلى وجه التحديد، بشر مسحورون ملعونون، كتب عليهم أن يكابدوا العذاب، وأصبحوا بعد ذلك يتوقون إلى تدمير العدالة. وتتفق نظرة شين يي شنج مع هذا الإعتقاد، حيث يرى أن البشر الأشرار قد حُولوا إلى ضباع، تهاجم الناس الخيرين. وتمضي الضباع نهارها في حفر بباطن الأرض، أو في كهوف صخرية، لاتخرج منها إلا في الليل. وعضة الضبع رهيبة جداً، يستطيع بها دون صعوبة، أن يطحن أكثر العظام متانة.

وعندما يبحث له عن فريسة من الحيوانات الحية، أو الميتة، فإنه يطلق عواءً مخيفاً، له وقع وكأنه قهقهات الكهوف "إنه يقهقه نحوالسماء" كما يقول الكاتب الصيني.

وإلى قهقهات الكهوف هذه ترجع كل الحكايات، التي نسجها الخيال الشعبي، حول الضبع الأبرش. إن عواء الضبع المخطط هو أقل فضاعة من عواء الضبع الأبرش.

ومن الأمور الغريبة، ما أورده شين يي شنج، من أن ظهور الضباع يعتبر بشيراً لموسم زراعي جيد. ويبدو أن عواء الضباع يختلف تأثيره من شعب إلى آخر. ففي حين يشكل مصدر رعب لدى العرب، يمثل لدى سكان تابورا (Tabora) البدائيين موضوعا ًمسلياً (Brem,Tierleben,Bd,2,S.1ff).

أما طائر هسنج يو، الذي لابد أنه يعيش في الماء، لأنه يأكل السمك، وله ريش أحمر، ويبدو مظهره شبيه نوعاً ما بالديك البري، مما يعني أن حجمه قريب من حجم هذا الديك، وريشه بديع الشكل، فلعله الطائر المائي المعروف ب(طائر النحام). وهو طائر لا يعيش إلا في المناطق الدافئة، وتوجد منه مجموعات كبيرة في أمفيلابيا، في الحافة الشمالية من الحبشة (Ritter,S.237).

وكما هو الحال بالنسبة للحيوانات، فإن شان ــ هاي ــ كنج يتحدث أيضاً عن خصائص بديعة، لشجرتين تنموان في كون لون: "توجد هناك شجرة، تبدو شبيهة بشجرة التفاح البري، أوراقها صفراء وثمارها حمراء، ومذاق ثمارها كمذاق الخوخ، وتسمى (التفاح الرملي البري)، وتحمي الإنسان من الغرق في الماء. فإذا أكل منها، ظل طافياً على سطح الماء. وهناك شجرة أخرى تسمى عدسة الماء. وهي شجرة مائية، يبدو شكلها شبيه بالخبازي، تؤكل ثمارها، ومذاقهاكمذاق البصل وتناولها يزيل التعب. (قارن: Bretschneider,Botanicon Sinicum,Bd.2 Nr.198).

ويقدم شان ــ هاي ــ كنج وصفاً غريباً، عن سي وانج مو، وكأنها شيطان أو عفريت شرير. ففي الكتاب الثاني، نجد أنها وُضعت في جبل الأحجار الكريمة، الذي يبعد عن كون لون ببضع مئات من اللي. أما في الكتاب السادس عشر، فوضعت في كون لون نفسها. ويمكن أن تنسجم الروايتان مع بعضهما، إذا افترضنا أن كون لون هو اسم عام لسلسة جبال أو لهضبة، يمثل جبل الأحجار الكريمة جزءاً منها. وقد ورد أن جبل الأحجار الكريمة هو مقر الملكة الأم، ملكة سبأ. والملكة الأم، ملكة سبأ "لها شكل إنسان وذيل فهد وأسنان نمر، وتستطيع أن تطلق صوتها بالعويل والنواح، وشعرها منفوش، ولكنها تضع حلياً فوق رأسها. وتسيطر على الأرواح السماوية

الشريرة وعلى العذابات الخمسة". ونقرأ في الكتاب السادس عشر من شان ــ هاي ــ كنج "أنها كائن بشري، يضع حليّاً على رأسه، وله أسنان نمر وذيل فهد، ويسكن في الكهوف، ويدعى سي وانج مو". وفي الكتاب الثاني عشر "تستند سي وانج مو على طاولة وتضع حليّاً على رأسها وتتوكأ على عصا. وإلى الجنوب توجد ثلاثة طيور خضراء، تجلب الطعام لسي وانج مو".

إن هذا الوصف لشديد الغرابة، ومليء بالكثير مما نسجه الخيال، ويتناقض تناقضاً حاداً مع كل الروايات الأخرى، التي صورت سي وانج مو أنثى فاتنة الجمال. وهذه الغرابة والتناقض من الوضوح، بحيث لايمكن أن يقودانا إلى التشوش وسوء الفهم. ولكن كيف اتفق لشان ــ هاي ــ كنج أن يجعل الملكة الأم، ملكة سي، تعيش مرة في جزيرة صحراوية، مروية رياً جيداً، في بلاد سبأ، ومرة في كون لون، في هضبة الحبشة؟.

إنني أجد تفسير ذلك في ما يلي: هناك روايتان متوازيتان. فالسبئيون وأقرباؤهم في الدم، الحميريون، كانوا قد وسعوا نطاق سلطاهم إلى مناطق الساحل الأفريقي، واستعمروا، على وجه الخصوص، بلاد الحبشة. وبما أن ملكة سبأ قد حكمت أيضاً الحبشة، وربما أنها قد زارتها ذات مرة، فإن الرواية قد نقلت مقر إقامتها من اليمن إلى الحبشة. وبحسب الرواية الحبشية، فإن الملكة استقرت في أكسوم وماتت هناك، وقبرها لايزال، حتى اليوم، بالقرب من المكان الذي سكنت فيه. ووفقاً لهذه الرواية فإن الغالبية العظمى من رعيتها هم من النيجر المتوحشين. ولابد أن الملك مو وانج ومرافقيه قد شاهدوا العبيد النيجر، في البلاط السبئي، وتحدثوا عنهم في رواياتهم عن الرحلة. وهي الروايات التي اعتمد عليها شان ــ هاي ــ كنج في وصفه للرحلة. وخلط الذهن، لاحقاً، الوقائع بعضها ببعض، وتدخل الخيال، فحول الملكة نفسها إلى كائن متوحش، وأخذ يقدم لها وصفاً على هذا الأساس. ويبدو أن سكان الكهوف القدماء، والشنجلا والدوبا والدناكل الحاليين، يمثلون نموذجاً، يخدم هذا الوصف الخيالي. فالملكة تسكن في كهف، وشعرها منفوش، وأسنانها حادة، كأسنان النمر. وهذا ربما يعني أن أسنانها مدببة حادة، كما هو الحال لدى الشعوب البدائية. وبالطبع فإن الصراخ، الذي يعبر لدى المتوحشين عن الفرح أو الحزن، هو أمر مألوف بالنسبة لها. وترتدي فرو فهد يتدلى منه ذيل. إن شان ــ هاي ــ كنج يشير بإيجاز، إلى أن لديها ذيل فهد. ولايزال النيجر يرتدون أحياناً فراء الفهود. والشيء الأنثوي الوحيد، الذي أوردته جميع الفقرات

الثلاث المقتبسة، هو زينة الرأس. وقد سماها كانج هو غطاء الرأس. وتُصنع من خيوط حريرية ملونة، أو من رقائق مذهبة.

إني لأرجو أن أكون، من خلال المصادر، التي أوردتها، قد أثبت أن المقصود بمملكة سي وانج مو، هو العربية الجنوبية والحبشة. وكلاهما تدخلان ضمن المنطقة الحيوانية الأثيوبية. فمختلف الحيوانات، التي ورد ذكرها، كالنعام والزرافات والضباع المنقطة وذباب التسي تسي، لا توجد سوى في هذه المنطقة. وهذه الحيوانات، وعلى الأقل النعام والزرافات، كانت معروفة لدى الصينيين، في عهد دولة شو القديمة. وعلى أي حال كانت معروفة قبل القرن السابع، أو القرن الثامن قبل الميلاد. فقد ورد ذكرها في المصادر القديمة. فكيف تعرف الصينيون على هذه الحيوانات الغريبة عنهم؟ هل تم لهم ذلك عن طريق الأخبار المتناقلة عن الشعوب المجاورة؟ إن هذه الشعوب البدائية التي تعيش في مستوى من التحضر المتدني للغاية، كانت تجهل هذه الحيوانات، كجهل الصينيين تماماً. أم ترى أن عرباً قد جاؤا إلى الصين ورووا للصينيين عن حيوانات ونباتات بلادهم؟ إن هذا احتمال وارد. ولكننا لا نملك أدلة تاريخية أكيدة على صحته. كما أنه من المستبعد أن تترك، مجرد أخبار يرويها أناس غرباء، هذا التأثير العميق لدى الصينيين، والذي جعلهم فيمابعد يحولون النعامة والزرافة إلى حيوانات إلهية. إن المعرفة، التي تتكون في بلد، عن البلدان الأجنبية، هي، وبصورة كاملة تقريباً، ثمرة رحلات استكشافية، قام بها رحّالة شجعان، من ذلك البلد، إلى البلدان الأجنبية، وليست حصيلة ما ينقله سكان البلدان، القادمون إلى ذلك البلد، من أخبار عن بلدانهم. فالمعلومات التفصيلية عن تلك البلدان تبدو لسكانها، بحكم العادة، من الأمور المألوفة غير الملفتة للنظر، والتي لا تستحق الكثير من الحديث عنها. كما أن إحداث تأثير كبير على مستمعيهم يتطلب اتقان اللغة الأجنبية، التي يتحدث بها المستمعون، وهو ما لا يتوفر لهم في الغالب. وحتى لو تحدثوا عن عجائب بلدانهم، لشك الناس في صحتها. والأمر يختلف تماماً، فيمالو أن طفلاً من ذلك البلد سافر إلى بلدان أجنبية، ثم عاد وتحدث عن العجائب، التي رآها في تلك البلدان، فإن مواطني بلده سيكونون أقرب إلى تصديقه، حتى ولو كان ما يقوله من إبداع خياله. وذلك لأنه ليس غريباً عن مستمعيه. وبالنسبة له فإن كل ما يشاهده في البلاد الأجنبية، بما في ذلك السكان البدائيين، يبدو عجيباً ورائعاً. مما يجعل حديثه عن مشاهداته شيقاً، ويصغى إليه باهتمام. وهكذا لم يبق أمامنا لتفسير معرفة الصينيين القدماء بحيوانات ونباتات ومحاصيل المنطقة الأثيوبية، إلا افتراض أن

الصينيين، ومنذ بداية عهد دولة شو، قد وصلوا إلى هذه المنطقة ودونوا ما شاهدوه فيها. وكان يمكن أن نتوصل إلى هذه النتيجة حتماً، حتى ولو لم توجد رواية تاريخية عن رحلة الملك مو إلى العربية الجنوبية وزيارته لمملكة سي. وذلك من خلال الكتابات، التي تضمنتها المصادر الصينية القديمة. وعلى هذا فإن الرواية، عن رحلة الملك مو، تتمتع بقدر عال من الصحة.

أما عن خط الرحلة، فإننا نعرف أن الملك قد سلك طريقاً برياً على عربة. ولابد أنه قد سافر عبر إيران. وفي كتاب تاريخ الصين، الذي يبدو أنه مجرد جزء من مؤلف كبير مفقود، للمؤرخ رشيد الدين، من القرن الرابع عشر الميلادي، أشار المؤلف، بصورة خاصة، إلى أن سائق عربة الملك مو، وهو تساو فو، ذهب إلى إيران مراراً كثيرة. وتاريخ الصين هذا اعتمد، كما تشير إلى ذلك مقدمتة، اعتمد بصورة جلية، على مصادر صينية، بدا متفقاً معها في روايته، بصورة عامة. وفي حال الخروج عن الروايات الصينية، كما هو الحال في الفقرة الخاصة بالملك مووانج، فإن المرء لا بد أن يرجعها إلى سوء فهم للمصادر الصينية، لا إلى وجود روايات إيرانية قديمة، ترجع إلى زمن الرحلة.

ولعله من المحتمل أن مووانج قد مرّ في رحلته عبر دمشق. إذ أن لي تسي يورد عن الرحلة الكبيرة للملك مايلي: "عندما قام الملك مو، ملك شو، برُحلته الكبرى إلى الغرب، أهداه سكان الغرب سيفاً من الفولاذ الأحمر وقطعة قماش، تغسل بالنار. وكان طول السيف قدماً وثمان بوصات، وله نصل أحمر، وعند استخدامه يمكن أن يقطع حجراً كريماً، كما لو أنه يقطع قطعه من الطين. أما القماش المغسول بالنار، فعندما يريد المرء غسله، عليه أن يلقيه في النار، فيأخذ القماش لون النار، في حين تأخذ الأوساخ معها اللون السابق للقماش. فإذا ما أخرج من النار ونفض، فإنه يبدو أبيضاً كالثلج. ويذهب هوانج تسي، إلى أن مثل هذه الأشياء لا وجود لها، والذين يروونها ماهم إلا يهرفون. ويرى هسياو شو، أن هوانج تسي لديه ثقة كبيرة بنفسه، ولكنه متجني كبير على العقل".

وليس هناك مجال للشك في أن السيف، الذي أهدي للملك مووانج، المصنوع من الفولاذ الأحمر، والذي هو شديد الصلابة، إلى درجة أنه يقطع الحجر كما يقطع الطين، إنما هو نصل دمشقي. كما أن القماش، الذي لا تحرقه النار، عند غسله فيه،ا ليس سوى الحرير الصخري. إن من خصائص النصل الدمشقي أن يقطع أصلب الأجسام، كالمسمار الضخم المصنوع من الحديد، دون أن يثلم. أما اللون الأحمر أو البني المذكور، الذي يكتسي به الفولاذ، فلعله إشارة إلى نوع من

التلوين، الذي يضاف إلى النصل الدمشقي. وكما تشير التسمية (السيف الدمشقي) فإن هذا النوع من السيوف، كان يصنع في مدينة دمشق، التي كانت في عهد الملك داود، قد أصبحت عاصمة لمملكة صغيرة، ضمها داود إليه. وفي عهد الملك سليمان استطاعت أن تستعيد حريتها. وكانت دمشق، منذ أقدم الأزمان، واحدة من أهم أسواق السلاح المعروفة. وقد اقتاد نبوخذ نصر (٦٠٤ ــ ٥٦٢ ق.م) صناع الأسلحة الدمشقيين معه، بعد احتلالها. ولعل الملك مووانج قد تلقى هديته، السيف الدمشقي، في دمشق نفسها، أو في منطقة قريبة منها. ولا يمكن افتراض أن أسواق تلك الأسلحة الثمينة قد وصلت إلى أواسط آسيا، لأن هذه الصناعة، على أي حال، كانت محدودة، وتهدف إلى تلبية الحاجة المحلية، ولاتتعداها إلى بلدان أخرى. ولابد أنه كان من مصلحة الدمشقيين أن لايبيعوا سلاحهم المتميز لشعوب غريبة، يمكن أن تستخدمها فيمابعد ضد صنّاعها أنفسهم. ورغم أن الأوربيين كانوا قد أقاموا علاقات تجارية، منذ القدم، مع آسيا الصغرى، وكانت دمشق أقرب إليهم، فإنهم لم يعرفوا السيف الدمشقي، إلا عبر الحملات الصليبية، حينما وصلوا بأعداد كبيرة إلى سوريا. ومن خلال العبارات الأخيرة، في الفقرة التي اقتبسناها من لي تسي، يتضح أن الصينيين، وإلى زمن بعيد بعد عصر الملك مووانج، لم يعرفوا سوى النزر اليسير جداً عن السيوف الدمشقية والحرير الصخري، وأنهم كانوا يعتبرون وجودها نوعاً من الخرافة. ووفقاً لرواية هوهان شو (B.118,S.10v) فإن الحرير الصخري قد وجد في الإمبراطورية الرومانية، وربما نفهم من ذلك آسيا الصغرى أيضاً. وللصينيين تصور خاص جداً لذلك. فالحرير الصخري يصنع من فئران النار، التي تعيش في جبال، تنبعث منها النيران.

ووفقا لرواية لي تسي (٣ ، ٢) فقد قام الملك مووانج برحلته، مصطحباً معه الثمانية أحصنة الشهيرة، مربوطة بها عربتان، في إحداهما الملك نفسه، ومعه السائق تساو فو ومرافق واحد، وفي العربة الأخرى ثلاثة أشخاص أيضاً. أما في رواية تاين تسي شوان، كما رأينا، فقد كان هناك ستة جيوش، رافقت الملك في رحلته. مما جعل هذه الرحلة تأخذ شكل حملة عسكرية. وأعتقد أن هذه الرواية فيها الكثير من المبالغة. فبستة جيوش، مكونة من خمسة عشر ألف جندي، ما كان يمكن لهذه الرحلة أن تتم، بالصورة السلمية، التي تحدث عنها تاين تسي شوان نفسه. فسكان البلدان، التي مرّ عبرها الملك في رحلته، ماكان يمكن، بطبيعة الحال، إلا أن يتخذوا موقفاً معادياً من تلك الجيوش. وكان لابد لجنود الملك، ليحصلوا على أقواتهم ومؤنهم، من أن يلجأوا إلى السطو والنهب. ولكننا لم نقف على أي' أخبار عن معارك واشتباكات. إن الستة جيوش كانت مهمتها

خلال الرحلة، وفقاً لما ورد عن الرحلة ، أن تعمل كحرس للملك وحسب. ولذا فإننا نستطيع الإفتراض، بأن الأمر لايعدو مجرد عدد محدود من الجنود، الذين عملوا حراساً شخصيين للملك، وتوزعوا في ست مجموعات. وبالطريقة نفسها رحل شانج شين إلى آسيا الوسطى، ترافقه مجموعة حراسة، مكونة من حوالي مئة رجل.

وفي كتاب شي يي شي (القرن الرابع الميلادي)، وهو مصدر يجب التعامل معه بحذر، حيث يتكون معظمه من الحكايات الخيالية، المليئة بالأعاجيب، في ذلك الكتاب ورد، أن الملك مو اصطحب معه في رحلته عدداً من الكتبة، الذين كانت مهمتهم تدوين وقائع رحلته. فقد جاء في النص الخاص بذلك ما يلي : "كان لديه عشرة كتبة، يدونون ما يشاهدونه في البلدان، التي يمر فيها خلال رحلته. وكانت تسير في ركب الملك عشر عربات مزخرفة باليشب، تحمل دفاترهم".

إن هذه الملاحظة لا تبدو ملاحظة خالية من الحقيقة. ولعلها تنطلق من واقعة تاريخية صحيحة. فهي تدل على أن الملك مووانج كان يرغب في أن يطلع الناس من بعده على ماعاشه وشاهده، خلال رحلته. ويتضح هذا بجلاء شديد، من خلال ما تضمنته فقرة موجزة، على قصب الخيزران: "في العام الرابع والعشرين من حكمه أمر الملك المؤرخ يونج فو أن يكتب تاريخاً". وهذا يعني أن المؤرخ يونج فو تلقى أمراً من الملك، بعد سبع سنوات من بدء رحلته هذه إلى ملكة سبأ، أن يؤلف كتاباً تاريخياً. وربما أن المادة، التي خطها كتبة الملك، أثناء رحلته، قد وضعت تحت تصرفه ليشتغل بها. ولكن مع الأسف لا وجود الآن لهذا الكتاب. وإني أعتقد بأن جزءاً كبيراً من محتويات الكتاب، قد نقله حرفياً فيما بعد، كتابا شان هاي كنج ومو تاين تسي شوان. وإنه لمن المألوف، في الكتب العلمية الصينية، أن ينقل المؤلف مادونه سابقوه، دون أن يشير إلى المصادر التي نقل منها.

وأكثر وصف لزيارة الملك مو لملكة سبأ تفصيلاً، نجده في كتاب مو تاين تسي شوان. فقد ورد فيه:

"في يوم سعيد، يقال له شبا تسي (يوم ٢٨٧)، استُقبل ابن السماء من قبل الملكة الأم، وتقدم منها وبيديه الصولجان الأسود والصولجان الأبيض، وناولها هدية، مكونة من ثلاث مئة لفة، من خيوط الحرير. تناولت الملكة الأم، ملكة سبأ، الهدية وانحنت للملك عدة مرات. وفي يوم يي شاو (يوم٢٨٨) أقام ابن السماء وليمة للملكة الأم، ملكة سبأ، على بحيرة اليشب. وقد خاطبت الملكة الأم ابن السماء بالأبيـــات الشعرية التالية:

وحتى إذا ما حجبت السماء السحب البيضاء،
الصاعدة من خلال الجبال والتلال،
وباعدت بيننا الطريق بمسافاها البعيدة،
وفصلتنا الأهار والجبال،
تظل في نفسي أمنية، بأن لا تموت،
وأن تعود إلي مرة أخرى.
فرد عليها ابن السماء:
أستعجل العودة إلى بلاد الشرق،
لأرسي دعائم الوحدة في مملكتي.
وعندما ينعم شعبي جميعه بالسلام،
حينها سأعـــود إليك،
سأعود إلى صحرائك،
قبل أن تنقضي ثلاثة أعوام.

وخاطبت الملكة الأم، ملكة سبأ، إبن السماء، بالمقاطع الشعرية التالية:
منذ قادتك إلى بلاد الغرب طريقك
هنا أخذت قسطاً من الراحة
حيث تسرح قطعان النمور والفهود
وتعشش الغربان والعقعق
إنني ابنة قيصر
فماذا يكون شعبك، إذا ما قسته بي؟
مع ذلك سوف تذهب إليه، وتغيب عني
لأنك لا تريد أن تتخلى عن واجبك النبيل

إنفخوا بالناي واعزفوا وترنموا

ولتعلو خفقات القلب

آه ... وليتوجه أبناء الشعب،

بقلوب مؤمنة إلى السماء.

بعد ذلك واصل ابن السماء رحلته وصعد جبل الغرب. وهناك أمر بنقش قصة رحلته، على صخرة من صخور الجبل. كما أمر بأن تكتب، على قطعة مستوية من الخشب، العبارة التالية: (جبل الملكة الأم، ملكة سبأ)".

ويتضمن كتاب مو تاين تسي شوان وصفاً خرافياً منمقاً لرحلة الملك مو. غير أن وصفه لزيارة الملك لملكة سبأ، لا يوحي بأنه من إبداع الخيال. فهو وصف لزيارة، يمكن أن تكون قد حدثت، على هذا النحو فعلاً. إن الملكة لم تكن هنا كائناً خارقاً، ولم تُصور على أنها عفريت من الجان، كما صُورت في شان ــ هاي ــ كنج، وكما صُورت في وقت متأخر، في الكتابات الطاوية. وقد بدت الهدايا، التي قدمها الملك للملكة، هدايا عادية. ففي حين يزعم أن شيوخ القبائل، التي مر الملك في مناطقها، تلقوا منه هدايا، هي عبارة عن أكوام من الفضة والذهب واللؤلؤ، مقابل تقديمهم له منتجات طبيعية، تلقت الملكة خيوطاً من الحرير.

ولعل الملك مووانج قد قدر الموقف تقديراً سليماً، فالحرير، الذي كان في الزمن القديم غالي الثمن جداً، في كل من اليونان وروما، إلى درجة أن الأمراء أنفسهم كانوا لا يقدرون على شرائه، هو أنسب هدية تقدم للملكة، من الذهب والأحجار الكريمة، المتوفرة بكثرة في بلادها. وعلى أي حال فقد تمت الزيارة في مأرب، عاصمة سبأ، التي كان اسمها القديم (مريبة).

وأبرز ما ذكره مو تاين تسي شوان في نصه، أن الملك قد أقام للملكة وليمة، عند بحيرة اليشب. ولهذه البحيرة مكانة بارزة في الأساطير، التي تدور حول الإلهة سي وانج مو، أي الملكة الأم، ملكة سبأ. وتعني(بحيرة اليشب)، في اللغة الصينية، مجرد بحيرة صغيرة أو حوض. ولكنها، بصورة خاصة أيضاً، خزان اصطناعي، أو بركة. أما لفظ يشب (واليشب يعني حجر كريم يشبه الزبرجد، لكنه أصفى منه)، فهو تعبير عن لون الماء، المائل إلى الإخضرار. أو لعله تعبير عن الأحجار الملونة بلون اليشب، المرصوفة حول البحيرة. ومن الممكن جداً أن تكون بحيرة اليشب هي (سد مأرب) الشهير، الذي سماه نيبور البركة العظيمة. وقد استحدثت هذه البحيرة بين جبلين،

وعملت لها فتحات، يندفع منها الماء، ليروي مزارع السبئيين. وكان الرفاه، الذي نعمت به البلاد جميعها، مرتبطاً بهذه البحيرة، أشد الإرتباط، إلى درجة أن هدم سد مأرب، الذي تسبب، وفق التصور العربي، بخراب عام في البلاد، قد مثل لدى المؤرخين لاحقاً، بداية مرحلة تاريخية جديدة.

لقد كانت طريقة الري المتفوقة في أرض سبأ معروفة للصينيين، كما رأينا. أما الشعر، الذي قالته الملكة، والأبيات، التي رد بها الملك عليها، فإنه شعر موضوع، نُظم في فترة لاحقة. وإن كان المرء لا يستطيع، إلا أن يسلم بأنه شعر ملائم للمناسبة، التي زُعم أنه قيل أثناءها. ووفقاً لذلك الشعر، يمكن القول، بأن أبياته تنم عن ميل قوي، كانت تحس به الملكة تجاه الملك. أترى كانت الملكة من نمط كيلوباترا، وخفق قلبها بقوة، ليس فقط للملك سليمان، بل أيضاً للملك مو، إلى حد أن تأمر بنفخ الناي وبالعزف والترانيم، حتى تغطي على دقات قلبها القوية؟ وحتى لو كان الأمر كذلك، فإن إفصاحها للملك بذلك، بالصراحة التامة، التي توحي بها ترجمة بوثيرس (Pauthiers La Chin,S.97)، هو أمر مستبعد.

وفي كتاب مو تاين تسي شوان، لا تأتي المقطوعة الثانية من الشعر مباشرة بعد المقطوعة الأولى، بل تفصل بينهما رحلة الملك موونانج إلى جبل الغرب. فبعد رحلة الملك إلى الجبل، قابل الملكة، ليودعها، قبل رحيله إلى وطنه. وفي هذه المقابلة، ألقت الملكة على مسمعه قصيدتها الثانية. وهذا على افتراض أن هناك شعراً قد قيل بالأصل، ولم يوضع في زمن لاحق. والوضع المتأخر، كما نرى، هو الأكثر احتمالاً. وجبل الغرب، وفقاً للتسمية الصينية، يعني في الواقع الجبل، الذي يحجب الشمس. إنه الجبل، الذي يقع في نهاية العالم، في أقصى الغرب، حيث تتوارى الشمس، وفقاً للتصور الصيني. فملكة سبأ إذاً، وفقاً لهذه الرواية، لم تكن تسكن في الجبل، الذي أعطاه الملك مو اسمها. إذ كان على الملك أن يقطع مسافة، من المنطقة التي كانت الملكة تسكن فيها، ليصل إلى الجبل ويصعد فيه.

وفي الوصف المدون للرحلة، تم تقدير اقامة الملك مو في البلاط السبئي ببضعة أيام، وهذا التقدير يبدو غير دقيق، إذا ما وضعنا في الإعتبار طول الرحلة من الصين ومشقتها. والأقرب إلى التصديق، هو ما نوه إليه كتاب شي شي، من أن الملك قد طاب له المقام لدى الملكة الأم، ملكة سبأ، حتى أنه نسي تماماً موضوع العودة إلى وطنه. وهو ما يعنى أن الملك قد مكث مدة طويلة في بلاد سبأ. وهذا ما يجعل الإحساس لدى الملكة، بصعوبة الوداع، أمراً معقولاً. وأود هنا أن أشير أيضاً إلى ما ورد في كتاب لي تسي، من أن الملك مو قد وصل في رحلته إلى أرض الأرواح، حيث

مكث فيها مدة ثلاث سنوات، ونسي تماماً موضوع العودة إلى وطنه. وبعد عودته إلى الصين، ظل أشهراً طويلة رهين الشوق والحنين، إلى تلك البلاد. فالملك مو إذاً قد مكث ثلاث سنوات في العربية السعيدة، التي أصبحت فردوساً، تستمد منه الأساطير الصينية إلهامها.

أما إن كان الملك قد بلغ في رحلته أرض الحبشة، أو أنه لم يعرف عنها، إلا من خلال ما سمعه عنها وما رآه من منتوجاتها، وهو في أرض سبأ، فهو أمر لا يمكن البت فيه. ولكن المرء لايستطيع أن يفهم، لماذا أمر الملك، في جبل الغرب، بكتابة عبارة (جبل الملكة الأم، ملكة سبأ) على لوح من الخشب، إذا كان الجبل في بلاد سبأ، على مقربة من عاصمة الملكة. إذ من الطبيعي أن يكون ذلك الجبل تابعاً لمملكتها. ويبدو الأمر مفهوماً وأكثر منطقية، إذا كان ذلك الجبل في الهضبة الحبشية، التي كانت مستعمرة سبئية، لا يحكمها السبئيون، إلا بصورة غير مباشرة.

وبحسب النصوص التاريخية، المكتوبة على قصب الخيزران، فإن الملكة قد ردت على زيارة الملك مو، في العام نفسه، الذي زار فيه مملكتها. فسافرت إلى الصين، وحلت ضيفة على الملك، في قصر شوكونج. وهذا، لأسباب كثيرة، يبدو أمراً مستحيلاً. فالقيام برحلة، من بلاد الصين إلى بلاد العرب، ثم العودة إلى الصين، كل هذا خلال عام واحد، هو أمر غير ممكن. كما أن قيام امرأة برحلة شاقة، من بلاد العرب إلى الصين، هو ايضاً أمر مستبعد. وإني أرى بالأحرى، أن هذه الواقعة قد اختلقت اختلاقاً، في زمن متأخر، في وقت كانت الملكة الأم، ملكة سبأ، قد أصبحت لدى الصينيين إلهة. ووفقـــاً للمعلومات، المدونة على قصب الخيزران، والمعلومات الواردة في مصادر أخرى، ظهرت الملكة الأم، ملكة سبأ، في البلاط الصيني، في العام التاسع، من عهد القيصر شون (٢٢٥٥-٢٢٠٥ ق.م). وأضاف الشارح إلى ذلك، أن الملكة أحضرت معها خواتم من اليشم (اليشم واليشب أحجار كريمة تشبه الزبرجد) كهدايا. وتحدثت مصادر أخرى أيضاً عن حزام من الأحجار الكريمة، وعن خارطة، أهدهما الملكة للقيصر شون. كما قدمت للقيصر الأسطوري، هوانج تي، هدايا مماثلة. بل أكثر من ذلك، ورد في كتاب هان ووتي ناي شوان (من القرن الثالث الميلادي) وصف لزيارة الملكة الأم، ملكة سبأ، للقيصر هان ووتي، قيصر مملكة هان، الذي وجدها امرأة فاتنة. وكما هو الحال بالنسبة لظهور بعض الحيوانات، التي يمثل ظهورها، بالنسبة للصينيين، فألاً حسناً، كطائر الفنج هوانج، أي العنقاء، وكي لن، أي الزرافة، اعتبرت زيارة الإلهة (الملكة الأم) لأمير من الأمراء، بركة وخيراً كبيراً له، وأصبح ينظر إليه، على أنه حبيب الآلهة. أما من الناحية التاريخيه، فإن هذه العلامات، الدالة على البركة وعلى الإحتفاء السماوي، لا معنى لها.

والآن يمكننا أن نلخص نتائج بحثنا هذا، على النحو التالي:

كان الملك مو، ملك مملكة شو، الذي حكم من عام ١٠٠١ حتى عام ٩٤٦ قبل الميلاد، حاكماً مليئاً بالنشاط والحيوية، مغرماً بالقيام بالأعمال والإنجازات. وكانت أكبر هواياته القيام بالرحلات. لقد كانت تحركه رغبة عارمة، في التعرف على العالم. وظهر لديه ميل قوي إلى السحر، والرغبة في أن يكتشف عالم الفردوس المبارك. وفي عام ٩٨٥ قبل الميلاد، قام برحلة استكشافية كبرى، إلى أقصى الغرب، ووصل إلى بلاد سي وانج مو. في ذلك الوقت كانت تحكم العربية الجنوبية، في الغرب البعيد، ملكة سي ـ با أو سبأ. وكان بلاطها الفخم ومملكتها المزدهرة، تبدوان وكأنهما الفردوس السعيد. وفي زمن متأخر، أضاف الخيال الشعبي الصيني، إلى ما شاهده الملك، في بلاد سبأ، الكثير من ابداعاته. وسي وانج مو تعني (الملكة الأم، ملكة سي). وسي هو المقطع الأول من سيبا (سبأ)، وفقاً للطريقة الصينية المعتادة، في اختصار الأسماء. واستناداً إلى المصادر التاريخية القديمة، التي ترجع إلى القرون الأولى قبل الميلا . فإن هذه الرحلة تعتبر حدثاً تاريخياً حقيقياً.

وفي المصادر، شان ـ هاي ـ كنج، ولو شي شون شين، وهواي نان تسي، وُصفت بلاد سي وانج مو (جزيرة الصحراء المروية رياً جيداً)، بأنها تقع في الغرب من الرمال المتحركة. وهذا يعني الصحراء العربية، بالقرب من أرض الذهب، الواقعة على البحر. وفي الشمال منها يقطن قوقازيون بيض البشرة. ووفقاً لحوليات مملكة هان، تقع هذه البلاد على حافة الصحراء، في الغرب من آسيا الصغرى، غير بعيدة من البحر الميت ومن سوريا.

ولم تحكم ملكة سبأ بلاد سبأ فقط، أي العربية السعيدة، بل حكمت أيضاً جبال كون لون (كولو)، أي هضبة الحبشة. وهذه الهضبة تتكون من ثلاثة مستويات، متباينة في زراعتها : مستوى السياج الشوكي، ومستوى حديقة الفواكه، ومستوى المدرج العلوي. وتنحدر المياه، من المستويات الثلاثة، عبر الوديان والشعاب.

وتضم حيوانات مملكة سبأ، بما فيها الحبشة، تضم الفيلة ووحيد القرن والزرافة والحمر الوحشية والضباع المنقطة والضباع ذوات الأربعة قرون. ومن بين الطيور، توجد النعام، التي أمر الملك مو بصيدها، من أجل ريشها، كما توجد الببغاء القزمة والسمان والنحام (طائر مائي). أما الحشرات فقد ورد ذكر ذباب التسي تس . وتضم مملكة النبات، فيما تضم، نوعاً من خشب الصندل والسفرجل والتفاح البري وعشب القات وعدس الماء الصالح للأكل. وفي عالم المعادن

يشتهر الذهب والفضة والحديد والرصاص والبلور الصخري والعقيق ، الذي حمل الملك موونج قطعة منه معه، واليشب والزمرد.

استقل موونج عربة، ورحل عبر البلاد، ومعه مجموعة كبيرة من المرافقين، من بينهم الكتبة، الذين سجلوا تفاصيل الرحلة. وفي عام ٩٧٨ قبل الميلاد، عهد إلى أحد المؤرخين، بتدوين وقائع الرحلة، التي عاشها. ولعل هذا التدوين قد شكل المصدر الرئيسي للكتب المتأخرة، التي وصلت إلينا.

ومر الملك خلال رحلته بدمشق، حيث أُهدي إليه سيف دمشقي. وأُعجب ببلاد سبأ، إعجاباً كبيراً جداً. إلى حد أنه مكث فيها وقتاً طويلاً، دون أن يراوده التفكير في العودة إلى وطنه. وأثناء اقامته في بلاد سبأ، أقيمت وليمة على بحيرة اليشب، حضرها الملكة. ولعل تلك البحيرة هي البحيرة الإصطناعية الشهيرة، في العاصمة مأرب.

ويبدو أن رحلة الملك لم يكن لها تأثير عميق في الحياة الثقافية الصينية. اذ لم تؤد إلى قيام حركة اتصالات بين الشعبين. فبُعد المسافة كان شاسعاً، وكانت تتخلل السفر الطويل صعوبات ومشقات جمة، لا يستطيع التغلب عليها، إلا من يمتلكون شجاعة كبيرة، ويستبد بهم حب المغامرة واقتحام الصعاب، كالملك موونج. ولم يستفد من هذه الرحلة، كما يبدو سوى الخيال الأسطوري، حيث استمدت الأسطورة الصينية مادة غنية من الرحلة، وأدخلتها ضمن بنيتها، لتصبح جزءاً من نسيجها. فالإلهة الملكة الأم، ملكة سبأ، وجبل الآلهة، جبل كون لون، والأرواح الخالدة الموجودة فيه، وما فيه من أحجار كريمة ومرجان ثمين وفواكه بديعة، والمادة الحمراء، المستخلصة من خام الرصاص، التي يمنح تناولها للإنسان الحياة الخالدة، كل هذا، شأنه شأن ملكة سبأ وهضبة الحبشة، ارتدى حلة من الخيال والصور الشعرية. وتحولت الزرافة والنعامة إلى كي لين وفنج هوانج، ومنّ الصحراء تحول إلى طعام للآلهة والأرواح. بل إنه من الممكن أن تكون هناك تأثيرات عربية في الكيمياء والسحر الصيني، الموجودين في الآثار الطاوية القديمة. وقد ذكر باوتير**Pauthier** أن الملك موونج اصطحب معه، عندما عاد من رحلته، فنانين حاذقين، عهد إليهم بتشييد قصور وإقامة حدائق في الصين (**Pauthier,la China,S.95,99**)، وأنه، عبر ذلك، قد أدخل طراز البناء الأجنبي إلى الصين. ولكن لا يوجد في المصادر الصينية ما يؤيد هذا الرأي، الذي بني على فهم خاطيء تماماً، لعبارات وردت في لي تسي (v. 12)، ليس فيها أي ذكر لفنانين، قدّموا خدماتهم

للملك. بل كان الحديث يتعلق بمهندس، قدّم للملك آلة، تستطيع أن تمشي وترقص وتغني، ثم يمكن فكها. وهذا المهندس قابل الملك، عند حدود الصين.

وأخيراً بعض كلمات نقولها لتوضيح معنى الإسم (سي وانج مو)، مستندين إلى آراء بعض العلماء الحديثين المشهورين، المتخصصين في الدراسات الصينية. لقد استنكر بعض العلماء الصينيين القول، بأن الملك موانج زار إلهة. وهو قول يستند إلى أن سي وانج مو هو اسم عرف كإسم لإلهة. وحاولوا أن يفسروا معنى الإسم، تفسيراً آخر، فقالوا، إنه اسم لملكة أوبلد. ووجد هذا التفسير قبولاً لدى ليج ومايو وآيتل وشفانس (Legge , Schuking ,Prolegomena , S .114 , 150)، الذين أضافوا معنى آخر إلى هذا المعنى، في النصوص، التي لايبدو فيها المعنى ملائماً تماماً، مثل: بشير وساكن وحاكم وشيخ قبيلة. بل ذهب ماير إلى أبعد من ذلك، فرأى أنه من الممكن ترجمة الإسم (سي وانج مو) بـ (الملك مو — ملك الغرب).(Mayers,Manual (Nr.572) . وربما لو أن هؤلاء الباحثين قد توفرت لهم المادة العلمية، التي توفرت لي، لكانوا قد توصلوا إلى رأي آخر. لقد استُخدم اسم سي وانج مو أحياناً كمصطلح جغرافي. وترد الفقرة الرئيسية، الدالة على ذلك، في إره يا (الفصل العاشر)، ونصها: "كوشو، وباي هو، وسي وانج مو، ويه هسيا، يطلق عليها اسم الأربع المناطق المقفرة".

فاسم سي وانج مو استخدم هنا، ببساطة، للدلالة على بلاد سي وانج مو، أي بلاد مملكة سبأ، تماماً مثلما ورد في فقرة لاحقة، من إره يا: "التسعة آي والثمانية تي والسبعة الشباب والستة الرجال البرابرة، يطلق عليها جميعها اسم الأربعة البحار". وليس لهذا أي معنى آخر، سوى أن بلدان هذه الشعوب تطلق عليها هذه التسمية، أو الصفة (البحار السبعة) أي القفار السبعة.

وبعيداً عن الصحة أيضاً، جعل سي وانج مو شيخ قبيلة بربرية. وأبعد من ذلك، الإدعاء بأنه لم ترد أية إشارة، سواءً في وصف رحلة الملك مو أو في أي نص قديم آخر، بأن سي وانج مو هي امرأة (Eitel, in China (Review,Bd.17,S.233) . وهل من الممكن أن يغدو شيخ قبيلة، من القبائل المتوحشة، أصلاً قديماً لواحدة من أحب الآلهات الصينية؟ ولو أن آيتل قد اطلع على نص مو تاين تسي شوان، في صيغته، التي رواها بي يوان، لما تمسك بهذا الإدعاء. فقد ورد في النص، أن سي وانج مو قالت عن نفسها: "إنني ابنة قيصر". إن كلا المقطعين الشعريين، وفقاً لمضمونهما، لا يمكن أن يصدرا إلا عن إمرأة.

إن تعامل الملك مووانج مع شيوخ القبائل اختلف تماماً، عن الطريقة التي قابل بها سي وانج مو. فأولئك تعامل معهم، تعامل صاحب الفضل المتكرم. أما هذه فقابلها بإجلال، وتعامل معها تعاملاً ندياً، ومثل أمامها، وكأنه أمير تابع لها، من فرط الإجلال والإكبار.

وعند الحديث عن مشايخ القبائل، الذين قابلهم الملك، قبل وصوله إلى العاصمة السبئية، كان يتم دائماً ذكر اسم القبيلة أولاً، ثم اسم الشيخ. ولو كانت سي وانج مو شيخاً، من مشايخ القبائل هؤلاء، لاستُخدمت، عند الحديث عنها، التعبيرات اللغوية والألقاب نفسها، التي استخدمت بالنسبة للمشايخ، وفقاً لقاعدة التوازي أو التساوي، التي يتقيد بها الصينيون، بصرامة بالغة. ولكن من الواضح، أنه عند الحديث عن زيارة بلاد سبأ، لم يُستخدم سوى اسم سي وانج مو، دون إضافة لقب شيخ قبيلة، أو أي لقب آخر. وفي حين قدم أولئك الشيوخ جميعهم هداياهم لمووانج، بخضوع، وقدم لهم بنوع من التفضل هدايا مقابلة، أخذوها منه بتذلل، وهم راكعين أمامه، كان الوضع عكس ذلك، بالنسبة لسي وانج مو. فقد كان مووانج هو البادىء في تقديم الهدايا، فأخذتها وانحنت عدة مرات. ولكنها لم تهده شيئاً بالمقابل. وفي حين أقام مشايخ القبائل وليمة تكريماً لمووانج. حدث العكس، في بلاد سبأ، حيث أقام الملك وانج مأدبة للملكة.

ثم ماذا يمكن أن تعمل سي وانج مو، لو كانت شيخ قبيلة، ماذا يمكن أن تعمل بالأشرطة الحريرية؟ لماذا لم تكن الهدية ذهباً وجواهر وأحجار كريمة، مثل الهدايا، التي أعطيت للآخرين؟ لقد كانت إمرأة. لهذا كانت الأشرطة الحريرية، ذات قيمة بالنسبة لها. لقد أبرز شان ــ هاي ــ كنج، إبرازاً خاصاً، كما رأينا، غطاء الرأس النسائي، الذي أهدي لها.

وعلى أي حال لست أنا من يجب أن يقدم البراهين، على أن سي وانج مو هي إمرأة، بل من يدعي عكس ذلك، هو الملزم بتقديم البراهين على صدق ادعائه. لقد ترجم بريما فاتشي (سي وانج مو)، في كل مرة ورد فيها هذا الإسم، بــ (الملكة الأم، ملكة سبأ). وكان على هؤلاء البرهنة على أن هذه الترجمة، ترجمة غير صحيحة، وتتناقض مع ماورد في المصادر.

أما فرضية شافان **Chavanne**، بأن رحلة مووانج إلى سي وانج مو، ما هي إلا اسطورة، نشأت في مقاطعة شينسي، ثم ربطت في وقت متأخر بالملك مووانج، فإني أعتبرها فرضية لا معنى لها، فصلت لتلائم ما ورد في شي شي. فهذه الفرضية جاءت لتفسر، لماذا ذكرت هذه الرحلة في حوليات شاين ولم ترد في حوليات شو. ولم تضع هذه الفرضية في حسبانها جميع المصادر الأخرى، الأكثر قدماً، وليست كافية لإعطاء تفسير مقنع، للروايات المتنوعة، التي تناولت الملك مو ورحلته وزيارته لسي وانج مو وبلادها.

الرحلة الأولى والثانية للفرنسيين إلى العربية السعيدة، عبر بحر الشرق

مقدمة:

في السادس من يناير، عام ١٧٠٨م، انطلقت سفينتان تجاريتان فرنسيتان، كاملتا التسليح، من ميناء بريست **Brest**[3] الفرنسي، للقيام برحلة تجارية عبر البحار. وكان من أهم أهداف رحلتهما الوصول إلى ميناء البن اليمني (المخا)، حيث كانت فرنسا إلى ذلك الوقت تحصل على البن، بواسطة الأتراك والإنجليز والهولنديين. وكانت إحدى السفينتين تسمى النويجيرجه **der Neugierige** (المستطلع)، والأخرى الفلايسجه **der Fleissige** (المجتهد)[4]. وقد تولى نشر هذا التقرير، عن رحلة السفينتين، دي لاروكيو **de la Roque**، ولكنه أكد أنه ليس صاحب التقرير، بل تلقاه من أحد رؤساء البحارة وراجعه معه، ليصبح جاهزاً للنشر.

ويسرد صاحب التقرير، الذي لم يفصح التقرير عن اسمه، تفاصيل الرحلتين وفق الترتيب التالي:

١. الرحلة الأولى: من عدن إلى المخا.
٢. الرحلة الثانية: من المخا إلى المواهب، عاصمة مملكة اليمن.
٣. مواصلة الرحلة في العربية السعيدة.
٤. ملاحظات حول شجرة البن وثمارها في العربية السعيدة.

وقد اكتفينا بترجمة الأجزاء الثلاثة الأولى من التقرير، من اللغة الألمانية، تاركين الجزء الرابع إلى وقت آخر.

---

(3) بريست هي مدينة وميناء فرنسي، تقع في أقصى غرب فرنسا وتطل على خليج الباسك وبحر المانش.

(4) تسميتان ألمانيتان، لعلهما ترجمة للتسميتين الفرنسيتين، اللتين لم تظهرا في التقرير.

الرحلة الأولى: من عدن إلى المخا:

نحن الآن على وشك الرسو في ميناء عدن، عند مدخل البحر الأحمر. وتقع مدينة عدن عند أقدام مجموعة من الجبال المرتفعة، المحيطة بها من جميع الجهات تقريباً. وعلى قمم هذه الجبال تنتصب خمسة أو ستة حصون، تمتد إليها خطوط الطرق الضيقة وعدد كبير من قنوات رائعة، تنساب فيها أعذب مياه العالم، لتصب في خزان ضخم، لايبعد عن المدينة بأكثر من ربع ميل، يؤمن للسكان حاجتهم من المياه، بل وأكثر من حاجتهم. ولقد أخطأ الجغرافيون الأوربيون، خطأً فادحاً، عندما ذكروا أنه يوجد نهر، يجري عبر مدينة عدن، إلى خارجها. لقد أخطأوا في فهم إشارة أبي الفداء(5)، الذي تحدث عن وجود بوابة للمدينة، تفضي إلى جهة البر، سماها بوابة الماء، وذلك لأن الماء العذب يُحمل إلى المدينة فعلاً عبر هذه البوابة. ومدينة عدن محاطة بالأسوار، التي تبدو حالتها الآن سيئة للغاية، ولاسيما في الجهة البحرية، حيث توجد بعض التحصينات المزودة بخمسة أو ستة مدافع، تستخدم بين الحين والآخر. ويبلغ وزن مقذوف بعضها ستين رطلاً. ويقال إن هذه المدافع قد تركها سليمان الثاني(6)، بعد أن اقتحم المدينة واحتل البلاد بكاملها وأجبر الأمراء المحليين على الإستسلام.

وليس هناك سوى طريق واحد، يوصل إلى المدينة من جهة البر، وهو طريق يمتد عبر ممر بري ضيق، يتصل بالمدينة، التي تبدو على شكل شبه جزيرة. وفي بداية هذا الطريق يوجد حصن يظهر فيه، بين الحين والآخر، بعض الحراس. وعلى مسافة قريبة من الحصن يوجد حصن آخر على شكل هلال، وفيه عدد كبير من المدافع، وعليها أطقم من الجنود، يرابطون بصورة دائمة، بحيث يصبح من المستحيل التسلل إلى المدينة من هذه الجهة، بل إنه لايمكن لشخص أن يمر في أي جزء من الطريق، بين المدينة وهذين الحصنين، دون أن يقع تحت أنظار الجنود.

أما بالنسبة للبحر، حيث يمكن للمرء أن يصل عبره إلى المدينة بسهولة، فإنه عبارة عن خليج تبلغ فتحته ثمانية إلى تسعة أميال، وفيه مرساءان للسفن، أحدهما بعيد نوعاًما عن المدينة، وهو

---

(5) هو اسماعيل بن علي الأيوبي (٦٧٢ــ٧٣٢هـ/١٢٧٣ــ١٣٣١م)، أمير عربي ومؤرخ، تقوم شهرته على تاريخه العام، المسمى (المختصر في تاريخ البشر)، الذي بدأه بتاريخ العرب قبل الإسلام، وانتهى فيه بسنة ٧٣١هـ/١٣٢٩م، ويعد تكملة لتاريخ ابن الأثير.

(6) لعله يقصد سليمان باشا الأرناؤوطي، المعروف بسليمان باشا الخادم، قائد الحملة التركية على عدن، عام ١٥٣٨م.

الأكبر. والآخر أصغر منه وأقرب إلى المدينة، وهو الذي يطلق عليه اسم الميناء. ومدينة عدن مدينة كبيرة إلى حدما، ولايزال بالإمكان مشاهدة عدد كبير من المنازل الجميلة، المكونة من طابقين. وفي الوقت نفسه يشاهد المرء الجدران القديمة جداً والمباني المهدمة، التي تدل على أن عدن كانت في الماضي منطقة مهمة، بل كانت أهم ثغور العربية السعيدة.

وموقع المدينة ضيق نوعاًما، ولكنه مريح جداً. وتنتشر فيه المروج الكثيرة، عند أقدام الجبال. ومع أن الفرنسيين[7] لم يكونوا يتوقعون شيئاً من عامل عدن، إلا أن الفضول لمشاهدة المدينة، وكذا الرغبة الملحة في رؤية ماكانوا يتوقعونه مسبقاً، من لطف وكرم العرب، دفعا قائدي السفينتين للرسو في ميناء عدن. وحيت كل سفينة من السفينتين قلعة الميناء، بإطلاق سبع طلقات من مدفعيتها. وردت القلعة التحية بمثلها، أي بسبع طلقات، تحيةً لكل سفينة وترحيباً بهما ودعوة لركابهما، للنزول إلى البر. وكان من شأن هذا الإستقبال، الذي أعقبه تقديم أنواع من المرطبات، أن يبعث الطمأنينة في نفوس الفرنسيين، ويجعلهم يتبعون، دون تردد، بعض الرجال المسلحين، الذين قادوهم عبر الدكة **Thake**، وهو الإسم الذي يطلق على البوابة البحرية، لكبرها، ولأنها تقود إلى الميناء. وقد لاحظوا أن البوابة سميكة جداً ومضروبة بالمسامير، أو بتعبير أدق بقضبان حديدية. ولمزيد من الأمان كانت البوابة مزودة بعارضة خشبية، يمكن تمريرها عبر البوابة، من خلال منطقة مقوسة، طولها حوالي خمس عشرة خطوة تقريباً، لتصل في الطرف الآخر إلى فتحة (كوّة) مقوسة أيضاً. واستقبلوا من قبل أمير ذي شأن، يسمى (أمير البحر)، وتعني هذه التسمية في الواقع (مسؤول الميناء)، استقبلوا استقبالاً طيباً، حيث دعاهم للجلوس على كراسي، ذات مساند، لها شكل جميل. ولم يطل بهم الحديث، إذ أرسل العامل، الذي بلغه وصولهم، يطلب حضورهم إليه.

فمضوا بادئ الأمر عبر بوابة حديدية، في قمة أحد المرتفعات، تفضي إلى بوابة أخرى، من الخشب. وكانوا يسيرون وسط صفين من الجنود، وعلى يسارهم أمير البحر. وعندما وصلوا إلى قصر العامل، كان عليهم أن يصعدوا درجاً، بدت غاية في الجمال، ليصلوا إلى أفضل قاعة في

(7) سيلاحظ القارئ أن التقرير ينتقل، دون تمهيد، من سرد الوقائع بلسان شخص عاشها ويرويها، إلى سردها بلسان شخص يرويها، دون أن يكون قد عاشها. وقد أشرنا في المقدمة، إلى أن الراوي لم يكن مشاركاً في هذه الرحلة. ولكنه مع ذلك تحدث، بين الحين والآخر، بلسان من عاش تلك الوقائع، فاستخدم مثلاً صيغة "نحن الآن على وشك الرسو في ميناء عدن" و "فهمنا منهم". مما قد يدل على تداخل صيغتي الراوي الأصلي، الذي عاش وقائع الرحلة، والراوي الآخر، الذي أعاد مع الأول مراجعة التقرير وقام بنشره، وهو دي لاروكيو **de la Roque**. وقد أبقينا الصيغتين على حالهما، كما هما في النص الألماني.

القصر، حيث كان العامل يجلس في صدرها، في موضع عالٍ، مغطى ببساط فخم، مستنداً على وسائد مطرزة بخيوط ذهبية اللون. وكانت حاشيته تجلس على بساط آخر، على يمينه وعلى يساره. وبدا الجزء الآخر من الصالة مغطى بقطع من الحصير الناعم. إقترب الفرنسيون من مقعد العامل المرتفع، دون أن يخلعوا أخذيتهم، الأمر الذي لايُسمح به لغيرهم. ولم يتضمن الحديث، الذي دار مع العامل، شيئاً ذا بال. فقد سألهم عن وجهتهم، ثم تناولوا شراب القهوة. ومن جانبهم، وعلى سبيل المجاملة، عرضوا عليه المساعدة من قبل أحد أطباء الإسعافات الأولية[8]، المرافقين لهم، لمعالجته وأفراد أسرته. واعترافاً بالجميل زودهم العامل برسالة توصية إلى عامل المخا.

وغادروا ميناء عدن في السابع والعشرين من شهر يناير. وبما أنه كان قد سُمح لهم بمشاهدة المدينة بحرية، فقد احتفظوا في ذاكرتهم بصورة رائعة للحمامات العامة، التي كانت مزينة بالمرمر، وتعلوها من الخارج سطوح جميلة، كروية الشكل، مزينة في داخلها برسوم مختلف، محمولة على أعمدة ضخمة، ويتكون الحمام من غرف وأقبية تتوسطها صالة كبيرة.

وكان قبطانا السفينتين قد نُبها إلى أن يكونا حذرين، عندما يغادران بسفينتيهما الخليج، حتى يتجنبا مخاطر التيارات المائية. وكانت التيارات تتحرك حركة سريعة، من أمام مقدمة الجبال الداخلة في البحر، وكأنها تحاول الصعود نحو قممها. ورغم جهود المرشدين، فإن السفينتين، اللتين لم تكترثا بالتحذيرات، أبحرتا بمحاذاة مقدمة الجبال، بمسافة لاتزيد عن ربع ميل. تلك المقدمة، التي يبلغ ارتفاعها، كما يبدو، ثلث ميل، وشكلها منتصب وشديد الإنحدار. وعلى تلك المقدمة يُشاهد برجان، مع حراسهما. ويمكن رؤية البرجين من قصر، لايبعد عن المدينة بأكثر من نصف ميل، يشاهد السكان على سطحه الأعلام والإشارات، التي ترفع لتحذيرهم، عند اللزوم. ويؤكد البعض أن المرء يمكنه، من على مقدمة الجبال هذه، أن يرى في كل الإتجاهات، إلى مسافة عشرة أميال، وأن هذه المقدمة يمكن رؤيتها من البحر، من مسافة خمسة عشر، إلى عشرين ميلاً. وتبدو سواحل عدن سواحل رملية قاحلة. ولكن إذا ماتوغل المرء قليلاً نحو الداخل، فإنه سيجد أرضاً مليئة بالأحراش والأوحال.

(8) الترجمة الحرفية هي أطباء الجروح **Wundartzen**، وهم في الواقع ممرضون مدربون على تضميد الجروح وتقديم الإسعافات والعلاجات الأولية، أثناء الرحلة، ريثما يصل المريض إلى ميناء، يتوفر فيه أطباء ومستشفيات.

نُصح الفرنسيون بإلحاح، بأن يبحروا نحو الغرب، ثم يدوروا ربع دائرة ويتجهوا نحو الشمال الغربي. ولكن قبطان السفينة فلايسجه كان عنوداً، وأصر على الإبحار نحو الغرب، ثم الجنوب الغربي. واضطرت السفينة نويجيرجه، التي كانت تبحر خلفه، أن تقتفي أثره وتسايره في خطئه. وفي اليوم التالي شوهدت، على الشاطئ الأفريقي، عند مدخل البحر الأحمر، الجبال الشهيرة، المعروفة بباب المندب. ولكن لم يتم التعرف عليها. ولأن السفينة فلايسجه لم تتوقف، بل واصلت إبحارها، بنفس الإتجاه، فسرعان ماوجد الفرنسيون أنفسهم في مدخل خليج، تبلغ فتحته حوالي ستة أميال، وفي وسطه جزيرة. وعندما تم التدقيق في الخارطة، اتضح أن الخليج والجزيرة، التي في وسطه، يقعان في مدخل البحر الأحمر. فواصلت السفينتان الإبحار في الخليج. وبعد أن قطعتا مسافة ميلين، ظهر زورق، متجه نحوهما، وعليه عشرون رجلاً، إضافة إلى مرشدين ومترجم بينيان. وقد فهمنا منهم أن هذا الخليج هو خليج تاجوره **Tagora**، وتاجوره هي مدينة أفريقة، تابعة لمملكة عدل وزيلع **Adel & Zeila**، التي كانت من قبل جزءاً من مملكة الحبشة. وما أن وصل الزورق حتى سلم للفرنسيين رسالة من الملك، مكتوبة باللغة العربية(9). إذ أن السكان على الشاطئ شاهدوا السفينتين، في اليوم السابق، وأبلغوا على الفور ملكهم، الذي لم يساوره شك، في أنهما ما جاءا إلا بحثاً عن فرصة للتجارة أو للحصول على بعض المرطبات. لذا بادر إلى إظهار كرمه مسبقاً.

تلقى الفرنسيون عرضه بارتياح بالغ، لأنه لم يكن قد بقي عليهم، للوصول إلى تاجوره سوى نصف ميل. وبدت لهم هذه البلاد خلابة. ولكن لأنهم كانوا قد تركوا زورقهم يبحر أمامهم، ومعه أدوات قياس العمق والإتجاه، وكان الليل قد داهمهم، ووجدوا أمامهم صخوراً مغمورة بالمياه، لايمكن العبور عليها، فقد أحجموا عما كانوا قد عزموا عليه، من زيارة تلك البلاد، وأخذوا المرشدين معهم، على ظهر السفينة نويجيرجه، وأعادوا المترجم، محملاً بالهدايا وبالإعتذار لسيده، عن عدم تمكنهم من زيارته، مع الوعد بأنهم سيكافئون المرشدين، اللذين أخذوهما معهم، للإستعانة بهما.

(9) كُتبت الرسالة أصلاً باللغة العربية، وقام الراوي بترجمتها إلى اللغة الألمانية. ونحن بدورنا ترجمناها من النص الألماني إلى اللغة العربية. وهذا يعني أن الترجمة العربية هنا، ليست مطابقة حرفياً للنص العربي الأصلي، ولكنها تعطي مضمون النص العربي الأصلي، بقدر دقة ترجمته الألمانية. أنظر ترجمة الرسالة في نهاية التقرير.

ويعبر كاتب التقرير[10] عن أسفه لعدم تمكنه من ايراد معلومات عن مدينة تاجوره، كان من شأنها أن تكون مفيدة جداً، تماماً كالمعلومات الخاصة بالتجارة، لو أنها سجلت، لأن هذه البلاد ليست معروفة كثيراً للرحالة الأوربيين. هذه الخواطر مالبثت أن أفسحت المجال للخوف المتزايد لدى الكاتب، عندما أحس بالزبد، الذي حمل إليه نذر الخطر. فقد وجد نفسه فجأة على طرف دكة مخيفة، حيث اصطدمت سفينته عدة مرات، بسبب حركة الأمواج، التي مزقت بعض قطع قاعدة السفينة. ولكن العناية الإلهية والجهد، الذي بذلته السفينة نويجيرجه، مكناها من الخلاص والإبتعاد إلى خارج الخليج. لكنها لم تكن قد ابتعدت عن اليابسة بأكثر من ميل واحد، حينما هدأت الرياح تماماً، مما جعلها عاجزة عن مواصلة الإبحار طوال الليل. ومع بزوغ الفجر، بدأت تهب الرياح، دافعة أشرعة السفينتين بعيداً عن اليابسة. ولم يأت المساء حتى كانت السفينتان قد دخلتا في الطريق البحري الشهير، طريق البحر الأحمر، أو بحر العرب. ولفائدة الملاحة البحرية، لابد هنا من ايراد ملاحظات، حول طبيعة هذا الطريق. يقول المؤلف، إن مقدمة الجبال المطلة على البحر، المسماة Gardafu، والتي تقع في مملكة عدل، تقف وجهاً لوجه أمام مقدمة الجبال، الواقعة على الشاطئ العربي. وتبلغ المسافة بين الجهتين حوالي خمسين ميلاً بحرياً، ثم تضيق تدريجياً، حتى تصل إلى حوالي أربعة أميال بحرية، مكونة قناة صغيرة، هي التي يطلق عليها في الواقع إسم (الطريق البحري). وبعد هذه القناة يبدأ البحر بالإتساع، حتى يصل إلى مئتي ميل بحري، ويمتد إلى شواطئ متعددة الأسماء، تنتشر من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. ويصادف المرء، عند الدخول في طريق البحر الأحمر، خليجاً رملياً، عمقه عشرة خيوط[11]، تمكنت السفينتان من الرسو فيه، في مواجهة مسجد يحيط به عدد كبير من أكواخ الصيادين. وأمام هذا الخليج، على الجهة اليمنى من السفينتين، يشاهد المرء الجزيرة، المسماة (باب المندب)، التي أعطت لهذا المضيق البحري اسمها، أو أخذت منه اسمه. ويبلغ طولها حوالي ميلين بحريين. أما عرضها فليس واسعاً. ويبدو بعض أجزائها أخضر، ولكن معظمها صخور جرداء، تهاجمها الرياح والأمواج وتحرقها أشعة الشمس الحارة. وقد وجد المؤلف أن هذه الجزيرة توضع في معظم الخرائط بصورة غير سليمة، حيث تبدو في منتصف الطريق البحري، في حين أنها، في حقيقة الأمر، تقع في الساحل العربي، لاتفصلها عن اليابسة سوى

(10) الكاتب الحقيقي للتقرير، الذي لم يرد إسمه، وورد بدلاً عنه اسم ناشر التقرير دي لاروكيو.

(11) مقياس العمق.

مسافة قصيرة. وفي مدخل الطريق، وعلى مقربة من الجزيرة ، يمكن للسفن أن تجد مكاناً مثالياً للرسو. ويوجد خليج آخر مماثل لهذا الخليج، ألقت فيه السفينتان مراسيهما، يبلغ عرضه ربع ميل، ويقع بجانب أرض منخفضة، يشاهد المرء عليها بيوتاً مغطاة بالحصير. وعادة مايلقي قراصنة البحار في هذه المنطقة مراسي سفنهم، عندما تهب الرياح الجنوبية الغربية، فيؤمن لهم الخليج الحماية اللازمة منها.

وعلى الجبل العالي، المسمى أيضاً (باب المندب)، والذي تشكل مقدمته، مع الشاطئ الأفريقي، مضيق باب المندب، كان يوجد في الماضي حصن في مدخل الخليج ، يتولى الدفاع عن مكان رسو السفن، ولم يبق اليوم منه سوى أطلاله. ويمكن للمرء الإقتراب من الساحل إلى أي مسافة يريد. وسارت السفينتان على بعد ربع ميل منه فقط. ويمكن هنا جلب مواد من البر بسهولة، كالمرطبات والبخور والصمغ وغيرها من المواد. ومن ميناء المخا يُرسل المراقبون إلى هنا، ليروا ماإذا كانت السفن العربية والهندية تمر بسلام. وقد اعتاد القراصنة، عند مغادرتهم المضيق، أن يبحروا بمحاذاة اليابسة، وبمحاذاة سلسلة جبال عدن، التي تمتد إلى مسافة تزيد على الخمسين ميلاً بحرياً.

رفع الفرنسيون مراسي سفينتيهما عند بزوغ الفجر، الذي حمل معه ريحاً نشطة، وولوا وجوههم شطر ميناء المخا، الواقع في خليج، يبعد مسافة عشرين ميلاً بحرياً من مضيق باب المندب. واعتباراً من باب المندب تُشاهد أرض منخفضة، تمتد حتى تصل إلى جبال مرتفعة. ومن على ظهر السفينة يشاهد المرء، دون انقطاع، أرض اليمن[12]، على بعد ميلين، وأحياناً يشاهد في مايشاهده بعض الأحراش. وأخيراً ظهرت في الأفق، على بعد ستة أميال، مدينة المخا، مشكلة بأبراجها العالية ومساجدها المطلية من الخارج باللون الأبيض، منظراً بديعاً. وأحس الفرنسيون بأن مايرونه هو بمثابة مكافأة لهم، بعد ماتجشموه من مشاق السفر الطويل. إذ بدأت تظهر لهم أشجار النخيل وأشجار أخرى خضراء، تمتد حتى تصل إلى المدينة. ونظراً للخوف من الصخور، المنتشرة في هذا الساحل، اقتربت السفينتان وهما ملتزمتين التزاماً تاما بالخط، الذي حدده المرشدان. وكان عمق البحر يبلغ أحياناً ثمانية خيوط، وأحياناً يصل إلى خمسة خيوط. وقد سيطرت على المرشد، الذي

(12) إستخدم كاتب التقرير غالباً إسم العربية **Arabiea**، بدلاً من اسم (اليمن). كما استخدم الإسم نفسه تقريباً **Arabien**، بدلاً من اسم (شبه الجزيرة العربية).

رافق السفينة فلايسجه، أوهامه المبالغ فيها، حتى كاد أن يهلك، عندما أراد أن يسلك طريقاً آخر، فصادف منطقة مليئة بالطين، المختلط بالرمال، لولا أن الرياح القوية ، لحسن الحظ، دفعته بعيداً عن تلك المنطقة.

في الثالث من يناير ١٧٠٩م رست السفينتان في الجهة الشمالية من ميناء المخا، في مكان يبلغ عمقه ستة خيوط، وقاعه رملي، فيه بعض الصدف والصخور، ويطل عليه حصن، يتولى حمايته. والميناء محاط بلسانين من اليابسة، لهما شكل قوس، وكأنهما معاً يشكلان هلالاً مكتملاً. وعلى طرف كل منهما حصن، لحماية مدخل الميناء. وتفصل بين الحصنين مسافة، لاتزيد عن ميل واحد، ترسو فيها السفن الكبيرة. وذلك لأن الجزء الداخلي من الميناء ليس بالعمق الكافي، لاستقبال هذه السفن.

وما أن ألقت السفينتان مراسيهما، حتى شاهد ركابهما، على كل حصن، علماً أحمر، مرسوماً عليه ثلاثة أهلّة وشكل أشبه بصليب اندرياس[13]. كما شاهدوا العلم الهولندي في موضع بعيد عن المدينة، مرتفعاً كتحية موجهة من ممثل هولندا للفرنسيين، وعلماً آخر، شبيهاً بالأعلام المرفوعة على الحصون، مرفوعاً فوق منزل عامل المخا. وأطلقت السفينتان سبع طلقات مدفعية، على سبيل التحية. وردت عليها مدافع المدينة بخمس طلقات. واقترب قارب من السفينتين، يحمل أمير البحر، أو رئيس الميناء، الذي كان يرتدي ثوباً أخضر، بأكمام واسعة، مدلاة إلى الأسفل، شبيه بثياب الرهبان، وعليه صدرية. وكان يرافقه مترجم من البينيان، يتحدث اللغة البرتغالية، ويرتدي ملابس بيضاء وحزاماً مطرزاً جميلاً وشالاً حريرياً، ملقى على الكتفين. وسرعان ماحضر أيضاً رجل هولندي، من البيت التجاري الهولندي، يرتدي ملابس تركية ويتحدث اللغة الفرنسية. وكان أمير البحر يحمل رسالة من العامل إلى الفرنسيين، دعاهم فيها للنزول إلى البر، دون خوف. كما كتب إليهم اثنان من المبشرين الإيطاليين، كانا يقيمان في المدينة، كتبا رسالة، تمنيا لهم فيها وصولاً سعيداً. ولما بدا كل شيء مواتياً للنزول، فالعامل نفسه اقترح أن يقيم لهم حفلاً، بمناسبة وصولهم، باعتبارهم أول فرنسيين يصلون إلى منطقته، قرر قائدا السفينتين النزول، ليجدا في استقبالهما اثناعشر حصاناً جميلاً ومئتا جندي مع الطبول. وسرعان ماأُخذا ومن معهما إلى قصر العامل. ودار

(13) وضع دي لاروكيو ملاحظة في الهامش بأن ذلك الشكل شبيه بشكل سيف علي بن أبي طالب المشهور (ذو الفقار).

الحديث بشكل مريح. وكانت نتيجة حديثهما في اليوم الأول لوصولهما وضع اتفاقية، حُددت فيها قواعد التعامل التجاري ومقدار الرسوم الجمركية.

وكان الهولنديون، حتى ذلك الحين، هم الوحيدون، الذين توجد لهم ممثلية تجارية في المخا. وكانوا يملكون بيتاً تجارياً فخماً، يستقبل سنوياً باخرة، مرسلة من شركتهم، محملة بسبع مئة طن من البضائع، لتعود محملة بالبن والسلع العربية الأخرى، فتتجه إلى المخازن الهولندية في بتافيا Batavia[14]، ومنها إلى الهند.

ومدينة المخا ليست في مستوى مدينة عدن، إلا أنها أصبحت مركزاً تجارياً هاماً، لايزيد سكانها عن عشرة آلاف، جميعهم تقريباً مسلمون، إلى جانب بعض الأرمن، وعدد كبير من الفقراء اليهود، الذين يسكنون في حي خاص بهم خارج المدينة. والمدينة مسورة، على النمط القديم. وأسوارها مبنية بالحجارة والطين، المخلوط بالتبن، ولها أبواب كثيرة وخنادق. ولأغراض الدفاع هناك عدد من الأبراج، مزود بعضها بالمدافع، ويحرس الأبراج جنود يقومون بأعمال الدوريات ليلاً، وفي النهار يقفون في الميناء وفي السوق، لضمان الأمن العام، ويجتمع منهم يومياً، في الساحة الكبيرة، خمس مئة جندي، من منتصف النهار، حتى الساعة الثانية بعد الظهر، ليرافقوا العامل وصحبه، في موكب مهيب، إلى المسجد. وبعد الصلاة يعود الموكب، ويطلق الجنود أثناءه طلقات من بنادقهم إلى الهواء، مما يحدث أحياناً فزعاً في نفوس الأجانب. وتعيش النساء في المخا في شظف من العيش، ولايظهرن طوال النهار. أما في الليل فتعطى لهن بعض الحرية، ليزر بعضهن البعض الآخر. ويصادفهن المرء أحياناً في منتصف الليل، ينتقلن من منزل إلى منزل، بمرافقة عبيدهن، يضئن طريقهن بشعلة واحدة. فإذا ماواجهن رجالاً في الطريق، توقفن والتجأن إلى جدران المنازل، باحتشام شديد، مفسحات الطريق لهم. ولا تختلف ملابسهن كثيراً عن ملابس النساء الشرقيات. ولكنهن بصورة خاصة يرتدين الحجاب الفضفاض، الذي يغطي وجوههن، دون أن يحجب الرؤية، عبر غطاء الوجه الرقيق، وينتعلن أحذية صغيرة. وتؤكد بعض الأمثلة، التي أوردها المؤلف، من خلال مشاهداته، أن النساء هنا لايملن إلى إقامة علاقات غرامية.

---

(14) إسمها الآن جاكرتا، في أندونيسيا.

وحول المدينة تبدو الأرض جرداء قاحلة، ومياهها تميل إلى الملوحة. وكل سواحل البحر الأحمر سواحل جرداء. ومن بينها تعتبر منطقة المخا بحق أسوأ المناطق، والحرارة فيها شديدة، وأمطارها نادرة. وقد عرف المؤلف، حين وصوله أن الأمطار لم تهطل في المخا منذ عامين. كانت الحرارة في شهر يناير شديدة، في الوقت الذي تكون فيه باريس عادة باردة وتستخدم المدافئ. وفي الأشهر شديدة الحرارة، التي اعتادها السكان، تراهم يشكون من البرد، لو هبت، لبعض الوقت، ريح جنوبية، ويسارعون إلى ارتداء ملابس تقيهم البرد، وهي الملابس، التي يرتدونها طوال أشهر الشتاء، ولا يخلعونها إلا في شهر مارس. وخلال إقامة الفرنسيين في المخا هطلت الأمطار مرتين. وقد لاحظوا أن ريح الجنوب، التي تهب من البحر، تأتي في الساعة التاسعة أو العاشرة صباحاً، فتنعش الجو، ولكنها غير كافية لكبح جماح الحر الشديد.

وعلى الرمال المحيطة بالمدينة تنمو أشجار النخيل، التي تروى بمياه عدد كبير من الآبار، وتراها محملة بالرطب. وفي بعض المناطق يزرع الدخن والذرة (الغرب)، التي يبلغ ارتفاعها ثلاثة أضعاف ارتفاع الذرة لدينا. وبعد الأمطار تظهر طبقة من الملح، تغطي وجه الأرض. ويحصل السكان على ملح الطعام دون جهد يذكر، وذلك بحفر حفرة في الأرض وترك مياه البحر تنساب إليها، ثم تترك لتجففها الشمس، ثم يفتت الملح المترسب المتصلب، باستخدام الفأس.

وهنا يسترسل المؤلف في ملاحظاته، ليقدم تعريفاً واضحاً بالبلاد، التي يأتي منها البن. يقول المؤلف، إن شجر البن الطيب يقصده الناس من بقاع الأرض البعيدة. ومما هو معروف للجميع أن شبه الجزيرة العربية تشمل أرضاً واسعة، تمتد من مضيق البحر الأحمر، إلى الخليج الفارسي[15]، ومن بحر الشرق والبحر الهندي، إلى حدود سوريا وفلسطين ومصر. وتشكل شبه جزيرة كبيرة، في العالم المعروف. وتضم شبه الجزيرة العربية أيضاً الجزء الكبير، الذي تحيط به الصحراء، والمسمى العربية السعيدة. وتتوزع شبه الجزيرة إلى ممالك عديدة، ليست معروفة لنا، تحكم حتى اليوم من قبل ملوك أو أمراء، لايخضعون لحاكم أكبر، ولايتبعون ملك إيران. وأهم هذه الممالك مملكة اليمن، وتشمل الجزء الأكبر من العربية السعيدة. وتمتد هذه المملكة نحو الشرق، على امتداد بحر عدن. ويحدها من الغرب البحر الأحمر، ومن الشمال مملكة الحجاز، التي يحكمها شريف مكة.

---

(15) يقصد الخليج العربي.

وينفرد اليمن عن بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية، دون استثناء، بزراعة البن. وتنتشر زراعة البن، بصورة خاصة، في ثلاث مناطق: في بيت الفقيه وصنعاء و **Galbany**، التي تستمد أسماءها من ثلاث مدن جبلية[16]. وكل المناطق المحاذية للبحر، ماهي إلا عبارة عن شريط من الأرض، جاف وقاحل، لايزيد عرضه في بعض أجزائه عن عشرة أو اثني عشر ميلاً. وبالمقابل تنتصب خلف هذا الشريط جبال، تنتشر فيها، إلى جانب أشجار البن، أشجار كثيرة، مثمرة ومتنوعة، ومياه نقية جداً، مع طقس معتدل جميل وربيع دائم تقريباً.

وفي ميناء عدن يمكن أن يتم تصدير البن الآتي من صنعاء ومن **Galbany**، ولكنه ليس البن الأفضل في اليمن. فأفضل أنواع البن هو بن بيت الفقيه. ولهذا السبب، ورغبة في عدم شرائه من المخا، بسعر أعلى، أراد الفرنسيون أن لايتوقفوا في مينائي عدن أو المخا، بل بادروا، فور توقيعهم على الإتفافية، المعقودة بينهم وبين عامل المخا، إلى إنشاء مقر لهم في بيت الفقيه، لجلب البن من منطقة بيت الفقيه، إلى المخا. وتبعد بيت الفقيه عن المخا بحوالي خمسة وثلاثين ميلاً بحرياً، إذا سار المرء بمحاذاة ساحل البحر الأحمر، الذي لايبعد عن بيت الفقيه سوى بعشرة أميال. ويستغرق المسافر، للوصول من بيت الفقيه إلى المخا سفر يومين قصيرين. وعندما يقطع ثلثي الطريق يشاهد أمامه مدينة اسمها (زبيد)، كانت كما يبدو مدينة مهمة، ولكنها تفتقر الآن إلى الماء. رغم أن كثيرين من الجغرافيين، يقولون إن نهراً يمر بها. ويبدو هذا القول صحيحاً، إذ يصادف المرء في طريقه عدداً من الجسور الصغيرة، التي وضعت للعبور فوق جداول الماء، أو بتعبير أدق، فوق تيارات الماء، التي تتدفق من الجبال، في أوقات معينة ، ولكنها سرعان ماتتلاشى في الرمال الحارة، ونادراً ماتصل إلى البحر. ومدينة بيت الفقيه أكبر من مدينة المخا بكثير. ولكنها مع ذلك تتبع عامل المخا، وفيها مساجد مزركشة، تعلوها قباب بيضاء، وبيوتها مبنية من الطين، ويتكون معظمها من طابقين، وسطوحها مستوية. وليست مدينة مسورة، ولكنها محمية بواسطة قلعة متينة، يُرفع إليها الماء من بئر عميقة، بواسطة جمل، يعمل دون توقف. ويكون الماء عند رفعه حاراً، يتصاعد منه البخار، إلى درجة يصعب على المرء شربه. لذا يُترك طوال الليل، ليصبح بعد ذلك عذباً ومستساغاً. ويُشاهد في بيت الفقيه سوقاً كبيراً للبن، يشغل ساحتين كبيرتين، محاطتين بمعرض مسقوف. ويجلب العرب

---

(16) من الواضح أن المؤلف لم يتعرف، بصورة دقيقة، على أسماء بعض المناطق، ولم يفرق بين المدن الجبلية والمدن التهامية، كما لم يفرق بين مناطق زراعة البن ومناطق بيعه.

البن من المزارع في سلال كبيرة، مصنوعة من الحصير، أولعلها من الخيزران أومن اليراع، تُحمل كل اثنتين منها على ظهر جمل. وتتم المساومة والشراء بواسطة البينيان، الذين يتميزون في اليمن بدورهم كوسطاء، كما حالهم في الهند. وفي نهاية السوق يشاهد المرء مسطبة عالية، ارتفاعها حوالي أربعة أقدام، يجلس عليها موظفو الجمارك، وأحياناً يجلس عليها العامل، مفترشاً بساطاً. فتقدم إليهم الحسابات، عن كل مايباع من البن، لترسل ضريبته للملك[17]. وتُستخدم للوزن موازين، ذات كفات واسعة، توضع عليها قطعاً ضخمة من الحجارة، بدلاً عن قطع الأوزان الحديدية المعروفة. ويدفع البائع الضرائب على ماباعه بالقروش المكسيكانية[18]. فمنذ اكتشف السكان أن البرتغاليين يغشون العملة، امتنعوا عن التعامل بالقروش البيرونية[19] والسيفيليانية[20]. ويتعامل السكان أيضاً بالعملة الذهبية.

ويجلب البن يومياً إلى بيت الفقيه، من المزارع، التي لاتبعد عن المدينة بأكثر من ثلاثة أميال. والسوق مفتوح طوال أيام الأسبوع، ماعدا يوم الجمعة. وذلك لأن العامل والتجار يذهبون جميعهم وقت الظهر إلى المسجد، تحت أعلام الرسول والملك. ويصدر البن، الذي يباع في بيت الفقيه، إلى تركيا ومصر والهند. ويحمل التجار المصريون والأتراك البن من بيت الفقيه على ظهور الجمال. حيث يحمل الجمل الواحد رزمتين، فيهما حوالي مئتين وسبعين رطلاً من البن، إلى ميناء صغير، على البحر الأحمر، لايبعد عن المدينة بأكثر من عشرة أميال. ومن هناك ينقلونه على السفن، مسافة مئة وخمسين ميلاً بحرياً، إلى جدة. وهي في الواقع ميناء مكة. ومن جدة تحمله سفن تركية إلى السويس، آخر موانئ البحر الأحمر، الذي يتبع الحاكم الكبير[21]. ومن السويس يُحمل مجدداً على ظهور الجمال إلى مصر. كما يُحمل إلى مختلف البلاد العثمانية، إما على القوافل، أو عبر البحر المتوسط. وكل البن، الذي يصل إلى فرنسا، يأتي إليها عبر مصر.

---

(17) يقصد الإمام. وسنبقي لقب (الملك) على حاله،كما هو في النص الألماني. ولن يخفى على القارئ، من خلال السياق، أن المقصود به هو (الإمام).

(18) عملة مكسيكية، كانت كما يبدو متداولة في ذلك الحين في اليمن.

(19) نسبة إلى البيرو.

(20) نسبة إلى منطقة سفيليا في أسبانيا.

(21) السلطان العثماني.

الرحلة الثانية: من المخا إلى مدينة المواهب، عاصمة مملكة الإمام[22]:

يمكن للمرء أن يطلع على تقرير آخر عن مملكة اليمن، أعد في الرحلة الثانية، التي جهزت من قبل الشركة التجارية في سانت مالو St.Malo[23]، في عام ١٧١١م حيث ابحرت سفينتان، تابعتان للشركة[24]، بقيادة دي لا لانده de la lande، وبريسيليانه Briselaine، ووصلتا في شهر يناير[25] إلى المخا ووجدتا العامل نفسه، الذي كان في الرحلة الأولى في عدن، وكان أخوه، الشيخ صالح، قد حظي بمكانة عالية، لدى الملك وأصبح الرجل الأول في الدولة. إستقبل العامل الفرنسيين، استقبالاً طيباً للغاية، وعاملهم معاملة خاصة، في مايتعلق بالضرائب. وحدث أن مرض الملك، أثناء وجود الفرنسيين في المخا. فحدثه رجل الدولة المقرب (الشيخ صالح) بإعجاب، عن الأطباء الفرنسيين، ونصحه أن يستدعي واحداً منهم، ممن كانوا في السفينتين الراسيتين في المخا. وسرعان ماقدم إلى قادة السفينتين رسول من مقر الملك، يحمل رسالة ودية، تتضمن طلب الملك، بأن يسدي له الفرنسيون هذا الجميل. وحتى يكون الرسول في مستوى لائق، لحمل هذه الرسالة، اختار الملك سكرتيره الأول، السيد عبد ال[26] لهذه المهمة. وحمل ذلك الموظف، كعلامة على مكانته العالية، بلطة، بمقبض فضي، وضعها في حزامه، أوعلقها على حصانه. وأخذ قادة السفينتين كلمة طبيب، التي تكرر ورودها في الرسالة، بمعناها الدقيق. لذا كان ردهم، كبحارة حقيقيين، أنه لايوجد لديهم طبيب على ظهر السفينتين، بل رجال ماهرون، قادرون على بتر الأيدي والأرجل وربط الجروح، ويمكنهم معاينة المرضى، وقد يفلحون أحياناً في شفائهم. فأكد لهم سيدي عبد ال، أن سيده بحاجة إلى هذا النوع من الأطباء، فهو يشكو من ورم مزعج في أذنه. وعلى ذلك قرر قادة السفينتين انتهاز هذه الفرصة الثمينة، لكي يعرِّفوا الإمام بالأمة الفرنسيين، ولكي يتعرفوا هم أيضاً، على بلد كهذا البلد، لما في ذلك من فوائد تجارية كثيرة. ولتحقيق هذه الغاية، ارسلوا إلى الملك

---

(22) الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن، الذي تولى الإمامة عام ١٠٩٧هـ / ١٦٨٦م، وجعل من مدينة المواهب عاصمة له، فعرف بالمهدي صاحب المواهب.

(23) مدينة وميناء في شمال غرب فرنسا.

(24) ليس واضحاً في التقرير، ماإذا كانت هاتان السفينتان هما ذات السفينتين، اللتين قامتا بالرحلة الأولى، أم هما سفينتان أخريان للشركة نفسها.

(25) عام ١٧١٢م.

(26) هكذا ورد الأسم في التقرير، جهلاً من كاتب التقرير، كما يبدو، بالأسماء العربية المركبة.

ممثلاً رسمياً، هو ضابط عسكري من أنجرس Angers[27]، اسمه دي لا جريلوديري de la Grelaudiere، كان رئيساً للحرس في جامعة بوندشيري Pondicherry[28]،والتحق بالسفينتين ليعود معهما إلى فرنسا. لقد كان رجلاً عاقلاً، ويحسن اللغة العربية، بدرجة جعلته غير محتاج لأن يسير خلف المترجم البرتغالي. ورافقه طبيب الجروح، كما زود ببعض الهدايا للملك. وكان أفضلها مرآة جميلة، ارتفاعها خمسة إلى ستة أقدام، مع بعض المسدسات، المصنوعة صناعة خاصة، وبعض من أجمل الأدوات الفرنسية.

وفي الرابع عشر من شهر هورنونج hornung[29]، ١٧١٢م، غادر الوفد المخا، بصحبة مبعوث الملك، على ظهور خيول جميلة جداً. وكانت القافلة تتكون من حوالي عشرين شخصاً، مع جماعة من الحرس الخيالة، وعدد كبير من حيوانات النقل، التي تحمل مواداً غذائية. ووصل الموكب أولاً إلى مدينة صغيرة، تبعد بحوالي عشرة أميال من المخا، إسمها موسى Mosa[30]، التي يأتي منها كل الدجاج تقريباً، الذي يصل إلى المخا، كما أنها مطرح للفواكه العابرة من الجبال. وفي اليوم التالي واصل المسافرون سفرهم، حوالي خمسة عشر ميلاً، حتى وصلوا إلى قرية Mangery، القرية الصغيرة، المكونة من ستة إلى سبعة منازل، حيث باتوا فيها، تحت أشجار النخيل وشجر الحور. وفي اليوم الثالث انطلق المسافرون، في الصباح الباكر، باتجاه مدينة Tage، التي تبعد عشرة أميال عن Mangery. وكانت الرحلة مريحة جداً، في منطقة سهلية طوال الوقت. ومدينة Tage مدينة كبيرة، محاطة بسور جميل، أقامه الأتراك، وفيها قصر فخم، على جبل، يمكن الإشراف منه على المنطقة. وعلى بعد ستة أميال يُشاهد حصن مكون من ثلاثين قسماً، يُستخدم سجناً، يودع فيه خصوم الدولة. وعلى سفوح الجبل تبدو مزارع خضراء كثيرة، بديعة المنظر، تزود المدينة بمنتوجات عديدة. وعامل المدينة هو ابن الملك. ولأن الفرنسيين لم يغفلوا زيارته في قصره، فقد استقبلهم بحفاوة. وبعد ذلك زاروا جانباً من المدينة وأعجبوا بالمساجد ، بصورة خاصة. وفي الصباح التالي واصلوا سفرهم نحو Manzuel[31]. ولأول مرة شاهدوا، على بعد ستة أميال من

---

(27) مدينة في غرب فرنسا.

(28) مدينة في جنوب غرب الهند، إلى الجنوب من مدراس.

(29) الإسم الألماني القديم لشهر فبراير.

(30) إسمها موشج. وقد توهم بعض الرحّالة، بأنها موسى، الوارد ذكرها في التوراة.

(31) لعلها المترل. وهو إسم مشترك لقرى كثيرة في اليمن.

Tage، أشجاراً عليها ثمر البن، حيث تنبت في تلك المنطقة أجمل الأشجار المثمرة في اليمن. وفي Manzuel يوجد قصران قديمان جداً، أحدهما أقام فيه الملك القديم، عندما كان يحارب الأتراك. ومن Manzuel اتجهت القافلة نحو مدينة يريم، التي تبعد بأكثر من ثلاثين ميلاً. ويصادف المرء في طريقه مدينة جبلة، وهي مدينة صغيرة، ليست مسورة إلا من جهة واحدة. أما مساجدها فقد زادتها قبابها جمالاً على جمالها. وبات الركب ليلته تحت الأشجار. وفي اليوم التالي وصل الركب، دون عناء إلى يريم، وهي مدينة كبيرة غير مسورة. وإذا خرج المرء من المدينة، فإنه يشاهد جبالاً، لعلها أعلى جبال اليمن. وهذه الأرض، التي كانت تبدو خصبة جداً، بما في ذلك مدينة يريم، رغم أن المرتفعات كانت تقطعها، تصبح، بعد يريم، جافة وقاحلة. إذ لم يعد المرء يشاهد أشجاراً ولا ودياناً مليئة بأشجار البن، ولم تعد الأرض هنا تُسقى من المياه المنحدرة من الجبال، كما كان الحال في الأرض، التي شوهدت خلال الطريق تُسقى من الجداول الكثيرة، التي مع كثرتها لاتشكل نهراً كبيراً. وتوجه الركب إلى ذمار، وهي مدينة مهمة، تبعد مسافة خمسة عشر ميلاً من يريم. وكانت الطريق في غاية الوعورة، عبر الجبال المرتفعة، والحرارة شديدة، ولم تهب أي ريح أو نسمة باردة، حتى مغيب الشمس. ولكن ما أن يصل المرء إلى مدينة ذمار، حتى يتحرر من هذه المتاعب ويتنفس الصعداء، في أرض مفتوحة. فمدينة ذمار تقع في قاع فسيح مريح. ومن ذمار لم تتبق سوى مسافة ربع ميل إلى مدينة المواهب، حيث يقيم ملك اليمن.

وتقع مدينة المواهب على مرتفع صغير. ويرجع الفضل في إنشائها إلى هذا الملك، الذي أمر ببناء قصر يحمل الإسم نفسه (المواهب)، على بعد ربع ميل من المدينة، ليكون مقراً لإقامته. ويشكل قصر المواهب ومدينة المواهب ومدينة ذمار مثلثاً متساوي الأضلاع تقريباً. وعلى بعد ميل ونصف من مدينة المواهب بنى الملك قصراً آخر، على مرتفع صغير، وزوده بعدد من المدافع وبحامية قوية. وإلى هذا القصر المحصن لجأ الملك، أثناء الحرب. فقد كان للملك أعداء أقوياء، يخشاهم، إذا مااقتربوا من مدينة المواهب.

إنفصل المبعوثون اليمنيون، الذين ظلوا يرافقون الفرنسيين طوال الطريق، انفصلوا عنهم، حينما اقتربوا من مدينة المواهب، لينقلوا إلى الملك نبأ وصولهم. وسرعان ماهيأ الملك نفسه لاستقبالهم، استقبالاً غير عادي. ولم يبق لدى الفرنسيين صبر، وتملكهم الحماس، فأسرعوا في سيرهم نحو المدينة، التي رأوا مجموعة من الناس تخرج منها لملاقاتهم، ليدخلوها بعد رحلة دامت

ثمانية أيام، قطعوا فيها مسافة مئة وعشرين ميلاً. وقد تضمن تقريرهم أن الطريق من المخا تتجه باستمرار نحو الشمال الشرقي تقريباً. وولجوا إلى ساحة القصر، بعد أن مروا بخمسة أبواب، لكل باب منها حرسه الخاص. واستقبلوا من قبل مدير القصر، الذي قادهم، عبر درج جميل، إلى الحجرة الرئيسية في المبنى، وهي حجرة مبنية فوق جناحين كبيرين، كل منهما مكون من ثلاثة طوابق. وانتظروا أمام باب غرفة الملك فترة طويلة. وأخيراً سُمح لهم بالدخول، بعد أن خلعوا أحذيتهم خارج الباب، ووجدوا أمامهم الموظف الأول لدى الملك، الشيخ صالح، الذي وصف نفسه بصديق الفرنسيين، وقادهم إلى غرفة الملك.

كان الملك في السابعة والثمانين من العمر، ضخم الجثة، وله وجه مريح، مائل إلى الإسمرار. كان يجلس في صدر الغرفة على مسطبة مرتفعة، مغطاة بالبساط، ومن حوله وسائد كثيرة، يتكئ عليها. وكان إلى جانبه ولداه، الأميران، وعلى مسافة قريبة منه جلس الموظف الأول، وعلى أرضية الغرفة، المنخفضة عن المسطبة، جلس بعض موظفي القصر، في صفين، على الجانبين، وتُرك وسط الغرفة خالياُ، ليمر فيه من يحب أن يتقدم نحو الملك[32]. وأراد لاجريلودري، عندما تقدم إلى الملك، أن يلقي كلمة قصيرة، كان قد هيأ نفسه لإلقائها، ولكن الملك قاطعه، حيث كان الألم يهاجمه، كما يبدو، وسأل عمن هو الطبيب من بين الفرنسيين، فأشار أحدهم إلى طبيب الجروح. فوقف الملك، وبعد أن ساعده اثنان من موظفيه على النزول من المسطبة، اتجه نحو إحدى النوافذ، وأرى الطبيب موضع الألم. لقد كان ورماً في الأذن، وُضع عليه مسحوق أصفر وربط، على أمل أن يؤدي ذلك إلى شفائه. ولكن هذه المادة سببت التهاباً، مصحوباً بكل مظاهر الإلتهاب، من حمى وألم شديد وعدم القدرة على النوم. وأسفرت نتائج العلاج الأولى، على يد الطبيب الفرنسي، عن تخفيف الألم. ثم أدت العلاجات الأخرى سريعاً إلى استعادة الملك قدرته على النوم ورغبته في الأكل. ولما كان الإحساس بالجميل والعرفان، لايسمح للملك بأن يترك الفرنسيين يغادرون قصره، دون أن يقوم بإكرامهم داخل القصر، فقد أمر بأن ينزلوا في ثلاث غرف[33]، كانت خالية من الآثاث،

(32) يجلس اليمنيون في الدواوين وغرف الجلوس ساندين ظهورهم إلى الجدران، فيبقى وسط الديوان أو الغرفة خالياً. وهـذا الأمـر لاعلاقة له با تاحة المجال للوصول إلى من يجلس في صدر المكان.

(33) لم يذكر التقرير بأن دي لاجرلوديري، في زيارته للإمام، قد اصطحب معه من الفرنسيين شخصاً أو أشخاصاً، سوى الطبيب. مع ذلك فإن تخصيص ثلاث غرف في القصر، لإقامته ومرافقيه، قد يدل على أن عدد الفرنسيين كان أكثر من اثنين. لهذا اخترنا صيغة الجمع، لاصيغة المثنى، عند الحديث عنهم.

ماعدا بعض البسط، المفروشة على الأرض، والوسائد الموضوعة على مناضد عالية، تستخدم كطاولات وكراسي وسرر، وهي مناضد شائعة الإستخدام في كل بلاد الشرق تقريباً.

كان اهتمام الملك بالفرنسيين لاحدود له. فقد أرسل مراراً، للسيد دي لاجرلوديري وللطبيب، صحاف طعام، من طعامه الخاص. ولكنهما لم يستسيغا ذلك الطعام. الذي كان مليئاً بالبهارات، ولاسيما القرفة، ويحتوي على لحوم العجول والخراف والماعز الصغيرة، في قطع صغيرة، مطبوخة مع الرز والزبيب المجفف. كما كان يقدم لهما أحياناً لحم الأبقار، مطبوخاً طباخة سيئة. وغالباً ماقدم لهما لحم الطيور. ومن عادة العرب، عندما يذبحون الطيور، أن ينزعوا ريشها ويشووها في الحال، على عجل. وهكذا يصنعون مع جميع اللحوم. فهم لايتركون لها وقتاً كافياً لكي تنضج. أما خبزهم، الذي ليس له مذاق تقريباً، فإنه يشبه خبز الحنطة السوداء لدينا. وهم لايشربون النبيذ، رغم جودة الأعناب حول مكة، ولايرى المرء لديهم شراباً آخر سوى الماء والقهوة. وأخيراً طلب الفرنسيون أن يحصلوا على اللحم فقط، وأن تترك لهم مسألة طباخته. وقد استجيب لطلبهم.

ولأن شفاء الملك، شفاءً كاملاً، استغرق مالا يقل عن ثلاثة أسابيع، فقد استفاد الفرنسيون من الوقت، فكانوا يخرجون من القصر، ليشاهدوا المدينة والمناطق المجاورة لها. ولاتتميز مدينة المواهب بشيئ عن غيرها، سوى أن الملك يقيم فيها. وهي مدينة متوسطة الحجم، وسورها ومعظم منازلها مبنية من الطين. وفي إحدى ضواحيها يسكن اليهود. والطقس فيها صحي، ويكون بارداً من غروب الشمس حتى شروقها. أما من الساعة التاسعة صباحاً وحتى الرابعة عصراً، فإن الجو يصبح حاراً جداً. وتبدو الأرض في المدينة وفي ماحولها أرضاً خصبة. وفي حين تزرع الأراضي السهلية الذرة والأرز (**Reiss**)[34]، تزدهر المرتفعات والوديان بزراعة البن والأعناب. وفي حديث للملك مع الفرنسيين وصف لهم بإعجاب مزرعة جديدة، أنشأها قرب المدينة، ولم يسمح بأن يُزرع فيها أي شيئ غير أشجار البن، وأطلق على البن فيها إسم (بن الملك). وحرص الفرنسيون على مشاهدة هذه المزرعة، التي لم يكن فيها شيئ يميزها عن غيرها من المزارع، سوى أن أشجار البن، المماثلة لكل أشجار البن الموجودة في المملكة، قد زرعت فيها بعناية، على شكل دوائر.

---

(34) تبدو الإشارة هنا إلى زراعة الأرز في اليمن إشارة غريبة، فزراعته تتطلب مياهاً كثيرة، ليست متوفرة في اليمن. ولعل الفرنسيين قد شاهدوا مزارع القمح والشعير، فظنوها مزارع أرز.

كان كل شيئ في بلاط الملك يبدو بسيطاً وساذجاً. فلم يكن الملك يرتدي ملابس، غير قماش ناعم أخضر أو أصفر، لاتكلف فيه، وكان يسير عاري الساقين، منتعلاً حذاءً دون كعب، من النوع التركي. والشيء الوحيد، الذي يميزه عن غيره، هو رداء من الحرير الأبيض، يضعه فوق عمامته، يغطي به كل رأسه وينسدل إلى الأمام، ليصل إلى ماتحت الركبة. إنه أشبه مايكون بغطاء الرأس النسائي عندنا. وتسير حياة الملك على وتيرة واحدة. فيصحو عند الفجر، ويتناول طعام الإفطار في الساعة التاسعة، ويعود في الساعة الحادية عشرة إلى السرير، لينام حتى الساعة الثانية بعد الظهر. وفي هذه الساعة يعزف عادة ضاربوا الطبول ونافخو الأبواق. لهذا فإن رئيسهم هو الشخص الوحيد، الذي يُسمح له بالدخول إلى غرفة الملك، ليرى إن كان قد استيقظ أم لايزال نائماً. وكان هذا الرئيس تركياً، يرتدي ملابس مضحكة: يتمنطق حزاماً عليه قطع فضية، وله خطاف (عروة) فضي أيضاً، وعلى عمامته، من الأمام، تتدلى سلسلة فضية، تتحرك بصورة غريبة، حركة دائرية. وما أن يعلن هذا الموظف بأن الملك قد استيقظ، حتى يأتي زوار الملك من الأمراء والأعيان، الذين يتبادلون معه الحديث، حتى يحين الموعد المحدد للصلاة، أو الموعد المحدد للعمل. ولايقترب الزائر من الملك أبداً، دون أن يمسك بكفه الملقى على ركبته ويقبله باحترام وإجلال. وللملك ساعات محددة للنزهة وساعات محددة لزيارة النساء. وأخيراً يختتم يومه بالنوم في الساعة الحادية عشرة ليلاً، بعد أن يكون قد تناول طعام العشاء في الساعة الخامسة[35].

في يوم الجمعة من كل أسبوع يتوجه الملك في موكب فخم إلى ساحة في المدينة، حيث تنصب فيها خيمة، يستخدمها كمسجد، ويبقى فيها حوالي ساعة، يؤدي فيها وظيفة الإمام، وهي في الشريعة المحمدية تشبه وظيفة الكاهن، ويتخذها لقباً له[36]. وخلال هذه الساعة يبدأ الملك طقوس الصلاة بإلقاء خطبة. وهي نوع من الوعظ، تتضمن الشكر والحمد لله والثناء على محمد والدعاء لخير الدولة. وطوال النهار يسمح للناس، الذين يصادفونه في الطريق، أن يقتربوا منه بحرية،

---

(35) يبدو وصف نظام الحياة اليومي للإمام هنا غريباً. فقد أهمل الوصف مواعيد الصلاة مثلاً، فالإمام ينام قبل صلاة الظهر (في الساعة الحادية عشرة) ويصحو بعدها (في الساعة الثانية بعد الظهر)، ووجبة العشاء، التي لم يكن يتناولها المرء في اليمن إلا بعد صلاتي المغرب والعشاء، أي بعد عودته من المسجد، يتناولها الإمام في الساعة الخامسة. كما أن موعد النوم يتأخر إلى الساعة الحادية عشرة ليلاً، وهذا أمر لم يكن مألوفاً، في حياة أناس كانوا يصحون قبل صلاة الفجر. وأما تناول طعام الإفطار في الساعة التاسعة صباحاً، أي بعد الإستيقاظ بحوالي أربع ساعات، فيبدو أكثر غرابة.

(36) من الواضح هنا أن واضع التقرير كان يعرف أن لقب هذا الحاكم هو (إمام) وليس (ملك).

ويلثموا كفه، وهو لايمنع أي شخص من عمل ذلك. ولم يستطع المؤلف أن يفهم، لماذا أنشأ هذا الملك مدينة جديدة وقصراً بجانبها، لإقامته الدائمة، إلى جانب القصر الآخر، الذي لايبعد كثيراً عن المدينة، ولم يبن مسجداً واحداً، بل اكتفى بأن يؤدي الصلاة في ساحة مفتوحة. ولعل ذلك يرجع إلى انعدام الثقة لديه. مما يجعله يخفي نفسه عن الغرباء وسط سلسلة من الجبال، ويخشى من رعيته أن يغدروا به في المسجد. وهذا الخوف ليس جديداً بالنسبة للمسلمين. فعلي بن أبي طالب قتل في المسجد، أثناء صلاة عامة.

ولأن الملكية في اليمن ليست وراثية، فإن الغلبة الدائمة تكون للأمير، الذي إلى جانبه عدد أكبر من المؤيدين، ويتمتع بقوة أكبر أو بحيلة أوسع من منافسيه، الذين إما أن يقتلهم، أو يودعهم السجن. وهذه الملاحظة لاتعني أن العرش، منذ زمن طويل، لم ينحصر في يد أسرة واحدة، وإنما يعني أن الأكبر سناً في الأسرة يمكن أن لايصبح ملكاً، إذا كان هناك أمراء آخرون أقوى منه. وهذا ماحدث بالنسبة للملك الحالي. فقد تولى بعد أخيه، مستبعداً ابن أخيه. ومن هنا جاء هذا الحذر، الذي جعل الملك يتخذ من أعالي الجبال مقراً لملكه.

ومن المؤسف أن البعثة الفرنسية لم يكن لديها حب استطلاع، لتستفسر عن أصل الأسرة المالكة في اليمن. فالأسر الكبيرة لدى المحمديين معروفة. ويجد المرء في كل مكان تاريخاً وسجلاً للأصول مؤكدة. ويذهب بعض علمائنا إلى أنه يمكن أن تكون الأسرة الحاكمة الحالية في اليمن منحدرة من الأسرة الطباطبائية، التي يرجع حكمها في شبه الجزيرة العربية إلى عصر شارل الكبير[37]، وإنه لمن المؤكد على الأقل أن هذه الأسرة الحاكمة، التي تنتمي إلى علي بن أبي طالب، قد حكمت في اليمن وفي مصر منذ القرن العاشر. ولكن ناشر هذه الرحلة يرجح القول، بأن الأسرة المذكورة تنتمي إلى الأسرة الأيوبية، التي أنجبت صلاح الدين وذريته. ومن المؤكد أن فرعاً من فروع الأيوبيين قد حكم في اليمن في القرن الثالث عشر الميلادي. وحمل الحاكم الأيوبي في ذلك الحين لقب خليفة ولقب إمام[38]. وهذا هو الحال اليوم بالنسبة للملك الحالي في اليمن.

---

(37) ملك الإفرنج وامبراطور الغرب، المعروف في التاريخ الإسلامي بشارلمان، الذي عاش في القرنين الثامن والتاسع ميلادي، وعاصر الخليفة العباسي هارون الرشيد.

(38) هذه ظاهرة، تكاد تكون عامة. فعندما يتطرق بعض الرحّالة، أو بعض الناشرين، من غير المتخصصين في التاريخ، عندما يتطرقون لتاريخ اليمن، نجدهم يدعون المعرفة ويقعون في أخطاء فادحة.

وللملك الحالي، كما هي عادة كل الأسر الحاكمة في الشرق، عدد كبير من النساء، يقدره البعض بست إلى سبع مئة امرأة. وأثناء وجود الفرنسيين لم يمنع الملك كبر سنه وضعفه من أن يتزوج زيجة جديدة، بفتاة تركية صغيرة، لايزيد عمرها عن ثماني عشرة سنة. ويقع السرايا في القصر القريب من مدينة المواهب. ولكن نساء الملك، اللاتي كن ينتمين إلى قوميات مختلفة، فمنهن الجورجيات ومنهن العربيات، ذوات الجمال الخلاب، كن يخرجن من قصر إلى القصر الآخر، ثم إلى المدينة. وكن يتنقلن على ظهور الجمال، وسط هودج، مغطى بقماش قرمزي اللون، ومزود بوسائد، يجلسن عليها أو يتوسدنها، ويترجلن من فتحة صغيرة في الأمام، ووجوههن مغطاة بالأخمرة. وتضع معظم النساء هنا، كما هو الحال في الهند، خاتماً كبيراً مذهباً في طرف الأنف، يثقب له ثقب في الأنف لتثبيته[39]، كما تضع أساور وحلقاً ذهبية أو فضية في الذراعين والكفين وفي أسفل الساق، ويعطرن أنفسهن باستمرار، بمواد ذات رائحة جميلة نفاذة. ولا يكتفين، كالنساء الأخريات في بلدان الشرق، بطلاء أظافرهن بلون أحمر فاقع، بل ويكحلن أيضاً عيونهن بالكحل الأسود، ويمسحن أكفهن وأقدامهن بمادة تضفي عليها رونقاً وبهاءً. ويتبادلن الزيارات ليلاً، كنساء المخا. ولكن لأن الرجال هنا أكثر غيرة، فإنهن لايستطعن أن يظهرن على سطوح منازلهن بحرية، ليستنشقن الهواء النقي. وبما أن الطبيب الفرنسي قد منحته مهنته الفرصة، ليقدم مساعدته لبعضهن، فقد وجدهن ذوات بشرات أكثر بياضاً مما هو معتاد لدى العرب.

وشاهد الفرنسيون في البلاط مبعوثاً تركياً، قدم من القسطنطينية عبر مصر، ودخل مدينة المواهب مع عدد كبير من المرافقين، وسط مظاهر الترفع والإفتخار. ولم يكن بخافٍ مدى التقتير، الذي يعامل به البلاط العثماني مبعوثيه. وأقام مبعوث الدولة العثمانية هذا ومرافقوه على نفقة الملك. وسلم للملك هدايا مختلفة، من بينها ساعة جميلة الصنع. وكانت مهمته الأساسية مناقشة موضوع البن. فقد شكا الباب العالي من أن البن أصبح يصل إلى مصر بكميات قليلة وبأسعار مرتفعة، وذلك منذ قدمت السفن الأجنبية الكبيرة، التي تحمل البن مباشرة من موانئ البحر الأحمر، مما ألحق الضرر بمصالح الرعايا العثمانيين وأثر على العائد الضريبي. وكان على المبعوث أن يوضح ذلك للبلاط اليمني. وعرف الفرنسيون بأن الملك لم يرتح لما طرحه المبعوث التركي، لأن ذلك

---

(39) هذه عادة هندية غير شائعة في اليمن، رغم أن اليمنيات يزين سواعدهن، كالهنديات، بأساور زجاجية في الغالب. ولعل كاتب التقرير قد شاهد امرأة هندية في المخا أو في المواهب تضع حلقة على أنفها، فعمم ذلك على النساء اليمنيات.

يتعارض مع سلطته المطلقة. وكان سماحه للسفينتين الفرنسيتين، بأن تحملا بحرية ماتستطيعان حمله من البن، مثالاً واضحاً لموقفه. ولم يلبث المبعوث التركي أن غادر مدينة المواهب.

وبعد أن توجت عناية الطبيب بالملك بالنجاح، وشفي الملك، لم يعد دي جريلوديري يفكر بشيء آخر، سوى العودة إلى المخا، رغم أن الملك كان يرغب في بقاء الفرنسيين في بلاطه مدة أطول.

وأراد الملك أن يعطي الفرنسيين خمس مئة حمل من أجود أصناف البن في مملكته. وكمثال نادر للتواضع والبساطة، طلب مقابل ذلك تاريخ فرنسا وصورة كل من الملك الفرنسي وبلاطه. ولكن الفرنسيين اعتذروا عن عدم قبول البن، نظراً لأن سفينتيهم كانتا قد حملتا، ولم يعد فيهما مكان لأحمال إضافية. فأهدى الملك لكل من الطبيب ورئيس البعثة (دي لاجريلوديري) طقم ملابس كاملاً، من ملابس البلاد اليمنية، من بينها قميص قرمزي اللون وآخر وردي، بالإضافة إلى صدرية من القماش الهندي، مطرزة بورود ذهبية وفضية. كما أهدى لكل منهما حصاناً مُسْرجاً فخماً. وامتد كرمه ليصل إلى قائدي السفينتين. حيث بعث لكل منهما ملابس وحصاناً.

وبعد أن غادرت البعثة مدينة المواهب، أخذت نفس الطريق، الذي سلكته، عند قدومها. ورافقها حرس وقائد وُضعوا تحت تصرفها. ولأنه لم يعد هناك مايدعو للسفر المتواصل طوال النهار، فقد تمكنوا من المبيت دائماً في منازل مريحة، ولاسيما في بداية رحلة العودة، حيث وجدوا مساعدة مستمرة وشاهدوا اسطبلات، يتسع الواحد منها لخمس مئة حصان. وأثناء عبورهم الجبال، كانت لديهم حرية أكثر من ذي قبل للإطلاع والملاحظة. ولاحظوا أن أراضي غير خصبة، تحرقها الشمس، ومع ذلك توجد فيها أحراش ومروج خضراء، لاسيما في عوارض الجبال. ورأوا طيور الحجل الحمراء، التي هي أكبر حجماً من الحجل الموجود عندنا. كما رأوا أعداداً من السمان وأنواع الحمام البري، الذي لايصطاده العرب أبداً. وكذا رأوا بعض الثعالب الشجاعة، التي اقتربت منهم إلى مسافة قريبة دون خوف، وأعداداً غفيرة من القرود، ذات الحجم الكبير، التي ليست أكثر توحشاً من الثعالب. ولكن أهم ملاحظاتهم كانت عن البن، الذي رأوه في طريقهم. لقد تفحصوا أشجاره عن كثب وجمعوا ماستطاعوا من معلومات عنها، من العرب، الذين كانوا يرافقونهم، أشبعت فضولهم. وإلى جانب البن لاحظوا أيضاً أنواع الأشجار المثمرة الأخرى، كالفرسك والمشمش واللوز والليمون والبرتقال والرمان والأنجاص، وحتى التين، ذي المذاق الحامض، والتفاح، الذي توجد منه أشجار قليلة، وأخيراً أشجار السفرجل البري، الذي يمكن للمرء أن يحصل منه على عجين ممتاز، يباع في المدن بأسعار مرتفعة. ولم يستغربوا كثيراً حين

شاهدوا أشجار الأعناب الجميلة. حيث يتناول المرء في شبه الجزيرة العربية زبيباً رائعاً، كما في أسبانيا.

وجلب الفرنسيون معهم أيضاً معلومات جغرافية، جمعوها خلال رحلتهم. وأكد لهم البعض وجود مدن في المملكة أكبر حجماً من المدن، التي شاهدوها، أهمها المدينة، التي تدعى (صنعاء)، والتي تبعد خمسة عشر ميلاً من مدينة المواهب، ومئة وأربعين ميلاً من المخا[40]، وفيها آثار قديمة رائعة، وكانت قد أصبحت عاصمة للعربية السعيدة كلها قبل ميلاد محمد[41]، وذلك في ظل حكم السبئيين، الذين جعلها ملوكهم الأقوياء عاصمة لملكهم[42]. وكان قصرهم فيها فخماً للغاية، بنوه على مكان مرتفع، وسط المدينة[43]. وقبل محمد أيضاً أمر قيصر حبشي، بعد أن احتل العربية السعيدة، بسبب معاناة المسيحيين، الذين كانوا يرزحون تحت نير العرب[44]، أمر ببناء كنيسة فخمة، ليصرف العرب إليها عن عبادة الأوثان. ولكن الإحتلال الحبشي لم يعمر طويلاً. ويضيف بعض الكتاب الشرقيين، الذين تعرضوا لهذا الموضوع، أن صنعاء مدينة قديمة جداً، وكانت على درجة عالية من الغنى، ومليئة بالسكان ومركزاً للتبادل التجاري، الذي استخدم فيه النقد والمقايضة. وسورها عريض، إلى حد أنه يمكن لثمانية خيول أن تسير عليه جنباً إلى جنب. وتشبه، في وفرة مياهها وكثرة حدائقها الغناء، مدينة دمشق. والطقس فيها معتدل. والنهار والليل طولهما واحد. وعلم دي لاجريلوديري أنها توجد في مملكة اليمن أيضاً طرق عسكرية كثيرة، بعضها مرصوف، وتمتد إلى أكثر من مئة ميل.

والأجزاء الأخرى من هذه البلاد، التي تحمل اسم العربية السعيدة، تحكمها ممالك أخرى، يأتي منها الصمغ والمر والبهارات. ولم يشاهد الفرنسيون، في رحلتهم إلى المواهب، أشجاراً من هذه الأنواع، ولكن البعض أكد لهم أن أجزاءً أخرى من هذه المملكة مليئة بالبخور. أما البلسم فمن المعروف أنه ينمو حول مكة، خارج العربية السعيدة.

---

(40) من الواضح أن تقدير المسافتين هنا غير صحيح. فالمسافة بين صنعاء والمواهب تبلغ حوالي ستين ميلاً، وبين صنعاء والمخا تبلغ حوالي مئة وسبعين ميلاً.

(41) الرسول محمد بن عبدالله، عليه الصلاة والسلام.

(42) أصبحت صنعاء عاصمة الدولة في العهد الحميري، لافي العهد السبئي. وذلك قبيل الغزو الحبشي لليمن.

(43) يقصد هنا قصر غمدان.

(44) يتجلى هناجهل فاضح بحقيقة كون المسيحيين، الذين اضطهدوا، كانوا يمنيين. ومن اضطهدهم كانوا يمنيين أيضاً، من ديانة أخرى، وهي اليهودية. فالمسيحية ليست جنسية، مقابلة للجنسية العربية، بل دين، كالدين اليهودي والدين الإسلامي.

معلومات أخرى عن الرحلة في العربية السعيدة:

تمت الرحلة إلى المواهب في نهاية الفترة، التي أمضتها السفينتان الفرنسيتان في ميناء المخا. وأورد المؤلف معلومات حول شخص، من أشراف مكة، رآه في المخا. حيث شاهد أثناء رسو السفينتين في المخا شخصاً من أشراف مكة، من عشيرة النبي محمد، لجأ إلى مملكة اليمن، بعد أن تغلب عليه أحد أقاربه واستأثر دونه بالسيادة على مكة. حيث كان هذا الشخص هو الحاكم. وقد منحه الملك حق الإقامة في المخا وأجرى له جراية يومية، مقدارها مئة ريال، لتغطية معيشته. ولم يكن لدى هذا الأمير المطرود سوى عشرين مرافقاً مسلحاً. وكان يلبس لباساً أخضر اللون وعلى رأسه عمامة من اللون نفسه، محلاة في أطرافها باللون الذهبي. وكان يشاهد باستمرار مع مجموعة المرافقين الصغيرة، ذاهباً إلى المسجد، الذي وُضع على سطحه علم الرسول، كما سبقت الإشارة. وغالباً ماكان يذهب إلى مسجد، لايبعد كثيراً عن المخا، قبر فيه كثير من الأنبياء[45]. ويقوم الشعب بالحج إلى ذلك المسجد، مع كثير من طقوس العبادة. ويتوقف ذلك الشريف في طريقه، ليدعو فوق المقابر، التي تقع خارج المدينة. وكان قد مضى على الشريف في المخا خمسة أشهر، حينما أبلغ منافسه ملك اليمن، بأن استمرار منح الملك لعدوه ملجأ في اليمن، سوف يؤدي إلى حرب بين الدولتين. وأدى هذا التهديد بالملك إلى أن يصرف الشريف من بلاده. وشاهده المؤلف وهو يرحل، بمرافقة عدد كبير من الوجهاء، ليبحث عن ملجأ آخر في منطقة بعيدة.

وفي سياق الحديث عن ذلك الشريف، سيء الحظ، سجل المؤلف ملاحظتين هامتين:

الملاحظة الأولى، أن هناك خطأً شائعاً لدى معظم الأوربيين، وجد طريقه إلى بعض الكتب المهمة، وهو توهمهم بأن للسلطان الكبير (العثماني) السيادة على مكة والمدينة، وأن الأشراف، وهم الأمراء المنحدرون من نسل محمد، الذين يحكمون مكة والمدينة، ماهم إلا عمال للسلطان، أو مشرفين من قبله. صحيح أن الأتراك، بعد أن حطموا، كمحتلين، دولة الخلفاء ولاحقوهم، لم يصبح سلطانهم الكبير في موقع الصدارة، كحاكم فحسب، بل أضيفت إليه قوة ونفوذ الخلفاء الأوائل، الذين خلفوا محمداً. وهذه المكانة رفعت من قدره كثيراً وجعلت منه الرئيس الديني والدنيوي، وأصبح معترفاً به من قبل أربعة مذاهب إسلامية. ولكن من الصحيح أيضاً أن عشيرة الرسول، عندما سقطت دولة الخلفاء وتجزأت الإمبراطورية، احتفظت بحكم هاتين المدينتين والمناطق

---

(45) لاتوجد في المخا قبور للأنبياء. ومن الواضح أن واضع التقرير قد خلط بين الأنبياء والأولياء.

المحيطة بهما، دون أن ينازعهم أحد من الأمراء المسلمين. بل إن أقوى هؤلاء الأمراء يتعاملون باحترام وإجلال مع الأشراف وتجاه المناطق، التي يحكمونها، ويبعثون إليهم دائماً هدايا قيمة. وإلى جانب ذلك فإن الأشراف يحملون بكل اعتزاز (لقب خادم الحرمين الشريفين)، مكة والمدينة. ويحمل هذا اللقب بصورة خاصة الشريف الكبير (الحاكم)، الذي يضيف إلى لقبه هذا أيضاً لقب (حامي القدس)، التي يُعتبر بالفعل حاكمها الأعلى. وتظهر هذه الملاحظة الوضع المختلف لهذه المدن عن غيرها. أما الملاحظة الثانية، فهي أن هؤلاء الأشراف ينحدرون من فاطمة بنت محمد، التي أنجبت من علي ولدين، هما الحسن والحسين، اللذين أسسا بيتين كبيرين، ويعتبرا أبوا كل الأشراف في العالم.

ولم تسجل السفينتان الفرنسيتان، في طريق عودهما، أية معلومات ذات أهمية. وفي الثاني عشر من شهر مايو ١٧١٠م[46] وصلتا إلى ميناء بريست **Brest**.

ترجمة نص رسالة حاكم عدل وزيلع، الموجهة إلى السفينتين الفرنسيتين:

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والصلاة والسلام على من لا رسول بعده وعلى آله وصحبه.

هذا كتاب باسم سلطاننا محمد بن داينج **Deing** حفظه الله تعالى..آمين.

نعلمكم ياقائد السفينتين أن لكم كامل الحماية والحرية في هذا الميناء، تاجوره، للتزود بالوقود والماء، فنحن ملزمون بتوفير ذلك لكم وبالسماح لكم بزيارة المدينة، إذا أردتم أن تنزلوا إلى البر، أما إذا أردتم النزول في ميناء زيلع، فإنه لايبعد كثيراً عن المكان، الذي أنتم فيه الآن. إننا أناس أهل صدق واستقامة ومؤمنون بالله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، تسليماً كثيراً، إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

إنكم في حماية الله وحماية السلطان محمد بن داينج.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وفي نهاية الرسالة ختم السلطان، وعليه وضعت سنة ١١١٧هـ الموافقة ١٧٠٥م، وهي السنة، التي صُنع فيها الختم.

---

(46) هكذا ورد في النص الألماني. وهو خطأ. فالرحلة الأولى تمت عام ١٧٠٨م، والرحلة الثانية عام ١٧١٢م.

بعض انطباعات كارستن نيبور Carsten Niebuhr عن اليمن

مقدمة:

كارستن نيبور هو أحد أعضاء البعثة العلمية الدينماركية، التي تم إعدادها علمياً باقتراح، قدمه إلى ملك الدينمارك البروفيسور يوهان ميشائيلس Johann Michaelis، أستاذ اللاهوت في جامعة جوتنجن Goettingen الألمانية، الذي كان مهتماً بدراسة التوراة، وتفسير نصوصها. ورأى أن إرسال بعثة علمية إلى اليمن، يمكن أن يساعد في الإجابة على أسئلة كثيرة، تطرح نفسها على الباحث، وهو يحاول تفسير بعض نصوص التوارة، حتى وهو يعالج النصوص، معالجة لغوية بحتة[47]. وتم إعداد البعثة علمياً، على مدى خمس سنوات. وضمت خمسة أعضاء، تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعشرين والرابعة والثلاثين، منهم ثلاثة علماء، وهم: الألماني كارستن نيبور، المتخصص في الرياضيات والفلك والجغرافيا، والسويدي بيتر فورسكال Peter Forskal، المتخصص في علــوم الطبيعــة والنبــات، والدينمــاركي فريــدرش كريستيــان فــون هافن Friedrich Christian Von Haven، المتخصص في علوم اللغة، وطبيب البعثة، الدينماركي كريستيان كارل كرامر Christian Carl Cramer، ورسامها، الألماني جيورج فلهلم باورنفايند Wilhelm Georg Baurenfeind، وانطلقت بحراً من كوبن هاجن، عاصمة مملكة الدينمارك، بتاريخ ٤ يناير ١٧٦١م، إلى القسطنطينية، فالإسكندية، ثم براً إلى القاهرة، حيث وصلتها في ١٠ نوفمبر، من العام نفسه، وبقيت فيها مايقارب العام، ثم غادرتها في ٢٨ أغسطس ١٧٦٢م إلى السويس، ومن السويس قام نيبور وفون هافن برحلة إلى جبل سيناء. وفي ١٠ أكتوبر غادرت البعثة مدينة السويس عبر البحر الأحمر إلى جدة، ومنها إلى ميناء اللحية في اليمن، الذي

(47) ظهرت في السنوات الأخيرة دراسات عديدة، ذهبت إلى أن العبرانيين هم يمنيون، وأن التوراة ونصوصها قد انبثقت مــن البيئــة اليمنية، وأن ماورد فيها من وصف للمناطق وأسماء للمواقع، تنطبق على مناطق ومواقع يمنية، ولايوجد مايماثلها في فلسطين. فهــل ياترى خطرت هذه الفكرة في ذهن البروفسور ميشائيلس، وهو يكب على تفسير التوارة، فكانت هي التي دفعته إلى تقديم اقتــراح إلى ملك الدينمارك لتمويل بعثة علمية إلى اليمن، لجمع مادة علمية، تشمل الجغرافيا والنبات والحيوان والإنسان، قــد تــساعد في تفسير بعض نصوص التوراة؟ سؤال يصعب الإجابة عليه، من خلال، ماتوفر لنا حتى الآن من نصوص، خلفتها البعثة العلمية تلــك، أو من خلال ماكتب عنها لاحقاً.

وصلته في ٢٩ ديسمبر ١٧٦٢م. ومن اللحية انطلقت البعثة لإجراء بحوثها في سهول تهامة والجبال المتاخمة لها. وبعد أن دفنت عضو البعثة فون هافن، في مدينة المخا، الذي أصيب، مع أعضاء البعثة الآخرين، بالملاريا، توجهت إلى تعز، ومنها إلى صنعاء، عبر مدينة جبلة وإب وجبل سمارة، ويريم، التي دفنت فيها عضو البعثة وأهم علمائها فورسكال. ثم من يريم إلى ذمار، إلى صنعاء، التي وصلتها في ١٦ يوليو ١٧٦٣م. وبعد إقامة قصير في صنعاء، لم تزد عن عشرة أيام، قابلت خلالها الإمام المهدي عباس[48]، غادرتها إلى المخا، عن طريق مفحق وبيت الفقيه. وفي ٢٣ أغسطس، من العام نفسه، غادرت المخا على ظهر سفينة متجهة إلى بومباي في الهند، التي وصلتها في ١١ سبتمبر، من العام نفسه. وقرب جزيرة سقطرة مات رسام البعثة باورنفايند، وتبعه بيوم واحد الخادم المصاحب للبعثة، وقذف بجسديهما إلى البحر. أما طبيب البعثة كرامر فقد توفي بتاريخ ١٠ فبراير، في مدينة بومبي بالهند. وهكذا قضت الملاريا على جميع أعضاء البعثة، ماعدا نيبور، الذي كاد أن يلقى المصير نفسه في جبل سماره، حيث لم يستطع حتى ركوب الجمل، من شدة المرض، فشد عليه شداً. ولكن بنيته القوية، وعمله، في طفولته ومقتبل شبابه، فلاحاً في قريته، قرب مدينة هامبورج الألمانية[49]، مكنه من مقاومة المرض القاتل، ليكمل وحده مهمة البعثة العلمية جميعها.

إنطباعات نيبور:

تقدم لنا انطباعات كارستن نيبور عن اليمن مادة تاريخية ذات وجهين:

فهي من ناحية، تبرز التباين بين أوروبا واليمن، في أساليب الحياة، وفي العلاقات الاجتماعية، وفي أنظمة القيم، وفي المستوى الحضاري، بشكل عام، وهو تباين لا يمكن أن يفهم إلا من خلال التسليم بوجود إطارين ثقافيين متباينين، لمجتمعين بشريين مختلفين، ولكن هذا التباين، أو الإختلاف ليس قضية مطلقة، بل ظاهرة تاريخية مرتبطة بالتطور التاريخي المتباين، لمجتمعين بشريين مختلفين، ويجب أن تفهم هذه الظاهرة ضمن إطارها التاريخي، وضمن حدود العصر الذي سجلت فيه.

---

(48) هو الإمام المهدي عباس ، إبن الإمام المنصور حسين، ولد عام ١٧١٩م وتوفي عام ١٧٧٥م. بويع بالإمامة بعد وفاة أبيه، عام ١٧٤٨م، واستمر في الحكم حتى وفاته.

(49) للمزيد أنظر، الصايدي، أحمد، المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٠م.

وأما من الناحية الأخرى، فإن انطباعات نيبور هذه تعكس تأثير الإطار الثقافي والمستوى الحضاري، الذي ينتمي إليه نيبور، في ملاحظاته وتقييماته وفي نظرته إلى الناس والأشياء، بل إنها تعكس حتى نوعية الإختيار، أي إختيار نيبور لموضوعاته.

وكلا الوجهين يقدمان في النهاية، نظرة باحث أوروبي، ينتمي إلى ألمانيا في القرن الثامن عشر، نظرته إلى اليمن، في الفترة الزمنية نفسها.

وبما أننا سنتطرق بالتفصيل، في الفصول التالية[50]، إلى الموضوعات، التي تمثل بالنسبة لنا مادة تاريخية، والتي تناولها نيبور في كتاباته، فإننا سنكتفي هنا بالحديث عن بعض الإنطباعات العامة لنيبور عن اليمن:

- **الكرم:**

كانت وجهة الرحلة ميناء المخا، إذ أن اللحية والحديدة كمينائين آخرين في منطقة الإمام، لم تكونا–كما ذكر نيبور– إسمين معروفين للبعثة. وكانت البعثة على علم بأن الإنجليز يأتون إلى المخا من شرق الهند، وكانت تأمل أن تجد لديهم المساعدة، من أجل أن تتمكن من التوغل داخل اليمن. ولكنها نُصحت، وهي في جدة، بأن تنزل في اللحية، أو في الحديدة، وتتابع السفر براً إلى المخا، وذلك لأن السفر في البحر يكون بطيئاً في ذلك الوقت من السنة، بسبب الرياح المعاكسة.

ورغم أن البعض أكد لها، أنها تستطيع أن تسافر براً في مملكة الإمام ، بكل اطمئنان، إلا أنه كان يساور أعضاءها الخوف. فالفكرة، التي كانت لديهم عن اليمن، لم تكن تختلف عن فكرتهم عن العرب المتنقلين في مصر والحجاز[51].

ولكن هذه الفكرة ما لبثت أن تغيرت، بمجرد وصول البعثة إلى اللحية. وبدأت تتكون لدى نيبور جملة من الإنطباعات، التي وردت في كتاباته بصورة متناثرة، متضمنة الكثير من المقارنات، بين سلوك اليمنيين، من ناحية، وبين سلوك الأتراك والمصريين والأوروبيين، من ناحية أخرى.

---

(50) أنظر المصدر نفسه.

(51) كان العرب، من البدو الرحل، في نظر البعثة أناساً يعيشون على قطع الطرق ونهب المسافرين. وتأكدت هذه الفكرة لديها، قبل وصولها إلى اليمن. وذلك من خلال التجربة، التي مرت بها في سيناء، حيث هوجم نيبور وفون هافن وسلبت أمتعتهما.

وأول ما لفت انتباه نيبور، عند نزول البعثة إلى البر اليمني، هو ظاهرة الكرم. فقد استقبلت البعثة بحفاوة بالغة، لم تكن تتوقعها، وعرض كل من عامل اللحية وأحد التجار أن يدفع أجرة السفينة التي أقلتها من جدة، وتم تحضير عشاء فاخر لها، وقدم لها العامل بعض الهدايا. وعند مغادرة البعثة اللحية متوجهة إلى بيت الفقيه، حاول العامل أن يدفع أجرة الحمير والجمال التي أقلتها، وكلف بعض خدمه بمرافقتها، وحملهم رسائل إلى المسؤولين على امتداد طريق السفر، يطلب منهم استضافتها مجاناً.

وتحدث نيبور بارتياح عن الإستقبال، الذي حظيت به البعثة في صنعاء، وكيف استضيفت وأُطعمت وقدمت لها الهدايا، من قبل الإمام، مع مبلغ من المال (٢٠٠ريال)، وزُوّدت بأوامر لاستضافتها طوال طريق عودتها إلى المخا، وكيف حاول أعيان صنعاء اقناع البعثة أن تقيم عندهم مدة عام، إلى أن تعود السفن، التي كانت لا تزال راسية في المخا، مرة أخرى في العام التالي.

وأكثر ما لفت نظر نيبور هو تلك المضافات المنتشرة على طول الطريق في تهامة، حيث كان المسافرون ينزلون فيها عدة أيام، يأكلون ويشربون وينامون مجاناً، وقد نزل نيبور نفسه في تلك المضافات، أثناء تنقله في تهامة، ولقي فيها من كرم الضيافة، ما جعله يؤكد "أن المرء يستطيع، من خلال الطريقة، التي استقبلت بها في تلك المضافات، أن يجزم بأن العرب لا يزالون كرماء، وأن كرمهم تجاه المسيحيين لا يقل عن كرمهم تجاه أبناء دينهم"[52].

ويلاحظ في كتابات نيبور أنه كثيراً ما استخدم اسم (العرب) كمرادف لاسم (اليمنيين). وهذا أمر مفهوم، إذا وضعنا في اعتبارنا، أن اسم اليمن مرادف لاسم (العربية السعيدة). ولذا فإننا عند الإقتباس النصي سنبقي اسم (العرب)، ويجب أن يفهم من ذلك أن المقصود وفقاً للسياق هم اليمنيون. فعند حديثه العام عن الكرم عند العرب ساق كل أمثلته من اليمن.

أُخذ نيبور بما شاهده في اليمن من ممارسات يومية لفضيلة الكرم، التي لا تقتصر ممارستها على الأفراد الميسورين، بل هي فضيلة عامة، يتمسك بها السكان جميعهم. وكان قد تعرف قبل وصوله إلى اليمن على كل من تركيا ومصر، ثم مر بتركيا مرة أخرى، في طريق عودته إلى أوروبا. لذا وجد فرصاً كثيرة، لمقارنة سلوك اليمنيين وعاداتهم بسلوك الأتراك والمصريين. وتقدم لنا الفقرة التالية وصفاً حياً للكرم اليمني، ينتهي بمقارنة طريفة: "يصر العرب على كل من يأتي إليهم أثناء الطعام،

(52) Niebuhr, C., BVA, S. 47

أن يشاركهم طعامهم، وسيان أكان مسيحياً أو مسلماً، فقيراً أو غنياً. وقد أكلت معهم شخصياً، وبكل ارتياح، أثناء سفري. وحتى مرافقي الذي كان يعتني بالحمار، كان عليه أن يأكل معهم. ورغم أن الكثيرين يعتذرون بلطف عن تناول الطعام، إلا أنهم في النهاية يستجيبون، ويشاركون، حتى ولو في قليل من الخبز والتمر. ولذلك كان موضع استغرابي ما شاهدته بعد ذلك في تركيا، فقد وجدت العديد من الأغنياء الأتراك، عندما يتناولون طعامهم يتوارون في إحدى الزوايا، حتى لا يأتي إليهم أحد، فيضطرون إلى تقديم شيء من طعامهم إليه"[53].

- التسامح الديني:

لاحظ نيبور أن الشعب اليمني شعب متدين، وأن اليمنيين يمارسون تدينهم بتلقائية، ودون تزمت أو تصنع. وأشار باستغراب إلى أن صاحبة نزل (مقهاية) طلبت من أعضاء البعثة، وهي تودعهم– وكانت تظنهم مسلمين– أن يدعو الله من أجلها. وأورد مقارنة، بين تدين أهل مصر وتدين أهل اليمن، من خلال صيام شهر رمضان فقال: "ولأن رمضان سيبدأ في ١٦ مارس[54]، فقد خشيت أن يكون المسلمون في تهامة متزمتين كالمصريين. فالمصريون الذين سافر معهم فورسكال Forskal، في شهر رمضان[55] ، من القاهرة إلى الإسكندرية، كانوا متشددين، يصومون طوال النهار، ويبدون انزعاجهم، عندما يلاحظون أن فورسكال يتناول طعاماً أو شراباً، كما يبدون ضيقهم وتبرمهم، إذا طالت الرحلة اليومية. مثل اولئك الناس لا يمكن أن أرتاح للسفر معهم. أما اليمنيون فليسوا متزمتين، فهم يصومون أياماً أخرى مقابل الأيام، التي أفطروا فيها، أثناء سفرهم"[56].

وسجل نيبور انطباعاً رائعاً عن تسامح اليمنيين. فعدم تزمتهم عكس نفسه على سلوكهم وقناعاتهم، تجاه الفرق الدينية الإسلامية المختلفة، وتجاه الأديان الأخرى. سجل انطباعه هذا عبر العديد من المقارنات: فالشيعة والسنة، في كل من إيران وتركيا، لا يطيق بعضهم بعضاً، ولا يصلي

---

(53) Niebuhr, C., BVA, S. 47-48

(54) عام ١٧٦٣م.

(55) عام ١٧٦٢م.

(56) Niebuhr, C., BVA, S. 332

أتباع مذهب في مساجد المذهب الآخر. أما اليمنيون فلم يؤثر اختلاف المذاهب في علاقاتهم. وليس هذا وحسب، بل إن اليمنيين لا يكرهون أتباع الأديان الأخرى[57].

ولاحظ نيبور أن اليمنيين يتقيدون بالقرآن، تقيداً كبيراً، فيوفرون الحماية لمن يلتحق بالإسلام. ففي المخا كان العامل يجري لمن أسلم، من بحارة السفن، وقرر البقاء في المدينة، يجري له مبلغاً شهرياً من المال، يعينه على الحياة. ولم يكن اليمنيون يظهرون تشدداً مع من أسلم، فلم يمنعوا من أسلم من المسيحيين مثلاً "أن يتصل بالمسيحيين أو أن يغادر إذا أراد"[58].

- **التعامل مع الأجانب:**

خطّأ نيبور الصورة، التي يصوِّر بها العرب عادة، بقوله: "لا يجب أن يدع أحد الصورة، التي تعطى عادة عن العرب، على أنهم غير مهذبين ولصوص وطماعون، لايجب أن يدعها تمنعه من السفر إلى البلاد العربية، فقد وجدت بنفسي أن هؤلاء القوم ليسوا سيئين كما يصورون. إننا نحن الأوروبيين نستعجل في إطلاق الأحكام على الأمم الأخرى، قبل أن نتعرف عليها بشكل صحيح"[59]. ويستطرد في عرض انطباعاته وقناعاته، بالنسبة لتعامل الناس في البلاد العربية مع الأجانب، مبرزاً الأسباب، التي يعتقد أنها تكمن وراء ما يعتبره بعض الرحالة تعاملاً سيئاً، ويرجع هذه الأسباب إلى سلوك الرحالة أنفسهم، الذين لا يستطيعون أن يتكيفوا مع حياة الناس، ويتعاملوا معها ببساطة[60] وينتهي إلى أن الرحّال الأوروبي، الذي يرغب بالسفر في البلاد العربية، ويوطن نفسه على الحياة، بحسب عادات وتقاليد العرب "يمكنه أن يتجول في كل البلاد العربية – باستثناء الحجاز – باريتاح. ولكن ليس هناك منطقة يمكن أن يشعر فيها بالأمن والإطمئنان، مثلما يشعر وهو في اليمن. إن سكان هذا البلد يتصفون باللطف تجاه الأجانب، ويستطيع المرء، على الأقل في منطقة الإمام[61]، أن يتنقل بحرية وأمان، تماماً كما يتنقل في أوربا"[62]. إن أحداً لا يعترض الرحّال ولا يمنعه من التجول، حيث شاء، ولاسيما إذا استطاع أن يكسب ود السكان، عن طريق

---

(57) Niebuhr. C., BVA, S. 23

(58) Niebuhr. C., BVA, S. 24

(59) Niebuhr. C., BVA, S. X

(60) Niebuhr. C., BVA, S.IX FF

(61) لم يزر نيبور غير المنطقة التي كان يحكمها الإمام، ولذا حرص هنا على أن يستدرك ويقصر انطباعه على هذه المنطقة، التي زارها.

(62) Niebuhr. C., BVA, S. XII

إيصال علمه ومعرفته إليهم "فهؤلاء العرب لا يخجلون-كما يخجل الأتراك- من أن يتعلموا شيئاً من الأوروبيين"(63). ولكن على الرحّال أن لا يبدي تأففه واستهجانه، تجاه الأشياء التي لا تعجبه، وهذا لا يعني أن يحاول كسب ود السكان، عن طريق تملقهم والتزلف إليهم وإظهار ارتياحه لأشياء لا تعجبه. فهؤلاء "يحبون الصدق ويعرفون أن لديهم أخطاءً ونواقص كثيرة، ولكنهم، كغيرهم من الأمم، لا يحبون أن يلفت أحد نظرهم إلى أخطائهم، بنوع من السخرية"(64).

أُخذ نيبور ببساطة الناس وتلقائيتهم، وشعر بالإرتياح للتعامل معهم، منذ وطئت قدماه اللحية، حيث يقول: "لقد سعدنا بأن نجد عادات المسلمين أفضل، كلما ابتعدنا عن مصر، خاصة وأن سكان اليمن، وهو البلد الذي تمثل الرحلة فيه أساس مهمتنا، استقبلونا منذ اللحظة الأولى، استقبالاً لطيفاً للغاية"(65). وقد عبر عن هذا الإرتياح في أكثر من مناسبة، وفي أكثر من موضع في يومياته. فحول المشاعر المتبادلة مع المواطنين اليمنيين في اللحية مثلاً، يقول: "كان السكان يشعرون بالسعادة لوجودنا في مدينتهم، وكنا نشعر أيضاً بالسعادة لوجودنا مع سكان هذا البلد، طيبي القلوب"(66).

ولم يكن نيبور وحده من شعر بالإرتياح، تجاه معاملة اليمنيين ولطفهم، بل كان هذا هو شعور أعضاء البعثة جميعهم. فسادت بينهم، نتيجة لذلك، روح جديدة وانسجام، لم يعرفوه، منذ غادروا كوبنهاجن، فأخذوا يتسامرون، ويعزفون بآلاتهم الموسيقية كل مساء. وقضوا أسعد وأمتع أيامهم، بين سكان مدينة اللحية البسطاء. وحتى أكثر أعضاء البعثة تشاؤماً ونفوراً من الآخرين، وهو فون هافن **Von Haven**، عبر عن ارتياحه، في رسالة بعث بها إلى بيرنشتورف، بقوله: "... لقد عرفنا الآن مدى اللطف والود والتهذيب، الذي يُستقبل به الأوروبيون في العربية السعيدة، وكذا كيف يخلق هذا الشعب البسيط حوله احساساً بالسكينة والرضى، والبعد عن كل أنواع الهمجية"(67).

وخلال تنقل نيبور لفتت انتباهه خاصية، يتصف بها اليمنيون، وهي حب التعرف على الغريب وبلده ووجهته ...إلخ، فسجل في يومياته: "إن العرب في اليمن، ولاسيما في مناطق الجبال، يستوقفون المسافرين في قارعة الطريق، ويسألونهم عن اسم بلدهم، ومن أي قرية بدأوا رحلتهم

---

(63) Niebuhr. C., BVA, S. XII
(64) Niebuhr, C., BVA, S. XII
(65) Niebuhr, C., BVA, S. 297
(66) Niebuhr, C., BVA, S. 300
(67) Hansen, Reise, S. 247

هذا اليوم، وأين ينوون أن يبيتوا ليلتهم ...إلخ. ولا تكمن وراء هذه الأسئلة أية نوايا سيئة. إنه فقط نوع من حب الإستطلاع. ومن غير اللائق أن لا يجيب المرء على أسئلتهم"(68).

ولاحظ نيبور أن اليمنيين يهتمون بالغريب اهتماماً عفوياً، خال من التكلف والمصلحة. وتعبر أسئلتهم واستفساراتهم ونصائحهم وإبداء الرغبة في تقديم المساعدة، عن هذا الاهتمام. فعندما يمارس نيبور أو فورسكال، أو غيرهما من أعضاء البعثة، عمله، تنهال الأسئلة عليه، عن كيفية العمل والغرض منه، وتبدر بعض المقترحات العفوية، التي ليس لها غرض سوى راحة الغريب. ومثال على ذلك، اهتمام الأهالي في بيت الفقيه بأعضاء البعثة، وأسئلتهم حول عمل فورسكال وماذا يريد من جمع النباتات، ونصحهم أعضاء البعثة بعدم تعريض أنفسهم للشمس طوال النهار، وأن يحافظوا على صحتهم، خاصة وأن أمامهم رحلة طويلة، سوف يُرهقون فيها، قبل أن يعودوا إلى بلادهم(69).

ورغم أن الرحلة لم تسر بالسهولة نفسها واليسر، كما سارت في تهامة، إذ واجهتها صعوبات، وعوملت البعثة من قبل موظفي جمارك المخا، ومن قبل عمال المخا وتعز ويريم، معاملة مختلفة عن تلك التي عوملت بها في اللحية وبيت الفقيه ثم في صنعاء، وقُذفت نوافذ الدار، التي استأجرتها في يريم، بالحجارة، إلا أن الإنطباع العام لنيبور ظل انطباعاً طيباً، مقارنة بانطباعه عن تعامل السكان في كل من تركيا ومصر. بل لقد حاول، كما مر معنا، أن يبرر ما واجهته البعثة من صعوبات، بإرجاع سبب ذلك إلى أعضاء البعثة أنفسهم، وإلى كونهم لم يكونوا قد عرفوا أهل اليمن معرفة كافية، مما جعلهم يعتقدون "وبدون وجه حق"(70) أن شكواهم لها ما يبررها. ومعنى هذا أن هناك تصرفات من قبل الأهالي، كان يفهمها أعضاء البعثة على غير حقيقتها، وينزعجون منها، بناءً على فهم غير صحيح لها، مع أنهم – بحسب رأي نيبور – لو كانوا قد عرفوا أهل اليمن معرفة كافية، لما وجدوا، في تلك التصرفات، ما يدعو إلى الشكوى والإنزعاج. ومع ذلك، ورغم تبرير نيبور، فإن قذف نوافذ منزل البعثة في يريم بالحجارة، من قبل بعض الأهالي، لا يحتمل إلا فهماً واحداً، ولا يمكن أن يكون نيبور قد فهمه فهماً آخر. كما أنه لا يمكن أن يكون قد فهم محاولة ابتزاز البعثة، من قبل عامل المخا وعامل تعز ثم عامل يريم، الذي اعتبر نفسه وريثاً شرعياً لفورسكال، فهماً

---

(68) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 345
(69) Niebuhr, C., RB, Bd. 1,S. 332
(70) Niebuhr, C., BVA, S.IX-X

خاطئاً. إلا أن نيبور، كما هو واضح، وجد أن سلوك اليمنيين عموماً، وتعاملهم الطيب مع الأجانب، يغلب على السلوك السيء، الذي قد يصدر عن بعضهم، والذي اعتبره مجرد حالات استثنائية، يصادفها الإنسان في جميع بلاد العالم، بما فيها أوروبا(71).

• **الأمن:**

إستطاع نيبور أن يتجول، وأعضاء البعثة، بحرية واطمئنان في كل المناطق التي مر بها، حتى في يريم نفسها، رغم مظاهر الإستقبال غير الودية، التي قوبلت بها البعثة في يومها الأول. وتحوي كتاباته إشارات تصور لنا، ليس فقط انطباعاته عن حالة الأمن في اليمن، بل أيضاً احساسه بالأمن وتمتعه به. وقد أكد نيبور، كما أشرنا سابقاً، بأن المرء في البلاد العربية، باستثناء الحجاز، يستطيع أن يتنقل بحرية وأمن، وأن اليمن من هذه الناحية تفوق كافة البلاد العربية. وتكرر تعبير نيبور عن هذا الإنطباع في كتاباته بصور شتى، وبمناسبات مختلفة. ففي حديثه عن الثأر، مثلاً، يؤكد أن هذه الظاهرة ليست منتشرة بصورة كبيرة في تهامة، وإلا لكانت قد أثرت في الوضع الأمني، ولما استطاع أعضاء البعثة أن يتجولوا متمتعين بمثل ذلك الأمن، الذي تمتعوا به فعلاً(72). وعند حديثه عن الحروب الداخلية، أشار إلى أن الحروب إذا نشبت لا تدوم طويلاً، إذ سرعان ما يعود الأمن إلى حالته الأولى من جديد، وإلا لما استطاعت البعثة أن تتنقل في مناطق اليمن خلال فترة قصيرة(73).

لقد تبددت كل مخاوف البعثة، التي كانت تساورها قبل وصولها إلى اللحية، بمجرد وصولها، حيث أُكد لها، أنها تستطيع أن تتجول في اليمن بكل أمان(74). وسمعت مثل هذا التأكيد في المناطق الأخرى، وثبت لها بالفعل أنها تستطيع أن تتجول تحت إحساس كامل بالأمان، وأن السكان اليمنيين على درجة من التهذيب، بحيث أن البعثة شعرت "أنه لا ضرورة لوجود حرس مرافق"(75). لقد بلغ الإحساس بالأمن لدى نيبور حداً جعله يكرر التعبير عنه، كلما سمح له السياق بذلك. فقد تأكد من استتباب الأمن، وشعر به، من خلال تجربته المباشرة "أدركت الآن

(71) قارن: Niebuhr, C., BVA, S. IX-X, 28-29.
(72) Niebuhr, C., BVA, S. 34-35
(73) Niebuhr, C., BVA, S. 204
(74) Niebuhr, C., BVA, S. 297
(75) Niebuhr, C., RB, BD. 1, S. 321

أكثر من ذي قبل، ومن خلال التجربة، أن المرء في اليمن يستطيع أن يتنقل بحرية، وبقدر كبير من الأمان، كما في أوروبا"[76].

ويسجل نيبور بنوع من الإستغراب، أن الرحّال يستطيع أن يتجول في أنحاء اليمن دون أن يعترضه أحد، وأن المسافر الأجنبي لايسأل عن جواز سفره، سواءً في ميناء الوصول، أو في داخل البلاد[77].

خصائص أخرى للإنسان اليمني:

إضافة إلى ما ورد آنفاً، عن حب الإستطلاع لدى الإنسان اليمني واهتمامه بالغريب وكرمه ...إلخ، تضمنت إشارات نيبور المتفرقة، انطباعات عن بعض الخصائص الأخرى للإنسان اليمني، ومنها:

- ميل الإنسان اليمني إلى الحياة الإجتماعية:

لاحظ نيبور أن العرب يميلون إلى الحياة الاجتماعية ميلاً شديداً، ولاسيما سكان اليمن، الذين تشكل الأسواق، بالنسبة لهم، فرصاً للتجمع. فقلما توجد قرية كبيرة في اليمن، إلا ويعقد فيها سوق أسبوعي، يلتقي الناس فيه، يبيعون ويشترون، ويتحادثون. كما يلتقون في المقاهي باستمرار، وفي المناسبات، كالأعياد وزيارات الأولياء. ويستمتعون بلقاءاتهم هذه كل الإستمتاع[78].

- حب الموسيقى:

وجد نيبور أن اليمنيين لا ينظرون إلى الموسيقيين والفنانين نظرة احترام، ومع ذلك فهم يستمتعون كثيراً بالموسيقى والغناء. فعندما كان نيبور ورسام البعثة باورنفايند **Baurenfeind** يروّحان عن نفسيهما في المساء، في مدينة اللحية، بالعزف على آلات بسيطة، كان الأهالي يتجمعون ويستمعون ويطربون للعزف، رغم أن الأنغام الأوروبية كانت غريبة على أسماعهم. ويبلغ حب الموسيقى بأحد التجار المسنين حداً، لا يستطيع عنده الإصطبار، فيطلب من خدمه أن يضعوه على حماره وأن يتوجهوا به إلى مقر البعثة، حيث ظل فوق حماره، ينصت بشغف، حتى انتهى

---

(76) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 332. U.vrgl.S. 313,322,326,352

(77) Niebuhr, C., RB, Bd. 1,S. 359-360, 346

(78) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 27-28

العزف. ثم حاول أن ينفح كلاً من نيبور وباورنفايند بعض النقود، لكنهما اعتذرا عن عدم قبولها[79].

- **الحيوية والمرح:**

لاحظ نيبور أن اليمنيين أكثر حيوية وحركة ومرحاً، في لقاءاتهم ومناسباتهم، من الحجازيين "وأكثر بكثير من الأتراك"[80]. ووصف تجمعاً حول قبر أحد الأولياء في تهامة، حيث أخذ بعض المحتشدين يرقص ملوحاً بجنبيته، وآخرون بسيوفهم، وآخرون يتبارون بقذف عصي الجريد ...إلخ، وعلى محياهم جميعاً تبدو أمارات الإنبساط والمرح والإستمتاع. وهذا المشهد يختلف-كما أشار- عما شاهده في مصر. فالمصريون يتجمعون أيضاً حول أضرحة الأولياء، ولكن دون أن يرقصوا ويمرحوا كاليمنيين[81].

- **قلة استخدام عبارات التفخيم والتبجيل:**

لا حظ نيبور أن أسماء وعبارات التفخيم والتبجيل لا تنتشر بين اليمنيين، كما لاتنتشر بين العرب عموماً، بل إن اللغة العربية نفسها فقيرة من هذه الأسماء والعبارات، مقارنة بغيرها من اللغات، إلى حد أن إسماً واحداً يمكن أن يطلق على أشخاص مختلفين، ووظائف متباينة، فلقب (الشيخ) مثلاً يطلق على شيخ القبيلة، وعلى عاقل القرية، وعلى رجل العلم، وعلى الرجل المسن، وعلى إمام المسجد، وعلى الولي "وحتى على رئيس اليهود في مدينة صنعاء"[82].

عودة نيبور إلى أوروبا:

يستحق نيبور منا، في نهاية هذه العجالة، أن نكرس بضع فقرات، لعرض رحلة عودته إلى الدينمارك، والمناخ السياسي والعلمي الذي وجده هناك، ثم حياته حتى مماته.

غادر نيبور المخا، مع من بقي حياً من أعضاء البعثة، في ٢٣ أغسطس ١٧٦٣م، كما أسلفنا، ووصل بومبي في الهند في ١١ سبتمبر ١٧٦٣م[83]. وبعد أن قضى في الهند خمسة عشر شهراً

---

(79) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S.302-303
(80) Niebuhr, C., BVA, S. 27
(81) Niebuhr, BVA, S. 27-28
(82) Niebuhr, C., BVA, S. 14
(83) Hansen, Reise, S. 344

تقريباً، غادر بومبي عائداً إلى كوبنهاجن، عن طريق مسقط وإيران والعراق وسورية والإسكندرية وقبرص وفلسطين ولبنان، ثم سورية مرة أخرى، وتركيا وبلغاريا ورومانيا وبولندا وألمانيا، ليصل إلى كوبنهاجن في ٢٠ نوفمبر ١٧٦٧م[84]، بعد أن قام بدراسات وجمع الكثير من المعلومات، عن البلدان التي مر بها، ولاسيما إيران والعراق وسورية وفلسطين.

ولم تكن كوبنهاجن عند عودته هي المدينة نفسها، التي تركها منذ حوالي سبع سنوات، فقد تغيرت كثيراً: كان الملك فريدرك الخامس قد توفي[85]، واعتلى العرش ابنه كرستيان **Kristain**، وهو في السابعة عشر من العمر، فانغمس في اللهو والمجون. ولم يكترث أحد لعودة نيبور، ولم يهتم أحد بنتائج الرحلة، وإن كان قد حصل على دعم رسمي، لنشر أول أعماله، وهو كتاب (وصف بلاد العرب **Beschreibung von Arabien**)، الذي نشره عام ١٧٧٢م. ولما لم يحظ ذلك الكتاب بالإهتمام الذي يستحقه، عزم نيبور على ترجمته إلى اللغة الفرنسية. إلا أن الترجمة الفرنسية كانت رديئة، مما حدا بنيبور إلى التخلص من نسخه إثر طباعتها.

وفي عام ١٧٧٤م نشر المجلد الأول من يومياته، بعنوان (وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة **Reise Beshreibung nach Arabien und den umliegenden Laendern**). ثم ألحقه بكتاب، ضم أعمال صديقه، رفيق الرحلة فورسكال، بعنوان (نبات مصر والجزيرة العربية)، ثم أصدر كتاباً آخر، ضم رسوم رفيق الرحلة، الرسام بورنفايند. وفي عام ١٧٧٨م نشر المجلد الثاني من يومياته.

وباستثناء كتابه الأول (وصف بلاد العرب) فإن نيبور قد أنفق على نشر أعماله وأعمال رفيقيه المتوفين من ماله الخاص، حتى نفذ ما بيده. وغادر نيبور مدينة كوبنهاجن عام ١٧٧٠م إلى ألمانيا، وتزوج عام ١٧٧٣م، وبحث لنفسه عن وظيفة متواضعة، فحصل على وظيفة كاتب في مجلس إحدى المدن النائية، في منطقة معزولة، بشمال ألمانيا. وقضى في تلك المنطقة بقية عمره.

---

(84) حول رحلة العودة وحياة نيبور حتى مماتـه انظـر: **Neibuhr, B.G., Niebuhrs Leben, S. 28 FF** وكـذا: **Hansen, Reise, S. 350 FF.**، وترجمته العربية: الرعدي، محمد أحمد، من كوبنهاجن إلى صنعاء، دار العودة، بـيروت، ١٩٨٣م، ص٣٣١ وما بعدها.

(85) توفي الملك فريدريك الخامس، ملك الدينمارك، في يناير ١٧٦٦م.

ومع أن الأنظار بدأت تلتفت إليه، وبدأت كثير من الدوائر العلمية، ولاسيما في فرنسا، تقدر إنجازاته، وتبدي اهتماماً بنتائج الرحلة، وتدعوه لزيارتها، وتكرمه، وتعرض عليه العمل لديها، إلا أنه ظل يرفض ترك وظيفته، وتغيير نمط حياته. وبينما كانت الدوائر العلمية تناقش أعماله، وكبار الجغرافيين يعترفون بدقة خرائطه وقياساته الجغرافية، التي وضعها لليمن، كان نيبور ينصرف إلى حياته اليومية البسيطة، ويروي لزوجته وأطفاله ذكرياته في بلاد الشرق. وقد شدته أشواق، وهو في السادسة والستين من العمر، إلى حياته الريفية الأولى، فاشترى قطعة أرض وأخذ يفلحها، وشعر بسعادة عظيمة وهو يعمل عليها، كما كان حاله في مطلع شبابه. وفي عام ١٨٠٧م فقد زوجته، وكان بصره قد أخذ يضعف، مما أجبره على الاستعانة بمساعد متخصص بالجغرافيا، يعينه على قراءة الخرائط، ويساعده على الكتابة وتدوين مذكراته. وكان حظ هذا المساعد أن يتولى نشر المجلد الثالث من يوميات نيبور وذلك عام ١٨٣٧م.

وكف بصر نيبور وضعف جسده، وسقط ذات يوم فانكسر عظم فخذه، ليقضي ما تبقى من عمره على كرسي متنقل. وفي ٢٦ أبريل عام ١٨١٥م توفي وهو في الثانية والثمانين مع العمر، ذلك الرجل، الذي لولاه لما أمكننا أن نعرف عن البعثة الدينماركية وإنجازاتها العلمية، ما نعرفه اليوم.

رحلة أولرش ياسبر سيتزن Ulrich Jasper Seetzen

مقدمة [86] :

يتكرر اسم أولرش ياسبر سيتزن في الكتابات الخاصة بالرحلات الإستكشافية لبلاد العرب، كما يتكرر في الكتابات المتعلقة بتاريخ اليمن القديم، رغم أنه، قياساً إلى سلفه كارستن نيبور، الذي سبقه إلى اليمن بحوالي نصف قرن، كما بالقياس إلى من جاؤا بعده، من أمثال توماس ج. أرنود ويوسف هاليفي وإدوارد جلازر، الذين يعود إليهم الفضل في العثور على النسخ الأولى، لأهم النقوش اليمنية القديمة، يعتبر شخصية ثانوية. مع ذلك فقد اكتسب أهمية خاصة، لايمكن تفسيرها، إلا بكونه قد لقي حتفه في اليمن، واختفى فيه، كما اختفى معظم مادونه وما جمعه من مواد.

وصل سيتزن إلى اليمن، في ٨ أبريل عام١٨١٠م. وكان قد قام، قبل وصوله إلى اليمن، برحلات إلى الشرق، على مدى سبعة أعوام. فزار تركيا وتجول في آسيا الصغرى، قبل أن يتجه إلى سوريا، حيث أقام في مدينة حلب، إبتداءً من ٢٣ نوفمبر ١٨٠٣م، وتعلم فيها اللغة العربية وجمع بعض المخطوطات، ثم غادرها إلى دمشق، في شهر أبريل ١٨٠٥م، واتخذ من دمشق نقطة انطلاق لرحلات استكشافية، إلى عدة مناطق سورية، مثل حوران ولبنان والبقاع، ثم اتجه إلى فلسطين، فزار القدس ودار حول البحر الميت وسجل معلومات مهمة عن طبوغرافيته. وفي شهر مارس ١٨٠٧م غادر فلسطين، مع إحدى القوافل، وعبر صحراء سيناء وزار كنيسة كاترين ووصل، عبر السويس، إلى القاهرة، في ١٨ مايو ١٨٠٧م. ومكث في القاهرة قرابة عامين، قضاهما في زيارات لمنطقة الفيوم وكتابة مذكراته اليومية وشراء ألف ومئة واثنين وستين (١١٦٢) مخطوطة، وجمْع ألف وأربع مئة وأربعة وستين (١٤٦٤) قطعة أثرية والتعرف على اللغات الأفريقية، عن طريق العبيد الأفارقة، الذين كان التجار يجلبونهم إلى القاهرة.

توقفت مذكرات سيتزن، التي نشرت بعد وفاته، توقفت في القاهرة، في تاريخ ٢٣مارس ١٨٠٩م، أي قبل مغادرته القاهرة باتجاه الجزيرة العربية. حيث غادر القاهرة في أبريل، من العام نفسه، إلى السويس، ومن هناك حاول أن يطوف بسيناء ويبلغ العقبة، ولكنه عاد إلى السويس قبل

---

(86) إستعنا في وضع هذه المقدمة بما كتبه نوربيرت نيبيس **Norbert Nebes** عن رحلة سيتزن في:
Ulrich Jasper Seetzen (1767 -1811) Leben und Werke, Gotha, 1995.

أن يصل إلى العقبة. وفي طريق عودته نسخ بعض النصوص الشعرية النبطية، التي قام يوسف فون همر Joseph von بنشرها عام ١٨١١م.

وفي ٣١ يولية ١٨٠٩م غادر سيتزن السويس، على ظهر باخرة إلى ميناء جدة، ووصله في ١٩أغسطس. وقضى الأشهر التالية في الحجاز وطاف بالكعبة، في موسم الحج، وزار المدينة المنورة وتمكن من رسم بعض معالمها، بصورة سرية، ومنها خارطة للمدينة وضواحيها ومنظر للمدينة وآخر للمسجد وعدد من المناظر لقبر الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام. ثم عاد إلى مكة، عبر جدة، ومكث فيها شهرين، قام خلالهما برسم الحرم المكي والمناطق المحيطة بمكة، ووضع قياسات فلكية، لتحديد الوضع الجغرافي لمكة.

وفي ٢٨ مارس ١٨١٠م غادر سيتزن ميناء جدة، متجهاً إلى اليمن، يرافقه الشيخ حمزة، الذي تعرف عليه في مكة، قبل نصف عام، وتعلم منه بعض جوانب الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية. وقد وصل إلى ميناء الحديدة في ٨ أبريل ١٨١٠م. ومن الحديدة بدأ رحلته داخل اليمن.

ولا تتوفر حتى الآن معلومات عن فترة إقامة سيتزن في اليمن، سوى مادونه في رسالتين مؤرختين في ١٧ نوفمبر ١٨١٠م، نشر مقتطفات منهما يوسف فون همر، في (Fundgruben des Orient)، كما نشرت أيضاً في النشرة الشهرية لفرانس إكسافر فون زاخ (Zach Correspondenz). واستناداً إلى هذه المقتطفات، وإلى بعض ماكُتب عن رحلته، فإنه قد بدأ رحلته في اليمن بالسير أولاً على نفس الطريق، التي سار عليها نيبور قبله بحوالي سبعة وأربعين عاماً. فاتجه إلى مدينة بيت الفقيه، التي اتخذ نيبور منها نقطة انطلاق لأبحاثه الميدانية في مناطق تهامة والمناطق الجبلية المتاخمة. واتجه سيتزن بعد ذلك من بيت الفقيه إلى مدينة زبيد، ومنها قصد الهضبة، فاتجه إلى الحدّية، التي ذكر، كما ذكر نيبور من قبله، أنها منطقة مشهورة بالبن. ومن الحدّية صعد الممر الجبلي نحو منطقة كسمة، وواصل طريقه إلى ضوران، مركز بلاد آنس، عبر السلفية ومدينة العبيد، التي تسمى الآن مدينة الشرق، وتقع في بلاد آنس. وقد مرض في ضوران، وظل طريح الفراش مدة شهر كامل. وبحسب إفادته فقد تعرض بعد مروره بكسمة لأمطار رعدية باردة، تسببت بإصابته بالبرد، وربما بالإلتهاب الرئوي.

وبعد شهر من بقائه مريضاً في ضوران، وأثناء عبوره جدولاً مائياً، وهو محمول بسبب ضعفه الشديد، انكسر زجاج ساعته، مما جعله يغير خطة رحلته. فبدلاً من التوجه إلى ظفار، في الجنوب،

كما كان مقرراً في خطته، للبحث عن نقوش يمنية قديمة، كان نيبور قد أشار إليها في يومياته، اتجه إلى مدينة صنعاء، التي كان ينوي تأجيل زيارته لها إلى وقت متأخر من رحلته، وذلك على أمل أن يتمكن في صنعاء من إصلاح زجاج ساعته. وقد وصل إلى صنعاء في الثاني من يونيه.

وفي صنعاء مكث أكثر من ثلاثة أسابيع، استغلها في عدة أمور، منها شراء مخطوطات عربية، وصفها بأنها من أثمن المخطوطات، التي حصل عليها في الشرق. ومن صنعاء واصل رحلته نحو الجنوب، في نهاية شهر يونية، بقصد زيارة المناطق الأثرية، التي ذكرها نيبور، ورؤية النقوش التي أشار إليها ولم يتمكن من نسخها. وسار سيتزن في طريق يقع إلى الشرق من الطريق الأسفلتية الحالية، عبر سيان إلى زراجة. وهناك بحث، دون جدوى، عن (Eddoffa) أو (Hoeddafa)، التي لم يتعرف عليها أحد من السكان. ولعل ذلك يرجع إلى المشكلة، التي أشرنا إليها في العديد مما نشرناه من ترجمات لرحلات الأوربيين في اليمن، وهي مشكلة الأسماء العربية، التي يكتبونها بحسب السماع، فيخطئون في التقاطها ويخطئون بعد ذلك في كتابتها، وإذا ما أرادوا أن ينطقوها كما كتبوها، فإن أحداً من السكان لايستطيع أن يفهم ما يقصدونه.

وواصل سيتزن رحلته من زراجة، عبر مدينة ذمار ومدينة يريم، حتى وصل إلى ظفار، العاصمة الحميرية القديمة، الواقعة في مكان غير بعيد من يريم، نحو الجنوب. وعثر هناك على ثلاثة نقوش، تمكن من شراء أحدها ونسخ الآخر. في حين لم يتمكن من الوصول إلى النقش الثالث، الذي كان قد استخدم كحجر بناء في مكان عال بأحد المنازل. وفي قرية منكث، الواقعة بالقرب من ظفار، شاهد في السور الخارجي لمسجد القرية خمسة نقوش، استطاع أن ينسخ نقشين منها. وبعث هذه النقوش، بعد ذلك، من ميناء المخا، إلى يوسف فون همر في مدينة جوتا بألمانيا، الذي نشرها في مجلته، الآنفة الذكر.

وهبط سيتزن من الهضبة، عن طريق نقيل سمارة، عبر المخادر إلى مدينة إب. ثم من إب، عبر جبل التعكر، إلى مدينة تعز. ومن تعز سار نحو الشرق إلى ماوية، ومنها، عبر لحج، إلى عدن، حيث وصلها في ٢٢ يوليه. وهكذا استغرق من الوقت للوصول إلى عدن، منذ إنطلاقه من صنعاء، التي غادرها في ٢٧ يونية، مايزيد على ثلاثة أسابيع.

وكان سيتزن ينوي أن يعود مع مرافقه، الشيخ حمزة، إلى المخا، عن طريق البحر، ولكنه لم يجد سفينة متجهة إلى هناك، فسلك طريق البر، مغادراً عدن في ٧ أغسطس، مصطحباً معه دليلاً.

وبعد يومين من سفره أوقفه بعض البدو. ولكنه تمكن، بعد دفع مبلغ من المال، من مواصلة السفر سالماً مع مرافقيه وأمتعته. ووصل إلى المخا، عبر باب المندب وذباب، بعد سبعة أيام من مغادرته عدن، وذلك في ١٣ أغسطس ١٨١٠م.

وإذا ماقارنا رحلة سيتزن في اليمن برحلة نيبور، الذي زار اليمن عام ١٧٦٣م، فإن نيبور قد بدأ رحلته من ميناء اللحية إلى بيت الفقيه، التي اتخذها، كما أشرنا سابقاً، نقطة انطلاق لاستكشاف المناطق المجاورة، كالحديدة، على الشاطئ، والحديّة، إلى الشمال الشرقي من بيت الفقيه، باتجاه المرتفعات الجبلية. وقام نيبور، انطلاقاً من بيت الفقيه أيضاً، برحلات في المرتفعات الجبلية، مع توقف في بعض المناطق. فزار مناطق كالعدين وجبلة وتعز. ومن تعز عاد إلى بيت الفقيه، في تهامة. ووصل إلى صنعاء عبر الطريق الجنوبي. حيث غادر تهامة، عبر المخا وموزع ، إلى تعز، ثم اتجه نحو صنعاء، عبر المخادر ويريم وذمار. وفي صنعاء مكث عشرة أيام، ثم عاد منها إلى المخا، عبر الطريق المار بمفحق وبيت الفقيه. ومن المخا غادر اليمن إلى بمباي في الهند. أما سيتزن فقد كان أول رحّال هبط من الهضبة الجبلية عبر لحج إلى عدن، وسلك من عدن الطريق الساحلي إلى المخا، واستطاع بذلك أن يسجل معلومات طبوغرافية جديدة. وهناك اسهام مهم آخر لرحلة سيتزن في اليمن، وهو أنه أكد، بشكل عام، صحة المعلومات الطبوغرافية، التي سجلها نيبور، كما صحح بعضها وحدد بعضها الآخر، بشكل أكثر دقة. وبذلك جعل تحرك الجيل الجديد من الرحالة، الذين زاروا اليمن، أكثر يسراً وسهولة.

وبنشر النقوش، التي عثر عليها سيتزن في ظفار، في أوائل شهر يوليه عام ١٨١٠م، في قرية منكث المجاورة، بنشرها في الجزء الثاني من**Fundgruben des Orient**، الذي أصدره يوسف فون همر عام ١٨١١م، إطلع الأوربيون لأول مرة على نقوش يمنية قديمة. وهكذا بدأت، بفضل رحلة سيتزن إلى اليمن، الدراسات المتصلة بالنقوش اليمنية القديمة، التي ازدهرت فيما بعد وأصبح لها شأن كبير في الجامعات الأوربية.

أما النهاية المأساوية لحياة سيتزن، فقد راجت حولها العديد من الأقوال، لعل أبرزها القول بأن سيتزن سمم بأمر من إمام اليمن، بالقرب من مدينة تعز، بعد أن غادر المخا في سبتمبر ١٩١١م. وهذا القول يرجع إلى رسالة من الرحّال الإنجليزي بوكنجهام**Buckingham** ، موجهة إلى يوسف فون همر، بعد أربع سنوات من موت سيتزن، أي عام ١٨١٥م. وقد استند بوكنجهام، في

ماذهب إليه في رسالته، استند إلى طبيب شركة الهند الشرقية في المخا، وهو الدكتور أيكن Aikin، الذي كان مع سيتزن قبل مغادرته المخا بيومين. ويعزز بوكنجهام ماسمعه من الطبيب بشهادة شاهد آخر، وهو وكيل الشركة المذكورة، واسمه فوربيس Forbes. وبحسب إفادة الرجلين، كان ماجمعه سيتزن قد صودر من قبل عامل المخا، بعد قدوم سيتزن إلى المخا. وتمكن سيتزن مع ذلك من انقاذ صندوق يحتوي على أوراق، تركه لدى تاجر إيطالي، اسمه بيتروني. Benzoni. وقد مات بيتروني، ربما بعد موت سيتزن بوقت قصير. وكان بيتروني قبل موته قد سلم الصندوق لرجل هندي، كان يعمل وكيلاً لشركة الهند الشرقية، وتمكن عامل المخا من انتزاعه منه وإرساله إلى صنعاء.

وفي شهر سبتمبر ١٨١١م غادر سيتزن المخا، متوجهاً إلى صنعاء، تحت اسم منتحل، هو الحاج موسى الحكيم، مصطحباً معه سبعة عشر جملاً، محملة بأوراقه وأغراضه. وبعد يومين تردد خبر موته، بالقرب من تعز. وقد أكد كل من فوربيس وأيكن موضوع الحمولة الكبيرة، التي أقلها سيتزن على الجمال، وعبرا عن اعتقادهما بأن سيتزن ارتكب خطأً كبيراً، بتوغله في مناطق اليمن الداخلية، مصطحباً معه ذلك العدد الكبير من الجمال المحملة.

وأثارت رسالة الرحّال بوكنجهام أسئلة أكثر مما قدمت من إجابات. والأمر المؤكد، حتى من قبل سيتزن نفسه، أنه قد تجول في الشرق متخذاً صفة طبيب، وهو مايدل عليه الإسم، الذي إنتحله، وهو موسى الحكيم.

وهناك رأي آخر، يعارض الرأي القائل بأن سيتزن قد ارتكب خطأً كبيراً في اصطحابه ذلك العدد الكبير من الجمال في رحلته. فسيتزن، بحسب الرأي الآخر، لم يكن ساذجاً أو عديم الخبرة. فلابد أن أسباباً وجيهة كانت لديه، لذلك التصرف.

ولاشك أن سيتزن كان يخطط لرحلة جديدة، أشار إليها في إحدى رسالتيه المؤرختين في ١٧ نوفمبر ١٨١٠م، وحدد الطريق التي سيسلكها. وهي الرحلة التي كان يريد بها أن يتعرف على حضرموت وعمان والساحل الشرقي، من عدن حتى الخليج العربي. وعبر في رسالته عن أمله في أن يبدأ هذه الرحلة خلال بضعة أيام من كتابته الرسالة، منطلقاً من صنعاء أولاً، لشراء بعض المخطوطات، ثم إلى مأرب، لمشاهدة السد القديم، ومن هناك نحو حضرموت، ليقوم بزيارة بعض الموانئ والمناطق الساحلية ويجمع معلومات عن لغة سكان المهرة. ثم يقصد عمان بحراً وينزل في ميناء صور أو Kalhat، ومنه ينطلق للتعرف على المناطق الداخلية في عمان. وبعد ذلك يعود، عن طريق البحر، من ميناء مسقط إلى المخا.

ولكن موعد السفر، الذي حدده في رسالته ببضعة أيام لم يتم إلا بعد عشرة أشهر، أي في سبتمبر ١٨١١م. ولعل السبب في تأخره يرجع إلى مصاعب واجهها في المخا، من بينها مصادرة ماجمعه في رحلته من مواد، باستثناء الصندوق، الذي أشرنا إليه. ولعل رسومه ودفاتر يومياته، التي دونها خلال تجواله في البلاد العربية وفي اليمن، كانت من بين ماتمت مصادرته من مواد. فإذا كان قد باشر رحلته من المخا في سبتمبر من العام التالي، مصطحباً معه سبعة عشر جملاً محملاً بالمواد التي جمعها، فإن هذا قد يعني أنه اضطر إلى تأجيل سفره والبقاء في المخا ليحاول استعادة المواد التي صودرت منه، وأنه قد نجح في ذلك.

ويبدو أن سيتزن، لسبب ما، لم يستطع استعادة الصندوق، الذي أشرنا إليه، من التاجر الإيطالي، قبل مغادرته المخا. ولكن لماذا لم يترك سيتزن ماجمعه من مواد في المخا، وفضل أن يأخذها جميعها معه؟ لعل السبب وراء ذلك يرجع إلى أنه خشي أن يتركها فتصادر مرة أخرى، ورأى أن من الأضمن له أن يصطحبها معه، خاصة أنه كان قد اصطحبها معه طوال رحلته، حتى وصوله المخا، ولم تتعرض لأي أذى. وفي هذا السياق هناك خبران مهمان، تضمنتهما تقارير الرحالة فيما بعد: فقد كتب يوسف وولف (**Joseph Wolff**)، الذي قام برحلة من المخا إلى صنعاء عام ١٨٣٦م، أن مفتي زبيد أهداه مخطوطة عن تاريخ مدينة زبيد، كان مكتوباً عليها اسم سيتزن. أما الخبر الثاني الهام، فقد ساقه توماس أرنود **Arnoud Thomas**، الذي كان أول أوربي تمكن من الوصول إلى العاصمة السبئية القديمة، وزار سدها الشهير، عام ١٨٤٦م. فقد ذكر أن سكان مأرب حدثوه عن رحّال أبيض زار مأرب ونسخ هناك نقوشاً قديمة. ورجح أن يكون ذلك الرحّال هو سيتزن. ولكن قد يكون ترجيحه في غير محله، إذا صح ماتواتر عن مقتل سيتزن، بعد مغادرته المخا، وقبل أن يبلغ تعز. لأن هذا يعني أنه لم يحقق ماكان يهدف إليه، من الوصول إلى عاصمة السبئين، مأرب.

وما عدا هذين الخبرين فإن محاولة التعرف على الكيفية، التي انتهت بها حياة سيتزن، تعتبر جهداً لاطائل تحته. فليس هناك أية معلومات موثوقة، يمكن أن تساعد في رسم تصور واضح لرحلته الأخيرة وموته.

وسوف نقدم في مايلي ترجمة لوصف رحلة سيتزن في اليمن، كما ورد في رسالته المؤرخة في ١٧ نوفمبر ١٨١٠م ، الآنفة الذكر.

وصف الرحلة:

أقلعت بنا السفينة في ٢٨ مارس[87] من ميناء جدة. وتم الإبحار بمساعدة بوصلة صنعت في بومبي بالهند. وكان في السفينة مقصورة، وهو أمر نادر. وقد أُعطيت لنا أماكن في السطح، مع ثلاثة من التجار الهنود وشخص من المدينة[88] وتاجر صغير من جدة وثلاثة حجاج يمنيين، أحدهم من مدينة ذمار والآخرين من حضرموت، إضافة إلى مساعد القبطان. وقد قيل لنا أن السفينة ستتجه رأساً إلى الحديدة. ولكن بسبب الخوف من القراصنة الوهابيين في القنفذة، اتجهت السفينة إلى الساحل الأفريقي. وقد سعدت بذلك. حيث كانت هذه فرصة بالنسبة لي، للتعرف على **Massana**[89] في الساحل الحبشي.

وفي الأول من أبريل كنا قد اقتربنا من الساحل الأفريقي، إلى درجة أن البحارة المراقبين تمكنوا من رؤية السكان، الذين كانوا سود البشرة ويعتنقون الدين الإسلامي. وفي اليوم التالي رأينا جبل **Djeddaam**، الواقع خلف **Massana**. وعند الظهيرة رست السفينة في ميناء **Massana**.

وفور رسو السفينة، غادرناها إلى اليابسة، لنشاهد هذه المدينة، التي تقع على جزيرة صغيرة. ولم يكن هناك سوى بضعة منازل مبنية بالحجارة. أما بقية المدينة فتتكون من أكواخ شبيهة بتلك التي يراها المرء في مدينة جدة وفي مدن تهامة. وتتبع **Massana** شريف مكة، الذي وضع لإدارتها حاكماً يقيم فيها.

وأردنا أن نشتري بعض المواد البسيطة، مثل الحليب والسمك وغيرهما، ولكن الجميع رفض قبول قطع العملة الفضية الصغيرة، وأصر على أن لايأخذ إلا مرجاناً. ولإرضائهم استبدلت ريالاً قيصرياً بمرجان بندقي، فكان الريال يساوي ٣٢٢٤ مرجانة بندقية. وكان فنجان القهوة مثلاً يساوي ست مرجانات.

وقمت مع الشيخ حمزة بزيارة المسجد، ووجدنا فيه جبرتياً وبضعة صبية صغار يتعلمون الكتابة العربية. وتعتبر منطقة **Jedschu** أفضل المناطق التي يسكنها الجبرت. والمنطقة التالية تبعد

---

(87) ١٨١٠م

(88) يقصد يثرب، مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام.

(89) لعلها مصوع.

مسافة تقدر بسفر خمسة أيام عن **Massana**. ويرى المرء بين الجبرت، كما بين سكان الحبشة الآخرين، أناساً على درجة عالية من الجمال، تتميز بشرهم تميزاً واضحاً عن النيجر. إنهم شعب يتمتع بدرجة عالية أيضاً من الفهم والذكاء الثاقب.

وفي المسجد قابلنا بعد ذلك درويش من منطقة الفيوم بمصر، كان قد تجول في كثير من البلدان، كما تجول في الحبشة، التي لم يكن راضياً عنها، فطعامها، في رأيه نار (كان الفلفل الأسباني يستخدم في الطعام بكثرة) وخبزها تراب ونقودها قطع من الملح، أي مرجان زجاجي، أما سكانها، المسلمون والمسيحيون، فيتصفون بالكرم.

وفي الثالث من أبريل واصلت سفينتنا رحلتها، فسارت أولاً بمحاذاة الساحل، حيث شاهدنا مجموعة من الجزر الصغيرة. وفي اليوم التالي مررنا بجانب جزيرة **Hanaakel**[90]، التي توجد بالقرب منها منطقة بركانية. وبعد الظهيرة شاهدنا **Honsalaa**، التي كان البريطانيون ينوون أن يقيموا فيها مصنعاً، ليحيوا بذلك الطريق التجارية القديمة إلى الحبشة. وهي خطة ضخمة، لم يصرفوا النظر عنها كلياً حتى الآن. وقد زار اللورد المحترم فالينتيا **Valentia** الشواطئ الغربية لخلجان البحر الأحمر العربية، ووضع خارطة رائعة، نشرت مؤخراً في لندن، فجعلته يحتل من الناحيتين، الوطنية والمعرفية، مكانة عالية.

وهبت رياح قوية متواصلة، جعلت البحر في هياج غير عادي. واستمرت الأمواج تندفع إلى داخل السفينة. وكان لابد من غرفها وقذفها إلى خارج السفينة. وكانت المقصورة، الموجودة في السطح، تتأرجح تأرجحاً شديداً، جعل الجلوس فيها صعباً، ولاسيما أثناء تناول الطعام، حيث كان لابد أن نتشبث بقوة، حتى لانتزلق على السطح. وأصيب الكثيرون بدوار البحر. وكاد الشيخ حمزة أن يتهيأ لاستقبال الموت. وحالفني الحظ هذه المرة تماماً، مثلما حالفني على ظهر السفينة، التي ركبت فيها من السويس بمصر، والتي غرقت في رحلتها التالية ولقي اثنان من الركاب حتفهما فيها.

وغابت السواحل الأفريقية عن أنظارنا. واعتقدنا أننا نتجه إلى جزيرة كمران، ولكن سفينتنا كانت تندفع باتجاه اللحية، التي وجدنا أنفسنا بالقرب منها في صباح السادس من أبريل. وبعد

---

(90) لعلها دناكل.

ذلك واصلنا رحلتنا بموازاة **Urmuk** وكمران، لنصل في الثامن من أبريل إلى ميناء الحديدة، حيث غادرت السفينة مع مرافقي، للقيام برحلة في اليمن. وتتبع حالياً كل من جيزان واللحية والحديدة وزبيد وحيس منطقة الشريف حمود، حاكم أبو عريش، المعروف بشجاعته. ولاتتبع الإمام من المدن التهامية سوى المخا، التي يعتبرها العرب مدينة لاتقهر.

وفي المخا، كما في المدن اليمنية الأخرى، يوجد أفراد من البينيان. وكان أول من رأيت من البينيان اثنان، رأيتهما في متنة، عليهما سمات الكبرياء والإعتزاز. إن التجارة الكبيرة في اليمن جميعها تقريباً في أيديهم، لايشاركهم في ذلك سوى الحضارم، الذين احتفظوا لأنفسهم بجزء منها. وإلى جانب البينيان يوجد في اليمن أيضاً بعض الهنود المسلمين، الذين يتمتعون بمكانة مرموقة.

في الثالث عشر من أبريل غادنا الحديدة على ظهور الجمال إلى مدينة بيت الفقيه، وهي مدينة مهدمة جداً. وفي تهامة لايسافر المرء إلا ليلاً[91]. وتسود حالة أمنية ممتازة، بالنسبة للرحالة، في جميع أنحاء اليمن، بما في ذلك منطقة الإمام ومنطقة الشريف حمود. وقد وجدت هذه الحالة الأمنية غريبة نوعاًما. فمنذ عدة سنوات، أي منذ رحلتي في هنجاريا، لم أصادف حكومة لطيفة ومنظمة. وقد ولد لدي الإحساس بالأمن هنا حنيناً إلى وطني الحبيب. وللتدليل على مدى الحالة الأمنية، يمكن إعطاء المثال التالي:

في السادس عشر من أبريل، حينما كنا قد غادرنا بيت الفقيه، باتجاه مدينة زبيد، التي تبعد مسيرة ليلة واحدة عن زبيد، ركب الشيخ حمزة وأنا جملاً واحداً، لأننا لم نجد جملاً آخر. وكان قد رُبط شئ يشبه السرير على مؤخرة الجمل، بصورة عرضانية. ورافقنا مالك الجمل إلى خارج مدينة بيت الفقيه، ثم قدم لنا شخصاً لمرافقتنا، وعاد أدراجه إلى المدينة. وعلى سبيل استيضاح مدى معرفة المرافق بالطريق، قلنا له: "لاشك أنك تعرف الطريق إلى زبيد، معرفة جيدة". فأجاب: "لا والله. فلم يسبق لي أبداً أن سرت في هذه الطريق، ولا أعرف هذه المنطقة". فنادينا على الفور مالك الجمل، ليعود إلينا، وأنبناه بانفعال، لإحضاره مرافقاً لايعرف الطريق. فرد علينا بهدوء: "أوه ... سيد ... لاداعي للقلق، فليس ضرورياً أن يعرف المرافق الطريق، فالجمل يعرفها جيداً، وسيأخذكم إلى زبيد

(91) بسبب الحر الشديد، الذي يسود تهامة طوال النهار.

بالتأكيد". وكان كلامه صحيحاً. فقد تركنا ذلك الحيوان يسير وفق هواه. وما أن انبلج الصباح، حتى وجدنا أنفسنا أمام مدخل مدينة زبيد.

ولاتزال زبيد واحدة من أحسن مدن اليمن، وهي مشهورة بعلمائها. ولكنها مدينة مهملة ولم تعد في مستوى ماضيها الزاهر، الذي كانت عليه ذات يوم. وقد بنى الشريف حمود سوراً جديداً حول المدينة. وشعرنا ونحن في هذه المدينة وكأننا أصبحنا قريبين من مناخ الهند. فهنا وجدنا المانجة لأول مرة، وهي نوع من الفواكه، ذات المكانة الخاصة في الهند، ويسميها اليمنيون (العنبة).

ولكي نشاهد شجر البن، ركبنا إلى حدّيّة، التي تبدأ عندها منطقة الإمام. ولحدّيّة وادي رومانتيكي جداً، هو أجمل مارأيت في اليمن. وحول الوادي يشاهد المرء جبالاً شاهقة، شديدة الإنحدار، يكاد من الصعب تسلقها، وجوانبها مزروعة حتى قمتها ومغطاة بالأشجار الصغيرة الخضراء، وعلى القمم العالية قرى صغيرة. وهذا الوادي مليئ بأشجار البن والمانجة والموز والكاذي، ذي الرائحة العبقة، الذي يباع نوّاره في المدن اليمنية.

وللوصول إلى منطقة كسمة، لابد من العبور عبر ممرات جبلية عالية. ولما لم يكن بالإمكان هنا استئجار حيوانات للركوب، فقد كان علينا أن نقطع، سيراً على الأقدام، رحلة يومين. فصعدنا من حدّيّة، صعوداً مستمراً، على طريق، كان الجزء الأكبر منه مدرجاً مرصوفاً بالأحجار ويمر وسط أشجار البن ، التي كان واضحاً أنها قد زرعت بعناية فائقة. وكانت المياه ترسل خريرها في كل مكان مررنا به. واستغرقنا من الوقت أربع ساعات ونصف، للوصول إلى ظهر الجبل والمرور عبر الممر الصخري. وفي الأعلى وجدنا نبات العلّيق والطحلب، وهي نباتات تنمو في المناخ الشمالي، في حين كنا قد صادفنا، عندما كنا في الأسفل، نباتات تنمو في مناخ الهند. وكانت جوانب الجبل المنحدرة، التي أبدعتها يد الطبيعة، تشبه جوانب آلة الأرجون الضخمة.

وفي الأول من مايو غادرنا كسمة، لنتجه إلى السلفية. وهنا أيضاً لم نتمكن من الحصول على حمير. وفي اليوم التالي داهمنا مطر بارد، مصحوب بالعواصف، غمر ملابسنا تماماً. مما سبب لي مرضاً، كاد أن يدنيني من القبر. بدأ المرض في مدينة العبيد، ونحن في طريقنا من السلفية إلى ضوران، وأدى إلى توقفنا في ضوران. ونظراً لضعفي الشديد، حُملت حملاً، عند عبور إحدى المسيلات المائية. وتسبب ذلك في كسر زجاج ساعتي. الأمر الذي جعلني أقرر، بمجرد تماثلي للشفاء نوعاًما، أن أتجه إلى صنعاء، لاعتقادي بأنه لايوجد مكان آخر في اليمن يمكن أن أعثر فيه

على مصلّح للساعات. فقد كانت خطتي أصلاً أن أطّلع في هذه المرة على النقوش الحميرية، التي أشار نيبور إلى مناطق وجودها، ثم أتجه إلى عدن، ومنها إلى المخا، وأن أؤجل زيارتي لصنعاء إلى مرة قادمة، عندما أحصل على نقود تمكنني من القيام برحلة أخرى.

في الحادي والثلاثين من مايو غادرنا ضوران إلى صنعاء، ووصلنا إليها في الثاني من يونيه. وصنعاء هي أجمل مدينة شاهدها في الشرق، ولا أستثني من ذلك حتى القسطنطينية، لولا أن القسطنطينية تحتوي على مساجد كثيرة، تتصف بالفخامة. إن منازل صنعاء نظيفة وعالية ومتلاصقة ومطلية، إما باللون الأبيض فقط أو بألوان مختلفة. وممراها مرصوفة ونظيفة دائماً. ويتقن الناس في صنعاء فن العناية بالحدائق. فالحدائق الرائعة، الموجودة في المدينة، خصصت لها أماكن منخفضة، يتمكن المارة من مشاهدها أثناء مرورهم . هكذا يمكن أن توصف صنعاء، حتى في أوربا، بأنها مدينة جميلة ورائعة. أما سورها، فهو سور رديء، لأن الجزء الأكبر منه مبني بالطين. ويسكن الإمام في قصر جديد، في حديقة المتوكل الكبيرة، التي لايسمح لأحد بأن يطأها. ويُتهم الإمام الحالي، أحمد المتوكل على الله[92]، بالبخل. ولكن مع ذلك فإن موكبه الفخم، الذي يتجه كل يوم جمعة إلى الجامع، يبدو موكباً ملكياً حقاً.

كان يوجد في صنعاء مصلّح ساعات واحد وحيد. ولكنه لم يستطع أن يعيش من مهنته. لذا أصبح يبيع السمن. ومن حسن الحظ أنني وجدت لديه زجاجاً وحيداً لساعتي الفلكية. وكان علي أن أدفع ثمنه ريالاً قيصرياً واحداً. أما الساعة الأخرى، التي كان قد تحطم زجاجها، وهي بالطبع أقل أهمية، فقد استطاع بمهارته أن يجعلها غير صالحة نهائياً.

وفي صنعاء توجد كميات كبيرة من الفواكه، ولكنها لاتقارن بما هو موجود في دمشق، التي تبقى فريدة من نوعها. واسم صنعاء القديم هو أزال، كما أكد ذلك كاتب عربي. وعلى ذلك فإن صنعاء يمكن أن تكون هي أُزال، المذكورة في التورات. ويصنع الناس هنا النوافذ الهلالية من القوالب الجبسية. ويستخدمون الجبس بدلاً عن الجير. أما القدور الحجرية، فتوجد في القرب من رداع، التي تبعد عن صنعاء مسافة سفر بضعة أيام. ومن ذلك الحجر تُصنع أيضاً آنية الطباخة والمصابيح. وهناك مدينة الروضة، أسماها نيبور في خارطته خطأً (رداع **Roedda**). فرداع هي

(92) الإمام المتوكل على الله أحمد بن علي، تولى الإمامة عند وفاة والده الإمام المنصور علي، عام ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م، واستمر في الإمامة حتى توفي عام ١٢٣١هـ/١٨١٦م.

المدينة، التي تقع بالقرب من حدود يافع. إن خارطة نيبور تُعتبر عملاً عظيماً ومفيداً للرحالة، إلى حد بعيد. وقد استحق بها العالم نيبور كل تقدير وإكبار. وليس من السهل علي تصور كيف استطاع رجل بمفرده، في وقت قصير جداً، أن ينجز عملاً عظيماً كهذا العمل. وأكاد أخمن أن الحظ قد خدمه إلى حد كبير، بأن ساق إليه ذلك المارق[93] الهولندي، الذي استطاع نيبور، بفضل رغبته الشديدة في التعلم، أن يستفيد منه، ولاسيما من معلومات دقيقة عن المناطق، اكتسبها في رحلته الطويلة، التي دامت سنوات عديدة.

ولا توجد في اليمن أية معادن، ماعدا مناجم الحديد في صعدة، التي تبعد عن صنعاء سفر ثلاثة أيام، باتجاه الشرق[94]. وحتى مناجم صعدة لاتستغل كثيراً، بسبب نقص الأحطاب. رغم أن الحديد هناك من النوع الجيد.

وقد استفدت من إقامتي في صنعاء، بصورة خاصة، في شراء المخطوطات، التي تُعتبر من أثمن المخطوطات، التي وجدتها في الشرق.

وفي السابع والعشرين من يونيه غادرنا العاصمة صنعاء، عن طريق سيّان وزراجة، إلى مدينة ذمار، التي وصلناها في الثلاثين من نفس الشهر. وفي زراجة استفسرت، دون جدوى، عن **Eddoffa**، التي توجد فيها، بحسب ما ذكره نيبور، نقوش حميرية، والتي، كما حددها، لابد أن تكون في هذه المنطقة. ولم أعثر على أي شخص يعرفها. ومن ذمار اتجهنا إلى مدينة يريم، ومنها إلى ظفار، عاصمة الحميريين. ومن حظي السعيد، أنني اكتشفت في ظفار، وفي القرية المجاورة لها، وهي قرية منكث، بعض النقوش الحميرية، التي أبعث نسخاً منها في الطرد المرفق، بواسطة السيد وكيل همر **Hammer**. ولعلها المرة الأولى، التي يتم فيها نسخ نقوش حميرية، من قبل أحد الأوربيين. وعلى قمة الجبل تبدو أساسات قصر الملك أسعد الكامل. وتتكون من أحجار طولها سبعة أقدام،

---

(93) لعله يقصد بهذا الوصف أن الرحّال الهولندي ترك دينه واعتنق الإسلام. أنظر كتابنا: المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن. الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠م، ص ٦٢.

(94) تقع صعدة إلى الشمال من صنعاء، لا إلى شرقها. أما المسافة بينها وبين صنعاء، فهي أكبر من هذا التقدير. إذ تبلغ حوالي مئتين وخمسين كيلو متراً. ويقطع المسافر خمسة كيلو ميترات في الساعة تقريباً. ويمكنه أن يسافر، سفراً متواصلاً، خمس ساعات يومياً. وهذا يعني أن المسافة، بين صنعاء وصعدة، لايمكن قطعها بأقل من عشرة أيام. قارن الزمن، الذي استغرقه سفر سيتزن، من تعز إلى عدن (تفصل بينهما مسافة لاتزيد عن مئة وسبعة وستين كيلو متراً).

وهي سميكة نوعاًما وعريضة ومرتبط بعضها ببعض، بصورة دقيقة وبدون مواد رابطة، كما هو الحال في طرق البناء المصرية واليونانية والرومانية القديمة، التي سبق أن شاهدت نماذج منها.

وفي السادس من يوليه واصلنا رحلتنا إلى عدن. فسرنا عبر جبل سمارة العالي، وبتنا ليلتنا في المخادر. ووصلنا في اليوم التالي إلى مدينة إب، وهي مدينة صغيرة ولطيفة، تقع على مرتفع وتحيط بها أجمل وأخصب الحقول. وبين إب ومدينة تعز صعدنا جبلاً ضخماً، هو جبل التعكر. وفيه وجدنا أنفسنا وسط أسراب من الجراد، ظللنا نسير وسطها، ليس فقط طوال ذلك اليوم، بل وطوال عدة ساعات من اليوم التالي. ولم يسبق لي أن رأيت أسراباً بهذه الكثافة. فكل مارأيته من قبل، في مناطق أخرى، تعتبر شيئاً لايستحق الذكر، مقارنة بهذه الأسراب. وحتى الشيخ حمزة، الذي هو من بلد يكثر فيه الجراد، لم يشاهد من قبل أسراباً بهذه الكثافة.

وفي الثاني عشر من يوليه وصلنا إلى تعز، المدينة التي كانت لها أهمية كبيرة ذات يوم. ولكن أجزاءً كبيرة منها تحولت الآن إلى أطلال. وبالكاد يمكن اعتبارها قرية كبيرة. وتقع تعز عند أقدام جبل عالٍ جداً وشديد الإنحدار، وهو جبل صبر. ولم نجد في أي منطقة أخرى، أجمل من المانجة، التي وجدناها في هذه المنطقة.

ومن تعز إلى عدن لاتسود نفس الحالة الأمنية، التي شاهدناها في مناطق اليمن حتى الآن. وذلك لأن البدو، الذين يعيشون بين منطقتي الإمام وسلطان عدن، أشبه بالمستنقع، الذي ينشر تأثيراته السيئة على المناطق المجاورة. والأرض في هذه الجهات قاحلة، أكثر بكثير مما هي عليه في المناطق الواقعة إلى الشمال من تعز. وبصعوبة وجدنا حمَّاراً، إستأجرنا منه حيواناته الضعيفة إلى منطقة حدود الإمام، التي وصلنا إليها في الرابع عشر من يوليه.

وفي الخامس عشر من يوليه وصلنا إلى ماوية. وهي قرية صغيرة، تبدأ بعدها منطقة البدو الحواشب، التي تبعد حدودها عن مدينة لحج بمسافة سفر يوم واحد. وأخذنا معنا بدواً من قبيلة الحواشب، ليوصلوننا إلى لحج، التي يسكن فيها سلطان عدن. وفي لحج استطعنا أن نزود أنفسنا بالمواد الغذائية، إذ أن ماكان معنا من مواد تلف أثناء السفر.

كانت الوديان أمامنا مليئة بالأشجار الصغيرة. وقد استغرق سفرنا أربعة أيام. وأحب هنا أن أذكر مثالاً للتباين في روايات الرحالة. فقد ذكر بارثاما **Barthama** أنه شاهد في طريق رحلته من عدن إلى ذمار، وهي الطريق التي سلكتها، وإن كان باتجاه معاكس، شاهد أكثر من عشرة

آلاف قرد. أفلا يساور المرء الآن الشك بهذا الرقم، عندما أؤكد بأنني قد شاهدت في قريتي الصغيرة قروداً أكثر مما في كل جبال اليمن؟ وهذه هي الحقيقة تماما[95].

ويبلغ عرض بلاد الحواشب مسافة سفر ثلاثة أيام، وهي منطقة جبلية، لاتكاد توجد فيها زراعة. وخيامها، أو بيوتها المتنقلة، مصنوعة من البوص. وفي العشرين من يوليه وصلنا إلى المنطقة السهلية، حيث تبدأ منطقة سلطان لحج. وهذه المنطقة السهلية تشبه تماماً سهل تهامة، وتمتد من تهامة الغربية، عند المخا، حتى منطقة عدن. ويبلغ عرضها بصورة عامة مسافة سفر يوم إلى يومين.

ولحج مدينة صغيرة غير مسورة. والجزء الأكبر منها مبني من عيدان القصب. ومن الملفت للنظر أن حاكم لحج وعدن يلقب (سلطان)، في حين أن حاكم اليمن يلقب (إمام) فقط. وحتى شيوخ القبائل البدوية يلقبون في العربية الجنوبية (سلاطين).

ومن لحج لاتتبقى إلى عدن سوى مسافة سفر يوم واحد. وقد شاهدنا الجبال المحيطة بعدن من لحج بوضوح. وسارعنا بالسفر لمشاهدة تلك المدينة، التي كانت مزدهرة في التاريخ القديم. فوصلنا إليها في الثاني والعشرين من يوليه. ولكن كم كانت خيبة أملي، حينما شاهدت بقعة محاطة بجبال عارية جرداء، كانت عليها مدينة عدن ذات يوم. إذ لايشاهد المرء فيها اليوم سوى مجموعات من الأكواخ المبعثرة هنا وهناك، مع بضعة منازل، ذات مظهر بسيط، مبنية بالحجارة. ماكنت أشاهده لم يكن سوى منظر لخراب، لا أتذكر أنني شاهدت مثيلاً له في اليمن. وكان الميناء يبدو مناسباً، ولكن لم تكن راسية فيه سوى سفينة ساحلية[96]، من سفن نهر الهند. وكان البحر لايزال لبضعة أشهر مغلقاً، لأن الرياح لاتصبح مواتية للملاحة إلا بعد ذلك. وقصرت فترة إقامتي، غير الممتعة، في المدينة، بالقيام ببعض الإستكشافات في جبالها البركانية.

وإلى الشرق من عدن تقع على البحر منطقة سلطان الفضلي، وتتبعها مدينة أبين، التي تبعد عن عدن مسافة سفر يوم واحد للمجد، وتقع على ساحل البحر.

---

(95) نبهنا مراراً إلى عنصر المبالغة في كتابات بعض الرحالة الأوربيين عن بلاد الشرق. وقد أهبنا بالباحثين العرب كثيراً، أن يبذلوا جهودهم في تصحيح تلك المبالغات، التي إن لم تصحح، سوف تغدو مادة يعتمد عليها الباحثون في المستقبل، ولاسيما الباحثون الأجانب. أنظر كتابنا: العلاقات اليمنية ـ الألمانية، من منشورات الرابطة الثقافية. القاهرة، ١٩٩٢م، المقدمة.

(96) سفينة صغيرة تبحر قريباً من السواحل، وفي مياه الأنهار، ولا تتوغل في البحار البعيدة.

ولا يسافر الحضارم إلى عدن عن طريق البر، لأن السفر في البحر أقل كلفة من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن الطريق البري يمر بمنطقتي قبيلتين معاديتين، إحداهما تدعى العوالق. وسررت لعدم وجود سفينة مسافرة إلى المخا، لأن هذا سيتيح لي امكانية أفضل لإقناع الشيخ حمزة باختيار الطريق البري إلى المخا، المار عبر السهل الساحلي، الذي لم يسبق لأحد من الأوربيين أن سلكه. ولم يقتنع الشيخ حمزة بذلك، إلا بعد جهد جهيد. والسبب أن سكان تلك المنطقة، وهم بدو الصبيحة، الذين سماهم نيبور (Zubey)، يوصفون بأنهم برابرة متوحشون. ويقال أنهم كانوا قد قتلوا بعض الأشخاص، قبل أسابيع قليلة. وقد علقت سلامتنا وأمننا على وجود دليل يُعتمد عليه. ولأننا لم نتمكن من العثور على مثل هذا الدليل في عدن، فقد غادرناها إلى قرية بير أحمد، التي تبعد عن عدن مسافة سفر يوم قصير، نحو الغرب. وكان الشيخ حمزة قد أصيب بالحمى في عدن، ثم اشتدت عليه في بير أحمد، حتى قارب الموت. ولكن من حسن الحظ أنه بدأ يتماثل للشفاء قبل الرحلة بوقت قصير. وساعدت الرحلة في تحسن حالته، بحيث لم نصل إلى المخا، إلا وكان قد شفي تماماً. واصطحبنا معنا بعض الجمّالين، من القرية المجاورة لبير أحمد، ليرافقوننا في رحلتنا. وكانوا رجالاً يُعتمد عليهم، كما كانوا على معرفة بالصبيحة.

وفي السابع من أغسطس بدأنا رحلتنا من بير أحمد. وكنا نسير دائماً في الليل. وفي الليلة التالية لسفرنا وصلنا إلى جبل، يقطع السهل، ويمتد مسافة عدة ساعات، باتجاه المرتفعات الجبلية. ويدعى هذا الجبل، جبل **Forrid**. ويمكن أن يكون هو نفسه الذي تسميه بعض الخرائط الأوربية جبل القديس أنطون (**Hil. Anton**). ويسكن في الجبل شيخ مشهور، لم أستطع أن أعرف، فيما إذا كان هو أيضاً يسكن في العراء، تحت شجرة، كما هو حال كل الصبيحة، أم أنه يسكن في خيمة أو كوخ أومنزل. وقد مكثنا بالقرب من الجبل، الذي هبط إلينا منه في اليوم التالي أربعة رجال من البدو المسلحين، وطلبوا منا نقوداً، ضريبة مرور.

وفي التاسع من أغسطس واجهنا مجموعة بدوية مسلحة، مكونة من حوالي عشرين إلى ثلاثين رجلاً. وبدا لأول وهلة أن لديهم نوايا عدوانية. وقد اقتربوا منا واقتربنا منهم، بحذر شديد. وبادروا بمنع مرافقينا من المرور. ثم بعد ذلك طلبوا ضريبة مرور. وكان ما طلبوه كثيراً، إلى درجة أن مرافقينا فضلوا عدم المرور واستداروا فعلاً ليعودوا أدراجهم من حيث أتينا. ولكن أخيراً تم

الإتفاق بين الجانبين. وخلال المفاوضات كان رجالنا مشهرين بنادقهم، ذات الفتائل ومستعدين في أية لحظة لإطلاق النار.

في اليوم التالي شاهدنا الجبل الشامخ، جبل باب المندب، يقف وحده إلى يسارنا، ونحن نودع المحيط الهندي ونتجه نحو الشمال الغربي، إلى شواطئ الخلجان العربية، حيث وصلنا في الحادي عشر من أغسطس إلى قرية الصيادين البائسة، المسماة ذباب، التي تتكون من ثمانية أكواخ صغيرة جداً، وهي المساكن البشرية الوحيدة، التي شاهدناها منذ غادرنا بير أحمد. ومن ذباب تمتد سلسلة من المرتفعات غير العالية، حتى منطقة الجبال. ولا يقطع السهل هذه السلسلة إلا في أماكن قليلة. وبهذه المرتفعات تبدأ منطقة إمام اليمن، ومعها تبدأ حالة الأمن المستتب. ولإدراك مرافقينا بأنهم لن يحتاجوا بعد الآن لبنادقهم، أطلقوا العيارات النارية المحشوة فيها، بمجرد أن عبرنا المرتفعات.

وفي اليوم التالي وصلنا إلى القرية الكبيرة، **Kaddahha**، المكونة منازلها من الأكواخ، والمحاطة بغابات من النخيل، تمتد حتى المخا، وتجعل طريق السفر وسطها إلى المخا ممتعاً. وفي الثالث عشر من أغسطس أنهينا رحلتنا بوصولنا إلى المخا.

وكما أن صنعاء هي بدون شك أجمل المدن العربية بكاملها، فإن المخا هي أجمل مدن الموانئ. فالمنطقة المحيطة بالمخا، المليئة بأشجار النخيل، تجعل منها جنة، بالمقارنة مع منطقة جدة القاحلة. وفي المخا منازل أفضل من منازل جدة. وفي الواقع لم أتعرف بعد على ميناء مسقط وعلى موانئ أخرى في العربية الجنوبية، ولكن أشك بأنه يمكن مقارنتها بالمخا. والمخا من بين جميع المدن، التي شاهدتها في جزيرة العرب، هي أكثرها تحصيناً. ولذا لايستطيع القراصنة الوهابيون السطو عليها. وكانت الحرارة، عند وصولنا، لاتزال مرتفعة جداً، بحيث يظل المرء يتصبب عرقاً طوال اليوم. وغالباً ماحال تصبب العرق المستمر دون تمكني من الكتابة. ولكن منذ النصف الأخير من سبتمبر، ساد هنا طقس مريح، سيستمر لبضعة أشهر. وتهب يومياً الريح الجنوبية الغربية، أو الريح الموسمية، التي تنعش الجو بصورة بديعة. ويوجد في المخا حالياً ممثل مقيم لبريطانيا، هو السيد الكبتن رودلاود **Rudlaud**.وهو رجل محترم، ومعه زوجته الإنجليزية الرقيقة جداً. وفي منزلهما يسكن أيضاً السيد بتروني، الذي سبق ذكره، وطبيب إنجليزي، هو الدكتور بارثو **Barthow**. وهؤلاء هم كل الأوربيين الموجودين في المخا حالياً. وهناك كما يقال قنصل فرنسي، غادر المخا قبل وصولي إليها، تاركاً وراءه ديوناً ثقيلة.

كانت نقودي، عند وصولي إلى المخا، قد نفدت جميعها تقريباً. ويمكن تخيُّل مدى سروري، عندما تلقيت خبراً من السيد الحاج عبدالله Lukkath[97] من جدة، بأنه بعث لي مبلغ اثني عشر ألف بياستر، بواسطة السيد بتروني، وانه سوف يرسل بقية المبلغ في الحال. وحتى الآن سحبت ألف بياستر، من المبلغ الذي وصل. ولأن مصروفاتي الشخصية قليلة جداً، فإني لم أنفق منه حتى الآن سوى بضع مئات. وسوف أسحب من بتروني مبلغ ألف وخمس مئة بياستر نقداً، لرحلتي القادمة، وألف بياستر بحوالة مالية إلى مسقط، ليكون جملة المسحوب منه ثلاثة آلاف وخمس مئة بياستر. أما الباقي من الإثني عشر ألف، إضافة إلى بقية المبلغ، الذي لم يصل بعد من جدة، فسيظل بحوزة السيد بتروني والسيد ممثل بريطانيا المقيم، رودلاود. هذه كل الأخبار، التي أردت أن أبعثها إليك.

بعد ذلك يتحدث سيتزن عن بعض الإشكالات، المتعلقة برحلته وبالمواد، التي سبق أن أرسلها من القاهرة ومن فلسطين. ويوضح بأن رحلته لم تخرج عن الخطة، التي كان قد وضعها ونشرها، قبل عشر سنوات، في مجلة كُرسبوندنت Correspondenz الشهرية. وأنه يعتقد أن ماقام به وما أرسله، هوعلى درجة من الأهمية والفائدة، ويبدو من هذه الإيضاحات، التي تنطوي على نبرة تبريرية، أن الجهة الممولة لرحلته قد أبدت شيئاً من التململ، بسبب الزمن الطويل، الذي استغرقته الرحلة. ويستطرد سيتزن في توضيح خطته المستقبلية، فيذكر أنه لم يبق عليه من خطته الأصلية سوى زيارة حضرموت وعمان وساحل الجنوب، من عدن حتى الخليج الفارسي[98]. وأنه يزمع مواصلة الرحلة من المخا، في غضون أيام قليلة. وأن خط رحلته القادمة هو على النحو التالي:

سيتجه أولاً إلى صنعاء مرة أخرى، للبحث هناك عن مخطوطات، يعتبرها مهمة، بالنسبة للمجموعة الشرقية. ويأمل بعد ذلك أن يتمكن من السفر إلى مأرب الشهيرة، وإلى الجوف، وأن يشاهد سد مأرب القديم. ثم سيتجه إلى حضرموت. ومن أحد موانئ حضرموت سيبحر، فيمر عبر عدد من الموانئ الشرقية، ليجمع معلومات عن لغة البدو في المهرة. وسيترل في ميناء صور أو ميناء Kalhat، ليتعرف على المناطق الداخلية في عمان، ثم يعود، عبر ميناء مسقط، إلى المخا. ويتمنى، إذا امتد به العمر والصحة، أن يتمكن من زيارة أفريقيا مرة أخرى. حيث يأمل أن يفيده في أفريقيا

(97) إسم غير واضح.
(98) هكذا سمى سيتزن الخليج العربي.

قناع الإسلام، الذي ارتداه، كما أفاده في الجزيرة العربية. وهذا يعني أنه قد ادعى اقتناعه بالإسلام واعتناقه له، لمجرد اتخاذه وسيلة لتسهيل مهمته.

ويستطرد سيتزن، فيشير إلى أنه في رسالته، التي أرسلها من جدة، في شهر نوفمبر الماضي ١٩٠٩م ، قد دون بعض المعلومات عن حضرموت. وأنه يود الآن أن يضيف المعلومات التالية، التي سنوردها هنا مترجمة، كما سجلها:

روى لي تاجران حضرميان، سافرا معي من جدة إلى المدينة، عن بلدهما، مايلي:

"كل المدن الحضرمية تقع في قمم الجبال، وتحتها وديان مزروعة بالنخيل والذرة. وكل مدينة لها سلطان أوشيخ. وتتسم علاقاتها بالمدينة المجاورة بالعداء. ولهذا تحتفظ بحامية، مكونة من حوالي مئة جندي، وليست المدن مسورة. ولكن عوضاً عن ذلك لديها أبراج للحراسة. وليس في حضرموت أنهار، بل سوائل ناتجة عن هطول الأمطار. ويعيش الناس حياة بسيطة جداً، لأنه لايوجد لدينا إلا القليل من النقود. وتتكون حيواناتنا المنزلية من الجمال والحمير والخراف والماعز. أما الخيول فهي غير متوفرة. والمناطق الساحلية وحدها وهابية، أما المناطق الداخلية الجبلية، فلم تصل الوهابية إليها بعد. والحضارم موجودون في كل المناطق الساحلية في الجزيرة العربية وفي مصر. كما يعمل الكثيرون منهم جنوداً وحرفيين في الهند. ولكن معظمهم يعودون إلى بلادهم، بمجرد أن يتوفر لهم بعض المال، ويتزوجون فيها. أما في الخارج فيعاشرون الجواري. وفي بير برهوت يتصاعد الدخان دائماً. وفي تريم ينسج الناس نوعاً من الأنسجة الحريرية الممتازة، المعروفة بالشيلان، المطرزة بخيوط ذهبية. ويبلغ ثمن الشال الواحد منها خمسين إلى ستين ريالاً قيصرياً، ويرتديها أعيان العرب".

وكان التاجران يدهنان جسميهما، وأجسام عبيدهما النيجر الصغار، بالزبدة، وهي عادة منتشرة في كل جنوب الجزيرة العربية. وأكدا لي أن بين حضرموت والمدينة (المدينة المنورة) يقع بحر من الرمال، لايستطيع أحد عبوره. وقد باءت كل محاولات العبور بالفشل. ولا توجد في حضرموت أشجار البن. فهي لاتوجد سوى في جبال اليمن[99]. أما أشجار البيشام (وليس أبو شام) فينبت في حضرموت واليمن.

---

(99) درج الرحالة الأجانب على تسمية مناطق اليمن المختلفة بحسب التقسيم السياسي، الذي وجده كل منهم عند زيارته للـيمن. فأطلقوا إسم اليمن على المنطقة، التي تقع تحت حكم الإمام فقط. أما المناطق الأخرى، فقد سميت بأسمائها، مثل بلاد عدن وبلاد يافع وبلاد حضرموت وبلاد عسير... إلخ.

وقال لي تاجر حضرمي آخر، قابلته في ماوية، في الحدود بين تعز ولحج: "إن جميع جبال بلادي خضراء وتستخدم للرعي. ولاتوجد ينابيع مياه، بل توجد آبار وسوائل. ويزرع الناس فيها الذرة والحنطة. ولدينا عدد كبير من الجنود. وتريم مدينة كبيرة. وإلى الشرق من حضرموت يسكن بدو المهرة وهم Nehhem (؟)[100]...إلخ. ولم يسافر أحد تقريباً عن طريق البر إلى حضرموت، لأن البدو لايؤمن جانبهم كثيراً، ولأن المرء يحتاج إلى أن يسافر حوالي شهر[101]. والمسافة من عدن إلى حضرموت تبلغ سفر عشرة أيام. ويوجد في المكلا مئة بينيان".

وحدثني في المخا حضرمي من علماء الشريعة، يقيم في مكة، بما يلي: "تقع حضرموت على بعد سفر خمسة أيام من ميناء المكلا[102]. ويمكن للمسافر على ظهر جمل سريع أن يقطع هذه المسافة في ثلاثة أيام. والطريق إلى حضرموت جبلية. ويجد المسافر أمامه، في كل مكان، ماءً نقياً. وميناء المكلا أفضل حالاً من ميناء Schabhr[103]، الذي يبعد عنه مسافة سفر خمسة أيام في البحر. وحضرموت ليس سوى وادي عريض إلى جانبه عدد من الوديان، وطوله مسافة سفر ثلاثة أيام، وعرضه مسافة سفر يوم واحد. وهو مليئ بالمزارع وكثيف السكان. ويتوفر فيه البلح بكميات كبيرة جداً. ولكن ينابيع الماء فيه قليلة. وتُستخدم لسقي الحدائق. أما المزارع فتروى بمياه الأمطار. ومدينتا شبام وسيئون، كل منهما أكبر من تريم. أما دوعن فهو اسم لوادي جانبي، في المنطقة المرتفعة من حضرموت، وليس إسماً لمدينة. وفي دوعن عدد من المدن، مثل رشيد وجرين ...إلخ. ولا يصل المرء إلى دوعن إلا عبر ممر جبلي ضيق وحيد، يسهل الدفاع عنه. ولهذا لم يتجرأ الوهابيون على محاولة التقدم إلى دوعن، رغم أنهم قد احتلوا شبام وسيئون وتريم. وتسير القوافل في حضرموت باستمرار. ويستطيع المسافر أن يسير بأمان، حتى أكثر أماناً مما هو الحال في اليمن نفسه. والجمَّالون، الذين يتولون نقل البضائع بين المكلا وحضرموت، جميعهم من الحضارم[104].

---

(100) هكذا وضعت علامة السؤال في النص. مما يعني أن الناشر لم يستطع أن يتعرف على هذه العشائر. فنهم ، قبيلة من بكيل، تقع ديارها في شمال شرقي صنعاء.

(101) سجل الناشر ملاحظة في الهامش، بأنه يمكن أن يكون المقصود هنا بسفر شهر، هو السفر من المخا إلى حضرموت، عبر صنعاء.

(102) هذا خلط، يماثل الخلط في تسميات مناطق اليمن المختلفة، وكأنها بلدان قائمة بذاتها. وهنا تبدو المكلا مدينة خارج حدود حضرموت.

(103) لعله يقصد ميناء الشحر.

(104) لعله يقصد أن جميعهم من سكان وادي حضرموت.

ولذا فإن سلطان المكلا مرتبط بهم، ولايحاول المساس بمصالحهم. لأنهم لو بقوا بعيداً عن المكلا، لتعطلت التجارة وتضرر السلطان في دخله. ولهذا أيضاً يحرص السلطان على أن تبقى الضرائب الجمركية منخفضة، وأن لايكون هناك أي استغلال. وهو بهذا يختلف عن إمام اليمن، في المخا، وشريف مكة، في جدة، اللذين كثيراً مايلجآن إلى الإبتزاز، ليحصلا على قروض من التجار. ونحصل في حضرموت على الملح الحجري من مأرب، عن طريق المقايضة. إذ تأتي إلينا قوافل محملة بالملح الحجري. وتتم مقايضة حمل ذرة مقابل عشرة أحمال ونصف من الملح. والحضارم جميعهم يتبعون المذهب الشافعي، وهم متدينون جداً. ولذا فهم يقدمون هدايا كثيرة لعلماء الدين، الذين يشتهرون بجودة تلاوتهم للقرآن. وهؤلاء العلماء هم أكثر أمانة وصدقاً من علماء مكة. فعندما تُهدى لهم هدية، يتلون مقابلها آيات من القرآن ويدعون لمقدم الهدية. أماعلماء مكة فيقبضون النقود ثم ينسون بعد ذلك القراءة والدعاء. وكل شيئ لدينا بسيط جداً. ويساوي الريال القيصري عندنا مئة وعشرين بالي **Bali**. والعملة الأكبر من البالي تسمى أوقية. وقطعان الماشية متوفرة عندنا بكثرة، ولاسيما الأغنام والخراف. والماء نقي جداً. والأعناب قليلة. أما الرمان فغير متوفر. وأغلب المدن غير مسورة. لأن حالة الأمن المستتبة تجعل الأسوار غير لازمة".

ويواصل سيتزن بعد ذلك حديثة، مستعرضاً بعض المعلومات المتفرقة،عن أقطار عربية أخرى، وبلدان أفريقية مختلفة. وهذا يتجاوز هدف هذه الترجمة .

رحلة باول إمل بوتا Paul Emile Botta إلى جبل صبر

معلومات عن بوتا[105]:

هو ابن المؤرخ الإيطالي كارلوبوتا(١٧٦٦- ١٨٣٧)[106]. كان عالم طبيعة متميزاً. في عام ١٨٣٤م كُلف، من قبل حديقة النباتات في باريس، بالقيام برحلة، لدراسة التاريخ الطبيعي في مصر وفي سنار، بالسودان. وبتكليف من محمد علي باشا[107]، والي مصر، أشرف على بعثة علمية مصرية إلى سنار، الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق، وذلك من عام ١٨٣٠م إلى عام ١٨٣٣م. وعمل بعد ذلك ممثلاً لفرنسا في الإسكندرية والموصل والقدس وطرابلس. وسافر عام ١٨٣٦م من مصر إلى اليمن، عبر البحر الأحمر، ومكث في اليمن ثلاث سنوات. وقد مكنته معرفته باللغة العربية وطبيعته المنفتحه ومعارفه الطبية وحسن تعامله مع اليمنيين، من الوصول إلى مناطق لم يصل إليها أحد من الرحّالة الأوربيين قبله. ونشرت مجلة **Das Ausland** أول تقرير له عن الرحلة. وهو التقرير الخاص برحلته إلى جبل صبر، عام ١٨٤٠م. وأصبح بوتا يعرف كآثاري، منذ تمكن عام ١٨٤٢م- ١٨٤٥م من إجراء حفريات، في خور سباد قرب الموصل في العراق، واكتشف للمرة الأولى قصراً من القصور الملكية الآشورية.

وصف الرحلة:

وصل بوتا في نهاية سبتمبر ١٨٣٦م إلى الحديدة، حيث بقي فيها بضعة أيام، زار خلالها إبراهيم باشا (الأصغر)[108]، الذي كان حينها حاكما عاماً لليمن، من طرف محمد علي باشا والي مصر، وذلك للحصول منه على توصية يستطيع بها أن يسافر إلى المناطق الجبلية. وفي اليوم الأول من أكتوبر غادر الحديدة مساءً، وقضى ليلته في مدينة بيت الفقيه، ثم توجه صباح اليوم التالي إلى زبيد. وفي صباح اليوم الثالث غادر زبيد إلى حيس، المدينة الصغيرة، المشهورة في أنحاء اليمن

---

(105) Das Ausland 13.1840, S. 55-76

(106) انظر Newes Universal Lexikon, Bd.1, S.236

(107) حكم مصر من عام ١٨٠٥ حتى وفاته عام ١٨٤٩م.

(108) هو الوالي إبراهيم يكن. عينه محمد على باشا، حاكم مصر، والياً على المناطق، التي احتلتها القوات المصرية، في اليمن.

بأوانيها الفخارية، واستقبل هناك استقبالاً طيباً، من قبل الشيخ حسن، ابن الشيخ يحيى، الذي كان حاكماً سابقاً لتعز. وهو شخصية ذات نفوذ واسع في هذا الجزء من اليمن، دفعت به الأحداث السياسية وخلافاته مع إمام صنعاء إلى الوقوف إلى جانب المصريين. ويعود الفضل إلى الشيخ حسن هذا، في تمكن بوتا من زيارة بعض الجبال والوصول إلى قمة جبل صبر، التي لم يستطع فورسكال(109) أن يزورها.

في منتصف شهر أكتوبر ١٨٣٦م قام بوتا بزيارة جبل راس، الذي يبعد عن مدينة حيس بحوالي ميلين، إلى الشمال الشرقي منها، يرافقه أحد معاوني الشيخ حسن، وهو العزي اليمني الحضرمي، مع بعض الجنود. وبعد يوم من السير المضني على الأقدام – حيث كان الركوب في تلك الطريق الجبلية الوعرة مستحيلاً– وصل بوتا ومرافقوه إلى منتصف الجبل، وقضوا ليلتهم في ضيافة الشيخ ياسين، الذي جاوز عمره مئة عام، والذي يستقبل في بيته المسافرين ويقوم بواجبات الضيافة نحوهم، على أحسن وجه. ولذلك تُرسل إليه أنواع الهدايا، من كثير من أغنياء اليمن. وفي اليوم التالي بقي بوتا لدى الشيخ ياسين، بانتظار الرسول، الذي بعثه الشيخ إلى الجبال، ليسأل الأهالي، فيما إذا كانوا سيسمحون لأحد الأوربيين بزيارة منطقتهم، للبحث عن أعشاب طبية، وهي كما يقول بوتا "الحجة التي تذرعت بها، للقيام برحلتي، وهي الجواب، الذي كنت أجيب به على الأسئلة، التي كانت تنصب علي، حول السبب، الذي يكمن وراء رحلتي. وقد علمت أنني لست الوحيد، الذي يأتي إلى هنا للبحث عن الأعشاب الطبية. فهناك عرب يأتون من بلاد المغرب إلى اليمن، للبحث عن أعشاب، قرأوا عنها وعن خصائصها، في كتبهم الطبية، التي يحملونها معهم، بكميات كبيرة. ولم أستطع أن أعرف نوع الأعشاب، التي يأتي هؤلاء العرب من بلادهم البعيدة إلى اليمن، للبحث عنها"(110).

وفي اليوم التالي عاد الرسول، يحمل رفض الأهالي، السماح لبوتا بزيارة منطقتهم، بحجة أنه لم يأت إلا ليصب اللعنة على نباتاتهم، وأنه يمكن السماح له بالقدوم، تحت شرط واحد، وهو أن يتعهد بأن لا يلمس أي نبات. وكان هذا الشرط كفيلاً بجعل مواصلة الرحلة غير ذات جدوى.

---

(109) فورسكال هو عالم الطبيعة، الذي كان عضواً في البعثة الملكية الدينماركية إلى اليمن، عام ١٧٦٣م وقد توفي ودفن في مدينة يريم.

(110) Das Ausland 56

ولذا أكمل بوتا يومه في جمع الأعشاب، في منطقة الشيخ ياسين. وفي اليوم التالي عاد إلى مدينة حيس. وقد عاقب الشيخ حسن، فيما بعد، سكان المنطقة الجبلية، الذين رفضوا السماح لبوتا بزيارة منطقتهم.

في نهاية شهر أكتوبر ١٨٣٦م انتقل الشيخ حسن، من مدينة حيس إلى قصر **Maamara**، الذي يقع على قمة جبل، في الجنوب من حيس. وكان الوصول إلى القمة من قبل غير ممكن، إلى أن نشب الخلاف، بين الشيخ حسن والإمام، فاختار الشيخ حسن هذا الموقع، ليكون ملجأً له، وشق بصعوبة طريقاً ضيقاً في الصخر، وبنى في القمة حصناً صغيراً، يعتبر على درجة من الحصانة، بحيث لا يمكن الإستيلاء عليه. وقد طلب من بوتا أن يلحق به إلى القصر. ولما كان الشيخ حسن يريد أن ينقل معه كمية كبيرة من النقود، فقد استأذن من بوتا أن يستخدم، لهذا الغرض، الصناديق الخاصة بالنباتات، ووضع في كل صندوق ألف قطعة، من فئة البياستر الأسبانية. ورغم أن هذا الأمر كان سرياً للغاية، فقد سرت الإشاعة، بأن الصناديق تحتوي على كنز الشيخ حسن، مما عرّض بوتا فيما بعد للأخطار.

بدأ سفر بوتا ومرافقيه من مدينة حيس إلى قصر **Maamara** صباحاً عبر السهل، الذي تقع حيس في بدايته. واجتاز المسافرون سائلة اسمها **Suera**، لا ينقطع منها الماء على مدار العام. ولكن الماء لا يلبث أن يختفي تحت الرمال، في سهل حيس، قرب جبل **Mbaracha**. وسار المسافرون بعد عبور السائلة في طريق متعب، إلى **Hamara**، حيث استراحوا قليلاً ثم واصلوا السفر، ليصلوا عند الغروب إلى سهل **Heidan** الموحل، حيث يصل المسافر إلى الطريق المؤدية إلى تعز. وسار فيها المسافرون بعض الوقت، ثم انحرفوا يميناً، ليصعدوا جبلاً، حتى منتصف الليل، حيث ارتاحوا لمدة ثلاث ساعات، ثم واصلوا السفر في شعب ضيق وعميق، ليجدوا أنفسهم، عند شروق الشمس، في أسفل المرتفع الصخري، الذي يُرى على قمته قصر **Maamara**. وكانت الطريق قد تضررت من جراء السيول، ولم يكن من السهل عبورها، في بعض أجزائها. ولما وصل المسافرون إلى القمة، وجدوا الجمال، التي كانت تحمل الأمتعة والصناديق، قد وصلت قبلهم. وكان الشيخ حسن قد وصل بدوره أيضاً، واستقبل بوتا، استقبالا كريما "يعيد إلى الأذهان التقاليد العربية القديمة الممتازة"[111]، كما أكد بوتا. فقد وفر له كل أسباب الراحة، ومكنه من القيام بأبحاثه بكل حرية،

Das Ausland 56 (111)

وأمر العزي الحضرمي، الذي سبقت الإشارة إليه، أن يرافقه ويعتني به ويحرص على ألا يضايقه أحد في عمله. وتمكن بوتا، بفضل ذلك، من التجول في المنطقة وجمع كمية كبيرة من النباتات. وكان يمكن أن يجمع بوتا أيضاً كمية من الحيّات، لولا، كما ذكر بوتا "أن قاسم، ابن الشيخ حسن، _مع الأسف_ سمع أن لديّ كحول النبيذ، وأراد أن يجربه، ليعرف ان كان سيسكره. وجاءت النتيجة كما توقع، وأعجبه مذاقه، إلى درجة أنه خلال أسبوعين استهلكه جميعه"(112).

وفي أسفل جبل **Maamara**، رأى بوتا لأول مرة مزارع بن، تقع مثل غيرها من مزارع البن، التي رآها بعد ذلك، تقع في واد ضيق عميق، لا تصله أشعة الشمس، إلا ساعات قليلة خلال اليوم. وفي ذلك الوادي زرع الشيخ حسن أشجار البن. إلا أن أكثر مزارع البن تنتشر في نواحي العدين وصنعاء(113).

بعد بضعة أيام استدعي الشيخ حسن من قبل أهالي تعز، الذين تمردوا ضد سلطة الإمام، فاتجه إلى تعز، وترك بوتا مع ابنه قاسم في القصر. وبعد أيام اصطحب قاسم بوتا معه، إلى حصن آخر صغير لوالده، اسمه **Kahim**، ويقع شرق وادي **Heidan**. وكانت المسافة بين الحصنين قريبة، إذا ما قيست بشكل أفقي. ولكن الوديان العميقة والجبال الشديدة الإنحدار، التي تفصلهما، تجعل الإنتقال بينهما يستغرق سفر يوم مرهق، في طريق لا تستطيع البغال أن تسير فيه، إلا بصعوبة بالغة. أما الجمال، التي حملت أمتعة بوتا، فقد استغرق سفرها يومين. وكان يتم انزال أحمالها بين الحين والآخر، وتُنقل الأحمال على ظهور الرجال. فالطريق، في كثير من أجزائها، ضيقة للغاية، بحيث يصعب مرور جمل محمل فيها. وأدرك بوتا خطأ الفكرة، التي يحملها الأوربيون عن الجمل، إذ يعتقدون بأن شكل خفه لا يجعله صالحاً للسفر إلا في الصحراء. مع أنه في الواقع، كما أكد بوتا "لا يوجد حيوان –ولا تُستثنى من ذلك حتى البغال– يمكنه أن يسير بخطوات واثقة، في أخطر الطرق، كما يسير الجمل. إن خفه لا يتزلق أبداً ، حتى في المواضع الملساء، التي يمكن أن تتزلق فيها حوافر الحصان. إن الجمل يتلمس، بحرص مذهل، الموضع المناسب، الذي يضع عليه خفه. وهو لا يفقد

(112) **Das Ausland 56**

(113) ذكر نيبور مناطق زراعة البن في اليمن (العدين والجبى ومناطق حاشد وبكيل وقعطبه ويافع)، ولم يذكر منطقة صنعاء. أنظر الصايدي، المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن.

تفوقه إلا في الطرق الموحلة. ومع ذلك فإني، خلال رحلتي الطويلة مع الجمال، لم أشاهد جملاً يقع على الأرض، في مثل هذه الطرق"[114].

قضى بوتا بضعة أيام في قرية **Kahim**. ولكنها لم تكن أياماً مريحة، كما كان الحال في **Maamara**، إذ أن قاسم لم يكن يستطيع أن يضبط سلوك الجنود، الذين كانوا يملأون المنطقة، كما كان هو نفسه يسبب الإزعاج لبوتا. فغالباً ما أيقظه من نومه، ليطلب منه شيئاً من النبيذ. ومع ذلك استفاد بوتا من إقامته في **Kahim**، وتجول في المناطق المجاورة، في جميع الإتجاهات، وأخذ حجم مجموعته النباتية يزداد أكثر فأكثر. ولكن صبره بدأ ينفد، وأخذ يتلهف للذهاب إلى تعز، حيث كان الشيخ حسن قد وعده بأن يسهل له زيارة جبل صبر، الذي كان اليمنيون في عهد فورسكال يزعمون أن جميع أصناف النبات توجد فيه[115]. وكان موسم الأمطار قد شارف على الإنتهاء، مما جعل بوتا يخشى، إذا تأخر، أن لا يصل إلا وقد يبست النباتات. وأخيراً سمح له الشيخ حسن أن يأتي إليه في تعز. فغادر**Kahim** مسروراً بتركه إياها، حيث لم يجد فيها راحة، لا في الليل ولا في النهار. وبعد سفر يوم كامل، مروراً بوديان مزروعة بالقمح والبن، تروى بواسطة السواقي، وصل مساءً إلى قرية نسي اسمها[116]. وفي الصباح غادر القرية باتجاه وادي **Sina** وشاهد في طريقه، عند بير الباشا، شجرة تين ضخمة جداً، يمكن أن يستظل تحت فروعها ثلاث مئة شخص. ووادي **Sina** عبارة عن وادي ضيق، ينفذ منه المرء إلى جبل صبر. وشاهد في الوادي الشيخ حسن، وسط أنقاض إحدى البيوت، محاطاً بحشد كبير من الرجال، يتراوح عددهم بين الفين إلى خمسة آلاف رجل. وأولئك الرجال كانوا قد أحدثوا خراباً في مزارع البن، التابعة لسكان تعز.

ويسجل بوتا ملاحظة حول الجانب السياسي والعسكري في اليمن فيقول "إن سكان اليمن لا يعملون كجنود، رغم أنهم جميعاً يحملون السلاح، فالمشايخ يجندون فلاحين من الجوف وحضرموت[117]، مقابل مرتبات. ويستخدمونهم في القتال، لإلحاق أكبر الأضرار الممكنة بعضهم

---

(114) **Das Ausland 59**

(115) **Das Ausland 60**

(116) هذا قد يدل على أن بوتا لم يكن يسجل رحلته مباشرة في نهاية كل يوم، وإنما سجلها لاحقاً، مما جعله ينسى اسم القرية، التي بات فيها.

(117) يبدو أن بوتا لم تكن لديه معرفة كافية باليمن، فتصور حضرموت والجوف، كما لو أنهما ليسا جزئين من اليمن.

بالبعض الآخر. وهذه الصراعات تشكل لعنة على اليمن. وقد بلغ الضيق بالأهالي من جراء ذلك مبلغاً، أصبحوا معه يتمنون مجيء حكومة قوية، تحررهم من صراعات المشايخ. ويعلق الباشا في مصر[118] آماله، على رغبة الأهالي هذه ، في أن يتمكن من السيطرة على اليمن"[119].

وضع الشيخ حسن تحت تصرف بوتا منزلاً في قرية صغيرة، اسمها **Dschannat**، وتبعد نصف ساعة عن سكنه السابق، إذ كان يسكن في وادي **Sina**، ووجد في سكنه الجديد هدوءه، حيث منع الشيخ الجنود من مضايقته، فاستطاع أن يتجول بحرية ويشاهد نباتات لم يشاهدها في أي منطقة أخرى. ووجد جبل صبر متميزاً عما حوله، من حيث ارتفاعه وضخامته، تتخلله وديان وشعاب، ترويها مياه السواقي، التي لا تنقطع طوال العام. وعند أقدام الجبل، من الناحية الشمالية، تقع مدينة تعز، على منخفض يمتد نحو الشمال الشرقي، وتمر منه طريق إلى صنعاء. وكانت تعز في الماضي مدينة مزدهرة، ولكنها أصبحت مدينة مدمرة، بسبب الحروب المستمرة، بين المشايخ المتنازعين، ولم يبق فيها من البيوت القديمة، التي كانت مبنية بناءً جميلاً، إلا حوالي عشرين بيتاً "فقد حلت محلها الآن أكواخ بائسة"[120]. ولم يعد سكان المدينة يتجرأون على بناء بيوت جيدة، خوفاً من أن تسطو عصابات المشايخ عليها وتنهبها، كما أن هؤلاء لا يكتفون بنهبها، بل يعمدون إلى تدميرها ونزع أخشابها، للإستفادة منها. ولا يزال في مدينة تعز مسجدان فخمان، يمكن مقارنة جمال بنائهما واتساعهما بأجمل مساجد القاهرة. ولكنهما يمكن أن ينتهيا "إذا لم يأت حاكم يستطيع ويريد أن يهتم بسلامة ورفاه المواطنين"[121].

كان سهل تعز في الماضي مغطى بالمزارع، التي كانت تُسقى بواسطة قنوات، توصل المياه إليها من جبل صبر "ولكنها تركت الآن، وذلك لأن الأهالي يخشون زراعتها، فهم لا يعرفون إذا مازرعوها، هل سيتمكنون من جني ثمار جهودهم. إنها الآن مغطاة بشجر العمق"[122].

---

(118) كانت تهامة، عند زيارة بوتا لليمن، تحكم من قبل المصريين، وكان حاكم مصر، كما يفهم من كلام بوتا، يراهن، لتوسيع نفوذه في اليمن، على ماولده الصراع القبلي من رغبة لدى اليمنين بمجيئ حاكم قوي، يخلصهم مما هم فيه. والباشا المقصود هنا، هو محمد علي باشا، حاكم مصر.

(119) Das Ausland 60

(120) Das Ausland 60

(121) Das Ausland 60

(122) Das Ausland 63

بينما تغطي أشجار العمق تعز، فإن جبر صبر يحتوي على تنوع غني بالنباتات، وأهالي الجبل متكاتفون ومتحدون، طالما تعلق الأمر بدفع عدوان والوقوف تجاه أي محاولات لتدمير منطقتهم "من قبل العصابات العسكرية"[123]. ولذا فإن منظر القرى المتناثرة في الجبل يوحي بأنها تعيش في رخاء وأمن، كما أن المدرجات الزراعية تعطي انطباعاً، بأن الأهالي يمارسون الزراعة فيها بشكل مستمر. ويزرع سكان الجبل القمح والشعير، بكميات كبيرة، لتلبية حاجتهم. إلا أن سر ما يلمسه المرء من رفاه وغنى في القرى، يكمن أساساً في زراعة القات. وهذه الشجرة هي موضع اهتمامهم الرئيسي. ويقدم بوتا شرحاً لطريقة زراعة القات، ولنوعي قطفاته: القطفة الأولى (المبرح) والقطفة الثانية (المثاني)، ثم لطريقة تعاطيه. ويذكر أن أغصانه، عند تعاطيها "تحدث درجة معينة من النشوة يرتاح لها الأهالي كثيراً. وقد وجدها أنا أيضاً مريحه"[124]. ويشكل القات سلعة تجارية داخلية مهمة في اليمن، ويعطي أرباحاً أعلى من أرباح البن. فقد اصبح يلبي حاجة عامة لدى المواطنين. وأسعاره مرتفعة، إذا لم يقنع المرء بالأصناف الرخيصة منه، فالمرء يمكن أن يدفع بسهولة خمسة فرنكات يومياً لشراء القات. وتقتضي العادة اليمنية أن يقدم الشخص جزءاً من قاته للآخرين، الحاضرين في مجلس القات. ولذلك فإن المرء ينفق انفاقاً كبيراً على القات. فالشيخ حسن، على سبيل المثال، كان أثناء إقامته في تعز ينفق يومياً أكثر من مئة فرنك، لشراء القات. حيث كان يأتيه أناس كثيرون من المناطق المجاورة. ويعتبر قات جبل صبر أفضل أنواع القات في اليمن. وتُحمل منه كميات كبيره يومياً إلى مناطق بعيدة، منها المخا والحديدة.

وإلى جانب شجرة القات، يزرع سكان جبل صبر شجرة البن، لاسيما في الجهة الجنوبية من الجبل، حيث تعتبر أكثر الجهات دفئاً. ولفت نظر بوتا أن اليمنيين يفضلون شرب قشرة البن، على حب البن نفسه. ففي القشرة نكهة البن ونشوته، كما أنه حلو المذاق. وفي جبل صبر صادف بوتا أنواعاً من الفواكه، كالموز والعنب والفرسك والمشمش والتفاح، ونوع من السفرجل، أكثر حلاوة من السفرجل الأوربي، إلى درجة أنه يمكن تناوله قبل نضوجه. وبعد أن طاف بوتا في المناطق المحيطة بقرية **Dschannat**، بعث إليه الشيخ حسن حارساً، لمرافقته إلى خرائب حصن العروس.

---

(123) يطلق بوتا هذه الصفة على الجماعات المسلحة، التي تقوم بعمليات عسكرية، سواءً كانت جنوداً حقيقيين، أو مقاتلين من أتباع المشايخ. **Das Ausland 63.**

(124) **Das Ausland 63**

وفي الصباح الباكر انطلق بوتا من **Dschannat** عبر وادي **Sina**، ليصل بعد ظهر اليوم نفسه إلى قرية كبيرة، هي قرية **Hagef**، حيث قضى ما تبقى من النهار وسحابة اليوم التالي في البحث، في المناطق المحيطة بالقرية، عن النباتات. ووجد أنواعاً منها، تشبه نباتات أوروبية. بعد ذلك غادر قرية **Hagef**، صعوداً نحو حصن العروس. وحُملت أمتعته على رؤوس بعض النساء، لأن الطريق لم تكن تصلح لصعود حيوانات الركوب. وبعد ساعتين، إلى خمس ساعات[125]، وصل إلى قرية **Babi Shoib**. وكان كلما صعد في الجبل أكثر، كلما بدت له النباتات أكثر فأكثر شبيهه بالنباتات الأوروبية[126]. وكان بجانب قرية **Babi Shoib** غابة، فيها مسجد صغير، مقبور تحته، حسب مايقوله اليمنيون، والد زوجة موسى، النبي شعيب. ولم يتمكن بوتا من الوصول إلى موضع القبر. ويفسر ذلك بقوله: "ليس فقط لأنه لا يسمح لي بذلك، بل أيضاً لأنه كان يجب علي، حتى لا أجرح مشاعر العرب المرافقين لي، أن أصنع مثلهم وأخلع حذائي، عند مرورنا بذلك المكان المقدس"[127].

واستمر بوتا ومرافقوه في الصعود. وأصبحت الطريق أكثر سهولة من ذي قبل. ولكن الارهاق الشديد أجبرهم، بعد أن عبروا منطقة فيها خرائب كثيرة، لقصر قديم، أن يبحثوا عن مكان يأوون إليه. وبعد جهد استطاعوا أن يقنعوا سكان إحدى القرى، الذين كانوا في حرب مع جيرانهم، وكانوا يراقبون قدومهم، من خلال الفتحات المخصصة لإطلاق الرصاص، الموجودة في جدران منازلهم، أن يقنعوهم بالسماح لهم في المبيت في قريتهم. ويرى بوتا "أن سكان اليمن أكثر تحضراً واستقراراً من غيرهم من العرب، إلا أنهم مع ذلك لم يتخلوا عن عادة الحرب العائلية المدمرة. وهذه الحرب تنشب دائماً، إلى درجة أنهم يظلون خائفين باستمرار، من أن يهاجمهم عدو، ليثأر لقتيل، ربما يكون قد صرع قبل مئة عام. ولذا فإنهم يبنون بيوتهم بطريقة لا يمكن الوصول فيها إلى الطابق الأرضي، الذي يكون عادة وحده مسكوناً، إلاعبر ممرات أرضية مظلمة، لا

---

(125) تقدير بوتا للمسافات والأعداد ملفت للنظر، فقد قدر عدد الرجال، الذين كانوا ملتفين حول الشيخ حسن ب٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ رجل، وهنا قطع المسافة بين **Hagef** وقرية **Babi Shoib** في ساعتين إلى خمس ساعات. ومثل هذا الفارق الشاسع بين الحد الأدنى والحد الأعلى يصعب تفسيره، إلا أنه يؤكد أن بوتا قد كتب وصفه للرحلة في وقت لاحق.

(126) لعل ذلك يرجع إلى أن الطقس يصبح أكثر برودة، كلما ارتفع المرء في الجبل. ولذا تصبح النباتات أكثر شبها بنباتات المناطق الأوروبية الباردة.

(127) **Das Ausland 64**

يستطيع المرء أن يسير فيها، إذا لم يكن على معرفة سابقة بها، إلا إذا سار وهو يتلمس طريقه بيديه. وهذه الممرات تمنح السكان، إذا مافوجئوا بهجوم غير متوقع، تمنحهم الوقت الكافي لتجهيز أنفسهم للدفاع وإبادة المهاجمين، وهم يتلمسون طريقهم في الممرات المظلمة"[128].

وهناك وسط الضباب أمضى بوتا ليلة مزعجة، على سطح أحد المنازل، حيث اضطرته البراغيت إلى الهروب من داخل المترل إلى السطح. وهذه الحشرات "لا توجد في المناطق المنخفضة، ولكنها تكثر في المناطق الجبلية، حيث يضطر السكان إلى أن يناموا وسط أكياس، يغلقونها على أنفسهم، بعد أن يدخلوا فيها. ولم أجد لدي القدرة على النوم وسط مثل تلك الأكياس. ولذا، وبرغم البرد فضلت أن أستقر على السطح"[129].

وفي صباح اليوم التالي[130] غادر بوتا وصحبه القرية، وساروا مدة ساعتين، وسط مزارع ونباتات ، تشبه في أنواعها أنواع المزارع والنباتات الأوربية تماماً، حتى وصلوا إلى قرية أهل الكهف، التي يقع بالقرب منها مسجد، في منطقة "يحكي التراث اليمني أن السبعة النوّم وكلبهم قد خرجوا من مغارة في هذه المنطقة، بعد أن ناموا نوماً طويلاً"[131]. وجلس بوتا بجانب بركة ماء، في حين دخل مرافقوه المسجد، لأداء صلاة الفجر. وشيئاً فشيئاً أخذ سكان القرية يتجمعون حوله، وأمارات الدهشة ترتسم على وجوههم، من ملابسه الأوربية. ثم أخذوا يستفسرون عن شخصيته ومن أين أتى وإلى أين سيذهب "فأجبت على تساؤلاتهم كالعادة، بأنني متوجه إلى قمة الجبل، لجمع أعشاب طبية. فأوضحوا لي أنهم لن يسمحوا بذهابي إلى هناك، لأنه يوجد في حصن العروس كتر، وأنني دون شك ما جئت إلا لأستولي عليه. ولما لم يكن بإمكاني أن أقنعهم بعكس ذلك، فقد وجدت أنه لا ضرورة للإجابة عليهم، وأخذت أتشاغل بلف ما جمعته أثناء السير من نباتات، في أوراق، في حين كانوا يراقبون حركاتي بفضول. وحاول أحدهم أن يسلبني بندقيتي. فامسكها بيده وأخذ يتفحص زنادها. وكانت بندقية تطلق بواسطة زناد، لا عهد لهم به. إذ لم يكونوا قد رأوا من قبل غير البنادق، التي تطلق بواسطة الفتيل. فانتزعتها بقوة من يده، حتى دفعته في مقدمة أنفه. وأثارت هذه الحركة في نفوسهم نوعاً من الفزع، جعلهم يكفون عني، حتى عاد الحارس

---

(128) Das Ausland 64

(129) Das Ausland 64 .

(130) لم يذكر بوتا أسماء الأيام ولا تواريخها.

(131) Das Ausland 68

والمرافقون"[132]. وبعد عودة الحارس والمرافقين بدأ جدال بينهم وبين أهالي القرية، حول السماح لبوتا بالصعود إلى حصن العروس. ولم يحاول بوتا أن يتدخل في ذلك الجدال، إذ كان قد جمع الكثير من أنواع النبات، ولم يعد يأمل في العثور على أنواع جديدة، قرب الحصن، وإن كان مايزال لديه فضول، للتعرف على الحصن "الذي لم يسبق لأحد من الأوربيين أن تعرف عليه، والذي كان العرب ينسجون حوله حكايات جميلة"[133]. وأخيراً، وخوفاً من الشيخ حسن، قرر سكان القرية السماح لبوتا بالصعود إلى الحصن، بشرط أن يرافقه رجلان منهم، ليراقبا ما يفعله. ويصف بوتا مغادرته للقرية بقوله: "وغادرت قرية أهل الكهف وأهلها يرمقونني بنظرات متوثبة ووحشية. وحرص أحدهم على أن يقول لي بصراحة، أنه لولا أن الشيخ حسن، الذي يلقبونه (باب الجبل) معسكر في أسفل الجبل، لكان أراني، كيف تستطيع بندقيته أن تقتل، أفضل من بندقيتي"[134]. واستمر الصعود في طريق ضيق وأخذت الزراعة تخف تدريجياً. وبعد مسير ساعة ونصف وصل بوتا إلى طريق واسع، مدرج ومرصوف بالحجارة، يمر عبر بوابة الحصن. وعندما اعتلى جدار الحصن، استطاع من هناك أن يشاهد البحر الأحمر، من جهة الحديدة، والمحيط الهندي من جهة عدن. وبدت له جميع جبال اليمن صغيرة، باستثناء جبلي ريمة وسمارة. فقد كانا، رغم المسافة البعيدة، يُشاهدان بوضوح. ويعبر بوتا عن شغفه بما رآه، بقوله: "لن أحاول أن أصف هذا المنظر البديع، الذي استطعت أن أستمتع به للحظات قليلة"[135]. ولم يسمح الرجلان، اللذان رافقاه من قرية أهل الكهف، لم يسمحا له بالإستمتاع طويلاً، وأخذا يستعجلانه، للعودة. فطاف سريعاً بالحصن، وجمع بعض النباتات، ثم هبط ومرافقوه، الذين بدوا سعداء بالعودة. وكان أكثرهم سعادة مرافق مصري، لم يكن مرتاحاً بصعوده جبلاً عالياً كهذا الجبل.

ولم تمكن لبوتا هذه المشاهدة السريعة لحصن العروس، من أن يقدم وصفاً دقيقاً للحصن. ولم يستطع أن يتحقق من وجود أو عدم وجود نقوش يمنية قديمة فيه. ولكنه أكد أن بناء الحصن يعود إلى ما قبل الإسلام. وتهبط الطريق المدرجة من الحصن إلى قرب مدينة تعز. وأثناء هبوطه شاهد أجزاء كثيرة منها، ماتزال في حالة جيدة. وبات ومرافقوه ليلتهم في القرية نفسها، التي باتوا فيها

Das Ausland 68. (132)
Das Ausland 68 . (133)
Das Ausland 68 (134)
Das Ausland 68 . (135)

الليلة الماضية. وفي صباح اليوم التالي استيقظ على صراخ وشجار بين مرافقيه وأهل القرية، حول الطريق، التي لا بد أن يسلكوه في عودهم. وانتهى الأمر إلى أن يسلكوا طريقاً آخر، غير الطريق التي جاؤا منها. مما فوت على بوتا فرصة جمع بعض النباتات، التي كان قد شاهدها في منطقة النبي شعيب، ولم يتمكن حينها من جمعها، وأجل ذلك إلى حين عودته. وبعد ظهر اليوم نفسه وصلوا إلى قرية **Hagef** ومكثوا فيها بضع ساعات، استغلها بوتا لجمع بعض الأعشاب، ثم عاد بعد ذلك إلى مسكنه، في قرية **Dschannat** "سعيداً جداً بسلامة جلدي، وسعيداً أيضاً بما جمعته من نباتات"[136].

وفي نهاية شهر نوفمبر أبلغه الشيخ حسن أن يكون مستعداً للرحيل إلى **Kahim**، عند أول إشارة، لأنه ربما يغادر تعز بصورة مفاجئة، بعد أن أصبح غير راض عن نتائج محادثاته مع أهالي تعز. وذات صباح، وقبل بزوغ الفجر، جاء أحدهم، ليخبره بأن الشيخ حسن قد غادر تعز، مع كل قواته، ولم يبق إلا بعض المتأخرين، الذين كانوا يعتقدون بأن الصناديق التي يحملها معه، لحفظ النباتات، مملوءة بالنقود. وقد حضر هؤلاء إلى القرية وأعلموه بأن الجمال، المخصصة لحمل الصناديق، جاهزة في أسفل الجبل، وأنهم سيحملون الصناديق إلى هناك. ولكن بمجرد أن سرى خبر رحيل الشيخ، سارع أهل القرية إلى أسلحتهم، ومنعوا تلك العصابة من أخذه وصناديقه معهم، وأصروا على بقائه ضيفاً في حمايتهم، حتى يأتيهم أمر الشيخ حسن بسفره. ووجد بوتا من الأفضل له ولسلامته، أن يبقى في حماية أهل قرية **Dschannat**، الذين أصبح يعرفهم ويثق بهم، من أن يذهب مع أولئك الجنود، الذين أخذوا يهددونه ويلحون عليه، ليذهب معهم. وأخذ الخوف يساوره، من أن تهاجم القرية من قبل أعداء الشيخ، وفكر في ترك أمتعته في قرية **Dschannat** والهروب إلى قرية **Hagef**. إلا أن الشيخ، لحسن الحظ، تذكره قبل أن يصل **Kahim**، فبعث باثنين من نقبائه، مع بعض العساكر، ليبقوا معه ويحافظوا على سلامته، حتى يتمكن الشيخ من إرسال جمال لاحضاره. وما أن رأى سكان القرية العساكر المرسلين من الشيخ، قادمين من بعيد، حتى هيأوا أسلحتهم، لاستقبالهم بالرصاص. ولكنهم سرعان ما تبينوا النقيبين وعرفوهما. وبعد ثلاثة أيام من الإنتظار جاءت الجمال وغادر بوتا القرية، على نفس الطريق، الذي سلكه عند قدومه. وشاهد في الطريق بعض العساكر، الذين كانوا يتربصون به وينتظرون قدومه. ولكن حرصه

Das Ausland 68. (136)

وخوفهم من انتقام الشيخ حسن، مكناه من عبور الطريق، دون عوائق تذكر، باستثناء سيل من السباب والشتائم(137)، التي وجهها إليه أولئك المتربصون، دون أن يتجرأوا على مسه بسوء. وفي اليوم التالي وصل بوتا إلى **Kahim**، حيث كان وجود الشيخ، كما يقول "يمثل حماية لي. إلا أنني قد تضايقت كثيراً، من فضول أتباعه وتطفلهم المزعج"(138).

وبعد أن جمع بوتا كلما أمكنه جمعه من نباتات، في ذلك الفصل من السنة، قرر السفر إلى المخا. ولم يسمح له الشيخ حسن بالسفر، على الطريق المباشر إلى المخا(139)، لأنه لا يستطيع أن يضمن سلامته. لذا اضطر بوتا أن يسلك الطريق المار بوادي **Haidan** إلى مدينة حيس، التي وصلها في منتصف شهر ديسمبر، واستراح فيها بضعة أيام، ثم واصل سفره، وأمضى يوماً على شاطئ البحر، وسط أشجار كثيفة من النخيل، يملكها مرافقه، العزي الحضرمي(140)، الذي كان له، من بين اليمنيين، مزاجاً عجيباً. فقد زرع في تلك البقة كل أنواع النباتات الغريبة، التي عثر عليها. ومن هناك واصل سفره، بمحاذاة البحر، إلى **Mushie**، التي سماها نيبور **Mushid**. وشعر وهو فيها بالمرض، الذي أقعده بعد ذلك بالمخا وقتاً طويلاً، ومنعه من السفر إلى صنعاء. فاضطر أن يؤجل سفره هذا إلى فصل آخر، من فصول السنه. وينهي بوتا وصفه لرحلته القصيرة إلى جبل صبر بالعبارات التالية: "لا أستطيع أن أنهي هذا العرض السريع لرحلتي، التي قمت بها في اليمن، دون أن أعبر عن شكري وعرفاني، للكرم، الذي استقبلني به الشيخ حسن، وللحماية الكريمة، التي بسطها علي. فقد أصر، منذ وصولي إليه في حيس، وحتى مغادرتي له ووصولي المخا، على دفع كل مصاريفي وأجرة نقل أمتعتي، وهي أجرة باهضة. وعندما اضطر فجأة إلى ترك جبل صبر، لم يفته أن يضمن سلامتي. وعدما قام نقباؤه بإيصالي إليه، وزع عليهم ثلاث مئة بيستر أسباني، مكافأة لهم، على جهدهم. وإنه ليؤلمني عدم سماعه لنصحي، في أن لا يثق بالمصريين، الذين لايستطيع المرء أن يركن إليهم، إذ أن تحالفه معهم قد أدى إلى دماره. فقد سمعت بعد رحيلي من اليمن أن ابراهيم باشا، الذي استطاع، بفضل الشيخ حسن، أن يخضع مدينة تعز، طلب منه أن يقابله، ولما تقابلا لجأ إلى تدبير اغتياله، بطريقة جبانة. وذلك بسبب خوفه من مكانة الشيخ حسن ونفوذه في

Das Ausland 72. (137)

Das Ausland 72. (138)

(139) لم يحدد بوتا ذلك الطريق واكتفى بالإشارة إليها كما هو أعلاه.

(140) لم يحدد بوتا موضع تلك البقعة.

المنطقة"[141]. وبعد هذه العبارات قدم بوتا بعض المعلومات الجغرافية والطبيعية عن اليمن على النحو التالي:

يفصل مناطق اليمن الجبلية عن البحر شريط سهلي، يسمى (تهامة)، عرضه يختلف من منطقة إلى أخرى، فيصل أحياناً إلى حوالي أربعة أميال. ولا تصل الجبال إلى البحر إلا في أماكن محدودة، كما في المنطقة الواقعة بين القنفذة واللحية. وأرض تهامة جزء منها رملي وجزء صالح للزراعة، إذا توفرت له المياه. ويستفيد السكان من المياه المنحدرة من الجبال، فيضعون أمامها رداداً، تساعد على تحويل المياه، لري حقولهم. ويزرعون غالباً الذرة والنيل، ونادارا مايزرعون القمح. كما يزرعون بعض أنواع فواكه المناطق المدارية. ولا توجد فواكه أوربية، أي فواكه المناطق الباردة. وتوجد كميات كبيرة من أشجار النخيل، ولا سيما على شواطئ البحر "وقد لاحظ فورسكال، وأنا أؤكد صحة ملاحظته، أن النخيل في اليمن يهاجم ويتلف، من قبل نوع من النمل، إذا لم يجلب الأهالي كل عام أعواداً من الخشب، من المناطق الجبلية، في داخله نوع آخر من النمل، يفتك بالنوع الأول، ولا يلحق ضرراً بأشجار النخيل. ويتم ذلك بربط عود، من أعواد الخشب تلك، في أعلى شجرة النخيل. وهذا كفيل بتطهير الشجرة من النمل الضار"[142].

وتبدو نباتات تهامة ذات خصائص أفريقية. فالغابات تتكون من أنواع مختلفة من أشجار الميموزا (الست المستحية) فقط. ووجد بوتا نباتات كثيرة، كان قد رآها في سنار، بالسودان. وعلى ضفاف البحر في تهامة تنمو نتباتات مالحة يستخدمها الأهالي لتحضير الصودا.

وتشكل الجبال سلسلة متباينة الإرتفاعات، تمتد موازية للبحر. وأعلى مرتفع، يمكن مشاهدته من البحر، هو جبل ريمه، الواقع قرب مدينة بيت الفقيه، والجبل الآخر المرتفع هو جبل صبر. ويبدو أن جبل صبر أكثر ارتفاعاً من جبل ريمه، رغم أنه لا يشاهد من البحر، حيث يحجبه جبل حبشي، مع أن جبل حبشي أقل منه ارتفاعاً ولم يكن لدى بوتا أدوات يستطيع بها أن يقيس ارتفاعات هذه الجبال. ولكنها تبدو في نظر بوتا أكثر ارتفاعاً من جبل سيناء، الذي يُقدر ارتفاعه ب ٨٠٠٠ قدم. والوديان الواقعة وسط هذه الجبال عميقة جداً. ولم يشاهد بوتا أي فوهات بركانية. إلا أن هناك جزيرة، عند مدخل البحر الأحمر، تسمى جبل Tar. وهذه الجزيرة ليست

Das Ausland 76. (141)
Das Ausland 76. (142)

أكثر من بركان. وكان هذا البركان قد قذف حممه قبل سنين قليلة. ويستفيد الباشا[143] حالياً منها كمنجم، لاستخراج الكبريت. كما أن جزيرة بريم أيضاً جزيرة بركانية. وقد تأكد بوتا من ذلك، من خلال المعادن، التي جلبها الإنجليز من تلك الجزيرة. بعد ذلك تحدث بوتا عن المناخ في اليمن واختلاف درجات الحرارة، من منطقة إلى أخرى، ثم اختتم عرضه بالحديث عن سكان اليمن، متجنباً الحديث عن الجانب الجغرافي. إذ أن هناك الكثير من المعلومات الجغرافية، التي سبق لنيبور أن تحدث عنها، ولا يجدي، في رأي بوتا، تكرارها.

(143) يقصد حاكم مصر، محمد علي باشا.

رحلة .A.B

جولة في اليمن

أوجسبورج، في ٢٣ ديسمبر ١٨٦٠م

مقدمة:

لم يذكر هذا الرحّال الألماني، غير المعروف، عند عرضه لرحلته إلى اليمن، سوى الحرفين الأولين من اسمه (.A.B). وعند مراجعتي لقائمة أسماء الرحّالة الأجانب، لم أعثر على اسم يبدأ بالحرفين المذكورين. كان هذا هو أول مالفت انتباهي، قبل أن أباشر قراءة الوصف المنشور للرحلة. ولجأت إلى بعض المهتمين، من الأساتذة الألمان، لعلي أجد لديهم مايشبع فضولي. ولكنهم أكدوا لي بأنهم لايعرفون اسمه. وأنه هو نفسه لم يفصح عن شخصيته واكتفى بتدوين الحرفين الأولين من اسمه. فهل كان يخشى شيئاً، إذا ماعرف اسمه؟ ظننت أن الإجابة على هذا السؤال، الذي تبادر إلى ذهني، يمكن العثور عليها، عند قراءة العرض المنشور. فلربما أن فيه معلومات خطيرة، خشي هذا الرحّال أن يترتب على نشره لها، ضرر، قد يلحق به. وباشرت قراءة وصف الرحلة. وشيئاً فشيئاً تزايد الإحساس لدي، بغرابة الوصف وعدم دقة بعض المعلومات.

وفجأة وجدت نفسي أتساءل: هل يعقل أن يكون هذا وصف رجل زار اليمن حقاً؟ وهل هذه المعلومات تنم عن اطلاع ميداني مباشر، لشخص دونها عياناً؟ وعدت لأستعرض بعض الأسماء، التي استشهد بها، أو أورد مايدل على أنه قد اطلع على مادونه أصحابها من وصف لرحلاتهم، ومنهم دي لاركوا، مدون رحلة الفرنسيين الأولى إلى اليمن، عام ١٧٠٨م، والثانية، عام ١٧١٢م، وشيخ الرحّالة الأجانب، كارستن نيبور، الذي زار اليمن عام ١٧٦٣م وهرمن بورخاردت، الذي زار اليمن ثلاث مرات، بين عامي ١٨٩١م و١٩٠٩م، وقتل في رحلته الأخيرة، بالقرب من وادي الدور، في منطقة العدين. فوجدت في بعض أجزاء من وصف رحلة هذا الرحّال المجهول الإسم تطابقاً، مع وصف بعض أولئك، وفي أجزاء أخرى جموحاً في الخيال، ومبالغة في الوصف وتقديم صور ومعلومات، تثير الشك في أنه قد شاهدها أو وقف عليها في اليمن، وإلا لكان غيره، ممن سبقوه، قد أتى على ذكرها. كما يوحي مافيها من غرابة، بأنها قد تكون نسجت

نسجاً مصطنعاً، واستوحيت مما قدمه آخرون من وصف. فبدت، بما أضيف إليها من عناصر المبالغة والخيال، مجرد شطحات، لاعلاقة لها باليمن. وبدا صاحبها كمن يهرف بما لايعرف، كما يقال. وبدأت أتساءل: هل هذا وصف يقدمه شخص زار اليمن فعلاً؟ أم هو وصف حاول صاحبه أن ينسجه على منوال ماقرأه لرحّالة زاروا اليمن؟ ألا يكون قد افتتن بما قرأ، دون أن يتمكن من زيارة اليمن، فعمد إلى تقديم وصف خيالي، وهو لم يغادر مكانه، مستعيناً بما قرأه، مما جعله لايدرك الأخطاء، التي وقع فيها؟. وما كدت أنهي قراءتي لوصف الرحلة، حتى تعزز لدي الشك ، في أن هذا الشخص، الذي عمد إلى إخفاء اسمه، قد زار اليمن أصلاً. وأفضيت بشكي هذا إلى أحد الأصدقاء الألمان المهتمين. وناقشته ببعض المعلومات الواردة في الوصف، وهو صديق زار اليمن مراراً وطاف في أرجائه وكتب عنه ونشر موضوعات كثيرة، وقرأ معظم ماكتب عنه وما دونه الرحالة الأجانب. ففاجأني بأنه هو نفسه، قد استغرب إخفاء هذا الرحّال شخصيته وإسمه، وحاول العثور على الإسم الحقيقي، فلم يفلح. وسلم، على ضوء الملاحظات، التي توصلت إليها، أن مايساورني من شك، له مايبرره.

ورغم شكي بصحة هذه الرحلة، وظني بأنها قد تكون رحلة مختلقة، فإن عرضها هنا، يحقق هدفاً مهماً. فكثيراً ماحذرت من أخذ مايكتبه الأجانب عن اليمن، على أنه حقائق، لابد من التسليم بصحتها، ولاسيما مايكتبه بعض الأوربيين، الذين لم يعدوا أنفسهم اعداداً علمياً مناسباً، يؤهلهم للحديث عن بلد كاليمن، كل مافيه جديد عليهم وغريب عنهم. وكثيراً ما أكدت بأن علينا أن لانتعامل مع النصوص التي نقرأها من موقع الإحساس بالدونية والنقص، وأن نتبين مواقع الزلل ومواطن الخطأ، وصور المبالغات، والكذب أحياناً، فنعمد إلى تصحيحها وتفنيدها وتقديمها للقارئ اليمني والعربي، وأهم من ذلك للقارئ الأوربي. لأن مايكتبه هؤلاء، يصبح مصادر للباحثين والدارسين، يتعاملون معه، باعتباره معلومات صحيحه، يبنون عليها أبحاثهم ودراساتهم. وعلينا أن نهتم بهذه المسألة من موقع الإخلاص للحقيقة، أولاً، ومن موقع الإنتماء إلى اليمن، ثانياً. ويمكن للقارئ، وهو يقرأ وصف الرحلة هذه، أن يتبين بسهولة، المواقع من النص، التي شطح فيها الخيال، أو حشرت فيها معلومات غير صحيحة. وإذا كان قارئاً مطلعاً على ماكتبه الرحّالة الأجانب، الذين زاروا اليمن، منذ أوائل القرن السابع عشر، وحتى منتصف القرن العشرين، فقد يمكنه أن يتبين مصادر معلومات وتصورات، هذا الرحّال المجهول، أو الوهمي، إذا صح ظني. وقد انتهى وصف رحلته بوصوله إلى مدينة المخا، حيث اضطر إلى المكوث فيها، منتظراً حلول الفترة المواتية لإبحار السفن.

وصف الرحلة:

في اليوم الثالث عشر، من مغادرتنا جدة، رسا زورقنا، الذي لم يكن متيناً، في ميناء الحديدة، بعد أن مر بمحاذاة جزيرة كمران. وسرت في الزورق حركة مليئة بالنشاط والحيوية ، استعداداً للنزول من ذلك الزورق، الذي كان بالنسبة لنا أشبه بالسجن. وأدى الناخودة الصلاة، كما أداها البحارة والركاب، بحماس كبير. لقد شعر الجميع بأنه أزيح حمل ثقيل عن كواهلهم. في الأيام الأخيرة أبحرنا بمحاذاة السواحل، التي تمتد عليها جبال عسير، العامرة بالسكان. وحدد لي أحد الركاب موقع عاصمة شيخ عسير. ولا يتحدث العرب ولا الأتراك أيضاً، إلا بفزع، عن أولئك الهمج، المتعصبين، الذين ماكانوا ليتورعوا عن ذبح كل من يقع في أيديهم، لو أن الزورق قد اصطدم بالصخور الخطرة، في تلك المنطقة. وكان الدرويش الهندي، الذي كانت له وظيفتان مزدوجتان: طبيب وولي من الأولياء، في الوقت نفسه، كان هو الوحيد، الذي يعطف على أولئك العسيريين، ويحدثني عنهم، بلغة هندية، لايفهمها من في الزورق[144]، حديثاً طيباً، في معرض استعراضه لمغامراته الكثيرة. فقد عاش في بلاط أمير عسير، الذي ينتمي إلى المذهب الوهابي. وعامله الأمير معاملة طيبة. ولم يكن هناك سوى شيء واحد غير مريح، وهو منعه من التدخين. فكل من يخرق هذا المنع، يعاقب بالموت لامحالة[145]. وماعدا ذلك فإنها تسود حالة من النظام الممتاز. ومن تبسط عليه الحكومة حمايتها، لايمكن أن يجد أماناً في أي منطقة أخرى، كما يجده في ظل تلك الحكومة. لقد وجد هذا الولي الهندي تقديراً في أوساط الأتقياء، وشعر هناك بالراحة، كما يبدو، أكثر مما هو الحال في الحديدة، التي كان ينتظرنا فيها جمرك تركي ونوع من مراقبة الجوازات. وعمد الهندي إلى العديد من المناورات، حتى يستطيع أن ينفذ من سلطات الميناء. إذ قدم نفسه عند نزولنا بصفته خادم لي، ثم فجأة اختفى. وعومل التجار من سوريا ومن مكة معاملة حسنة، ورُحب بهم واهتمت الشرطة بحمايتهم وحماية بضائعهم. وكان قد زودني كل من صديقي، الذي استضافني في جدة، والتاجر اليوناني، الذي تولى شحن الزورق، برسالة توصية. وبفضلها استقبلت بالترحيب، في منزل شاب يوناني، يقيم في الحديدة، منذ عشر سنوات. وكان المنزل مبني بالحجارة، وله ردهة

---

(144) هذا يعني أنه كان يفهم اللغة الهندية. وبما أننا لانعرف من هو هذا الرحّال، فإنه يصعب القطع في ماإذا كان كلامه صحيحاً.
(145) قتل المدخن أمر مبالغ فيه، ويتجاوز الحدود المقبولة، عقلاً ونقلاً.

واسعة، تكاد تشغل الطابق الأرضي بكامله. وفيها ديوانان للجلوس، أحدهما عالي والآخر منخفظ، وبينهما أكوام البضائع، مرصوصة. أما غرف السكن فهي في الطوابق العليا، التي بها شرفات دائرية. وكانت مقابلتي الأولى غير مريحة. رغم أنني فيمابعد كنت أضحك كلما تذكرتها. فقد جاء أحد معارف التاجر الشاب، وهو أيضاً يوناني، مقيم في الحديدة، ليرحب بالفرنسيين، الذين سمع عن وصولهم. وسعدت عندما قيل لي أنه يعرف الفرنسية. فقد كانت معرفتي باللهجة العربية المحلية ضئيلة، لاتمكنني من التحدث مع مضيفي بطلاقة. ولغة مضيفي الإيطالية ينطقها بالطريقة الفرنسية. فلا أستطيع أن أفهم مايقوله. ولكن معرفة ذلك الشخص، الذي أتى لاستقبالنا، باللغة الفرنسية كانت محدودة. لذا أمّلت أن أتجاوز الصعوبات، التي يمكن أن تبرز، بمساعدة اللغة العربية، لخادم من بربرة، جمع بين الكلمات الإنجليزية والفرنسية المكسرة. وكان أول سؤال لذلك الذي تعرفت إليه للتو، يتعارض تعارضاً صارخاً مع ماعرف عن أسلافه اليونانيين من لطف. فقد سألني عن أصلي، فأخبرته بأنني أعتبر نفسي ألمانياً. ثم شرحت له، كجواب على أسئلته الأخرى، بأن الألمان هم من الإنجليز، أوأن الإنجليز هم من الألمان. فهز رأسه وقال، بكلمات جافة: هذا غير صحيح. فنظرت إليه باستغراب، وقلت له مازحاً، إنه يستطيع أن يصدق مايحب أن يصدقه، ولكني ألتمس منه أن لايشكك بما أقوله. ثم كررت تأكيد ماقلته سابقاً، وتوقعت أن لايبدي اعتراضاً مرة أخرى. ونظرت باستغراب وبانزعاج، وأنا أسمعه يعترض بالطريقة السابقة نفسها، دون أن أتنبه إلى مايحصل لي أنا أيضاً في أحيان كثيرة، عندما تكون القدرة اللغوية ضعيفة والحديث يجري بخليط من اللهجات المختلفة، حيث يجد المرء نفسه يسمي الأشياء بأسمائها، بصورة مباشرة وجافة، عاجزاً عن استخدام الأسلوب اللغوي المرن والمهذب وغير المباشر. كان ذلك اليوم يوماً متعباً، حيث وقفت طوال النهار تحت الشمس الحارة، سواءً عند النزول من السفينة، أو عند المعاملات الجمركية، إضافة إلى الطقس المداري الحار، الذي يجعل المرء حاد المزاج جداً. فإذا ماأضيف إلى ذلك سبب من أسباب الإنزعاج، مهما كان صغيراً وتافهاً، فإنه كافٍ لجعل المرء ينفجر بالغضب والإنفعال. وهذا ماحصل. ففي حالة من حالات الغضب، سألت الرجل، وأنا أرتجف من شدة الإنفعال، عن السبب، الذي يجعله يشكك بصحة ما أقوله، وماذا يعتبرني؟ فرد صاحبنا ببرود: أعتبرك يهودياً. ولأننا مايزال لدينا، مع الأسف، نفور من هذا الشعب المختار، الذي يحظى في الشرق بمكانة محترمة جداً، فقد قفزت هائجاً إلى رقبة ذلك الرجل، الذي نعتني مرتين بالكذب، بمجرد أن صفعت أذنيّ

عبارته المؤذية. ومن حسن حظ ذلك اليوناني، طويل اللسان، أنه تنبه لحركتي في الوقت المناسب، ووثب هارباً نحو الباب، رامياً قصبة النارجيلة بعيداً، وغادر المنزل مسرعاً، ثم اختفى في أحد منعطفات الشارع. وفور عودتي من عملية مطاردة ذلك الرجل، أعطيت خادمي الأمر بجمع أمتعتي وأخذها إلى أقرب نُزل (خان). ولكن سرعام ماعدت إلى وعيي، وأصغيت إلى مضيفي، الذي كان يتابع المشهد باستغراب، دون أن يفهم شيئاً مما يحدث، وهو يحاول أن يفهمني بأن كل ذلك قد نتج عن سوء فهم. وأرسل خادمه للبحث عن الهارب، الذي ظهر بعد هنيهة واقترب من الباب بحذر شديد وجثا بجانبه. وبعد حوار طويل، بالفرنسية والإيطالية واليونانية الحديثة، عادت المياه أخيراً إلى مجاريها. وقد تعلمت من هذا الموقف أن علم الشعوب البدائية (إثنولوجيا) السائد في اليمن، يرى أن سكان أوربا يتكونون من ثلاث قبائل: الكاثوليكيين، أو الناس الذين لهم شوارب، واليهود، أو الناس الذين لهم لحى مدببة، والبروتستانت، أو الناس الذين ليس لهم لحى. ومادام الإنجليز (وكذا الألمان، الذين أعتبر نفسي واحداً منهم) ينتمون إلى النموذج الأخير، فالفرنسيون ينتمون إلى النموذج الكاثوليكي. ووفقاً لهذا التصنيف، فإن وضعي هنا قد تحدد، ولم أعد أملك أي حق في الإعتراض على هذا الحكم العلمي[146].

بدأ ميناء الحديدة يستقبل السفن، منذ وقت قريب. وأخذ يتطور على حساب ميناء المخا، الذي لديه بالطبع منافس آخر خطير، وهو ميناء عدن. وتعتبر الحديدة الآن السوق العربي الرئيسي لتجارة العبيد. ومعظم العبيد، الذين يعملون في المنازل، يُجلبون من مناطق مختلفة في الحبشة. ويتميزون من النظرة الأولى عن النيجر بوجوههم الطويلة المفلطحة. وقد شاهدت في ميناء جدة عبيداً، معظمهم صبيان من النوبة، ويطلق عليهم العرب التسمية نفسها (أحباش)، دون تمييز. ولفت مضيفي نظري بهدوء، إلى مابدر من قبل الأتراك، من خرق للإلتزام، الذي قطعوه على أنفسهم للإنجليز، بأن يقاوموا تجارة البشر هذه. ولكنه كان حذراً ومتخوفاً، من اعطائي مستندات كافية، يمكن تقديمها في عدن، المكان المناسب لذلك.

تعطي بيوت الحديدة، البيضاء المتجاورة في خط متصل، مطل على الشاطئ، تعلوه منارات نحيلة، وتحف به أمواج البحر، تعطي للعين منظراً مريحاً، بعدما مللت رؤية رمال الشاطئ، ذات

---

(146) الرجل، الذي كرر القول، بأن ماتحدث به هذا الرحّال، عن انتمائه إلى الإنجليز، ليس صحيحاً، لم يكن رجلاً يمنياً، بل يونانياً، أي أوربياً. وبالتالي لاعلاقة لما سماه الرحّال ساخراً (علم الشعوب، السائد في اليمن)، بما صدر من الرجل اليوناني من تكذيب لحديثه.

المنظر الرتيب. وتبدو الأرض المحيطة بالحديدة مستوية وقليلة النبات. وبعض واجهات بيوت الحديدة مزينة بالنقوش الجميلة، وعلى سطوحها المستوية تنتصب أكواخ من القصب، للجلوس وللنوم، يشاهد المرء مثيلاً لها في أبو شير، في الخليج الفارسي[147]. وفي المدن البعيدة من البحر ينام الناس غالباً في العراء، مثلما هو الحال في مدينة بغداد. حيث يقضي الناس النهار، في الأشهر الحارة من السنة، في الأقبية (البدروم)، ويقضون المساء والليل على السطوح. ولايستخدم المترل الحقيقي، الذي يتكون عادة من عدة طوابق، إلا في الشتاء.

وسوق الحديدة سوق معد بشكل لابأس به. ولكنه ضيق، إلى حد أن المرء يجد صعوبة في المرور بجانب الجمال المحملة. ويتجول الشحاذون، وبأيديهم مباخر، يرفعون أصواقم بذكر الله، دون انقطاع، حتى يلفتوا انتباه المارة إليهم. وتنتشر خارج أسوار المدينة أكواخ صغيرة، تبنى سريعاً من أغصان وفروع الأشجار المتشابكة، مكونة مساكن مؤقته. وفي حين تبدو الجهة الخارجية منها غصون وفروع نافرة، فإن الجهة الداخلية تكون عادة مستوية، وأرضياها مرتبة ومفروشة بالحصائر.

ويستقبل التاجر اليوناني زواره في الليل، في الغرفة العلوية. وبعض الزوار هم من الموظفين الأتراك، الذين يأتون للعب الشطرنج أو لشرب النبيذ، بعيداً عن أعين الناس. أما طوال النهار فيبقى التاجر في الشرفة، بالطابق الأرضي، حيث يدار شكل من أشكال البورصة. ويتجمع الوسطاء والوكلاء، ليتبادلوا الرأي حول أسعار البن. وأول واحد شاهدته قادماً، كان يحمل تحت إبطه ربطة من الأغصان الخضراء، فذكرني بمنظر الفلفا، التي يشتريها المرء في أسبانيا، لتقديمها طعاماً للبغال. لقد ظننتها نوعاً ممتازاً من العلف، يريد ذلك الرجل الطيب أن يقدمه لحيواناته، التي يحبها. ولكن الزوار، الذين جاؤا بعده، كانوا محملين بنفس الطريقة. وبعد أن أخذ كل منهم مجلسه، وأمامه مداعة (أرجيلة كبيرة)، إذا هم يبدأون بفتح ربط الحشائش تلك، بكل لطف وحنان، ويتناولون منها غصناً بعد آخر. وسرعان ما أصبح الحديث الهادئ أكثر حيوية. ودار حديثهم حول الأخبار، التي نقلها القادمون من جدة. ثم أخذوا يشكون من تلكؤ وتباطؤ تجار بيت الفقيه، أو يسخرون من الخصم المنافس لميناء الحديدة، وهو ميناء اللحية.

---

(147) أي الخليج العربي.

وبعد مرور نصف ساعة، أو ثلاثة أرباع الساعة، أخذ الواحد منهم بعد الآخر نفساً عميقاً من المداعة، ودخل على الفور في نوم هادئ[148]. وبعد أن غبت لبعض الوقت خارج المنزل، عدت لأرى حوالي نصف درزن (ستة) من الرجال نائمين، بجانب الجدران، على امتداد الديوان، والفراش تعلوه عيدان وأوراق مبعثرة، لاتبدو أفضل مما عليه الحال في أي اسطبل للماعز. كانت تلك الشجيرات، التي تباع بكميات كبيرة في سوق الحديدة، كما في سوق المخا، هي شجيرات القات، التي تشبه أوراقها أوراق نبات الشاي. وتناولها مقتصر حالياً على اليمن فقط. ولكن قبل استخدام البن والتبغ كان القات منتشراً، انتشاراً واسعاً، كمادة مخدرة، في أوساط أتباع الدين المعتدل في الشرق[149]، ولاسيما أولئك الذين لايستطيعون شراء الأفيون، لغلائه، ولا يتجرأون أن يشاركوا في متعة الحشيش اليومية، مثل قيصر فايلاند، ورفاقه، الذين يشاركونه مسراته وأحزانه، أو أمير جبل الكرمل. وقديماً كان يُعمل من أوراق القات نقيعاً للشرب، تماماً مثلما يصنع سكان البيرو بأوراق الكوكا. فهم لايمضغونها وحسب، بل يشربونها أيضاً. وعندما كنت لدى القسيس المحترم روفاس **Rofas**، الذي سكنت عنده في كوزكو **Cozco**[150] لفترة طويلة، كان غالباً مايقدمه مع العشاء. وكنت أفضل شربه على شرب الشاي الصيني، الذي كانوا يشربونه هناك أيضاً. وليست للقات الأهمية التراثية، التي للكوكا (على الأقل في الوقت الراهن). ففي حين يعتبر القات من قبيل اللوكسس (الرفاهية)، الذي هو في متناول الميسورين فقط، فإن الكوكا في متناول كل بيرواني، وحتى الأكثر فقراً منهم. لقد كان حمالو أمتعتنا الثقيلة، في جبال بوكارتمبو **Paucartambo**[151]، لايحملون معهم زاداً، كالبطاطس أو القمح. ولكنهم كانوا يمضغون أوراق الكوكا، التي يحتفظون بها، يمضغونها ست مرات يومياً. وفي حين أن القات لايصلح للتناول، إلا وهو طازج، فإن الكوكا تستعمل وهي جافة، في أي مكان بعيد. وعندما احتل الإنكا[152]

---

(148) هذا الوصف لمجلس القات (المقيل) يجعل المرء يشك في أن المدعو **.A.B**، قد حضر مجلس قات فعلاً. فالقات والمداعة مادتــا تنشيط. فكيف يدخل المرء بعدهما (على الفور) في نوم هادئ؟

(149) لم يوضح ماهو الدين، الذين يقصده.

(150) مدينة تقع في جنوب البيرو.

(151) جبال في البيرو.

(152) إمبراطوية أمريكية، ذات حضارة راقية، قضى عليها الغزو الأوربي لأمريكا. إذ تمكن الأسبان، بقيادة فرنسيسكو بيزارو، مــن تدميرها، في مطلع النصف الثاني من القرن السادس عشر.

منطقة الأندس[153]، قاموا بزراعة هذا النبات، الذي يلعب دوراً في طقوسهم الدينية، أشبه بدور نبات الهوما، أو السوما، عند الآريين. وإذا ما أدخل في أوربا في تركيبات الأدوية، كما تدل على ذلك كل المؤشرات، وأصبح، نتيجة لذلك، يصدر بكميات كبيرة إلى البيرو، فإن هذا سيجعل منه عنصراً رائج الإستخدام في أوساط شعب الأباتشي[154]، في مناطق البيرو العليا، الذين لايجدون سبباً للتحرك من أجل تسويق محصول مزارع الكوكا، إلى أبعد من مناطق سكان الجبال البدائيين. لقد أضحى الإستمتاع بالقات الآن، كما هو ملحوظ، مرتبطاً بالمداعة، حيث يأخذ المخزن، بعد أن يشعر بأن تأثير القات بدأ يسري فيه، يأخذ نفساً منها ثم يدخل في النوم.

ولأنني كنت قد تعبت من ركوب البحر، بعد رحلة طويلة في البحر الأحمر، منذ غادرت القصير[155]، فقد واصلت رحلتي إلى المخا، عن طريق البر. وبما أن أمتعتي لم تكن كثيرة، فقد كان جملاً واحداً كافياً لحمل الأمتعة، ولحمل مرافقي داود ، أما بالنسبة لي، فقد استأجرت لركوبي بغلاً. وسار الجمّال[156] راجلاً.

كان غروب الشمس هو موعد الرحيل. وحل الظلام سريعاً. وكان ظلاماً دامساً، إلى حد أننا لم نستطع استكمال استعداداتنا، إلا في حوالي الساعة التاسعة مساءً. وبعد وداع حار لمضيفي الكريم، تحركنا عبر شوارع الحديدة الخالية، وغادرنا بوابة سور المدينة، لنسير على أرض رملية، نمت عليها أحراش غير كثيفة. وكان هناك مقهاية وحيدة، منتصبة على قارعة الطريق، وهي عبارة عن كشك مبني من أغصان الشجر. وفي حوالي متصف الليل لاحظت، بقدر ماسمح به ضوء القمر، تزايد النباتات. وكانت تتخلل المنطقة، التي نسير فيها، مجاري سيول جافة، لاتمتلئ بالمياه إلا في مواسم الأمطار. ولم يطل بنا الوقت، حتى دخلنا وسط أشجار كثيفة، من أشجار المناطق الحارة، كانت أغصانها تتدلى فوق رؤوسنا. وفي القرب من منطقة الدريهيمية الصناعية[157]، كانت توجد مقهاية أخرى، استرحنا فيها. وكانت تبدو مليئة بالحركة. ففي اليوم التالي سيقام السوق

(153) سلسلة جبلية ضخمة، تقع غرب أمريكا الجنوبية، ممتدة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، مغطية الجزء الأعظم من الـبيرو وتشيلي.

(154) واحد من شعوب القارة الأمريكية، التي أباد الأوربيون معظمها، وأطلقوا عليها اسم (الهنود الحمر).

(155) ميناء مصري، على البحر الأحمر.

(156) مالك الجمل، أو الرجل المكلف بالعناية به.

(157) لم يحدد نوع الصناعات، التي كانت موجودة في الدريهيمية.

السنوي[158]. ولذا فإنها وماحولها امتلأ بالبائعين، الذين حملوا معهم مختلف أنواع السلع. وواصلنا السفر، وسارت معنا، في الإتجاه نفسه قافلة من المسافرين. فعمد مرافقي داود، الذي كان مرهقاً، إلى ربط الجمل، الذي كان يركبه، إلى مؤخرة الجمل، الذي يسير أمامه، لكي يستطيع أن ينام مطمئنا. وهذه طريقة متبعة في القوافل. حيث تربط الجمال جميعها، أحدها إلى مؤخرة الآخر، فتسير في خط واحد، ويخلد الجميع إلى النوم، على ظهور الجمال، ولا يحتاجون إلا إلى بقاء شخص واحد مستيقظاً، يسير في مقدمة القافلة. وبما أن الجمال تسير بخطوات رتيبة وهادئة، فإنه يمكن للمرء أن يدخن غليونه على ظهورها بارتياح، وأن يسافر في الليل، كما حدث لي مراراً. ويمكن النوم أيضاً على ظهور الجمال، دون خوف من أن تبتعد عن الطريق، إذا كانت قد سارت فيه من قبل. ولايستطيع الأوربي غير المدرب أن يتحمل الركوب فترة طويلة على ظهر الجمل. إذ سيجد نفسه فوق الأحمال، في أسوأ حال. فأفضل طريقة مريحة للركوب، هي الركوب بطريقة النساء. فبدلاً من الركوب مباشرة على زهاب[159] الجمل، يضع الراكب مقعداً، أشبه بالمهد، بارزاً على جانبي ظهر الجمل، ثم يجلس القرفصاء، في جانب، وراكب آخر في الجانب الآخر. وإذا كان الراكب شخصاً واحداً، فيضع أمتعته في جانب، ويجلس هو في الجانب الآخر، حتى يحافظ على التوازن. وبالطبع يكون للمقعد مسند خلفي. فيسافر المرء، وكأنه جالس في غرفة، أو وسط محفة محمولة. بل ويمكنه أيضاً أن يستخدم أدوات الطباخة[160].

والمقاهي، التي مررنا بمقهاية ثالثة منها قرب **Lauja**، تبنى في هذا الجزء من جنوب الجزيرة العربية، كما أشرنا سابقاً، من أغصان الشجر الجاف، أو من التبن. ويحيط بالمقهاية عادة سياج منخفض، تدخل الجمال إلى داخله وتربض على الأرضية، التي يحيط بها السياج، وتُنزل أحمالها وتُطعَم فيها أيضاً. ويوقظ القادمون صاحب المقهاية من نومه، فيشعل الحطب، الذي تغلى عليه القهوة، ويحضّر البوري[161]، الذي يشبه النارجيلة المستعملة في المدن. وهو مصنوع من جوز الهند

---

(158) لا توجد في اليمن أسواق سنوية، بل أسواق أسبوعية.

(159) زهاب الجمل، هو مايقابل السرج بالنسبة للحصان والوطاف بالنسبة للحمار.

(160) أن يكون للمقعد مسند خلفي، أمر ممكن. أما أن يستخدم الراكب أدوات الطباخة، على ظهر الجمل، فأمر غير مألوف في اليمن.

(161) البوري في الأصل وعاء يشبه القمع، مصنوع من الطين. يملأبالتبغ وتوضع على التبغ بعض الجمرات الحمراء. ويوضع البوري في أعلى المداعة (الأرجيلة).

الأجوف، ومغروس في وسطه عمود خشبي أجوف أيضاً. وكان هناك العديد من الأسرّة، التي يمكن للمسافر أن يستلقي على أحدها، لينام نصف ساعة، حتى يتم تجهيز الحيوانات، لمواصلة السفر.

وعند انبلاج الفجر وجدت نفسي في طريق صخري، دون مرافق ولا جمّال. فجعلت البغل يسير ببطء. وماهي إلا لحظات حتى أدركني بعض التجار، الذين كانوا يقصدون أيضاً بيت الفقيه، فانضممت إليهم، وسألتهم عن القافلة، التي كنت معها، فأخبروني بأنها أخذت طريقها نحو الجبال. ولعلها قد أخذت مرافقي داود معها، وهو مستغرق في نومه، على ظهر الجمل. وفعلاً هذا ماتبين فيما بعد. وبعد انتظار طويل على الطريق، رأيت الجمّال وهو يركض وراء الجمل، قادماً نحوي.

وما أن طلعت الشمس، حتى رأينا في البعيد مدينة بيت الفقيه، في وادي متموج، على مرتفع ينتصب خلفه جبل(162). وبيت الفقيه مدينة محاطة بأرض مزروعة، زراعة جيدة. ووسط الحقول تنتصب أكواخ مبنية بالأغصان الجافة، ولها سطوح مدببة، أشبه بالقباب، وبعضها محاط بسياج من الأغصان الجافة أيضاً. وعلى أعلى بقعة في بيت الفقيه يوجد برج متصل بسور المدينة(163). ونزلنا في مقهاية، وانتظرنا حتى هدأت الشمس، وخرجت للتجول في المدينة، مصطحباً معي دليلاً سياحياً.

وبسبب طبيعة الأرض التلّية، كانت الطرق في المدينة غير مستوية، كما كانت ضيقة ومظلمة. ولكنها تحتوي على بيوت فخمة، مبنية من الطوب المحرق. ولايبدو في السوق سوى قليل من الدكاكين غير البارزة، لتجارة التجزئة. ومع ذلك، فإن بيت الفقيه ماتزال تعتبر سوقاً هاماً جداً للبن. رغم أنها لم تعد الآن تتمتع بمكانتها الإحتكارية السابقة. لقد بلغت أوجها منذ تعطل ميناء زبيد القديم، وهو غليفقة، بسبب الشعاب المرجانية، وأصبح غير مؤهل لاستقبال السفن. فتعاظم من جراء ذلك دور بيت الفقيه، ودور الحديدة، كميناءٍ بديل. وعدا عن هذين الميناءين، هناك ميناء الشمال، اللحية، الذي يستقبل البن من المناطق الجبلية الشمالية، وميناء المخا، الذي يُحمل إليه البن

---

(162) يبدو هذا الوصف غير دقيق. فالمدينة لاتقع على مرتفع، بل في وادي فسيح. وهي تبعد بحوالي ستين كيلو متراً عن حوافي الجبال. وتقع في منتصف المسافة، بين البحر والجبال، تقريباً.

(163) ذكر رحّالة آخرون بأن بيت الفقيه مدينة غير مسورة. مثلاً: نيبور عام ١٧٦٣م، وبورخادت عام ١٨٩١م.

من المناطق الجبلية الجنوبية(164). وكانت المقاهي ماتزال نشطة، وفي إحداها يتصاعد صخب عدد من العرب المسلحين بالسيوف والدروع، الذين استقبلوا الدليل السياحي بحذر، ثم ابتعدوا بهدوء.

وكثيراً مايشاهد المرء في بيت الفقيه، كما في غيرها من المدن التجارية، تجاراً قادمين من بلاد العلم والدين، أي من حضرموت. وإلى جانب تجارة البن، تحتل تجارة السناء مكانة مهمة. وتجلب أوراق السناء إلى السوق في أكياس كبيرة. وبيت الفقيه، تعني بيت العالم، أو بيت الفقير(165) (وهو الولي المتجول، الذي نذر نفسه ليحيا حياة الفقراء). وسميت بهذا الإسم، نسبة إلى أحمد بن موسى، الولي السني، الذي قبر خارج المدينة، ويقام له عيد سنوي. وتكاد كل المدن الزيدية مرتبطة بولي من الأولياء(166). فمدينة عدن فيها قبر الإدريسي إبن عبد الله(167)، ومدينة المخا أنشئت في القرن الرابع عشر الميلادي، بفضل الولي الشاذلي (علي بن عمر).

وعندما انتزع الشريف حمود بيت الفقيه من إمام صنعاء، اشتعلت الحرب الدموية مع العسيريين، تحت قيادة أبي نقطة. وهبط العسيريون مراراً، من مناطقهم الجبلية، إلى المدن اليمنية ودمروها. وكرروا هذه العمليات قبل سنوات قليلة من الآن، وحاصروا مدينة الحديدة، لفترة طويلة. وكما حدثني السكان هناك، بأن مدينة الحديدة كانت ستسقط بيد العدو(168) لامحالة، لولا أن أحد الملائكة قد وجه ضربة إلى معسكرهم. وليس بخاف مايتمتعون به من روح المقاومة المستميتة. فقد واجهوا الأتراك، تحت قيادة شيخهم، بمقاومة شديدة. وعندما هُزموا أخيراً عام ١٨١٥م، وجدوا جميعهم، كما روى بورخاردت(169)، مقتولين، وأرجلهم مقيدة بالسلاسل، لكي يقاتلوا حتى الموت، وفاءً بالعهد، الذي قطعوه على أنفسهم، بأن لايعودوا إلا منتصرين. وقد أشار

---

(164) الصحيح: المناطق الجبلية الوسطى.

(165) كلمة الفقيه تعني العالم، ولاتعني الفقير.

(166) أشار نيبور إلى الإرتباط بين نشوء المدن التهامية بالأولياء. ويبدو أن A.B. قد اقتبس هذه المعلومة من نيبور، ولكنه لم يكن دقيقاً في اقتباسه. فالمدن التهامية لا المدن الزيدية، هي التي ارتبط إنشاؤها، بالأولياء. والمدن التهامية مدن سنية، لازيدية. وللزيدية موقف رافض لتعظيم قبور الأولياء.

(167) لم أعثر على معلومات عن هذا الولي. ولم أسمع عن اسمه ضمن أسماء الأولياء في عدن، ، رغم أني نشأت في مدينة عدن نفسها. ولو كان ولياً من أولياء عدن، لما خفي اسمه، ولكان أشهر الأولياء فيها، مادام إنشاؤها قد ارتبط به، كما يذهب إلى ذلك A.B.، ولأقيمت له زيارة سنوية، كما هو الحال بالنسبة للعديد من الأولياء في عدن، مثل أبان والعيدروس والهاشمي وغيرهم.

(168) يقصد العسيريين.

(169) رحّال ألماني زار اليمن عامي ١٨٩١م و١٩٠٩م. وقتل في رحلته الأخيرة، بالقرب من وادي الدور، في منطقة العدين. أنظر التقرير الخاص برحلته، في هذا الكتاب.

نيبور (١٧٦٢م) إلى القبائل العربية المتوحشة، التي تقطن المنطقة، الواقعة بين أبو عريش والحجاز. وذكر طريقتهم الفضيعة في الختان. كما ذكر أنه رُوي له، بأن المسلمين يعتبرن تلك القبائل سحرة، ويتبعون ديناً خاصاً بهم، يبدو أنه منتشر في المناطق الداخلية في الجزيرة العربية. أما المملكة الوهابية فلم تزدهر إلا تحت حكم سعود الثاني، الذي خلف أباه عبد العزيز، عام ١٨٠٣م. وفي إيران سمع نيبور عن المصلح الديني في الدرعية، من بلاد نجد، وعن المكرمي، الشيخ الساحر، المقيم في نجران، من بلاد اليمن، الذي كان يبيع الجنة لمن يريد أن يشتري. والمكرمي، الذي صعد إلى السطح، دون أن يكون منحدراً من بيت من بيوت العرب الكبيرة، جعل سلاحه مرهوباً، سواءً في (أبو عريش) أو في الخليج الفارسي[170].

وبعد غروب الشمس غادرنا مدينة بيت الفقيه ودخلنا في منطقة مليئة بالأحراش الكثيفة، حتى وصلنا إلى بئر، تتجمع حولها قطعان الماشية للشرب. وكانت هناك أحواض معالف، وبجانبها خزان ماء مغطى. وكان الماء ينقل بقلل مصنوعة من الطين، وهي أوعية رائعة، يحتفظ بالماء داخلها بارداً، ويصبح أكثر برودة، كلما زاد هبوب الرياح الحارة[171]. ولأنها سريعة الكسر، فإنها تُلف بطبقة من القش. وتصبح القرب المصنوعة من الجلود، مضمونة أكثر، أثناء السفر لمسافات بعيدة، وتباع في كل الأسواق الشرقية، بأحجام وأشكال مختلفة. ولاستعمالها لابد بعد شرائها، من وضعها في الماء لعدة أيام.

وفي الحسينية نمنا في مقهاية، طرفاً من الليل، ثم واصلنا السفر، حتى ظهرت أمام أعيننا، عند الفجر، قلاع مدينة زبيد. وكنا نجتاز سدوداً ضيقة وسط الحقول، وعلى مدار النظر سلاسل من المرتفعات. وعندما عبرنا من بوابة المدينة كانت الشمس قد أشرقت، والمدينة لم تدب فيها الحياة بعد. ولكن المرء يشاهد هنا وهناك سقاءً يسير لاهثاً، أو شحاذاً صغيراً، كان نائماً وبدأ يتمطى بأطرافه.

كنت أحمل رسالة من تاجر الحديدة إلى وكيله في زبيد. وكان لابد أن أمر عبر بعض البيوت، التي لاتبدو بيوتاً حقيقية، حتى وجدت الحاج سالم، الذي يسكن مع أخيه، في الجزء الخلفي من مبنى

---

(170) أي الخليج العربي.

(171) هذا أمر غير مفهوم. ولكن يمكن القول بأن المرء يشعر ببرودة الماء، كلما أصبح الجو أكثر سخونة. فالبرودة مرتبطة بإحساس من يشرب الماء، وهو معرض لدرجة حرارة عالية، لا إلى تزايد برودة الماء ذاته.

كبير. وفي القرب من ذلك المبنى يوجد مسجد ضخم محاط بالأشجار، التي تتدلى رؤوسها من فوق سور الحديقة العالي.

وفي مدينة زبيد توجد بعض الشوارع العريضة والنظيفة، رغم أن أسواقها هي أيضاً ضيقة ومظلمة. وبيوتها مبنية بالطوب، وأكثرها بيوت كبيرة، مزخرفة بأنواع الزخارف العربية، وتعلو بعضها أبراج مدرجة. وفي الأحياء البعيدة من المدينة تتداخل هذه المنازل مع الأكواخ المبنية من فروع الأشجار. وفي حديقة الباشا، أي الحاكم التركي، تتجول بعض النعامات، وسط أسوار، تفصلها عن أحواض الورود. وتعرض الورود بأنواعها المختلفة في السوق. وكثير من العرب يضعونها في شعورهم. وتسير النساء غالباً دون حجاب. وهو الأمر الذي لايصادفه المرء عادة إلا في أوساط قبائل البدو، البعيدة عن المدن. وقد شاهدت كثيراً من النساء وهن يسرن صارخات، وراء ثور، يقاد إلى المجزرة، وسط مهرجان من شباب الشوارع، ليذبح وفقاً للطقوس الإسلامية.

ومدينة زبيد هي العاصمة القديمة لتهامة[172]. وقد اشتهرت كمهد للفقهاء العرب. وكانت أكاديميتها ذات يوم قاعدة للمسلمين السنيين، الذين يعيشون في مناطق مختلفة من اليمن، والذين وجدوا في الدولة العثمانية، بعد إعادة احتلال اليمن، على يد سنان باشا، عام ١٥٦٨م، بعد أن كان قد احتل في عهد السلطان سليمان[173]، وجدوا فيها سنداً لهم. ومايزال البرج القديم لمنارة أحد المساجد، الذي يشاهده المرء من الشارع، مايزال قائماً. وفي زمن نيبور كان الرعايا السنيون يعيشون تحت حكم الإمام، تتولاهم عدالة مفتي زبيد. ومدح أبو الفداء زبيد، ووصفها بحاضرة سواحل اليمن، نظراً لآبارها ونخيلها.

وعندما تأهبت لمواصلة السفر، بعد إقامة ثلاثة أيام في زبيد، أُبلغت بأن الوكيل[174] التركي لايوافق على سفري، لأن التمرد في جبال منطقة **Haly** أو **Weil**، قد استفحل واتسع، وأن الوكيل قد جمع جنوده في زبيد، ويعد لحملة تتجه لإخماد التمرد في تلك المنطقة، وبسبب ذلك لم

---

(172) أسسها الوالي العباسي محمد بن عبدالله بن زياد، في بداية القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، وأصبحت عاصمة لدولتـه المستقلة عن الخلافة العباسية (دولة بني زياد).

(173) معلومات تاريخية غير دقيقة. فقد قدمت حملة مملوكية إلى اليمن عام ١٥١٧م، أعلنت ولاءها للسلطان سليم الأول، عنـدما احتل القاهرة، في العام نفسه. وفي عام ١٥٣٨م نزلت حملة عثمانية إلى تهامة بقيادة سليمان باشا الخادم. وبقي العثمانيون في اليمن حتى عام ١٦٣٥م. ثم عادوا للمرة الثانية في عام ١٨٤٩م. وانسحبوا عام ١٩١٨م، بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى.

(174) لعله يقصد المأمور، أو القائم مقام.

تعد الطريق إلى المخا مأمونة. ولذا يطلب مني أن أنتظر، حتى أخرج معه، لأرافقه في حملته. ولأن هذه الفكرة بدت لي غير مناسبة، فقد سارعت في استئجار بعض الجمال، ودليل بدوي، له شعر طويل، وعدني بأن يأخذني في طريق مأمون. وكان أفضل لباس لهذه الرحلة، هو العباءة المحلية، وهي نوع من البُرنُس **Burnus**، يغطي معظم الجسم. وبسبب سماكته، فهو يقي من البرد ومن الحر[175]. أما الرأس، فيغطى بكوفية **Keffiah**، لونها غالباً أحمر وأصفر، يتدلى منها طرف نحو الخلف وطرفان على الجهة الأمامية من الكتفين، لكي يغطى بهما الوجه، عند هبوب الرياح المتربة، أو هطول الأمطار. ولتثبيت هذه الكوفية يوضع عليها عقال مصنوع من شعر الجمال[176]. أما الأحذية الشرقية العريضة المصنوعة من الجلد الأحمر الناعم، فسرعان مايفضلها كل واحد على أحذيتنا، عندما يتعلق الأمر بالطرق غير المرصوفة. ورافقنا الحاج سالم، راكباً على ظهر بغلة، ليودعنا إلى بوابة المدينة. وتوقفنا لبعض الوقت، بجانب السور، ثم انطلقنا في طريقنا ليلاً. وتبدو الأرض في بدايتها مزروعة بشكل جيد. وفي القرب من وادي زبيد رأينا مشاعل كثيرة على المرتفعات تتوهج، ثم لم تلبث أن اختفت، كما انعدمت كل حركة بشرية. ومضى بنا الطريق بين شجيرات صغيرة. وسار بنا الدليل بعيداً عن الطريق الرئيسية، وحاول، بمساعدة بدوي آخر انضم إليه، تحديد اتجاه السير، بقدر الإمكان، بواسطة النجوم. وبعد أن سرنا بضع ساعات، باتا غير واثقين من صحة الإتجاه. فأحدهما أشار إلى اتجاه معين، والآخر إلى اتجاه آخر. ولم تؤد هذه المحاولات الفاشلة، لتحديد الإتجاه، إلا إلى مزيد من التيه. وأخيراً وقف الجمّال ثابتاً، ونظر مرة أخرى إلى النجوم، ودار مغلق العينين ثلاث مرات، وهو يتمتم بعبارات غير مفهومة، ثم بدأ ينظر إلى النجوم في اتجاه آخر. ولما بدا أنه لم يصل إلى شيء، رفعت صوتي مستنكراً هذا التخبط العشوائي، وترجلت وأمرهم بالتوقف، حتى طلوع القمر. وفي هذه الأثناء أدرك ذلك العربي أننا قد انحرفنا عن طريقنا عدة أميال. فأمسك بخطام الجمل وقاده، وأخذ يتخبط هنا وهناك، حتى عثر أخيراً على الآثار الصحيحة للطريق. وقرب الصباح عدنا إلى الطريق الرئيسي، حيث كنا قد تجاوزنا منطقة التمرد. وتوقفنا عند أنقاض قرية مدمرة، وكانت هناك مقهاية بجانب مسجد وبير محاطة بحجارة قبور مزخرفة، بعضها كانت زخارفه قد محيت. وتركت الجمل، الذي كان يحمل

---

(175) هذا لباس غريب عن تهامة، ولعل الأمر قد اختلط على **.A.B**، فلم يميز بين ملابس أهل اليمن، وملابس سكان نجد والحجاز.

(176) الكوفية اليمنية لاتشبه هذه الكوفية، التي وصفها **.A.B**، والعقال لايستخدم في تهامة اليمن، ولا في اليمن كله.

الأمتعة، تركته مع الجمّال لدى قافلة، متوقفة هناك، وانطلقت راكباً، بمرافقة الدليل، نحو الأمام. وفي الحال ظهر البحر في الجانب الأيمن، كما ظهرت أكواخ محاطة بحدائق من الأشجار المثمرة والورود المزروعة في أحواض مربعة. وعند المساء شاهدنا في البعيد ظلال أشجار موشج الوارفة. وقد اعتبر البعض أن موشج هي موسى، التي ذكرها بطليموس. كانت ساحة المقهاية، التي نزلنا فيها، تضم عدداً من النزلاء، أمضينا الوقت في التحدث معهم، حتى جن الليل وطلع القمر، فواصلنا السفر.

وفي اليوم التالي سرنا على شاطئ مستو. وكانت توجد سفينة عربية، راسية في خليج صغير، وبجانب الأخشاب، المكونة من جذوع الأشجار، المربوط بعضها إلى بعض، نُشرت شباك الصيادين. وبجانب القرية توجد مقهاية، قُدم لنا فيها سمكاً للإفطار. وواصلنا السفر على طريق، تنوع منظر الأشجار فيها، بين أشجار كبيرة وشجيرات صغيرة. وسرنا بموازاة الشاطئ. وحصلنا على بلح من النخيل غير مستساغ. بعد ذلك اتجهت بنا الطريق نحو الداخل، بعد أن استرحنا قليلاً، في مقهاية صغيرة. وضاعت آثار الطريق، وسط رمال متحركة، كانت ذراتها الصغيرة تتجمع حول شجيرات محطمة، تقف هنا وهناك. وكانت الجذوع البارزة منثنية نحو الشمال، كما كانت أعضاؤها الجافة تشير إلى الإتجاه نفسه، تحت تأثير الرياح. وفي حوالي الظهيرة هبت إحدى الزوابع، فغمرتنا بسحابات الأتربة، إلى درجة أنني لم أعد أستطيع رؤية الدليل، رغم أنه كان يسير ملتصقاً بمقدمة الجمل، الذي كنت راكباً على ظهره. وسحبت الكوفية وغطيت وجهي تماماً. ولكن رغم ذلك امتلأت عيناي وأذناي وأنفي بالأتربة الناعمة. ولما لم أعد أستطيع أن أرى أو أسمع شيئاً، تركت قيادي للجمل، يسير وفق غريزته. وفي لحظة من لحظات الغفلة نزعت الريح القماش، الذي كان يرفرف على رأسي، بعيداً. وبالكاد سمح لي صفير العاصفة أن أصرخ لأنبه الدليل. ومن حسن الحظ أنه علق بالشوك المسنن لإحدى الشجيرات. ولكن كيف يستطيع الآن شخص بمفرده أن ينتزعه. كانت تحت إحدى الشجيرات قُلة مملوءةً ماءً، توضع عادة ليشرب منها المسافرون. وماعداها لايُرى شيء، وسط ذلك الرذاذ الترابي، الذي ملأ الجو وجعل الدليل، وهو يركض نحو القماش، يكاد يظل الطريق. وبحلوق ناشفة وجلود جافة، أشبه بجلود الرق[177]، وصلنا أخيراً،

---

(177) جلود رقيقة ملساء كانت تستعمل للكتابة عليها.

تحت الشمس الحارقة، إلى أشجار النخيل، في المخا، حيث كانت كتيبة من الجنود الأتراك تتهيأ للتوجه إلى زبيد. وفي بيت للضيافة، يملكه أحد التجار العرب، اسمه عبد القادر، اغتسلت بماء بارد، وغيرت ملابسي المتربة، بملابس نظيفة.

وعندما كنت أجلس منتعشاً في الديوان، إلى جانب صاحب البيت، وعبق المداعة البارد يملأ المكان، إذا بي أشاهد بأم عيني منظر القهوة، التي لابد أن تقدم للضيوف في الشرق. ولكن سرعان ما خاب أملي. ففي اليمن كله لايشرب الناس قهوة البن، بحجة أنها حارة وتسخن الدم. ولهذا يصدرونها إلى الخارج. وبدلاً عنها يشربون قهوة القشر، التي يحضرونها من القشرة الخارجية لثمرة البن، مخلوطة بالقرفة وبعض البهارات الأخرى. وفي زمن دي لاروكوا[178] كانت تسمى قهوة السلطانة. وفقط بناءً على طلبي أمر صاحب البيت بأن تعد لي قهوة البن الحقيقي. وتم إعدادها بالشكل المطلوب. والحال ذاته يصادفه الرحّالة في الساحل الغربي لليمن بالنسبة للخيول، التي لايمتلكها هناك سوى الضباط الأتراك، ولايستطيع الرحّالة الحصول عليها. فليست موجودة سوى في نجد، موطنها. فهناك منشأ الخيول الأصلية، التي تربيها قبيلة عنيزة في حوران وفي مابين النهرين. وفي السفينة، التي قدمت عليها من جدة، كان هناك حصان صغير، يحاط بعناية فائقة. وكان قد حُمل على سفينة أخرى من السويس، وقبلها من طرابلس، بما يكلفه هذا من نفقة باهضة ومشقة كبيرة. ويبدو من ذلك أن لتصدير الخيول إلى اليمن مردوداً أكثر مما لتصدير البوم إلى أثينا. وقد مكثت فترة طويلة في المخا، أستعد لرحلتي إلى عدن، لأن هذه هي الفترة من العام غير المواتية لإبحار السفن.

(178) ناشر رحلة الفرنسيين الأولى إلى اليمن عام ١٧٠٨، والثانية عام ١٧١٢م.

رحلة يوسف هاليفي Joseph Halevy في اليمن

عرض هاينرش فرايهرن فون مالتسان

Heinrich Freiherrn von Maltzan

في مقال نشرته قبل عامين بمجلة (جلوبوس Globus)، عن رحلة ريده Wrede في حضرموت، عبرت عن أمنيتي في أن يجد هذا الرحّال المستكشف الشجاع من يخلفه. ولم أكن أعرف، أنه في ذلك الوقت بالذات، كان هناك خليفة له، يستكشف في قلب بلاد العرب، وهو يوسف هاليفي، اليهودي الفرنسي، الذي أرسلته أكاديمية المخطوطات Academie des Inscription إلى اليمن، لجمع نقوش يمنية قديمة. ويدل ٦٨٣ نقشاً، تمكن من نسخها، بعضها باللغة السبئية (التي عادة مايطلق عليها خطأً اسم الحميرية)، وبعضها بشقيقتها، اللغة المعينية، التي يرجع الفضل في اكتشافها إليه، يدل على أنه أنجز مهمته على أفضل وجه.

وبطبيعة الحال لن نتناول هنا هذا الجزء الهام من انجازه. ومع أن النقوش ذات أهمية قصوى، بالنسبة للباحثين في مجال اللغة، فإنها بشكل عام لاتحظى بالإهتمام الكافي. وينظر إليهاجميعها، ودون تمييز، بعدم اكتراث. فقوائم النذور، تبدأ عادة بإيراد أسماء مقدمي النذور. ثم يتلو ذلك تحديد مواد النذور، وترد غالباً على شكل قائمة نذور. ثم اسم الآلهة، وتحمل في كل منطقة اسماً مختلفاً. وغالباً ماترد أسماء أكثر من إله أو آلهة. وتحتوي قطعة النقش الطويلة في الغالب أيضاً قائمة من الطلبات واستمداد العون ضد الأعداء، وتستخدم مفردات لغوية غنية، وقد ترد، وإن كان هذا نادراً، أسماء بعض الهدايا، التي أحضرت للآلهة، ترد بشكل أكثر تحديداً: أوعية ذهبية، حلي فضية، وأحياناً قطعاً نقدية. وتمثل النقوش أهمية، من الناحية الجغرافية، نظراً لما تمدنا به من أسماء لمناطق كثيرة، ظل بعضها غير معروف لنا حتى الآن، والبعض الآخر نعرف أسماءه، بالطريقة اليونانية ــ الرومانية، كما أوردها كاتب حملة اليوس جالينوس، واسمه استرابو. وعلى سبيل المثال: فالمينائير Minaeer (Minaei gens magna) لم يتضح لنا إلا الآن، ومن خلال النقوش، أين سكنوا وماذا كانوا يسمون أنفسهم. لقد كان اسمهم (معين ومعينيون). والحال نفسه بالنسبة لعاصمتهم، التي زار هاليفي خرائبها الغنية، التي ماتزال حتى اليوم تسمى (معين)، وهو اسم يتكرر في بضع

مئات من النقوش، التي اكتشفت هناك. وتكشف النقوش عن نقطة، تستحق الذكر. فمن المعروف أن أبا التاريخ، هيرودوت، قال: إن لدى العرب آلهتين رئيسيتين (أورروتل **Orotel** وأليلات **Alilat**)، يماثلان باخوس وفينوس[179]. وقد اعتقدنا حتى الآن، أن هيرودوت تحدث عن وسط أوعن شمال جزيرة العرب. ولأن هذه الآلهة ليست لها آثار معروفة لدينا (فالنقوش النبطية تنحدر من الآرامية، وليس من العربية، مع أن الرومان يعتبرونها منحدرة من العربية)، فإن هذا الاعتقاد ظل سائداً، ولم يكن بمقدور أي شيءٍ أن يغير منه. ولكن الآن، ولأول مرة يتم العثور على اسم (أليلات) في النقوش، وعلى وجه التحديد في النقوش المعينية. وحتى الآن ساد الإعتقاد، بأن هيرودوت قد أخطأ السمع، وبدلاً من اسم (آلهات)، المتكرر وروده في النقوش السبئية، أورد اسم (أليلات). واسم آلهات لايعني أي شيء آخر سوى (إلهة أو إله)، بصيغة الجمع. ولكن الآن تبين بوضوح تام أن اسم أليلات، واستناداً إلى الحروف المكونة للإسم، إنما هو اسم آلهة بعينها. ولابد أن هذا الإسم كان ينطق أليلات أو ألالات. وقد اعتقد هاليفي أن اسم (أورروتات **Orotat**) هو نفسه (أوتوتات **Othotar**)، الذي تكرر وروده في النقوش، وهو مالايتعارض مع قاعدة تحريك الصوت. وفي الواقع أن الأمر الأقرب إلى الإحتمال، هو أن هيرودوت تحدث عن سكان اليمن ونجران، السبئيين والمعينيين، الذين كانوا، ليس فقط أكثر تمدناً من سكان وسط وشمال الجزيرة العربية، أنصاف البرابرة، الذين لم يتجاوزوا حياة البداوة وقطع الطرق، بل كانوا ذوي حضارة راقية، بالنسبة لزمانهم. ولا شك أن وجود إله للنبيذ، لدى عرب الجنوب، أو اعتقاد اليونانيين بوجوده، تعززه حقيقة أن اليمن كان، ومايزال حتى اليوم، مليئ بالأعناب. ولم أجد في أي مكان على الإطلاق، ألذ من ذلك النوع من العنب، الخالي من البذور، الذي تناولته في صنعاء. ويمكن أن تتضح لنا العلاقة بين فينوس ومثيلتها أليلات، بشكل أكثر سهولة، إذا ماوضعنا في إعتبارنا طبيعة الأشياء. فأين يوجد شعب لايمجد الحب والجمال والمتعة، وينشئ لها هياكل، يرى أنها ترعى تواصل وامتداد هذه المثل؟ لقد كانت رعاية الآلهة لتواصل وامتداد هذه المثل، عنصراً من العناصر المكونة للرؤية الدينية وللخير العام. أين يوجد شعب ليست لديه إلهة، تماثل الإلهة فينوس؟

(**179**) باخوس هو إله الخمر لدى اليونانيين القدماء. وفينوس هي آلهة الجمال لدى الرومان، وتماثل أفروديت لدى اليونانيين القدماء.

ولنتحدث عن رحلة هاليفي، من الناحية الجغرافية والإثنولوجية، وهما من العلوم، التي يهتم بها القراء. ومن هذه الناحية تعتبر الرحلة حدثاً تاريخياً، يحتل أعلى درجة من الأهمية. ولا أعرف أحداً، من الرحالة الحديثين، الذين زاروا الجزيرة العربية، يمكن وضعه في درجة أعلى من هاليفي. لقد سبق هاليفي إلى اليمن عدد من الرحالة، مثل ريده وارنود وبوتا ومليس، إلا أنه قد فاق سابقيه، من حيث اتساع الرقعة، التي اكتشفها، ووصوله إلى مناطق لم تكن معروفة للأوربيين من قبل. ولابد أن نشعر بالإندهاش تجاه هذا القدر من المعرفة، التي فُتحت أمامنا، في ضربة واحدة. الإندهاش تجاه الرغبة الجامحة، غير العادية، في الإكتشاف، لدى هذا الرحّال، وأمام الذكاء والحيلة، اللذين مكناه من أن يغير ملابسه ويخفي شخصيته ويتنقل في مناطق لم تطأها مطلقاً قدم أوربي من قبل. بل إن وجود أوربي فيها يعني مغامرة مميتة[180].

بدأت رحلة هاليفي الفعلية من حيث انتهت رحلة نيبور، أي من شرق صنعاء. لقد أسرع في رحلته، عبر المنطقة الغربية من اليمن، ولم يطل بقاءه سوى في جبل حراز ومنطقة الحيمة. وعرض الطبيعة الجبلية البديعة لما سماها "سويسرا العرب". وكان هدفه من التوقف فيهما العثور على نقوش يمنية، ولكن دون جدوى، حيث واجه العديد من المصاعب. وكان يدير منطقة حراز داعي من نجران. وقال عنها هاليفي، إنها "المنطقة الوحيدة في غرب اليمن، التي تتوفر فيها إدارة جيدة". ولم يكن التنقل في تلك المنطقة سهلاً، بالنسبة لهاليفي، فقد كان عليه أن يسير ساعات طويلة، في طرق شديدة الإنحدار، ليصل إلى خرائب وبقايا قصور وقلاع، في أماكن لم تعد مطروقة، على أمل العثور على النقوش. وكانت نتيجة الجهد، الذي بذله، أن هاجمه المرض، ليبقى طريح الفراش في صنعاء، مدة شهرين. وما أن تماثل للشفاء، حتى انطلق يتجول في المناطق المحيطة بصنعاء. ولم تكن حصيلة تجواله مجزية. إذ لم يعثر في تلك المناطق إلا على قدر ضئيل من النقوش. وهذا يعني أن حظه حول صنعاء لم يكن أفضل كثيراً من حظه في منطقتي حراز والحيمة. ومن الغريب أن غرب اليمن بالكامل لم يكن له دور يذكر في التاريخ القديم. على خلاف المنطقة الشرقية. إذ كانت المنطقة الشرقية، لاهذه المنطقة الواقعة على البحر الأحمر، هي مهد الحضارة السبئية. وحتى صنعاء نفسها، لم يصلنا من التاريخ القديم أي ذكر لها. ولا ندري إن كان لها وجود في ذلك التاريخ، وتحت أي

(180) بعد هذا يسترسل مالتسان في عملية مقارنة بين إنجاز هاليفي وإنجازات بعض الرحالة، الذين سبقوه إلى اليمن، مؤكداً بأنه حاز على قصب السبق، بل وزار مناطق لم يزرها أحد من قبله، وجمع نقوشاً، شكلت المجموعة الأولى من النقوش اليمنية.

إسم؟ فهذه ليست مدينة أزال، المذكورة في التوراة، كما يعتقد يهود اليمن. وقد أوضح هاليفي هذا الأمر بجلاء.

ومن صنعاء بدأ هاليفي رحلته الحقيقية. وكان من الأسهل له أن يتجه أولاً إلى مأرب، مع إحدى قوافل الملح[181]، العائدة إلى هناك. ولاسيما أنه كان ينوي أن يعيد نسخ النقوش، التي سبق لأرنود أن نسخها في مأرب، بصورة غير دقيقة. ولكنه فضل أن يؤجل زيارة مأرب، حتى النهاية، وأن يبدأ بزيارة منطقة جديدة، هي منطقة الجوف الأعلى. وهي منطقة لا يظهر في خرائطنا سوى جزء منها، وبشكل غير دقيق، أما الجزء الآخر فليس له وجود. ومن الغريب أنها تكاد تكون مجهولة في صنعاء، كما هي في أوربا. ولها صورة غريبة، في أذهان الناس في صنعاء. فهي منطقة متوحشة، لايمكن أن يعود منها أي رحّال حياً، وسكانها برابرة. ولكن هاليفي وجدها على العكس من ذلك، فسكانها مهذبون، وعلى درجة من اللطف والتسامح، أعلى مما هو الحال لدى سكان اليمن الآخرين.

نُصح هاليفي كثيراً بعدم المغامرة، بالسفر إلى الجوف. ولكنه ظل مصمماً على المضي في ماعزم عليه. وكان لابد من أن يجد لسفره ذريعة يتستر بها، ومبرراً يظهره أمام الناس. فالمغامرة بالسفر إلى تلك المنطقة، لمجرد نسخ النقوش القديمة، مسألة لايمكن أن يصدقها أحد. وباعتباره يهودياً فقد تمكن سريعاً من نسج علاقة مع يهود صنعاء، كانت أكبر معين له في رحلته. فقد أظهر لهم أنه من القدس، وأنه واحد من أولئك الأحبار، الذين يجوبون الشرق لجمع تبرعات لمدينة القدس ودراسة أحوال التجمعات اليهودية. وكانت هذه هي الحجة، التي موّه بها مهمته الحقيقية، وسافر تحت غطائها إلى الجوف. وارتدى ملابس يهود اليمن، وحمل معه رسائل من كبير أحبار اليهود في صنعاء، إلى اليهود، على امتداد طريق سفره. ولم يكن المسلمون يرون غرابة في أن يقوم يهودي بزيارة أبناء دينه. فضمن، بسفره كأحد يهود اليمن وارتدائه ملابس محلية، ضمن سفره بسلام. إذ أن أحداً من المسلمين لايمكن أن يعتدي على يهودي. ورغم ضمان المسلمين لسلامة اليهودي، فقد

---

(181) من المعروف أن الملح الصخري، أو (الملح المأربي) كما يسمى، كان إلى وقت قريب يحمل على ظهور الجمال ويسوّق إلى مختلف المناطق اليمنية.

كان يُنظر إلى اليهود نظرة دونية[182]. فإذا ماصادف يهوديٌ راكب حماره مسلماً في الطريق، فإن على اليهودي أن يترجل عن حماره. ولايجوز لليهود أن يركبوا خيولاً. ولاحظ هاليفي أنه كلما ابتعد نحو الشرق، كلما أصبحت معاملة المسلمين لليهود أكثر لطفاً وتسامحاً.

بدأ هاليفي رحلته من صنعاء في ٢٠ فبراير ١٨٧٠م. واصطحب معه يهودياً من منطقة نهم، كمرشد له، مقابل أجر معين. وفي طريق سفره صادف كثيراً من المارة، مما اضطره إلى الترجل عن حماره مراراً. فوجد من الأفضل له أن يواصل السفر سيراً على الأقدام، رغم صعوبة ذلك في بادئ الأمر. وخلال ثلاثة أيام استطاع أن يمر بالروضة و **Zubairat** والرحبة، ووصل إلى **Schiraa**، في منطقة أرحب. وقد وضع نيبور **Schiraa** على خارطته في الطرف الشرقي، واعتبرها، مخطئاً، جزءاً من نهم، في حين أن منطقة نهم أبعد منها.

وفي **Schiraa** واجه هاليفي مشكلة مع شيخ المنطقة، الذي تشكك في نواياه واعتقد بأنه المسيح. ولأن المسلمين يخافون من المسيح، فقد قام الشيخ باعتقال هاليفي لمدة ثمانية أيام، حتى جاء يهودي من صنعاء وأكد له بأنه ليس النبي المزيف[183]، فأطلق الشيخ سراحه. وأدت عملية اعتقاله إلى لفت الإنتباه إليه وتكالب الناس عليه، بدافع الفضول، مما سبب له كثيراً من الضيق. وقرب **Schiraa**، عند هضبة خصبة جميلة، وجد ينابيع نهر يجري نحو الشرق. ومن بين تلك الينابيع كان هناك نبعان مياههما ساخنة.

إتجه هاليفي من **Schiraa** نحو الشمال، إلى **Medid**، الواقعة في منطقة نهم، ومنها اتجه إلى الجوف. وتفصل منطقة نهم عن الجوف منطقة جبلية جرداء، يكثر فيها اللصوص. ولذا وجد صعوبة في اصطحاب دليل معه. وبسبب قرب عيد الفصح، لم يوافق أحد من اليهود على السفر معه، مما اضطره إلى استئجار شخص سيئ السمعه. ولكن شخصية هالفي المنتحلة، كعالم من القدس، أجبرت ذلك الشخص، نصف المتوحش، على احترامها.

---

(182) يعامل اليهودي كذمي. أي أن سلامة حياته وماله وعرضه مكفولة بذمة الله ورسوله والمسلمين. لذا فكل مسلم ملزم دينيـاً بالوفاء بموجبات هذه الذمة. وهذا الأمر لم يكن يناقض في نظر المسلمين اليمنيين، نظرة الدونية، التي كانوا ينظرون بها إلى اليهـود، والتي تكونت بفعل عوامل اجتماعية وأحداث تاريخية معروفة.

(183) المسلمون يقدسون المسيح، كنبي من أنبياء الله، ولايخافونه، كما توهم مالتسان. ولعل مالتسان يشير هنا إلى المسيح الدجال، لا إلى عيسى بن مريم عليه السلام. ويؤكد هذا شهادة اليهودي القادم من صنعاء.

سار هاليفي ودليله اليمني من **Medid** باتجاه الجوف، مدة ثلاث ساعات، حتى وصلا إلى قرية، مكونة من خيام سوداء، وخلفاها، ليصلا بعد ساعات قليلة إلى أكواخ رعاة، وأرادا أن يبيتا فيها، حيث كان دليل هاليفي يعرف صاحب تلك الأكواخ. ولكن الرجل رفض السماح لهما بالمبيت. فقد كانت بعض أبقاره في حالة حمل، وخشي أن يصيبها هاليفي بالعين، فتسقط أجنتها. فكان عليهما أن يعودا إلى أقرب قرية مرا بها. ولكن سكان القرية رفضوا السماح لهما بدخولها. فاضطرا أن يبيتا على قارعة الطريق. وشاهد هاليفي على تلك الطريق آثار أبنية مبعثرة، تعود إلى العصر السبئي، ويطلق عليها أهالي تلك المنطقة اسم (العاديات **Adiyat**)، نسبة إلى قوم عاد. ولكنها في الحقيقة ترجع إلى العصر السبئي. فأهالي المنطقة ينسبون كل الآثار الموجودة في منطقتهم إلى قوم عاد. وتدل آثار تلك المباني، الباقية من التاريخ القديم، على مستوى راقي من البناء، على خلاف المستوى البائس، الذي ساد في المنطقة في التاريخ الوسيط.

ويفسر هاليفي ارجاع اليمنيين آثارهم القديمة إلى قوم عاد، بأن اليمنيين يعتقدون بأنهم ينتمون إلى اسماعيل بن إبراهيم، ولاينظرون باحترام إلى سكان اليمن القديم. بل إن لفظ (حميري) يعتبر شتيمة، تماماً كلفظ (يهودي). وكثيراً ماتستخدم عبارة (يهودي حميري) كشتيمة. ولعل هناك سبباً تاريخياً يكمن وراء هذا. فقد تهود أحد ملوك حمير ودفع شعبه بالقوة إلى اعتناق اليهودية. إن هذا التفسير، الذي أورده هاليفي، ينطبق، كما أعتقد، على السكان البدائيين، غير المتعلمين. ففي جنوب اليمن، وفي أوساط المتعلمين، يتحدث الناس، عن معرفة وباحترام شديد، عن الحميريين القدماء، ويعتزون بهم، كأسلاف لهم . ويمكنني أن أؤكد هذا من خلال تجربتي الشخصية[184]

وقرب قرية الخيام السود كانت تقع خربة **Beran**، وهي حصن سبئي قديم. وتمتد الطريق من هناك عبر الجزء الشرقي من يام، الذي يفصل الجوف عن غرب اليمن. وفي وسط شعب

---

(184) هذا التناقض، بين تفسير هاليفي، وبين ماذهب إليه مالتسان، قد يمكن ارجاعه إلى سماع هاليفي شتيمة، أستخدمت فيها عبارة (يهودي حميري) فظن أن اليمنيين يحتقرون أسلافهم الحميريين، كما يحتقرون اليهود. في حين أن استخدام كلمة (حميري) هنا يمكن فهمها على أنها وصف لليهودي، أي يهودي من يهود العصر الحميري، الذي اضطهد فيه اليهود غيرهم، ولاسيما من أتباع الديانة المسيحية، ولا تؤخذ بالضرورة بمأخذ الإحتقار للحميريين. ولا أظن أن هناك تفسيراً آخر. إلا أن يكون هاليفي قد سمع لفظاً آخر قريباً من لفظ حميري، كحمار أو حمير. وبسبب مشكلة اللغة لديه، فهم المعنى فهماً خاطئاً، وظن أن اليمنيين يحتقرون أسلافهم، ويستخدمون كلمة (حميري) كشتيمة. وهذا ظن خاطئ. فاليمنيون لم يكفوا عن التفاخر بأسلافهم وحضاراتهم القديمة، شعراً ونثراً، ولاسيما في مواقف المفاخرة والمنافسة، التي سادت المجتمع الإسلامي، بين عرب الجنوب وعرب الشمال.

صخري ضيق، ينحدر نحو أرض منخفضة، عثر هاليفي على نقوش حميرية. وفي ذلك الشعب شاهد دليل هاليفي فرساناً مسلحون ببنادق ذات فتيل، يمتطون خيولاً جميلة. وعرفهم المرافق من شكل ملابسهم، إذ كانوا من أشراف الجوف الأعلى، المعادين لقبيلته. فأسرع يعدو نحو هاليفي، وقد امتقع لونه. وأمام ذعر المرافق، وللخلاص من خطر القادمين، لجأ هاليفي إلى الشعوذة، فأخرج من صديريته ورقة، من الأوراق المخصصة لنسخ النقوش، كان مكتوباً عليها بعض الحروف، وسلمها للمرافق، باعتبارها تميمة، وطلب منه أن يمسك بها في يده ويسرع في الإختفاء وراء الصخور، ثم أسرع هاليفي نفسه واختفى أيضاً عن أعين القادمين. وانتهى الأمر بسلام. واعتقد الدليل أن إنقاذه من الخطر كان بسبب التميمة، لا لأنه قد توارى عن أعين الفرسان خلف الصخور. مما عزز في نفسه الشعور بالهيبة تجاه هاليفي وزاد من احترامه له[185].

ويختلف أشراف الجوف عن الأشراف في جنوب اليمن. ففي جنوب اليمن يتمتع الأشراف بمكانة دينية عالية. ولكنهم يعيشون حياة عادية. كما أنهم بعيدون عن السلطة، وليسوا محاربين. أما أشراف الجوف فعلى عكس ذلك. فهم، إضافة إلى مكانتهم الدينية، محاربون. وليس في اليمن خيول. ولكن شخصاً من قبيلة (ذو حسين) أكد[186] بأن قبيلته، التي تسكن الجوف، تملك حوالي ثلاثة آلاف خيل. وهذا يعني أن الجوف تشكل حالة استثنائية، بالنسبة لليمن[187]. وهناك فئة في اليمن يطلق عليها اسم قروي **Karawi / Garawi**، ويعني فئة من السكان، تسكن الحواضر، ويحسن أفرادها القراءة والكتابة. ويوجد أمثال هؤلاء أيضاً في مناطق أخرى من اليمن، كحضرموت ويافع. ومن الغريب أن يحصل هؤلاء على قدر من التعليم، رغم مكانتهم الإجتماعية المتدنية، في حين أن أفراد القبائل، وهم القوة الإجتماعية المهيمنة، لايعرفون الكتابة. إلا أن هذا الوضع متناسب مع المجتمع الإقطاعي. وكان هذا هو الحال في أوربا في القرون الوسطى. حيث لم

---

(185) من يقرأ كتب الرحّالة الغربيين، لابد أن يلمس لدى بعضهم ميلاً، يكاد يكون غريزياً ، إلى تسجيل حكايات غريبة، وتصوير سكان البلدان، التي يزورونها، تصويراً يبدون فيه على درجة من الجهل والسذاجة ، أمام حكمة وذكاء وعلم الرحّالة. وهو تصوير يبدو مرغوباً، لتوفير عنصر التشويق وخلق جو يسمح بتصديق القارئ الغربي لكل مايمكن أن يبتدعه خيال الرحّال، من غرائب وعجائب.

(186) أي أكد لمالتسان.

(187) أشار نيبور إلى أن اليمنيين يربون، في الجوف ونجران وذمار، خيولاً ممتازة ومشهورة. كما أن بعض الأغاني الشعبية، التي نعرفها، تردد ذكر الخيول العولقية، وتشبه قوام المرأة الممشوق بالفرس العولقي. وهذا كله يضعف ماذهب إليه مالتسان.

يكن التعليم من الصفات، التي يفاخر بها أبناء الطبقات الإقطاعية المسيطرة. وكان المتعلمون يعيشون في أسفل السلم الإجتماعي. ويعمل هؤلاء في اليمن في خدمة الشيخ. فيقومون بأعمال مختلفة، ماعدا القتال. ويرث الأبن منهم عمل أبيه. وتنظر القبائل المسيطرة في المنطقة إلى هؤلاء، كجزء من أملاكها[188]. كما أن القبائل تنظر، كمايبدو، إلى مايحمله المسافرون، كجزء من أملاكها. فعندما تهاجم وتنهب قافلة من القوافل، لاتنظر إلى هذا العمل باعتباره نوعاً من اللصوصية، بل كما لو أنها تمارس حقاً من حقوقها الطبيعية. وقد نُهب هاليفي اثنى عشرة مرة، خلال رحلته. ولكنه لم يكن يحمل معه أثناء تنقله شيئاً ذا قيمة. فالأوراق، التي نسخ بها النقوش، كان يدعها في نفس منطقة النقوش، عند حبر تلك المنطقة. وهكذا توزع ما نسخه على عشرين حبراً، من أحبار اليهود، في عشرين منطقة. وقام هؤلاء فيما بعد، بإرسال تلك النسخ إلى صنعاء. ولم يكن هاليفي يحمل معه نقوداً، عند انتقاله من منطقة إلى أخرى. بل كان يحمل حوالة مالية، من يهود المنطقة، التي هو فيها، إلى يهود المنطقة التالية. وهي طريقة يتعامل بها اليهود أثناء السفر ، لتجنب أعمال النهب. وعلى أي حال لم يكن يحتاج إلى النقود، إلا لتسديد أجرة دليله. فقد كان يحل عادة ضيفاً على اليهود، وأحياناً ضيفاً على البدو.

عبر هاليفي ممراً ضيقاً في جبل يام **Jam** واستطاع أن يصل، بعد سفر يومين عبر **Megzar**، إلى الغيل **Ghail**، وهوالمنطقة الرئيسية في الجوف الأسفل. والجوف ليس هو المنطقة المحيطة بمأرب، كما تصوره خرائطنا، وإنما هو المنطقة الممتدة شمال مأرب. ويميز المرء بين ثلاث مناطق في الجوف: الجوف الأسفل والجوف الأوسط، أو بلاد همدان، وأهم مدنه الحزم، والجوف الأعلى، وأهم منطقة فيه **Lahir**. والجوفان الأسفل والأوسط خصبان. وقد لعبا دوراً هاماً، في التاريخ القديم، فأرضهما مغطاة بآثار مهيبة: معابد من المرمر وحصون وقصور. واكتشف هاليفي عشر مدن قديمة، منها ثلاث عواصم، كانت أجزاء منها لاتزال سليمة. كانت هذه هي أرض المعينيين، وكانت عاصمتهم الأولى، مدينة معين، كنزاً للآثار القديمة والنقوش. وتقع معين على بعد ساعتين، نحو الشرق من الحزم. أما الجوف الأعلى فهو قفر عديم الخصوبة، مغطى بالأحجار. ولايبدو لتسمية هذا الجزء بالجوف الأعلى مايبررها، فهو يقع في أسفل وادي الخارد.

---

(188) يبدو أن مالتسان يخلط هنا بين القراو، وهم فئة دنيا في المجتمع وأفرادها غير متعلمين، وبين سكان المدن (الهجر)، من السادة والأشراف، الذين يتمتعون بمكانة محترمة، لدى القبائل.

وعثر هاليفي على آثار مدينة، قريبة من **Megzar**، تتكون من منازل صغيرة، لايزيد ارتفاعها عن قامة رجل، مبنية من شظايا أحجار سوداء. وقد استغرب هاليفي لحجم تلك البيوت، التي لايمكن أن تكون قد بنيت لسكن الإنسان. ولم يفده سؤاله الدليل. فجواب دليله لم يتضمن سوى ترديد ماهو شائع عن تلك المباني. فقد بناها الكفار، ولايعلم إلا الله لماذا بنوها. وأولئك الكفار هم عاد وبنو هلال. وفي محاولة للتعرف على حقيقة تلك المباني أخذ هاليفي يطوف فيها ويفحص محتوياها. وعثر في كل منها على هيكل، أو عدة هياكل عظمية، استدل منها على أن تلك المباني هي قبور سبئية.

في **Megzar** كانت أخبار المسيح الدجال، أي هاليفي، قد سبقته إليها. ومع ذلك لم يتعرض له أحد بأذى، بعد أن عرف الأهالي أنه قادم من القدس، كما أشاع عن نفسه. إذ أن للقدس احتراماً كبيراً لدى جميع المسلمين. وفي منطقة الغيل وجد هاليفي عدداً كبيراً من السكان اليهود، استضافوه وأكرموه، رغم فقرهم. وحاولوا أن يقنعوه بالبقاء لديهم، أثناء عيد الفصح. لكنه كان قد سمع عن وجود آثار لمدينة كبيرة، اسمها (**Medinet Haram**)، تقع بين الحزم والغيل، فصمم على التوجه إليها. وهناك عثر على العديد من المعابد، معظمها مهدم. إلا أنه وجد في داخلها نقوشاً سليمة.

وفي مدينة الحزم، المدينة الرئيسية في الجوف الأوسط، أو بلاد همدان، قابل هاليفي صائغاً يهودياً، استضافه وساعده على متابعة أبحاثه في تلك المنطقة الغنية بآثارها، منطقة المعينيين. ونجح هاليفي في اكتشاف أهم ثلاث مدن معينية: الأولى مدينة معين، التي قرأ في نقوشها اسمي المدينتين الأخريين، ولم يهدأ حتى عثر على إحداهما. ولكنه لم يعثر على المدينة الثالثة، واسمها بحسب النقوش **Itul** أو **Yatul**، إلا في توقفه للمرة الثانية، في نوفمبر من العام نفسه. وتقع معظم المدن المعينية بين وادي الخارد والجبال المحادة للجوف من الشمال، والممتدة من الشرق إلى الغرب. وكانت الأراضي البعيدة عن مجرى وادي الخارد تتصل بالوادي بواسطة نظام بديع من القنوات، المبنية بالحجارة، التي تمد تلك الأراضي الخصبة بالمياه. وماتزال تلك الأراضي، حتى اليوم، تزرع ثلاث مرات في العام، في حالة هطول أمطار غزيرة.

وللتوجه إلى نجران كانت هناك طريقان: الأولى عبر الجوف الأعلى، وتقود نحو الغرب. والأخرى عبر الجبال، وتتجه نحو الشرق. والطريق الأولى أسهل من الطريق الثانية. إلا أن هاليفي

سلك الطريق الثانية، رغم صعوبتها، تاركاً الطريق الأولى للعودة. وتعمد هاليفي ذلك، ليسير على نفس المسار، الذي سلكه الجيش الروماني، بقيادة اليوس جاليوس، من نجران إلى مأرب. فمن المعروف أن الجيش الروماني قد سلك، عند قدومه، طريقاً ملتوية، قادته إلى أراض صحراوية جدباء، مما جعله يستغرق وقتاً طويلاً في زحفه، نحو العاصمة السبئية(189)، فأنهكت قواه، واضطر إلى أن يعود أدراجه، ولكن عبر طريق أقصر من الطريق، التي سلكها عند قدومه.

صعد هاليفي منطقة الجبال، بعد رحلة يوم واحد. وكانت رحلته سهلة في اليوم الأول. أما في اليوم الثاني، فكان عليه أن يحيد عن الطريق، تجنباً لوقوعه في يد رجال (ذو حسين)، الذين يسكنون في أقصى شمال الجوف. وكانوا عائدين من (رزية (190) Razzia. وهكذا اضطر أن يسير في مسالك صخرية مجدبة. وكان هاليفي قد عاش مثل هذه الرزية، عندما كان في الحزم. حيث هوجمت المدينة وتوجب عليه، هو ومضيفه، أن يدفعا نقوداً للمهاجمين. وفي اليوم الثالث وصل هاليفي إلى أرض من أراضي السهل المرتفع الخصب الجميل، حيث تقع خب. وبذا خلف وراءه منطقة الجبال ووصل إلى الأرض السهلية المرتفعة، التي تبعد مسافة أربعة أيام إلى الجنوب من نجران. وواحة خب منطقة جميلة وخصبة، رغم عدم توفر المياه الجارية. إلا أن فلاحيها النشطون يقومون بري أراضيهم بمياه الآبار الكثيرة. وتوجد في هذه المنطقة قرى عديدة، منها قرية يسكنها اليهود. ويعامل اليهود هنا أفضل مما يعاملون في منطقة الجوف. وهم حرفيون، يتمتعون بمستوى من الغنى. ولم يتعرض أحد لهاليفي. كما أن الأهالي لم يكونوا قد سمعوا بقصة المسيح الدجال. واستطاع هاليفي أن يزور القرى، ولكنه لم يعثر على آثار أو نقوش قديمة. مما جعله يعتقد بأن منطقة خب لم تصبح مأهولة بالسكان إلا في تاريخ متأخر.

ومن خب اصطحب هاليفي معه أحد القرويين دليلاً له. ولكن ذلك الدليل تخلى عنه فجأة، بعد اليوم الأول من رحيله، وتركه يهيم على وجهه، في أرض قفر، يكابد الجوع والعطش. ولم يجد أمامه في هذا الوضع طريقة إلا أن يقصد مضارب بعض البدو. وكانت تلك المضارب تتكون من حوالي خمسين خيمة سوداء، يسكنها بدو، يشتغل جميعهم بالرعي، وليس لديهم غذاء، سوى حليب

---

(189) لم تصل الحملة الرومانية، التي غزت اليمن عام ٢٤ قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، بقيادة حاكم مصر اليوس جاليوس، إلى مأرب. فقد أنهكها طول المسير وفتكت الأمراض بجنودها، فعادت من حيث أتت.

(190) الرزية لغوياً هي المصيبة الكبيرة، وتعني هنا غزو قبيلة لقبيلة أخرى ونهبها.

النوق. وبدوا كما لو أنهم لايعرفون الخبز، إلا سماعاً. لقد كانوا جهلة، لكنهم غير متعصبين. ولم يبدوا اكتراثاً بالفروق الدينية.

وفي مضارب البدو تلك تعرف هاليفي على رجل من نجران، أوحى مظهره المهيب وسلوكه، الذي يشبه سلوك الأوربيين[191]، أوحى لهاليفي بالثقة به. فاتفق معه على أن يسافرا معاً. ومن سوء الحظ أن طباع ذلك الإنسان لم تكن منسجمة مع مظهره. لقد كان لصاً قاسياً ورهيباً. سلب هاليفي، الذي يفترض أن يتولى حمايته، سلبه كل مامعه، من نقود وملابس. ولم يبق له سوى قطعة قماش يأتزر بها. وقتر عليه بالطعام، إلى أقصى حد. وأخذ يهدده في كل لحظة بالقتل. ولم تتوقف معاناة هاليفي عند هذا الحد، فقد انضم، مع مرافقه، إلى قافلة كانت قادمة من حضرموت. وعامل رجال القافلة هاليفي، طوال الرحلة، معاملة قاسية. فالحضارم، الذين لايطيقون اليهود في بلادهم، لايوفرون أي نوع من الشتائم والمعاملة القاسية، لأي يهودي قد يصادفونه في اليمن. وهكذا وجد هاليفي نفسه في هذا الوضع، أما مرافقه، الذي كان ينتظر منه أن يحميه من هؤلاء، فقد وجد متعة في ذلك التعذيب، وعمل على الإستزادة منه. ولم ينفصل هاليفي ومرافقه عن القافلة، إلا قبل الوصول إلى نجران بيوم واحد. حيث اتجهت القافلة عبر وادي **Habauna** نحو الشمال، إلى وادي الدواسر.

وأخيراً وصل هاليفي ومرافقه إلى وادي **Hadhra** الجميل، الذي يشكل مدخلاً إلى بلاد نجران، التي هي هدف رحلته نحو الشمال، والتي لم تطأها قدم أوربي قبله. وتمكن من التملص من مرافقه والإلتجاء إلى بيت أحد اليهود، في قرية تسمى **Machlaf**، تقع وسط غابة من النخيل، كما هو حال جميع مدن وقرى نجران. وكان اليهودي المضيف يعمل مع أخيه في الخياطة. فقام باستضافته، ثم نصحه بأن يسلك الجانب الآخر من الوادي، إلى مدينة **Rigla**، حيث يوجد فيها تجمع سكاني يهودي كبير. ففعل بنصيحته واستُقبل في **Rigla** استقبالاً طيباً، ومكث فيها يومين، واحتفل مع سكانها اليهود بعيد الفصح.

أمكن لهاليفي أن يتجول في وادي نجران ويجمع معلومات عن المنطقة وآثارها. وأدرك أن الرجل الذي رافقه كان يمثل حالة شاذة، بالنسبة لسكان نجران. فقد أعطته صفته المزعومة، كحبر

---

(191) المثل الأعلى للسلوك لدى مالتسان هو سلوك الأوربيين. وقد تكررت هذه الملاحظة، أو المقارنة، في أكثر من موضع في كتابات مالتسان.

من أحبار القدس، مكانة محترمة، في نظر السكان. وأخذ علماء المسلمين وزعماؤهم يستضيفونه، ولاسيما قاضي المدينة المجاورة، التي تسمى **Giriat el Gabil**. وهو عالم كبير، ويعمل في الوقت نفسه سكرتيراً للمكرمي، حاكم المنطقة. فقد اهتم بهاليفي وقدم له معلومات قيمة، عن المنطقة وعن سكانها. وبقي هاليفي في وادي نجران عدة أشهر. وكان أول أوربي يصل إلى تلك المنطقة. وقد اكتشف آثار المدينة، المعروفة الآن بمدينة الأخدود. وبذل جهداً للعثور على آثار مسيحية أو يهودية، من العصر الحميري. لكنه لم يعثر على شيء. وكل الآثار، التي وجدها تعود إلى العصور الوثنية، وهي قليلة، ولاتقارن بتلك الآثار المنتشرة في منطقة الجوف.

وفي فصل الصيف الحار غادر هاليفي منطقة نجران واتجه نحو الجنوب الغربي، ليصل بعد سفر ثمانية أيام إلى الزاهر، عاصمة الجوف الأعلى، ووجد آثار الجوف الأعلى منتشرة، ولاسيما على مجرى نهر الخارد. إلا أن القليل من تلك الآثار كان مايزال سليماً. أما معظمها فقد وجده مدمراً. ولم يعثر سوى على قليل من النقوش. ولخطورة الوضع لم يستطع أن يقوم برحلات جانبية في الجوف الأعلى. حيث كان الحر في شهر أغسطس شديداً والمجاعة سائدة، وقد هلكت المجاعة كثيراً من المواشي، وأخذ البدو يجوبون المنطقة، بحثاً عما يقتاتون به. وإذا ماصادفوا مسافراً، قاموا بنهبه، ولو من أجل مايحمله من طعام.

غادر هاليفي الجوف الأعلى، عبر وادي الخارد، باتجاه الجوف الأسفل، الذي لم يكن يعاني من الجفاف، مثلما كان يعانيه الجوف الأعلى. وعندما وصل من جديد إلى الغيل، حدثه أحد اليهود عن مدينة قديمة، اسمها (براقش)، تقع في الجوف الأوسط، وكانت ماتزال مسكونة، قبل مئة عام. وقد اطلع هاليفي على خط عبري، يؤكد بأن بعض اليهود كانوا مايزالون يسكنون تلك المدينة، إلى ما قبل ثلاثة أجيال. واصطحبه مضيفه اليهودي إلى موقع المدينة، حيث وجد فيها أكبر مجموعة رآها من الآثار. كانت جدران بكاملها مغطاة بالنقوش.

وأثار توقفه من جديد في الجوف الأوسط، لمعاينة آثار مدينة براقش، أثار شكوك الأهالي، الذين لم يكونوا قد نسوا حكاية المسيح الدجال، فقرر مواصلة السفر سريعاً إلى مأرب. ولأن حركة القوافل، بين الجوف الأوسط والجوف الأسفل غير نشطة، فقد كان سعيداً بأن يجد رجلاً، يوافق على أن يرافقه إلى مسافة يوم واحد من مأرب. إذ أنه لم يكن يستطيع الإقتراب من مأرب، بسبب ثارات بين قبيلته وقبيلة عبيدة. وفي اليوم الأول وصل هاليفي ومرافقه إلى مدينة

Raghwan، وهي مدينة جديدة. ولم يستطع دخولها، لأن مرافقه خشي على نفسه من سكانها. بسبب عداء قائم بينهم وبين قبيلته. وفي اليوم التالي اكتشف هاليفي خرائب مدينة **Charibet Sud**. ولم يستطع أن ينقل كل النقوش، التي وجدها في خرائب تلك المدينة. فقد انفجر مرافقه بسيل من الشتائم، ومنعه من الإستمرار في نسخها. وأخيراً وصل مع مرافقه إلى **Fatiya**، قرية بني شداد، التي ينتمي إليها مرافقه. وعلى بعد سفر يوم واحد نحو الجنوب من القرية، تقع المالح الصخرية المشهورة، التي تعود إلى قبيلة عبيدة. وتسود علاقة عداء، بين قبيلة عبيدة وقبيلة بني شداد. كما أن عبيدة كانت تخوض صراعاً مع شيخ مأرب، الذي أراد أن يحصل على حصة من مردودات المالح. وذلك بفرض ضرائب باهضة على القوافل المحملة بالملح. وبقي هاليفي بضعة أيام في قرية **Fatiya**، حيث تسابق الرجال والنساء إلى إكرامه. ويسجل هاليفي عرفانه تجاه ذلك الكرم، بقوله: "كانوا يمارسون كرمهم بقدر من اللطف والعناية، ترك في نفسي أثراً عميقاً، لاأملك معه إلا أن أعبر على الدوام عن امتناني وعرفاني". وهذه الصورة عن بني شداد تختلف عن الصورة، التي رسمها عنهم الرحّال ارنود. ورغم ما أبداه أهالي قرية **Fatiya**، من لطف وكرم، لم يقبل أحد منهم بمرافقته إلى مأرب، لما يمكن أن يتعرض له من مخاطر في الطريق، بسبب العداء المستحكم، بينهم وبين عبيدة. لذلك اضطر إلى السفر وحيداً إلى مأرب، بعد أن وصف له أهالي القرية الطريق، وأشاروا عليه بأن يسير باتجاه قلعة بعيدة، كانت ظاهرة في الأفق. وسار بحسب ارشاداتهم، حتى وصل إلى القلعة، حيث وجد فيها رجلاً شرساً، مكلفاً من شيخ مأرب بالتجسس على قبيلة عبيدة. وقام ذلك الرجل بنهبه، ثم أمره بأن يغادر القلعة، نحو بلاد عبيدة. ورغم شراسة الرجل، فقد كان رحيماً، إذ أرسل ابنه مع هاليفي، ليوصله خلال الليل، تحت جنح الظلام إلى **Hizma**، في منطقة عبيدة، التي وصلها دون أن يتعرض لأي أخطار. ومن **Hizma** لم يتبق، للوصول إلى مأرب، سوى ثلاث ساعات سفر. وفي صباح اليوم التالي انطلق هاليفي، وسار في وادي **Schibwak**، أو **Osana**، دون أن تعيره عبيدة أي اهتمام، حتى وصل إلى أبواب مأرب. ولمعرفته بطبيعة أهالي مأرب، المتشككة بكل غريب، بدأ، قبل دخوله المدينة، بزيارة مدينة **Medinet en Nehas**. ووجد آثارها غير مهمة. فما عدا النقوش، التي كان ارنود قد نسخها، وقام هو بنسخها مجدداً، لم يجد شيئاً جديداً. وبدلاً من أن يدخل مدينة مأرب عبر باب صنعاء، حيث يراقَب الغرباء، الذين يمرون عبره، دار حول المدينة ودخلها من الجهة الأخرى.

دخل هاليفي مدينة مأرب والحزن يخيم عليها. فقد هاجمتها قبيلة عبيدة، قبل بضعة أيام، وقامت بنهبها. وكانت الأسواق مقفرة. فبسبب ذلك الحادث لم يأت أحد من الباعة إلى أسواق المدينة. وجلس هاليفي أمام دار الشريف، على أمل أن يقوم هذا باستضافته، كما تقتضي العادات اليمنية. حيث لم يكن لديه مايقتات به، ولم يكن بإمكانه أن يجد شيئاً في السوق. ولم يمض على جلوسه وقت طويل، حتى مر به أحد المواطنين واصطحبه إلى داره، ليتناول معه الطعام. ولكنه لم يستطع أن يأويه لديه. لذا بات ليلته خارج سور المدينة، في مسجد سليمان. وفي صباح اليوم التالي كانت المدينة في هرج ومرج. فقد وصلت حشود، مصحوبة بدقات الطبول، مرسلة من قبل أشراف الجوف، الذين استنجد بهم شيخ مأرب، للوقوف معه في وجه قبيلة عبيدة. وكان لهذه الحالة الصاخبة إيجابياتها، بالنسبة لهاليفي. فقد تمكن، دون أن يكترث به أحد، من التجول في المدينة بحرية. إلا أنه سرعان ماظهرفي المدينة شخص يدعى موسيليل **Musellil**، حمل معه متاعب جديدة لهاليفي. وهو رجل يعمل لحساب تاجر هندي، يقيم في صنعاء ويتاجر بالقطع الأثرية والنقوش القديمة، مع الإنجليز في الجنوب. وعبر موسيليل هذا وصلت معظم القطع النحاسية، الموجودة الآن في المتحف البريطاني. رأى موسيليل أن وجود هاليفي في مأرب ونسخه للنقوش، يلحق ضرراً بتجارته. فقد كان استمرار وازدهار تجارته مرهون ببقاء الأوربيين بعيدين عن مأرب. وقبل أن يتمكن من الكيد لهاليفي، تحركت قافلة إلى صنعاء، كان عليه أن يرافقها. لذا كلف أحد أصدقائه بمراقبة هاليفي ورصد تحركاته. ورغم أن صديق موسيليل لم يؤذ هاليفي، فإن مراقبته الدائمة له حدت من حريته وحالت بينه وبين نسخ النقوش، الموجودة في سوق المدينة. ولما تبين لهاليفي أن بقاءه في مأرب، تحت المراقبة، لم يعد مجدياً، اتجه إلى منطقة السد، المعروف بسد العرم، الذي يبعد مسافة ساعتين، نحو الغرب. وكانت الطريق إلى السد تمر عبر مقبرة، تبدو أشكال كثير من القبور فيها مختلفة عما هي عليه القبور لدى العرب. كما كانت بعض الأحجار، التي تحمل نقوشاً سبئية، قد وضعت على قبور للمسلمين، على شكل شاهد. وفي وسط ركام من الحجارة، كانت تغطي أحد القبور، لاحظ هاليفي جسد تمثال من المرمر، نحت بطريقة فنية بديعة. لكنه كان أثقل من أن يستطيع حمله معه. وبات هاليفي ليلته قرب السد. وفي اليوم التالي توجه إلى خربة **Charibet Sirwah**، أو **Girwah**، الواقعة على بعد نصف يوم إلى الشمال الغربي من السد. إنها المدينة، التي سماها ارنود (خربة). وظن بعض الرحالة أن خربة هي اسم مدينة. في حين أنها

لاتعني أكثر من أطلال لمدن قديمة، أي أنها تطلق على خرائب المدن، كخربة سود وخربة معين وخربة البيضاء ...إلخ. وواجه هاليفي متاعب في طريقه إلى Girwah[192]. فقد سطى عليه شابان من حريب. ومع ذلك مضيا معه إلى Girwah، وولجا أحد بيوتها، وهو معهما، وتسولا طعاماً، وصنع هو صنعهما. وبعد ذلك حاولا اقناعه بمرافقتهما. إلا أنه امتنع عن ذلك، وتركهما يمضيان في طريقهما، وبقي في Girwah، حيث قصد إحدى الأسر، فاستقبلته استقبالاً فاتراً. ولكنها غيرت من موقفها تجاهه، عندما تصنع التقوى والورع. ولما كان ذلك اليوم هو يوم الجمعة، فقد رأى أن يستمر في تمثيل دوره كيهودي شديد التدين، ويمتنع في اليوم التالي، يوم السبت، عن القيام بأي عمل. وفي هذا البلد حيث الدين هو كل شيء، فإن الناس يحبون أن يروا إنساناً متمسكاً بتعاليم دينه، حتى ولو كان ديناً مخالفاً لدينهم، ولا يحبون أن يروه غير مكترث بتعاليم الدين. وهكذا كان هؤلاء اليمنيون، الذين قصدهم. فعندما سألهم هاليفي، فيما إذا كانوا سيسمحون له بأن يسبت في دارهم، تغيرت معاملتهم له، وأصبحوا أكثر لطفاً، وآووه وقدموا له الطعام.

ووجد هاليفي مدينة Girwah، مليئة بالآثار، تماماً مثلما أشار إلى ذلك ارنود، الذي سماها خربة. ومن بين تلك الآثار بقايا معبد كبير، مع صف من الأعمدة، لاتزال منتصبة. ويعرف ذلك المعبد لدى الشعب باسم عرش بلقيس. وعندما ذهب هاليفي لنسخ النقوش، وجد مجموعة من اليمنيين، يستخرجون الذهب، الموجود في رمال سائلة مجاورة، مما جعل نسخ النقوش، تحت أنظار هؤلاء، أمراً غير ممكن. إضافة إلى وجود قافلة متوقفة هناك، سرعان ماشك رجالها به، فاضطر إلى التملص منهم ولاذ بالفرار، أمام أسئلتهم واستجواباتهم. ولكنه لم يكد يصل إلى الدار، التي نزل فيها، حتى وجد فيها ما نغصه، من قبل سيد من مدينة شبوة، بحضرموت، كان عدواً لدوداً لليهود. وقد أكد لهاليفي بأن أي يهودي يظهر في مدينته شبوة، وفي حضرموت بشكل عام، فإنه يقتل على الفور. ومن العجيب أن هاليفي تمكن أن يحصل من هذا الرجل، الذي أظهر عداءه، ولم يتوقف عن استجوابه، على معلومات قيمة عن منطقته[193].

---

(192) ثبّت مالتسان هذه التسمية، وتخلى عن Sirwah.

(193) هذا التناقض الغريب في شخصية الرجل، كما صوره مالتسان، بين التعصب الشديد والسذاجة المفرطة، التي مكنت هاليفي، بذكائه وفطنته، من استخراج معلومات قيمة عن منطقة الرجل، ولم يمكنه ذكاؤه من تليين طبيعته والتخفيف من غلوائه وتعصبه، قد تنسب إلى خيال بعض الرحالة الغربيين، الذين يميلون إلى رسم مثل هذه الشخصيات والمواقف، التي تثير لدى القارئ الدهـــشة=

وفي هذا المحيط المعادي، فكر هاليفي بالرحيل، إلا أنه لم يرد أن يرحل، قبل أن يقوم بنسخ النقوش، التي سبق لأرنو أن نسخ جزءاً منها، وهي موجودة في منزل مأهول. توجه إلى ذلك المنزل، بعد أن أخفى مالديه من أوراق تحت شجرة، خارج المدينة، ولم يبق معه سوى قطعة من الورق وقلم رصاص. وماكاد يلقي نظرة على مدخل المنزل، حتى شد انتباهه نقش، فوق بوابته. وتحت نظرات الرجال والنساء، غير المريحة، بدأ بنسخ النقش، ولكنه أوقف من قبل رجال، كانوا قد سمعوا بأخباره، فأخذوا يصبون عليه سيلاً من السباب والشتائم، ويرددون ما أشاعه عنه، وعن الأوربيين، موسيليل والتاجر الهندي، وحالوا بينه وبين ما أراد، مهددينه باستخدام العنف معه. وانطلقت عشرات الحناجر تردد كلمة (ساحر)، وهي الكلمة، التي يترتب عليها الموت. وعلت أصوات النساء مولولات، تحت تأثير الخوف من سحره. وهجم عليه شخصان، أحدهما يحمل بندقية ذات فتيل، والآخر يحمل وتداً من أوتاد الخيام. وبدا هاليفي، كمن لاحيلة له، وبدت حياته في مهب الريح، وكاد أن يقضى عليه، لولم يبق حاضر الذهن، في هذا الموقف العصيب. وهدته حيلته إلى أن يلجأ إلى الخرافة، وهي القوة المعنوية الوحيدة، في موطن هؤلاء المتعصبين. فأعلن للمهاجمَين أن قتل رجل من القدس، المدينة المقدسة، سوف تتبعه لامحالة كوارث، تحل بهما وبأسرتيهما. وفعلت كلماته فعل السحر، وتوقف الجميع، وبدأوا يتبادلون الرأي، في مايجب عليهم عمله. وهنا تأتي اللحظة، التي لانملك أمامها إلا أن نعجب بهاليفي، الرجل الثابت الجنان، الهادئ الأعصاب. فماذا عمل هذا الرجل، الذي واجه الموت لتوه، بطريقة أشبه ماتكون في مهارتها، بمهارة ممارسي الألعاب السحرية؟ ماذا عمل خلال الوقت، الذي كان أعداؤه الخطرون يتبادلون الرأي حول مصيره؟ هل ظل يرتجف، كبائس لاحيلة له؟ معاذ الله! لقد جلس هادئاً، وأخذ يستكمل نسخ الستة أسطر، المتبقية من النقش[194]. وأخيراً توصلت تلك الجماعة إلى رأي، وهو أن يوصلوه مخفوراً إلى صنعاء، ليمثل أمام قاضي صنعاء، مع مانسخه من نقوش، لينظر في أمره، ويصدر حكمه عليه. وما أن انتهوا إلى هذا الرأي، حتى اقتربوا منه وأخذوا يفتشونه، تفتيشاً دقيقاً. ولما لم يجدوا في حوزته أوراقاً أخرى، تغير موقفهم، وأصبح أكثر ليناً. إنها لطبائع غريبة. فهؤلاء الناس في حقيقتهم غير سيئين،

=والإعجاب بالرحّال الذكي المحنك، الذي يلجأ إلى الحيلة والدهاء، للتخلص من شرور أولئك المتوحشين السذج. إنها صور مشوقة ومبهرة ، يتفنن بعض الرحالة في تقديمها للقارئ الغربي، الذي يجهل هذه البلاد ويجهل ناسها.

(194) هذا يؤكد ماذهبنا إليه في الهامش السابق.

ولكن تعصبهم الديني يقودهم إلى الضلال. إن الرجل المتعصب، الذي كان منذ لحظات يقود ويحرض أعداء هاليفي، بدا هو نفسه، وكأن ضميره قد أنبه على موقفه، فاقترب من هاليفي ودعاه، بطريقة مهذبة، لتناول طعام الإفطار معه. وما كاد ينتهي من تناول الطعام، حتى تم تسليمه إلى رجل من حباب **Habab**، كان متوجهاً إلى صنعاء، وطُلب منه أن لايغفل عن مراقبته، حتى يسلمه إلى قاضي صنعاء.[195]

إتجه هاليفي ومرافقه، أو بتعبير أصح، وحارسه، إلى صنعاء. ولكن ذلك الرجل لم يكن يعنيه من أمر هاليفي شيئاً، وأراد أولاً أن يزور بعض أقاربه، في منطقة قريبة من مأرب. وتمكن هاليفي، بإعطائه بعض النقود، أن يقنعه بتركه يذهب منفرداً إلى صنعاء. وما أن تركه ذلك الرجل، حتى سارع إلى جلب أوراقه، التي كان قد أخفاها خارج مدينة مأرب، وغادر منطقة مأرب. وتجنب الطريق الرئيسية إلى صنعاء، أي طريق القوافل، واتجه جنوباً. كما تجنب أيضاً المرور بالقرى. وفضل أن يبيت لياليه في العراء. ومن سوء حظه أنه ضل طريقه قرب حريب، ووجد نفسه يصطدم بالقافلة، المتجهة إلى صنعاء، التي كان قد انضم إليها عدوه موسيليل. وعرفه موسيليل للتو. وهكذا أمسك به رجال القافلة وأخذوا في استجوابه وتوجيه الإتهامات إليه، بصفته أوربي، وهي الصفة، التي كان قد أخفاها وتقمص شخصية حبر من أحبار القدس، كما أسلفنا، واعتبروه جاسوساً، جاء ليتجسس ويساعد الأوربيين على الإستيلاء على اليمن ...إلخ. وقرر رجال القافلة المتوحشون اصطحابه معهم إلى صنعاء وتسليمه لقاضي صنعاء. ولكنه استطاع، في أعلى نقيل **Schegaa** أن يغافلهم ويتسلل بعيداً عن القافلة. وساعده على التسلل أنه كان يسير على قدميه. وظل يسير وحيداً عدة ساعات، حتى وصل إلى قرية يهودية، في وادي **Schraafa**، واختفى فيها لبعض الوقت، ثم واصل سيره منحرفاً عن طريق صنعاء، بحسب ارشادات يهود القرية، ومتجهاً نحو الجنوب إلى بلاد خولان، حيث وصل بعد خمس ساعات إلى أطلال مدينة تنعم **Tinaam** القديمة. وكانت تلك المدينة المقر الرئيسي ليهود اليمن. إلا أنه لم يعد يسكنها الآن سوى جماعة يهودية صغيرة. وعلى مرتفع، قريب من بقايا تلك المدينة، تقع أطلال مدينة **Sabal**، التي كانت في الماضي

(**195**) هذا الوصف الشيق، العجيب والمتكرر، للمواقف، من قبل مالتسان، ومايبدو فيه من تعارض، بين المبالغة في تصوير الأخطار المحدقة بالرحّال ووحشية التعامل معه وتعصب الناس وعداءهم، وبين حسن معاملتهم وكرمهم وبساطتهم، كل هذا في موقف واحد وفي لحظة واحدة، يجبرنا على النظر إلى مثل هذه المبالغات، على أنها لازمة، من لوازم التشويق لديه.

مسكناً لليهود. ومنطقة بلاد خولان، رغم أنها جبلية، فإنها ذات تربة خصبة، وتعتبر من أفضل المناطق الزراعية في جنوب الجزيرة العربية. وفيها يشاهد المرء قرى منتشرة في كل مكان. وهي منطقة غنية بفواكهها وأعنابها. كما تبدو أيضاً غنية بآثار المدن القديمة. ولكن أهلها متعصبون، تعصباً أعمى. ويساعد على بقاء واستمرار هذا التعصب، وجود عدد كبير من الأشراف. كما أن تجمع قافلة الحج، التي تنطلق كل عام إلى مكة، تجمعها في هذه المنطقة، يساعد أيضاً على رسوخ ودوام هذا التعصب. ووجهت لهاليفي إهانات وشتائم، أثناء مروره بتلك المنطقة، حتى وصل أخيراً إلى مدينة يهودية صغيرة، وهي مدينة **Dan Salan**، واختفي فيها، منتظراً الوقت المناسب لمواصلة السير دون أن يلحظه أحد، نحو صنعاء، التي كان التاجر الهندي وموسيليل ينتظران فيها وصوله ويعتزمان ملاحقته. ولم يكن بإمكانه أن يفر منهما. إذ كان عليه أن ينتظر وصول الأوراق، التي نسخ عليها النقوش، والتي أودعها في أماكن متفرقة، أثناء رحلته. وطال انتظاره أشهراً عديدة، متعرضاً فيها لمضايقات وملاحقات عدويه اللدودين. وأخيراً غمرته السعادة، وهو يرى بين يديه جميع أوراقه، التي كان قد خلفها وراءه. وآن الأوان ليغادر مسرعاً مسرح معاناته. فاتجه أولاً إلى الحديدة، ومنها إلى عدن، حيث حظيت رحلته، من قبل جميع المتخصصين، بالتقدير العالي والإعجاب.

عاد هاليفي إلى أوربا في وقت صعب، كانت أوربا تعيش فيه حرباً طاحنة[196]. لهذا لم يُعط لما حققته رحلة العصر هذه من إنجازات علمية، في مجال الجغرافيا والنقوش القديمة، لم يُعط لها ماتستحقه من اهتمام. وساهم تواضع الرحّال هاليفي، المبالغ فيه، ساهم في التعتيم على إنجازه الكبير. إلى ذلك فإن طبيعة هاليفي المستقيمة، التي لاتميل إلى التبجح وطلب الشهرة، عبر مايكال من مديح على صفحات الصحف، كما يصنع آخرون، قد ساهمت في ضعف الإهتمام برحلته. ولكن المخلصين للأبحاث العلمية حول جزيرة العرب، والعارفين بجغرافيتها ونقوشها القديمة، لن يترددوا في وضع اسم هذا الرحّال، هاليفي، إلى جانب إسم كبير رحّالة القرن الماضي، الرحّال نيبور.

---

(196) كانت أوربا تشهد تغيرات كبرى، في أحجام القوى وفي حدود الدول. ولعل مالتسان يعني هنا بالحرب الطاحنة، الحرب الألمانية _ الفرنسية، التي نشبت في الفترة من يوليو ١٨٧٠م إلى يناير ١٨٧١م. وأسفرت، فيما أسفرت عنه، عن نشوء الإمبراطورية الألمانية وضم مقاطعتي الالزاس واللورين إلى ألمانيا وولادة ألمانيا الحديثة، تحت قيادة بسمارك.

رحلة هاينرش فون مالتسان
Heinrich von Maltzan

أولاً: الرحلة إلى سلطنة العقارب:

عندما كان مالتسان في عدن، في بداية عام ١٨٧١م، تعرف على طبيب إنجليزي، كان يعمل وكيلاً صحياً للأتراك. وهذه وظيفة غير واضح محتواها، يقول مالتسان: "لم يكن أحد يعرف ما هو العمل، الذي يقوم به، وحتى هو لم يكن يعرف ماهي مهمته، بل ربما حتى الباب العالي كانت هذه الوظيفة بالنسبة له أحجية". ولم يكن ذلك الطبيب يسكن في مدينة عدن، بل على الخليج، المسمى (التواهي)، الذي يبعد مسافة ساعتين، عن مدينة عدن. وقد أطلق الإنجليز عليه اسم (رأس السفن Steamer Point). وكان ذلك الطبيب يقضي أوقات فراغه غالباً في صيد السمك، على الساحل المواجه، أي على الجهة الأخرى من خليج التواهي، حيث تبدأ حدود سلطنة العقارب. ولما كان قد زار عاصمة العقارب مراراً، فقد رحب في أن يرافق مالتسان إلى هناك. وحتى يضمن مالتسان إستقبالاً طيباً، طلب من الإنجليز، أن يعطوه، كما يقول: "رسالة إلى السلطان، أو بالأحرى أمراً، ليستقبلني استقبالاً طيباً، إذ أن الإمارات الصغيرة المجاورة، وإن كانت من الناحية القانونية لاتتبع الإنجليز، إلا أنها من الناحية الواقعية تابعة لهم". وانطلق مالتسان مع الطبيب، مبحرين في خليج التواهي، الذي يطل عليه جبلا شمسان وحافون، بصخورهما البركانية. ودامت الرحلة ساعتين، بسبب الرياح المعاكسة، التي لم تسمح برفع أشرعة القارب. وكان يرافقهما ستة من الصوماليين، يجذفون على المجاذيف. "ويأتي الصوماليون بالآلاف، من بلادهم الأفريقية القريبة، ليمارسوا أي أعمال متاحة، ويكسبوا منها أقصى مايمكن، ثم يعودوا إلى بربرة أو زيلع، ليعيشوا كأثرياء. إنهم سود البشرة، كالنيجر، ولكن تقاسيمهم تكاد تكون أوربية[197]، وغالباً جميلة جداً. وتعتبر شعورهم زينتهم الوحيدة، ويصبغونها باللون الأشقر، المائل إلى الإحمرار[198]". وفي الشاطئ

---

(197) ليس السلوك الأوربي وحده هو المثل الأعلى للسلوك البشري، في نظر مالتسان، كما أشرنا في هامش سابق، بل تقاسيم الوجه أيضاً.

(198) لعله يقصد الحنّاء

الآخر كان لابد أن يُحمل مالتسان والطبيب إلى البر محملاً، إذ أن حالة الميناء هناك لم تكن تسمح باقتراب القارب من اليابسة. وكان لابد بعد ذلك من السير على الرمال، لمدة نصف ساعة، حتى حصن الحسوة، حيث تم استئجار الجمال اللازمة لمواصلة الرحلة. والحسوة، مع الشاطئ الغربي، أصبحت إنجليزية، منذ باع السلطان هذه المنطقة، مع جبل حافون للإنجليز، بمبلغ خمسين ألف ريال. وبذلك أصبحت دولته مغلقة، لانافذة لها على البحر.

والحسوة عبارة عن (حصن)، وهكذا تسمى. وهي عبارة عن قلعة، مبنية من ثلاثة طوابق، وفيها برج وشرفات وكوى (فتحات لإطلاق النار)، ومحاطة بسور. ولأنها مبنية من الطين، فهي غير قادرة على الصمود طويلاً لقصف المدفعية. ويقيم في البرج جنديان عربيان نصف عاريين، تابعين للإنجليز، ولايميزهما عن جنود السلطان، إلا كونهما يستلمان مرتباً. وأبدى مالتسان استغرابه لرؤية سجين أجنبي في الحصن، لم يحدد جنسيته. فهو رجل، ساقته الأقدار إلى عدن وأقدم على قتل أحد المواطنين، فألقي القبض عليه وأبعد إلى الحسوة، حيث سجن في الحصن. وهو يعيش في سجنه هذا مرتاحاً، حيث يتقاضى مبلغاً شهرياً، قدره ثلاثين ريالاً. وحصل على امرأة، من أقارب أحد الحارسين[199]. كما أن الحارسين يلبيان كافة طلباته. وكان واضحاً أن الرجل يستطيع الفرار من سجنه، في أي وقت يريد. ولكنه لم يكن غبياً، إلى درجة التخلي عن المرتب والمرأة. إن مجرد التفكير في أنه سيطلق سراحه، كان يرعبه، فالسجن الإنجليزي، كما يبدو، كان أقصى مايحلم به.

والحسوة ليست منطقة سيئة. فالإنسان يستطيع، في أي مكان في اليمن أن يستثمر الأرض، بمجرد توفر المياه. وقد أمكن توفير المياه في الحسوة، بحفر بئر غزيرة، تروي مياهها الأراضي الزراعية وحقول القطن والأشجار المثمرة. ويسكن في الحسوة عدد لابأس به من السكان. واستغرب مالتسان لكثرة الناس، الذين شاهدهم، وهو جالس على البئر، في انتظار الجمال، رغم عدوم وجود أية مساكن، باستثناء الحصن. والواقع، كما قال: "إنه من الصعب رؤية المناطق السكنية. ولذا لم يتحدث أحد من الرحّالة عن مساكن الشعب في جنوب اليمن. وحتى فريدي، لايسعفنا بأية ملاحظة، حول هذا الموضوع. إنه يجعلنا نعتقد بأن الناس يعيشون في العراء". والسر في ذلك هو أن جميع هؤلاء السكان يسكنون في أكواخ، مبنية من القصب وأغصان الشجر، ولونها

---

(199) لم يوضح مالتسان صفة المرأة، هل هي زوجته، أم تعمل خادمة لديه. وإن كنا نرجح، من خلال السياق، أنها كانت زوجته.

أشبه مايكون بلون التراب، بحيث يصعب على المرء رؤيتها. وهذه الأكواخ هي المنازل الحقيقية للفلاحين والبدو. أما الخيام، فهي غير معروفة لديهم. وبالطبع توجد بيوت مبنية ومسورة، إلا أنها بنيت أصلاً كحصون، أكثر منها كمساكن. ولذا فلا يسكن فيها إلا المشايخ وأسرهم. أما عامة الشعب فلا سبيل لهم إليها.

أخيراً تم استئجار جملين، وجمل ثالث ركب عليه الجندي المرافق. وكان جمل الجندي يختلف عن الجملين الآخرين، فهو من نوع الجمال الهجانة. والهجانة لايختلف في جنسه عن الجمال العادية، وإنما يختلف في تربيته، وركوبه مريح، وهو أسرع من الجمال العادية. وبمقابل بعض النقود، وافق الجندي على أن يبادل مالتسان، فيعطيه الجمل الهجان، ويأخذ جمله العادي. وكانت المناطق، التي مر بها مالتسان ورفيقه، الطبيب الإنجليزي، خالية من السكان، وبسبب ندرة المياه، تبدو غير صالحة للزراعة. وبشكل عام فإن المناطق الساحلية مناطق مجدبة، وإذا ماوجدت بعض الحقول، فإنها لاتكاد تثمر. فالسواحل غالباً ماتعتمد على الأمطار الشتوية، النادرة الهطول، على خلاف المناطق الداخلية، التي تستقبل الأمطار الموسمية صيفاً، وبفضلها تتمتع هذه المناطق بدرجة عالية من الخصوبة. وتعتبر المناطق الساحلية، الواقعة في مجارى السيول القادمة من المناطق الداخلية، أكثر خصباً من غيرها. ومع أن هناك مجرى كبيراً للسيل، يأتي من الشمال، إلا أنه يمر بمنطقة لحج، حيث يتحكم فيه سكان لحج العبدلية، ويجرونه في قنوات إلى حقولهم، فلا يفيض منه للعقارب إلا نادراً، وبقدر ضئيل جداً. ورغم ذلك فإن أنواعاً كثيرة من الأشجار تنمو في العقارب، ولكن أحجامها صغيرة. وبعد مسير ساعة ونصف وصل الركب إلى بير أحمد. وهي منطقة تتصف بالتنوع. وفيها اثنا عشر بيتاً، أشبه بالقلاع. وكان بيت السلطان شبيهاً بحصن الحسوة، غير أنه أكبر حجماً، وله أربعة أبراج، ويتكون من عدة طوابق، وله نوافذ صغيرة مرتفعة كثيراً عن مستوى سطح الأرض. وعدا عن هذه البيوت، الشبيهة بالقلاع، كان هناك حوالي عشرين بيتاً صغيراً. كما كانت هناك أكواخ منتشرة في جميع الجهات. وتكاد تشكل قرية مستقلة. وتم الإعلان عن وصول الركب، بالطريقة المعتادة، أي بإطلاق الرصاص من قبل الجندي المرافق. ولما كان العرب الجنوبيون، من باب المندب إلى عمان، لايستخدمون سوى البنادق ذات الفتيل، فإن الجندي المرافق، رغم أنه يعمل في خدمة الإنجليز، كان مسلحاً بواحدة من هذه البنادق. وهرع عدد من الرجال السود، عند سماع الإطلاق، وساروا بالثلاثة القادمين، مالتسان والطبيب والجندي، إلى ديوان السلطان.

كان ديوان السلطان عبارة عن مبنى بسيط للغاية، غير مؤثث سوى بحصير، يغطي أرضيته. واستفسر مالتسان عن إمكانية استقبالهم من قبل السلطان، في قصره، أو على الأقل امكانية أن يُسمح لهم برؤية القصر. فكان الجواب: "إن حريم السلطان تسكن في القصر، وإن أي مكان توجد فيه الحريم، يغلق في وجه أي فضولي".

إمتلأ الديوان بالناس، بعضهم واقف، يسند ظهره إلى الجدار، وبعضهم الآخر جلس على الأرض، وجميعهم كانوا عراة الأجسام، إلا من قطعة قماش تسترهم، من الخصر حتى الركبة، إضافة إلى الجنبية، التي يتمنطق كل واحد منهم بها. ويعتبر السلاح، بالنسبة لهؤلاء اليمنيين، الشيء الوحيد، الذي يمارسون به ترفهم وفخفختهم. فيرصعون جنابيهم وسيوفهم بالفضة، وينفقون على ذلك كل مالديهم من نقود. أما أنواع الترف الأخرى، فلا يأبهون بها، بل ويحتقرونها. إن اليمني يحمل جنبية، ابتداءً من سن الثالثة عشرة. وبهذا يصبح رجلاً، ويفسح له مكان في مجتمع الرجال. وضمن الحشد الموجود في الديوان، كان يوجد كثير من أنصاف الأطفال، الذين يحملون جنابي ضخمة، مشدودة إلى خصورهم.

وسرعان ماظهر السلطان. وكان أسود البشرة، كرعيته، يناهز الخمسين من العمر، متوسط الطول، بلحية صغيرة وبطن ضامرة. ورغم لونه الأسود، فإن تقاطيعه ليست تقاطيع أفريقية، بل تقاطيع "ذات شكل نبيل". وهذه الصفات يمكن أن تنطبق على كل العرب، الذين يسكنون في أقصى الجنوب اليمني. إنها صفات "الجنس الحميري"، الذي يشبه الأحباش "ولاعلاقة للمناخ باسوداد البشرة. والدليل على ذلك أن سكان يافع، المنطقة الجبلية الباردة، سود البشرة تماماً، كسكان المناطق المنخفضة الحارة، في حين أن الأشراف، الذين ينتمون إلى النبي، رغم أن عائلاتهم تسكن هنا، منذ مئات السنين، يتميزون ببشرتهم الفاتحة. والسبب هو أن دماء سكان وسط الجزيرة العربية تجري في عروقهم"[200].

ولم يكن السلطان يتميز عن رعيته، من حيث الملبس. فقطعة القماش (الإزار) وغطاء الرأس لم يكونا من نوع أفضل من النوع، الذي ترتديه الرعية. وسلاحه لايفصح عن ثرائه. إذ أنه لايجوز

---

(200) لايدلل مالتسان هنا على جهله بالأصول السكانية فحسب، بل ويدلل على عدم معرفته بالمنطقة وبأشكال سكانها وألـوانهم. فسكان يافع بشرتهم فاتحة، والأشراف ليسوا جميعهم من ذوي البشرة الفاتحة. ولعل هذا الجهل يرجع إلى أن مالتسان لم يكن قـد تعرف على سكان اليمن، بالقدر الذي يسمح له بالخوض في مثل هذه المسألة.

للمسلم الورع أن يتزين بشيئ أثمن من الفضة. إن هذا الزي، الذي يرتديه السلطان ورعيته، هو الزي العام لسكان جنوب اليمن، باستثناء سكان المدن البحرية (الموانئ). فالسكان هنا لايعيرون كبير اهتمام للملابس، بل إن الملابس الفخمة ينظر إليها على أنها تتعارض مع الرجولة. ويستثنى من كل هذا سلطان لحج، الذي يرتدي ملابس هندية فخمة، أصبحت موضع تندر السكان واستخفافهم. وقد حيا الحاضرون السلطان بحفاوة، ولكن من دون ماتذلل أو خنوع "فبعد أن أخذ مكانه جاء إليه الحاضرون، الواحد تلو الآخر. وأخذ الواحد منهم يصافحه ويقبل يده. وكان السلطان، في كل مرة، يرفع يد الشخص المصافح ويقبلها بدوره. أي أن تقبيل اليد كان متبادلاً، على خلاف التقاليد في قصر سلطان لحج. حيث يترك السلطان والأمراء الناس، بكل هدوء، يقبلون ركبهم، ولاتبدر منهم أية حركة، تدل على أنهم يردون التحية على الآخرين. إن سلطان العقارب لايبقى جالساً، عندما يسلم عليه أحدهم، بل ينهض نصف واقف، في كل مرة". وبعد التحية قُدمت قهوة القشر، التي لابد من تقديمها للحاضرين. ومذاقها لطيف، ويمكن أن يشرب المرء منها قدر مايرغب، دون أن يحس بأية سخونة في جسمه. وهي تختلف عن قهوة البن، التي تعتبر مشروباً مسخناً للجسم. والسكان يشربون القشر بكميات كبيرة. وكان في الديوان ثلاث مدائع، يسميها الأهالي (بوري). وهي ضخمة الحجم. فطول الواحدة منها بطول الإنسان. وقرأ السلطان الرسالة الرسمية، التي حملها إليه مالتسان، من الإدارة الإنجليزية بعدن، وبدا بشوشاً.

وبعد الإستقبال بدأت عملية تحضير الطعام "فذبحت نعجة وجهز الهريش. وهو الوجبة المحببة إلى السكان والطعام الرئيسي في اليمن. ويتكون من دقيق الذرة وزيت السمسم أو السمن، وعليه قطعة من اللحم. أما الوجبة المحببة إلى الوجهاء فهي العصيد. وتتكون من دقيق القمح والسمن والعسل. ويقدم اللحم منفصلاً، ودائماً مايكون نصف مستوي، وغالباً مايكون مشوياً من جهة ونيئاً من الجهة الأخرى. والعقارب فقراء بوجه عام. ولذا لايستطيع المرء هنا أن يتناول الطعام الراقي، وهو العصيد"[201].

(201) يدلل مالتسان هنا أيضاً عن جهل وعن تسرع في الإستنتاجات وعدم التدقيق في المعلومات، قبل أن يرويها للآخرين. فالهريش، وهو من القمح المهروش أو المجروش، أصبح عصيداً مكونة من دقيق الذرة. والعصيد، التي هي من دقيق الذرة، أصبحت عنده هريشاً. مع أن التسمية هنا (هريش) واضحة الدلالة. وقد بين جلازر مكوناهما، بصورة صحيحة، في رحلته إلى أرحب.

طال الوقت، دون أن يدخل مالتسان ورفيقه الطبيب في الحديث مع السلطان. وأخيراً انبرى مالتسان للحديث، فألقى كلمة، لم يفهم أحد منها شيئاً: "وبعد أن ألقيت كلمة طويلة، بلغة قريبة من لغة وسط الجزيرة العربية، نظر السلطان إليّ باستغراب، لبعض الوقت، ثم سألني: ماذا قلت؟ وكان زميلي أفضل حظاً مني، إذ أنه طوال الوقت لم يقل كلمة واحدة، واكتفى بأن يرسم على شفتيه، من وقت إلى آخر، ابتسامة ماكرة. وقد وجه السلطان إليه إطراءه. إنه في الواقع لم يقل شيئاً، ولكن حركاته قد أوهمت الحاضرين بأنه يفهم اللغة العربية. وهكذا فإن القاعدة السائدة هنا هي: السكوت من ذهب"[202].

وكان الجميع يتحرقون لمعرفة سبب مجيء مالتسان وزميله، فاليمنيون، كما يقول مالتسان "شديدو الشك، ولايتصورون أن شخصاً يمكن أن يأتي إلى قريتهم، لمجرد مشاهدتها". ولذا سرعان مااعتقد الناس بأنهما جاءا في مهمة سياسية، وهي محاولة انتزاع ماتبقى من بلاد السلطان. واجتهد السلطان في إظهار الشكوى والتذمر من سوء حالة بلاده وشعبه. وذلك ليقنع مالتسان ورفيقه، بأن استحواذ الإنجليز على ماتبقى من بلاده، ليس له أية فائدة.

كان الجهل سائداً، في منطقة العقارب، بحيث أن الناس لايفهمون شيئاً يتجاوز حدود خبراتهم اليومية ومحيطهم الضيق "وعندما اشعلت سجارة، اندهش الجميع لهذا الشيء الجديد. وبما يتصف به العرب من طبيعة إرتيابية، سرعامماافترضوا أن هذا الشيء الجديد هو الحشيش، المادة المحرمة، التي يتأفف منها الشعب هنا. إلا أن أحد اخوة السلطان، وكان قد سبق له أن زار مكة، شرح للحاضرين ماهي السجارة، وأنها تدخن حتى في مكة"[203].

ويسود الجهل في مجال السياسة أيضاً. ويستمع اليمنيون إلى أخبار الحروب بشغف، ولايفوتون فرصة للإستزادة منها. ولذا لم يتركوا فرصة هذا اللقاء تذهب، دون أن يسمعوا شيئاً عن الحرب

---

(202) هذا الموقف يعطينا انطباعاً عن طبيعة مالتسان. فهو موقف مليئ بالتسرع والإدعاء وربما بالجهل. فلو كان قد تحدث بلغة قريبة من لغة وسط الجزيرة العربية، وهو هنا يستخدم لغة بمعنى لهجة، لكان الحاضرون فهموه، أو على الأقل فهموا بعض ما ورد في كلمته الطويلة.، ولما وجه إليه السلطان سؤاله: ماذا قلت؟.

(203) هنا يتحدث عن أناس يعيشون بالقرب من مستعمرة عدن. ومع ذلك كانت السجارة شيئاً جديداً عليهم، فظنوها حشيشاً. ولكن من حسن حظه، أن أحد اخوة السلطان بادر إلى توضيح الأمر. فقد شاهد هذا الشيء الجديد من قبل. وليزداد الأمر غرابة وتشويقاً شاهد هذا الشيء في مكة، برمزيتها الدينية، ولم يشاهده في مستعمرة عدن القريبة منه، والتي لاشك أنه وغيره من أبناء المنطقة قدزاروها مراراً كثيرة وشاهدوا السجارة، إذا لم يكن بعضهم يدخنها فعلاً.

الفرنسية ـــ الألمانية. وهكذا كانت أخبار تلك الحرب موضوعاً من المواضيع، التي جرى حولها الحديث في هذا اليوم. ولايعرف اليمنيون سوى شعبين أوربيين: الإنجليز والفرنسيين. أما من هي البلد، التي شاركت في تلك الحرب الأخيرة، فأمر لايستحق أن يتعبوا فيه أذهانهم "وعندما حاولت أن أشرح ذلك، وأن أبين لهم ماهي جنسيتي، بدا عليهم الإهتمام. إلا أنهم سرعان مانسوا كل ماشرحته، ولم يبق في أذهانهم إلا أنني لست إنجليزياً. وبالتالي لابد أن أكون فرنسياً"[(204)]. وبعد هذه الأحاديث وما خرج به مالتسان من انطباع عن اليمنيين واهتماماتهم السياسية، وجهلهم بالشعوب الأوربية، طاف في القرية، التي يسميها العقارب باعتزاز (المدينة). وعدا عن القصور، التي لايسمح بالدخول إليها، والبيوت الصغيرة والمسجد وعشرة دكاكين صغيرة، لم يكن هناك مايمكن مشاهدته. وتبقى أبواب الدكاكين مغلقة، ولايعرف أنها دكاكين إلا سكان القرية.

وتحدث مالتسان، في نهاية وصفه لرحلته هذه، عن بعض العادات والتقاليد، ولاسيما تلك العادات والتقاليد، التي تحكم علاقة مجتمع النساء بمجتمع الرجال. ولأن بعض الأحكام، التي أطلقها، لايمكن التسليم بها دون نقاش، فإني أفضل أن أنقل في مايلي مادونه نقلاً حرفياً :

"إن العادات والتقاليد في الحقيقة صارمة جداً لدى هؤلاء، الذين يسمون الشعوب الطبيعية[(205)]، وبينما يعتقد المرء أن الإنسان فيها هو إنسان بدائي، لاتنظم حياته أية قواعد، فإن الحقيقة أن المرء يجد في تقاليدهم غالباً قوة قهرية، أشد مما هو الحال عليه في أوربا. وقد اعطتني زيارتي لقرية، مكونة من الأكواخ، دليلاً على ذلك. فبمجرد أن هممت بالإتجاه إلى أحدى المقاهي، حتى هرع نحوي نفر من البدو، وهم يرددون كلمتهم الدائمة الترداد (**Tesdur**)[(206)]، أي ممنوع. فهذه المقهاية مخصصة للحريم، ولايمكن دخول الرجال إليها، مهما كان الأمر. ولكن هل قرية الأكواخ هذه كلها حريم فقط؟ على أي حال، كان الأمر، إلى حد ما، يبدو كذلك. فلا يمكن هنا إبقاء النساء داخل الأكواخ وإغلاقها عليهن، كما هو الحال بالنسبة للنساء، اللاتي يعشن في بيوت ذات جدران. ولذا فإن هؤلاء الجميلات يتجولن في الأزقة بحرية، وهو مالا يسمح به لنساء المدينة.

---

(204) لم يوضح مالتسان بأية لغة استطاع أن يشرح لليمنيين ماهي جنسيته، إذا كان، كما تبين، لايحسن التحدث باللغة العربية. ولذا ليس غريباً أن ينسوا سريعاً كل ماشرحه لهم، لأنهم ببساطة لم يفهموه، تماماً مثلما لم يفهم السلطان خطبته الطويلة.

(205) أي التي لم تتطور بعد، ومازال على حالتها، التي خلقها الله عليها.

(206) لعلها كلمة (دستور)، وهي كلمة تستخدم في اللهجة الدارجة المصرية، بمعنى (لو سمحتم).

إن النساء، وبسبب الحجر المفروض عليهن، اعتدن النظر إلى كل شيء على أنه مسموح به، مالم يمنعن عنه بالإكراه، حالهن في هذا حال الأطفال. ولا يمكن الحديث عن الأمانة الزوجية، من حيث الأساس. فالمرأة تبقى أمينة لزوجها، طالما لم تجد الفرصة لخيانته. فإذا ماتوفرت مثل هذه الفرصة، فإن أحداً لايصدق أن المرأة يمكن أن ترفضها. ويعتبر عرض الزوج منتهكاً، بمجرد أن تكون زوجته قد وقفت تتحدث حديثاً بريئاً إلى رجل غريب، تماماً كما لو أنها قد مارست الخيانة الزوجية عاماً كاملاً. وينظر إلى المرأة على أنها عديمة الإرادة، ولا يعتقد أحد بأن لها مكانة معنوية. إن المرأة لدى البدو، في المناطق الداخلية، تتمتع بمكانة أفضل. وفي الحقيقة أنني لم أر امرأة واحدة في المدينة. أما في قرية الأكواخ فقد كان لدي الوقت لأنظر إلى بعض النسوة. لقد كن ضئيلات الحجم وبشرتهن سوداء، ولكن تقاطيعهن لطيفة ومتناسقة. كانت تلكم الجميلات يرتدين سراويل مصبوغة بالنيلة وضيقة نوعاً ما، وملمومة إلى بعضها في الأسفل. وكانت الأجزاء العليا من أجسامهن عارية، ويمكن للمرء رؤية أثدائهن، وهي أثداء رقيقة ومستطيلة، ولكنها ليست ضامرة أبداً، إنها أثداء جميلة جداً، بمقاييس الجمال العربي، التي تعتبر وصف ثدي المرأة، بثدي ماعز، نوعاً من الإطراء[207]. وتغدو هذه الفتنة غير ذات معنى، إذا وجب ارتداء الحجاب وتغطية الوجه. ففي هذه الحالة يصبح منظر المرأة هنا شبيهاً بمنظر المرأة في عدن. إذ تغطي وجهها كاملاً بغطاء من الشاش الملون، ولاتترك حتى فتحة لعينيها. ولكن الجميلة تستطيع أن تتبين طريقها، حيث أن الشاش رقيق، وفي الوقت نفسه لايستطيع أحد أن يرى وجهها. وهذا هو الحال بالنسبة للقماش الشفاف، الذي ترتديه نساء الأتراك، كما هو معروف.

أما زميلي الطبيب الإنجليزي، الذي لم ينتبه في الوقت المناسب إلى مقتضيات الـ **Tesdur**، فقد توغل بسذاجة، في قرية الأكواخ. وسرعان ما نشأت هناك فضيحة. فقد وجد نفسه وسط حشد من الإناث الشابات، وكلهن يصرخن به، ويطلبن منه (بغشيش). إن النساء أنفسهن يكدن لايعرفن، في حالة وجود رجل غريب، كيف يتصرفن تجاهه. فإذا حدث وجاء رجل غريب، فإنهن، ولافتقارهن لأية خبرة، يتصرفن معه كتصرف الأطفال. وهكذا كان الحال مع مرافقي. فبدلاً من أن يهربن عند رؤيته، أحطن به. إذ كان وجوده موضوعاً للتسلية، بالنسبة لهن. وربما توقعن منه أن

---

(207) ؟!!!

يعطيهن هدايا. وبينما كان يوزع عليهن بعض البيسات، وهي قطع نقدية هندية، ونظره يسرح في المتعة المحرمة، وثب عليه عدد من البدو المسلحين، ليبعدوه عن الحريم، بقوة السلاح. وقد انسحب بكل كبرياء. ولكن انسحابه، من وجهة نظر البدو، لم يتم بالسرعة الكافية. ولذا صوب إليه أحدهم بندقيته. ولأن إطلاق الرصاص يتطلب تعبئة البندقية بالبارود، ثم إشعال الفتيل الأصفر، فقد مضى وقت كاف لإفلات زميلي الطبيب، وكيل الأتراك، من الطلقة، لتصيب بدلاً عنه جملاً ثميناً، وتقتله. وأدى قتل الجمل إلى نشوب شجار، لانهاية له، استمر في حضرة السلطان، الذي رغم المجاملات الرسمية، لم يمنع نفسه من لوم الطبيب. فأخذ يصرخ دون توقف، كلما جرى الحديث عن ماحصل في قرية الأكواخ: عيب... عيب... عيب كبير. هكذا في كل أمر يتعلق بالمرأة، لايستطيع العرب أن يتفهموا وجهة النظر الأوربية فيه.

إن على الرجال، الذين يسكنون في قرية الأكواخ، عندما يعودون إلى بيوتهم، أن يتصرفوا بحذر شديد. فإذا ما صادف أحدهم نساء الآخرين في طريقه، فإن عليه أن لايرفع بصره عن الأرض. وبالطبع فإن العرب قد اعتادوا هذا الضرب من النفاق.

ويخضع سكان المدينة أيضاً للأعراف والتقاليد الصارمة. فشرفات المنازل تبقى من حق النساء. ولذا لايجوز للرجل أن يطل من نافذة منزله، حتى لايرى جاراته. ولايجوز أيضاً أن ينظر من خلال نافذته، لأنه يمكن أن تكون هناك امرأة من جاراته. ولايجوز عند سيره في الشارع أن ينظر إلى النوافذ المفتوحة، لأنه غالباً ماتكون هناك نساء، ينظرن من خلالها. فالنوافذ هنا لاتوضع لها شبابيك، كما هو الحال في تركيا وفي شمال أفريقيا. وليس محظوراً على النساء أن يجلن بأنظارهن، هنا وهناك. أما الرجال فإنهم ملزمون بعدم النظر إلى النساء، أو بالتظاهر بأنهم لايرونهن. وقد أثرت ذات مرة استياءً كبيراً، عندما صعدت إلى شرفة البيت، الذي كنت أسكنه، وفتحت النافذة، فأخذ الأمر بمأخذ سيئ، لأن نساءً عربيات كن يسكن في البيت المقابل.

من هنا يستطيع المرء أن يفهم، لماذا لايستقبل الإنسان أحداً في بيته. ولهذا السبب يقضي الرجال أوقاتهم غالباً خارج بيوتهم. وديوان السلطان، هو ا لمكان العام، الذي يتجمع فيه الناس".

ثانياً: الرحلة إلى لحج وبلاد العبادل:

يبدأ مالتسان عرض رحلته إلى لحج بتحديد المسافة بين عدن (كريتر)[208] ولحج (الحوطة) بخمسة أميال، وهو تحديد غير دقيق، فالمسافة بين المدينتين تبلغ حوالي خمسة وعشرين ميلاً. ثم يسترسل في عرض الرحلة:

يمكن قطع المسافة بين عدن ولحج، على ظهر جمل الركوب، ويقصد الذلول، في ثلاث ساعات. أما على الجمل العادي، فتستغرق عشر ساعات، تتخللها فترات استرحة، يبلغ مجموعها ساعتين. تم استئجار جمل عادي، لحمل الأمتعة، انطلق في الصباح الباكر، ولحق به مالتسان بعد ظهر اليوم نفسه. وبدأ يوم السفر بإيقاظ مالتسان، من قبل الجمّال، الذي حضر في الخامسة صباحاً، لأخذ الأمتعة، وهو، كما يقول مالتسان: "واحد من رجال الجبال الغلاظ، الذين يتسكعون في عدن. لقد رأى هذا الرجل نفسه أكبر من أن يتنازل ويحمل الأمتعة، التي ستنقل على ظهر الجمل، إلى أسفل السلم. إنه جمّال، وليس حمّال. ولم يقبل بحمل تلك الأمتعة الخفيفة بأي ثمن. هكذا أدى تساهل الإنجليز المفرط، مع السكان المحليين، إلى أن يتصرف هؤلاء تجاه الأوربيين بطريقة تخلو من الحياء. وكان لابد والأمر كذلك، من البحث عن حمّال، يقوم بنقل الأدوات القليلة، من البيت إلى ظهر الجمل. إن مثل هذا الأمر لايمكن أن يحدث إلا في عدن، أما في داخل البلاد، فإن البدو، المعتزين بأنفسهم، يقومون بحمل الأمتعة إلى ظهور الجمال. وفي المدن، التي يحكمها سلطان، نجد اليمنيين مستعدين للقيام بأي عمل. أما في عدن، فحتى الحاكم ، لايستطيع أن يجبر مثل هذا الرجل على أن يقوم بوضع أمتعته على ظهر الجمل. إن له حقاً، بالمعنى القانوني، فهو يعمل جّمالاً، وليس حمّالاً. وحتى بالحسنى وبالبغشيش، لايمكن جعله يحيد عن موقفه"[209].

---

(208) تسمى الآن (كريتر)، أي فوهة بركان خامد. وهو إسم أطلقه البريطانيون عليها ، ولم يستخدمه اليمنيون، أثناء العهد الإستعماري، ولم يستخدموه قبله. ولكنه أصبح مؤخراً يُستخدم بكثرة، مع الأسف الشديد، وأهمل الناس الإسم الأصلي لهذه المدينة العريقة، وأصبحوا يطلقونه، عن جهل، على مدينة عدن نفسها وعلى المدن الأخرى، القريبة منها (المعلا _ التواهي _ خور مكسر _ المنصورة _ الشيخ عثمان _ دار سعد _ مدينة الشعب _ البريقة).

(209) يستغرب المرء، وهو يقرأ هذه العبارات المشحونة بالغرور والتعالي، التي دونها مالتسان، كيف يستكثر على مواطن يمني أن يمتنع عن القيام بعمل زائد عن عمله، في حين يترفع هو عن حمل حقائبه بنفسه، وهي كما يقول حقائب خفيفة ويبحث عن شخص يحملها عنه. وكأنه لم يخلق ليحمل حقائبه بيده، بل ينتظر من هو دونه شأناً ليحملها عنه. ويغضب إذا ما امتنع أحدهم عن حملها. وليس صحيحاً أن المرء لايستطيع بالحسنى أن يجعل حمّالاً يغير موقفه. إذ أن من أبرز جوانب الشخصية اليمنية البساطة والتواضع والتأثر بالكلمة الطيبة، مع الإعتزاز الشديد بالنفس، الذي يبلغ حد العناد. ولعل الحمّال لمس نوعاً من التعالي والغرور في سلوك مالتسان=

مضى وقت طويل، قبل أن ينطلق الجمّال إلى لحج. ومع ذلك فقد وصلها قبل وصول مالتسان إليها. والسبب في ذلك أن مالتسان ومرافقه، الذي لم يتضمن عرض مالتسان شيئاً عنه سوى أن اسمه عبد المجيد، استأجرا حصانين سيئين، من امرأة مسنة، واصطحبا معهما غلامين صوماليين، يعملان لدى تلك المرأة، وكانا يسميانها (الشيطانة)، ويزعمان أن كل حيوان من حيواناتها قد أخذ شيئاً من طبيعتها العنودة. لقد كانت تضع خاتماً على أنفها، ولم تكن ترتدي حجاباً، على خلاف النساء العدنيات. أما الحصانان فقد كانا صغيرين وقويين، ولكنهما كانا يسيران ببطء شديد. وإذا ما ضربا بالعصا ليسرعا، لايؤدي ذلك إلى أن يسرعا، بل يؤدي إلى انزعاجهما وإثارتهما.

كانت المناظر في الطريق، من عدن إلى الشيخ عثمان، التي تقع في نهاية الثلث الأول من الطريق، مناظر بديعة ومتنوعة، تجمع بين البحر والصخور والرمال. ومدينة الشيخ عثمان مدينة صغيرة، تتكون من حوالي عشرين بيتاً. منها ثلاثة بيوت على شكل أبراج، إضافة إلى مسجد وقبر ولي، عليه عدة قباب. إستراح مالتسان في بيت، هو الوحيد الصالح لنزول الأجانب، ويمتلكه تاجر إيراني يسكن في عدن، اسمه حسن علي. وهو يكتم جنسيته، ويدعي بأنه عربي. وذلك لأن الأيرانيين ينظر إليهم في عدن كزنادقة. وهم لذلك محتقرون. "ورغم أنه يكتم جنسيته، فإنه لايخفي زندقته. فهو شيعي، مثل جميع أبناء بلده. ويمضي في حقده إلى منتهاه، تجاه أبي بكر وعمر وعثمان. وهم الخلفاء الثلاثة الأول، الذين تكرههم هذه الفرقة. إنه في تعصبه الشديد يتخذ أحياناً طابعاً مسلياً، عندما يطلق على خراف عيد الأضحى أسماء الخلفاء الثلاثة. فواحد يسميه أبابكر والآخر عمر والثالث عثمان. وعندما يحل عيد الأضحى، ينادي خادمه: إحضر أبابكر (أو عمر) لأقطع رأسه. وفي المساء يروي بسرور: لقد ذبحنا اليوم أبابكر". إن هذا التاجر يستطيع أن يمارس طريقته في عدن. ولكنه لو مارسها في داخل البلاد، لكان قد قضي عليه، منذ زمن. ورغم ذلك تربطه

= معه، مما جعله ينتصر لكرامته بطريقته الخاصة. وفي هذه الحالة، وعندما يشعر اليمني بأن كرامته في الميزان، فإنه لاينفع معه البغشيش. بل إن عرض البغشيش عليه، في هذه الحالة، يمكن أن يزيده عناداً. وهو أمر لايستطيع أوربي مثل مالتسان أن يفهمه بسهولة، ولاسيما أنه قد استقر في ذهن بعض الأوربيين أن البغشيش هو العصا السحرية، التي يستطيع بها أن يسوق قطعان البشر، في بلاد الشرق. إن موقفاً كهذا الموقف، الذي تعرض له مالتسان، كان يمكن حله بسهولة، لو أن مالتسان كان يعرف الشخصية اليمنية، معرفة كافية. فالأمر لم يكن يحتاج إلا إلى إظهار بعض التواضع، وتوجيه بضع كلمات طيبة إلى الجمّال. فالكلمة الطيبة هي العصا السحرية بالنسبة لليمني. ولو استخدمها مالتسان، لحمل الجمّال الأمتعة عن طيب خاطر ودون بغشيش.

علاقة وثيقة بسلطان لحج. حيث يمتلك مزرعة للخضار في لحج. كما يمتلك بيتاً (فيلا) جميلاً في الشيخ عثمان، التي تتبع السلطان أيضاً. "إنه ثري. والسلطان بدوره يحب المال، حتى وإن كان من ناحية أخرى محافظاً وعدواً شديداً لمعتقدات حسن علي".

رافق مالتسان حارسٌ، يعمل في خدمة الإنجليز، امتطى حصاناً. والحصان "حيوان غير مألوف، ولا يرتاح اليمنيون إلى ركوبه، بل يجدون أنفسهم أكثر راحة على ظهور الجمال". وكان ذلك الحارس يبدو، وهو على ظهر الحصان، بملابسه نصف الأوربية، متناقضاً في هيئته، التي تفتقر إلى الإنسجام. واعتباراً من الشيخ عثمان، انظم إلى ركب مالتسان جندي، من جنود سلطان لحج، كمرافق "وكان نصف عار، يعتلي ظهر جمل ركوب، وسلاحه الموشى بالفضة يتلألأ تحت أشعة الشمس. ولليمنيين طريقة خاصة في ركوب الجمال، تختلف عن طريقة الأفارقة. إذ يجلسون أمام سنام الجمل، ويضعون سيقانهم فوق رقبته، مما يجعلهم يبدون في وضع مستقيم. إن أجسامهم، ذات التكوين المهيب، تكتسب عدة ميزات، في هذا الوضع. وعند النظر إليهم يخيل للمرء، بصورة تلقائية، أنه يشاهد تماثيل برونزية قديمة".

وبمرافقة جندي السلطان، توجه مالتسان من الشيخ عثمان، باتجاه لحج. وكانت هناك طريقان، الأولى تمر عبر سهل مرتفع، إلى الشرق من وادي خصيب، تجري فيه سائلة. أما الثانية فتمر عبر الوادي نفسه. ويشير مالتسان إلى أن نيبور قد ارتكب خطأً، عندما سمى السائلة نفسها (مهيدان **Mehaidan**) وكتب الإسم (**Maidam**)، ولم يذكر شيئاً عن السهل المرتفع، الممتد في شرق السائلة[210]. وهذا السهل لايبعد كثيراً عن الوادي المسمى وادي تبن.

سلك مالتسان الطريق المارة عبر السهل، وكانت طريقاً رملية. ولم يكن السهل خال من النباتات. ولكنها نباتات برية قليلة، مع بعض أشجار النخيل المتفرقة هنا وهناك. كما كانت توجد

---

(210) هذه إشارة غير موفقة. فمالتسان، كما يبدو، لم يفهم ماكتبه نيبور، ولم يضع في الإعتبار المنطقة، التي كان نيبور يصفها، أثناء مروره بها. فنيبور لم يذهب إلى عدن ولا إلى لحج، ولم يقدم وصفاً للسهل، الذي اكتشفه مالتسان، ولا للطريق، التي سيسلكها مالتسان في المستقبل. بل كان نيبور يتحدث، وهويمر في منطقة إب، عن السيول، التي تكونها مياه الأمطار، فينحدر بعضها، عبر وادي زبيد، إلى تهامة والبحر الأحمر، وبعضها عبر وادي ميتم ، إلى لحج وعدن. أما كتابة نيبور اسم ميتم (**Maidam**)، بدلاً من **Maitam**، فسببه أن مَخْرجي الحرفين **D**و**T** متقاربان في اللغة الألمانية. وقد اعتمد نيبور في كتابة الأسماء، كما اعتمد غيره من الرحّالة، على السماع. ومع ذلك يبقى اسم ميدم أقرب إلى الصحة من اسم مهيدان، الذي أراد مالتسان أن يصحح به ماعتقده خطأً وقع فيه نيبور(أنظر: **Niebur,Carsten, Reisebeschreibung nach Arabien, B.1,S.397.**).

بعض الآبار. وبعد خمس ساعات من السير، بدت في الأفق كتلة بيضاء. إنه قصر السلطان، الذي بدا من بعيد، كما لو أنه معلق في الهواء. وذلك أن طوابقه العليا كانت مطلية باللون الأبيض، أما السفلى فلونها كلون التراب. وبدأت تظهر حقول مزروعة بالذرة والقطن. لقد وصل الركب إلى وادي تبن الخصيب. وتقع في هذا الوادي مدينة الحوطة، مقر السلطان وعاصمة لحج.

تتكون مدينة الحوطة من عشرين إلى ثلاثين بيتاً، أشبه ماتكون بالقلاع. من بينها بيت السلطان وبيوت اخوته وأقاربه. وليس للمدينة سور. وفوجئ مالتسان، عندما وجد في استقباله رجلاً أوربياً يتحدث الألمانية. وهو الأوربي الوحيد، الذي كان يسكن في لحج، واسمه لاندسبرج **Landsberg**، وجنسيته بولندية. وقد عمل في عدة بلدان أجنبية، كالصين وتركيا، وأخيراً عمل موظفاً لدى سكة الحديد في بومباي، بالهند، ثم وظفه سلطان لحج، مدرباً في سلاح المدفعية. وكان يطلق عليه في عدن، على سبيل المزاح، اسم (جنرال السلطان). استقبل الرجل مالتسان استقبالاً طيباً وأخذه معه، ليسكن في ثكنة المدفعية. ومبنى الثكنة مكون من خمسة طوابق، وله شرفة واسعة، في الطابق الثاني، وضعت فيها مدافع السلطان الخمسة، وهي المدافع الوحيدة الصالحة للإستعمال، التي يمتلكها السلطان. ولم تكن في ذلك المبنى الضخم سوى غرفة واحدة، يمكن السكن فيها، وهي غرفة البرج، في الطابق الخامس. ومنها يشاهد المرء منظراً بديعاً، للأراضي الزراعية المحيطة، ويستطيع أن يرسل طرفه إلى الجبال البعيدة. وكانت للغرفة ثمان نوافذ، لايمكن اغلاقها. وفي تلك الغرفة كان يسكن (الجنرال) مع ثمانية رجال، سود البشرة وأنصاف عراة، يفترض أن يعدهم لاندسبرج ليصبحوا مدفعيين. ويعلق مالتسان على جهد لاندسبرج تعليقاً لايخلو من الإزدراء: إنه "جهد مهدور. فحتى الآن لايريد هؤلاء، ذوو الأدمغة البليدة، أن يفهموا شيئاً". ولاحظ مالتسان أن لاندسبرج قد كيف نفسه على الحياة اليمنية في لحج، فأخذ يشرب القشر ولا يستخدم أثاثاً أوربياً. والشيئ الوحيد، الذي لم يستطع الناس أن يقنعوه به، هو الدين، رغم محاولاتهم. وهذا أمر لم يرتاحوا له "فالتعصب هنا في أوجه. وقد أكرمني الجنرال اليوم وتناول الطعام معي، منفرداً وبالطريقة الأوربية". وبعد الطعام قدم زوار كثيرون، لزيارة مالتسان. وأرسل السلطان إليه دجاجاً وبيضاً، كما أرسل وزيره، ليؤكد له بأن كل شيء سيُعمل، لجعل إقامته في لحج مريحة. ثم توافد عليه المرضى، الذين يعتقدون بأن المواد العلاجية، أياً كان نوعها، تشفي من كل الأمراض. ولذا يتناولون أقراص العلاج بكميات تكفي لأمراض مدينة أكبر بكثير من مدينة لحج.

وفي صباح اليوم التالي شاهد مالتسان، من نافذة البرج، المواطنين المتجهين زرافاة ووحدانا، باتجاه السوق، الذي يقع بجانب مبنى المدفعية. وشاهد (البدو)، وهم يترلون أحمال جمالهم، والبائعين والمشترين، وهم يختلطون، بعضهم بالبعض الآخر. وفي منتصف السوق كانت توجد معصرة زيت، تؤدي عملها بصورة عادية. ويدور الجمل حولها، دون أن تؤثر عليه حشود الناس وازدحامهم. كما كانت هناك دكاكين صغيرة، أبوابها نصف مفتوحة، تماماً كما هو الحال في دكاكين مدينة بير أحمد. وأراد لاندسبرج أخذ مالتسان إلى السلطان، إلا أن الوقت كان مايزال مبكراً "والصحو المبكر ليس عادة مألوفة في قصر السلطان". ولم يكن بالإمكان رؤية السلطان قبل الساعة الحادية عشرة صباحاً. كانت صالة الإستقبال في قصر السلطان في الطابق الثاني، في جناح معزول عن بقية القصر، لاتسكن فيه النساء، اللاتي يعشن في القصر حياة معزولة تماماً. وكانت الصالة مستطيلة وضيقة العرض، عارية من الأثاث تماماً، إلا من مفارش، تغطي أرضيتها وبعض الوسائد الموضوعة في مكان جلوس السلطان. كان السلطان والأمراء يجلسون في إحدى الزوايا، وفي مواجهتهم جلس عدد من الجنود، وفي الوسط الأشخاص، الذين يأتون لمقابلة السلطان، وبعض المدائع موزعة هنا وهناك، وأكواب القشر تقدم للحاضرين. كان منظر السلطان مهيباً. إلا أنه لم يكن يبدو في مظهره من جنوب الجزيرة العربية "فقد كانت بشرته، التي تكاد تكون بيضاء، تفصح عن أصل أسرته، غير المحلي، إذ لابد أنها تنتمي إلى اليمن الأوسط"[211]. وكان هو وأبناؤه وإخوته يرتدون سترة مطرزة بخيوط ذهبية وقمصاناً فخمة، طويلة و(دسمال) "وهو العمامة، التي ترتدى في شرق الهند". أما السراويل فلا ترتديها في لحج سوى النساء. وكان كل شيء في البلاط ساكناً مملاً. وبدا الحاضرون كما لو أنهم لا يميلون إلى الحديث. " وسألت لاندسبرج عن السبب، فأجابني بأن الحال دائماً هو هكذا، قبل الظهر. ولكن الناس ينفتحون للحديث بعد الظهر، وذلك بفضل مادة منشطة، وهي القات، الذي تحدث أوراقه إذا ما مضغت تأثيراً مريحاً منشطاً. وهو ليس نباتاً ضاراً كالحشيش والأفيون. ويبدو أن الجانب السيئ الوحيد في القات، هو أن من اعتاد على تناوله يشعر بالتعاسة، إذا لم يحصل عليه. وينمو القات في المناطق الجبلية المرتفعة، في صبر وقعطبة، على مسافة أربعة أيام من هنا. ويباع في لحج بأسعار باهضة. وأخبرني السلطان بأنه ينفق على شراء القات، له ولأسرته،

---

(211) العبادلة هم من قبائل خولان بن عمرو بن قضاعة. أنظر: الحجري، محمد بن أحمد، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، مادة (العبادلة).

عشرة ريالات يومياً. وهذا مبلغ ضخم، بالمقاييس الحالية. إلا أنه يعتبر تصرفاً غير لطيف منه، إذا لم يعط زواره، الذين يأتون إليه بعد الظهر، بعضاً من القات، عندما يكون هو نفسه يتناوله. وبالطبع فهو لايعطي إلا للزوار الوجهاء. أما أولئك الحاضرون، الذين يجلسون في أسفل صالة الإستقبال، فلا يقدم لهم سوى القشر. ويمكنهم أن يشربوا منه بالقدر الذي يرغبونه".

وفي فترة بعد الظهر وجد مالتسان البلاط في جو آخر تماماً. وكان القات "محطم الهموم" متوفراً بكثرة، في الجهة، التي يجلس فيها الأعيان. وكان يبدو عليهم الإنشراح. أما السلطان فكانت هيئته مختلفة عنها في الصباح. فقد كان يجلس على مرتبته بشكل طبيعي، دون تكلف. وخلع عنه حلته وارتدى فانلة إنجليزية وكوفية وأخذ ينكّت ويضحك، كالآخرين. وكان بين الحاضرين شحات شبه عار، سمح لنفسه أن يقوم بحركات وتصرفات خالية من مظاهر الإحترام، التي يقتضيها مقام السلطان. فقد جلس مرة وجهاً لوجه أمام السلطان، لاتفصله عنه سوى مسافة بسيطة، مما جعل السلطان يرتد بجسمه قليلاً إلى الخلف، وهو أمر لايمكن أن يقدم عليه أحد "ولكن كل شيئ بالنسبة للرجل المقدس مسموح"(212). وتبدو مظاهر الإحترام، التي يظهرها رعية السلطان، وهم يلجون الصالة، هزلية. إذ لاتتناسب مع الجو السائد، الذي يمكن للمرء أن يشبهه بالجو السائد ضمن مجموعة تجلس في حانة. "إذ يتجه الفرد منهم إلى السلطان، الذي لايظهر أي اكتراث، فيجثو ويقبل ركبته، إذا استطاع الوصول إليها، مالم فيقبل طرف المرتبة، التي يجلس عليها. أما السلطان فلايبدو على ملامحه أي تعبير، بل يستمر في الحديث والضحك، دون انقطاع. وينسحب الرعوي، دون أن ينتبه له أحد، ينصرف إلى الجهة الأخرى من الصالة، حيث ينتظره القشر". وأخيراً جاء موعد الصلاة. وباعتبار أن القصر محافظ دينياً، فقد كان طبيعياً أن يهب الجميع لتأدية الصلاة، خلف إمام طاعن في السن.

وبعد زيارة قصر السلطان واتت مالتسان الفرصة لزيارة منافسه عبد الله. ففي اليوم التالي همس لاندسبرج في أذنه بسؤال، فيما إذا كان يرغب بزيارة المتمردين أيضاً؟ ولم يكن يعرف،كما يقول شيئاً عن أحد منهم "ولكن مجرد اسم متمرد، كان كافياً لجعل القيام بمثل هذه الزيارة أمراً مشوقاً". ويقدم مالتسان بعد ذلك معلومات عن ذلك المتمرد، ويصف زيارته له. فيذكر أن

---

(212) أضفى مالتسان على الشحات صفة روحية، واعتبره رجلاً مقدساً، دون أن يعطي تفسيراً لذلك.

لاندسبرج لم يستطع مرافقته، خشية من استياء السلطان. لذا كلف أحد الهنود بالذهاب معه. وكان ذلك المتمرد أخاً غير شقيق للسلطان، واسمه عبدالله. ولأنه أكبر سناً من السلطان، فقد كان من حقه أن يتولى منصب السلطان. ولكنه استبعد. وأدى استبعاده إلى أن يعلن تمرده ويطلق على نفسه لقب (سلطان) ويدخل في صراع على السلطة مع أخيه. ولم ينته الصراع، إلا قبل وقت قصير. وكان قصر عبدالله يقع في حي آخر، من أحياء المدينة. وخلال الصراع ساد انقسام في المدينة، فنشأ معسكران: معسكر مؤيد للسلطان الحالي، ومعسكر مؤيد لأخيه الأكبر عبدالله. ولم يستطع السلطان أن يسيطر على الوضع، إلا بعد أن دعم موقفه العسكري باستحداث وحدة المدفعية. مما اضطر أخاه عبد الله إلى قبول الصلح، مقابل مبلغ من المال، يصرف له سنوياً. ورغم الصلح، فإن الود مايزال مفقوداً بين الأخوين. فعبدالله لايزور بلاط السلطان أبداً. وموقف عبدالله داخل الأسرة موقف ضعيف. فهو الأخ الوحيد غير الشقيق. أما الباقون فكلهم أخوة أشقاء للسلطان. ولعل هذا هو السبب وراء عدم تمكينه من تولي منصب السلطان، رغم أنه أكبر اخوته سناً.

كان قصر عبد الله أشبه بالقلعة، ويتكون من خمسة طوابق، وفي أطرافه أبراج ضخمة. أما المدخل إليه فيمر عبر بوابة، في بناء متقدم. وكان يبدو بمجمله كحصن محاط بالأعداء. ولم تفتح البوابة لمالتسان ومرافقه، إلا بعد اطلاق عدة طلقات للتحية. وفتح البواب، وقدم عبدالله، سيراً على الأقدام. وكان يبدو عليه عدم الإطمئنان. "ولكنه عندما رأى أوربياً لايخشى منه التدخل في شؤونه، أضحى أكثر لطفاً". وكان عبد الله ضخماً في هيئته، غير أنه يختلف في لون بشرته عن أخيه السلطان. فقد كان داكن البشرة، ولم تكن ملابسه مختلفة عن ملابس المواطنين. إذ كان نصف عار. واصطحب مالتسان لا إلى القصر، بل إلى قاعة منفصلة عن القصر، كما هو الحال لدى سلطان العقارب. وكان في القاعة مجموعة من الناس، فله أتباع بين المواطنين. "ومن يدري، فلربما، لولا موقف الإنجليز، لكان عبد الله قد انتصر على أخيه". ولم يكن عبد الله يشبه أفراد الأسرة الحاكمة الآخرين "فأمه حميرية". ومنها أخذ لونه الأسود. والحميريون لايوجدون إلا في أقصى

جنوب اليمن، "ويعرفهم المرء من بشرقم السوداء"[213]. ويختلف عبد الله عن أمراء البيت الحاكم بصفة أخرى، وهي أنه ليس بديناً.

كان عبد الله حذراً في حديثه مع مالتسان، في بادئ الأمر "فقد اعتبرني إنجليزياً، وهذا أمر طبيعي، إذ يكاد الإنجليز أن يكونوا الأوربيين الوحيدين، الذين يأتون إلى لحج. ولأنهم يدعمون أخاه، فقد اعتبرني صديقاً لأخيه. ولم أتمكن من اقناعه بحياديتي، إلا بعد جهد. أما جنسيتي، فقد كان من الصعب علي افهامه. فألمانيا ماتزال في هذه المنطقة بلداً غير معروف". ولا يعرف المواطنون هنا من الأوربيين إلا الإنجليز والفرنسيين. فإذا لم يكن المرء انجليزياً، فلابد أن يكون فرنسياً. أما الأمم الأخرى في أوربا، فلا يعرفون عنها شيئاً. ورغم ذلك فقد دار الحديث طوال الوقت عن الحرب، بين ألمانيا وفرنسا. وكان عبد الله يعرف آخر أخبار الحرب، "فكل عربي لديه اهتمام بالحروب. ولكن دون محاولة التعرف على البلدان المشاركة في الحرب"[214]. وخلال اقامة مالتسان في لحج تكررت زياراته لعبد الله، بشكل شبه يومي، حتى اطمأن إليه، وأطلعه على خطة، وصفها مالتسان بأنها خطة جريئة، وجزم بأن عبد الله لايمكن أن يكون قد توصل إليها من ذات نفسه، ولابد أن أحد الأوربيين قد أوحى بها إليه "لقد استغربت وأنا أستمع إليه، وهو يعرض خطته، فلا يمكن أن يكون قد توصل إليها بمفرده، ولابد أن وراءها أحد الأوربيين". وبعد استقصاء وبحث، توصل مالتسان إلى اكتشاف الشخصية الأوربية، التي كانت وراء هذه الخطة "أخيراً عرفت من أدخل في رأس عبد الله الطيب هذه الفكرة، إنه غلام فرنسي، عاش منذ فترة قصيرة منفياً في لحج، حيث أرسله ولي أمره، الذي كان تاجراً غنياً في عدن، لعل ذلك الغلام يقلع في لحج عن استلاف المال. فقد راكم على نفسه، رغم صغر سنه ، ديوناً كبيرة". وتتلخص الخطة، التي أدخلها ذلك الغلام في رأس عبد الله، في أن يستعين بالفرنسيين، الذين سيمدون يد المساعدة إليه، ويتولون طرد الإنجليز من عدن، ثم طرد أخيه السلطان، من لحج، ليتولى هو بعد ذلك السلطنة. وكان مالتسان يود أن يصرف عبد الله عن تلك الخطة الجرئية، ويبين له خطأها. إلا أن هذا غير ممكن

---

(213) يظهر جهل مالتسان واضحاً، كلما تحدث عن الأصول السلالية في اليمن.

(214) وكأن هذه النظرة إلى العربي، عميقة في العقل الأوربي، إلى حد أن صداها يتردد اليوم، ولكن بشكل أكثر حدة. فالعربي يهتم بالحرب، لمجرد أنها حرب، دون أن تعنيه أطرافها، فهو يعشق بطبعه العنف، ويتحول إلى إرهابي، بشكل تلقائي. أليست هذه هي الصورة الراهنة للعربي في الفكر الأوربي المعاصر؟

"فلو حاولت معه لشك بي، واعتقد بأن الإنجليز قد خافوا، وأنني إنجليزي، بعثت لأصرفه عن تلك الخطة"[215]. وبعد أن يصل بنا مالتسان إلى هذا الإشكال، الذي لم يجد له حلاً، تحول إلى وصف احتفال في لحج، بمناسبة إطهار طفل، من أحفاد السلطان.

لا يتم اطهار الأولاد وهم في سن الثامنة إلى الثانية عشرة، كما هو الحال لدى الأتراك ولدى عرب شمال أفريقيا، وإنما يتم في اليوم السابع من العمر، تماماً كما هوالحال لدى اليهود. بدأ الحفل بتجمع الناس في صالة الإستقبال، بقصر السلطان. فهناك كان الأمراء يجلسون بجانب من الصالة، التي كانت مضاءة بمئات من أسرجة الزيت الصغيرة. وأعدت وليمة عشاء عامرة. فقدم للشعب الهريش، المكون من دقيق الذرة وزيت السمسم واللحم. أما الجانب من الصالة، الذي يجلس فيه الأعيان، فقد قدمت لهم البسّيسة **Bassisa**، المكونة من دقيق القمح والسمن والعسل[216].

ولفت نظر مالتسان خلو طعام اليمنيين من الخضروات، فمن الغريب أن اليمنيين لايأكلون الخضروات، رغم أنها تنمو هنا نمواً رائعاً. ولكنها لاتلقى لديهم قبولاً، ولا يأكلها سوى الأوربيين والهنود، في عدن. وهناك فرق كبير بين اليمنيين، من ناحية والمصريين والمغاربة والأتراك، من ناحية أخرى. فهؤلاء "يفضلون أن يستغنوا عن اللحم، ولايستغنوا عن الخضروات. وحتى العدس والفول، اللذين يشكلان مادتي طعام أساسيتين، بالنسبة لجميع سكان البلدان العربية والإسلامية، لايعرف المرء عنهما هنا، إلا سماعاً". إن اليمنيين في عزوفهم عن الخضروات، لايشبهون سوى الأحباش، غير أن الأحباش أكثر استهلاكاً للحم من اليمنيين، وأقل استهلاكاً للدقيق.

---

(215) هذه صورة أخرى من صور المبالغات والإثارة، التي تهدف إلى إدهاش القارئ الأوربي. فغلام فرنسي، لم يبلغ الحلم، ومازال تحت الوصاية، يزين للأخ الأكبر لسلطان لحج، أن يستعين بالفرنسيين، ليطردوا الإنجليز من عدن ويبعدوا أخاه السلطان، ويضعوه مكانه. هذه الخطة، التي وصفها مالتسان بالجريئة، لايمكن أن تكون إلا أحلام مراهق انطلت على رجل غبي، هذا إن كان مارواه مالتسان صحيحاً. ووصف مالتسان لها بالخطة الجريئة، ليس إلا تعبيراً عن ضحالة في التفكير. أما كون هذه الخطة العبقرية، لايمكن أن يتفتق عنها عقل أحد أمراء البيت الحاكم، ولايمكن أن تكون إلا من بناة أفكار شخص أوربي، فهو تعبير عن تعالي وغرور، وإحساس متضخم بتميز الأوربيين، عن غيرهم من البشر، نلمسه لدى مالتسان، في مجمل وصفه لرحلته.

(216) الهريش، الذي يصفه مالتسان، هو غير الهريش، الذي نعرفه. ومكونات البسّيسة **Bassisa**، التي ذكرها هنا، ولم أستطع أن أفهم ماهي، هي نفس مكونات العصيد، التي وصفها، في رحلته إلى بلاد العقارب. ويبدو أن وصفه في الحالتين غير صحيح. مالم يكن قد طرأ تغيير على أسماء الأطعمة في اليمن، ومواد تحضيرها، خلال المئة عام الماضية. فالعصيد تحضر عادة من طحين الذرة ويضاف إليها الزيت، كما هو الحال في بعض المناطق الجنوبية والشرقية، أو يضاف إليها مرق اللحم، أو الزوم (الحقين المغلي)، كما هو الحال في المناطق الوسطى، أوالحقين (حقين غير مغلي) في مناطق أخرى. وأما الهريش فيحضر من هريش القمح، ويضاف إليه مرق اللحم.

وبعد تناول الطعام، ومشاركة مالتسان الأعيان، في تناول العصيد، على كره منه ومجاملة للسلطان، قُدمت قهوة القشر. ثم بدأ المرح والتسلية. فطاف أحدهم بالطفل على الآخرين، ولم يكن قد أُطهر بعد. إذ أن مراسم الإطهار تتم في منصف الليل. وتمت مراسم الإطهار بطريقة لم يشاهدها مالتسان من قبل. حيث قام بعملية الإطهار يهودي من صنعاء، اعتنق الإسلام واستقر في لحج، وأجراها بمهارة يفتقر إليها المسلمون، حيث استخدم سكيناً حاداً. أما المسلمون "فلا بد أنهم يستخدمون الجنبية"[217]. واليمنيون عموماً يطهرون فتياهم، باستثناء بعض القبائل[218].

أقيم بهذه المناسبة حفل رقص وغناء. وهو أمر غير عادي، ولايحدث إلا نادراً. على خلاف الحال في مصر والشام وتركيا. فاليمنيون لايميلون إلى هذا النوع من التسلية. ونساؤهم لايجوز أن يرقصن أو يغنين. إذ أن الرقص والغناء، بالنسبة للمرأة، يمكن أن يكون طريقاً إلى الرذيلة. ولذا لاتمارسهما سوى نساء فئة، ينظر إليها كفئة منبوذة، لاتنتمي إلى القبائل، رغم أنها من فئات المجتمع المحلي. ولا يرتبط الغناء والرقص بالرذيلة، بالنسبة لنساء هذه الفئة. فاليمنيون، الذين ينتمون إلى القبائل، شديدو الإعتزاز بأنفسهم، إلى حد أن أحدهم لايمكن أن تسول له نفسه بممارسة الرذيلة مع امرأة من نساء المنبوذين. ولم يحضر السلطان، وهو شخص محافظ، لم يحضر حفل الغناء والرقص، الذي لايتناسب مع مكانته الرفيعة.

كانت المغنية تختلف في ملامحها وشكلها عن النساء اليمنيات الأخريات. فليست رشيقة ممشوقة مثلهن. بل قصيرة وضئيلة الحجم، وتقاطيع وجهها مختلفة تماماً. فهي تقاطيع غير متناسقة وأنفها أفطس مفلطح، وشفتاها غليظتان. ومع أنها ليست جميلة بأي حال، فإن عينيها جميلتان، إلى حد أنهما ولدتا لدى الحاضرين جميعهم انطباعاً لطيفاً. ودلت حركاتها وأداؤها على ذكاء وموهبة. وكانت أغانيها أغاني محتشمة "فالأغاني البذيئة لايعرفها العرب عموماً". كانت طريقة غنائها وإيماءاتها وتغير ملامح وجهها وصوتها، وفقاً للكلمات ومعانيها، طريقة عفوية بديعة، لاتكلف فيها، وتبدو إلى جانبها حركات راقصات الباليه سمجة وغير طبيعية[219]. إن لها موهبة تعبيرية "لايمكن أن

---

(217) هذا القول لايحتاج إلى تعليق. فمالتسان لم يشاهد مسلماً قام بعملية إطهار، لابالجنبية ولا بأداة أخرى. والأمر هنا مجرد تخمين غير صحيح، كما هو حاله في كثير من تخميناته.

(218) هذا مثال آخر لتخمينات مالتسان.

(219) هذه بعض من مبالغت مالتسان العفوية.

تكون قد اكتسبتها عن طريق الدراسة، بل عن طريق المران. وكان لديها الوقت الكافي، لهذا المران. فهي كبيرة السن، ولكن المرء ينسى حتى كبر سنها، أمام أدائها الرائع". كانت كلمات إحدى أغانيها، تسجيلاً دقيقاً لمعالم الجمال، من الرأس إلى القدم. وكانت تحتوي على تحذير للمحب، ونصح له، بأن يحمي نفسه من سطوة هذا الجمال وسحره.

وبعد أن يعبر مالتسان عن اعجابه ونشوته، يقدم ترجمة لكلمات الأغنية، التي أشار إليها وأُخذ بها،. منبهاً إلى أن الترجمة تفقد الأغنية روعتها وعمق معانيها. وتتكون الترجمة من أربعين بيتاً، ترجمها شعراً مقفى باللغة الألمانية. وهي عبارة عن وصف لأعضاء الجسد، عضواً عضواً، تبدأ المغنية بالتحذير من تأثير العضو، ثم تتبع التحذير بوصف سحر ذلك العضو وجماله. فعند تناولها للعينين، مثلاً، تبدأ بالتحذير من تأثيرهما، ثم تصف سحرهما وجمالهما. وهكذا تحذر ثم تصف، متناولة عضواً فعضواً، من الرأس، وحتى القدمين. وينهي مالتسان ترجمته بالقول: "وهكذا يرى المرء، أن هذا التسجيل للجمال لم يكن يترك أي عضو من أعضاء الجسم". وبعد أن انتهى الغناء، قام بعض الرجال بالرقص. وأخيراً أنشد البدو والحاضرون أناشيد الحرب. ورافقت كلمات الأناشيد حركات أجسامهم وشعورهم المرسلة "وكانوا يعدون في الصالة كالمجانين. آناً يمثلون حركات قتال، بحرابهم، وآناً يمثلون مطاردة وهروب". وكانت أناشيدهم قصيرة. كل عبارة تتكون من كلمات محدودة جداً. وتتكون الأنشودة من ثلاث أو أربع عبارات فقط. ومع ذلك يسمونها قصيدة. وتحكي غزو العدو والقضاء عليه وسبي أمواله ونسائه. واستمرت حفلة التسلية والمرح إلى منتصف الليل. حيث حانت لحظة الإطهار. وبعدها تناول الجميع قهوة القشر، ثم انصرفوا، بصمت، وسط الظلام. وبذا انتهى وصف مالتسان لرحلته إلى لحج.

رحلة شابيرا Schapira

شابيرا هو تاجريهودي من القدس، كان يشتغل في تجارة الكتب والتحف القديمة. وذهب في رحلة عمل إلى برلين، ومنها إلى بريطانيا، وتمكن البروفسور هاينرش، كيبرت **Heinrich Kiepert** أن يحصل منه على تفاصيل عن رحلته، التي قام بها إلى اليمن، في الفترة من يونية إلى سبتمبر من عام ١٨٧٩م، وقام بنشرها في إحدى المجلات العلمية.

كان هدف رحلة شابيرا إلى اليمن البحث عن مخطوطات قديمة وقطع أثرية، للمتاجرة بها. وقد غادر عدن في تاريخ ١١ يونية١٨٧٩م، يرافقه أحد اليمنيين، على جملين. وبعد مسير ثلاث ساعات ونصف الساعة بدت غابات النخيل، قرب قرية الشيخ عثمان. وواصلا سفرهما سبع ساعات أخرى، على الرمال، حتى وصلا إلى لحج. ويؤكد شابيرا بأن المياه العذبة متوفرة بكميات كبيرة، في الوادي، الذي تقع فيه لحج، وينقل منها يومياً حمل خمس مئة جمل إلى عدن، المدينة التجارية كثيرة السكان وعديمة المياه.

وفي ١٢ يونيه واصل شابيرا ومرافقه سفرهما من لحج لمدة ثلاث ساعات، وسط سهل مغطى بالحشائش، التي يبلغ ارتفاعها قامة إنسان. وتباع تلك الحشائس في سوق عدن، علفاً للخيول. بعد ذلك بدأت الطريق ترتفع شيئاً فشيئاً، ليصلا بعد سفر تسع ساعات إلى حصن في قمة جبل، يسكن فيه السلطان علي المهري **Ali el Mahari** "وهو واحد من قطاع الطرق المعروفين في جنوب بلاد العرب". واستغرق التفاوض معه يومين، لمنحهما تصريحاً بالمرور في منطقته.

وفي ١٥ يونية واصلا سفرهما، لمدة ساعتين، في منطقة مرتفعة فسيحة، أخذت طبيعة الأرض فيها تتغير بشكل كلي. فالطريق نفسها بدأت تأخذ مسارها في وادي عريض، لكنه جاف، ومحاط في جانبيه بمرتفعات صخرية عالية. وبعد سفر ست ساعات باتا ليلتهما قرب إحدى الآبار.

وفي ١٦ يونية واصلا سفرهما، في الوادي نفسه، لمدة أربع ساعات، على طريق ازداد وعورة، كلما تقدما فيه. واستراحا عند بئر عذبة المياه، اسمها **Bir el-Maschrur**. ثم واصلا السفر لمدة ساعتين، صعوداً في جبل ، حتى أعلاه، يحمل الإسم نفسه، **el-Maschrur**، وهبطا بعد ذلك إلى سهل مغطى بالقرى، وسارا فيه أربع ساعات، ليصلا عند المساء إلى بئر، باتا ليلتهما بجانبها.

وفي ١٧ يونية واصلا سفرهما خمس ساعات، في وادي عريض، مليئ بالحقول الزراعية، حتى وصلا إلى مدينة صغيرة، اسمها جليلة Qolaila[220]، تقع في أول منطقة تابعة للعثمانيين. ومع ذلك لايوجد فيها موظفون عثمانيون. فأول نقطة جمرك عثمانية تقع على بعد ساعتين ونصف الساعة من الجليلة، أي في قرية المنادي Menada، التي باتا ليلتهما فيها، في سمسرة تاجر يدعى (البسيسي). وناما نوماً مريحاً، مقارنة بالليالي السابقة.

وفي ١٨ يونية واصلا سفرهما لمدة أربع ساعات، في مناطق زراعية مأهولة، كانا يمران فيها بقرية في كل نصف ساعة، حتى وصلا جبل عزاب Asab، الذي استغرق صعوده ساعتين ونصف الساعة، حتى بلغا قرية عزاب، الواقعة في أعلى الجبل.

وفي ١٩ يونية هبطا لمدة ساعتين، نحو وادي. ثم صعدا، لمدة ساعتين ونصف الساعة، في جبل ينبسط إلى الشمال منه وادي بنا. ثم واصلا سفرهما، ساعتين ونصف أخرى، حتى وصلا مدينة النادرة. وهي مدينة غير مسورة، تتكون من حوالي أربع مئة بيت، مبنية بالحجارة. وفيها قلعة.

وفي ٢٠ يونية انطلقا من النادرة، عبر الوادي، لمدة ساعتين ونصف الساعة، قطعا خلالها السائلة ست مرات، حتى وصلا إلى مدينة فيها سوق كبير، وهي مدينة السدة، التي تتكون من حوالي مئتي بيت، يسكنها مسلمون ومئة وعشرين، إلى مئة وخمسين بيتاً، يسكنها يهود. ويتكون السوق من خمسة أو ستة صفوف طويلة، من الدكاكين، المحدودة الإرتفاع، والمغطاة بسقوف من عيدان الخشب المتشابكة. وأغنى التجار هم اليهود. وتعتبر السدة، بالنسبة لحركة الإتصال، المركز الرئيسي في الطريق التجاري الكبير، الذي يربط مدينة صنعاء بمدينة عدن. ولكن هذه الطريق وعرة، في بعض أجزائها. لذا فإن منتوجات المناطق، الواقعة إلى الشمال من مدينة السدة، ولاسيما البن، تحمل إلى ميناء الحديدة، القريب في الغرب، لا إلى عدن. وأمضى شابيرا ثلاثة أيام في السدة، يبحث عن جملين بديلين للجملين، اللذين استأجرهما من عدن، واللذين بدا أنهما لا يناسبان المناطق الجبلية، بسبب تعودهما على المناطق الساحلية المنبسطة.

---

(220) ورد اسمها هنا (قليلة Qolaila). ولكن اسمها الصحيح هو الجليلة، التي ذكر رحّالة آخرون، بأنها تقع في الحد الجنوبي للمنطقة الشمالية، التي كان يحكمها الأتراك. وهي قرية معروفة إلى اليوم، بالقرب من الضالع.

وفي ٢٣ يونية غادر شابيرا ومرافقه مدينة السدة. فعبرا أولاً وادي بنا، ثم سارا على طريق، صعوداً، نحو ساعة من الزمن، وانبسطت الطريق بعد ذلك أمامهما، دون صعود أو هبوط، مدة خمس ساعات، حتى وصلا منابع الماء، الذي يجري في وادي بنا. وواصلا السفر أربع ساعات أخرى، حتى وصلا مساءً إلى مدينة يريم وباتا فيها ليلتهما، ليسيرا بعد ذلك على الطريق نفسه، الذي سار عليه نيبور، قبل مئة وعشرين عاماً[221]. ومدينة يريم مدينة مسورة. وتتكون من مئتي بيت. وفيها قوة عثمانية، يبلغ تعدادها أربع مئة رجل.

وفي ٢٤ يونية واصلا سفرهما من يريم، في منطقة زراعية، تكثر فيها زراعة الحبوب، كالذرة البيضاء والحمراء والدخن. واستراحا قليلاً عند الظيهرة، بعد سفر أربعة ساعات، في مقهاية، ثم واصلا السفر، لمدة أربع ساعات أخرى، في منطقة صخرية، حتى وصلا مدينة ذمار، وهي مدينة مزدهرة ومسورة، بسور ترابي. ويبدو حجمها مساوياً لحجم مدينة غزة الفلسطينية. ويبلغ عدد سكانها من الذكور سبعة آلاف مسلم وثلاثة آلاف يهودي. ولكن هذا الإزدهار سريعاً ماقضي عليه في اليوم نفسه، الذي غادر فيه شابيرا المدينة. وذلك على أيدي المتمردين، من الجنود، الذين ربما كان سبب تمردهم توقف الأتراك عن دفع رواتبهم. وقد نهبت المدينة، خلال الخمسة أيام التالية. ووقع فيها الخراب.

ترك شابيرا ومرافقه مدينة ذمار في ٢٦ يونية ومرا عبر أراضي زراعية كل حقل فيها يروى بواسطة جمل، يضخ الماء من بئر، ضخاً متواصلاً. وتاها لبعض الوقت وسط الحقول، في طريق ملتوية. وبعد تسع ساعات بلغا مدينة زراجة، التي تتكون من حوالي ست مئة إلى سبع مئة بيت، وفيها بعض من الأتراك، لايكفي عددهم لحمايتها من اللصوص.

وفي ٢٧ يونية واصلا سفرهما ووصلا في المساء إلى مدينة سيان، الواقعة على سائلة واسعة. ويبلغ عدد بيوتها حوالي ثلاث مئة إلى أربع مئة بيت.

وفي ٢٨ يونية انطلقا من سيان، ليصلا إلى العاصمة صنعاء، بعد سفر سبع ساعات تقريباً. وصنعاء مدينة مسورة "وقد استغرق طواف شابيرا، حول سورها، وهو راكب على ظهر حمار،

(221) مر نيبور على هذه الطريق عام ١٧٦٣م، أي قبل مرور شابيرا بمئة وستة عشر عاماً.

يسير بخطوات غير سريعة، خمس ساعات ونصف الساعة. وحجمها، بحسب تقديره، يساوي حجم مدينة دمشق، وعدد سكانها مئة إلى مئة وخمسين ألفاً. وفي هذا مبالغة كبيرة"[222].

والحي الذي يسكنه المسلمون محاط بسور خاص، وبيوته عالية، يبلغ ارتفاعها ستة إلى سبعة طوابق. ويستخدم في نوافذها رخام رقيق جداً، بدلاً من الزجاج. والباشا العثماني هو الشخص الوحيد في جنوب الجزيرة العربية، الذي يمتلك عربة. ولكي يتمكن من استعمالها، أمر بشق طريق من وسط الحي الإسلامي. ولكنها لاتوصل إلا إلى الحي اليهودي. ومن الأمور غير العادية في هذا البلد، أنها توجد على هذه الطريق، ثلاث إلى أربع مقاهي، يمتلكها يونانيون. ويتوفر فيها حتى لعبة البليارد الفرنسية، التي يمضي فيها الموظفون والضباط الأتراك أوقات فراغهم. وفي قاع بير العزب، يوجد الحي اليهودي، المكون من ألف وأربع مئة بيت وأربعة معابد يهودية كبيرة، وسبعة عشر معبداً صغيراً، وأربع وعشرين مدرسة. ويبلغ عدد الأتراك في صنعاء حوالي أربعة آلاف رجل. وفي مستشفاهم، المجهز تجهيزاً جيداً، يوجد ثلاث مئة وثمانية عشر سريراً. وتشتهر الأراضي الزراعية، المحيطة بصنعاء بفواكهها المختلفة، كالفرسك واللوز والعنب...إلخ.

ومن صنعاء قام شابيرا بزيارة عمران، التي تبعد مسافة اثنتي عشرة ساعة، إلى الشمال الغربي من صنعاء "وبحسب علمنا لم يسبقه إلى زيارتها أحد من الأوربيين، حتى الآن". وتنتشر على امتداد الطريق، من صنعاء إلى عمران، في اليمين والشمال، وعلى امتداد النظر، حقول البن. أما مدينة عمران فهي مدينة محاطة بسور قديم جداً، ينتشر عليه حوالي مئة برج[223]. وكثير من الأحجار فيها تحمل نقوشاً قديمة. ولفت انتباه شابيرا ولع السكان الشديد بالورود. إذ كانت نوافذ المنازل كلها مزينة بها. ويبلغ عدد سكانها بين ثمانية إلى عشرة آلاف نسمة. من بينهم حوالي ألف وخمس مئة يهودي. ومن عمران اتجه شابيرا إلى جبل كوكبان، المليء بالقرود، والمغطى بأشجار البن. ومن كوكبان عاد إلى صنعاء.

وفي ١٤ سبتمبر غادر شابيرا صنعاء نحو الساحل. فبدأ أولاً بالصعود إلى جبل نقم، حيث جمع بعض الأحجار الكريمة، المعروفة بالياقوت، أو (العقيق اليماني). ثم سلك الطريق الغربي المؤدي إلى الساحل. وبات ليلته الأولى في قرية متنة.

---

(222) يستند كيبرت في ماذهب إليه من أن تقدير شابيرا لحجم صنعاء ولعدد سكانها، كان تقديراً مبالغاً فيه، إلى تقديرات مانسوني، الذي زار اليمن خلال الأعوام من ١٨٧٧م، إلى ١٨٨٠م وقدر عدد سكانها بخمسة عشر ألف نسمة، ومحيطها بحوالي ميل ونصف ميل ألماني (حوالي ١١ كيلو متر).

(223) يلاحظ في تقديرات شابيرا بعض المبالغة. قارن هذا بما أشار إليه البروفسور كيبرت، بالنسبة لعدد سكان صنعاء ومحيط سورها.

وفي ١٥ سبتمبر واصل سفره في الجبال، يصعد مرة ويهبط أخرى، لمدة سبع ساعات، إلى أن توقف في سوق الخميس. وفي ١٦ سبتمبر واصل سفره مدة ثمان ساعات، سار معظمها في طريق ممتد على سائلة. وبات ليلته في سوق الجمعة.

وفي ١٧ سبتمبر استبدل الجمال بحمير وصعد على طريق جبلية وعرة، مدة ثمان ساعات، حتى وصل مدينة مناخة، عاصمة منطقة جبل حراز، الغني بأشجار البن، الذي أصبحت ثماره الآن، بعد افتتاح قناة السويس، تصدر من الحديدة إلى مرسيليا(224). ولحماية مزارع البن، تنتشر على جميع المرتفعات أبراج الحراسة. ولايسكن في مناخة سوى قليل من المسلمين. بينما يوجد فيها ثلاث مئة منزل لليهود. وهذه النسبة، بين المسلمين واليهود في مناخة، هي نفسها النسبة السائدة في منطقة حراز كلها(225).

وفي ١٨ سبتمبر هبط شابيرا من جديد إلى سوق الجمعة، حيث بات ليلته هناك. وفي اليوم التالي، ١٩ سبتمبر، واصل سفره في أرض منبسطة، حتى وصل إلى قرية كبيرة، بيوتها عبارة عن أكواخ، وسكانها سود البشرة، وهي قرية **Bet el-Qeble**. ثم واصل سفره، على نفس المنوال، ليصل في ٢٢سبتمبر إلى باجل، التي قدر عدد أكواخها بخمسة آلاف كوخ(226). ويشتغل السكان في باجل، بشكل عام، في معامل لصناعة أغطية الرأس، من لحى النخيل. وهي أغطية تستخدم لحماية الرأس من حرارة الشمس العامودية الحارقة. وحتى الأتراك يغطون رؤوسهم بها. وتقيم في باجل حامية تركية مكونة من ألفي رجل. وبسبب حرارة الشمس الشديدة، خلال النهار، يفضل المسافرون السفر في الليل. وقد استغرق شابيرا في سفره، من باجل إلى الحديدة، ستة عشرة ساعة. وبذلك انتهت رحلته، ذات الدوافع التجارية.

---

(224) كان البن اليمني في القرن الثامن عشر أهم سلعة يمنية تصدر إلى الخارج، وكان يتم تصديره من عدة موانئ يمنية، منها: جيزان واللحية والحديدة وعدن والمخا، وهو أهمها، وإلى إسمه نسب البن اليمني (مكا كافي) ذو الشهرة العالمية. وكان يصدر من هذه الموانئ إلى جدة، ومنها إلى مصر وتركيا، وصولاً إلى أوربا، ثم أصبح ينقل من ميناء المخا، بالسفن الأوربية، مباشرة إلى أوربا. كما كانت السفن العمانية تنقله إلى مسقط والبصرة وموانئ الخليج. أنظر كتابنا (المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن، ص ١٦٧، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٠م.

(225) هذه النسبة تبدو واحدة من جملة المبالغات، التي وقع فيها شابيرا.

(226) إعتبر البروفسور كيبرت بأن هذا التقدير مبالغ فيه.

رحلة لودفيج اشترُس Ludwig Stross

الأوضاع السائدة في اليمن

في مطلع شهر مارس من عام ١٨٨١م اتجهت من جدة، مقر إقامتي، عبر سواكن ومصوع، إلى الحديدة في اليمن، لإنجاز بعض الأعمال في صنعاء. ومكثت في الحديدة أربعة أيام فقط. وكانت الحديدة تزدهر على حساب جدة. وعلى أي حال فإن جدة فقدت، منذ افتتاح قناة السويس، كثيراً من أهميتها، كميناء أول في البحر الأحمر ومستودع لتخزين البضائع، وغدت مصوع اليوم تستورد الجلود، كما تستورد سواكن الصمغ والحديدة البن[227] مباشرة، وليس كما كان الحال من قبل، عن طريق ميناء جدة. وفي الحديدة يوجد حالياً قنصل فرنسي، عين مؤخراً، وأربعة أو خمسة إيطاليين وفرنسيين، وحوالي ثلاثين من اليونانيين، الذين تراهم في كل مكان، ويعيشون بصورة عامة من تجارة مشروبات العرق، وتزدهر تجارتهم هذه، رغم الإسلام والرسول.

لقد وُصفت الطريق من الحديدة إلى صنعاء مراراً، بحيث يمكن أن أضرب صفحاً عن الوقوف عند تفاصيلها. إنطلقت رحلتي من الحديدة، عبر باجل وحجيلة ومناخة وسوق الخميس وسنان باشا، إلى صنعاء. ومن الطرائف، التي أود ذكرها، أنه قبل أيام قليلة من صولى إلى مناخة، أرسل الحاكم (القائم مقام)، كل رجال مناخة تقريباً، حوالي ١٢٠٠ رجلاً، لصيد القرود. فقد طلب السلطان التركي حيوانات، لمعرض الحيوانات الخاص به. وكان هذا سبباً كافياً لإرسال رجال المدينة بكاملها، ولعدة أيام متوالية (دون أجر)، لصيد القرود. وتم صيد ٤٣ قرداً. وخلال ذلك تعرض أحد البائسين العرب إلى عضة قرد، خلعت كفه من مفصله تماماً. وأراني القائم مقام قرداً شديد الضخامة، وله لحية ضخمة، بنية اللون.

ومن مناخة إلى صنعاء كان البرد في الليل قارساً جداً. وفي الليلة الأخيرة من رحلتنا، هطلت الأمطار بغزارة. وتبدو صنعاء، التي وصلناها قبل الفجر، تبدو من بعيد وكأنها حذوة حصان. وقد

---

(227) لم تكن الحديدة تستورد البن عن طريق ميناء جدة، في أي وقت من الأوقات. فمصدر البن كان اليمن، وكان يصدر من موانئ اليمن، بما فيها ميناء الحديدة، إلى موانئ عديدة، ومنها ميناء جدة.

نشأ شكلها هذا، بسبب وجود حي اليهود داخل سور منفصل عن المدينة، التي بدورها تقع داخل سور آخر، ويقطنها المسلمون. وعلى المساحة الفاصلة بين السورين يوجد قصر الوالي وبعض المنازل، التي لاشك في أن ساكنيها من كبار الضباط الأتراك. وتقع صنعاء، بحسب تقديرات الهيئة العامة التركية، على ارتفاع ٢٨٠٠ متر عن سطح البحر، ويبلغ عدد سكانها حالياً حوالي ٢٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠ نسمة. وهو عدد لايتناسب بأي حال مع المساحة الكبيرة للمدينة. ويوجد عدد لايحصى من المنازل الخالية من السكان. ويمكن للمرء أن يستأجر منزلاً كبيراً، مكوناً من ثلاثة طوابق، بمبلغ ثمانين دولاراً في العام. والمنازل مبنية بناءً ممتازاً. ونوافذها من الزجاج الملون، الذي يشاهده المرء في كل أنحاء اليمن. ولكن في الحديدة، كما في كل المدن الواقعة على البحر الأحمر، ليس للمنازل نوافذ كهذه، بل مجرد درفة من الخشب، يسميها العرب طاقة. أما النقود المتداولة، فيوجد في اليمن ريال ماريا تيريزا، كما توجد، بقدر محدود جداً، عملة تركية. أما العملة الذهبية فهي غير معروفة، ماعدا في صنعاء والحديدة، حيث توجد الليرة التركية، المطلوبة كثيراً من الجنود الأتراك. والعملة النحاسية التركية، التي أصبحت عديمة القيمة في كل أنحاء الدولة التركية، بما في ذلك الحجاز، ولكنها ماتزال تتداول في اليمن. وتختلف قيمتها من مدينة إلى أخرى. فمثلاً ريال ماريا تيريزا يساوي في صنعاء ١٠٠ قرش نحاسي تركي ، في حين يساوي في يريم، ٥٠ قرشاً.

والوالي التركي الحالي هو اسماعيل حقي باشا، الذي تمتع بتربية أوربية كاملة، ويتقن عدة لغات، من بينها اللغة الفرنسية، التي يفضل التحدث بها، وهو الأكثر دماثة وتسامحاً من كل الأتراك والعرب، الذين عرفتهم في حياتي. وإني لأشكر له مساعدته الكريمة، التي بفضلها تمكنت، دون عوائق، من مشاهدة كل مايستحق المشاهدة في مدينة صنعاء. إن هذا الوالي يبذل كل مافي وسعه لتخفيف التناقضات بين الأتراك والعرب، المنتصرين والمهزومين. وفي كل يوم جمعة يعقد لقاءً، يمكن لأي شخص حضوره. وقد رأيت بين الحاضرين عدداً كبيراً من العرب. وفي مقر الحكومة يُسمح لأي شخص، دون أية إجراءات، بمقابلة الوالي، الذي يبذل قصارى جهده لإحلال العدل، بكل الطرق الممكنة. ولكن الجزء الأكبر من جهوده يتبدد، بفعل التصرفات المخجلة والدنيئة، لمجموعة من الموظفين الأتراك الفاسدين.

وكم كنت أتمنى، تقديراً لنوايا الباشا، وإكباراً لمايتمتع به من قدرات وصفات حميدة، أن أستطيع الثناء على حكومته كلها. ولكن الحقيقة تجبرني على أن أوضح، بأن عمليات من النهب

والسلب والذبح تحدث في اليمن، بدناءة ودون خجل، كما لاتحدث في أي مكان آخر. لقد روى لي مزارعون، قابلتهم في طريقي من ذمار إلى قعطبة، حكايات، هي ببساطة حكايات مفزعة، سأعود إلى ذكرها لاحقاً.

إن الجنود الأتراك، الذين يبلغ عددهم في اليمن وعسير ١٦٠٠٠ إلى ١٧٠٠٠ (الفيلق السابع)، مكروهون من قبل السكان، كرهاً مميتاً. إن الجنود الأتراك، بشكل عام، شأنهم شأن عامة الأتراك، هم أناس طيبون وصادقون. ولكن لأنهم غالباً يبقون عاماً كاملاً دون رواتب، ولابد بطبيعة الحال من أن يعيشوا، فإنهم يغتنمون كل فرصة ويستخدمون العنف، لسلب مايستطيعون سلبه، مما لايمكنهم شراؤه. ولأن السكان يقابلونهم بكراهية صريحة، فقد تشكلت علاقة تتسم بالتوتر الشديد، بين كل ماهو تركي وكل ماهو عربي. وإذا ماسحب الأتراك قواتهم العسكرية، من أية منطقة، فإن سلطتهم على تلك المنطقة تنتهي على الفور.

ووفقاً للحالة الراهنة، فإن وجود حكومة تركية مدنية في اليمن، هو أمر لايمكن التفكير فيه. ولكن وجود قوة عسكرية ضئيلة، هو أيضاً غير كافٍ لإخضاع بلد كبير نسبياً، عدا عن مكوناته القبلية، التي يصعب تطويعها. فكل قريتين أو ثلاث قرى تسكنها قبيلة، تعتبر دمها عربياً نقياً، وما عداها من أبناء القبائل الأخرى مجرد كلاب غير أنقياء، وكل بقرة تسرق وكل فتاة تختطف، تشكل سبباً لنشوب قتال بين قبيلتين، رجالاً ونساءً[228]. ويستغل الأتراك كل حرب من هذه الحروب، للتدخل بحجة الصلح بين المتحاربين، أي لتجريد حملة عسكرية إلى القرى المتحاربة، ونهبها، حتى يأتوا على كل شيئ فيها.

وبنظرة سديدة، رأى اسماعيل باشا حقي، أن إنشاء وحدات عسكرية من أبناء اليمن، سوف يؤدي إلى تخفيف حدة العلاقة بين الشعب وبين الحكومة، إلى حد بعيد. وبعد أن بذل جهداً كبيراً، أفلح في وضع قدمه على بداية الطريق. ويوجد حالياً في اليمن كتيبة، مكونة من جنود يمنيين،

---

(228) مثل هذه الأحكام، غير المبنية على معرفة صحيحة للتكوينات القبلية اليمنية والعادات والتقاليد، التي تحكم حياتها، نصادفها لدى بعض من يقومون برحلات سريعة، غير متأنية، ولايمتلكون رصيداً معرفياً كافياً. فاعتبار كلُ قبيلة أبناءَ القبائل الأخرى مجــرد كلاب، دماؤهم غير نقية، وكذا خطف النساء، ومشاركتهن للرجال في الحروب، التي تنشب بين القبائل، هي من نسج الخيــال، الذي يبحث عن كل ماهو غريب، فإن لم يجده اختلقه، ليثير الإندهاش لدى قرائه الأوربيين. وقد أشرنا إلى بعض من هذا القبيل، في ترجماتنا لرحالة آخرين. ولعل كارستن نيبور يمثل خروجاً على هذه القاعدة. فقد أُعد، قبل مباشرته رحلته، إعداداً علمياً متخصصاً، وعدا عن ذلك تميز بخلق عالي، لعله يرجع إلى ظروف نشأته وإلى عصاميته وعزوفه عن الشهرة، المحفزة عادة إلى ادعاء المعرفة.

تطوعوا للخدمة العسكرية بكامل حريتهم. وإلى جانب ذلك تكونت من السكان اليمنيين بطارية[229] وعدد من الخيالة، في فصيلة الفرسان، يقومون بأعمال الشرطة. وقد سلح المشاة وجنود المدفعية تسليحاً مناسباً. أما الفرسان فلا يحملون سوى الرماح المحلية. وفي كل يوم يجرى تدريب هذه الوحدات، تحت إشراف الوالي نفسه. وإنه لأمر يدعو فعلاً إلى الإندهاش، مدى السرعة والإتقان، اللتين يتحرك بهما جنود تلك الوحدات الحفاة.

وقد رفع معظم الضباط الأتراك اعتراضهم على إنشاء هذه الوحدات، بدافع لايخلو من الحسد، وأوضحوا سبب اعتراضهم، وهو أنه لايمكن الإعتماد على هذه الكتيبة، في حالة حدوث انتفاضة عامة ضد الأتراك، بل يمكن أن تنظم إلى الطرف المعادي. وهو أمر لايمكن تقدير عواقبه الوخيمة على الأتراك. فالعدو حينها سيكون لديه بطاريات مدفعية، وهو مالم يحصل من قبل. ولأنه لم يمض على وجودي في اليمن وقت طويل، فإنني لاأستطيع أن أبدي رأياً حول وجاهة هذا الإعتراض. ولكن مع ذلك فإنني أعرف أن الكتيبة الحميدية (وهذا هو اسم الكتيبة الجديدة) قد أبدت ، أثناء وجودي في ذمار، شجاعة فائقة في قتالها ضد قبائل في تلك المنطقة، وسقط عدد من القتلى من هذه الكتيبة.

ويقيم الإمام محسن[230]، إمام صنعاء، يقيم في صنعاء حتى الآن. وهو نفسه الذي استدعى الأتراك إلى صنعاء، قبل اثني عشرة سنة، ولا يمارس الآن أية سلطات، فيما عدا سلطة دينية محدودة للغاية. ويعيش اليهود مضطهدين جداً. فلا يحق لهم في كل اليمن مثلاً، أن يمتطوا حيوانات الركوب، ومعظمهم فقراء[231]. ويعمل أكثر رجالهم بالحرف اليدوية، كصناعة الأحذية والحدادة والصياغة وغيرها. والجانب الأخلاقي في صنعاء متدني جداً. فكل النساء تقريباً، سواءً المسلمات أواليهوديات، يمارسن البغاء، أو مارسنه من قبل. والمثل اليمني يذهب إلى أنه لايمكن أن تجد امرأة

---

(229) لعله يقصد ببطارية (طاقم مدفعية).

(230) يقصد الإمام المتوكل على الله محسن بن أحمد الشهاري.

(231) كان اليمنيون بعامتهم فقراء، واليهود منهم أفضل حالاً، لاشتغال أكثر رجالهم، كما يؤكد هذا الرحّال نفسه، بصياغة الذهب والفضة والحرف اليدوية المختلفة.

في صنعاء مستقيمة[232]. وأما في مناطق اليمن الأخرى فلم أسمع أبداً عن إمرأة يهودية تمارس البغاء. ومرض السفلس هو من الأمراض الأكثر شيوعاً في صنعاء. والمستشفيات العسكرية التركية ملأى بالمصابين بهذا المرض.

ومرض آخر، شائع جداً في اليمن، ويسمى في السودان (دود الصحراء). وينتشر بشكل خاص بين الجنود الأتراك، المتمركزين في اللحية والزهرة. وهو عبارة عن دود، سمك الواحدة منها بسمك عود الثقاب وطولها عدة أمتار، تتكون في جسم المريض وتشق لها طريقاً عبر لحمه، ثم تخرج عادة من الفخذ أو من كعب القدم. ويستمر المرض غالباً ثمانية إلى عشرة أشهر، ويسبب ألماً فضيعاً، ولكنه مرض غير مميت.

وفي صنعاء صدرت صحيفة رسمية باللغتين، التركية والعربية. كما صدر في صنعاء من المطبعة نفسها كتاب باللغة التركية، تضمن وصفاً لقطع أثرية، وجدت في مأرب، مع صور لها. وقد جمع اسماعيل حقي باشا، بحماس شديد، مواد أثرية من مأرب، وأرسل جزءاً منها إلى متحف القسطنطينية. وإنه لأمر مؤسف للغاية أن مواداً أثرية، لايحصى عددها، تفقدها الأجيال القادمة. فكثير من الأشخاص في صنعاء يجمعون هذه المواد، ثم يبيعونها إلى أشخاص عاديين. وقد اشترى مدير البريد في صنعاء، وهو رجل تركي مسن،غادر صنعاء عند وصولي إليها مباشرة، اشترى مجموعة من القطع الأثرية، بمبلغ ثلاثة آلاف ريال ماريا تيريزا، وعزم على نقلها إلى الإسكندرية، لكي يبيعها هناك. ومن الملاحظ أن صناعة النقوش الحميرية المزيفة في صنعاء قد ازدهرت في الآونة الأخيرة. وبرز في هذا المجال شخصان يهوديان، كرسا نفسيهما لهذا النوع من الصناعة. وأخبرني اسماعيل حقي باشا، أنه التمس من القسطنطينية الإذن، بأن يتوجه مع بضع كتائب عسكرية، في حملة استكشافية إلى مأرب، حيث يرغب في الشروع بعملية تنقيب آثاري، وأنه لاينتظر سوى الرد، لكي يباشر العمل. وفي صنعاء رأيت، سواءً في حوزة الوالي، أو في حوزة أشخاص كثيرين غيره، رأيت أعداداً كبيرة من التماثيل الحجرية والنقوش الحميرية، المأخوذة من مأرب.

(232) هذا مثال آخر على الأحكام المتسرعة، التي يطلقها بعض الرحالة جزافاً، لإعطاء قرائهم الغربيين مايثير ومايدهش. وإلا كيف لرجل مر بصنعاء مروراً سريعاً أن يطلق مثل هذا الحكم الغريب، وأن يعممه على نساء صنعاء جميعهن؟ هل دخل كل بيوت صنعاء؟ وهل كان الوقت، الذي قضاه في صنعاء كافياً للتعرف على نسائها؟

في رحلتي إلى صنعاء استخدمت، لاتقاء الشمس، غطاء الرأس الأوربي، في شكله الهندي المعدل. وقد قوبلت بالترحيب في كل مكان. وفي صنعاء نصحنا الوالي باستبداله بالطربوش، كما زودنا بمرافقين من العسكر الأتراك. وتبين لي أثناء سفرنا إلى عدن، أن كلا الإجراءين، الطربوش والمرافقين، كانا غير مناسبين. فجميع الأهالي اتخذوا موقفاً معادياً لموكبنا. مما دفعني إلى توديع الطربوش والعسكر، والعودة إلى غطاء الرأس الأوربي. وقناعتي الأكيدة أن الشخص الأوربي، غير المسلح، يمكنه أن يتجول في اليمن كله دون خوف، وأن اسماً (إنجليزياً) يحظى بقبول واحترام، أكثر من كل مايمكن أن ينتحله المرء من صفات وألقاب تركية. والشخص الذي يرتدي الملابس الأوربية، يقابل من الأهالي دائماً بالتحية: السلام عليكم، رغم أنه في نظرهم كافراً، وهي تحية لايسمعها المرء توجه إلى تركي قط. وإذا مادخلنا مع قافلتنا إلى قرية، بملابسنا التركية، فإننا نكون متأكدين بأن أحداً لن يعطينا شيئاً عن طيب خاطر. فإذا ما طلبنا خرافاً أو دجاجاً أو حليباً أو خبزاً أو أي شيء آخر، فإن الجواب يكون دائماً: مافيش. ولا يمكن الحصول على الأشياء الضرورية، إلا بدفع مبالغ كبيرة من المال. وفي قرية صغيرة، واقعة بين معبر وذمار، فاجأنا المطر، فاضطررنا إلى دخول بيت بالقوة، حيث لم يُسمح لنا بدخوله طواعية.

وبعد سفر ساعتين ونصف من صنعاء نحو الجنوب، عبرت عند حزيز الطريق المسماة طريق البخور. وحزيز مدينة قديمة محاطة بسور. وكثير من منازلها، كما هو الحال بالنسبة للمنازل، التي يشاهدها المرء غالباً في كل مناطق اليمن تقريباً، مبنية بحجارة متوسطة الحجم، ذات أربعة أركان. والمنزل يتكون غالباً من ثلاثة طوابق. وحجارته، التي توضع احداها فوق الأخرى، عارية دون مواد رابطة، كفيلة بأن تبعث القشعريرة والفزع في جسم أية لجنة بناء أوربية. وتقع حزيز على مرتفع من الأرض، محاطة بالحقول والآبار.

وبعد خمس ساعات أخرى من السفر راكباً، وصلنا إلى وعلان. ووعلان في الواقع ليست مدينة، بل هي مجمّع من مدينتين صغيرتين وقريتين، وبالقرب من القريتين قرية يهودية صغيرة. وكان الأهالي غير ودودين بالمرة. ورغم الإستعطاف والتهديد وشتائم العسكر المرافقين، لم نحصل منهم على لحم.

وفي اليمن يهطل المطر خلال شهر مارس وأوائل أبريل يومياً بانتظام، ابتداءً من بعد الظهر، ولمدة ثلاث إلى ست ساعات متواصلة، ولا ينقطع إلا عند الإقتراب من تهامة. وانطلقنا من وعلان

في الساعة الرابعة صباحاً، وبعد ثلاث ساعات وصلنا إلى جبل شاهق جداً، حيث يوجد موضع للإستراحة، يسمى راس النقيل، ومنه يسير المسافر هبوطاً باستمرار، حتى يصل عدن. ومن على قمة الجبل يشاهد المرء وادياً بهيجاً، يمتد مسافة أميال عديدة. وعند أقدام الجبل توجد مدينة صغيرة، اسمها هجران **Hedschran** أو هجرة **Hedschre**، محاطة بسور، كحال كل المدن تقريباً. وفي الوقت، الذي كنا نعبر فيه المنطقة، وعلى بعد ساعتين من هجران، كان هناك اطلاق نار. وقيل لي أن قبيلة تسكن في ضوران قد انتفضت ضد الأتراك. وبعد ثلاث ساعات من مغادرتنا هجران وصلنا إلى معبر. ومعبر هي مدينة كبيرة، إلى حدما. وكان فيها عند وصولنا كتيبة عسكرية تركية، نصبت خيامها أمام المدينة. وواصلنا السفر من معبر في اليوم نفسه، ووصلنا مدينة ذمار بعد ست ساعات. ومدينة ذمار هي ثاني أكبر المدن اليمنية. وفي تقديري أن عدد سكانها يبلغ ١٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ نسمة، بمن فيهم عدد كبير من اليهود. وكان انطباعي عن المدينة سيئاً جداً. ولعل ذلك يرجع إلى هطول المطر الغزير، الذي حولها كلها إلى بحر من القاذورات. وتوجد حول ذمار حقول زراعية ومزارع خضروات غاية في الجمال. وبين معبر وذمار مررنا عدة مرات في الطريق بأجزاء منها مرصوفة بالحجارة، تعود إلى أزمنة مغرقة في القدم. ويجد المرء عند عبور الجبال، كجبل مناخة مثلاً، شواهد كثيرة على العناية المبكرة برصف الطرق، التي دمرت باستمرار على أيدي العرب المهملين، وعلى أيدي الأتراك، الأكثر إهمالاً. ولا أريد هنا أن أتحدث عن حالة الطرق المزرية في اليمن، فتقديم وصف عن حالتها هو أمر صعب، ولابد للمرء أن يشاهدها بنفسه.

وفي الساعة التاسعة صباحاً انطلقنا من ذمار باتجاه يريم. وصعدنا بعد ذمار جبلاً عالياً، ووصلنا يريم في الساعة الرابعة عصراً. ولم أتمكن من رؤية الكثير حول المدينة، فقد كان المطر يهطل دون انقطاع. ويريم مدينة يبلغ عدد سكانها ٤٠٠٠ نسمة. وهي كمدينة ذمار، مقر لقائم مقام. ويوجد فيها سوق صغير، وفي منتصفها مسجد، مبني على صخرة كبيرة. وفي يريم يعيش عدد كبير نوعاًما من اليهود، ولكنهم يعاملون معاملة سيئة. ويشتري اليهود نساءهم كما يشتري المسلمون، وينفصلون عنهن كالمسلمين. وتبلغ قيمة الفتاة في يريم ١٢ إلى ١٥ ريال ماريا تيريزا[233].

(233) من الواضح أنه يتحدث هنا عن الزواج ومايدفعه الزوج من نقود مهراً لأهل العروس. وهي صورة تختلف عما ألفه في الغرب. لهذا تصور أن المسألة لاتعدو كونها عملية بيع وشراء.

في الساعة السادسة صباحاً واصلنا السفر. وعبرنا جبل ووصلنا بعد ساعتين، عبر واديَ بديع، مزروع زراعة جيدة، إلى قرية جميلة، اسمها عرش Arasch. وبعد نصف ساعة نحو الجنوب من عرش، عند أقدام جبل، تقع القرية الكبيرة السدة Sedde، وبجانبها مباشرة، إلى الجنوب أيضاً، تقع قرية كبيرة أخرى، هي Gert أو Gerb. بعد ذلك عبرنا قرية دار سعيد Darsaid، ووصلنا إلى المدينة الجبلية الصغيرة، سوق الثلوث. وفيها يتعامل الناس مع العملة التركية بعدم ثقة، ويفضلون الباولة، أي ربع روبية. وكان هذا مؤشر إلى أننا قد اقتربنا من المستعمرة البريطانية. وعلى طول الطريق كان الناس، الذين تحدثت إليهم، ساخطين جداً على الأتراك، ويفضلون الإحتلال البريطاني. وعلى مقربة من سوق الثلوث كان هناك جبل مليئ بالقرود، التي استقبلتنا بعويل وبصراخ عالي. كما شاهدنا نوعاً من عصافير الجنة، وكذا نوعاً مميزاً من السحليات، بجسم أخضر غامق وذيل أحمر قاني، بلون الدم.

ومن سوق الثلوث سرنا مع مجرى مائي، عبرناه تسع مرات، خلال يوم واحد، ووصلنا أخيراً إلى النادرة. وفي النادرة مدير تركي، أنزلنا في سكن، أخلاه من مالكه دون اكتراث. وكان ذلك السكن مليئاً بالبراغيث والحشرات، التي لم يستطع أحد بسببها أن ينام. أما خادم حيوانات الركوب فقد قضى الليل كله يتعاطى القات، وفي اليوم التالي لم يكن قادراً على السير. وتتكون النادرة من جزأين، يفصل بينهما صدع أرضي عميق. ويوجد فيها عدد كبير من اليهود، يمتهن جميعهم أعمال النسيج اليدوي، وكلهم فقراء. وتطلي الفتيات في النادرة خدودهن بلون مائل إلى الإحمرار[234]، وهو مالا يناسب لونهن البني، المائل إلى الزرقة. واللون الأزرق في الوجه ناتج عن غطاء الرأس المصبوغ محلياً بمادة النيلة الزرقاء، حيث ينحل لونه على الوجه. وفي النادرة لايقبل الناس العملة النحاسية التركية مطلقاً.

في اليوم التالي انطلقنا في الساعة الخامسة صباحاً. فسافرنا راكبين لمدة ساعتين باتجاه الشرق، ثم انحرفنا باتجاه الجنوب الشرقي، وعبرنا مجرى الماء ثلاث مرات. وهو المجرى نفسه، الذي تكرر عبورنا له في اليوم السابق. وبعد ذلك مررنا بوادي، يجري فيه الماء، وعبرنا جبلاً، لنصل في الساعة الثانية عشرة ظهراً إلى قرية عزاب Azab، وهي قرية جبلية بائسة، ولكن مع ذلك يمكن الحصول

(234) لعله يقصد معجون الورد. وهو لايستخدم للزينة، بل لتطرية وتنعيم وجه المرأة، ثم يغسل.

فيها على عسل ممتاز. واعتباراً من هنا تنتهي المنطقة الجبلية تدريجياً، وتبدأ منطقة التلال. وتبدو المنطقة أشبه بتلك الواقعة بين باجل وحجيلة، في الجهة الأخرى، أي في تهامة. وتتنوع الأرض، بين أشجار محملة بالأوراق، تأخذ في أعلاها شكل المظلة وتلتف حول جذوعها بكثافة نباتات متسلقة، وبين تلال مغطاة بما لايمكن احصاؤه من نباتات الصبار، الذي يبلغ ارتفاع الواحدة منها عشرة أقدام. وفي الساعة الواحدة ظهراً غادرنا قرية عزاب **Azab**، ووصلنا قعطبة في حوالي السادسة مساءً. وقعطبة مدينة غير صحية، يبلغ عدد سكانها حوالي ٦٠٠٠ نسمة. ويوجد فيها كثير من اليهود، يعمل جميعهم بالنسيج اليدوي، ويحصلون على الخيوط من عدن. والمنطقة حالياً مدمرة من قبل الأتراك، فلا يكاد يوجد فيها نشاط تجاري ولازراعي. ومايحكيه الناس هنا عن الإدارة التركية، لايمكن تصوره، إلى درجة أنني ماكان لي أن أصدق ما أسمعه، لولا أن قائم مقام قعطبة، حسان بيه، أكده لي بنفسه. ففي مخلاف الشعر، غير البعيد من قعطبة، يتمركز ضابط تركي، برتبة رائد، اسمه محمد علي بيه، يتمركز مع كتيبته العسكرية. وكان على سكان المنطقة التعيسة أن يدفعوا للحكومة خمسة عشر ألف ريال ماريا تيريزا. وبدلاً من ذلك تم ابتزازهم ودفعوا ثمانين ألفاً. ومازال البيه الصالح يلاحقهم ويضايقهم، ويكبل أولئك البؤساء، أمام المدافع ويهددهم بالموت، إذا لم يُخرجوا النقود، التي بحوزتهم. لقد فر هؤلاء التعساء، الذين لم يبق معهم شيئ، وأخذت منهم حتى أبقارهم وجمالهم، فروا أفواجاً إلى قعطبة.

وسوق قعطبة كبير نوعاً ما، ولكن المحلات التجارية كانت خلال وجودي مغلقة. ولابد هنا من أن أشير إلى عملية خزن الذرة، التي تستخدم في جنوب اليمن، وهي عملية خزن غريبة. فاليمنيون يضعون الذرة، وهي ماتزال في عيدانها، بين فروع شجرة، ذات شكل مميز، ويبقونه هناك طوال الصيف[235].

ولأن سلطة الأتراك تنتهي في قعطبة فقد اصطحبنا معنا دليلاً من البدو، من قبيلة شعيب، لإيصالنا إلى عدن. وكان دليلنا محسن شاب ظريف ومريح. ولكن كان فيه عيب، وهو أنه في كل

(235) لايخزن اليمنيون الحبوب على هذا النحو. بل يخزنون سيقان الذره (العجور)، بعد نزع السنابل منها. ويستخدمون العجور علفاً للأبقار. والشجر المشار إليه هو شجر الطلح والطنب. أما الذرة فتخزن، بعد إخراجها من السنابل، في مدافن يحفرونها في الصخور، ويحكمون اغلاقها. ويبدو أن اشترس هنا قد توهم أو وقع في سوء فهم، عندما شاهد العجور، مرصوفة بين فروع الشجر، فاختلط عليه الأمر.

محطة كان يبحث عن حجج للبقاء فيها أطول مدة ممكنة، ولا يستطيع أن يرى شخصاً يدخن مداعة، إلا ويتوسل إليه أن يسمح له بأخذ بضعة أنفاس منها.

من قعطبة اتجهنا نحو الجنوب والجنوب الشرقي، وعبرنا قريتي **Chober** ومنادي **Menadi**، اللتين يدعي كل من الأتراك وأمير الضالع تبعيتهما له. وعلى بعد ثلاث ساعات من قعطبة، نحو الجنوب، يقع مركز الجمرك الحدودي التركي، في الجليلة، حيث يسكن الشيخ البسيسي، الذي يتمتع بنفوذ واسع. والمنطقة الواقعة بعد قعطبة قليلة الزراعة، وفيها تبدأ الأرض الرملية. وأمير الضالع، الذي نسير الآن في منطقته مستقل تماماً عن سلطة الأتراك، وتحت حماية الإنجليز، الذين يعطونه راتباً شهرياً، قدره أربعين (٤٠) ريال ماريا تيريزا. ويسكن في مدينة الضالع، التي لم نمر بها، ويحكم إضافة إليها حوالي ثلاثين قرية.

وعند وصولنا قرية صغيرة، لم أدون اسمها، فر الشيخ منها، ظناً منه بأننا أتراك، جئنا لإلقاء القبض عليه. وبعد سبع ساعات من مغادرتنا قعطبة، توقفنا في حقل وبتنا في العراء، تحت شجرة كبيرة. ولحق بنا عدد من البدو، من قبيلة دليلنا محسن، وباتوا إلى جانبنا. وظل هؤلاء طوال الليل يشربون قهوة القشر ويدخنون المداعة. وكانوا جميعهم ودودين جداً ولطفاء، ولا يلمس المرء لديهم أي أثر للتعصب. وقد قالوا كلهم، إنهم رعايا الإنجليز، ويكرهون الأتراك كرهاً عميقاً.

وفي الساعة الثالثة صباحاً واصلنا سفرنا. وبعد ست ساعات ونصف وصلنا قرية شعيب، التي يسكنها حوالي ثمان مئة نسمة، وبجانبها قريتين أخريين تتبعان القبيلة نفسها، وعلى رأسها شيخ، يلقب نفسه (الدولة). وبشكل عام يلقب كل شيخ في جنوب اليمن نفسه، مهما كان صغيراً، (الدولة). وهو لقب يبدو في المناطق الصغيرة مضحكاً. وقد احتل الأتراك منطقة شعيب واعتقلوا الدولة وجميع أولاه، وأخذوهم إلى تعز. وتمكن الدولة من الفرار إلى عدن، حيث ساعده الإنجليز في استعادة أرضه. ويتقاضى منهم راتباً شهرياً قدره ثلاثين دولاراً[236]. وأخبرني البدو بأنه يوجد على بعد ثلاث ساعات من شعيب جبل كبير مليء بالنقوش، التي لايستطيع أحد قراءتها. ولم يسمح لي الوقت بالتأكد من ذلك. ولكنني عزمت على أن أشاهد هذه النقوش في رحلتي القادمة.

---

(236) لعله يقصد ريال ماريا تيريزا، العملة السائدة حينذاك في اليمن، أو الربية (الهندية)، وهي العملة، السائدة حينذاك في مستعمرة عدن. فالإنجليز لم يكونوا يتعاملون في مستعمرة عدن ومحمياتها بالعملة الأمريكية.

وفي شعيب شهدت مشهداً خيالياً. فقد كان يجري التحضير لحفل زفاف. وقبل أربعة عشر يوماً من موعد الزفاف كان يتم في كل ليلة طحن مقدار من الذرة في بيت العروسة، لتقديمه طعاماً للضيوف في يوم العرس. وتقوم صويحبات العروسة بطحن الذرة، بين حجرين مدورين، وهن يغنين. في حين يدخن الشباب المداعة ويختلطون بالفتيات، بصورة طبيعية جداً. وبين الحين والآخر، يدعو أحد الشباب احدى الفتيات، ويتم تشكيل حلقة، يدخلان إلى وسطها، ويبدآن بالرقص على إيقاعات الطبل، فيتحركان صعوداً وهبوطاً، وفق الإيقاع، دون أن يلمس أحدهما الآخر. وأشار علي دليلي محسن، الذي كان يجلس إلى جانبي، بأن أقف وألقي على رأس الفتاة الراقصة ولضارب الطبل قطعاً من النقود، ثلاث مرات. وفعلت ذلك. ولكن لم أفهم معنى هذه الطقوس. ولعلها نوع من المجاملة للفتاة.

انطلقنا في اليوم التالي، في الساعة السابعة صباحاً، رغم الإعتراض، الذي أبداه مرافقنا البدوي، الذي قدم لنا شاة وأراد أن يبقى يوماً آخر لدى زوجتيه. وسافرنا راكبين، حتى الساعة التاسعة، حيث توقفنا عند بئر، ماؤها مالح. وأصبح الماء أكثر سوءاً كلما اقتربنا من عدن.

وفي الساعة الواحدة والنصف واصلنا سفرنا، لنصل بعد ساعة واحدة إلى سلسلة تلال منخفضة، تشكل حدود السلطان علي منّاع. ويتقاضى علي منّاع في الشهر أربعين دولاراً من الأتراك وأربعة وخمسين دولاراً[237] من الإنجليز. وكانت هذه الأرض التي نجتازها رملية، ولا يُرى فيها سوى نباتات صغيرة متفرقة. وفي الساعة الثامنة مساءً حططنا الرحال على الرمال، بالقرب من بئر، كان ماؤها سيئ للغاية، وله رائحة كبريتية، وغير صالح للشرب. ويجد المرء على بعض الخرائط موضع اسمه (رملة). ولكن هذا غير صحيح بالمرة. فمن شعيب حتى لحج يذكر اسم رملة، وهو يعني الأرض الرملية، ولايعني موضعاً مسكوناً بالبشر. لأن الماء في هذه المنطقة غير متوفر.

وفي الساعة السادسة صباح اليوم التالي امتطينا دوابنا وواصلنا السفر، لنصل بعد ساعتين إلى بداية الأراضي المزروعة. وبعد أن عبرنا مرتين سائلة، تتدفق فيها مياه الأمطار، وصلنا إلى حوطة السيد. وهي قرية صغيرة، فيها مبنى جميل جداً، ومحاط بالحدائق الغناء، يستخدم سكناً صيفياً لأحد السادة. وهذه المنطقة كلها تشبه شبهاً كبيراً الجزء الأسفل من وادي النيل. وتقع حوطة السيد

---

(237) أنظر الهامش السابق. فلا الإنجليز ولا الأتراك كانوا يتعاملون بالدولار.

على بعد عشر دقائق من حوطة لحج. ويطلق عادة على حوطة لحج اسم (لحج). وهي مدينة كبيرة، يسكنها حوالي ١٢٠٠٠ نسمة. وفيها سوق مهم نوعاً ما. ويبدو قصر السلطان من بعيد شديد الفخامة. ولكنه يفقد الكثير من فخامته، عندما يقترب المرء منه.

وفي حوالي الساعة الثالثة عصراً ركبنا دوابنا وغادرنا لحج، تغمرنا البهجة، على الطريق الجميل، المؤدي إلى عدن. والطريق إلى عدن سالك بالنسبة للعربيات، التي تجرها الحيوانات. وقد صادفنا عدداً منها.

وفي الساعة العاشرة والنصف مساءً وصلنا قرية الشيخ عثمان، التي باعها سلطان لحج للإنجليز، قبل وقت قصير. وقد سُمم السلطان بسبب ذلك. وفي الشيخ عثمان بتنا ليلتنا. وفي اليوم التالي وصلنا عدن، بعد ساعتين من السفر.

رحلة زيجفريد لانجر Siegfried Langer

مقدمة:

زيجفريد لانجر رحّال نمساوي، ولد في الأول من ديسمبر عام ١٨٥٧م، في شونفالد Schoenwald، بالقرب من ميرش ـــ أوسي Maehrisch _ Aussee في النمساء. إنتقل والديه إلى أولموتس Olmuetz، حيث التحق فيها بالمدرسة الإبتدائية ثم الإعدادية فالثانوية. وظهرت في طفولته ميوله للترحال والتعرف على مناطق جديدة. إذ أخذ في إجازاته المدرسية يشد الرحال، سيراً على الأقدام، ليطوف بمناطق عديدة في النمساء وفي جنوب ألمانيا وجبال الألب وسويسرا وشمال ايطاليا. وبعد أن أنهى دراسته الثانوية في أولموتس، التحق بالدراسة الجامعية بجامعة فينا، وبأكاديمية الدراسات الشرقية، التي كانت تدرس اللغات الشرقية، إضافة إلى علوم الطبيعة والجغرافيا والطب. وبحماس بالغ انكب على دراسة اللغة العربية، وأتيحت له فرصة ممارستها أحياناً مع زميل له عربي، اسمه يوسف الخالدي ، من مدينة القدس بسوريا (حين كانت سوريا تضم سوريا الحالية وفلسطين والأردن ولبنان). وتوسع في دراسة جغرافية سوريا وشبه الجزيرة العربية وحضارة اليمن القديم، وتمكن من وضع خارطة كبيرة وشاملة لليمن، وتعلم بعض المهارات، كنسخ النقوش والتصوير الفوتوغرافي. وهيأ نفسه بالجهد والمثابرة لإنجاز رحلته العلمية إلى اليمن، رغم ظروفه الصعبة وإمكانياته المحدودة. فقد منحه طموحه إلى تحقيق انجاز كبير، منحه القوة والعزم والتصميم، على المضي نحو تحقيق حلمه.

كان لانجر شاباً بسيطاً ومنكفئاً على ذاته، ولكنه كان يتمتع بإرادة حديدية. وما أن نضجت فكرة الرحلة في ذهنه، حتى انطلق يبحث عن الدعم اللازم لتنفيذها. وحظي بالتشجيع والدعم من قبل بعض الأصدقاء وأهل الخير، الذين أبدوا اهتماماً بمشروعه العلمي واستعداداً لتوفير المتطلبات الضرورية لرحلته، وعلى رأسهم إي. باوم جارتن E.Baumgarten والدكتور جي. إي. بولاك J.E.Polak، اللذان كانا دائماً على استعداد لدعم وإسناد البحوث العلمية. ثم مد له وزير التعليم والثقافة في الحكومة النمساوية ـــ المجرية، ف. كنراد ـــ إيبسفلد

V.Conrad-Eybesfeld، مد له يد العون أيضاً، فوافق على اعطائه منحة بحثية. كما حصل على دعم مالي من بعض المؤسسات العلمية.

وبمبلغ كافٍ من المال غادر لانجر مدينة فينا إلى سوريا، في الثاني والعشرين من يونيو عام ١٨٨١م، حيث مكث في منطقة الأردن مدة ستة أشهر تقريباً، وتمكن من إقامة علاقات طيبة بالسكان العرب، ودرس لغتهم وعاداهم وسجل ملاحظات ومعلومات وكتب تقارير، منها وصف لمنطقة السلط، ووصف لرحلة قام بها إلى معان، منطلقاً من السلط،كما نشر بعض المقالات الصغيرة عن مشاهداته في ذلك الجزء من سوريا، المسمى اليوم (الأردن). وقبيل مغادرته لسوريا، قام برحلة من مدينة القدس إلى غزة.

وفي الثاني والعشرين من ديسمبر، من العام نفسه، ١٨٨١م، أبحر من ميناء يافا قاصداً اليمن. ولما كانت عسير في ذلك الوقت تعيش حالة من الإضطراب[238]، فقد اضطر إلى تعديل خطته الأصلية، التي كانت تتضمن المرور عبر عسير، وتوجه مباشرة باتجاه الحديدة. وبعد أن تاه عدة أسابيع في الساحل اليمني ، وصل أخيراً إلى ميناء الحديدة، في الحادي والعشرين من فبراير عام ١٨٨٢م. ومن الحديدة بدأ رحلته في الأراضي اليمنية الداخلية. فاتجه إلى صنعاء، عبر بيت الفقيه وضوران وظفار. وأثناء رحلته سجل مشاهداته واستكشف الآثار القديمة وجمع مجموعة قيمة من النقوش اليمنية. وفي السادس والعشرين من مارس وصل إلى مدينة صنعاء.

وكان أحد أصدقاء الدكتور ديفيد هاينرش مولر **Dr.David Heinrich Mueller** قد حصل على توصية للانجر، من مدير المتحف التركي، حمدي بيه، موجهة إلى الوالي التركي في صنعاء (حافظ اسماعيل حقي). ولكن الوالي حافظ اسماعيل كان قد عزل، وخلفه سعيد عزت باشا. إستلم الوالي الجديد التوصية، ووعد لانجر بالدعم والمساعدة. فمكث لانجر في صنعاء أربعة عشر يوماً، مطمئناً إلى أن الأمور ستسير على أحسن وجه. وعندما هم بالسفر إلى ريده، ومنها إلى صعدة، يرافقه حبشوش، أحد أعيان الطائفة اليهودية، منعه الوالي من القيام بهذه الرحلة، التي اعتبرها رحلة خطرة، وأمره بمغادرة صنعاء والعودة إلى الحديدة.

من الحديدة توجه لانجر بحراً إلى عدن. ومن عدن أرسل بعض النقوش اليمنية إلى أوربا، مرفقة بتقارير عن رحلته. وفي العشرين من مايو ١٨٨٢م انطلق من عدن في أخطر رحلة له، قاصداً

---

(238) كانت قبائل عسير تقاوم سلطة الأتراك وتخوض صراعاً مسلحاً ضد القوات التركية. كما سنوضح في هامش آخر.

حضرموت، عبر لحج والحواشب ويافع. وفي التاسع والعشرين من مايو كتب آخر عبارات دونها قلمه "سأتوجه اليوم من الحوطة عبر أمارة الحواشب إلى يافع" . وفي التاسع عشر من يونيو وصل إلى عدن نبأ مقتله. وفي السادس من يوليو وصل الخبر إلى فينا. لقد لقي مصرعه بالقرب من مسجد النور، على ضفاف وادي بنا. إذ وثب عليه مرافقوه، طمعاً في سلب نقوده وأدواته، وأردوه قتيلاً. ويصف الدكتور ديفيد مولر، في مقدمة الكتاب، الذي أصدره عن لانجر، حادثة القتل، وصفاً مؤثراً، بالعبارات التالية: "لقد أُردي قتيلاً على أيدي مرافقيه اللصوص. وكانت آخر عبارة نطقها هي(أمان). ولكنه لم يجد الأمان، الذي توسله، في نفوس قاتليه!! وتهاوى جسده، الذي اخترقه الرصاص، ونهبت كل أغراضه، ورميت كتبه وأوراقه في مياه الوادي، ولم يكن قتله بدافع التعصب أو شهوة في القتل، بل الطمع لدى قاتليه هو الذي وضع نهاية لحياة ذلك الباحث، الساعي وراء المعرفة والإستكشاف".

تمكن ذلك الرحّال أن يبعث لصديقه ديفيد مولر، من القدس ومن عدن، عدداً كبيراً من صور ورسوم أشخاص وأبنية وحقول وجبال وحصون ، التقطها أو رسمها في سوريا وفي اليمن. كما أرسل كمية من النقوش اليمنية القديمة.

هكذا انتهى لانجر، تلك النهاية المأساوية، وبقيت بعده الصور والرسوم والنقوش، التي تمكن من إرسالها قبل موته إلى أوربا، لتضاف إلى ماجمعه وحققه علماء، بعضهم تجول في اليمن وبعضهم الآخر لم يزر اليمن، ومع ذلك كرس جهده، وهو في أوربا، لدراستها وحل ألغازها ونشرها، ليستفيد منها الباحثون والعلماء من بعده.

وقبل أن أقدم ترجمة للرسالتين، اللتين بعثهما زيجفريد لانجرلصديقه مولر (إحداهما كتبها في جزيرة كمران، والأخرى في الحديدة)، ولتقرير السلطات البريطانية في عدن، الذي بعثت به إلى حكومة الهند الإنجليزية[239]، حول مقتله، لابد أن أشير إلى أن المعلومات، التي تضمنتها هذه المقدمة، مستقاة من مقدمة الكتاب، الذي أصدره صديقه الدكتور ديفيد هاينرش مولر، عن حياة لانجر، ورحلاته والمواد العلمية، التي خلفها، من نقوش وصور ورسوم وتقارير وصفية عن المناطق، التي زارها في سوريا واليمن.

---

(239) كانت مستعمرة عدن تابعة إدارياً لحكومة الهند البريطانية، منذ احتلالها عام ١٨٣٨م. واعتباراً من العام ١٩٣٧م أصبحت تتبع الحكومة البريطانية في لندن.

متاهة في ساحل اليمن:

جزيرة كمران، ١٢ فبراير ١٨٨٢م

لاتستغرب إذا فوجئت برسالة مني، أبعثها إليك من جزيرة كمران المنعزلة، بدلاً من أن أبعثها من داخل الأرض اليمنية. فمن حظي السيئ أنني ظللت طوال شهر ونصف الشهر أدور في متاهة على الساحل اليمني، دون أن أتمكن من الولوج إلى داخل الأرض اليمنية. وكما أخبرتك من قبل، فقد وصلت في ٢٩ ديسمبر إلى ميناء جدة. ومن هناك كان يفترض أن أتوجه في اليوم التالي إلى القنفذة. لكن الزورق، الذي تقرر سفرنا عليه، احتجز في المرة الأولى. وفي المرة الثانية تحطم قبيل الإقلاع، بسبب قدمه وتآكله. وهكذا تأخر سفري من جدة حتى ١٧يناير. وكان الزورق (ويسمى صنبوق) زورقاً عتيقاً، مكوناً من آلاف القطع المثبت بعضها فوق بعض، وطاقم بحارته يتكون من ثلاثة عشر بحاراً، معظمهم من السود، وعدد ركابه عشرين راكباً، من مختلف البلاد العربية. منهم ستة شحّاذين، قادمين من الظهران، وهنديان مع عائليتيهما ومجموعة نساء، من تعز وعدن، وحاج من ريدة وشاب من مأرب، إضافة إلى شخصي البسيط. وقد رجوت أن أحصل على معلومات عن ريدة ومأرب، من الشخصين الأخيرين، ولكن أطباق الرز والتمر، التي قدمتها لهما، ذهبت سدى. فما كانا يعرفانه كان أقل بكثير مما أعرفه . وبعد إبحار استمر سبعة أيام، وصلنا، في ٢٤ يناير، إلى ميناء القنفذة. وكان الترفيه الوحيد لنا في هذه الرحلة المملة والمتعبة هي جلب أخشاب من الجزر المنعزلة. ماعدا ذلك كنا نقضي الوقت، جالسين أو مستلقين، تشوي أجسادنا أشعة الشمس نهاراً ويجمدها البرد ليلاً.

كانت خطة رحلتي الأصلية تتضمن المضي إلى صنعاء، عبر منطقة عسير ثم صعده. ولكن تنفيذها غدا غير ممكن. فبسبب الإنتفاضة، التي عمتها، لم يعد بالإمكان الحصول على جمال ومرافقين، مستعدين للسفر معنا إلى المناطق الجبلية. ولذا قررت السفر إلى صعدة ، عبر جيزان وأبوعريش. ولم يمكنني تكتم الأتراك والعرب، من معرفة الأسباب الحقيقية لتلك الإنتفاضة العسيرية ومسارها. ولكن مايبدو من المؤكد أن الإنتفاضة قد أخذت طابعاً جدياً. فرغم إرسال عدة كتائب عسكرية، من جدة والحديدة، إلى القنفذة، ورسو سفن حربية على شاطئ القنفذة، مايزال يُنتظر وصول مزيد من التعزيزات العسكرية من اسطنبول. ويقف ابن عايض، الذي ينتمي

إلى الأمير عايض[240]، يقف على رأس تلك الإنتفاضة. أما القنفذة نفسها فيبلغ عدد سكانها حوالي ألفي نسمة. وفي ماعدا بعض المحلات التجارية المبنية بالحجارة، تتكون القنفذة من بضع مئات من الأكواخ، المبنية بالأغصان الجافة والقش. والحركة التجارية فيها ضعيفة، وتقتصر بصورة رئيسية على تصدير الجلود والعسل، الذي يأتي إليها من المناطق الجبلية. كما يوجد بعض اليونانيين، الذين يرافقون عادة الأتراك في الشرق، يحاولون أن يجلبوا إلى القنفذه البرندي والحشيش. وفي القنفذة أيضاً مركز اتصالات برقية. ويمتد خط الإتصالات إلى محايل **Muhail**، وإن كان الآن مقطوعاً، وإلى الحديدة ـــ صنعاء. وقد أثارت إقامتي لثمانية أيام في القنفذة، دون أي عمل، انتباه الأتراك، الذين أيضاً لايمارسون أي عمل. ولأن نيتي في التوجه إلى جيزان قد عرفت وشاع خبر عزمي على التوجه أولاً إلى محايل والذهاب إلى الجبال، فقد شك البعض في الصفة، التي انتحلتها، وهي صفة طبيب، واشتم أمراً آخر. وجاء اليوم المحدد لسفري، وتم حمل أغراضي إلى القارب، وأصبح كل شيء جاهزاً للإنطلاق، فإذا بي أفاجأ بطلب من القائم مقام للذهاب إليه، بحجة إرسال البريد معي إلى جيزان. واستقبلني القائم مقام ومدير الشرطة بلطف بالغ، وبدأت الأسئلة تنهال علي من كل صوب، تمحيصاً وتحقيقاً. ولما تبين لهما أنهما لم يحصلا مني على شيئ، أعلن القائم مقام بصراحة أنه لايمكن لعاقل أن يفكر بالذهاب إلى صنعاء عبر صعده (لابد أنه بالتأكيد قرأ الصفحة ٢٨٩ من كتاب اشبرنجر **Sprenger**، عن جغرافية جزيرة العرب)، وأن لدي اهتمامات أخرى، دون شك. وبدا لي من الحكمة أن أتخلى عن تحفظي وأن أفصح لهما عن حقيقة مهمتي. ولتأكيد صحة كلامي أبرزت أمامهما التوصية، الموجهة إلى الباشا وإلى مدير البريد في اليمن. وقد تبين لهما أن مهمتي علمية فعلاً، وليست لها علاقة بالسياسة، وأن شخصي لايشكل أي مصدر للقلق لدى الحكومة التركية. ومع ذلك، وبحكم سلطة القائم مقام، أصر على أن لاأسلك ذلك الطريق، لأن من السهل أن أقع في يد القبائل المحاربة، التي تقطن في أبو عريش، فيحدث لي مالا يحمد عقباه. ولأنني لم أتراجع عن مانويته، فقد استدعى الناخودة (قبطان القارب)، وأمره أن لايقلع، قبل أن يحضر

---

(240) هو الأمير عايض بن مرعي بن موسى المغيدي. مؤسس إمارة آل عايض، التي سميت باسمه. وقد حكم الإمارة من عام ١٨٢٣م وحتى عام ١٨٥٦م. وخلفه ابنه محمد، الذي خاض صراعاً مسلحاً شرساً ضد القوات التركية، إلى أن قتـــل في عـــام ١٨٧٢م. وضعف شأن آل عايض من بعده وسيطر العثمانيون على المدن والمراكز المهمة في عسير. ولكن المقاومة لم تنقطع. فقد واصلت قبائل عسير، بقيادة أمراء آل عايض وغيرهم، مقاومة العثمانيين، حتى انسحابهم من الجزيرة العربية وغيرها من البلاد العربية، على إثـــر هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م.

ضميناً موثوقاً وتعهداً، بأن لا يرسو في أي مكان غير الحديدة. وأمام هذا الوضع، لم يبق لدي خيار، سوى التوجه إلى الحديدة، ولم يكن هذا سهلاً على نفسي. ولما لم يتمكن القبطان من احضار كفيل، أمر القائم مقام بأن أستعيد أجرة القارب، التي دفعتها، وأغادر القارب. ولكنني صممت على البقاء في القارب وأعلنت بأنني أريد تجنب الشجار، ولكن لايمكن أن أغادر القارب طوعاً. فتراجع القائم مقام عن قراره، أمام تصميمي وأذن لنا بالإقلاع، مكتفياً بتعهد من القبطان، دون ضمين. وهكذا، تمكنا من مغادرة القنفذه، في ٣٠ يناير، بعد أن تأخرنا أربع وعشرين ساعة.

قضينا ليلتنا الأولى في ميناء حَلْي. وفي ٣١ يناير كنا في نُهود، وهو ميناء قرب ذهبان. وفي ١ و٢ فبراير مكثنا في **Birk**، وهو موضع مكون من عشرين بيتاً. وفي ٣ فبراير مكثنا في **Wasm**، المغطاة بالنخيل، والمكونة من حوالي خمسين كوخاً، وتقع على خليج محمي جداً (باليابسة). ومن **Wasm** إلى جيزان، كما حدثني أحدهم، توجد عدة موانئ، وهي: **Hasaa** و**Djmigra** و**Widaan** و **Rakaba** و **Atudjis** و **Djyey** و **Itwed** و **Subja**. وفي الأيام ٤و٥و٦ ظللنا نبحرليلاً ونهاراً، دون توقف، بسبب النقص في المواد الغذائية. وفي صباح يوم ٧ فبراير وصلنا إلى اللحية، حيث صادفنا على جزيرة منعزلة سكان اللحية الفارين. فقد هاجمت اللحية قبيلة بني مروان، المعروفة بالسلب والنهب، وقتل حوالي عشرة أشخاص من السكان ونهبت بعض البيوت. وفي اليوم السابع رسونا في جزيرة كمران، حيث نزلنا في أكواخها، ومكثنا في الحجر الصحي، حتى تاريخ ١٧فبراير.

ملاحظة من الحديدة:

بما أن البريد لا يأتي من كمران إلى الحديدة، فقد بقيت رسالتي هذه لدي. والآن أود أن أحدثك أيضاً عن الأحداث غير المريحة، التي عشتها حتى اليوم. ففي ١٧ فبراير، وبعد أن ألزم كل فرد منا بدفع ٢٠ **fl.oe.W.**[241]، أخلي سبيلنا من الحجر الصحي. ومن حظي السيئ أنه كان لابد من أن أقضي يوماً آخر في الجزيرة. وذلك بسبب عدم قدرة قبطان القارب على دفع المبلغ اللازم للسماح للقارب بالإبحار. وبحثت عن قارب يقلني إلى الحديدة في تلك الليلة. ولكن القارب،

(241) الحروف الأولى من اسم العملة، ولعلها العملة النمساوية (ريال ماريا تيريزا).

الذي وجدته، لصق برمال الشاطئ قبل صعودي إليه. ولم يرفعه المد إلا بعد نصف يوم تقريباً. وأخيراً تمكن القارب من الإقلاع، في ظهر يوم السبت الموافق ١٨ فبراير. وغادرنا الجزيرة، لنصل إلى شاطئ الحديدة في حوالي الساعة التاسعة ليلاً. وقضينا الليل على مياه الحديدة. ولم ندخل الحديدة إلا في اليوم التالي، الأحد ١٩. حيث نزلت إلى اليابسة، وحظيت باستقبال طيب. ومن عجائب الأمور أنني تلقيت، عند بلوغي اليابسة، خبر اغلاق الحجر الصحي، وعلمت أننا كنا آخر ضحاياه. ولأن رحلتي، التي استغرقت أكثر من شهر، من جدة إلى الحديدة، قد أنهكت ميزانيتي، إلى حدما، فإني أريد أن أستغل ماتبقى لدي من المال ومن الوقت، أفضل استغلال ممكن. سوف أغادر الحديدة إلى بيت الفقيه غداً أو بعد غد، ومن هناك سأتوجه إلى ضوران، ثم صنعاء. حيث سأستفيد من وجود الوالي اسماعيل باشا، للحصول منه على توصية خطية إلى القائم مقام. فاسماعيل باشا قد عزل من منصبه، ولن يبقى في صنعاء، إلا إلى حين وصول الوالي، الذي سيخلفه. وأفكر بعد صنعاء أن أتجه إلى ريدة، ومنها إلى صعدة. ثم أعود من صعدة، عبر الجوف، إلى صنعاء، ومن صنعاء أواصل بعد ذلك رحلتي.

رحلتي إلى صنعاء:

من رسالتي الأخيرة تعرف أنني قد قضيت قرابة شهر ونصف الشهر تائهاً في شواطئ العربية الجنوبية[242]، وفي نهاية المطاف وصلت الحديدة، في ٢٠ فبراير، وفي نيتي أن أواصل إلى صنعاء، عبر بيت الفقية وجبل وريمة.

وبالفعل غادرت الحديدة في اليوم التالي، ٢١ فبراير، في الساعة الخامسة مساءً، يرافقني جمّال. واتجهنا نحو الجنوب الشرقي، قاصدين بيت الفقيه. وبعد سفر اثنتى عشرة ساعة، على ظهر الجمل، في فلاة رملية، وصلنا عند شروق الشمس إلى قرية **Elawi** الصغيرة، حيث استرحنا في مقهاية حتى الساعة الثانية بعد الظهر. وواصلنا السفر في نفس الإتجاه، عبر أرض تهامية، بعضها أرض مزروعة، لنصل بيت الفقيه، في حوالي الساعة السادسة مساءً.

---

(242) يقصد اليمن.

مدينة بيت الفقيه، التي كانت في منتصف القرن الماضي[243] تعد واحدة من أهم المدن اليمنية وأكبر سوق للبن في العالم، تراجعت أهميتها، حتى غدت اليوم مجرد مدينة صغيرة، يقطنها ثلاثة إلى أربعة آلاف نسمة. وتَمْثل بقايا سورها وركام أنقاضها الضخمة وتحصيناتها القديمة، كشاهد على ماضيها الزاهر. وقد اختفى منها البينيان، الذين كان عددهم، في زمن نيبور، يبلغ حوالي ١٢٠ شخصاً، ولم يبق منهم الآن أحد. وبيوتها مبنية، في معظمها، من القش وأغصان الشجر، وقليل منها مبني من قوالب الطين. وقد تحولت معظم التجارة منها إلى الحديدة، ولم يبق فيها إلا مايلبي احتياجات سكانها.

وفي ٢٣ فبراير انطلقنا، في تمام الساعة الثالثة بعد الظهر، ووصلنا إلى الصعيد **Said**، الملتصقة مباشرة بالجبل، في الساعة السادسة مساءً. والأرض التهامية، الواقعة هنا قرب الجبال، مزروعة في كل أجزائها. ويضفي شجر النبك **Nebek** والدبر **Dabar**، مع الشجيرات الكثيرة، المنتشرة في هذه الأنحاء، يضفي على المنطقة منظراً خلاباً. وتُغطى الأكواخ في نصفها الأسفل بروث البهائم.

والصعيد قرية تهامية، تقطنها حوالي ٢٠٠ نسمة، لهم نفس الملامح: بشرة سمراء، قامة قصيرة، وبنية ضعيفة. وملابسهم تتكون عادة من مئزر فقط. وأغنياء الفلاحين منهم يرتدون قمصاناً صفراء اللون، أو صديرية ضيقة، إضافة إلى المئزر. أما غطاء الرأس، فهو عبارة عن قبعة كبيرة مخروطية الشكل، مصنوعة من القش، يستوي في ذلك الرجال والنساء. ويتسلح الرجل برمح قصير وسيف، يحمل على الكتف ويتدلى نحو الأسفل، وجنبية. والنساء لايرتدين الحجاب، وجميعهن دميمات الشكل.

وفي يوم الجمعة ٢٤ فبراير انطلقنا في الساعة السابعة، باتجاه الشرق، عبر أحراش كثيفة، انتشر فيها الصبار والنباتات المتسلقة، فغدت الطريق صعبة المسالك، يكاد يستحيل السير عليها. وجعلت أعداد كبيرة من الحمام والدر هذه الأحراش مليئة بالحياة. وفي الساعة التاسعة والنصف وصلنا إلى وادي حدية **Hadia**، الواقعة في الجبال. وبعد مسير ساعتين، تظللنا أشجار غابة مدارية على ضفة مجرى ماء متدفق، بلغنا حدية، السوق الرئيسية في جبل ريمة.

---

(243) منتصف القرن الثامن عشر.

وقد ذكر الرحّال سيتزن(244)،أن وادي حدية هو من أجمل الوديان، التي شاهدها في اليمن. وأنا هنا لا أجاري سلفي سيتزن، إذا قلت بأن وادي حدية يضاهي في جماله جمال وديان سويسرا وتيرول. ولا تقع حدية بعيدة عن أعلى منطقة تنحدر منها مياه الوادي. وهي محاطة من جميع جهاتها بجبال شاهقة مخضرة، تنحدر منها المياه إلى الوادي، ولاسيما في مواسم المطر. ويعلو كل قمة من قمم الجبال، وكل صخرة من الصخورالعالية، التي يبدو الصعود إليها مستحيلاً، حصن يبدو للمشاهد من الوادي البعيد أشبه بقلعة، من قلاع الفرسان الألمان، الذين عاشوا على السلب وقطع الطرق. وفي الواقع لايسمى المترل هنا بيت، بل يسمى برج. وهي التسمية ذاتها، التي نطلقها على البرج في ألمانيا(245). وفي كل المرتفعات يشاهد المرء مدرجات زراعية، أما الوادي، الذي ينساب فيه الماء باستمرار من تلك المرتفعات ـــ ماعدا في حدية، حيث ينساب الماء بصورة متقطعة ـــ فتزرع أشجار البن والمانجة وأصناف أخرى من الأشجار المدارية. أما الأجزاء المرتفعة من الجبال فتزرع بالقات، بصورة عامة. ويعتبر جبل ريمة بالذات منطقة قات وبن. والبن فيه من أفضل أصناف البن، التي تزرع في اليمن.

ومنطقة حدية، التي هي سوق جبل ريمة، كما ذكرنا، فيها حوالي مئة بيت أو قلعة، متناثرة على المرتفعات، ويسكنها حوالي ٥٠٠ نسمة، ينتمون إلى بني **Dschad**. ويقام السوق هنا أربع مرات في الأسبوع: السوق الكبير يقام في يوم السبت ثم تقام أسواق صغيرة في أيام الثلاثاء والأربعاء والجمعة. وفي يوم السبت فقط يلحظ المرء حركة نشطة وسوقاً، من الأسواق الجبلية، المكتظة بالناس. وهنا يجد المرء كل أنواع الإنتاج التهامي والجبلي. ويعتبر القات والبن أهم إنتاجين زراعيين، يجلبان من المناطق الجبلية وتجري مقايضتهما بالمواد الغذائية وبالمواد الأخرى، التي تلبي احتياجات المترل والحقل. أما في أيام السوق الثلاثة الأخرى، فلا يجلب إلى السوق سوى بعض البن والقات، الذي يشترى من قبل التجار ويرسل على ظهور الحمير السريعة إلى المدن التهامية. وتفرض الحكومة التركية ضريبة على كل المنتوجات، التي تسوّق، تسمى (**Damra**)، إضافة إلى

---

(244) وصل إلى اليمن في ٨ ابريل ١٨١٠م، وقتل في ظروف غامضة، وهو في طريقه من المخا إلى تعز. أنظر التقرير الخاص برحلته في كتابنا هذا.

(245) هذه التسمية أخذها الألمان وغيرهم عن العرب المسلمين ، عندما كان للعرب حضارة، يقتبس الآخرون منها مفرداتها اللغوية وأساليب الحياة ومختلف العلوم والفنون ومناهج التفكير.

الضريبة السنوية، التي تستخلصها من كل قبيلة. وقد دفع بني **Dschad** ومنطقة حدية هذا العام مبلغ ٢٠٠٠٠ ريال، تم تحصيلها من قبل كتيبة عسكرية. وقامت هذه الكتيبة أثناء وجودي بحمل الضريبة من مناطق أخرى، في أكياس مملوءة. ويبدو السكان هنا مختلفين في أشكالهم وملابسهم عن التهاميين، اختلافاًكبيراً. إنها الأشكال والملابس، التي يتميز بها سكان الجبال، من هنا وحتى مناطق صنعاء. فالملابس تتكون من قميص أزرق اللون، له كمين طويلين وواسعين، تُربط نهايتيهما معاً إلى مؤخرة الرقبة، لتبقى اليدين حرتي الحركة، وإزار أبيض، يُرتدى فوق القميص، ورباط رأس أزرق اللون، يُزين بلف خيوط صفراء عليه. بهذا يكتمل المظهر الخارجي لسكان الجبال. أما السلاح فهو السلاح نفسه الموجود في تهامة، إضافة إلى حمل البندقية ذات الفتيل، التي لايكاد المرء يراها في تهامة. وترتدي النساء سراويل وقمصاناً بخطوط ملونة، ونوعاً من أغطية الرأس، مكوناً من مناديل رأس ملفوفة، وعليها أيضاً تضع المرأة، هنا في جبل ريمة، قبعة من القش. وتسير دون حجاب. ومع ذلك يعتبر ظهور المرأة في السوق عيباً كبيراً. وهو تقليد لم أصادفه سوى في حدية.

وبسبب استمرار هطول الأمطار خمسة أيام دون انقطاع، من ناحية، ومنع سكان حدية مواصلة رحلتي في اليوم الثالث أو الرابع، كما كان مقرراً، من ناحية أخرى، لم نتمكن من مواصلة الرحلة إلا في يوم الأحد، الخامس من مارس. فمن حسن الطالع تمكنت من معالجة بعض الحالات المرضية، مما جعلني أكتسب صفة الدكتور، القادر على تحقيق معجزة شفاء المرضى، وأتمتع بحظوة عالية لدى الأهالي، جعلتهم يصرون على منعي من مواصلة رحلتي. وهكذا اضطررت إلى المكوث في حدية عشرة أيام إضافية. ونظراً لوجود ثأر، بين بني **Dschad** وسكان وادي ريمة، لم أجد دليلاً من حدية، لذا اضطررت لأخذ دليل من وصاب، يمكنه عبور الوادي بسلام. وانطلقنا في الساعة التاسعة، حتى وصلنا أسفل وادي حدية، حيث أذهلتنا رؤية قطعان من القرود، كثيرة العدد، تستوطن ذلك الوادي. وينعطف الوادي نحو الجنوب، وتجري مياهه إلى تهامة، حيث ماتلبث أن تختفي. وفي الساعة العاشرة والنصف وصلنا مجدداً إلى تهامة، وبعد مسير ثلاث ساعات في تهامة، غادرناها باتجاه الجنوب، ثم انحرفنا نحوالجنوب الشرقي وصعدنا الجبال مرة أخرى. ولكننا في هذه المرة لم نجتز الجبال خلال وقت قصير. وبعد مسير ساعة ونصف وصلنا إلى وادي ريمة. وهو وادي يبلغ عرضه مسافة ربع ساعة، ويجري الماء فيه دون انقطاع، وفيه من النباتات مايبلغ أقصى مايمكن لأغنى مناخ مداري أن يجود به. وتملأ أشجار الموز، فارعة الطول، الجزء الأكبر من الوادي.

ويستفيد العرب منها أيما فائدة. فعدا عن ثمارها، يبيع الفلاحون أوراقها العريضة وأليافها نصف الجافة، التي يطوى بها القات، فيبقى في داخلها طازجاً لفترة طويلة. ومن النباتات المفيدة تُزرع الحنطة التركية والمانجة. وفي الوادي أعداد لاتحصى من الطيور اللطيفة، التي تملأ جنباته بضجيجها الهائل. ووسط الأشجار الباسقة والشجيرات الصغيرة تتناثر أكواخ القش، التي يقيم فيها، في موسم الحصاد، سكان لايتمتعون بسمعة طيبة.

ويمتلئ الوادي في موسم الأمطار بالمياه، حتى ضفتيه، ويصبح عبوره غير ممكن. ومن المعروف أن هذا الوادي غير صحي على الإطلاق. ولا يمكن أن يقبل أي يمني من مناطق الجبال أن يبيت ليلة في العراء، وسط هذا الوادي، مقابل أي ثمن. إذ أن النتيجة المباشرة لقبوله هي الإصابة بأشد أنواع الحمى. لهذا السبب عزمنا على السير في طريق جبلي شديد الوعورة، وأطول بثلاث مرات من الطريق القصير والمريح، الذي يمر في الوادي، ويقودنا بعد ثلاثة إلى أربعة أيام إلى ضوران. وهكذا عبرنا الوادي وبتنا ليلتنا في قرية شرفة، المبنية أكواخها من القش، والتي يقام فيها سوق السبت.

وفي يوم الإثنين، الموافق ٦ مارس استأنفنا سفرنا قبل شروق الشمس، وسرنا صعوداً في اتجاه الجنوب الشرقي، لمدة ساعتين، في وادي جفت مياهه، حتى بلغنا باب صخري، هو باب **es-Suheime** ، الذي يشكل حد وصاب السافل. بعد ذلك سرنا مسافة ساعة واحدة في الوادي نفسه، حتى بلغنا رأسه، وصعدنا عقبة شيبة **Schebe**، لنصل بعد وقت قصير إلى سوق الأحد. وسوق الأحد هذا عبارة عن بقعة ينتصب عليها ثلاثين إلى أربعين بيتاً، ويسكنها حوالي ٢٠٠ شخصاً. ومعظم السوق عبارة عن خرائب وأنقاض. وينم العدد الكبير من المحلات التجارية المهدمة، على أنه كان في ما مضى من الزمن أكبر بكثير مما هو عليه الآن. وعلى مرتفع جبلي حاد تبدو أطلال حصن، ماتزال صهاريجه في جزء منها سليمة. ولايبدو الحصن قديماً جداً. ولعله قد دمر على أيدي العسيريين. وقد بنى الأتراك في الوادي حصناً، على شكل ثكنة عسكرية.

في يوم الأربعاء ٨ مارس واصلنا رحلتنا، ومعنا دليل من سوق الأحد. فانحرفنا باتجاه الشمال الشرقي، وسرنا صعوداً في وادي، واجتزنا بعد ساعتين عقبة، لنهبط في الجهة الأخرى إلى وادي لاماء فيه، ونصل بعد مسير أربع ساعات إلى سوق الثلوث. وكانت المدرجات الزراعية منتشرة في كل مكان صالح للزراعة، في تلك الجبال الجرداء، على طول المسافة، التي قطعناها. وصادفنا عدداً

كبيراً مما يسمى (سبيل)، وهو عبارة عن سقاية مستحدثة ومزودة بوعاء للشرب، يمكن للمسافرين إنعاش أنفسهم بجرعات ماء منها.

وسوق الثلوث، كغيره من الأسواق، يتكون من صفين متقابلين من المحلات التجارية الصغيرة، يعرض فيها تجار المنطقة بضائعهم، في يوم السوق، أي في يوم الثلاثاء. وفيما عدا يوم الثلاثاء، يكون السوق مقفراً تماماً، إلاّ من مقهاية بائسة، تقدم قهوة القشر وخبز الذرة مع السمن. وهذه هي الحالة العامة لمعظم أسواق المناطق الجبلية. ويعيش رجال القبائل (سكان الجبال) في بيوتهم المتواضعة، المتناثرة على الجبال، ويشترون المواد القليلة، التي يحتاجونها، في أيام الأسواق. وعلى بعد كل بضع ساعات سفر يصادف المرء رقعة من الأرض، يقام فيها سوق من الأسواق الأسبوعية. ولا يصادف المرء سوى قليل من الأماكن الأكبر حجماً، التي يمكن الحصول فيها، في غير يوم السوق الأسبوعي، على بعض سلع بسيطة، كالتبغ والقشر والبلح وسلع أخرى صغيرة.

وبعد استراحة في مقهاية، لمدة ثلاث ساعات، اتخذنا طريقنا في وادي **Dschidille**، الذي أوصلنا بعد نصف ساعة، إلى وادي **Sedech**. وهذا الوادي، الذي يسيل من الشمال الشرقي، محتفظ بمياهه ومزدهر بالزراعة. وهو يواصل جريانه من هنا مسافة ست ساعات تقريباً، ليختفي بعد ذلك قرب زبيد. وقد حمل اسم القصر (**Sedech**)، الذي يقع على إحدى ضفتيه. وشيخ **Sedech**، الذي كان يحكم منطقته، حكماً مستقلاً، قبل مجيئ الأتراك، مايزال الآن يتمتع باحترام كبير. واصلنا السفر في الوادي مدة ثلاث ساعات، حتى تشعب الوادي إلى واديين. وبعد أن سرنا صعوداً في أحدهما لمدة ساعة، وجدنا في رأسه مقهاية، تقع وسط أشجار البن، فبتنا ليلتنا فيها. وهنا تبدأ منطقة أكياس النوم. فحتى هنا وجدنا دائماً في تهامة سرراً، مصنوعة من الألياف المضفورة. أما من هنا فتختفي السرر التهامية، ولا يستطيع المرء أن يحمي نفسه من أفواج الحشرات، إلا باستخدام كيس النوم. وبدون الكيس يضيع الإنسان. وحتى أفقر قبيلي، ذلك الذي لايملك قميصاً يستر به جسمه، ولايرتدي سوى مئزر وغمد الجنبية، وجنبيته يكون قد رهنها في مكان ما، منذ وقت طويل، فإن كيس نومه لايفارقه أبداً. ولكي ينجو المرء من كتائب الحشرات، لابد أن يندس عارياً في الكيس ويغلق فوهة الكيس بإحكام من الداخل. والويل للغريب، إذا فتح في الليل فوهة الكيس قليلاً. فبلمح البصر يمتلئ الكيس بالكتن. ولا يمكن أن ينعم بالنوم مجدداً، إلا إذا قلب الكيس، باطنه ظاهره ونظفه من الحشرات بعناية تامة.

وفي يوم الخميس ٩ مارس صعدنا بمشقة بالغة جبل **Kodme**، الذي يوجد فيه، على بعد ساعتين، سوق الخميس. ولأن السوق يقام في هذا اليوم، فقد كانت جميع الطرق مليئة بالحياة. فمن كل جهة يصعد البائعون بحميرهم المحملة بالبضائع. ويأتي رجال القبائل، حاملين بنادقهم ذات الفتيل، الجاهزة للإطلاق، كما لو أنهم مقدمين على حرب. كما يأتي اليهود، لاهثي الأنفاس، من ثقل شوالاتهم الجلدية، المحمولة على ظهورهم، وهم يصعدون بها إلى السوق، الذي رغم تجمع مايناهز الخمس مئة متسوق فيه، لا توجد فيه مقهاية واحدة، وهذه حالة نادرة، لم أشاهدها في أي سوق آخر. وبعد أن استرحنا قليلاً في السوق، واصلنا سفرنا، باتجاه الشمال الغربي، صاعدين جبل دن **Deun** أو **Denn** ، وشاهدنا في المنطقة، التي مررنا بها، اعتباراً من سوق الثلوث، أفضل عمران شاهدناه حتى الآن. فالمرتفعات الصخرية، التي لايستطيع الصعود إليها لا الثيرات ولا الحمير، يستخدم الفلاحون في فلاحتها المنجل اليدوي، الشائع الإستعمال. أما المنازل، سواءً منها المنفردة أو المتجاورة، فإنها أقرب في بنائها إلى القلاع، منها إلى البيوت السكنية المألوفة، بل إنها قلاع فعلاً. ففي أزمان قديمة مضطربة، كانت كل أسرة معنية بتأمين الحماية لنفسها. فعمد الناس، لحماية أنفسهم، إلى تشييد منازلهم على شكل قلاع، فوق صخور جبلية حادة الإرتفاع. وعندما احتل الأتراك اليمن، كانت مهمتهم الأولى تدمير هذه القلاع المنيعة. وهكذا يشاهد المرء على امتداد جميع الطرقات والدروب، ليس فقط أنقاض هذه القلاع، بل يشاهد أيضاً قرى بكاملها قد أحيلت إلى ركام، وأضحت قفراً صفصفاً، خالية من السكان. وما لم يدمر من صهاريجها، أصبح مملوءاً بالأنقاض. ولم تبق سليمة من التدمير سوى القلاع البعيدة، على رؤوس الجبال، التي لم تستطع قذائف المدافع بلوغها.

وجبل دن **Denn** الضخم، الذي يقف شامخاً منفرداً، هو من أعلى القمم الجبلية في اليمن. وتقود إلى قمته، المتوجة بحصن، طريق واحدة مدرجة. ولايمكن العبور إلى الحصن، إلا عبر جسر خشبي صغير، معلق فوق هوّة سحيقة. ولو حدث أن تحطم الجسر، فإن بلوغ الحصن يغدو مستحيلاً. ولمزيد من الحماية، أحيط الحصن بسورين. ويوجد في السور الأدنى، إلى جانب بعض الأقبية ذات العقود والبيوت السكنية، خزان ماء بديع. وهو عبارة عن صهريج واسع نحت في الصخر. وعبر طريق مدرج آخر، يصعد المرء إلى مبنى الحصن ذاته. وهو مكون من مبنى أشبه بالثكنة العسكرية، ومن مسجد صغير وخزان ماء، ومن صحن المسجد، الذي يقع على أعلى بقعة

في الجبل، يشاهد المرء منظراً شاملاً في كل الإتجاهات. ففي الغرب يصل مدى النظر إلى البحر، وفي الشرق والشمال تبدو منطقة عتمة وضوران الجبلية، وفي الجنوب الشرقي جبل قريب، يقارب ارتفاعه ارتفاع جبل دن، ولكنه إلى ذلك يبدو ككتلة ضخمة متماسكة. ولعل جبل **Denn** هو نفسه جبل **Din**، الذي ذكره الهمداني، ضمن جبال الحميريين الخمسة المقدسة، وهي : جبال حضور والأهنوم و **Jaakur** وصبر ودن، التي توجد على قممها نقوش بالخط المسند. ولكن مع الأسف، لم أستطع العثور في جبل دن على مثل هذه النقوش. كما لم أعثر على أي أثر، من آثار العصور القديمة. والحصن الحالي ينتمي إلى العصر الحديث، ويتمركز فيه عدد قليل من الجنود العرب، الذين يحملون اسماً رائعاً، هو **Kelbin**[246]. وكان هؤلاء فيما مضى أسياد المنطقة. ولكنهم أثناء الإحتلال التركي سلموا للأتراك حصنيهم، اللذين لايقهرا، وهما حصن دن وحصن آخر على بعد ساعتين، اسمه **Wajle**، وعمل بعضهم في خدمة الأتراك، وينتمون إلى حاشد، في المشرق، ويسمون ذو محمد[247]، وكانوا قد احتلوا المنطقة قبل بضعة عقود من السنين. ومايزال يوجد مدير تركي في منطقة صغيرة، تحت حصن دن، قابلته وهو منشغل بصنع نوع من البرندي اللطيف، المفيد لتنشيط الذهن والمعدة. والطقس في دن، كما في وصاب العالي بشكل عام، طقس متناسب مع ارتفاعه . وعندما قسته، وجدته في الصباح ١٣ درجة وفي الظهر ١٨ درجة وفي المساء ١٥ درجة.

وفي يوم السبت، ١١مارس، هبطنا إلى سوق **Sadschid** الذي يقع على بعد ساعتين ونصف، نحو الشرق، ويقام فيه سوق أسبوعي كل يوم سبت. ورغم أن الأتراك يعتبرون من الناحية الإسمية أسياد الجزيرة العربية كلها، فإن سلطتهم تنتهي فعلياً عند دن. لهذا كان علي أن أغير مظهري. فحتى الآن سافرت منتحلاً صفة طبيب من القدس ومرتدياً ملابس عربية سورية. وبسبب الإختلال الأمني الكبير، نصحت بأن أرتدي ملابس السادة، التي لها تأثير إيجابي سريع: إنتعلت صندلاً وارتديت قفطاناً متسخاً وقماشاً مخططاً باللونين الأبيض والأحمر، ملفوفاً على الرأس. بهذا اكتمل تنكري بلباس سيد. إلى ذلك صبغت ذقني باللون الأسود وكحلت عيني، كما يفعل اليمنيون. وبهذا المظهر دخلنا في الساعة العاشرة وسط زحام السوق، حيث حظي مظهري

---

(246) الكلبيون، هم من قبائل حاشد. والكلبيون أيضاً من قبائل سحار في بلاد صعدة.
(247) ذو محمد، من قبائل بكيل.

باحترام كبير جداً. وهنا في سوق ساجد أمكن لي أن أشاهد الحميريين الحقيقيين. فإلى الشرق من ساجد يوجد وادٍ واسع، يسمى وادي حمير. ومعظم سكانه يأمون السوق. فإذا صح أنهم أنسال الحميريين، فإن مظهرهم يناقض ما أورده مالتسان في وصف رحلته. حيث ذكرأنهم سمر البشرة. في حين أن الحميريين، الذين أراهم هنا، على النقيض من ذلك. فبشرتهم تميل إلى البياض. وأشكالهم، كحال كل سكان الجبال، أشكال جميلة جداً. ونساؤهم بالذات جميلات، بقبعاتهن الصغيرة، المصنوعة من القش، وشعرهن المسرح على الجبين، وعيونهن السوداء الواسعة البديعة، التي تذكّر بنساء جنوب إيطاليا.

وعلى بعد ربع ساعة من السوق يوجد حصن **Wajle**، التابع للكلبيين **Kelbin**، وهو حصن معزول، يقع على مرتفع صخري مخروطي الشكل، كجبل دن. والنقود المتحصلة من السوق تذهب إلى صندوق صاحب هذا الحصن. ولأني علمت بأن منطقة عتمة، التي نحن الآن عند حدودها، تعتبر منطقة لصوص وقطاع طرق، يصعب عبورها مع حمارين محملين بالأمتعة، فقد قررت قضاء الأيام التالية في مقهاية السوق، لأصرف الإنتباه عني، من ناحية، ولأضلل الطامعين بالغنيمة، من ناحية أخرى. وفجأة تركني مرافقي، الذي جاء معي من سوق الأحد، وفر دونما سبب. وتركني برفقة وغد من أسوأ البشر، وهو صاحب المقهاية.

وفي يوم الإثنين ١٣ مارس انطلقنا في الساعة الثامنة صباحاً، في أخطر رحلة. وقبل الإنطلاق مباشرة حاول صاحب المقهاية، مضيفي ودليلي، ابتزازي، بالإتفاق مع العسكري التركي الوحيد، الموجود في حصن **Wajle**. حيث ادعى أن ثمانية رجال قد أعدوا كميناً لنا في الطريق. ولكي ننفذ من الكمين علينا أن نسلك طريقاً آخر، أطول مسافة، وبالتالي لابد أن أدفع ضعف الأجرة المتفق عليها. وتظاهرت بالموافقة. وما أن غادرنا السوق، حتى أوضحت لمرافقي، الذي لم أطمئن إليه مطلقاً، ولدي كل الأسباب للتخوف منه، أوضحت له بأني سأرديه بالرصاص فوراً ، لو ساورني أدنى شك بأي تصرف يبدر منه. وكان لهذا التهديد أثره. ودون أن يعترضنا شيء، اتجهنا شرقاً، حتى بلغنا بعد ست ساعات منطقة **Scherm**، دون أن نرى أحداً من الرجال الثمانية.

و **Scherm** هي سوق، يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ نسمة، يحكمها الشيخ إبن معوضة **Ibn Maauda**، الذي يبعد قصره عن السوق بنصف ساعة. ويتبع ابن معوضة الأتراك، من الناحية الإسمية، أما من الناحية الفعلية فإنه مستقل عنهم، ويمارس كما يبدو قطع الطريق. إذ بمجرد

وصولي بعث صهره إلي، ليسألني إن كنت أحمل ذهباً أو أشياء ثمينة، وما هو سبب مجيئي إلى منطقته. فادعيت أنني متجه إلى ضوران بمهمة سرية، من قبل الحاكم العثماني الجديد، ولا أحمل معي لاذهباً ولا أشياء ثمينة. ولم يبد أن ابن معوضة قد اقتنع بكلامي، إذ مالبث أن أرسل إلي رسولاً آخر، ليقوم بتفتيش أمتعتي. وألح الرسول، بصورة خاصة، على فتح صناديق الأدوية. ففتحتها دون أعتراض. ولما لم يجد فيها سوى زجاجات الأدوية، ولمزيد من التأكيد رفعت أمام أنفه زجاجة النشادر، فقد رغبته في مواصلة البحث عن الكنز المرتجى. ولأن خادمي قد تطوع بنشر إشاعة، مفادها أن كتيبة من الجنود مع عدد من المدافع تسير ورائي، فقد تركونا نمضي بسلام.

في يوم الثلاثاء ١٤ مارس [illegible]فنا قبل شروق الشمس، لنعبر أخطر منطقة في الطريق، إلى سوق الثلوث. وسرنا برفقة بعض الباعة، الذين كانوا متجهين إلى سوق الثلوث، وعبرنا وادي **Zebidi**، ووصلنا سعداء إلى سوق الثلوث، الذي يبعد مسافة ثلاث ساعات. وتجنباً للفت الإنتباه إلى شخصي، دون داعي، جعلنا السوق إلى اليسار منا، وقمنا بعملية التفاف حوله، متجنبين دخوله، تحاشياً لأي خطر، وواصلنا السفر مبتعدين عنه. ولكننا ماكدنا نبتعد عن السوق بضع مئات من الخطوات، حتى اندفع نحونا من السوق مجموعة من الناس، يهزجون ويصرخون ويلوحون بأسلحتهم، التي تلمع في أيديهم. وأيقنا أن نهايتنا قد حانت. فسارع دليلنا إلى إلقاء رمحه بعيداً وأطلق ساقيه للريح ولاذ بالفرار. أما أنا وخادمي فقد استسلمنا لمصيرنا. ولكن سرعان ماتبين لنا أن خوفنا لم يكن له مايبرره. فرقصة الحرب تلك لم نكن نحن المقصودين بها، بل مجموعة مماثلة، كانت قد هبطت من جبل مجاور. فقد كان اليوم يوم حرب، بين سكان **Scherm**، وبني **Scherafa** ، سقط فيها اثنا عشر قتيلاً. ولما رأى دليلنا أننا لم نمس بأذى، عاد أدراجه خجلاً، وواصلنا طريقنا بهدوء، مطمئنين إلى أنه لايتهددنا أي خطر. ولكن ما أن سرنا ساعة واحدة، حتى وجدنا أنفسنا مرة أخرى وسط معركة. فبنو **Saaidi** قاموا بالسطو على الوادي ونهبوا بعض الأبقار، وقتل خلال ذلك رجل واحد. وأراد المعتدى عليهم استعادة أبقارهم، فنشبت معركة، وجدنا أنفسنا في وسطها. ولأن الرصاص كان يطلق من حولنا، وصراخ المتقاتلين: "ياقاتل يامقتول" يرن في آذاننا، فقد وجدنا أفضل مايمكن عمله، هو أن نلوذ بالفرار، مع الفارين، من النساء والأطفال. وبهذه الطريقة نجونا من المعركة ووصلنا سالمين، وإن كنا متعبين، إلى **Rubu es-Semaa**، حيث قابلنا مرة أخرى حامية تركية، مكونة من شرطيين محليين. و **Rubu**

es-Semaa قرية صغيرة، مكونة من حوالي درزن (١٢) أسرة. وبعد استراحة يوم واحد في القرية، واصلنا سفرنا في يوم الخميس ١٦ مارس، مع أناس كانوا يقصدو السوق. وبعد مسير ساعتين وصلنا سوق الخميس، الواقع في وادي Kerifa، الذي مررنا بالقرب منه وسرنا صعوداً نحو الشمال الشرقي، عبر وادي Dahab، إلى قرية وجبل يحملان الإسم نفسه، على بعد ساعتين. وفي هذه القرية يوجد قصر دمره الأتراك، يمكن منه رؤية وادي ريمة الأخضر ومدينة العبيد وقرية Taaizz، في الشمال الغربي. وعبر صخور جرداء هبطنا نحو وادي ريمة. وتقودنا الطريق صعوداً إلى ضوران، عبر وادي. ولكن لأن خطر قطاع الطرق هنا أيضاً خطراً ماثلاً، فقد سلكنا طريقاً جبلياً وتسلقنا جبل Kerat. وحاولنا العثور على مأوى في القرية، التي تحمل اسم الجبل، دون جدوى. ولذا اضطررنا إلى مواصلة تسلق الجبل، إلى منطقة بني سلامة Selama، الأكثر ارفاعاً، حيث هاجمنا الظلام والمطر ونحن نصعد العقبة. مما أجبرنا على قضاء الليل تحت صخرة في الجبل.

في يوم الجمعة ١٧ مارس واصلنا رحلتنا عبر قرية Hadda وجبل Itar، ومضيق Deik Heimau، وهو عبارة عن صدع صخري عميق، إلى ضوران، الواقعة على بعد ست ساعات. وفي منطقة عتمة كلها، حتى ضورات، يتم التعامل بريال ماريا تيريزا، ولاوجود لأي قطع نقدية صغيرة. لذا يستخدم في التعامل القشر والتبغ وسلع أخرى بديلاً للقطع النقدية الصغيرة.

وبدخولي ضوران دخلت المنطقة الحميرية القديمة. وهنا حداني الأمل أن أكتشف نقوشاً حميرية، تعوضني عن كل الإرهاق، الذي تحملته، والمخاطر، التي واجهتها. فمن وصاب السافل، وحتى هنا، قطعت المسافة كلها سيراً على القدمين، على طرق لايمكن أن يتخيلها أحد في أوربا.

حركت في داخلي الرغبة لزيارة ضوران معلومات وجدها في كتاب أستاذي الجليل، الدكتور ديفيد هاينرش مولر (حصون وقصور العربية الجنوبية Die Burgen und Schloesser Suedarabiens)، وهو تحقيق قام به الدكتور مولر للوصف الرائع للعربية الجنوبية، الذي ألفه أكبر الجغرافيين العرب، الهمداني. لقد ذكر الهمداني أن Daligh[248] هي ضوران، حصن آنس إبن الهان، ويدعى أيضاً مركبين. إنه حصن شاهق، يرتفع فوق منطقة بكيل، وفي أعلاه حصون بنيت بأحجار ضخمة وبطراز معماري بديع....يقع Daligh

(248) سماه الهمداني دامع، لكثرة عيون الماء المنسابة منه، ثم سمي (دامغ). ويسمى الآن حصن ضوران.

بين صنعاء وذمار وهو مليء بجداول الماء الجارية(249). ووجدت بعض التأكيد على صحة هذه المعلومات في حدية، من أناس سبق لهم زيارة ضوران. إضافة إلى ذلك، دفعني إلى تحمل مشقة الطريق وزيارة ضوران، الملاحظة التي سجلها نيبور، عن وجود مخزن قديم للغلال، في القصر الحميري القديم. إلى ذلك آمل أن أعثر في الجوار على ضاف **Daff**، التي تردد ذكرها كثيراً.

فور وصولي ضوران باشرت بحثي. وبفضل القائم مقام والمدير وأحد اليمنيين، الذي كان مطلعاً على كتاب الإكليل للهمداني، تمكنت في اليوم التالي من أن أنسخ نقوشاً حميرية، من قرية مذاب، التي تبعد نصف ساعة عن ضوران. وهي نقوش كانت موجودة في المسجد، عثر عليها أثناء الحراثة. وعاينت المكان، الذي عثر عليها فيه، فلم أجد سوى أكوام كثيرة من الحجارة، تدل على أن مدينة قديمة كانت قائمة هنا. ويسمى المكان أيضاً خرائب. وقد أورد الهمداني اسم مذاب، كإسم لوادي جبلي، في هضبة الهان.

وفي ضوران نفسها لم أتمكن من العثور على نقوش، ولكني وجدت، ليس فقط الأسماء القديمة للمباني الحميرية، بل وجدت أيضاً كماً كبيراً من آثارها. وقد ذكر الهمداني، أنه كان يوجد في **Daligh** ثلاثة قصور، بنيت على صخور ضخمة. أحدها كان على تلة الحصن، إلى الشمال.(250) ويسمى هذا القصر اليوم حصن **Daligh** ، الذي يطل على مدينة ضوران. وتقود طريق معبدة، رصفت بشكل جيد، تقود بشكل متعرج، إلى السهل الجبلي، المزروع بصورة بديعة. وفي الشرق من السهل الجبلي يوجد مرتفع صخري ضخم، لعل أحد القصور كان منتصباً فوقه. أما اليوم فلا توجد عليه سوى ثكنة عسكرية، فيها حامية تركية صغيرة. وقد وضعت الثكنة فوق أنقاض حصن للإمام، دمره الأتراك. ومن الحصن يطل المرء على منظر ممتد، في جانب منه تبدو صنعاء، وفي الجانب الآخر تبدو ذمار. وتوجد في السهول الجبلية العميقة، المروية بمياه الآبار، إضافة إلى بقايا أنقاض المنازل والأسوار، توجد بعض صهاريج الماء القديمة، كبيرة الحجم، وأقبية كبيرة، يمكن أن تكون هي نفسها مخازن الغلال، التي ذكرها نيبور، وأقبية أخرى متقاربة، يبلغ عددها حوالي ١٢ (درزن)، شكلها شبيه بالكهوف، أفاد السكان بأنها كانت قبوراً.

---

(249) Mueller, Die Burgen und Schloesser, S.35.

(250) Mueller, a.a.O.S.36.

وفي الجزء الأول من جبل **Daligh**، الذي تقع عليه المدينة الحالية، توجد على أعلى موضع فيه آثار القصر الثاني (مصنعة)، الذي قال الهمداني بأنه يقع في أسفل منشآت الحصن، وإلى الأسفل منه، في منتصف الممر الجبلي، كان يوجد القصرالكبير الثالث. ومن هذا القصر إلى الطريق المعبد المتعرج، الذي يقود إلى الأسفل، ماتزال بقايا أسوار قديمة، مبنية بحجارة ضخمة. وتنتصب حالياً فوق هذا المكان قرية صغيرة، اسمها بستان.

وتتكون ضوران الحالية، من حوالي مئة منزل، يسكنها حوالي خمس مئة شخص. وتقع في منتصف جبل **Daligh** ومنها يحكم قاع بكيل. وهذه المدينة، التي معظم أجزائها مهدم، محاطة بسور مهدم أيضاً. وبإباه يقود أحدهما إلى قاع بكيل، في الشمال الشرقي، وإلى طريق صنعاء، والآخر يقود إلى وادي **Ombasch**. وكانت ضوران في عهود الأئمة، الذين حرصوا على الإقامة فيها، كانت حصناً منيعاً مزدوجاً. فقد ذكر الهمداني أن حصن المصنعة، الذي ماتزال خرائبه تحمل هذا الإسم حتى الآن، يقع داخل الحصن الكبير. ومايزال الطريق المرصوف، ومسجد مع قبر لأحد الأئمة، يدعى المتوكل[251]، ماتزال سليمة حتى اليوم. ويوجد قبر لإمام آخر في جبل **Daligh.** وفي ضوران آبار كثيرة ــ أحصيت منها خمس آبارــ كلها تحتوي على ماء عذب جداً، خلد ذكره الشعراء القدامى. ويحيط بضوران حزام من القرى، المنشرة على سفح التل. وفي مذاب شاهدت أول جماعة يهودية. فقبل الآن لم أر منهم سوى أسر متناثرة، أسرتين إلى ثلاث أسر، في هذه القرية أو تلك، يتولى أفرادها الأعمال الحرفية في القرية. إنهم لايعلمون عن أوربا شيئاً. ولا يعرفون سوى يورشليم وروتشيلد[252]، الذي يعتبرونه ملكاً، وينظرون إليه باعتباره الحبر الأعظم، الأكثر علماً، والرئيس الديني والدنيوي لليهود. وقد سرت إشاعة في اليمن، منذ فترة، بأن روتشيلد، الذي يقيم في القدس، قد أعد في فلسطين أراضي، ليمنحها دون مقابل، لليهود المهاجرين من اليمن إلى القدس. وتحت تأثير هذه الإشاعة هاجرت مئة أسرة يهودية، من صنعاء إلى فلسطين. وكان خروج اليهود من اليمن إلى فلسطين، بالنسبة لحاكم اليمن في ذلك الحين، هدفاً وضعه نصب عينيه. ومنذ ذلك الحين، دأب اليمنيون على ممازحة اليهود بالقول: "نعم، لماذا لاتذهبون إلى ملككم

---

(251) هو الإمام المتوكل على الله اسماعيل ابن القاسم (١٦١٠م ــ ١٦٧٦م). تولى الإمامة عام ١٦٤٤م، واستطاع أن يوحد اليمن من حضرموت، حتى حدود الحجاز شمالاً. وتوفي في ضوران وقبر بها.

(252) الثري اليهودي، الذي مول الحركة الصهيونية، وساعدها على احتلال فلسطين.

روتشيلد؟". ودرجات الحرارة في ضوران مريحة جداً: ففي الصباح تبلغ ١٣ درجة، وفي الظهر ١٨ درجة، وفي المساء ١٥درجة. وحول الأماكن، التي ماتزال توجد فيها بقايا لمنشآت حميرية، ذُكرت لي الأماكن التالية: جبل **Haddad**، الذي يبعد عن ضوران بأربع ساعات، والهان وبيت **Homeisa**. أما إن كانت توجد نقوش في هذه الأماكن، فلا يعلم أحد شيئاً عن ذلك. ولكنني علمت أنها توجد نقوش في مسجد قديم بقرية ضاف، التي تبعد من هنا بمسافة خمس ساعات.

ودون إبطاء اتجهت إلى ضاف في يوم الأربعاء ٢٢ مارس. وعبر قاع بكيل، الذي تبلغ مساحته حوالي أربعة كيلومتر مربع، وصلنا، بعد سفر ساعتين، إلى منطقة **Mensched**، عبر النقيل، الذي يحمل الإسم نفسه. وتقع **Mensched** في قاع جهران، الذي يبلغ طوله سفر يومين، وعرضه سفر أربع ساعات. وبعد ساعة واحدة بدت لنا قرية **Fataail**، على صخرة منعزلة في القاع. وبعد ذلك بساعتي سفر وصلنا قرية ضاف.

وتقع ضاف على تل صغير، وهي اليوم قرية صغيرة، لايتجاوز عدد منازلها خمسين منزلاً. ولكن من النظرة الأولى يدرك المرء أن مدينة كبيرة كانت قائمة هنا. إذ أن محيط القرية، وعلى امتداد مسافة نصف ساعة، كان مليئاً بالحجارة المنحوتة، الصغيرة والكبيرة. وقد شيدت كل المباني الحديثة من هذه المواد القديمة. وعلى قمة التل ينتصب حصن، ماتزال بعض جدرانه القوية منتصبة. وحيثما حفر المرء، يصطدم بأساسات الأسوار القديمة وبأعمدة وحطام مواد مزخرفة. وفي اليوم التالي زرت المسجد، حيث وجدت فعلاً ثلاثة نقوش، ضمن أحجار البناء، في الجهة الخارجية للمسجد. وعلى الفور قمت بنسخها. ولكنها مع الأسف لم تكن سليمة. فقد ألحق بها أحد الهنود أضراراً، ونال جزاءه على ذلك، ضرباً مبرحاً، من قبل الأهالي. إذ ينظر الناس إلى النقوش على أنها شيء مقدس، له حرمته. وحُكي لي عن نقش آخر كان هنا، ولكنه سرق وتم بيعه.

إنني على يقين من أن ضاف هي نفسها **Haddafa**، التي أشار نيبور إلى وجود نقوش فيها. بل لابد أن تكون هي، بحسب رأي **Dschihannuma**، عرش **Biklis**(253). ومن العجيب أن سيتزن، وهو هنا في ضاف، التي سماها ضوفة، بحث دون طائل عن **Haddofa**، رغم أنه هو نفسه قال، أن قبوراً حميرية ضخمة توجد فيها. لقد شاهدت القبور فعلاً: إنها قبور ضخمة، تخلو من

(253) لعله يقصد عرش بلقيس. وهو مخطئ في ماذهب إليه.

الفخامة، وقد يكون أصلها أيضاً عربياً(254). وفي يوم الجمعة ٢٤ مارس بحثت في أماكن عديدة بقاع جهران، عن نقوش، قيل لي أنها موجودة فيها. وعثرت في كل زاوية من زوايا المساجد، بمنطقتي **Jeker** و **El Wasta** وفي سوق معبر، قطعاً محطمة من النقوش. وفي معبر يوجد قبران، بقبتين جميلتين، لإمامين. ولكن الأتراك دمروهما تدميراً كاملاً تقريباً.

في يوم السبت ٢٥ مارس واصلت رحلتي إلى صنعاء. وعبرنا على طريق مرصوف نقيل يسلح **Islach**، ووصلنا عبر **Bet Zijade** و **Heddar**، بعد خمس ساعات ونصف، سوق **Waalan**.

وفي يوم الأحد ٢٦ مارس انطلقنا، قبل شروق الشمس بوقت طويل، لكي لا يدركنا مطر منتصف النهار أثناء الطريق. حيث يهطل المطر بانتظام في منتصف النهار. فأسرعنا في اجتياز قرى **Samik** و **Ed-donb** وحزيز، ووصلنا، بعد سبع ساعات من السفر إلى عاصمة اليمن، دورادو **Eldurado** العرب، صنعاء.

تقرير المعتمد السياسي في عدن، إلى الحكومة البريطانية في الهند:

أسجل هنا بلاغاً، بأنه في منتصف شهر يونيه عام ١٨٨٢م، تلقينا من سلطان قبيلة العبدلي، نبأ قتل نمساوي، يدعى الدكتور زيجفريد لانجر، على أيدي بعض أشخاص من قبيلة **Daeri** (قبيلة ليست تحت سلطتنا).

ولإثبات ظروف هذه الحادثة تم إرسال ضابط عربي، تابع لإدارتنا، إلى مسرح الجريمة. وبناءً على تقريره، يمكنني الآن أن أبعث بتفاصيل هذا الموضوع.

لقد وصل لانجر قبل بضعة أشهر إلى الجزء التركي من اليمن، وأمر الجنرال والي اليمن بعودته إلى الحديدة، مع توجيه بأن يغادر البلاد. ويبدو أن الجنرال الوالي كان لديه تخوف من أن يصاب الدكتور لانجر بأذى. لأن مأرب، التي كان ينوي السفر إليها، لم تخضع بعد كلها للسلطة التركية.

في منتصف أبريل جاء الدكتور لانجر إلى عدن، دون أن يحمل خطاباً موجهاً إلى المعتمد، يسمح له بالدخول. وبدلاً من ذلك، أُدخل إلى المعتمد من قبل السيد **Escher**، نائب قنصل

---

(254) ربما يقصد أن هذه القبور قد ترجع إلى الفترة الإسلامية. فهو كما يبدو يعتقد أن التاريخ العربي هو التاريخ الإسلامي فحسب. ولهذا يظن أن الحميريين هم غير عرب.

المملكة النمساوية ــ المجرية. وخلال الحديث، لفت المعتمد نظر الدكتور لانجر بإلحاح، إلى أن الرحلة إلى المناطق الداخلية البعيدة، دون وجود حرس خاص، هو أمر خطير للغاية. ولكن الدكتور لانجر كرر تأكيده مراراً، بأن لاداعي للقلق على سلامته. وللنزول عند رغبته، بقدر ماهو ممكن، زوده المعتمد برسائل توصيات، إلى قبائل العبدلي والحوشبي ويافع العليا، التي سيمر عبر أراضيها.

وبعد أن وصل الدكتور لانجر إلى لحج، اتجه إلى بلاد الحواشب، مع حرس من قبيلة العبدلي. وزوده الحواشب بجمّالين، رافقوه حتى بلاد العلوي **Alawi**. وزوده العلويون بدورهم بحرس، إلى حدود بلاد أمير الضالع **Zhali**. ولما أبدى الدكتور لانجر للأمير رغبته بزيارة مسجد النور، في بلاد يافع، زوده الأمير بجملين وبجمّالين، ليرافقاه إلى منطقة قبيلة أهل**Ahl Mahlay**، وهؤلاء زودوه بجملين وبضعة رجال، ليرافقوه إلى **Suemsara**، وهي منطقة وضعت فيها قبيلتي أهل عبد الله و **Daeri**، حاجزاً جمركياً. وفي **Suemsara** دفع الدكتور لانجر الضريبة، التي استخلصها منه أربعة رجال من قبيلة أهل عبد الله ورجلان من قبيلة **Daeri**. وتمكن هؤلاء الرجال الستة من إقناع الدكتور لانجر بترك الطريق المباشر إلى مسجد النور، في يافع العليا، بحجة أنه بذلك سيتمكن من التخلص من دفع الضريبة لحصن **Schagi**.

وهكذا تحرك الدكتور لانجر، يرافقه كلا الجمّالين، اللذين زودته بهما قبيلة **Ahl Mahlay**، والستة رجال المذكورين. وساروا على طريق وادي بنا، وتوقفوا عند ملتقى واديي بنا ووادي جعار **Yahar**، على بعد ثمانية أميال إنجليزية من **Suemsara**.

ترك الدكتور لانجر الجملين، اللذين انزلت أحمالهما، مع كلا الجّمالين بعيداً، وترك بندقيته فوق أمتعته، واتجه نحو الماء ليستحم، وبيده مسدسه. خلع ملابسه ووضعها على ضفاف السائلة، ووضع مسدسه فوقها واتجه نحو الماء. وما هي إلا لحظة، حتى استولى أحد الرجال السته، واسمه طاهر مثنى، من قبيلة أهل عبد الله، على المسدس والملابس. فصرخ الدكتور لانجر: "أمان، أمان!" (عبارات يناشد فيها الإنسان الحماية وكرم الضيافة، وما شابه من القيم). أطلق رجل آخر من الستة رجال، واسمه **Radschi Ali Makbir**، من قبيلة أهل عبد الله، طلقة جرحت الدكتور لانجر في مؤخرته، في حين قذفه على سالم، من قبيلة **Daeri**، بحجر أصابت رأسه. وقام طاهر مثنى وأخوه (لم يتم تدوين اسمه) بإتمام عملية القتل، طعناً بحربتيهما. ويبدو أن الشخصين الخامس والسادس (بن ناصر محمد، من قبيلة أهل عبد الله، و **Jareg** صالح، من قبيلة **Daeri**) لم يشاركا في عملية القتل.

وتقاسم أهل عبد الله وقبيلة **Daeri**، الذين هرعوا بأعداد كبيرة إلى موضع القتل، تقاسموا كل ماكان لدى الدكتور لانجر من أمتعة. وكانت أمتعته تتكون من صندوقين وأدوات طباخة وأدوات طعام وملابس ومسدس وبندقية وكمية لابأس بها من الذخيرة وخمسة وثلاثين ريالاً. وقد رمى القتلة كتبه وأوراقه في الماء.

أما كلا الجمّالين، اللذين زود بهما الدكتور لانجر، من قبيلة أهل عبد الله، فقد لاذا بالفرار، لحظة عملية القتل، ويبدو أنهما لم يشاركا فيه. وأهل عبد الله يتبعون اسمياً أمير الضالع، ولكنهم عملياً مستقلون. وقبيلة **Daeri** هم بدو، ولا يعترفون بأية سلطة. وهاتان القبيلتان الصغيرتان تعتمدان لتأمين احتياجاتهما على أسواق عدن والضالع والحوطة وال **Reha** (عاصمة الحواشب) و **Sohayb**.

وفي الوقت الذي أعبر فيه عن بالغ حزني للفاجعة، التي انتهت بها رحلة الدكتور لانجر، أشعر بأني مضطر إلى أن أؤكد بأنه قد حُذر من مخاطر الرحلة، وأنه لم يلق نهايته المبكرة، إلا بعد أن غادر المناطق، الواقعة تحت سلطة القضاء الفاعل، للقبائل المرتبطة بإدارتنا الحالية.

ولم يبق لي هنا إلا أن أذكر نوع العقوبات، التي يمكن اتخاذها بحق القتلة. فبالنسبة للستة أشخاص، الذين كانوا موجودين أثناء القتل، سوف ينبذون، من قبل قبيلتيهم كما سينبذون أيضاً من قبل القبائل المجاورة للقبيلتين، بناءً على طلب المعتمد. وسوف يمنعون من دخول مناطق تلك القبائل جميعها. كما طلب المعتمد إعادة الأمتعة المنهوبة. فإذا امتنعت قبيلتا القتلة الستة عن نبذهم، فإن المعتمد يقترح توقيع العقوبة على القبيلتين بمجموعهما، فيمنع أفرادهما من دخول عدن وتحرمان من الدعم المالي، الذي نقدمه لهما.

وعدا عن ذلك يُطلب من كل واحد من رؤساء القبائل الصديقة المجاورة ابلاغ قبيلتي ال **Daeri** وأهل عبد الله، بأن تشاركا الحكومة الإنجليزية في استبشاع هذه الجريمة، وأن تقطعا كل علاقة لهما بالقتلة وأصدقائهم.

رحلات إدوارد جلازر Eduard Glaser

مقدمة:

إدوارد جلازر، إسم متميز، بين أسماء الرحّالة الأجانب، الذين زاروا اليمن، مستكشفين مجاهله، راصدين مظاهر الحياة فيه، بعين الغريب، التي تلتقط كل ما تصادفه بالدهشة والشغف، وتسجل كل ما تشاهده، بروح الموضوعية حيناً، وبالمبالغات المتأثرة بما ترسب في الذهن الأوروبي، عبر تاريخ طويل، من نظرة إلى الشرق، بسحره وغموضه وأسراره، ممزوجة بكل ما هو غريب وغير مألوف، حيناً آخر. وقبل أن أترك القارئ بين يدي النصوص، التي دونها جلازر عن رحلاته في اليمن، لا بد من تعريف موجز بهذا الرحّال، الذي يعتبر من أهم الشخصيات، التي زارت اليمن وتنقلت في مناطقه وساهمت في التعريف به وبحضارته ونقوشه وجغرافيته وتكويناته الإجتماعية. كما لابد من تقديم بعض الملاحظات السريعة، حول ماكتبه، وهي ملاحظات ربما تهيئ القارئ لفهم هذه النصوص، فهماً أفضل.

ولد إدوارد جلازر[255] في ١٥ مارس من عام ١٨٥٥م، في دويتش روست، وهي منطقة ريفية بمقاطعة بوهيميا، في النمسا. وكان والده بياعاً متجولاً، إلى جانب امتلاكه لمزرعة صغيرة. وقد عمل كل أفراد الأسرة في المزرعة، بمن فيهم إدوارد الصغير، منذ بلوغه السابعة من العمر. ولم يكن والده محظوظاً في عمله، مما جعله يطمح إلى توجيه أولاده نحو مجالات عمل أخرى، أكثر فائدة. فوجههم إلى الدراسة والسير فيها إلى أعلى مستوياتها.

أكمل إدوارد دراسته الإبتدائية ثم الإعدادية. ولعدم وجود مدرسة ثانوية في منطقته، عمل كمتدرب في إحدى البيوت التجارية. ولكنه، مدفوعاً بطموحه وشغفه بالعلم، قرر الذهاب إلى مدينة براغ، لمواصلة دراسته. ولما كانت حالة أسرته المادية لا تسمح بأن يتلقى العون المالي منها، فقد اعتمد على نفسه، في توفير احتياجاته. وإلى جانب دراسته المنهج المدرسي، تلقى في الوقت نفس دروساً في اللغات، الإيطالية والأسبانية والإنجليزية. ولما لاحظت صاحبة المنزل، الذي كان يسكن في إحدى غرفه، حالته المالية البائسة، أبلغت بذلك مدير مدرسته، الذي تعاطف معه، نظراً

(255) للمزيد أنظر **Dostal, walter: Glaser-Forschungen in Yemen**

لما لمسه من اجتهاده وتميزه في دراسته، ونصح أحد القادة العسكريين بأن يتخذه مدرساً لأولاده. فوجد الشاب إدوارد أخيراً، في بيت ذلك القائد، مأوى له، وأصبح له دخل منتظم، وإن كان زهيداً. وتمكن فيما بعد من تحسين دخله، بإعطاء دروس خصوصية لأبناء أسر ثرية أخرى. وفي أحد الأيام وقعت في يده مجلة (داس أوسلاند **Das Ausland**)، وهي مجلة علمية متخصصة في نشر الدراسات والبحوث والتقارير، الخاصة بالبلدان الأجنبية، وقرأ فيها تقارير عن بعض رحلات، أسرته بسحرها. وسيطرت عليه بعد ذلك الرغبة في أن يصبح رحّال، يقوم بأبحاث واستكشافات في العالم الخارجي. ولتحقيق هذه الرغبة بدأ بتعلم اللغة العربية. كما درس علم الفلك، ولكن حظه من النجاح فيه كان ضئيلاً. ودفعته رغبته الشديدة في الترحال إلى أن يقطع دراسته، عام ١٨٧٣م، ويقصد باريس سيراً على الأقدام. ولكنه سرعان ما عاد من باريس إلى براغ في العام نفسه وأكمل دراسته الثانوية، ثم التحق بالمعهد العالي للصناعة والهندسة، في براغ، ودرس فيه الرياضيات والفيزياء والمساحة. وفي ذات الوقت داوم على حضور محاضرات، في قسم الدراسات العربية بجامعة براغ. ولإعجاب أساتذته بحماسه الشديد للتعلم، دفعوا به إلى المشاركة في المؤتمر الجغرافي العالمي الثاني، الذي انعقد في باريس، عام ١٨٧٥م. وكانت تلك فرصة، مكنته من التعرف على كبار علماء الجغرافيا في ذلك الوقت وحفزته إلى الإستزادة من العلم. ولعب تعرفه على العلماء الفرنسيين، خلال المؤتمر، دوراً حاسماً فيما بعد، في تسهيل حصوله على تمويل رحلته الأولى إلى اليمن.

عاد إدوارد من باريس إلى براغ، لينهي في العام نفسه تدريبه في المعهد العالي للصناعة. وفي عام ١٨٧٦م تطوع للخدمة العسكرية، لمدة عام واحد. وفي عام ١٨٧٧م سجل في جامعة فينا، لدراسة علم الفلك، كما تابع دراسة اللغة العربية وآدابها، لدى مدرس خاص. واعتباراً من سبتمبر ١٨٧٩م حتى أغسطس ١٨٨١م عمل موظفاً مساعداً في الأرصاد الجوية، بعقد مؤقت. فساعدته تلك الوظيفة في تأمين نفقات معيشته لبعض الوقت. وخلال إقامته في فينا بدت كل قراءاته ونشاطاته ذات هدف محدد، وهو الإرتحال في بلاد العرب. ولتمسكه بهذا الهدف رفض الكثير من العروض، للإشتراك في بعثات علمية استكشافية إلى أفريقيا الوسطى وأفريقيا الجنوبية، وظل يكرس جهده لاكتساب مزيد من المعرفة باللغة العربية. وفي هذا الوقت تعرف بشخص، كان له تأثير حاسم في مسار حياته اللاحقة، وهو ديفيد هاينرش مولر **David Heinrich Mueller**. وعرف

مولر كيف يحرك لدى جلازر الرغبة في دراسة بلاد العربية الجنوبية (اليمن). ولكي يحضر نفسه لرحلة علمية إلى العربية الجنوبية، قرر أن يتجه إلى بلاد الشرق، ليتمكن من اتقان اللغة العربية ويعيش الحياة الشرقية. ولهذا الغرض ترك عمله في الأرصاد الجوية واتجه إلى تونس، ليعمل مدرساً خاصاً لدى القنصل العام النمساوي هناك.

وفي عام ١٨٨٢م غادر تونس إلى مصر، حيث قام ببعض المهام، في الإسكندرية وبور سعيد، للقنصل النمساوي في تونس. وتمكن خلال ذلك من الإتصال بدبلوماسيين نمساويين في مصر، ساعدوه فيما بعد في الحصول على تصريح لإجراء بحوثه. وفي ٣٠ سبتمبر ١٨٨٢م تمكن من السفر من بور سعيد عبر جدة إلى الحديدة، التي وصلها في ١١ أكتوبر من نفس العام، مزوداً ببعض مااستطاع توفيره من مال وببعض الدعم، من أكاديمية النقوش والفنون والآداب في باريس، ومن الجانب النمساوي، بفضل جهود الأستاذ مولر. وبذلك بدأت رحلاته العلمية الأربع إلى اليمن، التي قام بها في الفترات: من ١٨٨٢م حتى ١٨٨٤م، ومن ١٨٨٥م حتى ١٨٨٦م، ومن ١٨٨٧م حتى ١٨٨٨م، ومن ١٨٩٢م حتى ١٨٩٤م.

ونشأت خصومة بينه وبين مولر، الرجل الذي تعهده بعنايته وأخذ بيده في بداية الطريق، أثرت على مجمل رحلاته وعلى مستقبله العلمي. وترجع جذور الخصومة إلى إرسال مولر لرحّال آخر، هو زيجفريد لانجر **Siegfried Langer**، في رحلة استكشافية إلى اليمن، عام ١٨٨١م، ولدت في نفس جلازر انزعاجاً وتحسساً. خاصة وقد كال مولر المديح والثناء لشخص وجهود لانجر. وهو مديح وثناء لم ير جلازر أن لانجر يستحقه. وقد قُتل لانجر في شهر مايو ١٨٨٢م، وهو في طريقه من عدن إلى حضرموت عبر يافع. وذلك قبل وصول جلازر إلى اليمن بحوالي خمسة أشهر. وكان دعم مولر لرحلة جلازر مشروطة، كما كان الحال أيضاً بالنسبة للانجر، بتسليم ماسيتم جمعه من نقوش يمنية، لأكاديمية النقوش في باريس. ولكن جلازر شعر، عندما تعرض للصعوبات المالية في رحلته، أن الأكاديمية تخلت عنه، في لحظة حرجه، وأوقفت دعمها وتركته لمصيره. وكانت الأكاديمية من جانبها قد ساورها الشكوك، في أن يتمكن جلازر من الحصول على تصريح من قبل السلطات العثمانية، يسمح له بإجراء بحوثه، مما دفعها إلى وقف الدعم عنه. وإلى جانب ذلك شعر جلازر باستياء من الإهمال، الذي عوملت به النقوش، التي تمكن من إيصالها إلى الأكاديمية، والتي لم تلق ماكان ينتظره من اهتمام وعناية. ورأى في مولر السبب وراء كل ما صادفه

من متاعب. ووفر جلازر بنفسه السبب المباشر لتلك الخصومة، حينما وجه انتقادات لاذعة، للتحقيق الذي أنجزه مولر لكتاب العالم اليمني أبي الحسن الهمداني (صفة جزيرة العرب)، واستخدم في تلك الإنتقادات معارفه حول اليمن وتمكنه من اللغة العربية. ويمكن ارجاع جزء من المصاعب وسوء الوضع، الذي وجد جلازر نفسه فيه، إلى الطريقة التي تحدث بها عن الأخطاء، التي عثر عليها أو توهمها في تحقيق مولر، وإلى الكلمات الحادة، التي استخدمها في نقده. وسوف يلاحظ القارئ أن جلازر لم يكن في بعض الحالات مصيباً في نقده. وكان من تأثير خصومته مع مولر أن تضخم لديه احساس بالخوف وبالإضطهاد، وبعدم اعتراف العلماء بمجهوداته. وهي أحاسيس دفعته إلى العزلة وإلى التعامل مع الآخرين بنوع من النفور، مما جعله في نظر العلماء شخصاً لا يحتمل. وقد عبر عن وضعه النفسي وعن أحاسيسه، في طيات الأعمال التي نشرها، بصورة متفرقة. ومع ذلك فإن عدداً قليلاً من العلماء أدرك قيمة أعمال جلازر، وعبر عن تقديره لها وبذل جهوداً، كي يأخذ جلازر مكانته التي يستحقها. وأفضت هذه الجهود إلى منحه لقب الدكتوراه الفخرية، عام ١٨٩٠م، من جامعة جرايفسفالد **Greifswald**، وإلى منحه العضوية الفخرية في العديد من الجمعيات العلمية. وكانت الصعوبات، التي عاناها في سبيل تأمين قوته اليومي، وكذا مرض تصلب الشرايين، الذي استفحل لديه بصورة متزايدة، في السنة الأخيرة من حياته، عائقاً أمام استكماله نشر كل بحوثه، التي لا يزال بعضها غير منشور حتى اليوم. وفي شهر مايو ١٩٠٨م هاجمت إدوارد جلازر نوبة ضيق في التنفس، بمدينة مونشن (ميونخ) الألمانية، أدت إلى وفاته، وهو في الثالثة والخمسين من عمره.

بعض الملاحظات السريعة:

١- بادئ ذي بدء أود أن أذكر القارئ بما أشرت إليه في كتابي (المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن) وكررته في أكثر من مناسبة، حول مشكلة الأسماء. فالزائر الأجنبي لليمن غالباً ما يعتمد على السماع في تلقي أسماء الأشخاص والأماكن. وبسبب صعوبة بعض مخارج الحروف، بالنسبة له، وما قد يحدث من ادغام بعض الحروف أو نطقها نطقاً سريعاً، لا تستطيع أذنا الأجنبي ملاحقته، تظهر بعض الأسماء بعد ذلك، في الكتابات والتقارير، ولاسيما في تقارير الرحالة الأجانب، الذين يمرون سريعاً بمناطق اليمن المختلفة، تظهر بصورة غير دقيقة. بل إن بعض الأسماء

يصعب التعرف عليها مجدداً. ولعل هذه المشكلة هي أعقد المشكلات التي يواجهها الباحث أو المترجم. وقد بذلت جهداً كبيراً، كالعادة في مثل هذه الحالة، لضبط الأسماء مستعيناً بالمعاجم، وببعض الأصدقاء، من أبناء المناطق التي تعرض لها الرحالة بالوصف أثناء مرورهم فيها، عندما تعجز المعاجم عن مدي بالعون اللازم. ومع ذلك فإني لا أستبعد أن بعض الأسماء، في ترجمتي هذه لرحلات جلازر، قد بقيت دون ضبط، أو بتعبير أدق، أن ضبطي لها لم يكن موفقاً.

٢- ربطت جلازر بالحاكم التركي في صنعاء، عزت باشا، علاقة ليست بعيدة عن الشبهة. تتضح معالمها من خلال بعض الإشارات، التي وردت في سياق وصف جلازر لرحلته في بلاد أرحب وحاشد. فقد كال جلازر المديح للحاكم وتحدث عن فطنته وحنكته السياسية ودهائه، في بث الفرقة بين قبائل حاشد وبكيل. كما نوه إلى كرمه وإلى ما أسداه إليه من عون مادي ومعنوي، ساعده على إنجاز رحلته. ويؤكد العون، الذي قدمه الحاكم لجلازر، واستدعائه مشايخ أرحب وإلزامهم بأن يقطعوا العهد على أنفسهم بحماية جلازر، أثناء تنقله في منطقتهم، وضمان سلامته، والتهديد الذي وجهه إليهم، فيما لو مسه أي أذى، ثم بعض الإشارات الدالة على أن جلازر كان يوافي الحاكم بالمعلومات عن أوضاع وأحوال المناطق القبلية، التي كان يمر بها، وهي معلومات دقيقة، يعجز الحاكم عن الحصول عليها، بطريقة أخرى، إذ أن تلك المناطق كانت خلواً من الأتراك، بل ومعادية لوجودهم، كل ذلك يؤكد بأن تطوع الحاكم بتقديم المال والمساعدة والحماية لجلازر، لم تكن بدافع الصداقة البريئة، بقدر ما كانت بدوافع سياسية. الأمر الذي يجعلنا في وضع نستطيع فيه أن نتفهم موقف أرحب المشكك بحقيقة مهمة جلازر. وهو موقف لم يقدم لنا جلازر سوى تفسير ساذج له. فقد اعتبر ذلك مجرد "موقف همجي، من قبل أناس جبلوا على المكر والخداع". ولو أنه حاول أن يتفهم موقفهم، لوجده منسجماً مع نظرتهم إلى الأتراك ورفضهم لسلطتهم. ولكن هل يمكن أن ننتظر فهماً صائباً أو تفسيراً سليماً، من شخص ألجأته ظروفه المالية الصعبة إلى التطوع لخدمة الأتراك، وإلى التوغل في المناطق القبلية، التي استعصت عليهم، منتحلاً صفة موظف تركي؟ لعل هذا يفسر لنا أيضاً العديد من الملاحظات والإنطباعات، التي تحدث عنها، والتصرفات التي أقدم عليها. وهو ما سنشير إليه في الملاحظات اللاحقة.

٣- تقمص جلازر، وهو يتجول في منطقتي أرحب وحاشد، دور الموظف التركي، لا بل الحاكم التركي، إلى درجة أنسته نفسه، كما سيلاحظ القارئ. فأخذ يخاطب المشايخ وأفراد

القبائل، بقدر من التعالي والعنجهية، التي عرف بها الموظفون الأتراك في اليمن، فيهدد ويتوعد ولا يرضى منهم بغير الخضوع الكامل لإرادته. ثم يقدم لنا تفسيراً لتصرفه أكثر سوءاً من التصرف ذاته، حين يزعم أن تصرفه ذاك هو التصرف المناسب لعقلية القبائل ونفسيتهم.

٤- عمد جلازر في أكثر من موقف إلى تحريض القبائل، بعضها ضد البعض الآخر، منسجماً في ذلك مع السياسة التركية الرسمية، التي انتهجها عزت باشا، مثله الأعلى في ذلك، ولم يخف اعجابه الشديد بذكاء عزت باشا وحنكته السياسية، التي مكنته من زرع الشقاق بين حاشد وبكيل وشق صفوفهما. ولنقرأ معاً عبارات الإعجاب هذه، ولننتبه لدلالاتها: "وفي هذه اللحظة كاد لساني أن يلهج بالثناء على عزت باشا، الذي أفلح، بطريقة حاسمة، أن يشق عصا هاتين القبيلتين، اللتين قاومتا الأتراك متحدتين، ويحدث بينهما انقساماً عميقاً، ويجعل كلاً منهما تخطب وده وتسعى للحصول على مساعدته. ولا بد أن أعترف، بأنني منذ بدء رحلاتي في الشرق، لم أر ولو مرة واحدة، عملاً دبلوماسياً عظيماً كهذا".

٥- عجز، وهو الباحث الجاد، عن تفهم مواقف المواطنين اليمنيين، في المناطق القبلية، من الأتراك ومنه. فقد رأوا فيه عيناً للأتراك، يمهد من خلال رحلته تلك لزحف الأتراك على مناطقهم، وجاءت مواقفهم متسقة مع هذه الرؤية. وكان نيبور قد أشار إلى هذا العجز قبل رحلة جلازر بحوالي مئة وعشرين عاماً، في نقده الصريح لسلوك بعض الرحالة الغربيين ونظرتهم المترفعة الخاطئة إلى اليمنيين، التي جعلتهم غير قادرين على إعطاء تفسيرات سليمة لمواقف الناس وعاداتهم وأحوالهم في هذا البلد. فقد عبر جلازر في هذا السياق، على سبيل المثال، عن شكه بوجود شخص بين اليمنيين، يمكن أن يكون موضع ثقة. ويعيدنا إلى التاريخ القديم بقوله: "لقد جرب هذا الأمر اليوس جالوس". مشيراً بذلك إلى القائد الروماني الذي غزا اليمن عام ٢٤ قبل ميلاد عيسى عليه السلام، وكان دليل جيشه، كما يقال، مواطناً يمنياً[256]. فقد عمد ذلك الدليل إلى تضليل الجيش الروماني، مدفوعاً بحبه لوطنه وأهله. هذه الإشارة تبين بجلاء، أن جلازر، على خلاف نيبور، لم يستطع أن يضع نفسه في موقف اليمنيين، ليتفهم دوافعهم وأسباب سلوكهم، التي لا تخلو من نبل. فالخوف من المحتل والتشكك في نواياه والسعي إلى إفشال مساعيه، أمور لم يرد جلازر أن يتفهم دوافعها.

---

(256) ويقا أيضاً أن الدليل كان من شمال الجزيرة العربية (عربياً نبطياً).

وأين له ذلك، وقد وضع اعجابه بالحاكم التركي في صنعاء غشاوة على عينيه، حجبت عنه حقيقة الموقف، وقاده احساسه بالتميز واستخفافه، الذي وصل حد احتقار العشائر اليمنية المعدمة البائسة، قاده إلى إطلاق أحكام سريعة وساذجة ومتحاملة، سوف نورد أمثلة لها في الملاحظة التالية.

٦- بدا اليمني في نظر جلازر إنساناً كاذباً. فالعرب الجنوبيون، على حد تعبيره، يمارسون الكذب بصورة تلقائية، ولا يمكن أن يُحمل كلامهم على محمل الجد، ولا يمكن الوثوق به أو قبوله دون تحفظ. وتبلغ سذاجة الأحكام وتحيزها حداً يثير الإستغراب. ففي إشارة له إلى طبيعة اليمني، يقول: "لكن طبيعة العربي الجنوبي لاتخفي نفسها. فبالأمس كان مستقيماً وخاضعاً، واليوم أصبح مرتداً وخائناً". فالخضوع للأجنبي هو معيار الإستقامة، ورفض الخضوع، أو ما سماه بالإرتداد، هو معيار الخيانة. ويتجلى تحيزه في أحكامه وتبنيه المسبق لوجهة النظر التركية، في فهمه لما نطق به أحد رجال بني ردمان، في أرحب، عندما واجهه بقوله: "أنتم الأتراك أخذتم أرضنا منا ودمرتم منازلنا وقتلتم حتى أخي في وادي لاعة". فقد فهم ما قيل له على أنه مجرد كلام عابر، قيل في لحظة انفعال، لم يلبث -أي جلازر- أن تغلب على انفعال الرجل بذكائه. وهدأ الرجل، الذي كان مصمماً على الثأر لأخيه القتيل. ومن الأمثلة الكثيرة، لسوء الفهم الذي لازمه، تعليقه على موقف عشائر أرحب، تجاه محاولته تحريضها على ذيبان. فقد قام بتحريض أرحب وهمديدها في الوقت نفسه، بأن العواقب ستكون وخيمة على أرحب جميعها، مالم تعمد إلى إخضاع ذيبان، بقوة السلاح، وإجبارها على ترك التمرد. وترك التمرد يعني بالنسبة له، تركه يتجول كما يريد. هذا الموقف الإستفزازي كان يعكس فهماً خاطئاً لموقف ذيبان وأرحب. كما كان يعبر عن صلف وعن تقدير مبالغ فيه لقدرته، واستقواءً بالحاكم التركي، لا معنى له. وقد علق على عدم استجابة أرحب لتحريضه وتهديده بالقول: "وطلبت منهم بناءً على ذلك (أي بناءً على التهديد الذي وجهه لهم) العودة إلى قرية بيت سنان، لكي نجهز هناك خمس مئة إلى ست مئة رجل من أرحب، ليتجهوا بعد يومين أو ثلاثة أيام إلى أتوه وريام (حيث تتمركز ذيبان). ولكن لأن القبائل في العربية الجنوبية ليس لديها سوى القليل من القبيلة. فإن اقتراحي لم يجد لديهم أي صدى".

ورغم الملاحظات السابقة، وأي ملاحظات أخرى، يمكن للقارئ أن يسجلها على جلازر، فإن ذلك لا يقلل من القيمة العلمية لجهوده وللنتائج المهمة، التي أثمرتها رحلاته. حتى ليمكن القول دون مبالغة، أن جهوده ونتائج رحلاته قد مثلت محطة من أهم المحطات، في طريق استكشاف مجاهل

تاريخ اليمن القديم، وإزاحة الستار عن أسراره وخفاياه، من خلال ما جمعه من نقوش ومخطوطات، وما قدمه من دراسات جغرافية واجتماعية، ومن وصف لحياة الناس وعاداهم وتقاليدهم. مما يلزمنا بأن ننهي ملاحظاتنا هذه بالاعتراف بفضل الرجل على تاريخ اليمن وعلى كل من جاء بعده، مستكشفاً منقباً باحثاً، في تاريخ اليمن وجغرافيته ومجتمعه.

وعدا عن الجهد العلمي المتميز لجلازر، الذي يلزمنا أن نعترف بفضله، لابد أن أشير، إنصافاً له، إلى أن كتاباته عن اليمن لم تخل كلياً من لمحات إنسانية، تجاه اليمنيين، رغم ندرها. وأذكر هنا موقفين، اتسما بقدر من التفهم: الموقف الأول، وهو يدون الأعراف القبلية. فقد عبر عن إعجابه بالعرف المتعلق بالأشخاص، الذين يلجأون إلى القبيلة، طلباً لحمايتها، عبر عن إعجابه، بقوله: "يعتبر قانون اللجوء في النمسا قانوناً غير رحيم، إذا ماقورن بقانون اللجوء، لدى القبائل العربية الجنوبية". والموقف الثاني، بدر منه وهو في عمران، يتبادل الحديث مع رجال من حاشد، ويستمع إلى قصيدة طويلة، يفاخر فيها الشاعر الحاشدي بيوم خيوان، الذي ألحق فيه مقاتلو حاشد هزيمة بإخوانهم من بكيل، فقد رقت عواطفه وانبعثت في نفسه المشاعر الإنسانية، التي تغلبت، في تلك اللحظة، على الإحساس بالتعالي وعلى ارتباطه بالوالي التركي وإعجابه الشديد به، فعبر عن أحاسيسه بقوله: "أحسست في هذه اللحظة بمشاعر إنسانية، تجيش في صدري، وبأسى لهذه المخلوقات البائسة، التي لاتدرك أن يوم خيوان، الذي تفاخر به، يهدم استقلالها ويحولها، هي وغيرها من القبائل العربية، إلى مجرد رعية للحكومة التركية. إنهم بالطبع لا يعرفون القول اللاتيني المأثور (فرق تسد)، الذي يوجد له نصير ميكافيلي في صنعاء". والنصير الميكافيلي، الذي يقصده، هو الوالي التركي، الذي كان قد أبدى إعجاباً به وبسياساته الميكافيلية، والذي مول رحلته، وكلفه بجمع المعلومات، التي يمكن أن تستفيد منها الدولة التركية في رسم سياساتها، الهادفة إلى بسط نفوذها على مناطق أرحب وحاشد.

وأخيراً لابد من التنويه هنا، إلى أن موضوعات جلازر الأربعة قد سبق نشرها في كتاب، صدر عام ١٩٩٩م، عن المركز العربي للدراسات الإستراتيجية، تحت عنوان (اليمن في كتابات الرحالة الأجانب)،ضمن سلسلة (ترجمات عن اليمن والجزيرة العربية). وكانت هذه الموضوعات في الأصل قد وزعت لتنشر في جزئين منفصلين. ظهر الجزء الأول تحت عنوان (رحلتي في بلاد أرحب وحاشد). ولكن لكثرة الأخطاء المطبعية، التي وقعت فيه، رأينا في حينها إيقاف توزيعه، وأعدنا

تصحيحه وأصدرناه مرة أخرى، بعد أن ضممنا إليه مادة الجزء الثاني. ونعيد اليوم نشر هذه الموضوعات ضمن كتابنا الجديد هذا، وبالترتيب نفسه، الذي وردت به، في الكتاب المشار إليه، وذلك على النحو التالي:

١. رحلاتي في شبه الجزيرة العربية.
٢. التركيب الإجتماعي في اليمن.
٣. رحلتي في بلاد أرحب وحاشد.
٤. رحلتي من الحديدة إلى صنعاء.

ورغم أن نشر هذه الموضوعات في المجلات العلمية الألمانية قد تم وفق ترتيب آخر، تناسب مع تواريخ اعداد الموضوعات للنشر (الرحلة إلى أرحب وحاشد، فبراير ١٨٨٤م. التركيب الإجتماعي، ديسمبر ١٨٨٤م. الرحلة من الحديدة إلى صنعاء، ابريل ١٨٨٥م. المحاضرة حول الرحلات الأربع، اكتوبر ١٨٨٦م)، فقد رأيت أن وضع المحاضرة (رحلاتي في شبه الجزيرة العربية)، في البداية، سيساعد في إعطاء فكرة عامة لمجمل رحلات ونشاطات جلازر العلمية، قبل الدخول في تفاصيل الموضوعات الأخرى. وللإعتبار نفسه، وضعت (التركيب الإجتماعي)، وهو موضوع عام، يكمل الموضوع الأول، وضعته في الترتيب الثاني، وهذا يتفق أيضاً مع ترتيب إعداده للنشر. ثم وضعت الرحلتين (إلى بلاد أرحب وحاشد) و(من الحديدة إلى صنعاء) بحسب ترتيب وقوعهما، وهو ترتيب متفق مع تاريخي إعدادهما للنشر.

١. رحلاتي في شبه الجزيرة العربية.

محاضرة ألقاها إدوارد جلازر، في الجمعية الجغرافية الملكية القيصرية في فينا في ٢٦ أكتوبر ١٨٨٦م

كان من دواعي سروري أن أُدعى لإلقاء محاضرة، في الجمعية الجغرافية الملكية القيصرية. وفي الوقت نفسه أشعر بتهيب كبير، من الوقوف لإلقاء محاضرة، أمام هذه القاعة المليئة بالمتخصصين. إذ أن هذه هي المرة الأولى، التي أقف فيها لإلقاء محاضرة عامة. وإني مدرك تماماً بأني لا أملك موهبة الخطابة ، التي يمكن أن تساعدني في موقف كهذا. ومع ذلك فإنني كمواطن، واعتماداً على اللطف المعروف عن سكان فينا، يمكنني، كما أعتقد، أن أتوقع قدراً كبيراً من التفهم وسعة الصدر، وأنا أتجرأ، بطريقة قد لاتكون مناسبة، على عرض هذه المعلومات، عن أوضاع شبه الجزيرة العربية، وإطلاعكم على نتائج رحلاتي فيها.

بين حضارتين قديمتين، هما حضارة الهند وحضارة مصر، ماكان يمكن لشبه الجزيرة العربية، وهي محشورة بينهما، إلا أن تلعب دوراً تاريخياً هاماً، منذ الماضي السحيق للجنس البشري. وهو دور لايمكن تبين حجمه الكبير، إلا على أيدي جيل قادم. إذ أنها لم تجر بحوث علمية دقيقة حتى الآن، تتناول هذه البلاد، التي كانت مهد الجنس السامي الأول، إلا بشكل محدود، رغم بروز أسماء كبيرة لامعة، مثل نيبور وسيتزن وريده وأرنود وهاليفي ومالتسان ومانزوني وغيرهم. فالبحوث العلمية الدقيقة هي وحدها قادرة على كشف الكنوز التاريخية، التي تضمنت كتابات أسلافنا القدماء إشارات إليها. ويمكننا اليوم أن نقول، استناداً إلى النقوش، التي تم العثور عليها حتى الآن، أن ثقافة الثور قد سادت، حتى لدى الهمدانيين في العربية الجنوبية، كما كان الحال بالنسبة للمصريين، وإلى حد ما بالنسبة لليهود. ويكشف التركيب الطبقي، القائم حتى اليوم، في شبه الجزيرة العربية، عن العلاقات المغرقة في القدم مع الهند. كما أن الزيارة، التي تحدثت عنها التوراة، والتي قامت بها الملكة السبئية لسليمان، تفصح عن علاقات ودية، كانت قائمة بين العربية الجنوبية والمملكة اليهودية القديمة. وتشير النفائس الثمينة، التي قدمتها الحسناء السبئية، هدايا للحكيم اليهودي، تشير إلى ما تنطوي عليه أرض العربية السعيدة من خيرات. وإذا سُمح لي بإبداء هذه

الملاحظة، فإني أُؤكد على أن أرض الذهب البديعة، التي جرى الحديث كثيراً عنها وأُحيطت بالتخمينات الكثيرة، وهي أرض أُفير **Ophir**، لايمكن البحث عنها في أي مكان آخر، سوى في المناطق الشمالية من مملكة سبأ، التي كانت، حتى بالنسبة لملوك مصر، ولاسيما في عهد تحوتمس الثاني وحبتشوش، هدفاً لحملات بحرية عديدة. وقد سمى المصريون هذه الأرض بونت. وليس من الصعب اليوم التعرف على هذا الإسم في منطقة البون. وهو ماسأثبته في مقال خاص، حول يهود العربية الجنوبية وأرض أوفر. وحتى ذلك الشعب التجاري الفينيقي، الذي سماه اللاتينيون أيضاً بونير، وهي كلمة، إذا ماوضعنا في اعتبارنا قرب قرطاجة من إيطاليا، باعتبار القرطاجيين ذوي أصول يمنية، فإن أصلها ليس بالضرورة يوناني، بل يمكن ارجاع أصلها إلى منطقة العربية الجنوبية نفسها. ولم تقتصر علاقات بلاد شبه الجزيرة العربية على الشعوب القديمة جداً، التي لانعرف عن تاريخها سوى نتفاً قليلة، من خلال بعض الروايات وبعض النقوش، بل كانت لها أيضاً علاقات مع الأمم المتأخرة، التي اعتدنا أن نطلق عليها صفة الكلاسيكية، وهي علاقات يمكن اثباتها بالدليل التاريخي، ولاسيما مع الرومان، الذين كانت لهم علاقات مع شمال شبه الجزيرة، حيث مدوا نفوذهم نوعاً ما إليها.

ويقدم لنا بلينيوس تفاصيل، عن الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، في روايته عن حملة القائد العسكري الروماني، اليوس جالوس، عام ٢٤ قبل الميلاد، إلى أرض سبأ، أو بتعبير أصح أرض معين. ولا يمكن النظر إلى تلك الحملة، إلا باعتبارها حملة ذات أهداف سياسية تجارية. وبالطبع لم يقدر لها النجاح. فقد اضطرت إلى العودة، قبل أن تصل إلى معين، عاصمة الدولة المعينية، التي كانت متحالفة مع السبئيين، وقبل أن تبلغ هدفها، وهو مأرب أوسبأ، ومنطقة البخور. وقد توصلت في أبحاثي، التي ستنشر قريباً، حول هذا الموضوع، إلى أن بعض الكتاب الأوربيين وقعوا في خطأ، سواءً فيما يتعلق بالطريق، الذي سلكته هذه الحملة، أو فيما يتعلق بآخر منطقة وصلت إليها. فقد مدوا المنطقة الأخيرة، التي وصلت إليها الحملة، إلى وادي دوعن (في حضرموت). وإننا لنتساءل باندهاش، حتى لو لم نكن نعرف بأن القياصرة الرومان المتأخرين قد حصلوا من حكام العربية الجنوبية على سماح لرعاياهم، الذين كانوا يقيمون هناك لأغراض تجارية، سمحوا لهم ببناء كنيسة مسيحية، نتساءل عما إذا كان هؤلاء الكتاب لم يطلعوا، رغم علمهم الواسع، على مارواه كلوديوس بطليموس، حول شبه الجزيرة العربية، من أخبار تبرهن على أن

بلاد شبه الجزيرة كانت حينذاك بلاداً معروفة جداً وهدفاً تجارياً، يقصده الكثيرون. وقد شعر خالد الذكر، كارل ريتر **Karl Ritter**، بالحزن ، لأننا لم نعد نفهم أبداً مضمون ماأورده بطليموس من أخبار عن شبه الجزيرة العربية. واليوم، بعد مابذله شبرنجر **Sprenger** من عمل رائع، وبعد أن تصدى رجال شجعان، من أمثال أرنود وهاليفي، لكشف الستار، الذي كان يحيط العربية الجنوبية بالغموض، معرضين حياهم من أجل ذلك للأخطار، وذلك بماجمعوه من نقوش جنوبية كثيرة، يمكن لكارل ريتر، لوكان مايزال يعيش بين تلامذته، أن يشعر بالسعادة العلمية. إذ أن جزءاً كبيراً من معلومات بطليموس قد أصبحت الآن مفهومة لنا. ولعله من دواعي السعادة والرضا، أن أحمل بدوري جزءاً من هذه المهمة، بانجاز بحث خاص بجغرافية العربية الجنوبية القديمة، في وقت قريب .

بدأ تاريخ ممالك العربية الجنوبية القديم يتكشف لنا شيئاً فشيئاً، بعد أن أصبح بمقدورنا الآن قراءة النقوش، بثقة كبيرة، أكثر من ذي قبل. وفي هذا المضمار، فإن بلادنا لم تتخلف عن أمم أخرى. فعلى سبيل المثال، كان صاحبا آخر بحثين، نشرا في مجال النقوش السبئية، نمساويين[257]. وفيما يتعلق بي شخصياً، أعتقد أنه يجوز لي أن أدعي قيامي بخدمة متواضعة، في توضيح النقوش وفي جمع المادة الجغرافية الغنية، والمادة المتعلقة باللغة، التي ربما لاتزال مستخدمة حتى اليوم، كلهجات جنوبية. كما يمكن القول، إنها قد قُدمت، من قبل آخرين، بدايات واعدة جداً، حتى بالنسبة لتاريخ العصر المحمدي، في بلاد شبه الجزيرة العربية. فسيتزن، الذي انطلق من مدينة جوتا **Gotha** الألمانية إلى العربية الجنوبية، بهدف جمع المادة العلمية، وفي سبيل ذلك لم يبخل بحياته، التي دفعها ثمناً هناك، كما هو معروف، تمكن أن يبعث ببعض المخطوطات العربية الجنوبية إلى مدينة جوتا. وأفلحت مرتين، في أن أحمل معي إلى أوربا كمية من المخطوطات: في المرة الأولى حملت ثلاثاً وعشرين مخطوطة، وفي هذه المرة حملت مالايقل عن مئتين وإحدى وأربعين مخطوطة. رغم أنني وصلت مباشرة بعد سلفي سيجفريد لنجر **Siegfried Langer**، الذي دفع حياته ثمناً لطموحاته، مما سبب لي الكثير من المصاعب والمضايقات. فقد بقيت محتجزاً في صنعاء، كما هو معروف، أكثر من عشرة أشهر. مع ذلك أجد أن واجب العرفان يحتم علي في هذا المكان، أن أذكر ذلك الراحل بكل إجلال واحترام. لقد كانت مقاصده نبيلة وخيرة، وكان طموحاً، وإن

---

(257) يقصد د . هـ . مولر **D.H. Mueller** وإدوارد جلازر نفسه .

كانت قواه وخبرته أدنى من ذلك الطموح. واسمحوا لي الآن، بعد هذه المقدمة، أن أعرض لمحة سريعة لرحلاتي في العربية الجنوبية، مع توضيح للظروف السائدة هناك، بقدر مايسمح به الوقت المتاح لهذه المحاضرة.

كانت إقامتي الأولى في العربية الجنوبية (من أكتوبر ١٨٨٢م حتى مارس ١٨٨٤م) تنقسم إلى مرحلتين: المرحلة الأولى تضمنت الرحلة من الحديدة إلى صنعاء، ثم الإقامة الجبرية في مدينة صنعاء، حتى سبتمبر ١٨٨٣م. والمرحلة الثانية، هي مرحلة الرحلة الحقيقية[258].

وبما أنه لم يسمح لي بالخروج من صنعاء، أثناء الإقامة الجبرية، فقد قضيت الوقت، ليس فقط في مراسلة القيصر المعظم[259] والسفارة القيصرية في القسطنطينية، على أمل رفع الحجر عني، بل قضيته أيضاً، وبصورة خاصة، في تدوين الملاحظات المناخية المنتظمة الشاملة، بما في ذلك الرصد، الذي كنت أقوم به مرة كل خمسة أيام، ولمدة أربع وعشرين ساعة متواصلة، وكذا ملاحظة الأبراج السماوية، التي تُرى واضحة في كل مكان، إضافة إلى تحديد موقع صنعاء الجغرافي بدقة، حيث أردت أن تكون صنعاء نقطة انطلاقي، لتحديد المواقع الفلكية للمناطق الأخرى، داخل البلاد. وقد قدمت تقريراً إلى أكاديمية العلوم القيصرية في فينا، تضمن تحديد خطوط الطول، التي وضعتها بناءً على مراقبة دقيقة لظهور القمر، وهو التقرير، الذي نشر في زتسونجس برشتن **Sitzungsberichten** (١٨٨٤م). وإضافة إلى ذلك اختلطت بالبدو والقبائل، من مختلف المناطق، الذين كنت أدعوهم خفية إلى منزلي. وبصعوبة كانوا يقدمون لي المعلومات، ومن بينها معلومات قيمة، عن اللهجات المختلفة، السائدة في أوساط القبائل.

ونتيجة للتدخل النشط، من قبل وزارة خارجيتنا المبجلة، سُمح لي بالقيام بأبحاثي العلمية في داخل البلاد. وهنا أجدني ملزماً بأن أُوجه ألف شكر لمعالي الوزير، السيد الجراف كالنوكي، بارون تشنبيرج، الذي، مع الأسف، اختطفه الموت قبل أوانه. كما أوجه الشكر لمعالي السيد السفير البارون كاليسي. وما أن سُمح لي بالقيام بأبحاثي، حتى انضممت سريعاً إلى حملة تركية، مكونة من أربع كتائب، بقيادة المقدم أحمد رشدي بيه، كانت متجهة لانتزاع مدينة السودة **Suda**، حيث يتمركز الإمام شرف الدين، الذي يناصب الأتراك العداء منذ سنوات. واستفدت من هذه الفرصة

---

(258) يقصد الرحلة إلى منطقتي أرحب وحاشد.

(259) يقصد ملك النمسا.

لإجراء البحوث، في جبل ضين وعمران وعلى امتداد جبل عيال يزيد، بمافي ذلك آثار دعان، وفي شاهر وشهران ...إلخ. كما تجولت في منطقة حبور. وعدت إلى صنعاء، محملاً بالنتائج العلمية الغنية، بما في ذلك تحديد المواقع الجغرافية لثلاث مناطق.

كانت جولتي الثانية في بلاد أرحب وبلاد حاشد. وقد نشرت نتائجها في مجلة (بيترمانس متّايلونج **Petermanns Mitteilung** ، ١٨٨٤م). وكانت هذه الجولة أيضاً ذات نتائج جغرافية وآثارية مرضية. إذ تمكنت من الوصول إلى عدد كبير من المناطق الآثارية السبئية. من بينها صرواح وناعط. بعضها درسته وبعضها اكتفيت بتحديد موقعه.

وكانت جولتي الثالثة إلى غرب وشمال غرب صنعاء. ولم تكن الحصيلة سوى معلومات جغرافية وإثنوجرافية (علم الشعوب). وكما تلاحظون، فقد اتبعت في أبحاثي مبدأ الإنطلاق من نقطة ثابتة إلى مختلف المناطق. وهو منهج كفيل بتحقيق نتائج مفيدة. وذلك لأنه يحقق امكانية مراجعة وتصحيح خط السير السابق، وكذا الأدوات المستخدمة. وهذا المنهج، يختلف تماماً عن المنهج المتبع، في مايسمى بالرحلات الإستكشافية. ففي تلك الرحلات يهتم الرحّال قبل كل شيء بالتوغل في نفس الإتجاه، ربما إلى آلاف الكيلومترات. وهو مايخلق لدى الجمهور، الذي لايفهم العمل العلمي، انطباعاً أخاذاً. ولكنه، من وجهة النظر العلمية، يحتوي على مآخذ وثغرات كثيرة. ويعتبر المنهج، الذي اقترحه ويبرشت **Weyprecht**، للأبحاث الخاصة باستكشاف القطبين (الشمالي والجنوبي)، يعتبر إلى حد كبير منهجاً صالحاً للبحوث الخاصة بالبلدان الأجنبية. إن الرحلات الإستكشافية، التي لاتعطى فيها أهمية إلا لعدد الكيلومترات، التي تم قطعها، تحمل في ذاتها صفة السطحية. فالرحّال يغادر المنطقة قبل أن يكون قد استطاع أن يتعرف عليها بدقة. وبالتالي لايستطيع في أغلب الحالات أن يقدم معلومات ذات قيمة، عن خريطتها ولغة وعادات وتقاليد سكانها. وإذا أردنا أن نحكم حكماً غير قاس، فإن الخرائط والمعلومات في مثل هذه الحالات، هي على الأقل نوع من خداع النفس، الذي يقع فيه الرحّال.

وكان هدف الجولة الرابعة هو الوصول إلى مأرب. وتم الإستعداد لها، استعداداً كاملاً. ولكن نظراً لوضعي المادي السيء، اضطررت إلى صرف النظر عنها. وبمبلغ غير قليل من النقود، منحني إياه الجنرال التركي الحاكم، بإنسانية غير عادية، تقديراً منه لوضعي المالي الحرج، عدت إلى أوربا.

ولم أعد إلى اليمن إلا في ابريل ١٨٨٥م. ولكن مع الأسف لم يكن لدي، عند عودتي إلى اليمن، قدراً من النقود يستحق الذكر.

أما رحلتي الثانية إلى العربية الجنوبية، في كل أجزائها، فكانت استكمالاً لماكنت قد قمت به في رحلتي الأولى. فقد قمت، بين مايو ١٨٨٥م وفبراير ١٨٨٦م، بعدد من الجولات القصيرة، في منطقة شرق وشمال شرق صنعاء. كما أجريت أبحاثاً في جزء من خولان، وفي جزء كبير من منطقة مذحج. وأجريت بحوثاً واسعة لمجمل الآثار في ظفار، إلى الجنوب من يريم ، ثم في المنطقة الممتدة إلى عدن.

فبالنسبة لظفار، أظهرت بحوثي أنه لاوجود هناك لريدان، العاصمة الملكية الشهيرة في مرحلة سبأ وريدان. فالآثار الرئيسية هناك هي آثار زيدان **Zaidan**، وليست بأي حال آثار ريدان **Raidan**. وسوف أجد الفرصة لإثبات أنه يجب البحث عن ريدان في مكان قريب جداً من صنعاء. وقد لاأكون بحاجة إلى القول بأنه في هذه الرحلة، كما في الرحلة السابقة، كانت أدوات السدسية والكرونوميتر والبوصلة والأنرويد في عمل دائم، غير منقطع. واسمحوا لي أن أشير إلى أنني راض كل الرضا عن النتائج ، التي أنجزها هذه المجموعة من الأدوات، رغم أن الحصول على تلك النتائج قد تم تحت ظروف خطرة، وعبر مغامرات، لاأريد أن أرهقكم بسماع تفاصيلها.

وفي الثلاثين من يناير ١٨٨٦م وصلت إلى عدن. واستطعت أن أبحر على ظهر سفينة، عائداً إلى أرض الوطن، ومعي أربع مئة نقش سبئي وحميري ومجموعة تبلغ عدة آلاف، من كلمات اللهجات الجبلية، التي تعود إلى ماقبل الإسلام، ومواد لخارطة، استغرق انجازها سنوات، وبيانات قيمة جداً، للظواهر الجوية والمناخية وغيرها، وحمل جمل كامل من الآثار والمخطوطات.

واسمحوا لي الآن أن أتحدث ببعض الكلمات الموجزة عن الأرض والناس.

تبلغ مساحة شبه الجزيرة العربية حوالي أربعة أضعاف مساحة النمسا وبلغاريا. ويبلغ عدد سكانها خمسة عشر إلى عشرين مليوناً، أي حوالي ثمن سكان وطننا. ويظل هذا العدد أكثر بكثير مما في التصور الشائع حتى الآن. وهذا الإحصاء السكاني يستند إلى السجلات الضريبية للدولة العثمانية، وإلى أقوال العقال، أي المشايخ العرب، عن رجالهم القادرين على حمل السلاح .

وفي غرب شبه الجزيرة العربية تبرز سلسلة جبال السراة، التي تمتد من أقصى الجنوب شمالاً حتى سوريا. ويبلغ متوسط ارتفاعها ٢٦٠٠ متر عن سطح البحر. وبعض قممها يتجاوز ارتفاعه

٣٠٠٠ متر. وتتكون هذه السلسلة جميعها من صخور رسوبية، يبرز فيها عدد لايحصى من الجبال البركانية المخروطية الشكل، التي تقع في وسطها وديان حصوية زراعية واسعة، تسمى في شمال شبه الجزيرة الحرّات. وفي جنوبها تسمى الفيوش. وتنحدر الجبال في جهة الغرب انحداراً مخيفاً، حتى تصل إلى تهامة، التي تتكون بدورها من سهل واسع، يتدرج في انحداره، من ارتفاع ٧٠٠ متر عن سطح البحر، حتى مستوى سطح البحر. وفي جهة الشرق تنبسط الأرض تدريجياً، انبساطاً متصلاً، حتى الخليج الفارسي[260]. و في الجنوب توجد أيضاً سلسلة جبال مرتفعة، تنتهي في جبال إمامة مسقط. وفي مناطق الهضبة، التي تنخفظ تدريجياً، تجري المياه في عدد لايحصى من مجاري السيول، المحفورة في الهضبة، بما يشبه الأخاديد، والتي تتجمع في حوض وادي الدواسر. ويستمر جريان هذه المياه بصورة دائمة. ولكن ليس من الصعب، في كل الأماكن تقريباً، الوصول إلى المياه الجوفية، عن طريق حفر الآبار. وفي الجنوب من هذا الوادي الضخم، الذي يشكل في الوقت نفسه شريان مواصلات رئيسي في داخل العربية الجنوبية، تمتد صحارى متشعبة، ترتفع تدريجياً، على شكل هضاب رملية، حتى تصل إلى جبال حضرموت والمهرة وعمان. وهي صحارى غير مسكونة. ولكن أعداداً لاتحصى، من البدو الرعاة، تتجول سنوياً في أنحائها، باحثة في مواسم الأمطار عن بعض العشب، لأغنامها وجمالها، ثم تعود بعد ذلك إلى مواطنها الأصلية (غالباً في وادي الدواسر وبلاد يام وكرب والصيعر والمهرة). ويكاد المرء لايصدق أذنيه، وهو يستمع إلى أفقر مخلوقات الله هؤلاء، وهم يتحدثون عن أحزانهم وأفراحهم. لقد كان وفاؤهم وقلوبهم المخلصة، غير الملوثة، تحرك مشاعري وحنيني إلى وطني، كلما أتيحت لي الفرصة للتعرف على هذا الشخص أوذاك، من أبناء تلك المناطق.

وما يمكن أن يقال عن الدهناء، وهو الإسم الذي يطلق على الصحراء الجنوبية (الربع الخالي)، يمكن أن يقال عن السهول الممتدة شمال وادي الدواسر، المسماة (العارض). ويختلف الأمر بالنسبة للسفوح الغربية لجبال السراة وسفوح السلاسل الجبلية في الجنوب. ففي هذه السفوح تنتشر الوديان بأعداد كبيرة. وفي كثير منها تجري السيول، التي تنحدر باتجاه البحر. وإن كان القليل منها

(260) يستخدم الأوربيون عادة اسم (الخليج الفارسي)، بدلاً من (الخليج العربي). وسنحافظ على تسميتهم، كما وردت، من قبيل الأمانة في الترجمة. مكتفين هنا بالتنويه، إلى أن المقصود بهذه التسمية هو (الخليج العربي)..

فقط يصل إلى البحر ويختلط بمياهه. وكما يقول العرب، إن معظم هذه المياه تموت في الطريق، تعبيراً عن اختفائها تحت الرمال.

وقد أعطت الطبيعة من سخائها، سواءً للجبال أو لسفوحها المنحدرة نحو البحر، مالم تعطه لغيرها. إذ تنمو فيها نباتات غنية، بما فيها كل أنواع الحبوب، التي تزرع في أوربا، وعدد لايحصى من أنواع الفواكه وأنواع من الكروم، لايضاهى، ومزارع البن الرائعة، في المنحدرات المواجهة للبحر، تبعث الحياة في المنطقة، وتشكل أساس ثروتها. وتوجد على جبال بعض المناطق مزارع، تعطي أربعة محاصيل في العام الواحد، وهي المزارع التي، كما يقول العرب، تشرب من الغيل، أي تزرع بالسقي، من المياه المستمرة الجريان، التي تخلفها الأمطار. ومثل هذه المزارع أثمانها غالية جداً. فاللبنة منها (أي العشرة الأذرع المربعة، وهو مايساوي حوالي ٤٠ متراً مربعاً) غالباً مايساوي ثمنها خمسة عشر إلى عشرين ريالاً، من ريالات ماريا تيريزا. ولولا أن الصخور العارية تنتشر في أماكن كثيرة من هذه المناطق ، لأصبحت جبال العربية الجنوبية أبرك مناطق العالم. ولاتقل أراضي الجبال، في المناطق الداخلية لشبه الجزيرة العربية، لاتقل في غناها بأشجار البخور والمر واللبان والصمغ، بمختلف أنواعها، عن جبال العربية الجنوبية. وقد أحضرت معي إلى أوربا عينة من صمغ تلك المناطق. وأعتقد شخصياً أنني قد اكتشفت الصمغ العربي الحقيقي مجدداً. وأوضح لي العارفون، بأن الصمغ العربي في هذه البلاد أفضل نوعية بكثير من كل أنواع الصمغ العربي، الذي يصدر من البلدان الأخرى. أما البن، الذي دخل إلى اليمن من أفريقيا، في القرن السادس عشر، حسب المصادر التركية، بواسطة الحاكم يزدمير **Yz Damir**، فإنه يزرع على امتداد سفوح السراة الغربية إلى عسير، وفي وديان الجبال الجنوبية. ويشاهد المرء شجيرات البن على ارتفاع ١١٠٠ إلى ٢٠٠٠ متر عن سطح البحر. ويتم تصدير البن جميعه عن طريق عدن بشكل خاص، وعن طريق الحديدة والمخا والمكلا واللحية ووادي الدواسر. ولايحتفظ العرب لاستخدامهم الخاص إلا بقشرة حبوب البن، التي يسمونها قشر. ورغم ذلك فإن المرء لايحصل عندنا إلا نادراً على البن اليمني الحقيقي (المسمى المخا أو مكا). إذ أنه ربما يكون قد تم خلطه في عدن أو في الحديدة، بأنواع أخرى رخيصة. والأكثر احتمالاً أن خلطه يتم في المخازن الأوربية.

ولا تختلف حيوانات العربية الجنوبية عن مثيلاتها في البلدان المجاورة. أما الحيوانات المتوحشة فهي نادرة. ومع ذلك فإن من المؤكد وجود أسود ونمور وضباع وأمثالها. أما الفيلة فلا توجد.

وتوجد النعام في العارض وفي مناطق الكرب والصيعر ومناطق أخرى. وتعتبر الجمال والأغنام والخيول والحمير والبغال أكثر الحيوانات نفعاً. وتشكل الثلاثة الأنواع الأولى، بصورة خاصة، جزءاً أساسياً من حياة العرب. وتكاد شخصية الإنسان العربي الأصيل لاتكتمل بمعزل عنها. ويستخدم العربي الجمال لنقل الأحمال وللركوب. ويستطيع الجمل أن يحمل عبر الجبال ثلاث مئة كيلو على ظهره. وعند الحاجة يحصل العربي من إناثها على الحليب، كما يمكن أن يأكل لحومها. وأثناء السفر يكون الجمل قنوعاً للغاية، حتى أقنع من أزهد فقراء بني الإنسان. وقبل البدء في السفر، يعطى الجمل كيلوين من الذرة أو الشعير. بعد ذلك يواصل السفر، محملاً حملاً يقصم الظهر، لمدة ثلاثة إلى أربعة أيام، دون أن يحصل حتى على حبيبات من الطعام. ثم يعطى نصف يوم للراحة، ويترك ليبحث لنفسه، وسط الأشجار المليئة بالأشواك، عن وجبة شهية. وهكذا يستمر اسبوعاً بعد أسبوع. وغالباً لايحصل على استراحة يوم كامل، إلا بعد ثلاثة إلى أربعة أسابيع. ويمكن حينها أن يحصل على حصة من الشعير. أما الماء فلا يشغل أمره ذهن الجمل ولا الجمَّال. وقد شاهدت جمالاً لاتشرب، طوال أربعة عشر يوماً، قطرة واحدة من الماء. ويحدث هذا حتى في مناطق تتوفر فيها المياه. ولو سأل المرء عربياً، لماذا لايأخذ جمله إلى الشرب؟ لرد بازدراء: باهر، أي ممتاز، إنه جمل. وهكذا يخوض الجمل رمال الصحراء الكثيفة بمنتهى الهدوء والعزم، كما يسير في الطرق الجبلية المضنية، في جبال السراة.

وتوجد الأغنام والأبقار في شبه الجزيرة العربية بأعداد كبيرة جداً. ويعتبر لحم الخراف المطبوخة الطعام الوحيد المستساغ ، الذي يمكن الحصول عليه في العربية الجنوبية. أما لحم الأبقار، الذي تبلغ قيمته نصف قيمة لحم الخراف، فلا يأكله إلا الفقراء. وحتى الخادم، إذا ماقدم له لحم الأبقار، اعتبر ذلك نوعاً من الإهانة.

وتوجد الحمير والبغال بكثرة في العربية الجنوبية. وتُستقدم البغال من الحبشة أو من الصومال، لأن العربي لايطاوعه قلبه أن يجبر خيلته على معاشرة حمار، إذ لايوجد ميل طبيعي للمعاشرة بين الجنسين. والعربي يقدر خيله تقديراً كبيراً، ويتوهم أن أصلها يرجع إلى أحصنة سليمان الحكيم الخمسة، التي اصطادها في الغابات الغربية، واعتنى بها البدو عناية فائقة. ويُحكى أنه ذات يوم جاء أخو شريف مكة القوي إلى شيخ قبيلة، كان يمتلك خيلة بديعة، وطلب منه تلك الخيلة، إذا أراد أن يجنب قبيلته كلها أوخم العواقب. فأجاب الشيخ بالسمع والطاعة. وفي المساء قدم الشيخ الكريم

عشاءً فاخراً، أكله كل الحاضرين بشهية كبيرة. بعد ذلك عبر الشريف للشيخ بإعجاب عن شكره وامتنانه لتلك الضيافة الكريمة. وفي اليوم التالي استيقظ الشريف باكراً، ليهيء نفسه للسفر، ولاصطحاب الخيلة معه إلى مكة. وعندما سأل عن الخيلة، أجابه الشيخ ببساطة: "أيها الشريف، لقد أعطيتك الخيلة، وتستطيع الآن الإنصراف. لقد أمتعك لحمها البارحة كثيراً. بلغ أخاك، الشريف الكبير، بأن العربي يحافظ على وعده، ولكنه لايسلم خيلته إلى أي إنسان آخر".

وتوجد الخيول الأصيلة في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية تقريباً، من وسط اليمن، في الجوف، حتى حدود العراق وسوريا. وأفضلها تلك الموجودة في منطقة قبيلة عنيزة وفي قلب شبه الجزيرة. ومن الأسماء، التي تطلق على أفضل الخيول: كحيلان ومعنقي وجدراري ودهيمة وشويمة وريشان. وقد استطعت أن أعطي اهتماماً خاصاً لهذه الخيول، لمدة عام. ودون التطرق إلى تفاصيل حياة الخيول العربية، يمكنني هنا القول، بأن الخيول العربية الأصيلة لم تصل إلى أوربا إلا في حالات نادرة جداً. فالخيول، التي تشترى كعينات وتهرب عن طريق المحمرة[261] وبمباي إلى إنجلترا، هي في معظم الحالات خيول مولّدة، غير أصيلة، يبيعها التجار العرب الماكرون كخيول أصيلة. فالخيول الأصيلة، ولاسيما الإناث منها، هي لدى العرب أغلى من أي ثمن. وإذا ماحالف الإنسان الحظ، فإنه يمكن أن يحصل على خيلة أصيلة، على سبيل الهدية. والخيول التي تباع، هي غالباً من الذكور، وتنتمي عادة إلى خيلة واحدة، يمتلكها عشرون أوثلاثون شخصاً، كشركاء. أي أنهم بحيوان واحد يمارسون عملهم التجاري كشركة. وفي أوساط القبائل، ولاسيما تلك التي تركب الخيول، يعتبر الحصان أغلى مايمتلكه الفرد منهم. ولابد أن يشاهد المرء تلك النشوة، التي يشعر بها العربي، وهو يركب حصانه، لكي يستطيع أن يفهم، لماذا يمكن للعربي أن يتقبل أي مكروه، إلا أن يباع حصانه. إنه ينطلق به كالسهم، خلف عدوه ، لكي يصوب إليه رمحه. وينثني الحصان متراجعاً بنفس السرعة، مبتعداً عن العدو، هو وراكبه ، إذا تطلب الأمر ذلك. ويذهب الخيال العربي، في إضفاء صفة الوفاء على الخيول، إلى حد لايصدق. فهي تحمل راكبها، إذا أصيب في المعركة، بأسنانها، مبتعدة به عن أرض المعركة، حتى تصل به إلى دياره. وبعض الخيَّالة العرب يزعم بافتخار، أنه يدين برأسه وبحياته لحصانه.

(261) تقع مدينة المحمرة في شط العرب، التابع حالياً لإيران. وقد أبدل الإيرانيون اسمها العربي باسم فارسي، وهو (خرمشهر).

ولنترك الآن حكايا الخيول الممتعة، لنتحدث في ماتبقى من الوقت المتاح لنا عن مواضيع علمية، حول سكان شبه الجزيرة العربية وأوضاع البلاد السياسية والمناخ السائد هناك. وسوف يقتصر حديثي هنا على العربية الجنوبية وحدها.

يتكون سكان العربية الجنوبية من الناحية الإثنية، من السادة والمدينيين (سكان المدن) والقبائل والبدو وأهل الخمس واليهود. أما من الناحية المذهبية، فيتكونون من الشوافع والزيود والإسماعيليين والإثناعشريين ...إلخ.

فبالنسبة للسادة، ليس هناك الكثير مما يمكن أن يقال عنهم. إذ يفترض أنهم جميعاً ينتمون إلى علي وفاطمة. وقد استقروا بصورة خاصة في أنحاء العربية الجنوبية الشيعية. وفيها، ولاسيما في المدن، كونوا طبقة دينية من النبلاء. ومن هذه الطبقة وحدها، وفقاً للنظرية الزيدية[262]، يأتي الحكام، الذين يسمون هناك بالأئمة.

وأما المدينيون، فلا يتمتعون بشيء من الأهمية، إلا في الأوقات التي توجد فيها حكومة مستقرة قوية. ويتكونون من التجار ومن أصحاب المهن والصنائعيين وأمثالهم. وينظر إليهم المجتمع القبلي نظرة دونية، بسبب هذه الأعمال، التي يمارسونها ولأنهم مع مرور الزمن قد فقدوا روابطهم القبلية وامتزجوا بكل العناصر الغريبة. والمدينة في نظر القبيلي أو البدوي الأصيل تتكون من حثالة الناس (أهل السوق[263]). وهنا بالضبط يبرز الفرق، في الوقت الراهن، بين عرب الشرق وأوربيي الغرب. فالقبيلة العربية تعتبر نفسها صاحبة الشرعية الوحيدة في الحكم والسيادة في البلاد. ولذا فإن جميع الحكومات في الجزيرة العربية أنهكتها صراعاتها مع القبائل. وحتى الإسلام، الذي جاء ليحقق المساواة في كل شيء، لم يستطع أن يغير هذا الواقع. ولعل الصيغة المناسبة للحكم في هذا الواقع، هي صيغة الكنفودرالية. ومن خلال النقوش السبئية يبدو، حتى في العهود المغرقة في القدم، أنه لم يكن بالإمكان سوى إنشاء دول قبلية صغيرة، لم تحظ سلطتها بالإعتراف من القبائل الأخرى،

(262) الزيدية، على خلاف الفرق الشيعية الأخرى، تجيز أن يتولى الإمامة شخص لاينتمي إلى علي وفاطمة، على قاعدة (إمامة المفضول مع وجود الأفضل) إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك. ولكن تاريخ الإمامة الزيدية في اليمن، الذي امتد لأكثر من ألف عام، لم يشهد تطبيقاً لهذه القاعدة.

(263) التعبير المتداول حتى الآن هو (عيال سوق)، ومفردها (ابن سوق).

إلا لفترات قصيرة، ودون أن تفقد هذه القبائل استقلالها. ويبدو أن هذه خاصية من خواص المجتمعات السامية بشكل عام، ويمكن ملاحظتها في الحبشة أيضاً.

وتضم القبيلة العربية، التي تسمى (قبيلة أو عشيرة أو غرّامة)، تضم آلافاً من القادرين على حمل السلاح، ينتضمون في فروع وشعب شجرة واحدة، تبدأ باللحام أو البطون. وهذه تتفرع بدورها إلى فصائل وأفخاذ ...إلخ. وحول علاقات القرابة هذه توجد تسميات كثيرة، لاأريد أن أثقل عليكم بالحديث عنها. ولكن مما هو طريف ويستحق الذكر هنا، أن فرعين شقيقين في نفس مستوى درجة الإنتساب إلى القبيلة، كالحبال مثلاً، التي تنتمي إلى اللحمة نفسها، يتعاملان، أحدهما مع الآخر، تعامل الغرباء. ويمكن أن يخوض أحدهما ضد الآخر حرباً شعواء، دون أن تشعر القبيلة بأن الأمر يعنيها. ومن هنا فإن السلام لايستتب داخل القبيلة العربية الواحدة إلا نادراً. ولكن مع ذلك فإن القبيلة بجميع لحامها وبطونها، وحتى القبائل المختلفة، التي لايربط بعضها بالبعض الآخر إلا انتماؤها إلى جد قديم جداً، عاش قبل آلاف السنين، توقف كل خلافاتها وخصوماتها، إذا ظهر خطر مشترك، وتلتحم لمواجهة ذلك الخطر. ولكن هذا الإلتحام لايدوم إلا بقد استمرار الخطر. فما أن يزول الخطر، حتى تعود القبائل واللحام إلى سابق عهدها. ولكل قسم من القبيلة عاقل، يدير شؤونها العامة. وعندما يكون العاقل من أسرة قبلية عريقة، فإنه يسمى نقيباً[264].

واسمحوا لي هنا أن أشير إلى أنه يسود في أوربا فهم خاطئ جداً، لمصطلح قبائل، وكذا لمصطلح بدو. ففي الواقع لايوجد فرق حقيقي بين المصطلحين. فالقبائل والبدو ينتمون إلى قبيلة، ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات. إلا أن القبيلي عادة، ولحسن حظه، أغنى من ابن قبيلته البدوي. فالأول مستقر، يسكن في قرية ويفلح الأرض. أما الثاني فيشبه الشاعر، يحلم بتقسيم العالم ويتجول في سماوات زيوس[265] النورانية. وعوالم البدوي النورانية الحرة المفتوحة تتمثل في مراعي منطقة القبيلة، غير المثمرة عادة، التي يطوف بأنحائها مع أنثاه وطفله وخيمته ومعزته، وأحياناً مع حصانه وجمله أيضاً. وكالشاعر الموهوب، المعتز بآلهة إلهامه، يكون البدوي الجائع معتزاً بحريته وبشرف قبيلته. ومن المدهش حقاً أن يتمخض عن البدوي البدائي، في أغلب الأحيان، شاعر

(264) هذه التسمية تأخذ بها قبائل بكيل، مقابل الشيخ في قبائل حاشد.

(265) زيوس هو إله السماء والرعد لدى اليونان، ويقابله جوبيتر، لدى الرومان.

مبدع. ومما يعتبر إطراءً ومدحاً للرسول، أن إقامته كصبي في أوساط البدو، قد قوَّت عقله وروحه، وهيأته للقيام بالأعمال الرجولية.

وأعرق القبائل في العربية الجنوبية هي: قحطان ويام وحاشد وبكيل ومذحج وعك وأشعر. وكل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلى قبائل صغيرة كثيرة، تتوزع مساكنها في عسير واليمن وحضرموت ويام ووادي الدواسر. ولأننا سنبتعد عن موضوعنا، لو أردنا أن نفصل القول، حول كل هذه القبائل، فسوف نتحدث الآن بإيجاز عن أهل الخمس. فهؤلاء فئة منبوذة. ويختلفون عن العرب المحيطين بهم باللون والنوع. ولا ينتمون إلى أي قبيلة ولا إلى أي مدينة. ويسكنون، في تهامة، خارج المدن، في أحياء خاصة بهم. ويشتغلون بالأعمال الوضيعة. وقد نشرت سابقاً موضوعاً في مجلة أوسلاند **Ausland**، عن هذه الفئة البائسة.

وتشبه فئة أهل الخمس فئة أخرى، تعيش في الجبال، هي اليهود. وسوف أتحدث عنهم بتفصيل أكثر. فاليهود لايعيشون إلا في المناطق، التي عاش فيها السبئيون والمعينيون. ومن خلال ماجمعته عن تقاليد اليهود اليمنيين من مادة غنية، يمكنني القول، بأننا هنا إزاء جماعة من جماعات الشعب المختار، وأن هؤلاء اليهود الذين يشتغلون في تنظيف المجاري وفي البناء وصياغة الحلي والصناعات اليدوية في اليمن، يشكلون الرابط التاريخي، بين إسرائيل والآشوريين والعربية الجنوبية. فقد روت التوراة أن سلمنصَّر الآشوري، بعد أن دمَّر دولة إسرائيل، نقل سكانها (في الواقع جزءاً منهم فقط) إلى حلح وإلى حبور، على نهر جوزون، وإلى مدن مدينس. وأعتقد، على عكس التصور القائم حتى الآن، أن منطقتين من هذه المناطق يجب البحث عنهما في اليمن، وهما حبور ونهر جوزون. فقد وجدت تطابقاً بين اسم حبور واسم منطقة حبار في أرحب[266]، إذا ماراعينا امكانية قلب حرف (O) العبرية إلى حرف (A) العربية. كما أن نهر جوزون هو بشكل واضح وادي جازان اليمني. وهاتان المنطقتان عُرفتا منذ زمن يغرق في القدم، كمنطقتين يهوديتين. بل إن وادي جازان لايزال يمثل حتى اليوم الحدود الشمالية لتواجد اليهود. أما حلح، فلم يتضح لي أمرها. وأما مدينس، ومارتبط بها من أسماء، مثل لتوانيا وبولندا وألمانيا والنمسا، فلا تدخل ضمن نطاق محاضرة اليوم. ولكن حتى النقوش تؤكد فرضيتي. فإلى جانب المناطق المذكورة، وردت في التوراة أسماء

---

(266) هناك بلدة في ناحية ظليمة، في بلاد حاشد، اسمها (حبور). ولعل جلازر لم يسمع عنها.

ثلاث مناطق أخرى، أخضعها الآشوريون لحكمهم، وهي: ريشف Resf وهرن Haran وعدن Eden. ويوجد بين النقوش، التي جمعتها، نقش من الجوف، منقوش على حجر قربان، ورد فيه اسم ريشف، بصورة واضحة جداً، لالبس فيها، كإسم لمنطقة في العربية الجنوبية. واسم عدن مطابق لاسم عدن، المدينة المعروفة. وهذا التطابق يؤكد فرضيتي. كما أنه ليس من المستبعد، أن ماورد في أحد النقوش، ضمن مجموعتي السبئية هما، بشكل مباشر، اسما قبيلتي روبن Ruben وسيمون Simeon. وإني أفكر حالياً بأن أنشر بحثاً خاصاً بهذه المسألة المهمة، مستفيداً في ذلك مما تحت يدي، من مادة علمية غنية. ويكفي اليوم أن أشير، إلى أنه يبدو أن الآشوريين قد بسطوا في ذلك الحين، نوعاً من السيادة على العربية الجنوبية وعلى الحبشة (وربما أن حلح تقع في الحبشة).

ولا أريد هنا أن أتوقف عند الجوانب الدينية في بلاد شبه الجزيرة العربية، فقد سبق لي أن قدمت لجمهور مدينة فينا، قبل سنوات، ورقة عالجت فيها هذا الموضوع. كما سأتجاوز الحديث عن الصناعة والتجارة في العربية الجنوبية، لأتناول مباشرة الوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية. لأن هذا الجانب على درجة عالية من الأهمية، نظراً للطموحات الإستعمارية، لعدد من القوى الأوربية، هذه الطموحات التي أصبحت عبارة عن موضة.

ومنذ شُقت قناة السويس وأخذت مكانتها في الملاحة العالمية، أدركت الحكومة التركية في القسطنطينية ضرورة التمسك، على الأقل بشبه الجزيرة العربية، مهد الإسلام وموطن مقدساته. وذلك لمصلحة الخلافة، التي ضعفت من كل النواحي. وبدأ العمل من دمشق وبغداد، للقضاء على الدولة الوهابية. وكانت خيوط التحرك كلها بيد مدحت باشا. وكما هو واضح اليوم، فقد نجحت هذه العملية، نجاحاً كاملاً. وتمكن الباشا، شيخ منطقة شمر، محمد بن عبد الله بن رشيد، المخلص للأتراك، تمكن من بسط نفوذه على الأجزاء الداخلية، في مناطق الوسط والأمام من شبه الجزيرة العربية. كما احتل الأتراك شواطئ الأحساء، على الخليج الفارسي. وتمكنوا عام ١٨٧٢م من احتلال المناطق الداخلية للعربية الجنوبية[267]، حيث تمركزت فيها الفرقة العسكرية السابعة. وجنباً إلى جنب مع هذه الخطوات، التي لم تنته حتى اليوم، تمكن الأتراك من تطويع الشريف الكبير في مكة، الذي تقبل وجود والٍ تركي وقائد للفرقة العسكرية الثامنة، في مكة. أما حضرموت فقد

(267) تمكن الأتراك من احتلال الحديدة، عام ١٨٤٩م، ثم توسعوا في منطقة تهامة اليمنية، ولكنهم لم يفلحوا في السيطرة على صنعاء إلا عام ١٨٧٢م.

فشلت محاولة الأتراك في إيجاد موضع قدم لهم فيها، بسبب تصادم هذه الطموحات، بالطموحات المماثلة للإنجليز، الذين كانوا يهيئون، منذ سنوات، لاحتلال السواحل الجنوبية والأراضي الداخلية الجميلة، عن طريق عملائهم المحليين، وعلى رأسهم الشيخ القعيطي. وكان يمكن لمخططاهم أن تنجح منذ زمن ، لولا أن جهودهم قد وجهت إلى مصر، فشغلوا بها. ومع ذلك فمن الثابت أن الحروب في حضرموت والمناطق الواقعة في شرقها، لم يتوقف أوارها. فأعداد كبيرة من المرتزقة، من بني قحطان ويام وذو حسين وغيرهم، يتوجهون إلى حضرموت، طمعاً في الذهب الإنجليزي، ليعملوا هناك على مساعدة الإنجليز في تحقيق مطامحهم. وصادف الأتراك نجاحاً في يام، أكثر مما صادفوه في حضرموت. إذ أن يام، منذ عهد الحاكم عزت باشا (١٨٨٢م ــــ ١٨٨٥م)، تحتفظ بعلاقات ودية للغاية، مع الحكومة التركية. ولكن الأتراك لم يصادفوا بعد، في مناطق احتلالهم، النجاح نفسه، الذي صادفوه في المناطق الساحلية، على البحر الأحمر والخليج الفارسي، ما عدا في بعض الأماكن المتفرقة، مثل صنعاء، بصورة خاصة. فمع أهم قد توغلوا في الداخل، إلا أهم حتى اليوم لم يتمكنوا من ربط عسير مع مناطق اليمن الأخرى، في أرض واحدة متصلة، تخضع لسيطرهم. وإلى جانب ذلك تأتي المطامع الجديدة لإيطاليا وفرنسا، في العربية الجنوبية. فالإيطاليون يطمعون بالمخا، والفرنسيون بالشيخ سعيد. كما أن الإنجليز يمدون نفوذهم باستمرار إلى مناطق في الحدود الجنوبية لليمن التركية. فالحدود التركية – الإنجليزية، في قعطبة وجليلة، في اضطراب دائم، وكثير من القرى الحدودية تعلن استقلالها عن الأتراك، وتتحالف مع إنجلترا. ولاتتخذ الحكومة الإنجليزية أية إجراءات مضادة لتحركات هؤلاء الناس. بل على العكس، يبدو أنها موافقة على ذلك تماماً. وفي حين تقوم الوحدات العسكرية التركية بتدمير المباني، المسماة المجبى، أي مباني رسوم المرور، التي يقيمها المشايخ، وتسويتها بالأرض، يدعم الإنجليز بوعي، ولخدمة مصالحهم، هذا الشكل من المباني، الشبيهة بقلاع قطاع الطرق، التي عرفتها أوربا في العصور الوسطى، والتي تعطل حركة التجارة وتحد من تحرك المواطنين بحرية. وقد حدث لي، أنا شخصياً، حادث، عندما وصلت إلى أول نقطة في حدود الإنجليز. فقد اعتقلت من قبل الشيخ عامر البيشي، بعد أن هاجمني ومرافقِيَّ رجال، هبطوا من أحد المرتفعات، وهم يحملون بنادق محشوة ومهيأة للأطلاق. وكانت مقاومتهم غير ممكنة. ولم أستطع أن أتخلص من الإعتقال وأواصل سفري، إلا بعد مضي أربع وعشرين ساعة، وبعد أن أشبعت على الأقل بعض مطامع السيد قاطع الطريق.

ونظام المجبى، الذي يزداد العمل به شيئاً فشيئاً، يشكل واحدة من وسائل السياسة البريطانية، ويصبح مصدراً للتذمر والإستهجان من هذه السياسة، التي يمكن، لولا هذا النظام، أن تصبح

سياسة حكيمة. وبالطبع يمكن للمرء بحفنة من الجنود أن يسيطر، سيطرة شكلية، على نصف بلاد شبه الجزيرة العربية، إذا ما أعطى للناس كل الإمكانيات المطلوبة، ومنها الحرية المدمرة، في أن يصنعوا مايشاؤون، ويكتفي بالتعامل معهم كحليف. ومثل هذا الوضع لايدوم إلا لمدة، يحتاجها العرب ليصلوا إلى قرار حاسم في الإختيار، بين حليف من هذا النوع، وبين قوة تمارس الحكم فعلاً. وعندما تختفي القوة الحاكمة، فلابد أن تختفي معها من المسرح القوة الحليفة. وتصبح المناطق عند ذلك غير آمنة ، وتسودها حالة من الفوضى والبربرية. ويمكن هنا القول، بأنه في كل منطقة توجد فيها إدارة تركية، يسود الأمن في كل الطرق والمسالك، أمن الأشخاص وأمن الأموال. وعلى عكس ذلك في المناطق القبلية، الواقعة تحت النفوذ الإنجليزي، حيث يغدو كل إنسان وكل شيء هدفاً للطامعين. وقد قتل لانجر في إحدى هذه المناطق، دون أن يجد أحد الشجاعة الكافية، ليفصح عن هوية القتلة ويحمل القبيلة الغادرة المسؤولية، مع أن هذه المنطقة تقع قريبة جداً من عدن. لقد كان كافياً اصدار تصريح، من قبل الحاكم التركي، للنجر نفسه، ليصبح آمناً في طريق سفره الطويل، الذي استمر ستة أسابيع كاملة، من الحديدة إلى بيت الفقيه، ثم ضوران حتى صنعاء. رغم أنه قد أثار الريبة في نفوس السكان، من خلال تصرفاته وملابسه. فقد ارتدى ملابس الأشراف وبدا في نظر الناس، في كل مكان مر به، غشاشاً ودنساً.

ولنترك هذه الحقائق غير المريحة، لنتناول آخر نقطة في محاضرتي لهذا اليوم، وهي نقطة لن تتضمن أيضاً أشياء مريحة كثيراً .

تقع شبه الجزيرة العربية في المنطقة الحارة. لذلك فهي تجسد جميع خصائص مناخ المناطق الحارة، ولاسيما في جزئها الجنوبي. ففي الأجزاء الساحلية جميعها يسود جو حار ورطب لايطاق. وفي الحديدة مثلاً، تبلغ درجة الحرارة ٤٠ درجة سنتجريد. وفي الليل لاتهبط درجة الحرارة في الصيف تحت ٣٠ درجة. وفي أشهر البرد لاتهبط تحت ١٤ درجة. وخلال ذلك يكون الجو مشبعاً بالرطوبة باستمرار. أما في مناطق الجبال فتختلف درجات الحرارة، حسب مستوى الإرتفاع عن سطح البحر. ففي صنعاء (٢٢٢٠متراً عن سطح البحر) نادراً ماسجل مقياس الحرارة في أشهر الحر (ابريل ومايو) ٣٤ درجة. في حين يوجد الجليد في أشهر البرد (ديسمبر ويناير) في كل صباح تقريباً. ويلاحظ، لاسيما في أشهر البرد، مناخ قاري، حيث يمكن أن تصل درجة الحرارة بعد منتصف النهار إلى ٢٠ درجة وأكثر. وفي المناطق الجبلية تنخفض درجات الحرارة غالباً، في الصباحيات الشتوية، حتى تصل إلى ٥ درجات تحت الصفر. ولكن الأمطار لاتهطل في أشهر اشتداد البرد ، وإلا لأخذت شكل ثلوج. فهناك موسمان منتظمان للأمطار، أحدهما قصير، في شهر مارس، والآخر طويل، في أشهر يوليه وأغسطس وسبتمبر. وتكون حرارة الجو في الموسمين معتدلة.

فإذا سقطت الأمطار بشكل استثنائي، عند اشتداد البرد، فإن قمم الجبال، التي يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠٠ متر، كجبل حضور النبي شعيب، تكتسي بالثلوج. وهناك ظاهرة عجيبة، تتكرر في أشهر الشتاء، على الهضاب العالية، تتمثل في أن الجو شديد الجفاف يجعل الماء، لاسيما عند هبوب الريح الشرقية النشطة، يتجمد عند درجة حرارة، تصل إلى بضع درجات فوق الصفر. وحتى في أشهر الحر، التي يكون الجو فيها أيضاً جافاً جداً، تترطب مسام الجلد إلى درجة أن المرء يشعر بالبرودة، حتى عند ارتفاع درجة الحرارة، وقد يشعر أحياناً بالتثلج. والعكس تماماً يحدث في تهامة الرطبة ، حيث يظل المرء، دون انقطاع، يستحم بعرقه.

وفي الأجزاء المرتفعة من المنحدرات الغربية للسراة، ولاسيما هناك، حيث تترعرع وتزهو زراعة البن، تبرز ظاهرة ملفتة للنظر. فعندما يرسل المرء بصره صباحاً نحو الغرب، يشاهد في الأماكن شديدة الإنخفاض بحر من سحب الضباب الكثيف، يغطي تهامة كلها. ثم تصعد تلك السحب الضخمة نحو الأعلى، شيئاً فشيئاً، حتى تصل في الساعات الأولى بعد منتصف النهار إلى قمم الجبال، فتغمر كل المنحدرات الغربية بالضباب البارد المشبع بالرطوبة. وهذه السحب الضبابية لاتغمر قمم الجبال ذاتها، إذ أن الجو الجاف في الأعلى يؤدي إلى تهالكها وتلاشيها عند القمم. وهكذا تشكل قمم الجبال حدوداً فاصلة، بين نوعين مختلفين تماماً من المناخات، المناخ الرطب والمناخ الجاف، اللذين يظهران خصائصهما، كل منهما ضمن حدوده، على أنواع المجموعتين، النباتية والحيوانية. فالبن والقرود تترعرع في المنحدرات الرطبة المواجهة للبحر. في حين تنمو أنواع الحبوب الأوربية وأشجار الأعناب الممتازة والخيول أيضاً، في الأجزاء الشرقية الجافة من جبال السراة، وفي المناطق الداخلية من البلاد.

وترتبط الأوضاع الصحية للناس بنوع المناطق، ارتباطاً وثيقاً. فالوضع الصحي في العربية الجنوبية، بشكل عام، غير ملائم إلى أبعد الحدود، لاسيما بالنسبة للغريب. وفي هذا الصدد لابد من التأكيد على أن مناطق الهضاب العالية لاتختلف بأي شكل عن مناطق تهامة المنخفضة. فهنا وهناك تظهر الحمى، التي غالباً ماتقضي على ضحيتها، خلال ساعات. كما تظهر أمراض التيفوس وتضخم الكبد والطحال والتهاب الرئتين والإسقربوط. وفي تهامة يظهر أيضاً مرض الدودة الخيطية (أو ماتسمى بالدودة الغينية، التي تنمو تحت الجلد، في المناطق الحارة). ففي بداية السبعينيات[268] قضى مرض الإسقربوط على الفين من الجنود الأتراك. وقد استطاع الأطباء أن يكتشفوا في الوقت

(268) سبعينيات القرن التاسع عشر.

المناسب، أن سبب هذا المرض هو نقص الخضروات في طعام الجنود، التي يُعرف ولع الأتراك بها. وعند الحاجة، كما يقولون، يفترس الشيطان حتى الذباب. أما شيطان الجنود الأتراك الفقير فقد اقتات البرسيم، الذي ينمو هناك بكميات كبيرة، بدلاً عن الخضار. ومنذ ذلك الحين استحدثت مزارع خضروات في كل المعسكرات التركية. وعندما تتجه وحدة عسكرية إلى مناطق عمليات ضد العرب، فإن الخضروات تُرسل إليها، من تلك المزارع، على ظهور الجمال. ورغم ذلك مازالت توجد حالات اسقربوط غير قليلة. وليس من السهل تجنب الأمراض الأخرى، الناتجة عن المناخ. لذا وجدت الحكومة التركية، منذ وقت طويل، أنه من الضروري اجراء تبديل للجنود بين الحين والآخر، وعدم ترك الضباط والأطباء والموظفين في المنطقة، لأكثر من ثلاث سنوات. فعلى الأقل تُعطى لهم إجازات، بعد فترة محددة من الزمن، لمدة تسعة إلى إثني عشر شهراً، بهدف تغيير الجو. وهي إجازات غالباً مايقضيها المجازون في اسطنبول. ويتبع كل التجار الأجانب، المقيمين في العربية الجنوبية، نظام إجازات مشابهاً لهذا النظام. إذ يتجه كل منهم، بعد مرور عامين، إلى أوربا لتغيير الجو. وهو أمر يحتاجون إليه أشد الإحتياج. وقد أدركت من تجربتي الشخصية، ومن تجارب كثيرين غيري، أن قوة مقاومة الأوربيين الجسمية للمناخ في اليمن تتلاشى في العام الثاني لوجودهم هناك. ويمثل شحوب لون الجلد، المتزايد يومياً، وتناقص الشهية للطعام أولى أعراض ضعف المقاومة. بعد ذلك تبدأ نوبات الحمى. وفي العام الثالث يعم الضعف كل الجسد. ومن ستة أطباء وصيادلة أوربيين من معارفي ، سقط خمسة، بسبب المناخ، خلال وجودي هناك. ويبدو أن الحالة نفسها تسود في الهند. إلا أنها توجد هناك فرصة أمام المرء للمسارعة إلى صعود جبال الهملايا، التي تقع خارج نطاق المناخ المداري (الحار) القاتل. ويمكن هنا التأكيد على أنه يجب في العربية الجنوبية، كما في الهند، إرسال الأطفال الأوربيين ، الذين يولدون هناك، إرسالهم إلى أوربا، في شبابهم المبكر جداً. هذا إذا كانوا أصلاً قابلين للحياة. إنني أطرح هنا سؤالاً له مايبرره، وهو: هل بالإمكان فعلاً إقامة جاليات حقيقية في المناطق الإستوائية، تتكون من فلاحين مستقرين، لاتسمح ظروفهم بالسفر لتغيير الجو؟ وسأقدم وجهة نظر أولية، وهي أنه لايمكن إقامة منشآت تجارية ومزارع ناجحة، إلا بالإعتماد على قوى عمل محلية، واستبدال المشرفين والموظفين والجنود الأوربيين، في أماكن معينة، بأمثالهم من المحليين. إنني لاأعتقد بأن علم الصحة لدينا قد تمكن من توفير الشروط اللازمة لإقامة دائمة للأوربيين في المناطق الحارة. ولكن بالطبع يمكن لعلم صحة المناطق الإستوائية أن يقدم خدمة يشكر عليها، إذا استطاع أن يركز جهوده على مكافحة الآثار الفضيعة للأمراض الناتجة عن المناخ، من خلال التعرف الدقيق على أسبابها، ومكافحة الأسباب نفسها، أو على الأقل العمل على إضعافها.

٢. التركيب الإجتماعي في اليمن

يحكم الأتراك اليمن مرة أخرى منذ اثني عشر عاماً. وحيثما يعيش الأتراك والعرب معاً، يلعب الأتراك دور الطبقة العليا. في حين يهبط العرب إلى مستوى الطبقة التابعة. وهذا الواقع الجديد يؤدي، شيئاً فشيئاً، إلى امحاء الحدود الطبقية، في أوساط السكان العرب، في هذه البلاد، مما يجعل من الصعب علينا تبين هذه الحدود، التي عادة ما تكون واضحة جداً، وتشكل ظاهرة تاريخية واجتماعية جديرة بالملاحظة إلى أبعد الحدود. وهي خاصية تتمتع بها شبه الجزيرة العربية، موطن الأصالة المتوارثة. إن هؤلاء القبليين والبدو المتوحشين قد حافظوا على وحدهم القبلية منذ آلاف السنين. وشجرة النسب العائلية هي، بالنسبة لكل فرد منهم، أثمن شيء وأغلى إرث، يحرص على المحافظة عليه وتوريثه نقياً، لأولاده وأولاد أولاده. وحتى بالنسبة لخيولهم وجمالهم يحفظون قائمة أنسابها، التي غالباً ما تمتد إلى مئات السنين. ويبدو أن الأوربيين، ولاسيما الألمان، الذين يسموهم هناك الجرمان، لا يكترثون بهذا الشعب الأصيل المتعصب. ولهذا فقد اعطيت اهتمامي لتتبع هذه المسألة، ولاسيما أن الكثير من الأغلاط والتصورات الخاطئة، التي امتلأت بها كتابات الرحالة، قد أصبحت في متناول جمهور القراء الأوربين. وحتى استكشافات هاينرش فون مالتسان **Heinrich Von Maltzan** في عدن، التي ضمنها كتابه (رحلة في شبه الجزيرة العربية، الجزء الأول)، سوف أعمد أحياناً إلى الإشارة إلى أخطائها، وهو أمر لا يقلل أبداً من قيمة ما أنجزه هذا الرحّال المعروف.

إن من يريد أن يطلق أحكاماً سليمة على جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، لابد أولاً أن يضع في اعتباره الطبيعة الجغرافية والحياة الدينية فيها. فكل تقسيم اجتماعي إنما ينشأ عن الأوضاع السياسية – الجغرافية – الدينية، أو العكس، إذا كانت التقسيمات الإجتماعية القائمة ترجع إلى عصور قديمة[269].

---

(269) أي أن الأوضاع السياسية والتقسيمات الجغرافية والحياة الدينية يمكن أن تنشأ عن التقسيمات الاجتماعية، ذات الإمتداد التاريخي.

ويوجد حاليا في العربية الجنوبية ثلاث فرق محمدية: الزيود (مفردها زيدي)، سموا باسم إمامهم زيد بن علي بن حسين بن علي، وعلي هذا (بن أبي طالب) هو زوج فاطمة بنت الرسول. ثم الفرقة الشافعية. وأخيراً من يسمون بالباطنية، أو العرب الإسماعيليين، وهم شيعة كالزيود، وإمامهم هو اسماعيل بن جعفر الصادق، من سلالة البيت العلوي (كان ترتيبه السابع بين الإئمة). وسوف نتحدث في فرصة أخرى، حديثاً مفصلاً عن هذه الفرق، التي لها حالياً أهمية خاصة، ونكتفي اليوم بالإشارة إلى امتدادها الجغرافي.

تمتد منطقة سكن الفرقة الزيدية، دون انقطاع تقريباً، من صعده وحتى ذمار،ومن المنحدرات الغربية للسراة إلى مأرب (موطن السبئيين). وبشكل عام يسكن الزيديون كل المناطق الجبلية، الواقعة بين ذمار وصعده. وبالتالي فلا يدخل ضمن مناطقهم إلا جزء من منطقة مملكة حمير القديمة. وهو على أي حال جزء كبير. أما المذهب الشافعي المحافظ (أرثوذكسي)، فيسود ابتداءً من الجبال، الواقعة إلى الجنوب من ذمار، كما في حضرموت وتهامة. وتسكن الفرقة الباطنية في الشرق والشمال من صعده، إلى نجران (وتقريباً إلى الخليج الفارسي وحتى إلى الهند)، كما في بعض أماكن متفرقة، داخل المنطقة الزيدية، مثل طيبة، في وادي ظهر، وجبال حراز وغيرها. وهي فرقة لا نريد اليوم أن نشير إلى أكثر من أنها قد حافظت على التعاليم القرمطية وصانتها عن الإندثار. وتعتبر الباطنية أكثر الفرق تسامحاً وتنوراً وتنظيماً. وتلعب بعض المجموعات القبلية (حاشد وبكيل) لدى الزيديين الدور الرئيسي. مع ذلك ليس لديها فكرة بناء دولة، أو المحافظة على دولة. إن هذه الكتلة القبلية الضخمة كانت مستعدة دائما لإضعاف الإمامة الزيدية، وأحيانا لتمزيقها. ومن ناحية الأنساب، فإن للزيديين نفس انتماء الباطنيين (يام). إنهم جميعاً أبناء حمير وسبأ. وبالنسبة للعرب الشوافع، ليس هناك الكثير مما يمكن أن نقوله. فالمسلمون المحافظون معروفون جداً في أوربا.

ونذكر هنا أيضاً اليهود، الذين يسكنون جميعهم تقريباً في المناطق الزيدية والباطنية. ويعيش معظمهم من الحرف اليدوية. ورغم ضعفهم، الذي لا مثيل له، فإنهم يمتلكون نفس الخصائص الجنسية، التي يمتلكها أبناء قبيلتهم الأغنياء في البلدان المسيحية[270]. وحتى يهود العربية الجنوبية يعتقدون أنه يكفيهم أن يكون لديهم أنقى دين توحيدي.

---

(270) عدم التفريق بين اليهودية كدين وبين الإسرائيليين كجنس، هو واحد من الأخطاء الشائعة في الكتابات الغربية والصهيونية، وقد كانت له نتائج، بلغت ذروتها في قيام الدولة الإسرائيلية في فلسطين.

ولا توجد في المناطق الداخلية من اليمن أديان أو مذاهب أخرى. والبينيان، الذين كانوا سابقاً مقيمين في صنعاء، غادروها منذ عقود من الزمن. ولم يعد يصادف المرء من أفراد هذا الشعب النبيل، ذوي القلوب الحنونة، الذين يسمون موطنهم بالهند، لم يعد يصادفهم المرء سوى في المدن الساحلية.

وينقسم مجتمع المسلمين، في العربية الجنوبية، على النحو التالي:

يحتل أعلى السلم الإجتماعي أبناء علي وفاطمة، الذين يسمون السادة أو الأشراف. ويأتي بعدهم ذوو النفوذ في أوساط القبائل، أي المشايخ، ثم أفراد القبائل. وفي مستوى أفراد القبائل يأتي سكان المدن، المسمون عرباً. وفي المرتبة الرابعة يأتي أبناء العبيد. وأخيراً طبقتان في أسفل السلم، وهما، الأخدام[271] والخدّامون[272]. وعادة يسمى الخادم العادي في اليمن شاقي[273]. ولا يطلق عليه اسم خادم أبداً. وأحياناً يستخدم اسم خدّام بدلاً عن شاقي، دون أن يعني ذلك أن الخدّام من الطبقة المنبوذة. وجمع خدّام هو (خدّامين). ولا تستخدم كلمة أخدام كجمع لكلمة خدّام أبداً. بل يمكن أن يقدم الخدّام العربي على طعن سيده بالجنبية على صدره، لو أنه استخدم معه هذه الكلمة الأخيرة.

وحتى نقدم صورة أكثر دقة، لا بد أن نشير إلى الفوارق البارزة بين القبائل وبين العرب الآخرين. فالأولون هم، بصفة عامة، من القبائل العربية الأصيلة. وهم مقاتلون. ولذلك يعتبرون أنفسهم، حتى وإن كانوا يسكنون في أكواخ أو في منازل بائسة، أعلى مقاماً من العرب، الذين يعيشون من التجارة والحرف اليدوية والعلم. ويترتب على هذا أن شيخ القبيلة لا يترك للسيد أو الشريف الموقع المتقدم، سوى من الناحية المظهرية، ولأسباب دينية. أما العالم العادي، الذي ليس سيداً أو شريفاً، والذي يصنف طبقياً، في المدن، في المرتبة الثانية بعد السيد، فإن الشيخ لا يعيره أي احترام. ويمكن في أحسن الأحوال أن يستخدمه ككاتب. وعلى ذلك فإن لدينا قائمتين طبقيتين مزدوجتين، احداهما للقبائل والأخرى للمدن.

فبالنسبة للقبائل يتكون سلمهم الإجتماعي على النحو التالي:

---

(271) صيغة المفرد خادم.

(272) صيغة المفرد خدّام.

(273) تطلق صفة (شاقي) عادة على العامل الزراعي وعامل البناء.

١- السيد (ليس له دور فعال، وأقصى ما يفعله هو الكتابة والدس وتدبير المكائد).

٢- النقيب (شيخ متميز يأتي من وسط عائلة مشيخية).

٣- عاقل (شيخ صغير).

٤- قبيلي.

٥- مزين.

فإذا وُجد علماء[274] في القبيلة، فإنهم دون شك يكونون في نفس درجة القبيلي. أما اليهود فيكوّنون جماعة مستقلة، وهم مع ذلك أدنى درجة من المزين، إذ لا يسمح لهم بحمل السلاح. ولا يوجد أخدام في أوساط القبائل.

أما بالنسبة للمدن، فإن السلم الاجتماعي على النحو التالي:

١- السادة.

٢- العلماء والفقهاء، الذين يحملون لقب سيدنا (ولا ينطق بضم الدال، عمداً).

٣- عرب.

٤- أبناء العبيد المحررين.

٥- و ٦- أخدام درجة أولى وأخدام درجة دنيا. ثم اليهود، الذين لا يحسبون ضمن السلم الإجتماعي. ويعتقد العرب، بحق، أنه يوجد لليهود سلم اجتماعي مشابه لهذا السلم.

ونود الآن أن نتناول كل طبقة من هذه الطبقات بتفصيل أكثر، ونوضح كيف تبدو لدى الفرق الدينية المختلفة:

١- السادة (الشرفاء أو الأشراف)[275]:

هذه الطبقة، التي جاءت من الشمال، مع دخول اليمن في الإسلام، كانت ومازال حتى اليوم، تسعى إلى إخضاع أبناء أمراء الجبال الحميريين القدامى لسلطتها. وكان هذا سبباً في نزاع

(274) المقصود هنا فقهاء.

(275) من الواضح أن جلازر لم يفهم الفارق الدقيق بين السادة والأشراف. فلقب سيد يطلق عادة على أبناء الحسين بن علي ولقب الشريف يطلق على أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب.

دائم، بين النبلاء الجدد والنبلاء القدامى، لعب الدور الرئيسي في انهيار العربية الجنوبية. وقد أفلح السادة في تحقيق أهدافهم في المدن الكبيرة. ويكفي هنا أن نذكر أسماء الأسر، التي حكمت في اليمن، حتى الآن: المتوكل، المنصور، المؤيد، أبو طالب، القاسم. رغم أن السلطة، منذ وقت طويل، أصبحت بيد الأتراك، فإنه يعيش، إلى جانب عدد لا يحصى من أبناء هذه الأسر الساداتية الملكية، إثنان من السادة، كان مايزال لهما دور كبير حتى وقت قريب، ولكنهما الآن يتقاضيان مرتباً شهرياً من الحكومة التركية، على سبيل الإكرامية، مقداره ألف بياسترتركي، ويعيشان حياة هادئه. الأول هو الشريف غالب بن محمد بن يحيى بن منصور، الذي يمكن اعتباره آخر إمام في صنعاء، إذا لم يعتبر المرء أن شخصاً كالشريف حسين المتوكل أو شيخ التجار محسن معيض، اللذين سلما صنعاء للأتراك الزاحفين، كانا يحكمان صنعاء في ذلك الوقت. والثاني هو السيد أحمد بن عبدالرحمن، الذي سلم بلاده أيضاً، مع عاصمته كوكبان، إلى الأتراك. وهناك شريف آخر، وهو السيد شرف الدين[276]خليفة السيد محسن، الذي كان في حرب دائمة مع الأتراك، يطمح إلى أن يجعل من نفسه في شهارة إماماً دينياً ودنيوياً. وقد جعل اسمه في الفترة الأخيرة يتردد في أوساط الناس. وكزعيم دنيوي لم يحظ بأي اعتراف، من قبل القبائل العريقة، التي تكافح منذ مئات السنين، للمحافظة على استقلالها.

وهناك، حيث استطاع السادة أن يبسطوا نفوذهم، تمكنوا من امتلاك كل العقارات تقريباً، إضافة إلى الجزء الأكبر من قطعان الماشية. وعلى الأقل فإن كل واحد منهم يحصل على عشر المحصول من أي قطعة أرض، مهما صغرت. و يعفون من دفع الضرائب، حتى في ظل السلطة التركية.

ومع ذلك فإن كثيرين من السادة، الذين كانوا يعيشون ذات يوم حياة مترفة، قد داهمهم الفقر الآن. فبعضهم جاء إلي ليبيعني، أنا الغريب،كنوز آبائه. وآخرون بعثوا بأطفالهم إلى بيوت الميسورين، وإلى بيتي أيضاً، ليتسولوا.

ويبدو الجانب المظهري من حياة السادة، في كل المناسبات، على درجة من الفخامة. فلا يسمح أي عربي أو أي قبيلي لنفسه، أن يتحدث مع السيد، دون أن يستأذنه أولاً، كما لا يسمح

---

(276) الإمام شرف الدين بن محمد، الملقب (أبو نيب)، تولى الإمامة بعد الإمام المتوكل، محسن أحمد الشهاري. وقد تكرر ذكره في كتابات جلازر، حيث كان يقف على رأس المقاومة اليمنية ضد الأتراك، عند زيارة جلازر لليمن.

لنفسه بحضور أحد السادة، أن يجلس أو أن يمد يده إلى الطعام قبل السيد. وللسادة قرى وحصون خاصة بهم، يسكنون فيها وحدهم. وحيثما يجب أن يسكنوا مع العرب أو القبائل، فإنهم يفضلون باستمرار أن يسكنوا في حي خاص، ينظر إليه كحي مقدس. ولا يزوج الشريف الزيدي ابنته لعربي أبداً. مع أنه يسمح لنفسه بالزواج، دون تردد، من امرأة جميلة من نساء العرب. أما الأشراف الشوافع فهم أكثر تساهلاً. ولا يشتغل الأشراف إلا بالأعمال الحكومية. أما الأعمال الحرفية والأعمال العضلية والجزارة وسياسة الخيول، فهي بالنسبة لهم أعمال محتقرة، لا يمكن أن يزاولوها. وحتى في الملابس، يميز السادة أنفسهم عن العرب. فينتعلون حذاءً، يسمى (حذاء بالكنتور). ويتركون من العمامة عذبة تتدلى على أكتافهم. وعماماتهم ليست كالعمامات الأخرى في اليمن، بل هي عمامات بيضاء ناعمة. ومظهرهم هذا لا يقلدهم فيه سوى العلماء. وهم بالطبع لا يرتاحون لهذا التقليد من قبل العلماء، أما في أوساط القبائل فلا يميز السادة أنفسهم عن الآخرين بواسطة الملابس.

ومنذ جاء الأتراك تغير كل هذا تغيراً جوهرياً. فحتى اليهود، الذين كان عليهم سابقاً أن يخلعوا أحذيتهم عند دخول المدن ويسيروا حفاة، يدخلون المدن الآن بأحذيتهم. وفي أوساط القبائل لايزال السادة حتى اليوم يقومون بدور المحرضين السياسيين، الذين سرعان ما يستخدمهم قادة القبائل. وعندما يتقابل أبناء قبيلتين مختلفتين، يتولى السادة القاء كلمات التحية (خبر). وقد كتبت هذا بالتفصيل، في مجلة (بيتر مانس متايلونج، عدد مايو ويونية ١٨٨٤م).

٢- العقال والقبائل:

تعتبر القبيلة في العربية الجنوبية ظاهرة تاريخية، أكثر مما هو الحال في وسط شبه الجزيرة العربية أو شمالها. إذ لاتزال تمثل جزءاً من الماضي العربي. ففي لغة القبائل لا تزال توجد حتى اليوم خصائص تعبيرية قديمة، ترجع إلى التاريخ القديم للعربية السعيدة. وقد رصدت قائمة من الكلمات، التي تحمل تلك الخصائص. كما أن أدوات القبائل وعاداتها تذكّر بالعصر السبئي القديم. وقد يكون من المغري أن أستعرض هنا حياة ونسيج قبائل العربية الجنوبية، التي استطعت أن أتعرف عليها عن كثب، خلال رحلاتي، ولكني لا بد أن أتقيد بالإطار المحدد لهذا التقرير. لذا سأكتفي مؤقتاً بالإشارة إلى ما نشرته حول هذا الموضوع في بيترمانس متايلونج، وأقصر حديثي هنا على التركيب الطبقي للقبيلة.

لا بد في البدء من التأكيد على أنه لا يمكن وضع جميع قبائل العربية الجنوبية ضمن قالب واحد، بالنسبة لتركيبها الطبقي. إذ توجد قبائل سبئية وحميرية وقبائل هاجرت من الشمال ...إلخ. وسوف أتحدث أولاً عن قبيلة حميرية:

تتكون القبيلة، وتسمى عادة عشيرة _والفرع الصغير جداً يسمى مثلاً قرية، حبل_ تتكون بشكل عام من قبائل (قبائل: جمع قبيلي. أما جمع القبيلة فهو قُبل) متساوين في المرتبة الإجتماعية. ويحمل أبناء الأسر الكبيرة لقب نقباء (جمع نقيب). أما المشايخ (وهو لقب غير شائع في أوساط القبائل) فيسمون عقال (جمع عاقل)[277]. ويضطلعون بإدارة الأمور العامة في كثير من الحبال. ويكونون في الحرب على رأس المقاتلين المسلحين. وتسمى المجموعات المقاتلة إما خُبرة (مفردها خَبير) أو(جماعة)، إذا كان حجمها أكبر قليلاً. وإذا كانت أكبر من ذلك، تسمى (أصحاب أو صحبة). ويسمى مجموع مقاتلي القبيلة بكاملها (قَوم). ويقادون إما من أكبر نقيب في القبيلة أو من قبل جنرال. من هنا فإن فعل (يقوم) في العربية الجنوبية له معنى آخر غير القيام، إذ يعني (الإنتماء إلى وحدة عسكرية)، كما يعني (حليف).

والقبائل عادة يعملون في الزراعة. وفي المناطق المجدبة يعملون في رعي قطعان الماشية. ويسمون في هذه الحالة (بدو)، ويسكنون معاً في قرى. أما العاقل فيسكن عادة مع أقاربه في قرية خاصة بهم، تحمل بعد ذلك اسمه مسبوقاً بكلمة بيت (بيت فلان). وتحكم القبيلة نفسها وفقاً لقانون، يختلف من قبيلة إلى أخرى، يسمى (أعراف القبائل). ويشرف على تنفيذه العقال. ولا يُحتكم إلى القرآن إلا في المسائل الدينية، أو في قضايا الخلافات، ذات العلاقة بأحكام قرآنية قطعية. وفي هذه الحالة يتولى الإشراف على تنفيذ الأحكام أشخاص من الأشراف، الذين يوجد منهم أناس في كل القبائل، أو الفقهاء، الملمون بأحكام الشريعة. وهؤلاء وأولئك يسمون بالهجرة، ويسكنون في قرى خاصة بهم، ويعملون، عدا عن ذلك، كتّاباً وأئمة مساجد وما شابه ذلك. ويقوم عادة على مقابر الأولياء القديمة، التي أعطيت الآن بطبيعة الحال مظهراً إسلامياً، يقوم عليها الفقهاء، الذين بدورهم يكوّنون معاً هجرة، وتعني في لغة القبائل قرية أو مدينة مفتوحة، تستقبل كل الناس، ولا تتبع قبيلة بعينها. وفي أدنى السلم الاجتماعي القبلي يوجد المزيّنون. والمزيّن هو خادم ومضحك ومهرج العاقل

(277) النقيب والشيخ لقبان يتخذهما رؤساء القبائل وعقالها. الأول يستخدم غالباً في قبائل بكيل. والثاني في قبائل حاشد. ويبـــدو أن جلازر لم يدرك ذلك.

والجماعة. فإذا ما عمل كمقهوي، فإن هذا العمل يكسبه وضعاً أكثر دونية. وأما اليهود فهم حرفيون وعمال، ونادراً ما يعملون كتجار. ولا يحملون سلاحاً. ولكنهم إذا ما تعرضوا للأذى أو الظلم سارع الجار إلى حمايتهم.

ولا يتزوج القبيليون عادة إلا من بنات قبيلتهم، والمسلم الغريب عن القبيلة، حتى لو كان من الأعيان، لا يستطيع أن يتزوج امرأة من القبيلة، لاسيما إذا لم يكن من الثابت أنه ينتمي إلى قبيلة أصيلة. وتوجد في كل بلاد شبه الجزيرة العربية ما تسمى بالقبائل المحتقرة، كالقبائل التي تعيش على رعي الإبل، والتي يمكن للمسلم الغريب أن يتزوج من بناتها بسهولة. ويبدو وضع هذه القبائل المحتقرة في نظر القبليين أشبه بوضع الأخدام. وسوف نتعرض للخصائص الأخرى للقبيلة في فرصة أخرى.

أما الآن فلنتحدث عن سكان المدن:

١- العلماء والعرب(278):

في مجتمع المدن تأتي مرتبة العلماء والفقهاء بعد مرتبة السادة، الذين سبق الحديث عنهم. وكما هو الحال بالنسبة لكل عرب شبه الجزيرة العربية، يعتز العرب، اعتزازاً كبيراً، بأصولهم. وهو أمر يمكن فهمه، إذا ما وضعنا في اعتبارنا وضع العرب في المدن، الذين هم خليط من كل القبائل والمناطق، والذين يسميهم القبليون ب (أهل السوق) أو (التجار). ويحتل المخطوط المسمى (كتاب الرجال) الذي يحتوي على طبقات علماء المدن القدماء، يحتل لدى علماء اليمن مكانة عالية، أشبه بمكانة (روضة الألباب) لدى السادة. ولا يزوج العلماء أبناءهم إلا ببنات من الأسر نفسها (أسر العلماء).

أما بالنسبة للعرب فليس هناك الكثير مما يمكن قوله. فهم يكونون غالبية سكان المدن. ويستطيعون أن يتكيفوا سريعاً، كلما حدث صدام كبير بين القبائل وبين السلطات الحاكمة. وهم

---

(278) لم يستخدم جلازر كلمة العرب استخداماً دقيقاً. فقد وضعها آناً للتمييز بين مجتمع القبائل ومجتمع المدن، فسمى مجتمع المدن عرباً. وآناً للتميز بين العلماء وبين غيرهم من السكان. وكأن العلماء ليسوا عرباً.

لا يتحمسون لأي شيء، باستثناء العقيدة الدينية. ويتملكهم الخوف من القبائل، التي يسمونها بسخرية (الوحشيون). ولكنهم قد تقبلوا مراراً العيش تحت حكمهم بهدوء.

٢- العبيد المعتقون والمنبوذون:

إن التمسك بالنقاء العرقي في وسط القبائل في شبه الجزيرة العربية قد نتج عنه، منذ أزمان مغرقة في القدم، ظهور طبقة المنبوذين. وفي شبه الجزيرة عموماً، وفي العربية الجنوبية بصورة خاصة، يعد من المنبوذين كل من لا يعرف لنفسه سلسلة نسب كاملة. وعلى ذلك يمكننا أن نعتبر شبه الجزيرة العربية مهد وموطن الأصالة. ويحتل العبيد المعتقون أعلى السلم، في طبقة المنبوذين. وكان لتجار العبيد في شبه الجزيرة، لاسيما في اليمن، سوق رائجة منذ أقدم الأزمان، ولم تضعف قليلاً إلا منذ زمن قريب، نظراً للرقابة، التي تقوم بها السلطات التركية. وهي على كل حال رقابة غير كافية. ونتج عن تجارة العبيد هذه طبقتان من المنبوذين. أولاهما، عندما يشتري أحد المسلمين عبداً ثم يعتقه، فإنه يحمل هو وأبناؤه من بعده لقب (عبيد فلان). وفلان هذا هو اسم الشخص الذي أعتقه. ولا يسمح أي عربي بإعطاء ابنته زوجة لأحد من العبيد المعتقين. ومع ذلك فإن مكانته الإجتماعية ليست أدنى بكثير من مكانة العربي. ولكن إذا ما أُعتق العبد قبل أن يملكه رجل مسلم، فإنه ينحدر إلى طبقة المنبوذين الدنيا، وهي طبقة الأخدام. وأدنى من العبيد المعتقين يأتي ممتهنو مهن معينه، يحملون بسببها لعنة الإحتقار، مثل الجزار والدباغ والحلاق والإسكافي والمنقل والغلام (سايس الأحصنة) والقشّام[279]، ويضاف إليهم، في وسط شبه الجزيرة، النساج. وفي بعض المناطق تعتبر كل الحرف بلا استثناء محتقرة. ومن هنا ليس بمستغرب أن هذه الحرف تقتصر ممارستها على أسر معينه، يتوارثها الأبناء عن الآباء، كما يتوارثون معها نظرة الإحتقار، المرتبطة بها. وبالطبع فإن هذه الطبقة العليا من الأخدام لا توجد سوى في المدن[280]. وأفرادها يأكلون ويصلون مع العرب

---

(279) المنقل هو مصلح المطاحن ويسمى في بعض المناطق (الموقر). أما القشّام فهو بائع الكراث والفجل، الذي يسمى (قشمي). ومنه اشتق اسم (قشّام).

(280) وقع جلازر هنا في خطأين: أولهما، اعتبار هؤلاء أخداماً، وليسوا كذلك. وثانيهما، حصر وجودهم في المدن، مع أنهم يوجدون في المدن وفي بعض القرى أيضاً.

سواءً بسواء، ويحملون أسلحة مثلهم. أما في تهامة فإن موقعهم في السلم الاجتماعي أدنى من هؤلاء بكثير. ومن البديهي أن أبناءهم وبناتهم لا يُزوجون بأبناء وبنات العرب.

٣- أما الطبقة الأخيرة فهي الأخدام الحقيقيون:

وهؤلاء يُقبّلون يد كل عربي، ولا يجوز لهم دخول بيوت العرب. مع ذلك يصلون في المساجد مع العرب. ويوجدون، بصورة خاصة، في مناطق الشوافع، في تهامة. ويسكنون هناك في أحياء خاصة بهم، تكون عادة خارج المدن والقرى، تسمى (حافة الأخدام). كما هو الحال في الحديدة وبيت الفقيه وباجل وغيرها. وهم يسكنون منعزلين كاليهود، الذين كما أسلفنا، يسكنون في المناطق الزيدية، في مساكن منعزلة. ويسمى الأخدام أيضاً (بني الخمس). ولتفسير هذه التسمية يروي العرب وكتابهم القصة التالية:

قاد الملك الحميري أسعد الكامل (ويسمى أيضاً تبع الأصغر) حملة عسكرية إلى بلاد الظلمات. وهناك جمع جنوده حجارة، ظنوها ذهباً أو أحجاراً كريمة. وعندما عادوا إلى بلاد النور لاحظوا أن ظنهم كان صحيحاً وهنا طالب أولئك الذين لم يجمعوا حجارة منهم، طالبوا بنصيبهم من تلك الثروة. فنشب خلاف، أنهاه الملك بمصادرة جميع الأحجار، وإعطاء الخمس منها لأولئك المتذمرين. ومن هنا جاءت هذه التسمية، أهل الخمس أو بنو الخمس.

وهذه القصة تبدو على أي حال مناسبة جداً لطبقة المنبوذين القديمة. ولكن يبدو أن أصل الأخدام الحقيقي يمكن البحث عنه وسط أسرى الحرب. ويبدو أن توزع أسرى الحرب وأبناء القبائل المحتقرة، التي تفككت روابطها والعبيد، توزعهم في المناطق المختلفة، يلبي حاجة تلك المناطق إليهم، للقيام بالأعمال المحتقرة. وليس بمستبعد أيضاً أن المحتلين القدماء لهذه البلاد، وهم الأحباش، خلفوا وراءهم نسلاً، يشكل اليوم طبقة الأخدام. وهذا الاحتمال يؤكده العرب الحاليين، وتؤكده القبائل بصورة خاصة. فهم يؤكدون بأن الأخدام هم من أبناء أهل الحبشة. وفي هذه الحالة يصبح لدينا عنصر غريب، غير يمني. وإلى هذه الطبقة الدنيا ينتمي موسيقيو الشوارع، بكل أنواعهم، الذين يُسمى كل منهم باسم الآلة الموسيقية، التي يستخدمها (مرفع، طاسه، طبل، ...الخ). أما المداحون والنشادون، الذين يدخلون بيوت العرب في المناسبات، ليغنوا وينشدوا، فلا ينتمون إلى طبقة الأخدام. ففي صنعاء مثلاً يوجد مغنون وعازفون بأعداد كبيرة جداً، ينتمون إلى العرب،

وحتى إلى السادة. وهو دليل على أن المهنة ليست هي السبب في المكانة الاجتماعية المتدنية. وفي أوساط القبائل يعزف المزين أيضاً على آلة اسمها مزمار. أما الدوشان، وهو نوع من المداحين أو المهرجين لدى الأعيان، فينتمي إلى أدنى مراتب الأخدام[281]، وظروف الأخدام أكثر حدة وقسوة، في المناطق الشافعية التهامية، وأقل حدة في المناطق الجبلية الزيدية، وأفضل في مناطق الباطنية. ومن الغريب أن حجم هذه الطبقة لا يتزايد، بانضمام القبائل أو العرب إليها مثلاً، إذ أن أي قبيلي يطرد من قبيلته سرعان ما يجد له مكاناً وسط قبيلة أخرى، إذا هو تقيد بقواعد معينة، تحدثت عنها في مجلة (بيترمانس متايلونج).

ولا ينظر العرب إلى اليهود كطبقة منبوذة. ويمكن ادراك ذلك، إذا عرفنا أن أي يهودي يعتنق الإسلام، يصبح في الحال واحداً من طبقة العرب. ويمكنه أيضاً أن يتزوج بامرأة عربية. مع ذلك يطلق عليه وعلى أبنائه لقب (مهتدي). وهو على أي حال مجرد لقب يشير إلى دخوله الإسلام.

أما الأتراك، الذين من المعروف أن مسألة الأصالة والنسب غير ذات بال بالنسبة لهم، وأنه يمكن أن يصل العبد عندهم إلى أعلى وظائف الدولة، فإنهم لا يتأففون بطبيعة الحال من الزواج ببنات المنبوذين. وهم لا يستطيعون الحصول على بنات الطبقات الأخرى. وبالطبع يجعلهم جهلهم بالأصول والأنساب يتوهمون بأنهم قد تزوجوا فتاة عربية أصيلة. ولكن هذا في حد ذاته يلطف من وضع المنبوذين العرب، إلى حد كبير، فصهر الباشا أو صهر الموظف التركي الكبير، يمكنه أخيراً أن يرفع عن كاهله ذلاً، دام آلاف السنين.

القسطنطينية، ١٨٨٤م

(281) لا يبدو أن جلازر قد فهم وضع ودور الدوشان ولا انتماءه الإجتماعي. فالدوشان هو أقرب في وضعه ودوره إلى وضع ودور الشاعر المداح في المجتمع العربي القديم، ولا ينتمي إلى فئة الأخدام.

٣. رحلتي في بلاد أرحب وحاشد

بعد انتهاء جولتي الأولى[282] مباشرة، كانت لدي الرغبة في القيام بجولة تبدأ من السودة، التي أعاد الأتراك احتلالها أثناء وجودي، إلى منطقة عرب حاشد، الذين لا تبعد مدينتهم الحميرية القديمة الشهيرة (حمر) عن صنعاء بأكثر من ست ساعات سفر، ولكن قائد الحملة التركية، الذي يعرف تلك المنطقة معرفة جيدة، حيث كان قد خاض، قبل سنوات، حرباً دامية فيها، كللت بالظفر، أوضح لي، بصورة قطعية، أنني في ظل الأوضاع الراهنة، التي يعرفها بطبيعة الحال بدقة أفضل مني، سأفقد رأسي في الأيام الأولى لوجودي في حاشد. ولأنني مع الأسف لا أملك رأساً آخر احتياطياً، فقد عدت من جولتي الأولى إلى صنعاء، لأقوم من هناك بجولة أخرى تشمل مناطق همدان وشبام وكوكبان وثلا والمصانع ومسور وحجة وظفير وعفار وكحلان وعمران والبون بكامله ومنطقة عيال سريح. وفي نهاية الجولة قابلت في عمران شيخ من حاشد، هو الشيخ علي مثنى القديمي، الذي جاء إلى صديقي الشيخ عبدالله الصعر، لتسوية مشكلة قتل. وتوصلت المفاوضات، التي تمت في منطقة ناعط الشهيرة، القريبة من حمر، إلى نتائج مرضية، قمت في الحال بإبلاغ الحاكم العام، عزت باشا، بفحواها، فدعاني للعودة إلى صنعاء. وهكذا فشلت محاولتي الثانية للتوغل في هذه المنطقة الخطرة.

وعندما وصلت إلى صنعاء أخبرني معاليه أن زيارة منطقة حاشد أصبحت الآن ممكنة. ولكن بسبب الظروف السياسية، التي يعرفها هو وحده، فإنه يطلب مني التمهل حتى يستدعي كبار مشايخ تلك المنطقة إلى صنعاء، أو على الأقل، حتى يستطيع أن يتفاهم معهم، ثم يتشاور معي، حول ما يلزم، ليكون الموضوع بكامله تحت إشراف الحكومة التركية. وبطبيعة الحال لم أستطع أن أرفض هذا الطلب، الذي انطلق من نوايا طيبة. وقد أوضح لي الحاكم العام بصورة جلية، أنه لا يمكن اطلاقاً أن يسمح لأحد غيري بالقيام بمثل هذه الرحلة إلى مناطق، هي أخطر مناطق العربية الجنوبية. ولكنه اقتنع بأنني أعرف الأوضاع، وأنني سأراعي ملاحظاته، ولن أقدم على ارتكاب أي خطأ. وكانت هذه الملاحظات في الواقع ملاحظات لا تقدر بثمن. ولكن لا مجال هنا للحديث عن

---

(282) الجولة الأولى من الجولات التي قام بها في رحلته الأولى إلى اليمن.

معانيها. ويكفي أن نعرف أنه يسود حالياً بين أكبر تجمعين قبليين، حاشد وبكيل، صراع دموي عنيف، أعلن فيه كلا الطرفين تحكيم عزت باشا بينهما. وهذا دليل على تقديرهما لشخص هذا الحاكم العام وحده، فهما لا يخضعان للحكومة التركية.

وكان سبب الصراع خصام نشب منذ سنوات في وادي خيوان، بين شيخ سفيان من بكيل، الشيخ التمتمي **Tamtami**، وشيخ حاشد الزيادي **Zeyadi**، نتج عنه خرق أحد قوانين القبائل بفضاضة. وذلك باعتقال التمتمي امرأتين من حاشد. فنهضت حاشد عن بكرة أبيها وهاجمت قرى سفيان، في وادي خيوان، قبل سبعة أسابيع، ونتج عن ذلك مذبحة فضيعة. وروى لي ذلك، عندما كنت في عمران، الشيخ علي مثنى القديمي، الذي قام بدور رئيسي في العمليات، روى لي ذلك بإسلوب روائي أخاذ.

توجهت سفيان إلى قبائل بكيل الأخرى، التي أعلنت جميعها الوقوف وقفة رجل واحد لأخذ الثأر من حاشد. ولإدراك حاشد لضعفها أمام تفوق بكيل، اتجهت بدورها إلى إخوانها في يام. والقضية الآن برمتها معروضة أمام معالي عزت باشا، الذي حقق بذلك نفوذاً في أوساط هذه القبائل، لم يكن للأتراك من قبل أبداً.

قبائل حاشد وبكيل:

نذكر هنا فقط ما أورده أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، الذي يعرف عموماً بـ (الهمداني)، بأن حاشد وبكيل تنتميان إلى نفس الأصل، أي إلى حارث وزيد ابني جشم. ويعطي عرب العربية الجنوبية اليوم نسب حاشد على النحو التالي: حاشد الأصغر بن جشم بن نوف بن حاشد الأكبر بن همدان ...الخ. أما بكيل فيجعلونه أحد أبناء حاشد الأكبر.

وتسلسل يام نسبها، كما سجلته في بعض المناطق، على النحو التالي: يام بن أصبا (**Jesba** أو **Asba**) بن حاشد الأكبر بن جشم بن همدان بن زيد بن مالك بن الغوث ...إلخ، حتى توصله إلى حمير. في حين أن شيخين من حاشد ويام، صادف وجودهما معاً في منزلي، تبادلا التحية كأخوين، وشرحا لي الأمر على النحو التالي: حاشد ابن أصبا ويام ابن أصبا.

وبالنسبة لقبائل بكيل الحالية، فإن عرب الجنوب يعتبرونها شيئاً واحداً، رغم أنهم يعرفون جيداً أن بعضها لا تربطها ببكيل إلا علاقة نسب بعيدة جداً. وقد تمكنت من جمع مادة غنية عن أنساب عرب الجنوب، أنوي استكمالها في رحلاتي القادمة. ولكن لأني لا أمتلك الوقت ولا المخطوطات

اللازمة، التي تمكنني من ترتيب ركام الأنساب المتداخلة والمشوشة، فإني سأترك هذا الأمر إلى وقت آخر، وربما حينها أترك المهمة لعالم متخصص في الأنساب. وتقدم النقوش، التي جمعتها، وكلها من مناطق قبيلة همدان، تقدم مادة غنية تساعد في توضيح مسألة الأنساب هذه.

وسوف أؤجل أيضاً إلى وقت آخر تقديم بحث عن جغرافية المناطق، التي زرتها، مستفيداً من النقوش، التي في حوزتي ومن كتاب الهمداني (جزيرة العرب)، الذي فصل فيه الحديث عن ذلك، إذ لا يتسع المجال لمثل هذا الموضوع، في هذا التقرير السريع عن وقائع الرحلة.

وتتكون حاشد اليوم من ثلاث قبائل رئيسية: الخارف وبني صريم والعصيمات. وكل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلى أقسام كثيرة، يطلق عليها في حاشد (الثلث) و(التسيع) ...إلخ وسوف نسرد هذه التقسيمات في ما يلي:

- الخارف (شمال أرحب وشرق البون): تتكون من ثلاثة أثلاث:

١- بني جبر ٢- الكلبيون ٣- الصيد

- بني صريم (شمال خارف وشرق السودة): وتتكون من تسعة أتساع:

٢- تسيع غشم	٢- تسيع خمر	٣- تسيع أهل أب الحسين
٤- تسيع السنتين	٥- تسيع بني قيس	٦- تسيع خيار
٧- تسيع بني غثيمة	٨- تسيع بني مالك	٩- تسيع عذر

- العصيمات (شمال بني صريم إلى مسافة سفر يومين من صعدة): وتتكون من ثلاثة فروع:

١- ذو فضل ٢- ذو جبره ٣- عصيمات الوطا

وإلى جانب ذلك يُدخل عرب الجنوب اليوم بلاد همدان (شمال صنعاء) وعمران وسنحان، وهو ما أكدته النقوش التي حصلنا عليها، يدخلوها نسباً وعسكرياً ضمن حاشد. كما يدخلون أيضاً، بني عرجلة الواقعة، منطقتهم في حدود منطقة الشرف. وتستطيع الثلاث المجموعات الرئيسية في حاشد، إذ أن همدان وعمران تقعان تحت حكم الأتراك، تستطيع أن تستدعي اثنين وعشرين ألف محارب، كحد أقصى، مسلحين بالبنادق ذات الفتيل والجنابي، وتدفع بهم إلى أرض المعركة.

أما بكيل فتتبعها القبائل التالية: بني الحارث وبلاد البستان وخولان وبني جبر ونهم وأرحب وعيال سريح والجوف وبني نوف وذو حسين وذو محمد (وكلاهما مع عيال سريح وذو غيلان أخذوا أسماءهم من أب القبيلة) وسفيان ومرهبة ووادعة وهمدان (وهي همدان الواقعة ديارها قرب صنعاء) وعيال سالم ووائلة وعمالسة وآل عمار.

ومن بين القبائل البكيلية، تقع بني الحارث وبلاد البستان وخولان قرب صنعاء، مما يجعل صنعاء تعتبر بكيلية. وهذه القبائل الثلاث، شأنها شأن عيال سريح المحشورة بين أرحب وحاشد وعمران وهمدان، تقع تحت حكم الأتراك. وتمتد مناطق القبائل البكيلية الأخرى من شمال صنعاء وشرق مناطق حاشد إلى شرق مدينة صعدة. وتمتد من جهة الشرق إلى قرب مدينة مأرب، التي تقع خارج مناطق بكيل. وتتصل آخر المساكن البكيلية من جهة الشرق بالصحراء. وتحدها من جهة الشمال الشرقي بلاد يام (نجران)، التي تمتد حتى بلاد نجد. وتستطيع قبائل بكيل جمع ثمانين ألف مسلح. وقد تمسكت هاتان المجموعتان القبليتان (حاشد وبكيل) باستقلالهما، بهذا القدر أو ذاك، منذ أقدم الأزمان، بما في ذلك العصر الحميري. وماتزالان حتى اليوم، باستثناء بعض أجزائهما، مستقلتين. وتنظران إلى القبائل الأخرى، الخاضعة للحكم التركي، نظرة ازدراء، وتعتبران أنهما وحدهما تمثلان القبائل العربية الأصيلة.

وسوف أتناول اليوم قبيلة واحدة من قبائل حاشد وأخرى من قبائل بكيل، تمكنت من دراسة مناطقهما، تاركاً بقية القبائل البكيلية، ذات المناطق البعيدة إلى وقت آخر.

في مايتعلق بمشايخ حاشد، اكتفى الحاكم العام بإرسال رسالة واحدة إليهم. ولأني عبرت له عن رغبتي، في أن أقصد مناطق حاشد عبر منطقة أرحب، التي أردت أن أزور فيها مجموعة كبيرة من المناطق الأثرية الحميرية، فقد استدعى معاليه إلى صنعاء عدداً كبيراً من مشايخ أرحب، القبيلة التي يبدو أنه لا يثق بها، ويعتبرها من العرب الخونة. ودعوة كهذه يستجيب لها جميع عرب الجنوب سريعاً. لأنهم يعرفون أن هناك دائماً فرصة لكسب شيء من المال. فالحكومة التركية تدفع، ولكن فقط من أجل تأمين منطقة ما من هجمات القبائل. وهي تدفع رواتب شهرية، لكل كبار المشايخ تقريباً، الذين هم خارج نطاق حكمها. ولكنها بالطبع رواتب زهيدة جداً، لا تكفي إلا لعربي، ليست له أية احتياجات. وما يظهره المشايخ، بعد ذلك، وما يعلنونه خمسين مرة، من تفان وخضوع للسلطان، عالي القدر، أمر مفهوم في حد ذاته. ومفهوم أيضاً أن أحداً من الباشوات الأتراك لايأخذ

هذه التأكيدات بمأخذ الجد. فهم يعرفون جيداً أن هؤلاء السادة الأعزاء سريعاً ما يعملون، بعد رجوعهم إلى ديارهم، مع الإمام شرف الدين، أو مع أي عدو آخر للأتراك.

وما أن طرح الوالي على مشايخ أرحب ما أنوي القيام به، حتى انطلقت عبارات وكأنها خارجة من حناجرهم مباشرة، لا من أفواههم: "على العين والراس". ولكن عزت باشا كان على قدر كبير من الحذر. وطلب منهم ورقة تتضمن أنهم مسؤولون بالتضامن عن سلامتي. بعد ذلك أفهمهم بطريقة أعطت تأثيرها، أن ثلاث كتائب عسكرية، مع ما يلزم من المدافع، ستكون جاهزة للتحرك، بمجرد وصول أي نبأ سيئ، مهما كان بسيطاً.

وبالنظر للحكم، المنتظر أن ينطق به معاليه، بخصوص قضية حاشد وبكيل، التي يريد كل طرف أن تكون لصالحه، فقد أعطى ملاحظة ذات تأثير "إذا بقي هذا الأفندي راضياً بينكم، دون أن يزعجه شيء، فسوف أكون أنا أيضاً هنا راضياً".

بلاد أرحب:

إستوطن الجزء الأكبر من مملكة حمير القديمة حول واديين كبيرين، أحدهما تتجمع فيه مياه المناطق المحيطة بصنعاء، وتسيل كلها في مايسمى (الخارد)، حتى تصل إلى ما يسمى (الملتقى)، في بلاد (ذو حسين)، وتتّحد بالوادي الكبير الآخر، المسمى (غيل هران)، وتصب في الجوف، حيث تختفي تحت الرمال. وهذا الوادي الثاني (غيل هران) يبدأ انطلاقه من قرب شبام كوكبان، ويأخذ معه مياه المناطق التالية: جزء من مياه حضور ثم شبام وحبابه وثلا والمنحدرات الشرقية لمجموعة مصانع والبون والجبال الشمالية والجنوبية المطلة والهضاب العالية والجزء الأكبر من سوائل حاشد، التي تقع على جانبي هذا الوادي، وجزء من أرحب ومرهبة وسفيان ...إلخ، حتى يصل إلى منطقة (ذو حسين). ويتسع هذان الواديان، الخارد وهران، يتسعان غالباً ليأخذا شكل سهول بديعة، أذكر منها، على سبيل المثال، البون والرحبة. وبين الواديين توجد هضاب، تنحدر نحو هذا الوادي أو الآخر، من الواديين المذكورين. وعلى هذه الهضاب، التي قمت بمسحها وقياسها على مختلف الإتجاهات، مستخدماً مقياس الضغط الجوي والسداسية ومقياس الحرارة، لاسيما على الجزء الغربي منها، توجد حصون حميرية. ولا تزال القبائل حتى اليوم تسمي هذا الجزء (بلاد تبع). وإن كان هذا الجزء يبدو محدوداً في اتساعه. فإذا صح أن حدوده الغربية تنتهي عند حصن عروس، في كوكبان، فإن حدوده الشرقية تعطي، مع قرية رجو، في أرحب، امتداداً كبيراً نحو الشرق. فالنقوش، التي

تظهر عليها أسماء الملوك مع لقب بتع Bata’، وهو يعطي نفس معنى تبع، موجودة في مناطق ممتدة، بعيداً نحو الشرق، ولهذا فإني أفترض أن أرض تبع كانت في الأصل تمتد بعيداً نحو الشرق. وربما يتضح في المستقبل أن المنطقة جميعها، الواقعة بين الخارد وغيل هران، كانت تتبع بلاد Talib. وتقع بين الواديين المذكورين المناطق التالية: بلاد البستان وبلاد همدان وعيال سريح وعمران مع البون وبني الحارث وأرحب والجزء الجنوبي من حاشد (وبالتحديد الجزء الأكبر من بني جُبر والصَّيَد) والمناطق الشرقية الأخرى، التي لا داعي لتكرار ذكرها.

وتحيط بأرحب القبائل التالية: من الجنوب بني الحارث، ومن الشرق نهم، ومن الشمال سفيان ومرهبة وحاشد (وبالتحديد بني جبر والصيد)، ومن الغرب عيال سريح وهمدان. ورغم أن أرحب صغيرة، فإنها ممزقة إلى أجزاء لا نهاية لها، وليس فيها شيخ يقيم علاقة صداقة مع أخيه، شيخ القرية المجاورة، أو كما تسميها القبائل، الحبل المجاور.

وتنقسم أرحب إلى قسمين رئيسيين، هما: بني زهير وبني ذيبان مع حسان (ويرد هذان الإسمان حتى في النقوش اليمنية القديمة).

وتتكون بني زهير من خمسة أقسام، كل منها يسمى خميس:

١- خميس بني علي، وشيخهم الكبير هو علي أحمد ردمان (من بني ردمان).

٢- خميس عيال عبدالله، وشيخهم الكبير هو حمود أبو غانم.

٣- خميس زندان، وشيخهم الكبير هو عبدالوهاب راجح سنان (وردت في النقوش).

٤- خميس الواسط وشيخهم هو نفس الشيخ السابق (عبدالوهاب راجح سنان).

٥- خميس بيت مران وشاكر (وقد وردت في نقوش كثيرة)، وشيوخها عبدالواسع وحزام بيت سوع وحسن داحش القصير.

وأهم قرى هذا النصف الشمالي الغربي من أرحب هي، في بني علي: الجربة. وفي عيال عبدالله: شص الصريم Schessarim والخرائب الحميرية المسماة زبّاد Zabbad، التي يرد ذكرها كثيراً في المخطوطات. وفي زندان: Djian وشراع Schira’ وعرشان Yrschan’. وفي خميس الواسط: القرية الشهيرة مدر Madar وخرائب صرواح Sirwah والمنطقة الغنية بالآثار خبة Khubba ورجو Radjau و’Osam وضرفات Dharafat. وفي بيت مران وشاكر: قرية بيت مران الكبيرة، التي تتكون من حبال كثيرة، والقرية الأخرى الكبيرة، شاكر، وبوسان.

وتتكون ذيبان من سبعة أقسام كبيرة، وعلى رأسها الشيخ أحمد مرح[283]:

١- عيال بلخير.

٢- سحيم.

٣- أهل المنصور، وشيخهم حسن مرشد الحباري.

٤- حبار.

٥- زبيرات.

٦- بني حكم.

٧- بني سليمان، وشيخهم الصباحي.

وأهم القرى في منطقة بلخير هي: الميهال وبني نكيع واتوه وريام. وفي سحيم: الجسابة وسمرة. وفي أهل المنصور لا يوجد سوى بدو رحل. ولم أصل إلى منطقة الشيخ حسن مرشد. ويبدو أنها نفس المنطقة، التي تجول فيها هاليفي.

وتتكون جسان من ثلاثة أقسام (ثلث):

١- أهل الثلث. ومن قراهم: سعدان وسلم وبني عتبان. وشيخهم لا أعرف من هو.

٢- هزم. وقريتهم الكبيرة تحمل اسمهم، وشيخهم هو العميثلي.

٣- شعب. ومنازلهم في الجزء الجنوبي لأرحب، ويمتد إلى الرحبة.

جبال ووديان أرحب:

تحتوي الهضبة، التي سبق ذكرها، على خصائص بركانية، في كل أجزائها تقريباً. وإضافة إلى الخصائص البركانية لهذه المنطقة، التي يسميها العرب (بلاد تبع)، تتخللها مخاريط بازلتية، لايقل عددها عن خمسين مخروطاً، تنتصب فجأة، دون تدرج، فوق السهول المنبسطة. وأكبر وأهم هذه المخاريط هو المخروط الذي زرته في بلاد همدان، واسمه جبل ضين، ويوجد فيه ضريح قدم بن قادم، الذي يقدس حتى اليوم، كولي من الأولياء، كما توجد فيه آثار حميرية هامه. وتمتد هذه

(283) تقسم المصادر اليمنية ذيبان إلى خمسة أخماس، هي: خميس المنصور. وخميس عيال أبو الخير وعيال سحيم ، ويقال لهم خميس مرة. وخميس بنو حكم والزبيرات وحبار وبنو سليمان. وخميس شعب. و خميس هزم. والخميسان الأخيران يقال لهما خميس حسان. انظر: الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها. مج١ ،ص٦٤-٦٥. تحقيق اسماعيل الأكوع.

المخاريط إلى قرب صنعاء. وتغطي مناطق همدان وعيال سريح والجزء الغربي من أرحب وحاشد. وفي منطقة عيال سريح وأرحب وحاشد تختلط الصخور البركانية بطبقات صخرية صفراء وبيضاء، يطلق عليها العرب اسم (بلج). ويبدو أنها ليست صخوراً جيرية، بل هي نفس الصخور التي تكوّن السلسلة الممتدة من كوكبان، عبر مصانع والجبال المحادة للبون من جهة الشمال، ثم قاع البون نفسه، ومنطقة شمال حاشد كلها. وتعطي هذه الصخور، حيث تختلط بالصخور السوداء دون تدرج، كما هو الحال مثلا في ناعط، تعطي للمشاهد انطباعاً، كما لو أن جزءاً منها مغطى بظلال السحاب، والجزء الآخر يتلألأ تحت أشعة الشمس. ولأن الصخور، التي حفرت عليها النقوش في هذه المنطقة تحمل خصائص صخور المنطقة نفسها، فإنه يمكن تمييزها بسهولة عن النقوش السبئية. وكثير من هذه المخاريط، التي قمت بتحديدها جغرافياً لأول مرة، تحمل أسماء حميرية حقيقية، وردت في النقوش.

وإذا ما تحدثنا عن المياه في أرحب، فليس هناك ما يستحق الذكر سوى الخارد، الذي يتلقف الجزء الأكبر من مياه أمطار هذه المنطقة. فلا توجد غيول في كل أرحب (يفرق العرب الجنوبيون تفريقاً واضحاً بين السيل والغيل. فالسيل هو مجرى الماء الذي لا يجري فيه الماء إلا في مواسم الأمطار، أما الغيل فهو الماء الجاري بإستمرار). كما لا توجد إلا قليل من الآبار. لذا فإن هذه البلاد فقيرة نسبياً ومعرضة للمجاعة، إذا لم تهطل الأمطار. ويتكون الخارد من مياه تأتي من خولان وسنحان وصنعاء ووادي ضهر ووادي السر ...إلخ، حيث تتجمع في ما يسمى (بوارك)، على مسافة لا تزيد عن ربع ساعة، شرق شعب، ومن هنا يجري الماء إلى المسيرقة ثم إلى سهل (قاع) سمنة (ربما هذه هي المنطقة التي ذكرها بلينيوس، تحت اسم سمناير) حيث تتحد به مياه أرحب، ثم يواصل جريانه تحت اسم الخارد، حتى يصل إلى الجوف. وتصب مياه مناطق بني سليمان وعيال عبدالله وبني علي وبعض قرى سهيم في وادي شوابه. وأما خبة فيصب في البون. ولمزيد من التوضيح نقول إن وادي هران كله، اعتباراً من بداياته الأولى، ثم وهو يجري عبر المناطق المختلفة، تطلق عليه الأسماء التالية: سيل حبابه، قاع البون، قاع شمس، وادي ورور، وادي شوابه، ثم أخيراً غيل هران.

خصوبة بلاد أرحب:

لا يزرع القمح والشعير إلا في الأجزاء المنخفضة. أما الأجزاء المرتفعة فيزرع فيها الحبوب. وبالطبع تنحصر الزراعة في مجاري السيول. وذلك لأن معظم الأماكن الأخرى، ماهي إلا مجرد صخور عارية. وفي الأجزاء المرتفعة، خصوصاً بين المخاريط البازلتيه، التي تسمى كيل، جمع كولة، تمتد غالباً أجمل السهول (القيعان)، والتي اكتشفت فيها معظم الآثار الحميرية. وهذه البقاع كانت دون شك مزروعة، ولكنها اليوم جرداء ومهجورة. ويؤكد السكان أن كل المحاولات لزراعتها باءت بالفشل، بسبب قلة الأمطار. ومن المؤكد عموماً أن الفقر والجدب في هذه المناطق، التي كانت ذات يوم مناطق سعيدة، يتزايدان اليوم بصورة واضحة، ولم تعد الكروم البديعة تنمو اليوم في أي بقعة من هذه المناطق، في حين أنها نقشت كزخارف على معظم القبور الحميرية هنا، وكانت إلى قبل عشرين عاماً تعطي ثماراً رائعة. وهذه الظاهرة أُكدت لي في حاشد أيضاً. ويؤكد الأهالي أنهم يلاحظون هذا التناقص في الثمار، في أنواع الغلال الأخرى. وحالة الفقر المتزايد هذه، وهي حالة مستمره منذ مئات، وربما منذ آلاف السنين، في المنحدرات الشرقية للسراة (هكذا تسمى الجبال العربية الغربية) أثرت على استقلال القبائل القاطنة هناك وعلى مستوى حياتها، ودفعتها إلى البحث عن مصادر أخرى، لتغطية احتياجاتها. ولهذا نرى كل رجال قبائل بكيل وحاشد تقريباً، يعملون إما كمقاتلين، لدى حكام المناطق المجاورة، أو كمحتلين للمناطق الخصبة الغنية، في غرب السراة. وأذكر هنا يام في حراز، وحاشد في جبل برع، وذو محمد في تعز، وذو حسين في حجة، وأرحب في بني ردمان بوادي لاعة، أو ما يسمى بالغرب ...الخ. وقد طردوا من هذه المناطق سلماً أو حرباً، من قبل الأتراك الزاحفين. وهناك مثال من العهود القديمة، لتحرك القبائل إلى خارج مناطقهم، يمكن أن أذكره هنا، وهو مثال لحج وأبين، اللتين زرت مواطن سكانهما الأصلية في أرحب. وفي الوقت الراهن، يتعذر على كل من حاشد وبكيل، بسبب وجود الأتراك، ، التمدد نحو الغرب أو نحو الجنوب. فلا يبقى لهما سوى أعمال السطو البسيطة. وقد هلل أبناء حاشد العراة بحماس، لفكرة همست بها همساً، حول امكانية احتلال حضرموت وإقامة دولة جديدة هناك، مع الإحتفاظ بمنطقتهم الأصلية، التي ارتبطوا بها وأحبوها، منذ آلاف السنين.

قوانين القبائل وعاداتها:

للقبائل العربية الجنوبية، لاسيما الحميرية منها، أعراف منذ أقدم الأزمان، تتوارثها منذ عصور ما قبل الإسلام وحتى يومنا هذا. وقد استفسرت في أرحب وفي حاشد عن مخطوطات قديمة أو مدونات حديثة، تتضمن هذه الأعراف، فكان الجواب الذي سمعته من جميع من سألتهم، إن أعراف القبائل لا يمكن أن تسجل كتابة، وذلك لأنها تتعارض مع القرآن، إنها تعتبر من الوجهة الدينية حراماً. ومع ذلك فإنها تنظم وتحكم كل الحياة القبلية. وقد بذلت كل جهدي للإستعلام عن أدق تفاصيل هذه الأعراف، لأنني وجدت نفسي خلال الرحلة في موقف، تطلب مني التدخل، للصلح بين طرفين متخاصمين، استناداً إلى هذه الأعراف.

وتتكون القبيلة العربية الجنوبية من ثلاثة مكونات هي:

١- الهجرة ٢- القبيلة ٣- اليهود

فالهجرة واليهود، رغم أنهما جماعتان، كانتا موجودتين في كل قبيلة حميرية قديمة، فإنهما تعتبران غريبتين عن الحياة الحقيقية للقبيلة. وتتكون الهجرة من المنتسبين إلى الرسول، ومن يعرفون بالعلماء والفقهاء، أي العارفين بالتعاليم القرآنية. ويبدو أن تميزهم يرجع إلى وضعهم في المجتمع الإسلامي. ولكن ليس من المستبعد أن وضعاً مشابهاً كان موجوداً قبل الإسلام. فكلمة هجرة، أو على الأقل أصل الكلمة، يرد بصورة متكررة في النقوش الحميرية. وعلى العارفين بالكتابة العربية الجنوبية أن يفتوا في هذا الأمر.

وعادة ما تتكون الهجرة من عدة قرى، يسكنها أشراف، وهو اسم له نفس معنى سادة، وينتمون إلى أسرة الرسول. كما يسكنها قضاة، أي حكام شرعيون، أو علماء. وقرية الهجرة لا تشن عليها الحرب أبداً، إذ تعتبر مقدسة. ففي أرحب مثلاً، تعتبر قرية الحيفة هجرة. ويمنح كل فرد في الهجرة وثيقة من قبل القبيلة، التي تتبعها الهجرة، تثبت أنه هجرة. وتتولى الهجرة الإشتغال بالمسائل الدينية والشرعية، وفقاً لتعاليم القرآن. ويسكن بعض أفراد من الهجرة في قرى القبائل أيضاً. ويعملون كتّاباً للشيخ وأئمة مساجد، وما شابه ذلك. وعدا عن هذه المهام، يلعبون في أوساط القبائل، بشكل غير رسمي طبعاً، دوراً في حبك الدسائس، أو لنقل، يقومون بدور دبلوماسي، مرة لصالح شيخ من المشايخ ومرة لصالح إمام من الأئمة، ومرة لصالح الحكومة التركية. وأفراد الهجرة، ولاسيما السادة منهم، يتمتعون بدرجة عالية من الإحترام. ففي حالة الخبر

(أي الحوار أو النقاش، في لقاء بين أعضاء من عدة قبائل مثلاً)، يتولى الكلام سيد من السادة، إذا كان موجوداً، لاالشيخ. ما عدا ذلك ليس لهم نفوذ حقيقي على شؤون القبيلة.

ولا يجب الخلط بين هذا النوع، وبين نوعين آخرين من الهجرة. النوع الأول، هو سكان جبل ضين، الذين يعنون بقبر الولي قدم بن قادم، ويسمون فقط فقهاء، وسكان ظفار، الذين يعيشون أيضاً عند قبر أحد الأولياء. فهذا النوع من الهجرة يأخذ صفة، هي أقرب إلى سكان الأديرة وتجمعات الرهبان. والنوع الثاني، تمثله المدن الكبيرة، التي لا يمكن المحافظة فيها على نقاء الدم القبلي. ومن هذه المدن عاصمة الدولة (في الماضي مثلا: صنعاء وكوكبان، وظفار ...الخ). وهذا النوع من الهجرة لا يحظى بامتيازات من قبل القبائل، ويمكن مهاجمتهم عسكرياً. ويطلق في العربية الجنوبية على الطلبة، الذين يدرسون القرآن في المساجد، اسم (مهاجرين) وليس فقط مجرد اسم (طلاب العلم)، كما هو الحال في بلدان أخرى. وكل نوع من أنواع الهجرة يمكن أن يمتلك أراضي خاصة به.

ويختلف الأمر بالنسبة لليهود، فهؤلاء يفترض، وفقاً لمخطوط قديم في صنعاء، أنهم قدموا إلى اليمن في عهد سليمان. وفي مخطوط آخر، قدموا في وقت متأخر قليلاً عن عهد سليمان. وفي كلا الروايتين، كان قدومهم إلى اليمن في الفترة الفاصلة، بين البناء الأول للمعبد والبناء الثاني. ولعل العلاقة المتميزة، التي كانت قائمة بين سبأ وفلسطين، تفسر تفضيل بعض اليهود، في ذلك الحين كما هو اليوم أيضاً، تفضيلهم السكن في مناطق سبأ وحمير القديمة. ويعيشون اليوم وسط القبائل، دون حقوق تقريباً. ويُفرض عليهم أن يميزوا أنفسهم عن القبائل، بالملابس وضفائر شعر الرأس. ولا يُسمح لهم، في كل الأماكن، التي زرتها حتى الآن، بحمل السلاح. وقبل أن أذهب إلى حاشد، قال لي أحد مشايخ حاشد، إن اليهود في منطقته يمكن أن يشاركوا حتى في الحرب. وهو أمر ثبت لي فيما بعد أنه كذبة كبيرة، وأن ذلك غير صحيح بالنسبة للعربية الجنوبية بكاملها. ولا يحق لهم الركوب[284]، كما لا يجوز لهم أن يسكنوا حيث يسكن المسلمون. حتى أنه لا يسمح لهم، إذا كانت القرية التي يسكن فيها العرب مسورة ضد الهجمات، أن يبنوا لهم مساكن داخل المنطقة المسورة. ولكن هذا لا يعني أنهم غير محميين، إذ يوجد، كما عرفت من كل من سألتهم، ما يسمى

---

(284) يحق لهم الركوب، ولكنهم يترجلون، إذا مر بهم جماعة من المسلمين.

بلغة القبائل (العيب) أي الجريمة الكبرى. ويعني العيب أن إلحاق أذى باليهودي يعتبر في نظر القبائل جريمة كبرى. وفي أرحب أُخبرت بأن هناك قاعدة من قواعد الفروسية، تُطبق على اليهود، وهي أنه لا يحق لهم حمل السلاح ولا طلب الحماية من الحكومة. فإذا أُلحق ضرر بيهودي في جسده أو ماله، أُعتبر الأمر قضية شرف، ووجب على حاميه، الذي يسمى (الجار)، أن يتولى رد العدوان عنه، تماماً كما يعمل مع أي عضو من أعضاء القبيلة. وليس لليهود أي تأثير على شؤون القبيلة، ويشتغلون بكل أنواع الحرف اليدوية. وبشكل عام تكون لدي انطباع، بأن اليهود هم أبأس الناس في العربية الجنوبية، واستطعت أن أفهم دوافعهم للإنتقال بمجموعات كبيرة إلى القدس.

ويتكون الجسم الرئيسي في القبيلة من القبائل (جمع قبيلي). وعلى رأسهم يقف النقيب، ويعني تقريباً، الشيخ المتميز، ولا يستخدم لقب شيخ هنا إلا نادراً[285]. وبالطبع فإن مكانة الشيخ وراثية. وكلما كانت مكانة قبيلة الشيخ، من حيث النسب عالية، كلما كانت مكانة الشيخ عالية أيضاً. ويوجد حتى اليوم مشايخ قبائل، تصل سلسلة أنسابهم إلى أزمان مغرقة في القدم، إلى حاشد نفسه أو حتى إلى حمير، ويدعون أنهم يستطيعون اثبات ذلك. ومثل هؤلاء المشايخ يسمى الواحد منهم أصيل. وهنا أشير إلى خطأ، روج له أحد الرحالة، الذين سبقوني، وهو أن عرب الجنوب يخجلون من نسبهم الحميري[286]. ولا بد من تصحيح هذا الخطأ، إذ لم أقابل أي واحد من نسل حمير، إلا وجدته معتزاً أيما اعتزاز، بأن ذلك الشعب العظيم (حمير) هم أجداده.

ويشكل النسب في بلاد العربية عموماً مصدر اعتزاز، ولاسيما في أوساط البدو. ولم تجد الروايات الإسلامية، ذات الطابع الأسطوري، حول الأنساب قبولاً لدى عرب الجنوب. ولا يرى المرء قبولاً لهذا الهراء، إلا لدى أفراد محدودين من العلماء المتعصبين، أوفي الكتب المغرضة، أما لدى القبائل، فهي موضع سخرية.

ومكانة الشيخ لا تماثل مكانة الرئيس. فالشيخ لا يحق له أن يصدر أمراً لأحد من أفراد قبيلته. إنه ليس أكثر من شخص يحظى بالمكانة الأولى وسط القبيلة. فكلمته ونصيحته لها وزنها، ولكنها ليست الحاسمة. وبالطبع يوجد مشايخ يمتلكون نفوذاً حاسماً غير محدود، ولكنهم يستمدون ذلك من صفاقم أو من صفات آبائهم، المتميزة.

---

(285) أوضحنا سوء الفهم هذا لدى جلازر في هامش سابق.

(286) يشير جلازر هنا إلى الوهم، الذي وقع فيه مالتسان. وقد أشرنا إلى هذا في موضعه.

وليست مهمة الشيخ المحافظة على القبيلة واستمرارها سليمة فحسب، بل أيضاً يتولى قيادة قبيلته في الحرب. أما المسائل الدينية فيترك أمرها للهجرة. وإذا مات الشيخ، يحل محله أكبر أولاده. وإذا كان ابن الشيخ قاصراً، فإن أقرب الذكور نسباً إلى الشيخ يتولى مكانه، بصورة مؤقتة. وإذا لم يخلف الشيخ ذكوراً، فإن القبيلة تقوم باختيار شخص مشهود له بالسمعة الطيبة، على أن يكون أصيلاً، أي نسبه نسباً معروفاً إلى أزمان قديمة. وكلمة أصيل لا تعني (نبيل) بالمعنى الأوربي، الذي لايرجع نسبه المعروف إلا إلى بضع مئات من السنين، فمثل هذا النبيل لا يمكن، حتى لو كان يحمل لقب (دوق)، أن يصبح شيخاً في قبيلة من قبائل حاشد أو بكيل، إذ أنهم لا يعتبرونه أصيلاً. وإذا لم يوجد في القبيلة شخص ينتمي إلى نسب قديم معروف، فمن غير المسموح أن تضع القبيلة نفسها تحت قيادة شيخ من خارج القبيلة، حتى ولو كانت من قبيلة شقيقة، فضلاً عن شخص غريب. ففي مثل هذه الحالة تختار القبيلة من بين رجالها شيخاً لها، حتى ولو كان نسبه المعروف لا يصل إلا إلى بضع مئات من السنين. ومثل هؤلاء الرجال موجودون بكثرة، في أوساط قبائل العربية الجنوبية. لقد تعرفت على أسر مشايخ، أسماؤها وأماكن سكنها موجودة في النقوش الحميرية.

وسوف نسرد، فيما يلي، القواعد القبلية، أو ما يسمى بأعراف القبائل:

١- المتيع أو الممتَّع، أي الضيف:

إذا تعرض ضيف (متيع) لدى قبيلي لأذى داخل منطقة القبيلة، سواءً كان الأذى صادراً من أحد أبناء القبيلة أو من أحد أبناء قبيلة أخرى، فإن من واجب المضيف أن يثأر له. فإن قتل المتيع، فلا بد من قتل القاتل أو على الأقل تقطع يده اليمنى. وإذا لم يستطع المضيف تنفيذ ذلك بمفرده، أو بمساعدة أصدقائه، فعليه أن يستعين بقبيلته كلها. وإذا كان الغريب من الوجهاء، فإنه يسعى أولاً إلى أن يكون متيعاً لدى الشيخ، لأنه إذا حل ضيفاً لديه، فكأنه حل ضيفاً لدى القبيلة كلها.

٢- رفيق الجنب، أي رفيق الطريق:

من العادة، في العربية الجنوبية، أن يصطحب المسافر، في مناطق القبائل، مرافقاً، يُعرف برفيق الجنب، يحافظ بحياته على سلامة المسافر ويكفل الأخذ بثأره، مستعيناً بحبله وبقبيلته. والأعراف المنظمة لهذا الموضوع تختلف من قبيلة إلى أخرى. ففي أرحب تنص القاعدة العرفية على أن القبيلي العادي يضمن سلامة المسافر في المناطق المحيطة بقريته فقط. ولا تقوم معه في عملية الثأر للمسافر،

الذي أُلحق به أذى، سوى قريته. والشيخ وحده يستطيع أن يوسع مجال المرافقة في منطقة قبيلته كلها. وفي أرحب وحاشد، ولاسيما لدى بني صريم وخارف، لا بد أن تشعر العشيرة كلها بموضوع المرافقة. ولا تصبح المرافقة مقبولة إلا إذا وافقت عليها العشيرة. أما لدى العصيمات، في حاشد، فكل صبي له الحق أن يرافق مسافراً، دون حاجة لإبلاغ العشيرة أو الحصول على موافقتها. وكل أبناء العصيمات ينهضون، إذا تعرض مسافر للأذى في منطقتهم، إذا كان يرافقه واحد من أبناء العشيرة، سواء كان لدى العشيرة علم مسبق بالمرافقة أم لا. ولا يقوم الرفيق، بطبيعة الحال، بالمرافقة إلا مقابل أجر نقدي. وما هو سائد لدى العصيمات، سائد أيضاً لدى سفيان (فرع من أرحب). لذا يقال في هذه الحالة، بلغة القبائل: "يستطيع كل طفل في العصيمات وسفيان أن يُحمِّل الرَّفَقْ القبيلة كلها". ويكتب الرفيق ورقة، أو يعلن أمام الناس، بأن المسافر "في القرن والذمه". بعد ذلك يسافر، كما يقال، في الوجه. وتعني تقريباً ما نقوله بالألمانية "كلمة شرف".

٣- الصلح في الوجه:

وتسمى (في العيب والنقاء). فإذا نشبت حرب بين مجموعتين، من قبيلة واحدة، وكفلت المجموعة، التي سقط منها عدد أكبر من القتلى، الهدنة للمجموعة الأخرى، لفترة زمنية محددة، وتم خرق هذه الهدنة، خلال الفترة المحددة لها، فإن على القبيلة كلها أن تتصدى لذلك، وتقطع الأيدي اليمنى للمتسببن في هذا الخرق. فإذا امتنع الجناة عن تسليم أنفسهم، لقطع أيديهم، فإن بيوتهم وبيوت أقاربهم تدمر ويلاحقون حتى يقتلوا جميعاً. ولكن إذا لم ينتج عن الخرق سقوط قتلى، بل مجرد جرحى، فإنه يُكتفي بدفع مقدار من النقود، من قبل الجناة، يحدده العقال. فإذا لم يكن الجاني يمتلك شيئاً، التزمت عشيرته بذلك. وفي حاشد لا تطبق عقوبة قطع اليد، بل يدفع الجاني مباشرة مبلغاً مناسباً من المال، يبلغ حوالي مئة إلى مئة وعشرة ريالات ماريا تيريزا.

٤- القتل الخطأ (غير المتعمد):

تفرض في هذه الحالة عقوبة مالية، تبلغ بين مئة إلى مئتي ريال. وتسمى هذه العقوبة المالية دية. وتبلغ الدية في حاشد ثلاث مئة ريال ذهبي. أو مئة وخمسين ريالاً ذهبياً، وما يعادل مئة وخمسين ريالاً من الأشياء الثمينة. وإذا كان القتيل شيخاً، فإنه يتم دفع أربع ديات في أرحب. أما في حاشد فتدفع ديتان فقط. وحتى الديتين تبقيان موضع جدل في حاشد، لأن الجهة المعنية تحاول أن لا تدفع

سوى دية واحدة، حتى ولو كان القتيل شيخاً. وإذا كان القتيل سيداً، فإنها تدفع له دية عالية، كدية ذات صفة دينية، حتى أنه يقال في أوساط القبائل، إن السيد غالي.

٥- تسوية مسألة القتل تتم بطريقتين:

إما بطريقة دفع الدية، كما سبق، وإما بطريقة قتل القاتل، أو قتل أفضل واحد من أقارب القاتل. وتفضل عادة الطريقة الثانية، مما يفضي إلى استمرار الصراع.

٦- السرقة:

إذا ضبط السارق أثناء السرقة وقتل، فإن أهله لا يحق لهم الاخذ بثأره، وتسلم لهم من قبل القتلة أربعين ريالاً. أما إذا ثبتت عليه السرقة في وقت لاحق، بواسطة شهود، فإنه يلزم بدفع عقوبة مالية مناسبة وإعادة المسروقات وتقديم عقاير[287].

٧- الواشي:

يعتبر الواشي مجرد إنسان كاذب، حتى ولو تسببت وشايته بأضرار جسيمة. ولعل هذا هو السبب، الذي يجعل من النادر وجود أناس في أوساط قبائل العربية الجنوبية ينطقون بالصدق. فالكذب لديهم يبدوكما لو أنه غريزة فطرية.

٨- الزاني:

يعامل الزاني كما يعامل السارق. فإذا حملت المرأة، يُقطع رأسها، ويؤخذ إلى الزاني ويتم قتله هو أيضاً، أو يمكن أن يدفع مبلغاً كبيراً من المال. فإذا فرت المرأة وهي حامل، فإن الزاني لا بد أن يتزوجها ويدفع في نفس الوقت مبلغاً كبيراً من المال لأهلها.

٩- إذا كان الزاني شيخاً:

إذا كان مرتكب الزنا، شيخاً، فإنه يعامل كما يعامل أي قبيلي آخر. ولكن الذين يتولون الحكم عليه هم جميع العقال وكل العشيرة[288].

---

(287) العقيرة حيوان، يكون في الغالب ثوراً، يقدمه الطرف المخطئ، للطرف الآخر، على سبيل الترضية.

(288) من الواضح أن الشيخ، بحكم موقعه الرفيع في القبيلة، ملزم أكثر من غيره بالتقيد بالقيم والأعراف، والتمسك بالسلوك الأخلاقي المتميز. باعتباره قدوة ومثالاً لقبيلته. ولذا فإن إجراءات توقيع العقوبة عليه، في حالة ارتكابه خطأ، هي إجراءات أكثر قسوة من إجراءات توقيع العقوبة على أفراد القبيلة الآخرين.

١٠- كل قبيلي يستطيع أن يعبئ البندقية أو يحمل الرمح:

ولو كان صبياً أو عجوزاً، فإنه يخرج مع مقاتلي القبيلة إلى الحرب، دون أن يُطلب منه ذلك، أو يُرغم عليه. وإذا كان هناك بعض الرجال يفضلون البقاء في بيوهم، وإخوانهم من أبناء القبيلة يسقطون صرعى في الحرب، فإن عليهم بالتأكيد أن يحسبوا حسابهم، بأن القبيلة ستتخلى عنهم، عند أي مكروه يحدث لهم.

١١- في حالة نشوب خصام بين مجموعتين من القبيلة نفسها:

على سبيل المثال، لو نشب خصام بين مرافقيَّ الشيخ أحمد مرح ومرشد الحباري، فإن المشايخ الآخرين والأعيان، كالسادة مثلا، يسعون إلى تحقيق الصلح بينهما. فيبدأون أولاً بتناول الطعام عند أحدهما، بأعداد كبيرة، ثم عند الآخر. وذلك ليهيئوهما، بهذه الطريقة، للإذعان والخضوع. وإذا كان الطرفان المتخاصمان يرغبان في الصلح، فإن كل طرف منهما يسلم عدداً من البنادق لهؤلاء المشايخ والأعيان المحكَّمين، كرهون (عدال). وبعد ذلك تتم إجراءات الصلح، بالصورة التي سنوضحها فيما بعد. أما في حالة عدم الرغبة في الصلح وعدم الإستجابة لجهود المصلحين، فإنها الحرب، التي لا يستطيع المصلحون منع نشوبها. والسعي في الصلح، في حالة الخلاف أو الحرب، يمكن أن يقوم به أي شخص من الوجهاء، سواءً من داخل القبيلة أو من خارجها. فقد يكون شيخاً أو شخصاً من الهجرة، أو سيداً ليس من المنطقة. وقد حدث مثلا، أن وجدت نفسي ذات مرة أقوم بدور كهذا.

١٢- إذا رغب أحد الطرفين المتحاربين بالصلح:

فإنه يبعث مندوبين من قبله إلى معسكر الطرف الآخر، ومعهم حيوانات للذبح (عقاير). فإذا قبلت العقاير، تم ترتيب عملية الصلح. فيحصى القتلى لمعرفة أي الطرفين سقط منه عدد أكبر. ثم يتم دفع الديات للعدد الزائد من القتلى. فيدفع اثنا عشر ريالاً مقابل كل قتيل، في العام الأول للقتال، وخمسة ريالات أو سبعة للعام الثاني، وذلك للعشيرة التي سقط منها العدد الزائد. وتعطى النقود في النهاية لأسر القتلى. وإذا لم تفلح الجهود لإتمام الصلح، فإن الحرب تستمر. لأن الطرف الذي سقط منه عدد أكبر، يسعى بكل قدرته إلى الثأر لقتلاه. ومن عادة عرب الجنوب أن لا يعقدوا صلحاً حاسماً ونهائياً. فمثل هذا الصلح لا يمكن أن يتحقق، إلا إذا دفعت دية كاملة للعدد الزائد من القتلى. وهذا أمر غير ممكن لأنها تشكل مبالغ كبيرة جداً. لذا يميلون إلى عقد الصلح

لمدة شهر أو ثلاثة أشهر أو نصف سنة أو سنة أو سنتين ...الخ. ولا تتم مثل هذه التسويات عادة إلا بين قبيلتين صديقتين أصلاً، أو بين عشيرتين من القبيلة نفسها. أما بين القبائل الغريبة عن بعضها، فلا تسويات، وإنما خصومات مستمرة. ويطلق اسم (يوم أبيض) على يوم المعركة، التي تشن على العدو، حينما يكون هذا العدو قبيلة غريبة. (والداعي) هو الذي يميز بين القبائل المتقاربة والقبائل الغريبة عن بعضها. ويعني لفظ (الداعي) الإنتماء إلى جد واحد قديم جداً. وهكذا بالنسبة لبكيل مثلاً، تعتبر أي قبيلة من قبائل يام أو حاشد قبائل غير غريبة. وما عداها فهي قبائل غريبة.

والآن لنوضح إجراءات الصلح، فهي تتم وفقاً للقواعد التالية:

يطلب المحكم من الطرفين المتخاصمين عدداً مناسباً من البنادق، وهو ما يسمى (عدال). وكل طرف من الطرفين يحدد شخصاً كضمين، يسمى (ضمان)، يكفل خضوع الطرف، الذي اختاره، لحكم المحكَّم. وبعد عملية تحقيق واستجواب الشهود، يقوم بها الحكَّم، ينطق أخيراً بالحكم، ثم يطلب من المتخاصمين، إذا أراد ذلك، ما يسمى بالأجرة مقابل أتعابه. وتدفع الأجرة مناصفة بين المتخاصمين. ومقدار الأجرة يحددها المحكَّم نفسه، حسب تقديره. فإذا قبل المتخاصمان حكمه، أعاد إليهما أسلحتهما. وفي حالة عدم القبول، يتجه الطرف، الذي يريد استئناف الحكم، إلى من يريد من المشايخ الآخرين أو من الهجرة.

وهناك أخيراً عرف غريب، من شأنه أن يخفف قليلاً من شدة القواعد القبلية، ولاسيما مايتصل بالعلاقة مع قبيلة أخرى. وهذا العرف يتلخص في أن الشخص يمكن أن يكون له حليف من قبيلة أخرى، يكون صديقاً أو موضع ثقه، يتبنى حقوقه (أي حقوق الشخص) داخل قبيلته (أي قبيلة الحليف). ويعتبر دور الحليف دوراً معترفاً به في كل الظروف والأحوال، حتى في حالة نشوب حرب بين قبيلة الشخص وقبيلة الحليف. وهذه سمة من سمات النبل. ولنفترض الآن أن شخصاً من أرحب سُرق عليه حمار، وكان له حليف من حاشد، وقام هذا الحاشدي برد الحمار إلى صاحبه، فإن صاحب الحمار، عرفاناً بالجميل، ملزم بأن يذهب إلى السوق الكبير في أرحب ويرفع علماً أبيضاً، ويلقي كلمة في الجمهور المتجمع حوله، يشرح فيها الموضوع، ثم يعلن ما يلي: "لأن حليفي فلان بن فلان من حاشد قد وفى بواجب الحلف بالطريقة المناسبة، فإني أحضر له هذه البيضاء"، أي العلم الأبيض.

وهناك عادة أخرى من عادات القبائل، لا تقل روعة عن هذه العادة، وهي أهم يستقبلون الفارين من القبائل الغريبة، حتى لو لم يعرفوا إطلاقاً من أي قبيلة ومن أي منطقة هم، يستقبلوهم ويكفلون لهم الإقامة بين ظهرانيهم. ويعتبر قانون اللجوء في النمسا قانوناً غير رحيم، إذا قورن بقانون اللجوء لدى القبائل العربية الجنوبية. فالهارب، الذي لا يسأله أحد، إن كان مجرماً أو رجلاً مستقيماً، يتجه إلى أحد رجال القبيلة، التي يريد أن يلجأ إليها، ويذبح أمامه شاة أو عجلاً، ويطلب اللجوء، فيجيبه الرجل بقوله: "عليْت" أو "إمنت". وبهذه العبارة تنتهي كل المراسم، ويصبح الهارب، من الناحية الحقوقية والعملية، كأنه عضو من أعضاء قبيلة الرجل، الذي لجأ إليه.

وصف الرحلة:

بعد هذه المقدمة، التي كانت طويلة نوعاً ما، ولكنها كانت ضرورية، نظراً لجهلنا بهذه البلاد، أدعو الآن القارئ العزيز إلى مرافقتي في رحلتي هذه.

في يوم الثلاثاء الحادي والثلاثين من يناير عام ١٨٨٤م، ركبت في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر إلى باب شعوب، مغادراً صنعاء للمرة الثالثة، لكي أخوض نضالاً من أجل العلم. وكان صدري منقبضاً، فأرحب، وكذلك حاشد، لم يسبق لهما أن استقبلا أي أجنبي، باستثناء الوحدات العسكرية التركية، التي خاضت في أراضي القبيلتين معارك دموية طاحنة، لم تكلل بالنجاح، وانسحبت منها منذ سنوات. على الأقل لم يسبق لهما أن استقبلا أجنبياً يدخل أراضيهما علناً وبصفته الأجنبية، كما هو حالي الآن. بل ويسير بأبهة ويحيط به المرافقون، باعتباره أحد موظفي الأتراك. فهاليفي قام برحلته متخفياً بملابس يهودي فقير. ومثل هذا التخفي يضمن للمرء أن لا يؤذى أبداً في العربية الجنوبية، شريطة أن يحسبه الناس شخصاً فقيراً فعلاً. ولكن لا يسمح له اجراء أبحاثه بالحرية اللازمة، التي تمكنه من الوصول إلى نتائج علمية موثوق بها. وإلى جانب ذلك فإن الرحّال الشجاع (هاليفي) لم يدخل مناطق حاشد. والأدهى من ذلك أنه لا يوجد في كل العربية الجنوبية قبيلة أسوأ سمعة من حاشد[289]. فكل قبائل بكيل تعتبر، مقارنة بحاشد، قبائل مسالمة،

(289) لا نستطيع أن نسلم بهذا الحكم. فهو بالأحرى نوع من الأحكام المسبقة. فجلازر أطلقه بناءً على ما سمعه، بغض النظر عن صحة أو عدم صحة ما سمع، ولم يبنه على التجربة المباشرة والبحث العلمي. إذ كان عند اطلاقه هذا الحكم في طريقه إلى حاشد. وقد غير حكمه بعد زيارته لمنطقة حاشد، كما سنرى. ولعل الميل الفطري لدى الأجانب إلى تهويل المصاعب، التي يصادفونها في رحلاتهم،=

وتوجد حركة تجارية نشطه بين مناطقها. أما حاشد فيتجنبها الناس، وحتى أبناء قبيلة يام، القبيلة الشقيقة لحاشد، يتجنبون السير في الأراضي الحاشدية. وبدلاً عن ذلك يسافرون عبر أراضي القبائل البكيلية المعادية. وكان هذا شأنهم عندما كانوا يحتلون حراز، كما هو شأنهم اليوم، عندما يريدون أن يسافروا إلى صنعاء. نعم لقد وضعت خطتي واعتمدت على قناعتي، بأنه في ظل الأوضاع الراهنة، التي تكرم الحاكم العام بإطلاعي عليها تفصيلاً، يمكن لرباطة جأشي، وللساني بشكل خاص، أن يحمياني من أي خطر.

وفي الساعة الثانية عشرة وخمس وعشرين دقيقة وصلنا إلى الروضة، حيث شربت بغالي من الغيل، الذي شقه عزت باشا إليها، والذي من شأنه أن يعيد هذه المدينة، التي كانت ذات يوم حديقة غناء، إلى سابق عهدها. وقد تخلف بعض مرافقيّ، من مشايخ أرحب، في الروضة، ربما ليدبروا فيها مؤامراتهم، التي يخططون لها ضدي. ولم يواصل معي سوى حزام من بيت سواء، وعلي سعيد، الذي نصحني الوالي بأخذه مرافقاً لي، وهو من ذيبان. ومن قاع الرحبة الكبير اتجهنا مباشرة إلى قرية حوات، التي مررنا من يسارها في الساعة الواحدة والنصف. وسرنا بعد ذلك باستمرار بمحاذاة مجرى السائلة، الممتدة من شعوب. وفي الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة مررنا بين قريتي بيت رسام وبيت البرادي، عبر السائلة. وفي الساعة الثالثة تماماً عبرنا منطقة بني الحارث ووصلنا إلى أرض أرحب. وتأخذ الأرض هنا تدريجياً لوناً قاتماً، حيث أننا بدأنا نسير صعوداً فوق هضبة بركانية. وبصورة متزايدة أخذ يظهر طفح بركاني متناثر هنا وهناك، ليغطي في النهاية المنطقة كلها. هذه الأرض الجرداء لا توجد عليها نبتة حشيش واحدة. وتبدو، لاسيما إلى اليسار من الطريق، خالية من أي ساكن أو سكن. وهكذا استمرت طبيعة الأرض، التي سرنا عليها حتى الساعة الخامسة وعشرين دقيقة، عندما وصلنا إلى أول قرية في أرحب، وهي قرية المكاريب. وتوارد نحونا الأطفال العراة، الذين جاؤا يعدون لاستقبالنا، من مسافة نصف كيلو متر. واكتفوا بعد وصولهم بالسير جنباً إلى جنب يتطلعون إلينا صامتين، كما لو أنهم حراساً مرافقين.

وفي القرية نفسها بدا الأمر أشبه بالعيد. فالكل تحرك لرؤية الترك (الأتراك). وكانت مفاجأة سارة لي، حينما رد الجميع على تحيتي (السلام عليكم) بصوت عال: (مرحبا ومسهلا)، وبدعوة إلى

=هي التي جعلت جلازر يهول المخاطر المحتملة في منقطة حاشد، وهو يتجه إليها. ولا شك أن حكمه المسبق هذا على حاشد هـو جزء من أحكامه المسبقة على اليمنيين بشكل عام. وهي أحكام برزت في ثنايا كتاباته، وأشرنا إلى بعضها في المقدمة.

الطعام في القرية. وأوضح الشيخ حزام للمجتمعين الطيبين، وكانوا كلهم تحت إدارته، عدم إمكانية الإستجابة لدعوتهم، إذ أن طعام العشاء قد جهز في مترله في بيت سواء. وفي الساعة الخامسة وخمسة وأربعين دقيقة وصلنا بيت سواء. واستقبلنا باحترام كبير، من قبل الرجل الطيب عبدالواسع. وعبدالواسع هذا مع حزام هما من أتباع الحكومة التركية الموثوقين. وتم إيصالي إلى الديوان، وهو عبارة عن غرفة طويلة وواسعة، لا يخلو منها مترل شيخ، وتخصص لاستقبال الضيوف. وعند الدخول إليها لا يقول القبيلي القادم: (السلام عليكم) أبداً، بل يقول: (السلام تحية). ويرد عليه سيد البيت: (أبلغت)[290]. بعد ذلك يجري تبادل التحيات المعتادة، حيث يقول صاحب البيت: (مرحبا ومسهلا). فيرد عليه القادم: (بقيت). ولكي تصبح التحية أقوى. يضيف صاحب البيت وهو يضع كفيه على رأسه: (على العين والراس). وبعدها مباشرة تقدم المداعة وقهوة القشر. ويتكون أثاث الغرفة من مجموعة من الفُرُش، موضوعة على جوانبها، إضافة إلى كمية من الوسائد، التي يضع المرء ذراعه عليها. وفي وسط الغرفة ثلاث مدايع (جمع مداعة)، موضوعة على صحن واسع، أو على الأرض مباشرة. ولا توجد في الغرفة نوافذ، بل مجرد فتحات ضيقة مربعة الشكل، تغلق بألواح خشبية. وعندما استفسرت عن سبب هذه الظاهرة، قيل لي أن النوافذ كبيرة الفتحات غير عملية، نظراً للصراعات المستمرة، حيث يمكن أن تنفذ من خلالها طلقات الرصاص إلى داخل المترل. وعدا عن ذلك توجد على جدران الغرفة معالق خشبية (مفردها معلق)، تعلق عليها البنادق، بجميع عددها، كما تعلق الرماح الطويلة. ومن المعروف أن أي قبيلي، لا يمكن أن يخرج خارج بيته، دون أن يحمل بندقية أو رمحاً. وللإضاءة تستخدم مصابيح زيتيه، غاية في البساطة. ولا توجد شمعدانات كبيرة، تحمل شمعتين، سوى لدى المشايخ الكبار، ولكنها من النوع القديم جداً. والمنازل هنا، كما هو الحال في جميع المناطق الجبلية في العربية الجنوبية، مبنية بالحجارة، بناءً غاية في المتانة. ورغم أنني عند سفري من صنعاء كنت مأزال أعاني بعض الألم (كنت قد شفيت للتو من الدوزنتاريا، التي أصبت بها، كنتيجة من نتائج جولتي البحثية الثانية) فقد شعرت في بيت سواء بالراحة الكاملة، وزالت عني المخاوف من أن يعاودني هذا المرض المزعج.

---

(290) فهم خاطئ من قبل جلازر، فعبارة (السلام تحية)، تعني أن القادم لن يسلم على الجالسين باليد، بل يكتفي بتحيتهم شفوياً. ولا تقال هذه العبارة إلا بعد توجيه السلام المعتاد، وهو: (السلام عليكم). ثم يتبعه القادم بعبارة (السلام تحية). ويرد عليه الحاضرون، وليس سيد البيت فقط، يردون عليه بكلمة (أبلغت)، أي أوصلت التحية، أو تحيتك وصلت.

وفي المساء حضر المشايخ التالية أسمائهم: مرشد الحباري وأحمد مرح وعبدالوهاب راجح وحسن داحش القصير والجرادي، من زبيرات، الذي نصحني الوالي باصطحابه معي كمرافق. ومضت السهرة ممتعة ومريحة للغاية. وبالغ عبدالواسع وحزام في لطفهم، حيث استدعيا مزيناً من صنعاء، ليس فقط من أجل خدمة الضيوف، بل أيضاً لتقديم بعض الألعاب والتسليات، التي تريح وتنشط الضيوف. ويوجد في كل قبيلة، ذات مكانة، مزين يقضي وقته عادة في منزل الشيخ. والمزين الحقيقي لا بد أن يكون في الوقت نفس مزمراً، يحسن العزف على المزمار ومصاحبة العزف بالرقص أو بتحريك الجسم، حركات مناسبة لصوت المزمار. فإذا لم يكن يحسن العزف على المزمار، فلا بد أن يبذل جهده ليكون شاعراً، ينظم أبياتاً، تتسم بالمرح والظرف، يلقيها على الحاضرين. وإذا لم ينجح في ذلك، فليس أقل من أن يحفظ قصائد البطولات، التي ينظمها أفراد من القبيلة، يمجدون بها بطولات قبيلتهم في الحروب، ضد القبائل الأخرى، ويلقيها أمام الجمهور.

وفي الساعة الثامنة مساء تقريباً قُدم لنا طعام العشاء، في صحفة أو وعاء كبير ، على ما يسمى (مرفعة) من الخشب، ذات ثلاث قوائم، غير مرتفعة كثيراً عن مستوى الأرض. وتقتضي العادة بعد ذلك أن يقدم المزين، أو أحد أعضاء أسرة المضيف، سطلاً أو وعاءً من القرع فيه ماء، يدور به على الضيوف. فيدخل كل منهم يده اليمنى المتسخة ويبقيها لحظة، فيما يبدو أنه يغسلها، بعد ذلك يرفع سيد البيت الغطاء عن وعاء الطعام، ويتجمع الكل حوله. ويتكون الطعام، الذي بداخل الوعاء، من القمح والسمن، حيث تطحن النساء القمح ويصنعن منه خبزاً، يُفت قطعاً صغيرة ويوضع في الوعاء، ثم يقدم على الطاولة الصغيرة (المرفعة)، ويأتي المضيف بما يشبه الإبريق المتسخ، بداخله زبدة مطبوخة، يسمونها (سمن)، يصبها على الخبز. وعلى الفور يرى اثنان أو ثلاثة من الضيوف أن من واجبهم أن يمدوا أيديهم إلى ما بداخل الوعاء ويحركونه، ليختلط به السمن، ويكرمون، بهذه الحركة غير النظيفة، الجهة التي أمامي بصورة خاصة. أما الخدم والضيوف البسطاء فيقدم لهم الهريش أو العصيد. والعصيد هي عجين خشن من دقيق الذرة. أما الهريش فهو من البر المجروش. وتعمل في الوسط فجوة، يصب فيها السمن. أما إذا كان اللحم متوفراً، فإنه يصب في الفجوة ما يسمى بالمرق، بدلاً من السمن. وفي هذه الحالة يعطى الضيوف الكبار مرقاً للشرب، في وعاء من القرع. ولا بد من الإعتراف بأن هذه الطريقة في تقديم الطعام، ستظل بالنسبة لي أفضل طريقة رأيتها.

والآن، بعد أن يكون كل شخص قد أخذ مكانه وأصبح كل شيء جاهزاً للتناول، يدعو صاحب البيت الجميع للبدء بقوله: (هيّا بسم الله). فيمد الضيوف أيديهم إلى الصحفة وهم يرددون، بطريقة احتفالية، عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم). وبين الحين والآخر يصب صاحب البيت مزيداً من السمن، ليعبر بذلك عن اعزازه لضيوفه واهتمامه بهم. وكل ضيف حسن التربية يحاول في كل مرة، ايقاف الشيخ عن صب المزيد، بقوله: (هذا خيرات)، أي هذا أكثر من اللازم. وبمجرد أن تخلو الصحفه الأولى، يتراجع الضيوف إلى الخلف، كل إلى المكان، الذي كان جالساً فيه. ويقوم عندها سيد البيت بتوزيع اللحم. ولعدم وجود جزارين، يبيعون اللحم في أوساط القبائل، فإن من عاداتهم أن يذبحوا، عند وصول ضيف لديهم، خروفاً. ويتناول الضيف اللحم وهو جالس في مكانه. وعندما يواصل المضيف الحاحه على الضيف، بتناول المزيد، يرد عليه الضيف بقوله: (الحمد لله شبعت). ولا يهتم القبيلي بعد تناوله الطعام بغسل يده. إنه يشعر بالقشعريرة، عند مجرد التفكير بالغسل أو الإستحمام. إن القبيلي الأصيل مقتنع بأن الإستحمام يضر الجسم. ولا يغتسل عندما يتهيأ للصلاة، حيث يجب أن يكون طاهراً، إلا غسلاً ظاهرياً[291]. ولكنه يستخدم الدهنة، أي الزبده، بسخاء. فبعد وجبة العشاء يطوف المزين بالضيوف ويدهن بواطن أقدامهم بالدهنة ويضع بيد كل منهم قطعة منها، ليدهن بها ذراعيه ووجهه وخلف رأسه وشعره. وعندما تسيل الدهنة على الجسم، عند ذلك فقط، يشعر المرء بالإرتياح[292]. ورغم الحاح المضيف، رفضت كل محاولة لدهن جسمي، وبدلاً من ذلك طلبت غسل قدمي. وعادة ما يصب على رأس الأطفال نصف رطل من الدهنة. ولا يجب أن ننسى هنا الإشارة إلى أن وعاء البخور كان يلعب دوراً أساسياً طوال الأمسية. وبعد الدهنة تأتي مرة أخرى المداعة العزيزة وقهوة القشر، وتبقيا حتى الخلود إلى النوم. وينام جميع الموجودين في صالة واحدة، دون أي فراش تحتهم، فيدخل كل واحد منهم فيما يسمى (كيس النوم)، ليحمي نفسه من الحشرات. وينامون نوماً عميقاً إلى

(291) هذه صورة من صور المبالغات. ويبدو أن جلازرلم يتنبه إلى أن الإستحمام مرتبط بتوفر المياه. فحيثما تكون المياه نادرة، وهـذا هو حال المناطق القبلية التي زارها، يقل الإستحمام، وليس لهذا علاقة بما توهمه، من كراهية القبيلي للإستحمام، ومن أن القشعريرة تسري في بدنه، إذا ما فكر بالإستحمام. أما غسل اليدين، بعد تناول الطعام، فهي عادة، تتم بالطريقة نفسها، التي تـسبق تنـاول الطعام.

(292) هذه العادة يمكن فهمها وتفسيرها علمياً، إذا ماوضعنا في اعتبارنا طبيعة المناطق الباردة الجافة. فالدهنة تساعد علـى ترطيـب البشرة ومنعها من التشقق وتكوين طبقة عازلة ضد البرودة.

قبل طلوع الشمس، حيث يسارعون جميعهم إلى المسجد. وقد اصطحبت، معي مراعاة لوضعي الصحي، سريراً، كان له أطيب الأثر خلال الرحلة.

وأول سؤال يوجهه الناس صباحاً، أحدهم إلى الآخر، هو: قد صليت؟ و: أين صليت؟. وحتى أنا كثيراً ما وجه إلي هذا السؤال. وحتى أتقن دوري، كموظف تركي، تركت خادمي صالح وأحمد يشرحان للناس بأنني خلال الرحلة لا أصلي، لأنني لا أستطيع القيام بالوضوء، حسب التعاليم الإسلامية. وكان الخادمان يضيفان أيضاً، أن الأفندي مسلم متزمت جداً، فعندما يعود إلى صنعاء من رحلة يقوم بها، يتجه إلى الجامع الكبير ويبقى فيه يومين كاملين، يصلي ويتبتل دون انقطاع. ويكتفي عرب الجنوب بمثل هذه المعلومات. وهم يعرفون بشكل عام أن الأتراك ليسوا من المسلمين المواظبين على أداء صلواتهم. وقد عبر أحدهم لخادمي أنه الآن فهم لماذا لا يصلي الأتراك. وبعد صلاة الفجر يقدم سيد البيت لكل ضيف قطعة خبز، كان على النساء البائسات أن يعددنها في الليل. وهذه الوجبة الصغيرة يسمونها (الصبوح). ويقولون: (فلان يصطبح) أي يتناول طعام الإفطار. وبالطبع لا يغيب هنا أيضاً القشر والمداعة. وبدون الصبوح لا يقوم العربي الجنوبي بأي عمل، مهما كان صغيراً[293]. ولا شيء لديه يفوق أهمية من أوقات الطعام. فعندما يحين موعد طعام الغداء، فإنه يترك كل شيء في يده وينصرف كلياً إلى الطعام. وعندما يسافر فإنه يحدد سلفاً أين سيتناول طعام الغداء. وينظر العربي الجنوبي إلى الأتراك، الذين لا يأخذون مواعيد الطعام بهذه الجدية والدقة، على أنهم في هذا الأمر برابرة. وقد قمت في الصباح بعمل صورة للمنطقة المحيطة بهذه القرية، التي تقع شمال صنعاء تماماً.

وفي صباح يوم الجمعة، في تمام الساعة العاشرة وخمس وعشرين دقيقة، امتطينا حيوانات الركوب وغادرنا القرية للقيام بدراسة خبة. ورافقني كل المشايخ، الذين سبق ذكرهم، وعدد كبير من سكان القرية. لقد كان موكباً أميرياً حقاً. وفي الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة وصلنا إلى قرية عتبان، الواقعة في الغرب، بعد سير متعب على أرض جرداء، مملؤة بالحصى الأسود، ترعى عليها قطعان الأغنام. وبذلت جهداً دون جدوى، لعلي ألمح نبتة حشيش واحدة. ولما كان بعض

---

(293) جانب جلازر الصواب هنا. فالعربي الجنوبي (اليمني) يقوم بأكثر من عمل قبل الصبوح، أيسرها أداء الصلاة وقراءة القرآن. أما المرأة فتؤدي أعمالاً أكثر مشقة، فتجلب الماء من بئر القرية وتجلب الحطب من الجبال والشعاب. كل هذا قبل تناول الصبوح، أي طعام الإفطار الصباحي.

المشايخ قد أخبرني، بأن أغلب سكان خبة هم من أتباع الإمام، فقد وجدت من المناسب ارسال خطاب إليهم من قرية عتبان. ولأن الآثار الحميرية في منطقة خبة، وبالتحديد في المدينتين وفي حصن سند، بالقرب من مخروط ضرب الضخم، الواقع إلى الغرب من بيت سواء، على حدود عيال سريح وأرحب، فقد اتجهنا مباشرة إليها، بعد أن أرسلنا الخطاب إلى سكان خبة. وأرسلت خدمي مع البغال وبعض المشايخ، ليتقدمونا إلى قرية بني خيران، التي قررنا أن نبيت فيها. وبقي برفقتي الشيخ عبدالوهاب راجح وكلا الشيخين، اللذين من بيت سواء، وكذا الجرادي وعلي سعيد. وكانوا جميعهم مسلحين. وبعد انتهائي من معاينة الآثار. طلب مني الشيخان من بيت سواء، ربما لتخوفهما مما ينتظرنا في بني خيران، أن يعودا إلى قريتهما، للمبيت هناك، ثم يلحقا بنا إلى قرية بني خيران، في اليوم التالي. وتحركنا إلى قرية، تقع إلى الشمال الشرقي، وفيها بركة كبيرة، جلسنا نرتاح بجانبها. ووصلنا خبر بأن سكان القرية قد ثارت ثائرتهم، وأن أنصار الإمام فيها قد اعلنوا بأنهم لن يسمحوا بأي حال للتركي[294] بدخول القرية، ويمكن، في أقصى حد من المراعاة، السماح له بالمبيت في المسجد. ولما كان المشايخ قد دخلوا القرية ولم يحدث لهم أي مكروه، فقد استنتجت من ذلك أن الأمر ليس خطيراً. وسريعاً كتبت رسالة ثانية إلى عقال (شيوخ صغار) ووجهاء رجو، لينتظرونا، في صباح اليوم التالي (السبت)، في جبل ضرفات. وكان نص الرسالة هي الآتي: "بعد السلام عليكم، أبلغكم بأنه بناءً على أمر معالي المارشال[295] من الضروري أن تقابلوني صباح السبت في جبل ضرفات، وقد أخبرت أيضاً شيخكم عبدالوهاب راجح بذلك. وهذا بلاغ لكم. الرحّال المستكشف[296]".

بعد ذلك قررت أن أركب إلى القرية. ولكي أضمن النجاح، ضغطت بالمهماز على بغلي لينطلق سريعاً ويقتحم القرية وسط الجموع المندهشة، التي شلتها المفاجأة، ولم تتجرأ على اتخاذ أية خطوة مضادة. وقصدت رأساً منزل الشيخ، حيث استقبلت فيه. وبعد لحظات بدأ الصخب وتصاعدت صرخات قوية، لا يمكن وصفها، مصحوبة بصليل السلاح، تطالب بتسليمي. وبعد

---

(294) المقصود هنا بالتركي جلازر نفسه.

(295) المقصود به الوالي التركي في صنعاء.

(296) هنا أفصح عن شخصيته الحقيقية. وهذا يتناقض مع إجراءات التمويه، التي عمد إليها، لإخفاء شخصيته، ومنها انتحاله صفة موظف تركي،وارتداؤه ملابس تركية.

قليل دخل ابن الشيخ إلى الغرفة، مصفر اللون كجثة ميتة، وهو يقول:"استعدوا". ووثب جميع من في الغرفة وأمسكوا بأسلحتهم، وأمسكت بدوري بمسدسي، وكان محدثو الشعب قد ولجوا إلى مدخل البيت، فأعطيت الأمر فوراً بإخراجهم بقوة السلاح، حتى نستطيع أن ندافع عن البيت. وأسرعت ومعي الجرادي وعلي سعيد، بهبوط الدرج. فإذا بعبدالوهاب راجح يبلغنا بأن الخطر قد زال وأنه قد هدأ المتوحشين، الذين كادوا أن يقتلوا شيخهم. وبعد أن ساد القرية الهدوء، أرسلت رسولاً، لإحضار محدثي الشعب الرئسيين. وبعد مداولات بينهم حضروا إلي. وقد جعلهم حديثي الصارم وتأكيدي بأن الإمام لن يصنع لهم شيئاً، جعلهم يظهرون خضوعهم. وكان أكثر حديثي تأثيراً فيهم، هو حديثي عن الصراع الناشب، بين حاشد وبكيل، وهو ما لا أريد هنا أن أكرر سرده.

وفي اليوم التالي، السبت الموافق الثاني من فبراير، في الساعة التاسعة صباحاً، تحركنا نحو قرية بيت سنان (إسمها في الحقيقة جرعان **Djiraan**) الواقعة في جهة الشرق. وعلى يسار الطريق زرنا آثار لحج وأبين (ربما هي نفسها يبيان، المذكورة في النقوش، لأن عرب الجنوب كثيراً ما يستبدلون الياء في أول الكلمة بالهمزة، ولاسيما في الأسماء). ووصلنا بعد ذلك إلى قرية ضرفات، في الساعة العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة، حيث وجدنا فعلاً عقال رجو ومعهم حشد من العرب في انتظارنا. وتناولنا طعام الغداء في القرية. وأشير هنا بارتياح إلى أن محاولة قتل استهدفتني، حين صوب أحد العرب بندقيته نحوي، من نافذة أحد المنازل. ولحسن الحظ فشلت محاولته.

وفي الساعة الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة، غادرنا القرية. وفي الساعة الثالثة ودقيقتين عبرنا من أمام قرية الهجرة، الحيفه، لنصل بحالة طيبة، في الساعة الثالثة وسبع وعشرين دقيقة، إلى قرية بيت سنان، حيث استقبلنا في بيت الشيخ عبدالوهاب راجح، أجمل استقبال. وكان الشيخ لطيفاً جداً، معي ومع خادمي، إذ أخلى لنا ديواناً صغيراً، داخل منزله الجيد التحصين. وبعد نصف ساعة وصل الشيخان، حمود أبو غانم، من عيال عبدالله، وأحمد حزام ردمان، من بني علي. وكان الشيخ حمود يصطحب معه ابنه المحبوب جداً، البالغ من العمر تسع سنوات، والذي دخل غرفتي وهو يحمل رمحاً ضخماً، ليرحب بي، بالطريقة القبلية الأصيلة. ويعتبر الشيخ عبدالوهاب راجح سنان، الذي يستطيع أن يعدد نسبه، حتى يصل إلى بني هلال، يعتبر أبرز مشايخ أرحب. إنه لأمر ممتع للغاية أن ترى هذا الرجل القصير القامة، البدين، بكلماته النارية وعينيه المتألقتين، وهو في وسط

العرب، يتحاور معهم في أمر ما. إنه يبدأ كلامه بعبارة: "صلي على النبي". وتعني من حيث دلالتها، كن عاقلاً واستمع إلي بهدوء. ثم يندفع سيل الكلمات من فمه، بطريقة آسرة. إنه الشيخ الوحيد في بكيل، الذي يظهر صداقة للأتراك، ويعتبر أن إخوانه من أبناء القبيلة حمقى، إن هم اعتقدوا أو أملوا، استناداً إلى كتاب من كتبهم، بأن الأتراك عما قريب سيغادرون البلاد وسيحل محلهم الفرنج (الأوربيون)، الذين لوجاؤا لن يحكموا اليمن أكثر من تسعة أشهر. بعد ذلك ستقيم القبائل في كل سنة ألف دولة. ومع ذلك لا أدري، إن كان الشيخ عبدالوهاب يعني ما يقول بصدق، لأن طبيعة العربي الجنوبي مخادعة. فعلى الأقل كانت بعض الحوادث في منطقة الشيخ، ثم في المناطق الشمالية، قد هزت قناعتي الطيبة، وجعلتني أعتقد أن من الحكمة بالنسبة للوالي أن لا يضع في هذا الشيخ ثقة كبيرة.

وفي المساء قدم دحان مرح، أخو أحمد مرح، يرافقه عشرون رجلاً من أبناء قبيلته. وكان يبدو متجهماً، وملامح وجهه كلها لا توحي بأشياء طيبة. وبعد وجبة العشاء وحضور جميع المشايخ إلى غرفتي، أوضح لي، أن مجيئي إلى هذه المنطقة قد خلق حالة من الهياج، إذ ينظر الناس إلي، على أنني طليعة للوحدات العسكرية التركية، ويعتقد أن زيارتي لأتوه وريام، الواقعتين في منطقته، غير ممكنه. وكان للتصورات التي طرحتها، ودعمها ظاهرياً بعض المشايخ، كان لها بعض التأثير عليه. وتمكنت أن أقضي ما تبقى من المساء في حوار مفيد، حول أعراف القبائل وعاداتها، التي سبق سردها أعلاه، وفي صباح اليوم التالي، الأحد، الموافق الثالث من فبراير، افترق عنا الأخوان أحمد ودحان مرح، دون أن يودعاني. واستنتجت من المشاورات السرية بين المشايخ، في اليوم السابق، أن هناك شيئاً ما في الأفق. وكنت قد أعلنت، بأن يوم الأحد سيخصص لزيارة الثلاث المناطق الأثرية، صرواح وأتوه وريام. وكانت مغادرة الأخوين مرح سبباً في استمرار المشاورات السرية بين المشايخ في هذا اليوم أيضاً، بحيث أننا لم نتمكن من الإنطلاق إلا في الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة ظهراً. ورافقني كل فرد في القرية، يمتلك بندقية أو رمحاً. وتوجهنا أولاً إلى صرواح، الواقعة في الشمال تماماً من بيت سنان. وكانت تابعة لمنطقة الشيخ عبدالوهاب. ورغم أنها كانت قد تجمعت فوق رأسي سحب سوداء من الهموم، فإن روحين نقيتين، كانتا تسيران بجانبي، شجعتاني وبعثتا حالة من الرضا في نفسي، أحدهما حميد، الذي أصر على أن يسير بجانبي، مع رمحه الضخم، والآخر ابن الشيخ عبدالوهاب الصغير، واسمه عبدالله، الذي كان يحمل البندقية بصعوبة. وسألتهما على سبيل

المزاح: ألا يخافان إذا ما حدث صدام مع رجال ذيبان. فكان الجواب: "أوه أفندي، إننا نذهب إلى كل مكان يذهب إليه أبوانا نحن عندنا قَبْيَلَة". وكلمة قبيلة تعني هنا تقريباً روح القبيلة وعاداتها، وهي تختلف عن كلمة قَبِيْلَة، التي هي مجرد اسم، تسمى به الجماعة. وفي الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة وصلنا إلى منطقة الآثار، وهي أضخم منطقة آثار رأيتها حتى الآن. وتوجد في جنوبها بركة كبيرة. وبين البركة وأطلال المعبد تعقد أرحب اجتماعاتها التشاورية. وهذه البقعة هي التي تسمى (هجر أرحب). ويبدو كما لو أن منطقة أتوه وريام لا تزال حتى اليوم تمثل مركز الحياة الروحية، أو على الأقل الحياة العسكرية في بكيل. فكما أخبرني الشيخ عبدالوهاب، يتجمع في منزله أعيان بكيل من كل المناطق، حتى البعيدة منها، عندما يتعلق الأمر بقضية مشتركة، تتطلب ذلك. ورغم كل الإجراءات الأمنية، فقد هرع آلاف العرب من المناطق المجاورة إلى المكان. ولم أستطع القيام بعملي الآثاري إلا بصعوبة، في حين كان المشايخ يعملون على تهدئه الجموع ومواصلة مشاوراتهم السرية. وعندما انتهيت من عملي، سألت عما إذا كان أحمد ودحان مرح قد عادا، فبدونهما تصبح زيارة أتوه وريام، اللتين لا تبعدان عن موقعنا سوى ثلاثة كيلو مترات نحو الشرق، تصبح نوعاً من الجنون. فأخبرت بأنهما ليس فقط لم يعودا، بل أيضاً وصل خبر سيئ من ذيبان، وهو أن السكان هناك قد احتلوا، منذ يوم أمس، المنطقتين أتوه وريام، وأعلنوا بأنهم سيستقبلونني بالرصاص، بل ويريدون الذهاب إلى أبعد من ذلك، فقد أعلنوا بأنهم سيأتون إلي في صرواح نفسها. وفي الحال أرسلت رسولاً إلى بيت الوشار، مركز هؤلاء المتمردين، يحمل إليهم التوضيح التالي: وهو (أنني لم آت إلى هذه البلاد لأسبب إراقة الدماء، وأنني أرغب قبل ذلك بالتحدث إلى مشايخهم، ليتأكدوا بأنني أكثر شخص مسالم في العالم، فحتى الإمام نفسه، لو كان يقيم بينهم لاستقبلني كضيف. وأخيراً لا بد أن يعرفوا بأنهم لو هاجموني، رغم ذلك في قريتي، فسوف يجدوني وأصدقائي مستعدين. وأن رأسي على كل حال بألف رأس من رؤوسهم). بعد ذلك ورد خبر بأن أحمد مرح، الذي كما يبدو لا يرغب في تدمير علاقته كلياً بالحكومة التركية، سوف يأتي إلينا في المساء. ومن الجدير بالذكر هنا أن المحرضين الفعليين هم بني مرح، ولاسيما فقيه حاج، اسمه شريان مرح، والشيخ هجام، وكلاهما تابعان متعصبان للإمام علناً. والآخرون أيضاً من أتباع الإمام، ولكن ليس بصورة علنية. وفي المساء أصبح الوضع أكثر حرجاً. فسكان مدر، التي لا تبعد بأكثر من كيلو مترين، نحو الجنوب الغربي، اتخذوا موقفاً عدائياً. ولم يكن أمامنا إلا أن نقرر العودة.

ولكننا أفلحنا في الحصول على مكان للمبيت في بيت قيس. وهي قرية تقع في منتصف الطريق، بين صرواح وبيت سنان. ولاعتبارات أمنية، اخترت لي مكاناً للمبيت في مبنى عال، على شكل برج. وأخذت معي بعض من توسمت فيهم الإخلاص واطمأننت إلى إمكانية الإعتماد عليهم. وكان يجب أن يقوم واحد منهم باستمرار بالحراسة في الردهة. وهكذا مر الليل هادئاً.

وفي صباح الإثنين، الرابع من فبراير، قدم إلينا أحمد مرح فعلاً، ترافقه مجموعة من العرب. ومن خلال حديثه حاول أن يخلق لدي الإنطباع، بأنه بذل كلما يستطيع، لينهي التمرد. وأنه ببساطة لايمتلك نفوذاً وتأثيراً على السكان. وكان واضحاً أن الذيبانيين غير مستعدين لاستقبالي. بل نقلوا مركز تجمعهم إلى أتوه القريبة. وما أمكن احرازه هو فقط أنهم صرفوا النظر عن فكرتهم السابقة في مهاجمتي في أي مكان، باستثناء أتوه وريام. وبعد مشاورات طويلة بين المشايخ، اتفقوا أن يذهبوا إلى المتمردين. وقد وافقتهم على ذلك. وبعد بضع ساعات عادوا وأبلغوني بضرورة التحرك فوراً إلى ظفار. فاستنتجت من ذلك أن الوضع تأزم من جديد. ولكن بقيت متماسكاً ودعوت المشايخ الكبار للتشاور، وواجهتهم بالقول، بأن هذا الموقف المتمرد من قبل ذيبان لابد أن تكون له عواقب وخيمة على أرحب كلها، وأن هذه العواقب لا يمكن تجنبها، إلا إذا قامت أرحب بإرغام ذيبان، بقوة السلاح، على الخضوع لإرادتها. وطلبت منهم، بناءً على هذا، العودة معي إلى بيت سنان، لكي نجهز هناك خمس مئة إلى ست مئه رجل من أرحب، ليتجهوا بعد يومين أو ثلاثة أيام إلى أتوه وريام. ولكن لأن القبائل في العربية الجنوبية ليس لديها سوى القليل من القَبْلَة، فإن اقتراحي لم يجد لديهم أي صدى.

وقررت لمواصلة الرحلة، ومراعاة اللياقة، أن أعطي لسكان ذيبان انذاراً، مضمونه أن عليهم أن يوضحوا لي خلال أربع وعشرين ساعة، فيما إذا كانوا يرونه موقفاً سليماً، أن يواجهوا موظف الحكومة التركية بالمقاومة، في بلاد تابعة للسلطان، وأنني مصمم تماماً، بعد مضي مدة الإنذار (٢٤ ساعة)، على أن أنقل الأمر إلى والي اليمن، الذي يعرف بالتأكيد كيف يجعلني أدخل منطقة ذيبان، خلال أربعة عشر يوماً. وأرسلت أحمد مرح ورفاقه بهذا الإنذار إلى ذيبان. كما بعثت إنذاراً مشابهاً إلى الشيخ الصباحي، شيخ بني سليمان. وأدركت لاحقاً أنني كنت على خطأ، بالنسبة للشيخ الصباحي. وبهذه المناسبة حدث موقف غريب. فقد كان أخو كبير المتمردين، شريان، واسمه حسين مرح، يرافقني، وهو الذي أوصاني الوالي، توصية خاصة، بأخذه معي. وعندما كان مشايخ ذيبان

لدي، باستثناء الحباري، الذي كان بينه وبين أحمد مرح صراع دموي، وأرسلتهم إلى منطقتهم، ليبلغوا إنذاري لقائد التمرد، ويحاولوا أن يقنعوا السكان بالطاعة، طلبت ذلك من حسين أيضاً، الذي امتقع لونه وشرح لي، أنه مع الأسف، لايملك أي نفوذعلى إخوانه هناك، وأنه أخبر الوالي بذلك، فإذا عاد الآن إلى ذيبان، فإن شريان سوف يقتله لا محالة. ولما شرح لي مشايخ آخرون، بأن حسين مطرود من قبل سكان ذيبان، رق قلبي قليلاً، وسمحت له بالبقاء في رفقتي، فأعلن لي بأنه مستعد أن يطلق النار على أخيه. وقد استقبحت هذا النوع من العرض، بطبيعة الحال، وقلت له: "حتى لو كان أخوك لصاً قاتلاً، لا يجوز لك أن تقتله". عفوك يارب، كيف أتقبل من يمكن أن يقتل أخاه. ومع أن الطريق إلى ظفار يمر عبر وادي حلحل، في منطقة بني سليمان، فقد نزلت عند رأي المشايخ، وأخذنا طريقاً ملتوياً، عبر شص الصريم وجربة بني علي، دون أن أعرف، بطبيعة الحال، ما كان ينتظرني من متاعب جديدة في هذه الطريق. وهي متاعب من المؤكد أن المشايخ أنفسهم قد رتبوها لي. وتمر الطريق من يسار صرواح، ثم عبر Haum Ga'a ، ثم Ga'a Madam، إلى قرية شص الصريم، التي وصلناها في الساعة السادسة مساء. وتقع هذه القرية في الشمال الغربي لريام. وأنزلنا الشيخ حمود أبو غانم لديه. وتنفست أخيراً الصعداء، بعد ما تحملنا من مواجهات. وارتشفت بلذة قهوة القشر، ودخنت النارجيلة باستمتاع. وبعث في نفسي نشوة حقيقية، منظر حميد الصغير، وهو في منزل والده، يخدم ضيوف والده، بتفان لا حدود له. وكلما وجد فسحة من الوقت، بادر إلى الجلوس بجانبي. لقد جعلتني حيويته وصفاءه أشعر بالارتياح. وعلى سبيل الهدية، أعطيته بوصلة ، أحدثت لدى كل الموجودين، دهشة واستحساناً كبيرين. وما أن أريته كيف يحدد اتجاه القبلة، حتى أخذ البوصلة سريعاً ووضعها في صدره بسرور، ووعدني بأنه منذ الآن سوف يحرص على أن يجعل كل واحد من أقاربه يصلي باتجاه مكة تماماً. وفي المساء استمعنا إلى قصيدة، ألقاها المزين، تتحدث عن قرى البون وهمدان وعيال سريح. وكان ممتعاً حقاً ما تضمنته من مقاطع ساخرة، عن مشايخ حاشد جميعهم. وفي المساء نفسه وصل إلينا أحمد مرح، يرافقه الشيخ أحمد الجباس، شيخ عيال سحيم، والشيخ حسين بن عبدالرحمن شريف، شيخ عيال بلخير، من أتوه، والشيخ قاسم نكيع من عيال بلخير. أما الشيخ دحان مرح فقد اكتفى بإرسال رسالة ولاء. وأبلغني الآن هؤلاء المشايخ، بأن منطقتهم مفتوحة لي، في أي وقت أشاء. وأن السكان غيروا موقفهم. فرددت عليهم بأنني سأتأكد من صحة كلامهم بنفسي، عندما أصل إلى ذيبان، التي سأتجه

إليها عبر ناعط. ولما كانت شص الصريم تبعد عن أتوه بما لا يقل عن خمس ساعات، إضافة إلى أن كلام العرب الجنوبيين لا يمكن الوثوق به دون تحفظ، فإنه من الطبيعي أن لا أفكر بالعودة إلى أتوه. واكتفيت مؤقتاً بدلاً عن ذلك بما حققته من نجاح، في تليين موقف سكان ذيبان. ونمت ليلتها نوماً عميقاً. فقد كنت مرهقاً، بعد يوم ظلت الأعصاب طواله مشدودة.

وفي صباح اليوم التالي، الثلاثاء، الموافق الخامس من فبراير، عقد المشايخ مشاورات سرية من جديد، ودعوني لحضور جزء منها. وكان الحديث يدور حول ظفار، حيث كان معالي عزت باشا قبل بضعة أسابيع قد أقام حامية فيها من بكيل (من أرحب وسفيان ومرهبة)، لتتصدى هناك لحاشد وللإمام شرف الدين، إذا حاولوا دخول أرحب، وهو ماكان يخشى منه. ولأنني قد وجدت أنصار الإمام في أوساط أرحب، في كل زاوية وركن، فقد كنت على ثقة من أن أرحب لا يمكن أن تقاوم الإمام، وأن الأمر، كما تذهب إحدى الروايات، وهو ما يبدو صحيحاً، يتعلق كلياً بالخطر الممكن من جهة حاشد، التي يمكن أن تتحرك بقصد الحصول على شيء من المال من الحكومة التركية. وقد أوضحت للمشايخ أن معالي الوالي ليس لديه نية لإحتلال ظفار. ولا شك أن أبسط قارئ يمكنه أن يدرك، أن مشكلة ظفار قد برزت بسببي. فمن خلال أحاديث ووصف، من قبل أحد مشايخ حاشد، قدرت أن ظفار هذه لا بد أن تكون منطقة أثرية حميرية مهمة. وبدأت بعد ذلك أستفسر عنها، كلما سنحت الفرصة. وهذا، كما يبدو، كان من شأنه أن ينبه الإمام ويشد اهتمامه بظفار، ويجعله يقرر تعزيز موقعه فيها، قبل وصولي إليها. وفي هذه الأثناء اهتم معالي عزت باشا أيضاً بظفار ، الذي أخبرته قبل أسابيع بنيتي في أن أزورها، اهتم بها واتفق، ربما أيضاً لأسباب أخرى، مع بعض مشايخ بكيل، وذلك قبل خمسة أسابيع على احتلال هذه المنطقة الأثرية. وأوضحت للمشايخ بأن اهتمامي بظفار ليس له غرض، سوى التعرف على ما فيها من آثار. وتحرك الشيخ أحمد حزام ردمان، قبل تحركنا بساعتين أو ثلاث ساعات. وهذا الشيخ هو من أسرة كبيرة في بني ردمان، ومن أعلى قبيلة في أرحب نسباً، وهو حالياً شيخ أرحب. وتحركنا في الساعة الحادية عشرة والنصف. وفوجئت مفاجأة مؤلمة، حين تعلل النقيب حمود (لا تستخدم القبائل لأعيانها لقب شيخ أبداً بل لقب نقيب)[297] بالمرض. وأخبرنا بأنه سيلحق بنا في اليوم التالي.

---

(297) قد يصح هذا على قبائل بكيل فحسب، أما قبائل حاشد فتستخدم لقب (شيخ).

وفي الساعة الثانية بعد الظهر وصلنا إلى قرية بني علي، بعد أن استمتعنا بمنظر بـــديع، عـــبر Ga'at Schems. وتوجه الجميع إلى المسجد، حيث يقتضي العرف أن لا يصل المرء مباشرة إلى منزل المضيف. أما أنا فقد أخذني النقيب أحمد حزام إلى منزله. وبعد دقائق لحق بنا بقية المــشايخ، الذين، كما يبدو، كانوا قد عقدوا جلسة تشاور أخرى فيما بينهم. ولاحظت غياب أهم شــخص بينهم، وهو الشيخ ناصر بن أحمد، الذي يتبعه قسم كبير من بني علي (سكان وبدو وادي حلحــل حتى ظفار)، الذين لا بد أن نمر عبر منطقتهم. لقد قابلنا هذا الشيخ قرب صرواح، وهو في طريقه إلى إحدى قرى ذيبان. وعندما طلب إليه عبدالوهاب أن يسير معنا، أقسم، بحـسب مـــا أبلغـــني خادمي، الذي استخدمته كجاسوس، يأتيني بالأخبار من كل مكان، أقسم قسماً مقدساً، بأنه لـــن يسمح لي بالوصول إلى ظفار. لقد تحاشى هذا الشيخ، الذي لا يوحي منظره بالارتياح، السير معنا، ولعله كان يطمع بشيء من المال.

ولم تكد تمضي نصف ساعة على وصولنا إلى قرية جربة بني علي، حتى انفجر صخب هائل في القرية. وكالعادة جاء من يطمئنني ويهون الأمر علي، كذباً وخداعاً، بالقول، بأن الأمر يتعلق بخلاف "بينهم البين". وعلى الفور أعطيت إشارة لخادميَّ ليتحققا من الأمر. فعادا إلي سريعاً يحملان خبراً مزعجاً، وهو أن القرية قد امتلأت بالمسلحين، من أصحاب الشيخ ناصر بن أحمد، الذين جاؤا من منطقة بعيدة يطالبون بتسليمي. وكان على رأس هذه الحركة أبناء أسرة مضيفي، بني ردمان. وهكذا اتضحت الخيانة كما اتضح حجم الخطر.

وبحذر وبرود أعصاب دعوت أحد الذين أوصاني الوالي باصطحابهم وأخذته جانباً، وطلبت منه أن يحدثني بصدق ووضوح، ووعدته بأنني سأقدم له في صنعاء أي خدمة يطلبها. فأوضح لي، أن إشاعة قد سرت في أوساط الناس، بأن المشايخ باعوا ظفار للحكومة التركية، بمبلغ سبعة آلاف ريال، وفي رواية أخرى خمسة وعشرين ألف ريال. وإضافة إلى ذلك فإن بني ردمان قد انتقضوا ضد الحكومة التركية، التي دمرت بالمدفعية بعض منازلهم في وادي لاعة. ولكن الأمر في حقيقته يتعلق بتوزيع النقود. ولم تقلقني النقطة الأولى ولا الثالثة. فالأولى ليست إلا مجرد حجة فقط. والثالثة يقف وراءها الشيخ ناصر بن أحمد، الذي يمكن عند الضرورة تليين موقفه ببضعة ريالات. ولكن الأمر يختلف بالنسبة للنقطة الثانية، الخاصة بما حدث في وادي لاعة، حيث كان بنو ردمان في الماضي يحكمون تلك المنطقة. ويقع وادي لاعة في غرب جبال مصانع. ويدخل جزء منه اليوم

ضمن المنطقة الإدارية التركية (حجة) والجزء الآخر ضمن الدائرة الإدارية التركية (الطويلة). وعندما احتل الأتراك الوادي، انسحب بنو ردمان إلى منطقة قبيلتهم أرحب. ولا أدري هل كان انسحابهم نتيجة لحرب أم لا. ومع ذلك بقيت منهم جماعة في وادي لاعة تعمل في زراعة البن. وفي جولتي الإستكشافية الثانية، تزامن وصولي إلى حجة مع انطلاق القائم مقام التركي، ومعه ضابط برتبة رائد، إلى وادي لاعة، لفض نزاع نشب هناك بين قبيلتين. ولم أهتم حينها بالموضوع. وحتى لم أعرف من هما القبيلتان المتنازعتان. والآن وقفت على الحقيقة المزعجة، وهي أن إحدى القبيلتين، وهي القبيلة التي تدخل الأتراك بقوة السلاح ضدها، هي الجماعة المتبقية من بني ردمان هؤلاء. وبحسب إفادة مضيفنا في جربة بني علي، أن طفلاً صغيراً للنقيب أحمد حزام، مع اثنين أو ثلاثة آخرين من بني ردمان، قتلوا في تلك الواقعة. وليس للعربي الجنوبي، الذي من طبعه النفاق والغدر، معرفة ولو ضئيلة بمفاهيم الصدق والعدل، فهو لا يسأل عما إذا كان الحق في تلك الأحداث بجانب بني ردمان، أم بجانب الأتراك. بل ببساطة ينتفض متعطشاً للتأثر. فالدم لا يمحوه إلا بالدم. هذا هو قانونه. والآن ها هو أحد الأتراك يقبع في وسطهم. وقد أدركت سريعاً بأن مشايخ أرحب، لم يقودوني إلى هذا المكان، إلا لكي يروي بنو ردمان غليلهم. كان الموقف حرجاً. في البدء دعوت النقيب أحمد حزام وانتحيت به جانباً، لكي أتحدث معه حديثاً جاداً. وأوضحت له أنني لم أعلم بما حدث في وادي لاعة، إلا هنا في بيته. وأنني مسرور، وربما أن هذا من حسن حظ بني ردمان، أن أكون هنا في وسطهم. فهم بالتأكيد لا يستطيعون أن يطلبوا من الحكومة أكثر من العدل. وإنني الشخص، الذي يمكن أن يحقق لهم مطلبهم. ولا يحتاجون إلا أن يشرحوا لي دعواهم ومطالبهم المسبَّبة، أو يحضروا معي إلى معالي عزت باشا، الذي هو مطلع على الحادث، وسوف يحقق العدل بنفسه. وإذا كان هذا الإقتراح لا يعجبهم، ويريدون قتلي، فإن هذا ليس في صالحهم، إذ سيلاحقون، ليس فقط في وادي لاعة، بل أيضاً هنا. ثم تركته. وبعد هنيهة من الوقت، أو عزت إلى رجل محل ثقة، هذا إذا صح أن هناك شخصاً يمكن أن يكون محل ثقة في أوساط العرب الجنوبيين (لقد جرب هذا الأمر اليوس جالوس)، أو عزت إليه أن يقوم بالوساطة وأن يخبره بأنني سأضمن رضا وعناية الحاكم العام بابن أخيه، الذي قتل والده، والذي لم يتجاوز بعد الخمسة عشر عاماً من العمر، واسمه محمد، على إسم أبيه، وكان أبوه سيصبح رئيساً على أرحب كلها. وكان لهذين الحدثين تأثيرهما. فقد أُحضر إلي في الحال محمد الصغير، وكان شاباً نجيباً، وتحدثت معه طويلاً.

وتفرقت جموع الثائرين. وفي المساء تصاعد صخب جديد في الشارع، كان مصدره رجلاً، وافق على المجيئ إلي. وعلى الفور أخذت أوضح له الأمر، فهو قبيلي وقد عرفت القبيليين في كل رحلاتي في العالم الواسع، كرجال حقيقيين، ولاسيما القبيليين العرب، ولا يليق بالرجل أن يثير القلاقل في الخفاء، بل يواجه عدوه وجهاً لوجه، في الكلام ثم بالجنبية والبندقية. ولذا فإني أطلب منه أن يتحدث بصراحة وصدق. هنا انتفض بطريقة إنفعالية، لا مثيل لها، مستعرضاً سجل الخطايا بقوله: "أنتم (الأتراك) أخذتم أرضنا منا ودمرتم منازلنا وقتلتم حتى أخي في وادي لاعة ...الخ، ....الخ". وساد الصمت في القاعة، ولم ينطق أحد بكلمة، دفاعاً عن موقف الأتراك. وكررت له ما كنت قد قلته للنقيب أحمد، وتمكنت بعد حوار طويل من تهدئته. ولما أحسست بأن الجو لم يصف تماماً، حولت الحديث إلى موضوع الصراع بين حاشد وبكيل، وهو الحديث الذي كان يخرجني دائماً من المآزق الحرجة. وهذه المرة أيضاً وجد الحديث تأثيره لديهم. وفي حوالي منتصف الليل أمكنني أخيراً أن أخلد إلى النوم، بقدر من الهدوء.

وفي اليوم التالي الأربعاء، الموافق السادس من فبراير، ظهرت مصاعب جديدة، فناصر بن أحمد وأصحابه من البدو كانوا لايزالون يرغون ويزبدون ويرفضون السماح لنا بالمرور عبر منطقتهم. وكان لا بد من البدء في حوار جديد، لم يصل إلى نتائجه المرجوة إلا في الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة بعد الظهر، حين وعد قادة الشغب، ومن بينهم ناصر بن أحمد، بأنهم لن يقفوا في طريقنا. فهبطنا إلى وادي حلحل وأقمنا في قرية عيال حسين. ولكي أهدئ هؤلاء البدو الخطرين بشكل نهائي، أوعزت بذبح خروف، ودعوت ناصر وكل أعيان البدو لتناول الطعام معي. وعلى المرء أن يتخيل ستة إلى ثمانية أشخاص شبه عراة، ذوي أجسام بنية وعيون وحشية وشعور وحشية أيضاً، لكي يدرك نوع هذه المجموعة، التي كنت أتناول الطعام معها. إنها حثالة لا تمتلك حتى مداعة أو شيء من القشر.

وفي اليوم التالي أردنا أن نتجه أخيراً إلى ظفار، ولكن طبيعة العربي الجنوبي لا تخفي نفسها. ففي الأمس كان مستقيماً وخاضعاً، واليوم أصبح مرتداً وخائناً. وكدت أن أستسلم لليأس. ومرة أخرى بدأت المشاورات والمفاوضات. وكما نقل إلي خادمي، كان الحديث يدور حول ترحيلي من ظفار إلى طرف الإمام، وهو أمر لو حدث ماكان بإمكاني منعه. وبعد مشاورات بينهم، استمرت ساعات، بدا كما لو أنهم اقتنعوا بأن تنفيذهم لمؤامرتهم الخبيثة، لن يحول بيني وبين زيارتي لهذه

المنطقة الأثرية. وهكذا واصلنا رحلتنا في نفس اليوم، الخميس، الموافق السابع من فبراير، إلى المحطة الأخيرة، التي أردت بلوغها في منطقة أرحب. وسرنا في وادي حلحل هبوطاً نحو الشمال، ثم انحرفنا نحو الشمال الغربي، لنقطع وادي شوابة، الذي تقع ظفار في ضفته الشمالية، بمسجدها المدهون باللون الأبيض وقبر أحد الأولياء، اللذين ظهرا أمامنا عن بعد. وفي الطريق شاهدنا أشجار دوم (علب) كثيرة، لها ثمار جميلة، استمتعنا بمرآها كثيراً. وهي أشجار برية كالطلح، المشابه لها في منظره. وكلاهما يشكلان مصدر الدخل الوحيد للسكان المتوحشين أيضاً، الذين يبيعون خشب الطلح للوقود وثمر الدوم، في سوق صنعاء وفي أسواق المدن الأخرى. ولم يتحقق أملي في الوصول إلى ظفار قبل ظهر اليوم. ولذا فقد أردت أن أجري بعض القياسات الفلكية، فصعدنا من أجل ذلك إلى الجبل أولاً، حيث وجدنا أمامنا رتبة[298] بكيلية. ولأنه لم يكن يوجد في الجبل مكان، يمكن المبيت فيه، ولا طعام، فقد قررنا أن نبيت، إما في أحد مضارب البدو القليلة، أوفي مدينة ذي بين الحاشدية، التي سيسمح هذه المرة لمن يرافقونني بدخولها، حتى بمن فيهم مشايخ بكيل.

أنهيت عملي الآثاري والجغرافي في الجبل، وهبطت، يرافقني جميع الموجودين من بكيل إلى حدود حاشد، حيث كان شيخ الحدود، مرشد الغزي، شيخ بني جبر، في انتظاري، بعد ما وصله خطابي، الذي أرسلته إليه من جربة بني علي. ولما كنت قد سمعت في صنعاء، ثم بعد ذلك في أرحب، أنه يعيش في ذي بين سيد، (من أنسال الرسول)، من بيت (أبو منصر)، متعصب جداً للإمام، وأن سكان ناعط، وهي منطقة أثرية، كانت موضع اهتمامي الكبير، لن يسمحوا لي، تحت أي ظرف، بدخول قريتهم، فإن مزاجي لم يكن رائقاً. وهذا أمر يمكن فهمه، إذا ما وضع المرء في اعتباره نوع الأخبار، التي يمكن أن تصلنا، على ضوء طبيعة وصفات قبيلة حاشد. وإضافة إلى هذا كله، كان حتى خادميَّ الإثنين قد بلغ بهما الضيق منتهاه، بسبب كل ما يدور، ولم يعد يمنعهما من الفرار إلا ما يتوقعانه من مكافأة كبيرة. وبما أن الرجوع إلى أرحب لا يقل خطورة عما يمكن توقعه في حاشد، فقد عقدت العزم، إذا ما تلقيت خبراً طيباً، مهما كان تافهاً، أن أدخل منطقة حاشد وأكمل عملي الأثري. وكان الهبوط إلى حدود حاشد عملية، هي أكثر العمليات، التي قمت بها في حياتي جدارة بالذكر.

---

(298) مجموعة حراسة مسلحة.

وبغض النظر عن المشاعر النهائية، التي سيطرت علي، فقد كنت شاهداً على لقاء الأخوة الأعداء. فمنذ الساعة الثالثة بعد الظهر، بدأنا نسمع عيارات نارية، منطلقة من الوادي، كإشارات لنا، بأن حاشد قد وصلت إلى الحدود، وأن علينا أن نسرع الخطا. وعندما لم يعد يفصلنا عن الحدود سوى حوالي كيلومتر واحد، بدأ إطلاق الرصاص من جانبنا، مع إبداء المرافقين ملاحظة، بأن حاشد لا يستحقون أكثر من رصاصة واحدة، وأن هذا الرصاص كثير عليهم.

وعندما أصبحنا بمواجهة عرب حاشد، لاحظت أنهم قد اصطفوا صفاً واحداً، ووقف في وسط الصف تماماً الشيخ والسيد. وكان عددهم ثلاثين رجلاً. وسرعان ما اصطفت مجموعة من بكيل، الواصلة، بالطريقة نفسها ، في صف مواجه، تفصله عن الصف الحاشدي حوالي عشر خطوات. في حين أنني، بعد أن قلت: "السلام عليكم أهل حاشد"، انتحيت جانباً وجلست. وساد الصمت للحظات على الجانبين. كان الحاشديون والبكيليون معاً يدركون أهمية هذه اللحظة. ولم يستطيعوا أن يكتموا حقدهم المتبادل، إلا بصعوبة. إذ أنهم لم يتقابلوا في الحدود بهذه الصورة السلمية، منذ معارك وادي خيوان.

أخيراً تقدم من وسط الصف الحاشدي شاب نحيل، وتحدث بصوت مرتعش: "قويتم، وعلمكم". فأجابه عبدالوهاب راجح: "الله يسلمكم". فقال الشاب، الذي اتضح فيما بعد أنه السيد يحيى أبو منصر: "نتخبركم". فرد عبدالوهاب: "منذ سرنا إلى لقائكم ما نعلم، وانتم علمكم؟" فقال السيد: "سلامتكم وقدامكم في لقاكم، حسب أمر الدولة العلية، وما نعلم شر". بعد ذلك انتهت مراسم الإستقبال القبلي. وبهذه الصورة يستقبل القبيلي القبيلي الآخر، أو القبيلة القبيلة الأخرى.

بعد ذلك كان لابد أن أقوم أنا بدوري، فقد كان شيئاً إيجابياً بالنسبة لي، أن الإخوة الأعداء، في مناسبة كهذه، لا يتحدثون مع بعضهم كثيراً. فبادرت إلى دعوة الشيخ الحاشدي، مرشد، وعبدالوهاب راجح، للجلوس معي. وحررنا الأوراق اللازمة. ومن ناحيتي استوضحت في الحال عن ذي بين وناعط. فكانت المعلومات عن ذي بين مطمئنة، ما لم يسارع السيد لإيصال الأخبار إلى الإمام قبل وصولي إليها. أما بالنسبة لناعط فلم يكن لدى الشيخ مرشد ما يخبرني به. وأعطيت أوامري فوراً بالتحرك إلى حاشد، قبل أن تتمكن المجموعات من تبادل الكلمات غير الضرورية. وهكذا تحركنا صعوداً في الوادي في صمت وهدوء. ولم أكن أعلم بعد، كيف سأعامل في هذه

المنطقة الجديدة، ولم تستطع هذه الأشكال الرثة، التي تحيط بي، رغم مظهرها الذي يوحي بالصدق والإستقامة، لم تستطع أن تحرك في داخلي مشاعر الثقة. ولم ترحني قليلاً سوى كلمات التشجيع اللطيفة، التي سمعتها من السيد يحيى، الذي زعم أنه كان يريد أن يراني في صنعاء. ومع ذلك لابد أن أعترف بأنها كانت تجيش في داخلي انفعالات عميقة. فتذكرت ما حدث لي في أرحب، وخشيت من المستقبل، الذي يمكن أن يكون أكثر سوءاً. وكان الفقر المخيف البادي على هؤلاء المحيطين بي من حاشد، والتفكير في وجودي في حدودهم الشرقية، حيث لابد للعودة إلى صنعاء، أو إلى عمران، من المرور عبر مناطق معادية،كل هذا منع في داخلي أي إحساس بالطمأنينة والتفاؤل. وأخيراً دخلنا في وادي ذي بين، في الشمال الغربي، حيث طلب مني مرشد أن أمتطي بغلي. وقد أوضح لي أنه لم يطلب مني ذلك من قبل لأنه أراد أن أبقى محاطاً بجماعته وفي مستواهم، دون أن أعلو عليهم خوفاً من غدر البكيليين، إذ أنهم غدارون، وقد يستغل أحدهم بروزي عالياً على ظهر البغل ويطلق رصاصة علي ثم يشيعون في صنعاء بأنني قد قُتلت في منطقة حاشد. أراحني هذا الإيضاح المزعج، أكثر مما يمكن أن تريحني كلمات التزلف والخضوع. وتقع قرية الشيخ في أعلى الوادي، خلف مدينة ذي بين، التي يتم الوصول إلى القرية عادة عبرها. وأوضح مرشد بأن المدينة، وهي في الواقع لم تعد تستحق اسم المدينة، لا يوجد فيها ما يخيف. ولكنها مسكونة من قبل عدد كبير من الفقهاء الخاضعين للإمام. ولهذا فمن الحكمة تجنب المرور عبرها. وقبل غروب الشمس بلحظات فقط دخلنا منزلاً لطيفاً، هو منزل مرشد الغزي، حيث وضعت في ديوان لا شبيه له، في خلوه من كل شيء. ولم يحضر إلينا أحد باستثناء السيد يحيى، مما جعلني أشعر بالإنقباض من جديد. وعلى مائدة طعام العشاء جلس معنا الشيخ مرشد وأولاده الثلاثة، شبه العراة. ولم يدر حديث كثير. فحتى مرشد، ذلك الرجل الصغير الحجم واسع العينين، كان يبدو أنه لم يعتد على شخصي بعد.

وبعد العشاء حضر السيد يحيى وصهر مرشد، وأصبح الحديث أكثر حيوية. ووجدت نفسي في دائرة الحديث، عندما أخبرني السيد يحيى بأن أربعة من عرب سفيان ألقي القبض عليهم في الوادي، حيث كانوا يريدون قتلي، وقد جردوا فوراً من أسلحتهم. ولم ينقذهم من الموت المحتم، الذي ربما لم يكونوا يستحقونه، إلا طلبي وبإلحاح بأن يتم إيصالهم إلى الحدود، ليذهبوا دون أن يمسهم أحد بأذى. وأبلغني المعتقلون شخصياً بأنهم كانوا يريدون الذهاب إلى ذي بين للتسوق.

وسلمت فوراً بصحة هذا الكلام، دون تردد، رغم أنه في الوقت الراهن لا توجد أية اتصالات بين هاتين الجماعتين القبليتين.

ولكي أحسن وضعي، أوضحت للجميع، بأن البكيليين لن يدخروا وسعاً بالوشاية في صنعاء بشعب حاشد الشجاع، وسيستخدمون كل الوسائل للغدر بي خلال إقامتي في أرض حاشد. وكان الرد على النحو التالي:"أوه أفندي نحن نعرف تماماً أن بكيل تسعى إلى التأثير على المارشال وإقناعه بالقيام معهم بمهاجمتنا. لقد سحقنا رؤوسهم في وادي خيوان تماماً. وبدلاً من أن يثأروا برجولة وقبْيَلة، أخذوا يدسون ويتآمرون علينا، لدى الأتراك. إن طبيعتنا ليست كاذبة كالبكيلين، ولهذا لا نستطيع أن نبقى باستمرار ندور حول المارشال ونتحذلق أمامه". اكتفيت بالرد على هذا الكلام بالقول: "رغم أن لي وظيفة أخرى مختلفة تماماً، فإنه ليس لدي ذرة من الشك في أن المارشال سوف يسألني عن طبيعة وولاء كلا القبيلتين، ولاسيما أنني الوحيد منذ سنوات، الذي وصلت إلى منطقتكم. ولأنني لست حاشدياً ولا بيكلياً، فإن حكمي سيكون مقنعاً، لأنه حكم شخص لا ينتمي إلى هذه القبيلة أو تلك. وبالطبع لا بد أن أوكد أن بكيل سمحت لنفسها ببعض الأعمال ضدي". وفي هذه اللحظة كاد لساني أن يلهج بالثناء على عزت باشا، الذي أفلح بطريقة حاسمة، أن يشق عصا هاتين القبيلتين، اللتين قاومتا الأتراك متحدتين، ويحدث بينهما انقساماً عميقاً، ويجعل كل منهما تخطب وده، وتسعى للحصول على مساعدته. ولا بد أن أعترف بأنني، منذ بدء رحلاتي في الشرق، لم أر ولو مرة واحدة عملاً دبلوماسياً عظيماً كهذا. وفي المساء وصلنا خبر بأن عرب بكيل قد فجروا بالبارود سمسرة[299] في مدينة حوث الحاشدية. وكان هذا العمل الإجرامي موضع استنكار الناس جميعاً، ولا أستثنى نفسي منهم. وفي الليلة نفسها قمت بإرسال خطابين مستعلجين، أحدهما إلى صديقي القائم مقام في عمران، ومعه الضابط برتبة رائد، المرافق له، أطلب منه أن يوافيني بآخر الأخبار إلى ناعط، التي تقع بالقرب من عمران، ولكن ليس بينهما علاقة. والخطاب الثاني إلى عرقة القديمي في الصَّيَد، إلى الشيخ علي مثنى القديمي، أطلب منه فيه أن يأتي لأخذي، لأنني أريد أن أزور آثار ناعط، التي تقع في منطقته. ورغم أن المسافة بين عرقة القديمي وبيت الغزي تبلغ مسير سبع إلى ثمان ساعات، فقد طلبت من الرسول أن يعود في ظهر اليوم التالي،

(299) بناء من طابق واحدة يترل فيه المسافرون.

الجمعة، الموافق الثامن من فبراير. ووعدته إذا نفذ أوامري أن أعطيه مكافأة مالية. بعد ذلك مددت المداعة إلى صديقي الجديد مرشد قائلاً بقوة: "جبا". وتعني (تريد)، فأخذها، كما هي العادة لدى قبائل عرب الجنوب، ورد بقوة أكثر: "إكرمه". وتعني أنه شرف لي أن أخذها(300). ثم أخذنا نتسلى لبعض الوقت، بالحديث حول التوراة والأنساب. ومن الغريب أن الحديث قد تطرق إلى جنس القرود، التي لم أكن أعرفها حتى ذلك الحين، وأنها موجودة أيضاً في المنحدرات الشرقية لجبال السراة.

وفي اليوم التالي، الجمعة، الثامن من فبراير، قمت بتحديد خطوط الطول، ثم قضيت بقية الوقت في الإستفسار عن سكان المنطقة، وزراعتها وقوانينها القبلية ...إلخ. وبعد الظهر، في الساعة الثالثة، وصل الرسول من عرقة القديمي. وكان منهكاً من السير السريع، وسلمني رسالة من الشيخ علي، يقول فيها، إنه سيقابلني في يوم السبت، على حدود المنطقة. إن من أعراف العربية الجنوبية، أنه لا يجوز لأي شيخ أن يتعدى على سيادة شيخ آخر من جيرانه. وتعتبر المرافقة (رفيق الجنب) جزءاً من السيادة، التي لا يمكن أن تمتد إلى مناطق المشايخ الآخرين. ولكي يضمن الشيخ مرشد أن لا يحدث لي مكروه في منطقته، قام بإرسال رسائل إلى كل نواحي منطقة جبر. فما أن جاء المساء حتى توارد حوالي مئة وخمسين رجلاً من تلك النواحي، وصلوا للترحيب بي، على أثر استلامهم رسائل الشيخ مرشد. ولابد أن أعترف، بأني وسط هذا الجمع من الناس، شبه العراة، بقيت منقبضاً بعض الشيء. فتركت للسيد حسين أبو منصر مهمة تبادل الحديث مع الحاضرين. والسيد حسين هذا له علاقة جيدة بالحكومة. وهو دبلوماسي ماكر، يحسن التعامل مع القبائل ويتقن المناورة وحبك المؤامرات. وبعد أن انسحب ذلك الجمع، الذي لم يُقدم له شيئاً إطلاقاً، خلدت إلى النوم، فنمت نوماً عميقاً حتى الصباح.

وبعد تناول طعام الصباح البسيط، المكون من هريش وسمن، انطلقنا، في الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة. وكان يرافقنا ونحن نسير في وادي ذي بين عشرون مسلحاً. وعندما اقتربنا من الوادي الكبير، الذي يتصل بوادي ذي بين سمعنا طلقات نارية، ثم لاحظنا، على كل المرتفعات المطلة على الوادي، شديد الإتساع، مجموعات من العرب. فأشار إلي الشيخ مرشد بكل اعتزاز، أن

(300) تفسير خاطئ، فجبا تعني: تفضل أو خذ. واكرمه تعني: إعطه اللهم بسخاء.

هؤلاء هم أبناء عصبته، الذين جمعوا جمعهم، لمنع أي هجوم محتمل من قبل سفيان ومزهبة، الذين يستطيعون أن يتسللوا وسط الصخور البازلتية السوداء، التي تغطي الوادي كله حتى قاع البون. وتسمى مثل هذه المنطقة غير المزروعة وغير المسكونة (الفيش). ومن هنا حتى منطقة بني جبر، قام هؤلاء الحاشديون الشجعان بعمليات حراسة واستطلاع مستمرة. وباعتبار أن المنطقة غير مأمونة، كانوا يحتلون كل مرتفع من الأرض وكل منحنى، قبل، وصولي إليه. كان أمراً موثراً، و في الوقت نفسه ممتعاً، رؤية أبناء هذه القفار الشجعان وهم يتسلقون بخفة القطط، أكثر الأماكن الجبلية انحداراً ووعورة. ولم يكن من الصعب علي أن أتبين سريعاً أنهم في الحرب مقاتلون خطرون. وبعد مسير ساعة وثلاثة أرباع الساعة في الفيش، وصلنا إلى حدود بني جبر، حيث استرحنا عند برج حراسة. وهناك برج آخر يتبع منطقة الصيد، والمنطقة الواقعة بينهما هي عبارة عن ساحة حرب بين العشيرتين، كلما نشب نزاع بينهما. وهذه المنطقة الوسط هي منطقة محايدة، ولا يجوز تخطيها حتى وقت الحرب.

ورغم الرصاص، الذي أطلق عند وصولنا، لم يظهر الشيخ علي مثنى القديمي. وخطر ببالي أنه ربما، نظراً للمقاومة في ناعط، فكر في الأمر وفضل عدم المجيء. وكان علينا أن نفكر بوسيلة للوصول، على الأقل إلى عمران. فالمرور عبر منطقة الصيد، مع مرافقين من طرف مرشد أمر غير وارد، لأننا عندها يمكن أن نذبح جميعاً. وبقي الأمر معلقاً بالسيد حسين والشيخ مرشد، اللذين يستطيعان تقديم المساعدة في كل الظروف. لقد انتحيا بي جانباً وطرحا علي الإقتراح التالي: نقوم بصرف كل العرب الذين معنا، ماعدا عشرة من ذوي الشكيمة القوية. هؤلاء العشرة نتحرك معهم إلى أقرب قرية من قرى جبر ونعلن للناس هناك رغبتنا في أن ننتظر في تلك القرية قدوم الشيخ علي مثنى في اليوم التالي. وفي الليل نخبر أهل القرية أننا نريد العودة إلى بيت الغزي، ثم نأخذ طريقنا نحو عمران، عبر منطقة الصيد، في جنح الليل. ولن يأتي الصباح إلا وقد تجاوزناها، دون أن يتنبه أحد لذلك. وما أن بدأنا نعد أنفسنا لتنفيذ هذه الخطة القبلية، حتى لعلع الرصاص. وتعالت الأصوات من كل جانب، مرددة: "هؤلاء أصحاب علي مثنى". وبالفعل لم يخطئ تقديرنا. فبعد دقائق قليلة وصل أصحاب علي مثنى، من اتجاه آخر لم نتوقعه. لقد كانوا ثمانية أشخاص، ولم يكن بينهم علي مثنى.

وبعد تبادل التحيات القبلية، قدم أحدهم نفسه باسم شعلان، ابن الشيخ علي مثنى، ثم قدم لي في نفس الوقت الشيخ ثابت حرمل، الذي لابد أن نبدأ الآن طريقنا بالمرور بمنطقته. ووضع شعلان حداً لاستغرابي عدم حضور الشيخ علي مثنى. فأوضح لي أن والده وصل معهم وقت الظهيرة إلى الحدود، وظلوا يبحثون عنا، ولم يجدونا. ولأن والده مصاب في رجلية بالروماتيزم ولا يستطيع حتى أن يركب بغلة، فقد جلس ينتظرنا في الطريق، على بعد حوالي كيلومتر من هنا، وأرسل بدلاً عنه شعلان وثابت. وفي الساعة الثالثة وخمسين دقيقة ركبنا، بعد أن ودعت الشيخ مرشد ورفاقة، وداعاً قلبياً مؤثراً، وهم يهزجون أهازيج قبلية رائعة.

وبالفعل، بعد وقت قصير وصلنا إلى الشيخ علي مثنى، وكان في حالة سيئة، يرثى لها. كانت ملامح وجهه الوحشية وملابسه، الأكثر وحشية، تعطي انطباعاً غريباً. وبدالي، وهو يستند إلى عصاه ويتقدم نحوي خطوات، ليحييني وهو يعرج، كما لو أنني أرى أمامي عفريتاً من الجان. ووجدته الآن أيضاً، بصراحته المعهودة وبساطته، كما كان حينها في عمران، عندما كان لا يريد أن يكترث بالوالي ولا بالقائم مقام. مع فارق واحد، وهو أنه الآن ينظر، لاسيما إلى المارشال والدولة العلية، باحترام أكبر. وأما بالنسبة لي شخصياً فقد خلع علي، من قبيل الإحترام، لقب (باشا). وحتى أستكمل وصف مظهره، لا بد أن أضيف أن كفه كانت مشققة، حاله في ذلك حال الكثير من العرب الجنوبين، كمظهر دال على الصراع الأزلي (مع ظروف الحياة).

وفي الطريق إلى ناعط، التي تتجه نحو الجنوب تماماً، قابلنا رسلاً، كنا أرسلناهم من بيت الغزي إلى عمران، عائدين، يحملون جواباً من صديقيَّ في عمران، اللذين سبق أن ذكرتهما. ومضمون الجواب، أنه لا توجد في عمران أية أخبار، عن الأحداث في حاشد. عبرنا باب المنقدة و**Ga'at Schems** وانحرافنا الآن نحو قاع حيس، حيث استطعت أن أشاهد جباً قديماً رائعاً ومقبرة حميرية. ثم واصلنا سيرنا على الجهة اليمنى من القاع، محافظين على اتجاهنا نحو ناعط. وفي الساعة السادسة وعشرين دقيقة وصلنا إلى قرية ابن حاجب، ونزلنا في بيت بسيط، هو بيت الشيخ ثابت حرمل. ومن هذه القرية، الواقعة تماماً في الشرق من ريدة، كان ينبسط أمامنا قاع البون. ولايمكن أن تكون مشاعر الفرح والسرور لدى بني إسرائيل، وهم يشاهدون الأرض المباركة[301] لأول مرة، أعظم مما لدي الآن. فقاع البون هو أرض حكومية، ويسميه الحاشديون،

---

(301) يقصد فلسطين.

باحترام كبير، (الأمان). وكان مضيفنا ثابت حرمل رجلاً متيناً، في حوالي الخامسة والأربعين من العمر، حول وجهه لحية قصيرة وكثيفة، ويعطي منظره انطباعاً مريحاً، كمحارب شريف، لايبدو أنه يعرف الخطأ. ويجب أن أعترف بأني خلال إقامتي كلها في حاشد لم أجد إلا رجالاً طيبين، وإن كانوا غير متحضرين، لكنهم منفتحون وصريحون، لا يعرفون سوى حياتهم العائلية وفلاحة الأرض، وبالطبع وقبل كل شيء الحرب، وحالياً أيضاً حرفة النهب. ومضى المساء على أحسن وجه. وحاشد، مقارنة بأرحب، متشبعة بالروح القبلية أكثر من أرحب. وهذا يفسر لنا أننا حتى اليوم نجد في أوساطهم شعراء حقيقيين، بأعداد كبيرة. وقد ألقيت علينا عشر قصائد على الأقل. من بينها قصيدة نارية، تحكي معارك وادي خيوان. وتسرد بفخر أعمال البطولة، التي قام بها كل عاقل من العقال. وكان وجه علي مثنى يشرق وتنبسط أساريره، وهو يستمع إلى المنشد يذكر اسمه ويعدد بطولاته. ويمكن القول دون مبالغة إن هذه القصائد الرائعة تفوق في روعتها القصائد الشهيرة لنشوان وقدم وسعد. رغم أن ناظمها ليس سوى قبيلي بسيط نصف عاري. لقد أثرت فيّ تأثيراً طيباً. وأحسست في هذه اللحظة بمشاعر إنسانية تجيش في صدري، وبأسى لهذه المخلوقات البائسة، التي لا تدرك أن يوم خيوان، الذي تفاخر به، يهدم استقلالها ويحولها، هي وغيرها من القبائل العربية، إلى مجرد رعية للحكومة التركية. إنهم بالطبع لا يعرفون القول اللاتيني المأثور (فرق تسد)، الذي يوجد له نصير ميكافيلي في صنعاء[302]. لقد عرضت على الشاعر بقشيشاً، إذا هو كتب لي قصيدة خيوان وأحضرها إلى صنعاء.

وفي صباح الأحد، العاشر من فبراير، انطلقنا باتجاه ناعط. وكان منشد القصائد قد أخبرني، أن بإمكانه أن يريني نقشاً حميرياً رائعاً، مقابل مبلغ مالي زهيد (حق القهوه)، وذلك على جبل تنلين القريب (الأكليل، للهمداني، سماه تلين). ولذا صعدت أولاً ذلك الجبل. وفعلاً وجدت في منتصف المنحدر قطعة صخرية، سُوي أحد وجهيها ومُلئ بأروع وأكبر نقش عثرت عليه حتى الآن. يتكون النقش من ستة وتسعين كلمة، سليمة كلها، لم يمح منها شيء. لقد كان نصباً حميرياً مكتملاً. وبعد أن نسخته، إضافة إلى بعض النقوش الصغيرة، التي كانت بالقرب منه، صعدت إلى قمة الجبل الشمالية، لأشاهد قبر الولي خالد، الذي لا يزال الحاشديون حتى اليوم يقدمون له الأضاحي. واتضح أن هذا القبر، كغيره من قبور الأولياء، التي لا تزال تقدس حتى اليوم، في مناطق الجبال

---

(302) هذه لحظة صدق نادرة، لعلها وليدة، المحيط الإنساني البسيط والصادق، الذي وجد جلازر نفسه فيه، في مناطق حاشد. فلم يتمالك أن عبر عن الأحاسيس الإنسانية، التي غمرته وأنطقته بما لم ينطقه طوال رحلته.

اليمنية، وترجع إلى عهود ما قبل الإسلام، اتضح أنه ضريح حميري، يرجع إلى زمن قديم. وكنت سعيداً، بتمكني من نقل بعض النقوش، التي وجدتها أيضاً بالقرب منه. وربما أتمكن، في مقال آخر، من تقديم عرض مفصل للنتائج الآثارية لهذه الرحلة، التي قمت بها في أرض قبيلتين حميريتين أصيلتين، مكتفياً اليوم بوصف مسار الرحلة نفسها.

كانت الجماعة التي رافقتني قد تحركت إلى قرية الهجر **El Hadjar**، لانتظاري هناك، وبقي برفقتي الشيخ ثابت وعدد من العرب. وعند الظهيرة وصلنا إلى قرية الهجر، وهي قرية تتبع الشيخ ثابت. وتقع في أعلى وادي **Fogam**. وجلسنا أولاً تحت صخرة ضخمة، ننعش أنفسنا بالقشر والمداعة. ونظراً للأخبار، التي تواردت إلينا من قبل، حول وجود مقاومة عنيدة لدى سكان ناعط، بعثنا من هنا رسالة إلى أكبر ثلاثة من أعيانهم، الذين يقومون بدور العاقل، نظراً لعدم وجود شيخ في منطقتهم، نطلب منهم الحضور إلينا. ولكنهم لم يستجيبوا لطلبنا. وأوضح لنا رسلنا بأن إشاعة قد انتشرت في ناعط، بأنني وزعت في أرحب ست مئة ريال، وأن السكان في ناعط يرون أن آثارهم أهم من كل آثار أرحب. ولما كان قد تجمع عندنا في هذه الأثناء عدد كبير من عرب المناطق المجاورة، فقد رأيت من المفيد أن أتحدث معهم أولاً. وهكذا شرحت لهم، أنه من الواضح أن هذا الهراء، حول الست مئة ريال، أوصلته إلى سكان ناعط أرحب نفسها، كنوع من الدسيسة. لأن أرحب تتمنى أن يتم منعي، ولو في منطقة واحدة من مناطق حاشد، أو تُرتكب بحقي أية جريمة. ثم أوضحت لهم، كيف تصرف هؤلاء البكيليون في أرحب ضدي، تصرف الخونة. وسرعان ما أكد الشيخ هذا الأمر، بطريقة مقنعة، معززاً تأكيده بقوله، إنه بمجرد دخولي أرض أرحب، بعث بجاسوس يجمع له كل الأخبار. وعندما عبرت له عن شكي، بأن يكون قد بعث من جماعته أحداً إلى أرحب، دون أن يكون قد قتل. وضح لي أنه يعتبر هذا نوعاً من المجاملة للضيف، لتأكيد صدقه في مايقول، وأنني لم أعد بحاجة الآن لأن أقول شيئاً. أعطى الحديث تأثيره في الحاضرين، بصورة لا يمكن وصفها، وبدأوا يرددون: "هؤلاء الكذابون يا أفندي من بكيل يريدون أن يدمروننا. أنت في حاشد ولن يعيق عملك أحد من حاشد. نحن سنقف جميعنا معك". بعد ذلك طلبت من أكبر أعيانهم أن يتوجهوا إلى ناعط ويوضحوا الحقيقة لسكان تلك القرية. وأفهمتهم بأن حاشد كلها ستكون مسؤولة عما يحدث في ناعط.

وحتى أجعل المحادثات مع سكان ناعط أكثر يسراً، ولكي أبرهن لحاشد أنه يهمني أن يكون موقفها طيباً، لأستطيع أن أقدم تقريراً جيداً عنها، أعلنت بأنني مستعد لذبح ثلاثة خرفان لوجبة العشاء، وتقديمها لسكان القرية. وبعد حوالي ثلاث ساعات، حضر إلينا أربعة أو خمسة من أعيان

ناعط. وبادرهم الشيخ علي بكلمات قاسية، أعطت تأثيرها المناسب: "إستغفروا الله ورسوله، ألستم قرية من قرى حاشد؟". وتحدد صباح اليوم التالي، الإثنين، الحادي عشر من فبراير، للتوجه إلى ناعط.

وهكذا ركبنا في الصباح وانطلقنا، ونحن نشعر بالرضا، إلى قرية الشيخ علي، عرقة القديمي. وخلال الطريق، عندما عبرنا من قرية لجام، حيانا جمع كبير من العرب بحماس، وقالوا لنا : "نحن لسنا من ذيبان يأفندي".

وقدم إلينا رسول من ناعط، أخبرنا بأن المقاومة لاتزال قائمة وأن من الأفضل التمهل، حتى يأتينا رسول آخر. وجاء الرسول الآخر فعلاً، في حوالي الساعة العاشرة قبل الظهر. وبمصاحبة الشيخ علي وشعلان وثابت، مع حوالي ثلاثين مسلحاً من قرية عرقة القديمي (فلم يكن في القرية مسلحين أكثر من هؤلاء)، تحركنا نحو ناعط. وقبل وصولنا قرية ناعط قدم إلينا اثنان أو ثلاثة من الأعيان، يعلنون لنا تخليهم عن مقاومة دخولنا القرية. فواصلنا في الحال ودخلنا القرية، واتجهنا مباشرة إلى الجب الحميري لمشاهدته. وتمكنت أن أنسخ نقوشاً فيه. وكان كل سكان القرية قد تجمعوا حولنا. وفي الجب وجدنا ما يسمى (عصية) مكونة من عمودين ضخمين، لا يزالان سليمين حتى اليوم. وعندما كنت مستغرقاً في نسخ أحد النقوش، أخذ الجمهور، بتحريض، كما كان واضحاً، من بعض الأعيان، أخذ يهدد بأنه سيقتلني في نفس المكان. وفي ثوان كانت قد أحاطت بي عصبة الشيخ علي وبدأت تتشاجر مع السكان، في حين أخذت أكمل عملية النسخ، لأنه لم يحدث إطلاق رصاص.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن العرب الجنوبيين، إذا كانوا من أبناء القبيلة نفسها ، ولاسيما في حاشد، يبدأون خصامهم أولاً بالكلام، ثم بعد ذلك بالحجارة. ولا يلجأون إلى البندقية والجنبية إلا في أسوأ الأحوال. أما مع الأغراب فيستخدمون السلاح فوراً. وما كدت أنهي نسخ النقش حتى شعرت بأخي الشيخ علي يمسك ساعدي بقوة ويقول لي: "يالله يا أفندي، لا بد أن تغادر هذا المكان، إننا ضعاف جداً، وسوف يبدأ الطعن، فالكل مستعد لو حدث القتال". فانسحبنا قليلاً وتركنا للشيخ علي والشيخ ثابت مهمة تهدئة السكان، ولو للحظات. أما أنا فقد كنت محاطاً بحوالي خمسة وعشرين رجلاً، وكأني واقف وسط مربع. وأفلحت عملية التهدئة. وبعد ربع ساعة،كنا نواصل جولتنا ونتجه نحو المسجد، حيث تمكنت من نسخ عدة نقوش. ومرة أخرى عاد الصخب ليأخذ بعداً آخر. وحتى الأعيان هذه المرة وجدوا من الأفضل لهم أن ينسحبوا، وأصبح من الصعب الكلام. وأوضح لي الشيخ علي بأننا هذه المرة سننتهي كلنا. وقام سريعاً بإرسال

رسول إلى قرية لجام وإلى القرى الأخرى القريبة، ليأتي رجالها. واقترح، إما أن ندخل المسجد ونبقى فيه، حتى تأتي التعزيزات، التي لن تتأخر عن نصف ساعة، أو أن نلوذ بالفرار. وقد فضلت الخيار الثاني، إذ أن المسجد عبارة عن مبنى صغير جداً، ولا يمكن الصمود فيه. وما أن عرف العرب أنني قد فررت، حتى هدأت روح العداء لديهم. ولم يكن قد حدث مكروه لأحد، باستثناء تبادل بعض الطعنات الخفيفة المحدودة. وعلى بعد ثمان مئة متر من القرية توقفت، مع مرافقيّ الأوفياء. وسرعان ما اندفع نحونا عدد كبير من العرب، ولكن بروح أكثر مسالمة، بحيث أننا تجرأنا على مفاوضتهم من جديد. ولما لم ينفع الحوار ولا محاولة الإقناع، أمام عنادهم القبلي، استشطت غضباً، ووقفت موجهاً حديثي إلى العرب المجتمعين: "ياسكان ناعط، إن ما عملتموه كان جريمة سوف تندمون عليها، وستندم حاشد كلها. إن هذه هي بلاد السلطان، وإنني لم آت إليكم لألتمس منكم السماح لي بدخول قريتكم، وإنما جئت ومعي أمر بذلك، وأنتم تعرفون بأن الوالي موجود في صنعاء. سأترك لكم أربعة وعشرين ساعة، لتفكروا في موقفكم. فإذا لم تأتوا بعد أربع وعشرين ساعة إلى قرية عرقة القديمي، لتأخذوني، فسوف أعود إليكم بعد أربعة عشر يوماً. وعندها سوف أزور وأدرس كل الآثار القديمة والحديثة". و أذهلهم كلامي هذا. ورأيت من الحكمة أن أؤخر مكاني مئة خطوة إلى الخلف، حيث كانت مجاميع الدعم قد وصلت. فهناك سأكون آمنا. وفي هذه الأثناء نبهني الشيخ علي إلى عدم اللحاق به وعدم الإستعجال في ترك ناعط، حتى يعرف السكان خطأهم ويدعوني، دون إزعاج، أكمل عملي حتى نهايته، ولو فقد هو حياته خلال ذلك. وهكذا توجه عائداً إلى ناعط ومعه المتمردون. وبعد حوالي نصف ساعة بعث إلي رسولاً يخبرني بأن جميع الأمور قد رتبت وأنني أستطيع العودة إلى القرية. فاصطحبت معي خمسين مسلحاً، وطلبت من بقية المسلحين أن ينتظروا في مكانهم، ويقتحموا القرية عند أول مؤشرات، تدل عن وجود صخب فيها. وأمام القرية وجدت الشيخ علي، مع كل المتمردين. وأخبرني أن سكان ناعط قرروا البقاء خارج القرية. حتى أنتهي من عملي. فقبلت هذا القرار بطبيعة الحال فوراً، ووجهت إلى المجتمعين الملاحظة التالية: "لو سمعت بكيل بتصرفكم الممتاز هذا لخرجت من جلدها، من شدة الغضب". وباشرت عملي دون أي إزعاج، وما أن جاء المساء، حتى كنت قد انتهيت منه. وتوجهت، وسط أهازيج مرافقيّ العرب المرحة، إلى قرية عرقة القديمي. وفي الطريق أثنيت على موقف الشيخ علي ووعدته بأني لن أتوانى عن إيصال موقفه هذا إلى أعلى المراكز. وقد وفيت بالطبع بهذا الوعد.

وفي يوم الثلاثاء، الثاني عشر من فبراير، بدأت، وبرفقتي الشيخ علي رحلة العودة إلى صنعاء، عبر ذيفان في عيال سريح، وضروان في همدان، حيث وصلنا صنعاء في ظهر يوم الأربعاء، الثالث عشر من فبراير. وتخليت عن زيارة خمر، التي كان شيخها غير موجود، فقد دخل صنعاء لمتابعة

مشكلة حاشد وبكيل. وكذا فضلت أن لا أجعل طريق العودة عبر أراضي أرحب، ليس فقط لمجرد أنني أردت اتباع مشورة معالي الحاكم العام فحسب، بل أيضاً لسبب أهم، وهو أنني كنت قد سمعت في حاشد بأن عرب بكيل قد غادروا ظفار وتوجهوا لفتح مفاوضات مع الإمام.

كانت هذه الرحلة، التي قمت بها خدمة للعلم، والتي ستتبعها رحلات أخرى، إلى كل المناطق الحميرية، كانت لها، كما كانت لرحلاتي الأخرى، التي قمت بها حتى الآن، نتائج على درجة عالية من الأهمية، سواءً بالنسبة لعلم الآثار أو بالنسبة لعلم الجغرافيا. ولكنها أثبتت في الوقت نفسه، بأن الرحال في هذه المناطق لا بد أن يواجه مصاعب جمة، وأنه يجب أن يكون عليماً تماماً بأوضاع وظروف هذه المناطق، إذا أراد أن لا يسقط في الأيام الأولى، ضحية لطموحاته. لقد رأيت أن من واجبي هنا أن أعرض كل الوقائع، بأمانة وببساطة. ولا بد أن أشير بشكل خاص، إلى أن نجاح هذه الرحلة يعتبر نصراً للسياسة التركية، التي تجد حالياً أفضل تمثيل لها في شخصية الحاكم العام، المارشال عزت باشا، الذي يتصف بأعلى درجات اللباقة والمرونة، والذي وقف إلى جانبي في كل رحلاتي. ولذا يسعدني أن أوجه ليس فقط باسمي، وإنما أيضاً باسم العلم، أسمى آيات الشكر للحكومة التركية ولممثلها، بصورة خاصة، للدعم الكريم والتفهم الذي منحوني إياه. وليكن العلم في الغرب على ثقة بأنني لن آلو جهداً في متابعة أبحاثي الآثارية، لآثار العربية الجنوبية، بوعي وبرباطة جأش، مستفيداً من الظروف المتاحة، التي غالباً ما تكون بطبيعتها شديدة التعقيد، ثم تتحول فجأة إلى نقيضها. ولأن مصلحة العلم ومصلحة الحكومة التركية العلية، في العربية الجنوبية، ملتقيتان، فإنه يسعدني سعادة كبيرة أن أسهم بقوة في تحقق علاقات طيبة. وآمل أن ينشر تقريري هذا صورة عن واقع القبائل العربية الجنوبية، وأن تستكمل هذه الصورة من خلال رحلاتي القادمة، التي سأقوم بها قريباً، بقدر ما يسمح بذلك وقتي القصير المتبقي هنا، الذي أواصل خلاله الإستعدادات للقيام بمزيد من الرحلات، وأعمل على توفير الإمكانيات المالية اللازمة لذلك. وإني التمس العذر، إذا بدا تقريري هذا قاصراً، وألتمس العذر، لغياب المعلومات العلمية فيه، عن خطوط الطول وخطوط العرض والإرتفاعات والأنساب ...الخ. إذ أن الوقت لم يسمح لي بعد بحسابها وتدوينها.

صنعاء ٢٠ فبراير ١٨٨٤م

٤. رحلتي من الحديدة إلى صنعاء، من ٢٤ أبريل حتى الأول من مايو ١٨٨٥م

لعدم توفر النقود، اضطررت في مارس العام الماضي إلى مغادرة العربية الجنوبية، في وقت كنت قد أزحت فيه كل الصعوبات، التي ظهرت في رحلاتي السابقة، ومهدت الطريق للقيام بأبحاث مثمرة، في كل مناطق العربية الجنوبية. هذا الأمر كان واضحاً من خلال جولاتي الثلاث، التي قمت بها انطلاقاً من صنعاء، رغم أن نتائجها لم تنشر حتى الآن، إلا بشكل جزئي. وحتى مأرب، التي تعتبر هدفاً لكل رحّال يشتغل بالتاريخ السبئي، كان بالإمكان زيارتها عبر وسائل، لاداعي لذكرها هنا، وكان يمكنني مباشرة عملي هناك بكل حرية. ونتيجة للنقص الشديد في المال لدي، لم يكن بإمكاني انتظار وصول الشريف حسين بن عبدالرحمن، حاكم مأرب، إلى صنعاء. ولذا بدلاً من أن أسافر إلى مأرب، سافرت عائداً إلى أوربا، وبنيتي أن أعود إلى منطقة أبحاثي بعد ثلاثة أشهر. ولكن هذه النية مع الأسف لم تتحقق بسبب ظروف، لم أكن أدرك حجمها ولا مداها. ثم تركت وطني وأنا أكثر فقراً مما كنت، عندما وصلت إليه. تركته وأنا لا أحمل شيئاً آخر، سوى بعض الديون، التي لاعزاء لي فيها، إلا إدراكي بأنني أؤدي واجبي كاملاً، تحت ظروف شديدة القسوة، وبمثالية لم تهتز، كانت قد زرعت في صدري بعمق، منذ شبابي المبكر. ولم يشعر البعض حتى بالخجل، عندما امتنع عن دفع المبلغ البسيط، الذي كان مخصصاً للقطع الأثرية. وحتى جهاز الكرونومتر (مقياس الزمن) الضروري للدراسات الفلكية، الذي تركته للإصلاح، وتابعت وسألت عنه مراراً كثيرة، لم يرجع إلي حتى هذه اللحظة، مما أعاق عملي الفلكي والجغرافي كلياً. وبعد انتظار طويل في القسطنطينية، تلقيت دعماً متواضعاً من وزارة التعليم النمساوية، مقداره ثمان مئة فل. نمساوي (حوالي ألف وست مئة فرنك، لا تكاد تغطي حتى نفقة إقامتي في القسطنطينية). وببعض النقود، التي استدنتها، توجهت للمرة الثانية في طريقي إلى العربية الجنوبية. ولا بد أن أوجه شكري هنا لأناس نبلاء، كانوا مطلعين على وضعي المالي، فعملوا جهدهم لمساعدتي، في الحصول على التخفيضات الممكنة.

وفي الحادي والعشرين من أبريل وصلت إلى ميناء الحديدة، عن طريق البحر الأحمر (لعله بحر حمير، فقد كانت الكلمتان قديماً تكتبان بنفس الطريقة، ومن هنا ربما حدث الإلتباس واستبدال

الإسم بالبحر الأحمر). وما أن نزلت من السفينة، حتى وجدت خادمي المخلص صالح في استقبالي. فمنذ سفري من صنعاء وهو يهبط إلى الحديدة مع بغالي بانتظام، ليكون في انتظار سيده. وهذا مثال للإخلاص والوفاء، يستحق التنويه إليه هنا. ووجدت استقبالاً طيباً من قبل الأوربيين القلائل الموجودين في الحديدة. ومنهم شاب ألماني شجاع، موظف لدى مكتب التبغ التركي، إسمه فندت **Wendt**، سمعت مع الأسف، وأنا في صنعاء، أنه توفي متأثراً بالحمى. ومنهم أيضاً مواطن ألماني أصله من فورتمبيرج **Wurttemberg** بألمانيا. كما أن الموظفين الأتراك بذلوا جهدهم معي، ليبرهنوا مجدداً على أنهم ينتمون إلى أكثر أمم الأرض لطفاً. وروى أحد هؤلاء الموظفين بعض الحكايات الطريفة، عن الرحّال الباحث شارلس هوبرت **Charles Hubert**، الذي قتل مع الأسف. وكان قد قابله في مكة، قبل أن ينقل مخفوراً من هناك إلى جدة.

ومدينة الحديدة ميناء مزدهر، ومعروف معرفة جيدة لدى الأوربيين، الأمر الذي يجعلني في غنى عن الحديث عنه. وباعتبارها منطقة التخزين الوحيدة، في اليمن التركية بكاملها، شد ازدهارها اهتمام التجار النمساويين والألمان. ورغم عدم اكتراث الدوائر المالية، فسوف يكون من دواعي سروري أن أجيب على أي استفسارات، قد توجهها إلي الشركات والمؤسسات النمساوية والألمانية. واستفدت من وجود لجنة الحجر الصحي، الخاصة بكمران، المكونة من سبعة أطباء، وقمت مع بعضهم بزيارة حي الأخدام (حافة الأخدام)، المكونة من عرواش، جمع عريش، وهي الأكواخ المبنية من أعواد الخشب المنتشرة في تهامة، الواقعة خارج المدينة، لكي أقوم بدراسة جماعة المنبوذين القاطنين فيها. وبما أن السادة الأطباء، ومن بينهم ابن بلدي، الدكتور جوت **Guth**، هم دون شك أكثر دراية وتخصصاً مني في هذا الجانب، وقد أخبروني بأنهم سينشرون دراساتهم عن أخدام الحديدة، فإني سأكتفي بما قدمته حول هذا الموضوع، في مقالي الخاص بالتركيب الطبقي في اليمن، المنشور في مجلة (أوسلاند) في ١٦ مارس ١٨٨٥م. ونظراً لكون الطريق من الحديدة إلى صنعاء أصبحت في الفترة الأخيرة غير مأمونة نوعاً ما (فلم تسلم حتى مجموعة البريد، التي هوجمت مرة أخرى قبل أيام قليلة)، أردت أن لاأسافر دون مرافقين. ولكن بعد بحث دام ثلاثة أيام، عن مرافقين، دون جدوى، عقدت العزم، رغم هذا الوضع، أن أسافر مع خادمي فقط، ومعنا شرطي، لأن الجو الحار في الحديدة بدأ يضايقني.

وفي يوم الجمعة، الرابع والعشرين من أبريل، في الساعة السادسة مساءً، امتطينا حيوانات الركوب، باتجاه باب المدينة الشمالي. وتنفست الصعداء، إذ أن العرق لم يتوقف في جسمي منذ ثلاثة أيام، ولا حتى في الليل، وها أنا الآن أتخلص منه. ومررنا بغابة نخيل صغيرة وجميلة، بنيت وسطها أكواخ المستشفى. ثم لم نلبث أن دخلنا في ما يسمى (الخبت)، وهو عبارة عن براري تغطيها الرمال وبعض الأعشاب الشبيهة بالخلنج ، التي يسمونها (عصل)، يستخرج العرب منها مادة سوداء، يسمونها (حُطُم)، تستخدم لأغراض كثيرة، منها مثلاً، تحضير الصباغ الأسود، وكمادة أولية في صناعة الصابون، كما تخلط بالشاذر، لإعداد خضاب الكف للنساء، إلى غير ذلك من استخدامات كثيرة. وفي هذه البرية تسكن آلاف الصراصير، تبعث صريرها اللطيف دون انقطاع. وما عدا هذا الصرير، يسود صمت الأموات. وتبعث قبة السماء، بنجومها المتلألئة، إحساساً بشيء من الحياة، ولكن بسكون ومهابة. وبالطبع لا يمكن أن أفكر بالخروج عن الطريق والسير على القدمين، وسط الأعشاب الصغيرة، لأن ثعابين كثيرة، يسميها العرب حيات وحنشان، تتنقل وتتلوى وسط الرمال بهدوء، دونه هدوء السماء. وويل لمن يقترب من مجتمع الثعابين هذا.

وفي الساعة التاسعة مساءً، وصلنا إلى أول مقهاية، واسمها (مقهاية الخبت). وفي الواقع إنها تستحق هذه التسمية. فعلى مد النظر لا توجد أية قرية أو كوخ. وتتكون المقهاية من كوخين أو ثلاثة، وليس فيها أي أثاث، سوى كرسيين أو ثلاثة كراسي، يسمونها قعايد (جمع قعادة)، وهي أشبه بالسرير، بسيطة جداً في تركيبها، وارتفاعها عن الأرض حوالي متر واحد، وسطحها الأعلى مغطى بحبال من الألياف. ولا تسمح الحرارة المرتفعة جداً في تهامة بأن ينام المرء على الأرض. وما عدا بعض الجمّالين، لم يكن موجوداً في المقهاية سوى فقيه فقير من بغداد، يتسول في هذه البلاد منذ عشر سنوات. ويبدو أنه يعاني من مرض، جعله غير قادر على تبادل الحديث. إذ لايستطيع أن ينطق ببعض الكلمات إلا بصعوبة، وبشكل متقطع. وكان قد قدم نفسه لي في الحديدة، قبل يوم، كزميل لي، وكعالم فقير رحّال. ولكن مع فارق بيني وبينه، وهو أنني غني، كما كان يعتقد. وبصعوبة بالغة استطاع أن يرد التحية، ثم استجاب لدعوتي له، بأن يجلس معي، لتناول قهوة القشر، التي تحضر من قشور ثمار البن، وتقدم بوعاء مكوّر، له عنق طويل، يسمى (جمنة وجمعها جمان)، وهي الشراب الوحيد، الذي يقدم في هذا القفر.

وبعد استراحة دامت ثلاث ساعات، واصلنا سفرنا، في تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً. ورافقنا في هذه المرة عالمنا الفقيه، الذي كان يريد أن يذهب معنا إلى باجل. ومن الحديدة إلى حافة الجبال كنا نسير في منطقة عرب القحرا. وهي قبيلة فيها أكثر من ثلاثة آلاف مسلح. وقد أعتبرها كارل ريتر **Karl Ritter** خطأً، عشيرة هاجرت من الطائف إلى اليمن. كانت طريقنا تتجه باستمرار نحو الشمال الغربي، ثم بدأت الآن تميل أكثر نحو الغرب. وأصبحت المنطقة خالية من الأشجار تقريباً، ثم بدأت بعد ذلك تتكاثر. وكان كثير منها أشجار طلح، تأخذ أعاليها شكلاً أفقياً. وهنا وهناك تظهر أيضاً أشجار نخيل الدم (ويسموها دوم ويجب عدم الخلط بينها وبين شجر الدوم، الموجود في الأجزاء المنخفظة، على جانبي جبال السراة). وتقع القرى، دير الزارعة ودير سالم ودير بوبال والحمراء ودير ابن أحمد، بعضها على الطريق وبعضها قريب منها. في حين تقع قرية الهجرة (مسكونة بالأشراف أو السادة) والمراوعة والقطيع، تقع جميعها بعيدة نوعاً ما، إلى يمين الطريق، في وادي سهام. أما الضحي، وقد ذكرها ريتر باسم (الدحي)، وهي مركز قبيلة الجربحي (الجمع جرابح)، فتقع بعيدة نوعاً ما عن الطريق في ناحية الشمال. وبحسب تحديد نيبور لها، ليست بعيدة جداً. وكل هذه القرى هي قرى بسيطة، مكونة من أكواخ. وعلى خلاف المدن الساحلية، التي توجد فيها منازل حجرية، لا توجد هنا على مدى النظر حجارة ولا صخور. وهذا في حد ذاته يكفي للقول، متفقاً في هذا مع الرحالة، الذين سبقوني، بأن هذه المنطقة كلها حديثة نسبياً، نشأت بفضل تراجع البحر. ويمكن التأكيد، بنوع من الثقة، على أن الشواطئ القديمة كانت تقع بعيداً في الداخل، في عمق المنطقة الحالية، أي هناك تقريباً حيث تبدأ المناطق الزراعية بالظهور. ولهذا فإن المناطق الساحلية والموانئ، التي ذكرها بتولوميوس **Ptolomaeus** (بطليموس) وبلينيوس **Plinius** ومؤلف بربلوس **Periplus**، لابد من البحث عنها داخل هذه المنطقة. وهنا توجد الظاهرة نفسها ، الموجودة في جدة وبور سعيد وغيرهما من مدن سواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط، وهي أن مستوى سطح البحر ينخفض كل عام، مثلما هو حاصل في خليج تريتون **Triton** وفي أوتيكا **Uttica**. ويمكن اعتبار مناطق تهامة المرتفعة وحدها مناطق قديمة، بعد أن يتم تحديد ارتفاعاتها بدقة.

وعند دير العباقي، ويسمى أيضاً دير الجبل، وصلنا إلى بداية ما يسمى بجبال تهامة. ويمتد طريقنا الآن وسط تلال منخفضة، عبر سائلة جافة، إلى باجل، الواقعة بين جبل عباقي والجبل

الضخم ضامر وجبل دهنة، ويبدو جبل ملحان وجبل حفاش في الشمال، خلف جبل دهنة وجبل عزان، الواقع إلى الشرق. وعلى كل الجوانب توجد، بالقرب من القرى، حقول زراعية واسعة، مزروع فيها غالباً الدخن والذرة والرومي (الذرة التركية).

وفي الساعة السادسة صباحاً وصلنا إلى باجل، وهي مدينة كبيرة من الأكواخ وفيها مركز القضاء، المسمى باسمها. والقضاء منطقة إدارية، على رأسها قائم مقام، وتنطق بالتركية (كزا) .

وتتكون باجل من حوالي خمس مئة عريش (كوخ) كبير، وثلاثة أو أربعة بيوت من الحجارة، بناها الأتراك، ومبنى للحكومة على شكل قلعة. وهي أغرب مدن تهامة اليمنية. فكل ثلاثة إلى خمسة أكواخ محاطة بسياج، يسمى (دارة)، وتكون سكناً لأسرة كثيرة العدد أحياناً، وهناك بعض الأوعية الفخارية الكبيرة أو البراميل الطينية، مدفونة عادة في الأرض، حتى نصفها أو أكثر، يوضع فيها ماء الشرب. وفي وسط الساحة يوجد مكان للنار. والعرواش مستطيلة الشكل نوعاً ما، كالبيوت الأوربية، بسطوح منسقة، مكونة من عيدان كالهراوات. ومن الداخل يبدو العريش أشبه بهيكل البيت الأوربي البدائي جداً، الذي ليس له سقف فاصل من الداخل[303]، وجدرانه الداخلية ملبسة بمادة، ذات لون أصفر وبني مختلط (ويمكن للمتخصصين بالدراسات العربية، بمساعدة قاموس اللغة، استخراج معنى هذه الكلمة، التي يسمونها (ضفع) البقر، والتي لا يجوز النطق بها في الأوساط الإجتماعية الرفيعة، أو أمام القارئ المؤدب). ولا يوجد في الداخل سوى القعايد وسراج زيتي (مسرجة) ومرفعة (وهي عبارة عن قطعة ثلاثية القوائم، أشبه بمقعد بدون مسند، لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثين سنتيمتراً، توضع عليها صحاف الطعام)، ومداعة (وهي عبارة عن شيشة كبيرة، متصل بها أنبوب طويل)، وصندوق، توضع فيه أدوات الأسرة، المكونة من أوعية من الصفيح وفناجين القشر وملعقتين أو ثلاث ملاعق، من النوع الرديئ جداً، ويبقى مفتاح الصندوق دائماً لدى سيدة البيت المجتهدة. ولما كانت أبواب وبوابات هذه البيوت تبقى دائماً مفتوحة، فإنها لا توجد في معظم الأكواخ أبواب بالمعنى الحقيقي يمكن اغلاقها، وإنما مجرد ستائر من الحصير. وهذا الإحتياط الحكيم ربما ليس عديم الفائدة. ويسير الرجال عراة، ما عدا من الخصر إلى ما تحت الركبة، يغطونه بقطعة قماش، أو ما يسمى (فوطة)، ولا يغطون رؤوسهم إلا نادراً، بما يسمى

---

(303) للبيت الأوربي الحديث سقف مستوي من الداخل، تتجه الجدران الخارجية، ابتداءً منه، نحو الأعلى، مقتربة من بعضها، حتى تلتقي، مكونة سطح المنزل، الذي يأخذ شكلاً هرمياً.

(عمامة)، ويسمى في تهامة (مصر)، وفي الجبال (قبع). وأحياناً يغطى الصدر بصدرية ضيقة الأكمام تسمى في تهامة (زنة) وفي الجبال (مدرعة). والأغنياء منهم فقط يرتدون قماشاً، يسمى (عبه)، وصندل يسمى في تهامة (مداسع) وفي الجبال (حذاء أو حذي). والنساء غير محجبات، ويرتدين سراويل ضيقة من القماش، من الخاصرة وحتى الكعبين، تعيق الحركة. وكما هو الحال بالنسبة للميسورين من الرجال، تغطي النساء جميعهن الجزء الأعلى من الجسد بنوع من السترات (جاكتة) ويضعن عادة على رؤوسهن مناديل، ويبدو منظرهن جذاباً، ولاسيما إذا كن لم يتجاوزن بعد ربيع أعمارهن. وفي العراء تضع النساء على رؤوسهن عادة قبعات ضيقة من الأعلى، ولها حافة كبيرة، تسمى (مواهف)، جمع موهف أو موهفة. وهي قبعات لا يرتديها الرجال، سوى في منطقة صعفان. وتتكون الماشية من بقرتين أو ثلاث أبقار، ذات سنام (قذال) نحيل. وتترك في فناء البيت، حيث يقدم لها العجور، وهو السيقان الجافة لمختلف النباتات التهامية، ونادراً ما يقدم لها العلف، وهو نوع من الحشيش المجفف. وهذا النوع من البقر أعجف، لحمه سيء وثمنه لا يتجاوز عشرة إلى ثمانية عشر ريالاً (ماريا تيريزا). ويمتلك الناس عادة، إلى جانب الأبقار، خراف وماعز، وقطط، من النوع الكبير الحجم، وكلاب.

ومدينة باجل هي مركز قبيلة القحرا، وفي الوقت نفسه منطقة سوق. وفي أيام السوق تصبح مليئة بالحركة ومزدهره. وكل أبناء القحرا يعتبرون أن من واجبهم الحضور إلى السوق. وكل واحد منهم يظهر حاملاً (غريزاً)، وهو عبارة عن حربة قصيرة، و(جوردة أو جيردة)، وهي عبارة عن سيف يستورد من سوريا، ويوضع في غمد خشبي يسمى جهاز. وبالطبع فإن الجنبية موجودة دائماً. ولكن لا يحتفظ بها نظيفة جميلة، كما هو الحال لدى عرب الجبال. والأخدام وحدهم، الذين يعيشون في مساكن معزولة عن غيرها، لايحملون أسلحة. وعرب القحرا سمر البشرة نوعاًما. وبنية أجسامهم ضعيفة، ويسكنون في هذه المنطقة منذ أزمان سحيقة. وربما أنهم قد استقروا في الأرض التي انحسر عنها البحر واستصلحوها. ففي الروايات، التي تتضمنها المخطوطات العربية القديمة، ورد أن عك، جد القحرا، نزح من الجبال إلى هذه المنطقة، بعد انهيار سد مأرب. وإذاً فإن مناطق الساحل هذه يمكن أن لا يكون عمرها أكثر من ألف وسبع مئة عام. ومن بين السكان هنا لا يوجد من يعرف نسبه البعيد، سوى القحرا. فإذا ما سأل المر عن الأنساب هنا، كان الرد: "إننا رعية للحكومة ونبحث عن كسرة خبز، فلماذا تعنينا الأنساب؟ إن الأنساب تهم القبائل الجبلية، الذين

هم أسياد. وعلى أكثر تقدير ربما يمكن لأحد علمائنا أو لأحد السادة أن يعطيك بعض التوضيح عن أنسابنا". وفي الواقع فإن تحديد الأنساب في تهامة، ولاسيما في المناطق التي تداخلت فيها الأعراق، أمر ليس سهلاً. ولكن المخطوطات العربية الجنوبية تقدم صورة واضحة لذلك، وسط هذا الخليط من الأجناس. وأنا شخصياً أمتلك نسخة رائعة من كل من الجزء العاشر من الإكليل للهمداني، ومن روضة الألباب، ومن مخطوط، يفوق كل المخطوطات الأخرى قيمة، ولكن من المؤسف أن اسم مؤلفه غير مذكور، كما أمتلك مخطوطاً مكتملاً عن الأنساب، في العربية الجنوبية، لمؤلفه المنتمي إلى جبلة[304]، الملك الأشرف أبي حفص عمر ابن السلطان يوسف ابن عمر ابن علي ابن رسول الغساني. وسوف أعود إلى الحديث عن هذا الكتاب الرائع فيما بعد. وهنا أقدم فقط مجرد نموذج من محتوى هذا الكتاب، لا يعطينا معلومات عن عرب القحرا فقط، بل يوضح أيضاً المجموعات القبلية، التي يتبين منها أن سكان تهامة اليوم ينحدرون من قبائل قديمة معروفة.

فقد أورد مؤلف الكتاب نسب عك على النحو التالي (واختصر هنا ما أورده): يوجد خطّا نسب لعك، هما: شاهد وعبدالله. والإثنان ولدا عك.

تنتمي إلى شاهد قبيلتان هما: غافق وساعدة. وتنتمي إلى عبدالله أيضاً قبيلتان: عبس وبولان. وإلى غافق تنتمي: القيانه والمقاصرة ودهنة (يسكنون في جبل دهنة بالقرب من باجل) والرماة والمذابة ولعسان (ذكرها بلينيوس). أما ساعده فتنتمي إليها: لام وصخر ودعج ونعج وزعل (ربما أن مساكنهم الأصلية في جبل حضور شعيب. ويسكنون حالياً بين الحديدة واللحية) وقين وقاضية وعلافة وحائل (التي تسكن بين حيس والأوشح وفي الجزء الجنوبي من اليمن) ووالية وقحر، التي ينتمي إليها بنو الحدقي والقحرا، ولعلها هي نفسها كيراي **Cyrei**، التي ذكرها بلينيوس، والريضة والرقامه. وإلى عبس تنتمي: زهير ومالك وصريف وزيد والعشالق والحجبا وغنم وناج ومنسك، الذين يتبعون منطقة المهجم، وعمران، التي ينتمي إليها سكان وادي سهام، من قضاة بني عمران بشر، والحبتة (في حرض) والحمرة والجرتة، في وادي سردد، وشبيعة والمطاوقي وعبيدة ...إلخ.

وأخيراً قبائل بولان: العلوي والقهبي والجربجي وعدوان والوبرا والهليلي (في سردد) والصمي والكعبي (في وادي مور بالقرب من السودة)، وعدد آخر من القبائل. إذ أن عك والأشاعر

---

(304) ينتمي إلى تعز، عاصمة الدولة الرسولية.

تناسبوا. ونتيجة لذلك فإن بعض المناطق مسكونة بالقبيلتين معاً. ومعظم هذه القبائل لا يزال بالإمكان حتى اليوم العثور عليها. وسوف أتعرض لها بالذكر في ما سأنشره مستقبلاً عن اليمن. وحالياً نكتفي، إضافة إلى منطقة قحرا، التي تحدثنا عنها، بالتحدث عن المناطق التي تعتبر اليوم ملحقة بها.

ففي القرب من حجيله يقع دير الوافي وبحاح ودير عامر وقبة المساعر ومقلح وسمهر وعبال ومقطوره. وإلى جانب ذلك هناك مجموعات قبلية تتبع القحرا، وهي مجاردة وضوامرة (كلاهما في جبل ضامر) ولعسان.

وفي الجنوب من القحرا قبيلة تتبع منطقة بيت الفقيه، اسمها (عبوس)، أو كما يسميها العرب، (قبيلة العبسي). وهي أيضاً تنتمي إلى عك. وتمتلك الجزء الأسفل من وادي سهام. وفي الشمال من القحرا يعيش الجرابح وأهل ملحان وحفاش. وفي الشرق تلتقي منطقة القحرا بمنطقة الزيادني، التي تعيش عند أقدام جبل حراز.

وفي الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر قست الحرارة، فوجدتها في الظل حوالي ٣٧,٨° سنتجريت، وكانت الدرجة العظمى حوالي ٤٠°. وتبدو درجة الحرارة هذه، حتى في تهامة، درجة غير عادية. وقضيت وقتي هنا، في باجل، مستمتعاً بما حولي. فصاحبة المقهاية وبعض سكان المنطقة كانوا لطافاً، وقدموا لي إيضاحات حول اللغة وأحوال المنطقة، التي كانت معلوماتي عنها محدودة جداً. ومن الغريب أن نيبور المتميز، الذي لم يخلفه أحد في بساطته وضميره الحي، ليقدم ماكان يمكن لنيبور أن يقدمه من معلومات عن هذه المنطقة، من الغريب أنه قد رحل من اللحية عبر الضحي إلى بيت الفقيه ومر من قرب باجل، ولم يكد يذكر اسم هذه المدينة المهمة، التي تقع مرتفعة عن الحديدة بمئة وثمانين متراً.

وفي الساعة السابعة والنصف ركبنا من مدينة باجل، باتجاه منطقة تقع إلى الغرب من المدينة، وتسمى، دون وجه حق (جبل تهامة). كانت طريقنا تمتد صعوداً، في سائلة، تمر بين قمتي جبل عزان، غير العاليتين، ومخروطين صغيرين في جبل دهنة، من جهة، وجبل ضامر من الجهة الأخرى. وسرنا حتى الحافة الشمالية تقريباً لجبل عزان، ثم انحرفنا فجأة نحو الجنوب الغربي، مع الإستمرار في السائلة نفسها، التي تنطلق من جنوب شرق بحاح. وعند منطقة الإنحراف المذكورة يبدأ، على جانبي السائلة، وادي مرخ. ويسمى الجزء العلوي منه، الواقع وسط جبال بني سعد، وادي

حارث. وخلف جبل دهنه وجبل عزان تبدو مباشرة كتلة ضخمة من الجبال، جبال ملحان وحفاش، وتمتد حتى منطقة الطويلة، ويفصلها عن المنطقة، التي نسير فيها وادي سردد، الذي يعيش فيه عرب الجرابح. وارتفاع جبل ضامر ليس عالياً جداً، ولكنه عريض بصورة غير عادية، وفيه قرى كثيرة، أغلب منازلها مبنية بالحجارة، وسكانها من الضوامر والمجاردة، وهما لحمتان من قبيلة القحرا. وكانت طريقنا تسير قريبة من السفوح الشرقية لهذا الجبل. وفي شرق الطريق نشاهد بالقرب منا تلالاً منخفضة وممتدة، مسكونة من قبل المجاردة، وخلفها منطقة لعسان، التي كانت معروفة للهمداني والمؤلفين الكلاسيكيين، وتمتد حتى منطقة بني اسماعيل، في وادي سهام، وإلى عبال وصيحان دومر. وخلف لعسان تنتصب جبال بني سعد الضخمة. ولايزرع البن في جبل ضامر، بل تبدأ زراعته من جبل برع.

وفي الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة وصلنا إلى بحاح. ونصحنا بعض الجمّالين أن نبيت فيها، لأن الأمطار هطلت قبل ساعات وأصبحت الطريق، لاسيما في الليل، غير مناسبة للسير. وبحاح قرية صغيرة من الأكواخ وعديمة الأهمية، وتقع على ارتفاع ٣٦٥ متراً فوق سطح البحر.

وفي اليوم التالي، الأحد، في الساعة السادسة وخمس عشرة دقيقة صباحاً، واصلنا سفرنا. ورغم أن الحرارة كانت مرتفعة جداً، فإني لم أشعر بالأسف لحظة واحدة لعدم مواصلتنا السفر في الليلة الماضية، فالطريق كانت مزعجة، وكان علي، بين الحين والآخر، أن أترجل من على ظهر البغل وأسير على قدميّ. وسرنا بالقرب من جبل برع، الذي كان باستمرار على يمين الطريق. وقطعنا في البداية قاع متحلي حتى وصلنا إلى ممر باب القارة الضيق، الذي نفذنا منه إلى قاع سمهر، ومنه شاهدنا في مكان ليس ببعيد سوق قرية عبال، التي تمر عبرها طريق ثانية للجمال، توصل إلى مفحق. وتقود هذه الطريق، التي تلتف حول كتلة جبل حراز الضخمة، تقود من عبال إلى سوق الربوع وصنقور، في وادي سهام، ثم تسير عبر وادي صيحان، ثم تصعد إلى بيت القابلي وصيحان، ثم تنخفض بين جبل عانز وجبل بني مقاتل إلى مفحق، حيث تلتقي بالطريق المختصرة، التي تمر عبر مناخة إلى صنعاء.

واصلنا السير، وكان سوق عبال، الواقع في شمال شرق جبل برع، على يمين الطريق. وصعدنا مباشرة باتجاه حجيلة، قاطعين مجاري سيول عميقة، تتصل جميعها بوادي سهام. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف، قبل الظهر وصلنا إلى حجيلة. وهي منطقة سوق، لا يوجد فيها سوى مبنى واحد

لا بأس به، يقع على مرتفع، وهو مبنى الثكنة العسكرية التركية. أما بقية بيوت هذه المنطقة، التي هي آخر منطقة تهامية، فتتكون من خليط من عرواش وأكواخ. وتبنى هذه الأكواخ، التي لا يتجاوز ارتفاع الواحد منها قامة رجل، من أحجار كبيرة غير مشذبة (غير موقصة) ودون استخدام أية مواد إضافية قابضة. وهذه المنطقة أخذت اسمها من طيور الحجل، الموجودة بكثرة في كل المناطق المحيطة بها. ويبدو أن حجيلة هي نفسها شط الحجل، التي ذكر الهمداني، في كتابه صفة جزيرة العرب، أنها تقع قرب حراز. وتميل ألوان سكان حجيلة إلى اللون البني الكاستنائي، وهم قريبو الشبه بالغجر لدينا. وينتمي بعضهم إلى عشيرة الزيادني، والبعض الآخر إلى عشيرة الخاولي. ويبدو أن الأولين هم فرع من بني دوّار. وقرى الزيادني هي: حجيلة ووعل، في الشمال إلى الشمال الغربي من حجيلة، ومعزبة، التي تقع مثل حجيلة على أقرب طريق إلى مناخة، ولكنها أبعد من حجيلة، ويقطن الخاولي في الحجيلة وفي قرية القاهرة، الواقعة على الجبل، في جنوب الحجيلة تماماً، ولا تبعد عنها بأكثر من كيلومترين. وبالإضافة إلى طيور الحجل، يوجد في المناطق المحيطة، خاصة المروية منها، نوع من البط البري، يسمى خلل، لحمه لذيذ جداً. كما توجد أنواع مختلفة من العصافير والفراشات، التي تجعل تلك الآجام مليئة بالحياة. ولأن إمكانياتي لا تسمح بجمع وحفظ هذه الأنواع من الأحياء والنباتات، المتعلقة بالتاريخ الطبيعي، فقد اكتفيت بتدوين أسماء الطيور والعصافير والنباتات، التي شاهدتها، وكذا بالبحث عن المخطوطات، التي يمكن أن تقدم لنا معلومات في هذا المجال، وهو عمل كلل بالنجاح الكامل. وإذا ما وجد متحف في المستقبل، مستعد للتضحية بمبلغ كاف من المال، فإنني أستطيع أن أزوده بأكثر من مئة نوع من الحيوانات والطيور، جزء منها غير معروف لدينا، وبعدد مماثل على الأقل، من أنواع النباتات، غير المعروفة كلياً، منها مجموعة مكتملة من أنواع البخور، الموجود في العربية السعيدة، ونباتات ذات روائح زكية. والأمر نفسه ينطبق على جميع أنواع المعادن. أما على نفقتي الخاصة، فقد كان هذا أمراً متعذراً. فإمكانياتي لم تكن تسمح لي حتى بالإحتفاظ بخادمي الأمين وببغلي.

ومن الأشياء الغريبة، التي رأيتها، تسريحة شعر النساء في حجيلة. فهن يطلقن ضفيرة حول الأذن، تبدأ من السوالف وتطوى حول شحمة الأذن ثم تمتد إلى خلف الرأس، لتختفي تحت غطاء الرأس. وبديهي أن النساء هنا يسرن، كنساء تهامة، دون حجاب. أما الأطفال، سواءً الذكور منهم أو الإناث، فيسير معظمهم شبه عارٍ. وبجانب السمسرة، التي نزلت فيها، توجد شجرة جميلة

وكثيفة، تتنقل على أغصانها أعداد كبيرة من الطيور والعصافير. إنها شجرة الحمر (التمر الهندي)، التي يُعمل من ثمرها اللذيذ شراب ذو مذاق رائع. وقد قدم لي أحدهم سلة مليئة بهذا التمر.

وتقع حجيلة على ارتفاع ٦٢٠ متراً عن سطح البحر. ويطلق اسم تهامة على السهل، الممتد من سواحل البحر، باتجاه داخل اليابسة، إلى المنطقة التي ترتفع شيئاً فشيئاً، حتى تصل إلى ارتفاع ٦٠٠ متر عن سطح البحر. وليس لهذا السهل خصائص واحدة في كل أجزائه، بل يتباين من جزء إلى آخر. وتبدأ منطقة الجبال الحقيقية من ارتفاع ٨٠٠ متر عن سطح البحر، ثم تصعد، كما سنرى فيما بعد، حتى تصل في قمم الجبال إلى ارتفاع ٢٦٠٠ متر عن سطح البحر. ولا يقل ارتفاع الأجزاء الواقعة في الوسط، حتى تلك الخبوت (جمع خبت)، التي تبدو منخفضة، لا يقل ارتفاعها عن ١٥٠٠ متر عن سطح البحر.

وحجيلة تتبع قضاء مناخة، وبالتحديد مديرية مَتْوح، على جبل صعفان، الذي يقع في الشمال من حجيلة. وعدا عن جبل صعفان الضخم، يشاهد المرء هنا سفوح جبل حراز، الذي تقع حجيلة عند أقدامه. ويذهل المرء، إذا نظر عمودياً إلى الأعلى، حيث سيرى النتوءات الشاهقة في أعلى الجبل، وهي تحمل مساكن بشرية، بل وقرى بكاملها. نعم إنه سيرى ذلك فعلاً.

وجبال هذه المنطقة هي: لهاب وهوزن ومسار (وليس مشار كما سماها د.هـ. مولر في تحقيقه لكتاب الهمداني، صفة جزيرة العرب، وهو التحقيق الذي لا يمكن الركون إليه)، وصعفان، الذي يتصل بجبل مسار، فيبدوان معاً كما لو أنهما يتنافسان على الشموخ عالياً. ونحو الجنوب الغربي يبدو جبل برع، الذي أصبح معروفاً من خلال تقارير المبشر المسيحي الرائع ج. وولف، الذي سافر من هنا، ولم يذق على مدى ثلاثة أيام سوى بضع قطع من الخبز وأعشاب الحقول، حتى التقى أخيراً، عند متنة، بواحد من أنسال الأب الأكبر الطيب يوناداب **Yonadab** ابن ريهاب **Rehab** (كتاب الملوك الثاني، الأصحاح ١٠، ١٥. وارميا **Yeremia**. الأصحاح ٣٥). وقد اعتبر نيبور أن جبل برع واحد من مجموعة حفاش، وأن حفاش يمتد حتى صنعاء. وقد أخطأ في الحالتين. ومن جهة الجنوب يتصل جبل برع بجبل ريمة الضخم، الذي أصبح منذ سنوات مصيفاً للأوربيين، المقيمين في الحديدة. وقد زاره سيئ الحظ سيجفريد لانجر. ولم يستطع ذلك الرحّال البائس، عديم الخبرة، حامل شهادة الدكتوراه في الآثار واللغات الشرقية، لم يستطع أن يقدم صورة صحيحة لهذه المنطقة، كما لم يستطع أن يلم بالأوضاع السائدة في اليمن، رغم أنه كان في وضع

يمكنه من ذلك. فعلى سبيل المثال، نفى سلطة الأتراك في قضاء آنس، القضاء الأكثر هدوءاً في اليمن، وزار جبل ضين Dhin في بلاد آنس، واعتبر أن بعض الشرطة، الذين يعملون في خدمة الأتراك، من أبناء حاشد، هم حكام المنطقة(305). ووقع في أخطاء كثيرة أخرى من هذا القبيل (انظر د.هـ. مولر، تقرير رحلة سيجفريد لانجر إلى سوريا وشبه الجزيرة العربية). ودون أن نمس إنجازه التاريخي (يفترض أنه قد اكتشف نوعاً خاصاً من النقوش الحميرية في اليمن)، لابد، في سبيل تصحيح الرسوم الخرائطية، من التأكيد على أن جبل صعفان لايتصل أبداً بجبل مسار، بل يتصل بجبل الهان. وعدا عن هذا فإن امتدادات جبل صعفان الضخمة ليست إلى الجنوب من حجيلة، بل إلى الشمال. إن خريطة لانجر بحاجة إلى تصحيح شامل، إذا كانت ستستخدم لأغراض جغرافية. وقبل أن نودع تهامة، اسمحوا لنا بتسجيل بعض الكلمات، حول لغتها، في سياق حديثنا عن الجانب التاريخي.

اللغة في تهامة بشكل عام لغة واحدة. ولكن نطق الكلمات تكاد تتباين، من منطقة إلى أخرى. ومن المعروف، من الناحية المعجمية أن محمد بن يعقوب الفيروزابادي، مؤلف كتاب القاموس المحيط، اشتغل فيها. وقد عاش أكثر من عشرين عاماً في تهامة اليمنية، وتوفي عام ٨١٧ هجرية في مدينة زبيد ودفن فيها. ويبدو أن هذا العالم الكبير، الذي لم يأت إلى اليمن إلا في سن متقدمة، كان قد فقد الطاقة الجسدية اللازمة للقيام برحلات طويلة، ولذا لم يتمكن من دراسة كل اللهجات اليمنية، بنفس القدر من العناية، التي أعطاها للهجة مدينة زبيد وما حولها. ويبدو أنه لم يتمكن من التعرف، تعرفاً كاملاً على لهجات المناطق الجبلية، ولاسيما المنطقة المسماة بالمشرق. وهو مما يؤسف له غاية الأسف. فلولا ذلك لأصبح بالإمكان التعامل مع النقوش الحميرية جميعها بلا استثناء، بمساعدة كتاب القاموس، دون أية صعوبة. وكان يمكن أن يعفو بعض الأفراد المتخصصين بالحميرية أنفسهم من الجهد المضيع للوقت والمال، الذي يتطلبه التوجه إلى اليهود، المهاجرين من جبال اليمن إلى فلسطين، للإستعانة بهم. وقد تمكنت شخصياً من جمع عدد من الكلمات الحميرية الأصلية، التي

(305) يبدو في نقده للمعلومات، التي أوردها لانجر، بعض التحامل، نتيجة للحساسية الشخصية، التي وضحنا سببها في سياق التعريف بجلازر. فلانجر تحدث عن جبل دن Denn (سماه جلازر جبل ضن Dhin) وهو في طريقه إلى آنس، ولم يقل أن الحاشديين هم أسياد المنطقة، بل قال إنهم كانوا قد احتلوا المنطقة قبل عقود من الزمن، وعندما قدم الأتراك سلموهم حصن دن وحصن آخر، وكلاهما لايقهران، وعمل بعضهم، أي بعض رجال حاشد، في خدمة الأتراك.

لاتزال مستخدمة في الجبال، كما جمعت مخطوطات تعالج، على طريقة القاموس، لغة الجبال ولغة حضرموت. وهي مخطوطات سأضعها بين يدي العلماء، الذين يرغبون في الإطلاع عليها. وفيما يتعلق بلغة تهامة، سوف تقتصر ملاحظاتي على مسألة النطق وعلى بعض الكلمات المحلية البارزة جداً، ولا يجب اعتبارها ملاحظات نحوية.

في البدء نقول إن الصوت في تهامة أعمق بكثير من الصوت في الجبال. ولاتظهر بشكل عام حركة صوتية مزدوجة إلا قليلاً. ولاينطق سكان تهامة (آو) أو (أُو) بدلاً عن (و) كما يفعل سكان الجبال. ونطق الأحرف الساكنة في تهامة أقل صفاءً ووضوحاً من نطقها في الجبال، ولاسيما ما يتعلق بلفظ (د).

وفي ما يلي أقدم قائمة لكلمات وجمل تهامية، واضعاً أمام بعضها، وسط أقواس، ما يقابلها في الجبال[306].

وجهد: ياولد.
إيت لاهم: إسمع ما سأقوله لك.
أهرجك: أتحدث معك.
لبيك: أنا مستعد لخدمتك.
يانك، يانك: إسرع.
ليس: لا يوجد.
لم: لا يوجد (في المشرق: لوم).
إيه: نعم
هب لي أعوم: إعطني ماءً لأشرب (في الجبال: إسقني).
حريو: (في الجبال: عروس)[307].
ويانكم، يانكم: كلمة تحية يقولها الحريو للضيوف عندما يأتون.
قوى، قويتو: ربنا يمنحكم القوة، يقولها الضيوف، رداً على تحية الحريو[308].
إرحبو فوق عيني وفوق راسي: تحية أيضاً، تقال للضيوف القادمين.

(306) اكتفينا هنا بنقل بعض الكلمات والجمل، على سبيل المثال فحسب.
(307) في بعض مناطق إب تستخدم كلمة حريو وحريوه أيضاً.
(308) عادة يقولها المستقر للقادم. لا العكس.

من القاع إلى القعادة: إرتاحوا من الأرض إلى فوق السوفة.

عريش: مفرد عرواش وهي الأكواخ.

دير: (في الجبال: قرية أو قريِّة، أو بيت فلان).

بندر: (في الجبال: مدينة).

عف، عفو: حمار.

عفوه: إتان، حماره

هيشه : حصان.

غريز: حربة قصيرة (في صنعاء: حديبي).

رمح: حربة طويلة (في صنعاء: حربة).

جَردة، جُردة: (في الجبال: سيف).

حق: (في مناطق الشمال: متاع أو بتاع).

مي : (في الجبال: ماء أو ميء. وفي المشرق: مايو أو مايوم).

خيرابه: (في الجبال: أصبحتوا).

أتمس: (في الجبال: أمس).

بكرة: (في الجبال: غدوة).

نشا اتقرع: (في الجبال: أشتهي أصطبح).

القراع: الفطور (في الجبال: الصبوح).

جحمة: (في الجبال: فحم أسود).

قارص: حليب (في الجبال: لبن).

عيش : (في الجبال: خبز).

راس: رأس المداعة (في الجبال: بوري).

حبلو: الأنبوب الخاص بالمداعة (في الجبال: قصبة).

إستن لي: (في الجبال: إصبر).

ما شاك: ماذا تريد (في الجبال: ماتشتي، اختصار لما تشتهي).

هنه: هنا (في الجبال: هانا).

ذلحين: الآن (في الجبال: هذا الحين).

جملو: جمل، وتوجد كلمات كثيرة في تهامة تنتهي بحركة وُ.

... إلخ ... إلخ.

نغادر الآن تهامة، لنبدأ بدراسة هذه الجبال العملاقة المتزاحمة، دراسة جغرافية. وكنقطة انطلاق، سنبدأ أولاً بإلقاء نظرة سريعة على ما ذكره الهمداني في صفة جزيرة العرب، عن الجبال والوديان والسكان. ومما يؤسف له أنني مضطر إلى الإعتماد على النسخة، التي حققها مولر من هذا الكتاب المتميز، تحقيقاً تنقصه الدقة في مواضع عديدة، كما سوف يتبين في سياق هذا التقرير، لأنني كنت قد بعت المخطوطة الرائعة، التي كنت أمتلكها من هذا الكتاب، للمكتبة الملكية في برلين، في العام الماضي، والتي بدورها وضعتها تحت تصرف السيد البرفسور دكتور د.هـ. مولر. ولدي أمل أن أتمكن من شراء نسخة أخرى تعود إلى القرن الخامس الهجري، لاتزال حالتها ممتازه، وتتميز بأن معظم الأسماء فيها منقوطة. والآن سأحصر عملي مؤقتاً في تصحيح أسماء المواقع، المشوهة جداً في نسخة مولر، وذلك استناداً إلى أبحاثي الخاصة.

يبدأ الهمداني حديثه أولاً (تحقيق مولر ص٥٣) بالمدن التهامية، ثم المدن الجبلية ثم الجوف ثم حضرموت ثم سرو حمير، بوديانه وسكانه، ثم سرو مذحج، ثم مدن وسكان الجزء الشرقي والجنوبي من اليمن (التهامي والجبلي معاً). ثم يأتي بعد ذلك (ص١٠٣) على المناطق، التي تقع إلى الغرب من الخط الموصل بين المعافر وصنعاء، وهي المناطق التي تهمنا هنا. وبعد إيراد بعض المناطق المتفرقة تقدم الصفحة ١١٩ من الكتاب المذكور مرة أخرى وصفاً سريعاً لتهامة.

جبال اليمن هي جزء من سلسلة الجبال، الممتدة من عدن حتى سوريا، والتي تسمى جبال السراة. وتحمل الأجزاء المختلفة من هذه السلسلة في اليمن أسماء خاصة بها مثل: المعافر وشرعب أو شراعب وسراة بني سيف وسراة جبلان وسراة الهان وسراة المصانعة أو المصانع وسراة قدم...إلخ.

ويهمنا هنا سراة جبلان والهان والمصانع فقط، فقد تحدث عنها الهمداني (ص٦٨) على النحو التالي: ثم سراة جبلان، التي تتكون أجزاؤها العليا من: آنس والجبجب وسُربة وجُمع. في حين أن أجزاءها المنخفضة تتكون من: شجبان ووادي الشجبة وصيحان ورمع وباب كحلان والصلي وجبل برع والغرب (عند مولر العرب) ومنطقة لعسان، التي تتبع عك. ثم سراة الهان، التي تتكون أجزاؤها الخلفية من: ضوران ومذاب والهان ومقرى والحقلين وعشار وبقلان ونقيل السود وحقل

سهمان وجبل حضور. وتتكون أجزاؤه المنخفضة من: وادي سهام وصابح(؟)[309] والأخروج ومنطقة حراز، التي تتكون من سبعة أقسام، وهي: حراز وهوزن ولهاب ومجيح (؟) وكرار ومسار (عند مولر مشار) وحراز المستحرزه. وهذه الأقسام كلها تسمى حراز، ويوجد سوقها في Mauza، ويحدها من الغرب لعسان وظهار بن بشير النشكى من همدان. والجزء الأسفل من حضور هو غوره (أي الجزء الأسفل منه) وبلاد الصايد وشم (؟) ومادخ (؟). ويتصل بجبالها سراة المصانع، الذي تتكون أقسامه العليا من: جبال ذخار وحضور بني أزد وبيت أفرع ومدع وحلملم وقارن والمحدد والعسم. وتتكون أقسامه الوسطى والسفلى من: الباقر وشاحذ وتيس ونضار والماعز وجرابي وسارع وسمع وبكيل وسردد وحفاش وملحان، (واسم ملحان الحقيقي هو ريشان وقد نسب اسمه الحالي ملحان إلى رجل من حمير) وفج عك مع مدهاية (عند مولر مدهاقه) والفاشق والمنصول، في منطقة صحار التابعة لعك، ولاعة وطعام والشوارق والجبر (عند مولر الحتر) ومسور والظلمة والعر وجبال تخلى وقيلاب ونمر (عند مولر نمل) وشرس ومنطقة أدران وحجة عيان والمعيل وعولي وحملان والمخلفة، التابعة لمنطقة حجور، ثم يعود إلى فج عك. وكثير من هذه الأسماء حملتها على خريطتي. ولتسهيل فهم هذه التسميات، نورد في ما يلي بعض التعريفات:

– صيحان: صيحان ريمة. وهو غير صيحان دومر.

– يتبع سراة الهان أيضاً الجبل العالي، الذي يسمى اليوم قرن وعل، ويمتد من جبل حضور شعيب، باتجاه سوق الخميس، ومن سوق الخميس نحو الجنوب الغربي باتجاه وادي سهام.

– جبل حضور: حضور النبي شعيب.

– الأخروج: الخيمة الخارجية.

– جبل ذخار: جبل ضلع، وهو الجبل الذي تقع فيه كوكبان، ويمتد باتجاه الطويلة.

– حضور بني أزد: جبل حضور الشيخ.

– شاحذ: الشاحذية.

– الشوارق: على الخارطة شاركي.

– الظلمة: جبل ظليمة، في الشمال الغربي من سودة.

– جبل تخلى: جبل بيت فايش، بالقرب من جبل مسور.

---

(309) علامات الإستفهام جميعها، موضوعة في النص، من قبل جلازر، وتعني أن جلازر لم يستطع التعرف على هذه الجبال.

وفي صفحة ٧١ يورد الهمداني الوديان (السوائل)، الواقعة في الجبال. فبعد وادي زبيد يوجد: وادي رماع. وهو وادي ضيق، ينطلق من جهران ومن غرب ذي خشران إلى وادي الشجبة. وتصب في جهته اليمنى مياه جنوب الهان وآنس، وفي جهته اليسرى مسايل الأجزاء الشمالية من بلاد جمع وسرابه إلى شجبان. ثم يستمر بين جبلان العركبة وجبلان ريمة وينفذ من ذؤال إلى السهل، ليروي النباتات في السهل، حتى يصل إلى البحر. وفي جزئه الأسفل يوجد غدير، اسمه غسان. وجبلان عركبه هي نفسها وصاب العالي. ويتابع الهمداني الحديث عن وادي سهام ثم وادي سردد وغيرهما من الأودية.

وبالنسبة لسكان هذه المناطق، في زمن الهمداني، يفيدنا كتاب صفة جزيرة العرب بما يلي:

أن الكدرا، ووادي سهام جميعه، كانا مسكونين من قبل عك وبعض الأشاعر. وكان يسكن وادي سردد، من المهجم نحو الجزء الأعلى منه، قبائل من خولان. وأما جزؤه الأسفل فكانت تسكنه عك، وفي شمال هذا الوادي، وكذا وادي مور، كانت تسكن عك أيضاً. وحالياً تسكن في هذه المناطق مجموعات من عك، وهي الأعبوس والقحرا والجرابح والحشابره والصليل والزعلية..إلخ.

وكان يسكن جبلان عركبه، في أيام الهمداني، سكان من الشراحي والوصابي. والآن أصبحت كل سلسلة الجبال هذه تدعى وصاب، وبالتحديد وصاب العالي ووصاب السافل (سميت باسم وصاب بن مالك بن زيد بن سُدَد بن زرعه بن حمير الأصغر). وكان جبل برع في ذلك الحين مسكوناً بقبيلة الصيابر الحميرية. وأما جبال حراز، التي تحدث عنها الهمداني تفصيلاً في صفحة ١٠٥، فقد كانت مسكونة بأبناء حراز وهوزن، وهم أبناء غوث بن سعد بن عوف بن عدي، أي مسكونة بقبائل حميرية.كما كانت مسكونة أيضاً بالحباتل وبني لعف ونشق، وغيرها من القبائل الحميرية. وكثير من هذه القبائل لاتزال ساكنة اليوم في هذه المناطق الجبلية، الواقعة بين وادي سهام ووادي سردد. وفي وادي سهام كانت تسكن لعسان. ولاتزال المنطقة تسمى بهذا الإسم حتى اليوم.

وفي المنطقة الواقعة بين حراز وحضور، واسمها بلاد الأخروج، نسبة إلى الأخروج بن الغوث بن سعد، كان يسكن الصليحيون، في زمن الهمداني. وهي قبيلة يوجد منها حتى اليوم في قملان، في أعلى بوعان. أما حضور نفسها فكانت في عصر الهمداني مسكونة من قبل قبائل حميرية. وكانت

المناطق السفلى من سراة جبلان، أي الجزء الأكبر من وادي سهام، مسكونة بقبائل عك. وتنتمي الهان إلى الهان بن مالك. وهو أحد اخوة همدان. وبعد هذا الإستعراض سوف نواصل رحلتنا.

من حجيلة، أو بالأصح من تهامة (باجل) تمتد ثلاث طرق إلى صنعاء، إثنتان منها عبر مجرى السيول (إحداهما عبر وادي سردد حتى الأهجر والثانية حتى رأس وادي سهام). وبين الواديين، وادي سردد ووادي سهام، تصعد الطريقان في كتلة جبال حراز وعانز، باتجاه جبل حضور النبي شعيب، في الشمال الشرقي. أما الطريق الثالثة، وهي الطريق الرئيسية إلى العاصمة، فتتسلق جبل حراز الضخم، ثم تهبط عبر منطقة الحيمة - ودائماً بين الواديين المذكورين _ ثم تصعد، صعوداً حاداً، عبر الجزء الجنوبي لأحد الأطراف المرتفعة من جبل حضور، ثم تهبط قليلاً من قمة سراة الهان إلى متنة. ومن متنة تسير مباشرة لتهبط إلى صنعاء، الواقعة في وادٍ فسيح، يمتد باتجاه الجوف. ومع أن هذه الطريق وعرة، فإنها أقصر الطرق، وقد اخترت السير عليها.

وفي الساعة السادسة من صباح يوم الإثنين، تحركنا من حجيلة. وبعد دقائق قليلة وجدنا أنفسنا في واد يزهو بأشجاره ونباتاته، اسمه وادي **Brar**، ويسمى الجزء الأعلى منه وادي هجّان، وهو وادي يمتد من صعفان ومسار، منحدراً إلى الجنوب، مكوناً فاصلاً بين المنطقتين. وقد تركنا إلى يميننا طريق وادي **Hiwoit**، شديدة الإنحدار. وتنحدر مياه وادي **Hiwoit** مباشرة من عتّارة باتجاه حجيلة. وكانت تلك الطريق في أيام حكم داعي يام طريقاً اعتيادية، لكنها أصبحت الآن وعرة لايستطيع تسلقها إلا المسافرون على الأقدام والحيوانات المدربة على صعود الجبال. وكلا الواديين يفصل بينهما جبل وسل، وهو طرف من أطراف جبل مسار. وفي وادي **Brar**، الذي صعدنا فيه حتى الساعة الثامنة والنصف، فوجئنا بطيور سحرتنا بأنغامها الجميلة. ولا يشاهد المرء سوى في مناطق قليلة على الكرة الأرضية مثل هذا التنوع الكبير في عالم الطيور. فهنا نسمع طائراً من الحمام الضخم (حجروف)، وهو نوع من الوقوق ، يردد نغمه الجميل: كو-كوو- هو- هو - هوو. وهناك نرى بلبلاً، لايتعب ولايتوقف عن ترديد لحنه الخافت دائماً: تا-تا-تا-تا. وبعد لحظات نرى سرباً من الطيور الصفر، بحجم العصافير، تسمى الهزار، تعيش جميعها على شجرة واحدة وسط أعشاش كثيرة، يسمى أحدها هنا (مغوه أو مغوش). ثم عدد من الفراشات الملونة من مختلف الأنواع. وبعد ذلك نرى أنواعاً من الحمام، أو ما يسمى (جولب)، وهو نوع من الحمام،

صوته شبيه بصوت البلبل. ثم يظهر ما يسمى (اليبيي)[310]. وهو طائر صغير ملون بالأبيض والأحمر والأسود. ثم أنواع كثيرة أخرى، لا يستطيع أن يتعرف عليها، إلا شخص متخصص. وفي فصول أخرى من فصول السنة، يمتلئ هذا الوادي والأودية المجاورة، بمجموعات القرود، التي تسمى (الرباح ومفردها ربح)، من مختلف الأحجام والأنواع. وعادة ما تمارس ألعاباً ممتعة، لاسيما إذا ما أطلق أحد نحوها رصاصة من بندقيته، إذ تبدأ بالصراخ والعويل والأنين، وتتشتت مبتعدة عن بعضها، ثم ماتلبث، بعد لحظات قليلة، أن تتجمع مرة أخرى وتهاجم، متسلحة بالحجارة. ولكن رغم ما تبديه من رغبة في الهجوم، فإن قدرتها على ذلك ضعيفة، فما أن يرفع المرء بندقيته إلى كتفه ويصوب نحوها، حتى تلوذ بالفرار.

ووصلنا سريعاً إلى قرية **Brar**، الواقعة في الوادي. وعلى يمين ويسار الطريق تشمخ قمم الجبال، متطاولة في السماء إلى مالا نهاية. وفي الأعلى، إلى اليسار، نشاهد مجموعة قرى صعفان ومتوح ودير ابن حميد، وفوقها جميعها تقع قرية مسار، على الجبل الذي يحمل الإسم نفسه ، وفي منتصف الوادي تقريباً (هنا يسمى وادي حجان، كما ذكرنا سابقاً) تبدأ الطريق بالتعرج (زجزاج)، على جبل وسل. وكان الجبل مغطى بالمدرجات الزراعية، التي تزرع فيها الحبوب والفواكه، ولكن بصورة خاصة يزرع فيها البن. وعند ارتفاع ١١٥٠ متراً عن سطح البحر، شاهدنا أول حقل للبن. وهنا أسجل ملاحظة، وهي أن الرحالة السابقين، قدروا ارتفاعات الجبال في اليمن بأقل من حقيقتها، كما قدموا معلومات غير دقيقة، عن زراعة البن. فمزارع البن، على خلاف ما سجله الرحالة السابقون، توجد على ارتفاعات تصل إلى ٢٢٠٠ متر فوق سطح البحر. وارتفاع الجبال يصل إلى ٣٠٠٠ متر عن سطح البحر.

وتبدو حراز كلها مزرعة للبن. ويحقق سكانها ثروتهم من حبوب البن، التي يبيعونها في الحديدة، بأسعار مرتفعة. ويسمى البن اليمني (موكا كافي)، نسبة إلى ميناء التصدير القديم، المخا، الذي أصبح الآن قفراً، رغم أنها لم تزرع شجرة بن واحدة في المخا، في أي وقت من الأوقات. وبما أن الحديدة، وإلى حد ما عدن، احتلتا اليوم مكان المخا، فإن من المنطقي أن يسمى بن اليمن بن الحديدة (حديده كافي)، أو بن عدن (عدن كافي). هذا إذا لم يرد المرء أن يسميه باسم المنطقة، التي

(310) طائر الهدهد.

يزرع فيها أو باسم البلد، مثلاً: بن يمني (يمن كافي). ويبلغ ارتفاع شجيرات البن في حراز قامة رجل. في حين قد يصل في بعض المناطق الأخرى أحياناً إلى خمسة أو ستة أمتار. وهي من أجمل الأشجار. وذكر كارل ريتر أن موطنها الأصلي هو أفريقيا[311]. ودون أن أقصد معارضة رأي هذا العالم المتميز من بين علماء الجغرافيا، أجدني غير قادر على كبت ملاحظة أود تسجيلها، وهي أني وجدت اسم القهوة في مخطوط عربي قديم، يحتوي على قصائد من القرن الثالث والرابع الهجري. وقد ورد ذكرها كنوع من أنواع النبيذ أو الأنواع الأخرى المسكرة.

وتضفي أشجار البن منظراً جميلاً على لمنحدرات، أو بالأصح على الشعاب، التي تترعرع فيها. وكم ترتاح العين وهي تلقي نظرها على ذلك الإخضرار الداكن الندي، الذي لاتكاد أشعة الشمس تنفذ من خلاله. فإذا ما سار المرء على امتداد خط الطريق، الذي يحدث في الرأس الدوار، ووصل إلى القمة، وجلس لينعش نفسه بفنجان صغير من القشر، فإنه سيشعر في هذا المكان، الممتلئ بأريج الأشجار، أنه يشاهد أمامه قطعة حقيقية من العربية السعيدة. أما بالنسبة للمتخصص في النبات، فعدا عن الأحاسيس، التي سيشعر بها، سوف يكتشف وسط النباتات، ذات الروائح الزكية، وإلى جانب شجيرات البن، عدداً لا حصر له من النباتات، التي تنمو وتترعرع كنباتات برية، في أماكن جانبية وغير معتنى بها. إنها نباتات مشهورة لدى الكلاسيكيين، تحولت لديهم إلى أساطير، مثل المرّه **Myrrhe** وغيرها من النباتات، التي توجد هنا، كما توجد في كل المنحدرات الغربية لجبال السراة. وفي الواقع أن شجر البن لايترعرع إلا في الأماكن، التي تتمتع بنوع خاص من الحرارة والرطوبة. ويتوفر هذا في غرب السراة، ويتوفر أيضاً، كما يبدو، في منحدرات الجبال المواجهة لخليج عدن. إذ يتصاعد من تهامة، صباح كل يوم، ضباب، كبحار من السحب، منعشة وعالية الرطوبة، تصعد نحو الجبال، لتصل إليها في منتصف النهار. فتفقد أشعة شمس الظهيرة حدتها، التي لا تتحملها أشجار البن. وتزرع عادة في حقول البن أشجار ضخمة، لتحجب أشعة الشمس عن شجيرات البن. وتتكفل الرطوبة بإنعاش أوراق الشجر. ويمكن أن يتبرم الرحّال أحياناً من هذه الرطوبة، التي تهجم فجأة وتنفذ حتى من خلال الملابس. ولكن مزارعي البن وحدهم يحمدون الله،

---

(311) يبدو هذا القول، الذي نسج على منواله بعض الكتاب، بحاجة إلى مراجعة. فقد عمد اليمنيون إلى فرض عقوبات بحق كل من يحاول تهريب أغراس البن إلى خارج اليمن. وهذا الأمر لايستقيم مع ادعاء أن موطن هذه الشجره هو أفريقيا، أو أنها جلبت إلى اليمن من أفريقيا. ففي هذه الحالة يصبح حظر تهريبها لامعنى له، مادامت موجودة في أفريقيا.

إذا ما شاهدوا عمة أو سخيمي (هكذا يسمون هذه الظاهرة) كثيفة، صاعدة من الأسفل. إذ أنها تحمل لهم البركة والغنى. وهذه الظاهرة، ظاهرة منتظمة، حتى أنها في مناخة لا تختفي خلال العام كاملاً، سوى فترة قصيرة، لاتتجاوز عشرين يوماً. فإذا ارتفعت الحرارة إلى درجتها القصوى، تلاشت العمة. ولكن المناطق القريبة من تهامة الحارة، وكذا النباتات نفسها، تعمل عملها في إبقاء درجة الحرارة في الليل عند حد معين، لا تنخفض عنه، بحيث أننا في هذا المناخ المبارك نجد أنفسنا، كما لو كنا وسط بيت زجاجي مكيف بصورة طبيعية، تتساوى درجات الحرارة فيه، في الشتاء وفي الصيف. وهنا فقط، في بلاد كهذه البلاد، يجود بن المخا. ويبدو أن شجر الككتين، ويسمى (العَمْق)، الذي غالباً ما تكون جذوعه في حجم عرض الرجل، وارتفاعه ثمانية إلى عشرة أمتار، يبدو أنه يجد هنا، في هذا المناخ، ضالته. فهو ينمو في كل مكان ينمو فيه شجر البن. ولما كان ضباب العمة لا يتجاوز في صعوده قمة الجبل أبداً، فإنه يصبح مفهوماً، لماذا لا يزرع البن على القمة وفي المنحدرات الشرقية للسراة، حيث يسود جفاف شديد.

وقد خصص كارل ريتر لشجرة البن فصلاً كاملاً في كتابه، حول جغرافية شبه الجزيرة العربية. ولم يترك لي إلا القليل، مما يمكن أن أقوله. ولأن هذا القليل في الغالب يتعلق بالجوانب التجارية، فسوف أغض الطرف عنه في هذا التقرير. إذ لاينصح في النمسا وألمانيا بتقديم معلومات تجارية للعامة، خوفاً من أن يستفيد منها مواطنو الأمم الأخرى قبل مواطني بلادنا بكثير. حيث أثبت الفرنسيون والإنجليز والأمريكيون والإيطاليون في الحديدة، منذ سنوات، قدرتهم على الإستفادة من المعلومات.

وعند ارتفاع ١٣٢٠م عن سطح البحر، وجدنا قرية وسل، الواقعة في أعلى الجبل، الذي يحمل الإسم نفسه. وسرنا على طريق في أعلى جبل وسل، حتى وصلنا منحدر جبل مسار، الذي سرنا فيه على طريق، أخذت شكل قوس كبير، متجنبة المجاري الأخدودية العميقة، شديدة الإنحدار. وخلفنا وراءنا بيت زبير وتسلقنا ببطء نحو عتّارة، التي وصلناها في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر. وتتكون قرية عتّارة من حوالي ستين منزلاً حجرياً، تستند في جهاتها الجنوبية إلى صخرة ترتفع في الهواء إلى حوالي ٨٠ متراً، وتبدو جوانبها غير قابلة تقريباً للعبور منها أو تسلقها، وعلى

رأسها يقع حصن الداعية اليامي[312]، الذي دمره الأتراك. ويبلغ ارتفاع القرية ١٧١١ متراً عن سطح البحر، وتقع على منخفض، في وادي، بين جبلي مسار وهوزن. ومسار، الجبل والقرية، يقعان على بعد بضعة كيلو مترات، نحو الشمال. أما جبل شبام، فيقع تقريباً في الشرق من عتّارة مباشرة. وعتّارة هذه كانت معروفة عبر الحملة التركية عليها، عندما كانت مقر الداعي أحمد الشبامي، حاكم دولة يام الإسماعيلية، أو كما يعرفها الأوربيون دولة نجران (وتسمى خطأ دولة المكرمي).

حكم الداعي أحمد الشبامي، من مركزه هذا، منطقة حراز كاملة ومناطق متفرقة في الجنوب ووادي ظهر في بلاد همدان، إضافة إلى منطقة قبيلته (يام). وقد استغل الياميون سقوط دولة الإمامة الزيدية، ليعيدوا بناء دولتهم، التي حكمت اليمن كله، قبل مئات السنين، إلى سابق عهدها، وإحياء الفلسفة العقيدية للإمام اسماعيل، التي نوصبت العداء، في القرون الأخيرة، ولم تلق تسامحاً إلا في عمق الصحراء العربية. وكانت نوايا اليامين هذه، التي لم يكن الزيديون ينظرون إليها بعين الرضا، إضافة إلى أوضاع الإمامة الزيدية، التي كانت قبائل حاشد وبكيل المستقلة تضيق عليها الخناق، كانت نوايا اليامين هذه سبباً في مجيء الجنود الأتراك إلى اليمن، الذين أقنعت مدافعهم الداعي أحمد الشبامي، بأن كل ما هو دنيوي زائل، كما أقنعته بالتخلي عن طموحاته. لقد سوي حصنه بالأرض وتم أسره، وأخذ عام ١٨٧٢م مخفوراً لإيصاله إلى القسطنطينية، ولكنه توفي في الطريق، قبل أن يصل إلى الحديدة. وعم الحزن لموته يام بكاملها، وذرفت عليه الدموع. وانسحب الياميون من حراز إلى منطقة قبيلتهم، يشتعل في صدورهم الغضب ومتعطشين للإنتقام، حيث وجدوا في شخص اسماعيل المكرمي في بدر[313]، داعية جديداً. وخوفاً على منطقته من الأتراك، عقد اسماعيل معهم حلفاً دفاعياً. وذهب أتباعه أبعد من ذلك، فدخلوا بأعداد كبيرة في جهاز الشرطة التركية.

وبعد توقف، دام ساعة ونصف، واصلنا رحلتنا. وسرنا في وادي عياش، الذي تصب مياهه باتجاه حجيلة. ثم سرنا في طريق صاعد، وواصلنا حول رؤوس الوديان في خط ملتف، ومررنا بالقرب من قرية الحجرة وقرية لكمة، التي يسكن فيها عدد كبير من اليهود، حتى وصلنا إلى الممر

---

(312) إنطلق من قرية عتّارة ومن حصنها، حصن عتّارة، الدعاة الإسماعيليون من آل شبام، ومنهم الحسن بن إسماعيل شبام. كما أوضحنا في هامش سابق.

(313) بلدة في نجران.

المرتفع، الواقع بين جبل مسار وجبل شبام، وانفتح أمامنا منظر، في الجهة الأخرى للأغوار العميقة. وفي الجهة الشمالية من جبل شبام الضخم (لايجب الخلط بين شبام حراز وبين شبام أقيان ومناطق كثيرة أخرى تحمل الإسم نفسه) صادفتنا هنا وهناك عقبات صغيرة (وهي عبارة عن مناطق مرتفعه في الجبال) وأخذنا نصعد ونهبط، حتى وصلنا مدينة مناخة، في الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة، مبللين من مطر غزير، سقط علينا قبيل وصولنا. واستضافنا الطبيب التركي، الدكتور علي أفندي، في منزله الضيق. وهو رجل لطيف، كنت قد تعرفت عليه في عمران. وكان أول من رأيته هنا، من معارفي السابقين، هو بطرس أفندي، ممرض الحامية المتمركزة هنا. كما يسمى أيضاً (بطرس تاريخ أفندي). وهو بالفعل يستحق هذه التسمية الأخيرة، فلم أصادف في حياتي ذاكرة قوية كذاكرة هذا الأرمني. إذ ما على المرء إلا أن يسأله عما هو جديد، حتى يفتح بطرس أفندي في الحال حجرة ذاكرته، ليندفع منها تيار المعلومات والأرقام، بدقة متناهية. حتى أنه يتذكر بدقة يوم وصولي الأول إلى الحديدة ويوم وصولي صنعاء وتواريخ رحلاتي المختلفة في اليمن،. ويصنع الشيء نفسه، بالنسبة لكل موظفي وضباط الفرقة العسكرية التركية. وفوق هذا يعرف ما حدث في اليمن منذ اثني عشر عاماً. إن كل شيء يحفظ في ذاكرته كالنقش على الحجر. بعد ذلك بقليل تبادلت التحية مع نجيب أفندي، القائد الشجاع، للمجموعة المقاتلة رقم١٣، الذي حقق قبل عام ونصف في نفس المنطقة معجزة بطولية. ثم التقيت بالعالم القائم مقام علمي أفندي، الذي أقضي معه الآن ساعات طيبة.

وتقع مناخة على رتفاع ٢١٧٥ متراً عن سطح البحر (المهندس التركي سوكولوفسكي أعطى ارتفاعاً آخر وهو ٢٢١٧ متراً. وذلك بسبب استخدامه مقياس الضغط الجوي البارومیتر، غير المزود بالزئبق). ومجال الرؤية في مناخة ليس منفتحاً، إلا إلى جهة الشرق والشمال والشمال الغربي، حيث تستلقي في الأسفل وديان خلابة. وفي الجهة الجنوبية الشرقية والجهة الجنوبية تستند المدينة إلى جبل كاهل الضخم، الذي تتزود منه بالمياه العذبة. وفي جهة الغرب، أو بالأصح الجنوب الغربي من المدينة، ينتصب جبل أكثر ضخامة، هو جبل شبام، الذي يبلغ ارتفاعه ٢٦٠٠ متر عن سطح البحر، ولا يبدو أنه يماثله في الإرتفاع سوى جبل مسار. ويتصل بجبل كاهل من ناحية الجنوب الشرقي جبلا اليعابر وبني مقاتل الضخمان أيضاً، اللذان لا يفصلهما عن جبل عانز سوى فراغ ضيق. وكل المياه، في شرق مناخه ومسار وشمالهما، تنحدر عبر وديان كثيرة إلى سردد. في حين أن مياه الجهة المواجهة لهذه الكتلة من الجبل تنحدر إلى سهام. وفي الجهة الشمالية الشرقية يقع

وادي شجة (ذكره الهمداني تحت اسم نقيل شجة) ووادي زون، الذي سمي فيما بعد (وادي شذب)، وتتجاوز مياهه جبل مسار لتصب في تهامة. وهو محاط في جانبه الأيمن بالجبال التالية: بني عيثري، وحطب، ومغاربه، وبني لعف مع ظهار وداعوه، الذي يقع عند أقدامه سوق الخميس. وفي جانبه الأيسر جبال مسار وصعفان والعارضة. وفي الجهة الأخرى من الوادي، نحو الشرق تقريباً من مناخة، نلمح أراض جبلية منخفضة وجميلة، تنحدر باتجاه الحيمة. وفيها القريتان المعروفتان عجز ومفحق، التي تمر طريقنا عبرها.

ومناخة نفسها مبنية بناءً جميلاً، فمنازلها تبنى بحجارة من الكتل الجبلية المجاورة لها، ذات الوان زرقاء وخضراء. ويبلغ سكانها ثلاثة آلاف نسمة تقريباً. من بينهم مائتا يهودي، يسكنون في حي منفصل، ويتجمعون حول المليونير اليهودي هارون، الذي جمع ثروة طائلة في عهد الدعاة اليامين، تعتبر بالمقياس اليمني ثروة غير معقولة. فقد كان في ذلك الوقت اليد اليمنى للداعي الشبامي، الذي، كما يقال استخدم هارون كوسيط لإنجاز صفقات، ما كان يجوز له كملك أن يقوم بها. ورغم ثروة هارون الهائلة، فإنه لم يتخل عن التقاليد اليمنية_اليهودية ولاعن دوره الأبوي. إنه يعيش في ملبسه ومأكله، هو وأولاده، كما يعيش أفقر الناس، ولو رآه المرء وهو في الطريق، بزناره ورأسه الحليق، لما ظن أن هذا الرجل يمتلك نصف أراضي المنطقة.

كما أن مناخة بالدرجة الأولى سوق للبن. وتنحصر تجارة البن كلها تقريباً في يد هارون وأتباعه. ولا يعتبر صديقاً كبيراً للأوربيين، لأنه ليس من السهل عليهم استغفاله (كلفتته). ويوجد في مناخة مستشفى جميل للأتراك، يحتوي على ستين سريراً للمرضى، ولاسيما المرضى التهاميين، الذين يحتاجون إلى هواء الجبال البارد، ولا تسمح صحتهم بالقيام برحلة إلى منطقة أبعد. وينتشر في تهامة وفي الجبال أيضاً، إضافة إلى أمراض أخرى، مرض الحمى المصاحبة لفقر الدم. وهو مرض يقضي على المريض في أيام، وغالباً في ساعات قليلة. وحتى في مناخة أيضاً، كان علي أن أستقبل خبراً محزناً، وهو أن اثنين من أفضل أصدقائي فيها، وهما السيد أحمد، صاحب النفوذ الواسع، وصيدلي تركي، قضى عليهما هذا المرض أثناء غيابي، وكانا شابين قويين. وإلى جانب ذلك بنى الأتراك معسكراً لجنودهم، ومبنى حكومي جميل. والسكن في مناخة غال جداً. ويبسط القائم مقام، الموجود في مناخة، سلطته على منطقة جبل حراز بكاملها وعلى الحيمة (الداخلية والخارجية) وعانز.

وتنقسم حراز حالياً إلى الأقسام التالية:

١- بني عرّاف (على جبل صعفان).

٢- صعفان.

٣- مسار.

٤- المغاربة.

٥- بني اسماعيل (شمال غرب مسار).

٦- حصبان، (ذكر مولر ص١٠٥، السطر ٢٠، إسمين محرفين وأضاف إليهما حصنان، وهو مايعني برجين. وواضح أن الإسم الصحيح هو حصبان).

٧- هوزن.

٨- الثلث.

٩- لهاب.

١٠- بني مقاتل.

١١- اليعابر.

١٢- العقمر، شرق مناخة ومحاد للحيمة.

وذكر الهمداني (مولر ص١٠٥) أن الورس أيضاً يزرع في حراز. وهذا النبات الملون، الذي سنتطرق إليه بالتفصيل في أماكن أخرى، لم يعد يزرع اليوم في حراز. ويبدو أن البن قد حل محله. وفي الصفحة نفسها تحدث الهمداني بالتفصيل عن حراز، وهو حديث لايزال بعضه صحيحاً حتى اليوم. ونكتفي هنا بإيراد بعض المناطق، التي ذكرها الهمداني:

- التيم، وهي جزء من لهاب.
- إدروب (وليست أدروب كما عند مولر) لاتزال موجودة تحت اسم (وادي إدروب) على الجهة الغربية من جبل صعفان، في منطقة بني عرّاف.
- العبر. كما توجد أيضاً عبرات في منطقة بني مقاتل.
- وادي حار، في الغرب من جبل صعفان.
- شط الحجل، ربما هو نفسه الحجيلة.

- ظهار، وهي منطقة لا توجد فيها قرى، وتقع في بني لعف في مغاربة. ويوجد جبل ظاهر في القرب من عتّارة. وظهار يقع بين جبل برع وجبل ريمة. وظهار في حضور.
- العارضة، جبل حملته على خارطتي.
- حصبان (وليس كما كتبها مولر حصنان) في غرب ديان.
- لعسان، كل الأراضي الواقعة عند أقدام جبل برع تحمل هذا الإسم.
- عناصر (حولها مولر إلى خناصر) في منطقة بني اسماعيل.
- برار (سماها مولر برام) في الوادي الذي يحمل الإسم نفسه.
- الموزة، حالياً منطقة صغيرة في الثلث، لا تبعد بأكثر من ثلاث ساعات من مناخة.

وعدد كبير من الأسماء، لم يعد بالإمكان مع الأسف التعرف عليها، استناداً إلى النسخة، التي حققها مولر، وستبقى كذلك، مالم تظهر نسخة ثانية مصححة من كتاب الهمداني.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف واصلنا سفرنا. وسرنا في البداية باتجاه الشرق، منحدرين في شعب شجة العميق، الذي توجد في منتصفه تقريباً مقهاية مظللة بمجموعة من الأشجار الجميلة. وتعود هذه المقهاية، منذ زمن طويل، إلى عائلة الصعيفة، التي تنتمي إلى اليعابر، القاطنين في هذه المنطقة. وهذا الشعب محاط في جانبه الأيمن، أي الجهة الجنوبية، بمنحدرات الكاهل وجبل اليعابر، وفي جانبه الأيسر، أي الجهة الشمالية، بجبل حضور. ونظراً للجو الماطر، كان علينا أن نمكث في هذه المقهاية، التي وصلناها في الساعة الثانية عشرة والنصف، منهكين تماماً، بعد هبوط متعب في الشعب، بسبب انخفاضه الشديد، إذ يقع منخفضاً عن مناخة بمقدار ٢٨٠ متراً. وفي الساعة الواحدة وخمس وعشرين دقيقة بعد الظهر غادرنا المقهاية، لنصل في الساعة الثانية وعشرين دقيقة إلى قاع وادي **Zaun**، الممتد من جبل عانز، والذي تنحدر مياهه إلى وادي شذب، وصلناه بعد أن هبطنا من المقهاية ٢٥٠ متراً. وبالطبع فإن كل هذه الوديان لا تأتيها المياه إلا في موسم الأمطار. ووادي **Zaun** مسكون من قبل بني مقاتل، الذين يتبعهم أيضاً الجبل، الواقع إلى يسار الوادي. وسرنا حوالي عشرين دقيقة، على امتداد الوادي، ثم انحرفنا نحو اليمين، وتركنا على يميننا تلاً، تقع عليه قرية لكمة الكروب، وعبرنا عدداً كبيراً من التلال، التي تنحدر بشكل عام نحو الشمال الغربي. وقبل قرية بيت ابن المهدي ببضع مئات من الأمتار، لحنا في البعيد جبل الطويلة، في جهة الشمال تقريباً. وبين المكان، الذي كنت أقف فيه، وجبل الطويلة، تبدو جبال الحيمة المنخفضة،

بقممها المتفرقة. وعلى بعد حوالي أربع ساعات باتجاه الطويلة يظهر الجبل الوحيد العالي في هذه المنطقة، وهو جبل بني يوسف، في الحيمة. وبين جبل بني يوسف وتل بيت دبلان، الأقرب منه (على بعد ساعتين ونصف تقريباً)، تجري مياه وادي ديّان التي تنحدر إلى سردد.

وفي الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة تركنا قرية بيت ابن المهدي، وهي آخر القرى الحرازية، وتقع فوق التل على يمين الطريق، وسرنا باستمرار وسط أحراش، تجعل المنطقة أشبه بالخبت. وكانت أعداد كبيرة من الديدان، ذات لون أسود لامع، سمكها بسمك اصبع اليد، وطولها يترواح بين ١٠و١٢ سم، كانت تتحرك على الطريق وحول الأشجار، وتسمى حبلبان (وفي بعض المخطوطات اليمنية سميت حلببان)، وتشبه عند أول نظرة حية صغيرة. ويحكي العرب أن هذه الديدان كانت في الأصل سامة كالثعابين، وشديدة الخطورة. ولأنها لم تكن تملك أقداماً، فقد دخلت مع الثعابين في عملية مقايضة. فأخذت من الثعابين أقدامها وأعطتها سمها. وربما يشير اسمها (حبلبان) إلى البخور (لبان). أفلا يمكن أن تكون هي الثعابين الخطيرة، التي كانت تحمي أشجار البخور (أنظر أيضاً ريتر ٩١٥،١، الذي ذكر أيضاً شجرة دم التنين). وهذه المنطقة مليئة كذلك بالطيور، التي لم نجد بينها إلا نوعاً واحداً جديداً، يسمى سقاية. وهو طير ذو شكل قبيح، له صراخ كالصرير.

وبعد أن صعدنا الوادي وتخطينا سلسلة من المرتفعات، وصلنا في الساعة الخامسة مساءً إلى مقهاية العجز، حيث شاهدنا من هناك مدينة مناخة، إلى الغرب تماماً. وكان صاحب المقهاية من مدينة القاهرة، يقيم في اليمن منذ ثلاثين عاماً، ويرتاح، عند الحديث عن وطنه القديم، مصر، ويسميه الأتراك مصطفى التبل، نظراً لسيقانه المتصلبه. ويشرب باستمتاع، قليلاً من الكونياك، ليس أقل من لتر، إذا أمكن ذلك. ولا يسره مرأى المسلمين الأتقياء في مقهايته، لأنه مضطر عند ذلك، أو بالأصح زوجته المسكينة، مضطرة إلى حمل الماء إليهم، من مكان بعيد، في جبل متمه المواجه. وتقع قرية العجز بالقرب من المقهاية، ولكن في موقع مرتفع. وتقع المقهاية على ارتفاع ١٥٥٠ متر عن سطح البحر، وهو تقريباً نفس ارتفاع الخبت، الواقع بين حراز وحضور. وكانت هذه المنطقة في زمن الهمداني تسمى الأخروج، وتسمى اليوم الحيمة، أو الحيمة الخارجية. وتنحدر تدريجياً باتجاه الغرب، أو الشمال الغربي، أي باتجاه سردد. وتشكل المرتفعات الممتدة من جبل حضور النبي شعيب، نحو الجنوب ثم نحو الشرق، تشكل فاصلاً بين مياه وادي سردد ومياه وادي

سهام. وتسمى قرن الوعل (سميت هكذا كما يبدو لأنها تشبه في شكلها قرن الوعل)، وتمتد في جنوبها سلسلة تلال منخفضة إلى الجناح الشرقي لجبل عانز، البالغ ارتفاعه حوالي ٢٣٠٠ متر عن سطح البحر. ويقع جبل عانز في جنوب عجز. ومنطقة الوسط تتكون من مرتفعات صغيرة منفصلة أو متجهة بانتظام نحو الغرب والشمال الغربي.

وفي الساعة الخامس وخمسين دقيقة من يوم الأربعاء، التاسع والعشرين، غادرنا العجز. وسرنا أولاً على سلسلة من التلال، ثم تحولنا نحو الشمال الشرقي، حيث مررنا لبضع دقائق عبر شق ضيق في الصخور، يسمى ضيق صالح. ويبدو أن هذا الشق قد نتج عن تأثير جريان المياه. وتملأ شجرة الككتين (العمق) منحدرات هذه التلال. وينشط النحل عليها، لتحويل عصيرها إلى عسل. إنها شجرة مهمة بالنسبة لليمنيين، لأن عسلها يدخل ضمن وجبتهم الرئيسية (بر وسمن وعسل). ويمنح شجر التالوق أو التولق (هناك شجر آجر مماثل له يسمى تالب) وشجيرة العشار، وهي شجيرة لها أوراق سمكية وعريضة ويحرق خشبها للحصول على الفحم، كما يستخرج منه الدقيق، يمنحان هذا الخبت منظراً مريحاً. وفي الأجزاء المنخفضة لا يشاهد المرء سوى حقول الحبوب. ولا يوجد البن في كل الحيمة إلا بكمية قليلة جداً، أو لا يوجد أصلاً.

وفي الساعة السابعة وأربعين دقيقة وصلنا إلى قمة العقبة القصيرة، التي تؤدي إلى أعلى سلسلة التلال، الواقعة قبل مفحق، التي تمتد عليها طريق الجمال، المسماة طريق صنفور، الممتدة مباشرة من مفحق، مارة بين عانز وبني مقاتل، لتتصل إلى وادي صيحان الدومر. وبعد أن تجاوزنا العقبة، لمحنا مفحق، الواقعة على مخروط في الجهة المقابلة. وفي تمام الساعة الثامنة وصلنا إلى قرية مفحق، واستقبلنا المدير عثمان أفندي، اللطيف المعشر، وأنزلنا عنده لبضع ساعات. وتقع هذه القرية، التي تتكون من منازل قليلة، في منتصف منحدر جبلي، على ارتفاع ١٦٩٠ متراً عن سطح البحر. وعلى قمة الصخور، التي ترتفع بحوالي ٨٠ متراً عن القرية، يوجد حصن، يعسكر فيه حوالي إثنا عشر جندياً، يتبعون معسكر مناخة. وإضافة إلى هؤلاء الجنود، يوجد تحت إمرة المدير، بطبيعة الحال، عدد من رجال الشرطة (ضبطية أو زبطية، حسب النطق التركي). ومعظمهم من عرب المنطقة نفسها، أو من الجوف، إضافة إلى إثنين من الخيالة الأتراك.

ومفحق هي مركز عزلة الحيمة الخارجية، التابعة لقضاء مناخة. ويبدو أن مركز بلاد الأخروج، التي ذكرها الهمداني، باسم ذات جردان، هي نفسها مفحق (تسمى الديدان في العربية

الجنوبية جردان[314]، مما يدل على أن المقصود هنا الحبلبان)، لأنه أكد أن الأخروج تتصل بالجزء الأسفل من حضور (يناع وشم وماضخ وصابح والأغيوم وبرّيش وعلسان) وتقع بين حضور وهوزن. وبما أن علسان، تتبع الأخروج، وتبعد بمسافة ساعة ونصف، نحو الشمال من مفحق، والجحادب تتبع أيضاً الأخروج، وتقع بالقرب من علسان. وبما أن سكان الأخروج، الذين ذكرهم الهمداني، أي الصليحيون، ليسوا بعيدين من مفحق، ولايزال يسكن بعضهم حتى الآن في قملان، الواقعة بين سوق الخميس وبوعان، فإنه لايبقى شك، في أن المنطقة الممتدة من بوعان إلى بيت إبن مهدي، هي بلاد الأخروج، وفي وسطها مفحق (ذات جردان)، المطابقة تماماً لما ذكره الهمداني، والتي تمر منها الطريق إلى نقيل شجة وإلى هوزن (مناخة). وفي مفحق قيل لي أن دروان ويناع وعلسان وجبل أحمن والرحمية (نصف ساعة إلى الشمال من علسان) وجبل نبهان (في منطقة بني مطر)، هي مناطق أثرية.

وفي الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر تحركنا باتجاه سوق الخميس، الواقع إلى الشمال الغربي. وكان علينا أن نتخطى عدداً من الوديان، تنحدر مياهها باتجاه الجنوب الغربي، نحو مفحق، ومنها تنحدر نحو الغرب ونحو الشمال الغربي، لتصب في تهامة، في وادي سردد. وكانت صخور الجبال، التي مررنا بها خضراء اللون. ويقع سوق الخميس على أحد أطراف هذه الجبال، في موقع ليس مرتفعاً كثيراً. والكتلة الجبلية الرئيسية من سلسلة الجبال، الواقعة في الجهة الشرقية من هذه القرية، تسمى جبل منار، وخلفها جبل بير. وكلاهما ليسا سوى طرفين لقرن الوعل، المتصل بجبل حضور.

وبعد أن سرنا في منحنيات وانكسارات كثيرة، وصلنا، في الساعة الرابعة وخمس دقائق، إلى سوق الخميس. ومررنا قبل وصولنا إلى السوق، بثلاثة أرباع الساعة، بجانب مقهاية الحوزين (نيبور سماه هدين وسماه كروتندر هوضين). وبتنا ليلتنا في سوق الخميس (السوق في الواقع يقع خارج القرية، في مكان مرتفع، كان قد دمره الأتراك). وعانينا خلال الليل كثيراً من البراغيث، إلى درجة أني لم أغمض عيني للحظة واحدة. وكان النظر إلى جبل ضوران ممتعاً. وتظهر في الخلف غير البعيد، في جهة الجنوب الغربي، سلسلة من الجبال الضخمة. وبين هذه السلسلة والمكان الذي أقف فيه، أو

(314) إذا كان يقصد جرذان، فقد جانب الصواب. فالجرذان ومفردها جرذ، هي الفئران.

بالأصح وبين جبل بير، يقع واد واسع، تبدو أراضيه مكونة من تربة الطمي الخصبة، يسمى (الفرش)، تتجمع فيه مياه جبل حضور النبي شعيب وبني مطر. وشمال الهان وعانز، في طريقها إلى وادي سهام، لتأخذ معها بعد ذلك مياه الجهة الجنوبية الشرقية من مفحق. ووادي الفرش هذا يتبع، في جزء كبير منه، يتبع بني مطر. والجهة العليا منه خصبة جداً، وتنتج نوعاً ممتازاً من البن. أما الأجزاء السفلى منه فتبدو غير خصبة، ويسكنها البدو (بني سويد وبعض المجموعات القبلية المهاجرة من المشرق). وهذه المنطقة ليست عديمة الأهمية من الناحية التاريخية. ففي مخطوط هام، موجود في مكتبتي، للملك الأشرف أبي حفص عمر، السابق ذكره، عنوانه (كتاب طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب)، ماتزال حالته جيدة، توجد واحدة وخمسون صفحة مربعة، ربما ليست في الأصل جزءاً من المخطوط نفسه، تناولت باستفاضة وادي سهام فقط، وما حدث فيه من هجرات قبلية وأحداث قتالية. واسمحوا لي، نظراً لأهمية ما ورد في المخطوط، لتحقيق هدفنا، أن أسوق أبرز ما ورد فيه، ولاسيما أن هذا المخطوط سلط ضوءاً على أصول الغساسنة، الذين كانت لهم أهمية كبيرة في تاريخ الشعوب العربية. (انظر ريتر ١، ٨٦،٧-١٠٧-١١١)، كما سلط ضوءاً على الهجرات القديمة للقبائل العربية الجنوبية. ولا يفوتني أن أذكر أن مؤلف المخطوط أكد بأن الجزء الأكبر من موضوعه كتب اعتماداً على كتاب، يرجع إلى عام ١٠٤هـ.

ففي العصر الحميري كانت، بناءً على رواية وهب بن منبه، كانت مناطق وادي سهام كاملاً والمهجم وسردد وتهامة، إلى حيس، مسكونة من قبل قبيلة عك بن عدنان. ويضيف مؤلف المخطوط، أنه بالإضافة إلى عك كانت تسكن في هذه المناطق قبيلة الأشاعر، لأن والدة عك كانت ابنة أشعر. وذهب الهمداني، بصورة عامة، إلى الرأي نفسه. وعندما أوشك سد مأرب على التهدم -في رأيي أنه نتيجة للجفاف، الذي ساد شرق السراة، وتزايد من عام إلى عام، أجدبت الأرض. بعد ذلك، ووفقاً للمعرفة المتوفرة حول الظواهر المناخية، حدثت سيول قوية أدت إلى تهدم السدود- انتقل الملك عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء مع أولاده وشعبه المقاتل، الأزد، انتقل من مأرب، متجهاً أولاً نحو وادي سهام والحقل. وبعث أحد أقاربه واسمه عمرو الملطام إلى سملقة بن حباب، ملك عك، راجياً السماح له ولقومه بالإقامة لبعض الوقت في أراضيه. وفي اجتماع شعبي عقدته عك استطاع الملك سملقة أن يقنع عك بالموافقة على نزول هؤلاء الغرباء بين ظهرانيهم. بعد ذلك سار الغساسنة (أي قوم عمرو ميزيقيا) إلى الجهة الغربية من وادي سهام. وبعث عمرو أبناءه

إلى جهات مختلفة من البلاد، لشراء خيول ولأغراض أخرى. وعندما عاد الأبناء كان والدهم قد فارق الحياة. فخلفه، ملكاً على الغساسنة، ابنه ثعلبة العنقاء، والد قبيلتي الأوس والخزرج. وحرض جزع بن سنان، من أتباع حارثة بن عمرو، حرض الملك الجديد على أن يطلب من عك اعطاءه الجزء الأعلى من الوادي، وهو ما رفضه العكيون. وسرعان ما نشأ خلاف بين القبيلتين. وأقدم زوبعة، وهو ابن أحد اخوة الملك، على قتل سملقة، ملك عك. فثارت المعارك الدامية، التي هُزم فيها الغساسنة. وبناءً على نصيحة للملك، من اخوته، توجه ثعلبة، مع جزء كبير من قبيلته، إلى همدان (ربما إلى منطقة جبل مصانع، الذي يحمل أعلى جزء منه اسم حضور بني أزد، ثم بعد ذلك بقليل نحو الشمال، على امتداد قمم السراة، أو بالأصح على امتداد المنحدرات الشرقية للسراة). ولم يبق في الحقل وفي وادي سهام، في جهته العليا، سوى عبس وبولان، الذين كانوا لايزالون يسكنون هناك، في عصر المؤلف. وتحمل هذه المنطقة اسماً خاصاً، هو أرض غسان. وفي الأنساب ترد عبس الأزد وبولان الأزد، أتباع حارثة بن ماذن، تحت اسم عبس. وعاش هؤلاء في تلك المنطقة، حتى جاء كليب والمهلهل، وهما من أبناء ربيعة بن حارث بن مرة، جاءا إلى وادي سهام والمهجم ولعسان، واحتلا هذه الأراضي.

كان المهلهل طاغية كبيراً، اضطهد كل قبائل وادي سهام. وكانت تتبعه حصون ثلاثة، هي: أشيح وظفار الواديان ونعمان، وجميعها تقع على جبل واحد في أرض غسان. ولم يتجرأ أحد على التعرض لهذه الحصون، لما كان يتمتع به حراسها الكثيرون، من بكر وتغلب، بني وائل، من شجاعة وصمود. وعندما أراد الله أن ينزل عقابه على المهلل وقومه، سلط عليهم ما تعرف بحرب البسوس، التي كان سببها قتل جساس لكليب. ودون أن ندخل في تفاصيل تلك الحرب والقصائد، التي قيلت فيها من كلا الطرفين المتقاتلين، نكتفي بالإشارة إلى أنه بعد أربعين عاماً من الحرب الطاحنة والعداء المتواصل، قدم من سراة الحجاز أحد أنسال عمرو مزيقيا، ملك مأرب، السابق الذكر، وهو حجيري ابن الحجيره الشامي ابن الحجر بن عمران بن عمرو المزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امروء القيس بن ثعلب ...إلخ، ويصل نسبه إلى قحطان بن هود، قدم إلى وادي سهام، مدعوماً من بني مطر وبقايا الغساسنة، الذين ظلوا في الوادي، وألحق الهزيمة بالمهلهل، الذي فر إلى أهل جنب، في منطقة مذحج. واستولى حجيري على المنطقة، الممتدة شرقاً وغرباً، من المعقار (بالقرب من قرية العادية في وادي سهام) وحتى ظفار. بقي أنسال حجيري من الغسانيين في هذه

المنطقة، من العصر الجاهلي الأخير، حتى غادروها في عصر الإمام شرف الدين. وما يزال بعض أنسالهم يعيشون حتى اليوم، في قرية برهان (بني حسن).

وفي مكان آخر من المخطوط، خصصه المؤلف لسرد نسب جفنه (من غسان الأزد) ونسب جبلة ابن الأيهم ونسب غساسنة الأزد، أورد بعض أقوال المؤلفين الآخرين، الذين نقلوا مساكن الغساسنة إلى المنطقة الواقعة بين وادي زبيد ووادي رماع. ولا شك أن بعض الغساسنة قد سكنوا فعلاً في هذه المنطقة. أما وادي زينك ووادي زما، اللذان ذكرهما المؤلفون الأروبيون (أنظر: ريتر، أ،١٠٩)، فليسا سوى وادي زبيد ووادي رماع، فقد أخطأ هؤلاء قراءة الإسمين، وهذا يمكن حدوثه، عند قراءة المخطوطات العربية الجنوبية، التي نادراً ما تُنقط فيها الحروف. وذكر الهمداني، في صفة جزيرة العرب، في سياق حديثة عن وادي رماع، أنه يوجد في أسفله موضع ماء، اسمه (غسان). ويمكن البحث عنه بالقرب من بيت الفقيه. وذكر مؤلف مخطوطنا أن بعض قبائل الأزد، ولاسيما بني جفنة، لديهم عادة، وهي التجمع حول مواقع المياه. ويروي هنا قصة جميلة من مأرب، تقدم تفسيراً لاسم غسان. فهو اسم أطلق على هذه العادة (التجمع حول المياه) وليس على القبيلة.

لقد أمكن لنا أن نتتبع بعض الشيء حركة الأزد في بلادهم الأصلية، الذين لعبوا فيما بعد، كما هو معروف، دوراً هاماً، حتى في اليمن نفسها (فبني رسول وآخرون كانوا غساسنة). أما التاريخ اللاحق لهذه القبيلة اليمنية المهمة، التي أنشأت دولة مستقلة في سوريا، في بداية القرن الثالث الميلادي، مثلما أنشأ جزء منها دولة أخرى (الحيرة)، بالقرب من الكوفة (كدولة حدودية بالنسبة للساسانين)، فلا يدخل ضمن إطار هذا التقرير. والأمر نفسه ينطبق على عدد كبير من القبائل العربية الجنوبية، التي تحولت من مناطقها الأصلية إلى مناطق أخرى مختلفة. لذا نكتفي هنا بالقول، إنه منذ الأزمان القديمة، أنشأ هذا الشعب السبئي الحميري، ذو الحضارة الراقيه، مستعمرات عديدة، في أنحاء الجزيرة العربية (انظر هوبرت **Hubert** وأويتنج **Euting**، حول النقوش الحميرية، التي تم العثور عليها في شمال شبه الجزيرة العربية، ولحقتها نقوش أخرى من مناطق مختلفة)، وأنه يمكن اكتشاف المزيد من الآثار، الدالة على هذا الماضي العريق، سواءً في مناطق العربية الجنوبية أو في المناطق الأخرى من شبه الجزيرة العربية. وأملك أنا نفسي، في مكتبتي، بعض المخطوطات القديمة، التي تسلط الضوء على هذه المسألة، وتقدم معلومات أكثر بكثير مما

اقتبسناه آنفاً، وسوف أضعها بين يدي المتخصصين في الدراسات الشرقية، متى ما سنحت الفرصة لذلك. وأتمنى، إذا لم يظل واقع الحال على ما هو عليه، أي إذا لم أبق أعمل دون دعم مالي من المؤسسات العلمية الأوربية، أتمنى أن أتمكن من جمع مادة مفيدة، تساعد على توضيح جوانب الواقع التاريخي لهذه الأزمان البعيدة، التي اندثرت معالمها، سواءً من خلال أبحاثي الخاصة، أو من خلال المخطوطات القيمة، ذات العلاقة بموضوعنا. وإني لسعيد بالثقة غير المحدودة، التي منحني إياها عدد كبير من العلماء العرب ورؤساء القبائل، والتي مكنتني، دون صعوبات، من الإطلاع على المخطوطات، التي حرصوا على حجبها، بعناية، عن الآخرين. ولا يزال يعيش في اليمن حتى اليوم عدد كبير من أنسال حجيري، مثل:

- بني حسن بن علي بن قاسم، الذين يعيشون مع بني هاجر في برهان .
- بني رواع وبني فراش في جبل الشرق.
- بني جريف في رداع أشيح.
- بني سعيد في رزوه. ويتبعهم أيضاً بدو بني جشوش في فرش بوادي سهام ووادي عيران.

وأورد المؤلف أيضاً أسماء عدد من المناطق والخرائب التابعة لغسان، مثل:

- منقر ورحمان في فرش، في المنطقة الواقعة بين بني مطر وسنحان وبني سويد.
- معقر في الجزء الأسفل من بني سويد.
- المقناطية.
- أشيح وظفار في الجزء الأعلى من بني سويد.
- جرفية وحرازي ومعمر، جميعها في وادي عيران بمنطقة بني سويد.
- الخزاعية في وادي عشار في منطقة نافش).
- العقر، منطقة في فرش، حيث ذبحت جمال الشراب، المعروف في حرب البسوس، وفقاً للتقاليد المحلية.
- السودة، بالقرب من قرية العادية، وفيها آثار ترجع إلى العصور الوثنية.
- القطانة، منطقة أثرية في أسفل حقل سنحان.
- برهان، وفيها المقبرة المشهورة باسم مقبرة شمسان.

- كدنة على مرتفع الجزء الغربي من حقل سنحان.
- جوّة الكريف، في الجزء الأعلى من حقل سنحان، على حدود بلاد المشرعة.
- ملية، وفيها قبر عباد، الذي يزوره البدو باستمرار.
- سوق المسالقة، في حقل سنحان.

ولم أحمّل بعد على خريطتي هذه المناطق، التي جمعت عنها معلومات موثوقة، وذلك لأني أنوي زيارتها قريباً. ويسكن اليوم بنو سويد الجزء الأكبر من منطقة فرش (الذين كان يتبعهم في الأزمان القديمة **Sabghin**، في بني مطر، وبني سيار ووادي تالق وسكان بلاد عتمة، الذين ينتمون إلى برهان). ومنطقة بني سويد تتبع آنس، وتشمل، وفقاً لما ذكره مؤلف المخطوط، الذي بحوزتي: وادي سهام، ابتداءً من الحقل، حتى ضابي ووادي شقيح إلى حدود بني مطر وإلى أسفل سنحان. وينقسم بني سويد إلى أقسام كثيرة (مثل آل عبيد وأهل نفيص ...إلخ)، وأنسابهم مختلطة. فبعضهم يعتقد أنه ينتمي إلى خولان، وآخرون يزعمون أنهم ينتمون إلى مناطق الشمال، وأن أنسابهم تلتقي مع أنساب الغساسنة. ويعيشون منذ مئات السنين في صراعات دموية. ويعتمدون في معيشتهم على بيْع الأخشاب، ويشاهدهم المرء يومياً على الطريق إلى صنعاء، بجمالهم المحملة بالأخشاب، التي يعرضونها للبيع. ويتجنب المسافرون حالياً، بشكل عام، المرور بمنطقتهم، التي لا يسود فيها الأمن. وبعد هذا العرض، الذي ألقينا من خلاله شيئاً من الضوء على هذه المنطقة غير المعروفة، نواصل الآن رحلتنا.

في الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة، من صباح الخميس، امتطينا بغالنا من سوق الخميس، لنصل في الساعة السادسة وعشرين دقيقة إلى جبل منار، وصعدنا صعوداً رأسياً في طرفه الشمالي، حيث أمكننا رؤية وادي بني سليمان، الواقع في الجهة المواجهة لمفحق (يسمى الجانب الأيسر من الوادي المخلاف)، وخلفه شاهدنا سلسلة جبال. وفي الساعة السادسة وخمسين دقيقة وصلنا إلى أعلى نقطة في طريق جبل منار (إرتفاع ٢٦١٠م عن سطح البحر). في حين أن الجبل نفسه أكثر ارتفاعاً من أعلى نقطة في الطريق، بحوالي ٨٠ متراً. وخلف هذا الجبل تنساب مياه الوادي الواسع، المسمى (وادي عبدالحق)، نحو الشرق ثم تتحول نحو الجنوب الشرقي ثم نحو الجنوب. وهذا الوادي يتبع المخلاف، وكلاهما يتبعان مفحق. ويمتلك بني مطر الجانب الأيسر من وادي عبدالحق. وأخذنا نصعد بين وادي عبدالحق ووادي سليمان، حتى وصلنا إلى مكان يلتقي فيه

رأسا الواديين. وفي رأس وادي عبدالحق توجد قرية قملان وحصنها، وهي القرية، التي أعطت للجزء الأعلى من الوادي اسمه (قملان). في حين تقع قرية بيت سلامة، التي تبعد بمسافة ٨٠٠ متر، على الواديين، في غرب قرية قملان. وتصب مياه وادي عبدالحق إلى وادي سهام، وخلف ضفته اليسرى تبدأ فرش، التي تكرر ذكرها. وفي الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة وصلنا إلى نبع ماء عذب، بين قملان وبيت سلامه. وتسمى المنطقة هنا بإسم غريب وهو (صلب أوصلاب فرعون). واستمر صعودنا، حتى وصلنا، في الساعة الثامنة وأربع دقائق، إلى أعلى نقطة في طريق قرن الوعل (إرتفاع ٢٧٥٦ متراً عن سطح البحر)، ومنها هبطنا باتجاه وادي صباحة. وتجري مياه هذا الوادي أولاً نحو الشمال، ثم تتحول بعد ذلك نحو الشرق، باتجاه بوعان، لتجري من هناك نحو فرش. وقد فضلنا عدم الإستمرار في السير على الوادي المذكور، وبدلاً عن ذلك صعدنا عقبة، إلى ظهر جبل صغير، أوصلنا، في الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة، مباشرة إلى السوق الكبير (بوعان)، الذي ينخفض أقل بقليل من مئتي متر، عن قمة قرن الوعل. ولكي يرسم المرء صورة عن سوق بوعان الكبير هذا، ما عليه إلا أن يتخيل ثلاثة صفوف من العشش يجلس فيها عرب، في أيام السوق، جلسة القرفصاء، مستغرقاً كل منهم في عملية مساومة مع المشترين.

وتوقفنا في بوعان لشرب فنجان من القشر، لأني كنت أريد أن آخذ معي دليلاً، للصعود إلى جبل حضور النبي شعيب. وكان هناك صبي من رعاة الماشية، قضى سنوات يرعى الشياه، على منحدرات هذا الجبل، بدالي أنه أفضل دليل.

ورغم أهمية المكافأة المالية، لصبي يمني يرعى الماشية مثله، فقد غير رأيه أخيراً، وتركنا في الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة نواصل السير دون دليل. وأخذنا نتخطى العديد من الوديان، التي تنحدر سيولها من جبل حضور، وتسيل نحو الجنوب الشرقي، باتجاه منطقة بني مطر وفرش. وفي رأس وادي، من هذه الوديان، تقع قرية بيت محضل، وقد مررنا عبر الطريق الواقعة بينها وبين قرية بيت القرماني، الواقعة إلى يمين الطريق. وفي الوادي التالي وجدنا قرية يسكنها سادة، تسمى (ظهار)، تقع على يسار الطريق. وعلى هذا الوادي العميق جسر، على شكل عقد، من النمط الغوطي. وفي الساعة العاشرة والنصف صباحاً وصلنا إلى يازل، وهي تقع أيضاً على وادي، ويحمل، كما هو حال الوديان السابقة، اسم أهم منطقة من المناطق الواقعة فيه. وعثرت في يازل، على دليل، مما جعلني أسلك أقصر الطرق الموصلة إلى أعلى الجبل.

ولما كان سكان هذا الجبل لم يشاهدوا في قراهم أجنبياً من قبل، ولا حتى تركياً، فقد وجدت من الضروري اتخاذ بعض الإجراءات الإحتياطية. فتم سريعاً تغطية قبعتي الإنجليزية بشملة، وأخبرت خادمي، أنه إذا ماتم اكتشافها فعليه أن يقول بأنها للأفندي، يستخدمها لحجب أشعة الشمس. أما اسمي فقد أصبح شاعب أفندي، واتخذت صفة الموظف الجديد المتدين، الذي يريد قبل أن يباشر وظيفته أن يقوم بزيارة قبر النبي شعيب. وهكذا ركبنا عبر وادي صنف، الذي يقع في اعلاه وادي قليس. وصعدنا نحو جبل ظبيان، حيث شاهدت آثار قرية، أو مدينة ظبيان القديمة. وهناك واد آخر، يلتقي في جهته اليسرى بوادي قليس، اسمه (وادي نقيب). وفي جميع هذه الوديان يزرع الخردل (الذي يستخرج منه الزيت). بعد ذلك مباشرة عبرنا وادي عميق، اسمه (وادي الضلاعين)، تصب مياهه باتجاه الشرق. وفي هذا الوادي تقع قرية بيت قحيم، المكونة من بضعة بيوت فقط، مررنا بجانبها. وفي الساعة الثانية عشرة والنصف وصلنا إلى القرية[315] واتجهنا مباشرة إلى بيت العاقل. ولكن مع الأسف لم نجد سوى ابنه، الذي أظهر لطفاً كبيراً معنا، بمجرد أن عرف بالهدف الديني لزيارتي. ولم يطل الوقت، حتى كانت القرية بكاملها قد تجمعت حولنا. ولأنه كان لابد لنا من الهبوط في اليوم نفسه إلى متنة، فقد اعتذرت للسكان، لعدم تمكني من الإستجابة لطلبهم، بأن نستريح قليلاً ونشرب قهوة القشر لديهم.

أما خادمي فكان حاضر البديهة، إذ فسر لهم اعتذاري، بأنني أرغب في الإسراع، حتى أستطيع أن أؤدي صلاة الظهر على قبر الولي[316]. وتركت خادمي وبغلي في القرية، مع التأكيد على الخادم، بأن لا ينزل الأمتعة حتى أعود. وذلك لأنني خشيت أن تظهر قبعتي الإنجليزية، إذا ما أنزل الحقائب. وتسلقت مع الشرطي والدليل القمة العالية لجبل قاهر، أو جبل بيت خولان، التي تقع عليها قبة قبر النبي شعيب، والد زوجة موسى، كما يقال. وكان إلى جانب مسجد القبر أربعة أو خمسة منازل صغيرة، يعيش سكانها على الوقف وعلى الصدقة، التي يجود بها الزوار والزائرات الأتقياء، الذين لا ينقطعون عن زيارة هذا القبر، الذي يضفون على صاحبه قدرات خارقة. ورأيت في رواق المسجد جمع كثيف من النساء الجالسات، ومعظمهن شابات رائعات الجمال. وما أن شاهدنني، حتى سارعن إلى تغطية وجوههن.

---

(315) هكذا سماها جلازر.

(316) يقصد النبي شعيب.

وهكذا أصبحت في نظر العامة أول تركي يأتي إلى هذا المكان الجبلي، للقيام بما يسمى الزيارة (زيارة أضرحة الأولياء). وسرعان ما أصبح هذا التركي موضوعاً للإعجاب العام، حتى أن الهمس بدأ يسري، بأنه لا بد أنني من الأتراك الشجعان، إذ لو لم يكن الحال كذلك لا ستصعبت الصعود إلى الجبل، رغم تديني. وفُتح المسجد أمامنا سريعاً. فخلعت حذائي وولجت إلى غرفة مظلمة، لأقف أمام قبر غير مرتفع، مغطى بقطع قماش مختلفة الألوان. وفي هذه اللحظة شعرت بالتقدير والإحترام للإعتقاد البشري الساذج. فقد أكدت لي تجاربي باستمرار، وحتى الآن، أن البشر، الذين يمتلكون عقيدة، تجعلهم يشعرون بالخضوع والرضاء، هم أفضل، على الأقل في التعامل مع أبناء عقيدتهم، من أولئك المغرورين بعلمهم.

وقرأت عند القبر بعض الدعاء ثم عاينته بعناية، دون أن أعثر فيه على شيء قديم. بعد ذلك اتجهت إلى شرفة المسجد، لأجيل النظر، مستمتعاً بمنظر بديع، من هذا الإرتفاع، الذي يبلغ بحسب القياسات التي عملتها، ٢٩٨٥ متراً عن سطح البحر. ولأن جهاز الضغط الهوائي مقسم إلى ٥٨٠ مليمتر، فإني غير متأكد، مما إذا كان قياس درجات الضغط المنخفضة، قياساً موثوقاً، أمراً ممكناً، ولاسيما أن الجهاز قد أعطى، عند تسلق الجبل بالصورة التي أوضحتها، أعطى نتائج غير متسقة. فإذا ما وضعنا في الإعتبار جبل حضور الشيخ (حضور بني أزد، أو حضور المصانع)، الذي لا يقع بعيداً من هنا، والذي سبق أن حددت ارتفاعه بـــ٢٩٤٥ متراً، وهو جبل يبدو منخفضاً كثيراً عن جبل حضور النبي شعيب، فإنني رغم القياس، الذي أجريته لجبل حضور هذا، أرى بأن ارتفاعه لايمكن أن يقل عن ٣٠٠٠ متر، وربما حوالي ٣١٥٠ متراً. فمن هنا تبدو اليمن كلها أمامنا، كما لو كانت خريطة مفتوحة. إذ يمكن إرسال النظر من هنا وفي كل الإتجاهات إلى أبعد المناطق، حيث تبدو قمم الجبال البعيدة جداً: صنعاء (٢٢١٠ أمتار عن سطح البحر) وجبل نقم (٢٧٠٠ متر) وجبل براش (٢٧٣٥ متراً) وجبل ضين (٢٦٣٣ متراً) وكوكبان (٢٦٠٥ أمتار) وعدد كبير آخر من الجبال، تقع كلها تحت أقدامنا.

وأجبرنا الهواء البارد كالثلج، و كانت أجسامنا ماتزال ساخنه والعرق يتصبب منا، أجبرنا على الإحتماء لبعض الوقت بجدار، وضعت بجانبه أوعية قهوة القشر. ولما عدنا مرة ثانية إلى الشرفة

كانت الظاهرة اليومية تبدو أمامنا، وهي تصاعد السخيماني أو العمة[317]، التي أخذت تلامس قمة الجبل وتغطي الجهة الغربية منه تدريجياً، ببحار من السحب، لا تظهر من خلالها القمم الجبلية إلا على شكل لمحات هنا وهناك. ورغم أن هذا المشهد كان مزعجاً وغير مريح بالنسبة لي، فإنه كان مشهداً، على قدر كبير من الجلال والروعة. ويزعم العرب أن هذا الجبل وجبل شهارة وجبل كنن (عند مولر كنان) ظلت وحدها، بقممها العالية، مرتفعة فوق المياه، عندما حدث الطوفان. ويبقى جبل حضور أعلاها جميعها. وفي الواقع أن هذا الجبل عال إلى درجة أن الثلوج تكاد تنزل فيه كل شتاء. وقد روى لي السكان أنهم في الشتاء الماضي لم يستطيعوا مغادرة منازلهم ثمانية أيام متواصلة، بسبب الثلوج، التي بلغ ارتفاعها متراً واحداً. وقد أخطأ نيبور ومن بعده ريتر. حينما نفيا هذا الأمر. لقد رصدت درجات الحرارة في أجزاء منخفضة جداً من هذا الجبل، في شهري ديسمبر ويناير، فوجدتها تتراوح، في أحيان كثيرة، بين درجتين إلى ثلاث درجات تحت الصفر، بمقياس سلسيوس. وحتى في صنعاء تعتبر الثلوج ظاهرة يومية، خلال الشهرين المذكورين، حتى ولو لم تهبط درجات الحرارة إلى الصفر. فالجفاف العالي في شرق السراة، وما يرتبط به من نسبة تبخر عالية جداً، يؤدي إلى تكون الثلوج، حتى في درجات حرارة تتراوح بين ٣ إلى ٤ درجات فوق الصفر. بل إنني رصدت مرة ظاهرة تكون الثلوج، عند درجة حرارة بلغت ثمان درجات فوق الصفر، ولاسيما في العراء، حيث يلفح الهواء الجاف سطح المياه دون حواجز. ولو هطلت الأمطار في أشهر البرد، لأصبحت المناطق الجبلية في اليمن مغطاة بالثلوج، وأشبه بالقمم الجبلية في لبنان أو الألب. وتهطل الأمطار في اليمن (مع كميات كبيرة جداً من البَرَد) من شهر مارس إلى مايو ومن يوليو إلى سبتمبر. وهي الأشهر التي تسود فيها بعض الرطوبة. أما أشهر الشتاء، فرغم أنها باردة إلا أنها جافة جداً. ولا تهطل فيها الأمطار في مناطق شرق السراة، إلا بصورة استثنائية. وإذا حدث هذا فإنها تهطل في جبل حضور على شكل ثلوج. وعلى هذا الجبل تنزل السخيماني أيضاً ثلوجاً، تصل هذا المكان، الذي نحن فيه. ولابد أن الشيء نفسه يحدث في جبل حضور الشيخ، وغيره من أجزاء جبل حضور العالية. وإن كنا لم نحصل على معلومات مباشرة عن هذه الأجزاء.

(317) السخيماني، أو العمة، هو الضباب. ويسمى في بعض مناطق اليمن (التاهم).

وأعلى قمة في جبل حضور النبي شعيب هي، كما ذكرنا، جبل قاهر أو جبل بيت خولان. وإلى الشمال الغربي على بعد ست مئة متر من جبل قاهر تقع قمة، تكاد تكون مساوية له في الإرتفاع، تسمى جبل عزان، ويبدو عليها جدار مبنى قديم. وفي الغرب من المكان، الذي أقف عليه ينتصب جبل ضبح، الأكثر قرباً. وعلى بعد حوالي ثمان مئة متر، إلى الجنوب الغربي من جبل قاهر يقع جبل المنصورة. وكلها ذات ارتفاعات متقاربة. وفي الجهة الجنوبية الغربية، على بعد كيلو مترين إلى ثلاثة كيلو مترات، تبدو قمة جبل غرز. وفي جنوب جبل ظبيان، يبدو جبل زاعلة، ويليه جبل قاهر. وفي شمال غرب هذا الجبل يمتد قاع مني، وخلفه تقع قرية جعلل (عند مولر معلل). أما قرية بيت معدن (ويمكن أن يكون اسمها بيت ماذن) فتقع خلف جبل غرز وتتبع الحيمة. وإلى الشرق من القرية تقع قرية ركب. وتنتشر مجموعة من الشعاب، في كل جهات الجبل. ويمكن القول إن جبل حضور يرسل مياهه إلى كل المناطق: إلى الجوف (الخارد) وإلى وادي سردد وإلى وادي سهام. وهناك وادي من الوديان، يقع بين ضبح وعزان وقاهر، يحمل الإسم التوراتي (داود). وإلى الأسفل منه وادي آخر، يحمل اسماً لايقل قدماً عن اسم داود هو (يازل)، وهو اسم يظهر أحياناً في النقوش الحميرية. وقبل وادي يازل، وعلى امتداد جانبه الأيمن، يقع جبل شيبة ثم جبل تخلى، الذي يمتد حتى قرية عصفور.

وبحسب الرواية العربية، أن النبي شعيب، الذي تنبأ بظهور الإسلام ، وهو على جبل حضور، وأبلغ نبوءته تلك لذلك الشعب الغارق في الكفر والوثنية، قتله قومه هناك، وأصبح قبره مزاراً، يأتي إليه الناس في الأيام الأخيرة من رمضان، وفي عيد الأضحى، ويقيمون احتفالات كبيرة حوله.

وبعد هبوط سريع نوعاً ما، وصلنا في الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة عصراً، إلى بيت العاقل، حيث وجدنا كل سكان القرية قد تجمعوا عنده. وتلقيت التهاني من كل الحاضرين، الذين هجموا على مرافقيّ، يستفسرونهم عما عمله الأفندي عند قبر النبي. وبالطبع قيلت لهم كل التفاصيل. أما بالنسبة لي فقد سئلت على الفور، فيما إذا كنت قد أديت صلاة الظهر في وقتها، وقد أجبت بالنفي، مع إبداء كامل الأسف، لأنه لم يسعدني الحظ في تحقيق امنيتي، حتى بأداء صلاة العصر، عند قبر النبي، وذلك لأنني قبل أن أحقق امنيتي، كانت رحمة هذا النبي قد حركت الرعود، المبشرة لهذا الشعب المتلهف لهطول الأمطار. وبالفعل بدأت على الفور تتساقط قطرات المطر، وهرولنا مسرعين لتناول الطعام. ونظراً لتأخري في الجبل فقد وضع خادمي الأحمال وظهرت

القبعة. وكان أمراً طبيعياً، بل إن الناس قد أظهروا اشفاقهم على الأفندي المسكين، لما يعانية هذا الرجل المؤمن من حرارة الشمس. بعد ذلك هبطنا إلى متنة، عبر وادي سرات، يرافقني نصف أهل القرية، وهم مملوؤن بالوهم. ينظرون إلى السماء شاكرين، متوهمين بأنني شخص مبارك، فبمجيئي هطلت الأمطار. وفي الساعة السادسة مساءً كنا نجلس داخل سمسرة في متنة.

أطلق الأتراك على متنة اسم (خان سنان باشا). وفيها حوض ماء كبير وقاعة واسعة، يأوي إليها المسافرون مجاناً. ويقال أن سنان باشا هو الذي بناها. وارتفاع هذا المكان، الواقع على ظهر سرات ٢٦٠٩ أمتار عن سطح البحر. لقد جاء إلى هنا المبشر فولف، الذي كان أول من جاء من أفواج الفرسان الريهابيين، وقوبل بصرخات، مفزعة: هو .. هو .. هو . ويروي فولف: "رفعت في وجوههم الإنجيل، فذهلوا وخيم عليهم السكون. ثم صاحوا جميعهم، إنه يهودي، إنه يهودي، وترجلوا من على خيولهم". وقص عليهم فولف، أنه قبل اثني عشر عاماً قابل في العراق شخصاً من قبيلتهم، اسمه موسى. فسألوه: أأنت فولف، فقال لهم: نعم. فعانقوه، وإذا لديهم الإنجيل، الذي كان فولف قد أهداه لموسى في العراق. عند ذلك أخذوا هذا المبشر ضيفاً عندهم وتعرف على قبيلتهم، التي تنتمي إلى الأب الطيب يوناداب ابن ريهاب، الذي تمسكوا بتعاليمه حتى اليوم. وبعد فولف لايزال هناك، بين هؤلاء اليهود، بعض من قبيلة دن، التي تسكن في تريم حضرموت. ومن سوء الحظ أن فولف هذا لم يبق وقتاً طويلاً في اليمن، وأن آخرين بعده زاروا هذا البلد، وتوغلوا، كما هو الحال بالنسبة لي، بصورة خاصة في أوساط أبناء يوناداب الطيب، في أرحب، ووجدوا أن حكايات فولف هذه لا أساس لها من الصحة.

وحول متنة يمتد قاع سهمان. وفي الجنوب الغربي تقع منطقة الحطاب. وتقع جميع القرى: قذف وبيت كاهن وداعر ومسيب وسهمان (وتسمى أيضاً مرية) وبيت ردم وبيت مهدم، تقع جميعها على هذا القاع المرتفع. وقد حملتها كلها على خريطتي.

ويرجع الهمداني اسم منطقة حضور إلى حضور بن عدي بن مالك. وضم إليها المناطق المذكورة آنفاً، من الحيمة الداخلية وبلاد الأخروج وحقل سهمان وجعلل وواضع. وقبل أن نغادر هذه المنطقة نود أن نلقي نظرة سريعة على المعلومات الجغرافية القديمة، المتعلقة بهذه المنطقة، التي سرنا فيها.

أهم من تناول هذه المنطقة هو كلوديوس بتولوميوس (بطلموس)، فقد أورد معلومات ممتازة عن بلاد شبه الجزيرة العربية، من الصعوبة بمكان تفسيرها، تفسيراً صحيحاً حتى اليوم. إن المعلومات الجغرافية القديمة لليمن، كما وصلتنا من كُتّاب التاريخ القديم، مثل بطلموس وبلينيوس وبيربلوس وغيرهم، تحتاج إلى دراسة خاصة. ولا نريد اليوم سوى الإشارة إلى هذا الجانب أو ذاك، من جوانب هذه الجغرافيا.

من بين جبال العربية السعيدة، ذكر بطلموس جبل كليمكس. ويرى نيبور أن هذا الجبل هو نفسه نقيل سمارة. وأنا لا أتفق مع نيبور في هذا الرأي، بل أرى أن جبل كليمكس هو سراة الهان. فقد قال بطلموس بوضوح:"منهم (المعينيين) دريني ومكرتي ثم سبيا وأشيتي، ويسكنون في جبل كليمكس". فإذا حددنا دريني بأنها (ذو رعين) أوربما، وقد يكون هذا هو الأصح، سكان (ضوران)، وموكرتي هناك حيث لاتزال تسكن حتى اليوم في (صقرى)، أي في الجهة اليسرى من وادي سهام، والأشيتي، أبناء القبيلة الواسعة الإنتشار، وهي قبيلة عك، فإنه يمكن، واستناداً إلى مخطوط الملك الأشرف، الذي اقتبست منه مراراً في تقريري هذا، حيث ورد فيه أن عك قد سيطرت على وادي سهام جميعه، يصبح من الواضح أن جبل كليمكس لايمكن أن يكون سوى الجبل، الواقع بين جبل ضوران وجبل حضور النبي شعيب، وهو الجبل الذي يضم قرن الوعل. ومما يؤكد هذا الرأي، أنه في العصر الحميري سكنت قبيلة عك، على الجبل المذكور، وإلى الشرق قليلاً. ويدعى جزء كبير من جبل حضور النبي شعيب حتى اليوم (جبل زعلة)، نسبة إلى عشيرة من عشائر عك، تسكن الآن في تهامه. ومن جهة أخرى يذكر الهمداني، أن منطقة السنتين (في وسط حاشد) كانت في عصره تسكنها عك. ومع مرور الزمن، كما يبدو، نزحت عك تدريجياً نحو تهامه، لتسكن في المناطق التي انحسرت عنها مياه البحر، إما عن طريق احتلالها، من قبل احدى عشائر عك، أو، كما رأينا في حالة الغساسنة، عن طريق قبيلة صديقة. ويبدو أن عك والسبئيين كانوا، متجاورين، وهو ما يتفق تماماً مع ما أورده بطلموس. فكان كليمكس يتبع العكيين، والمناطق، الواقعة في شرقة وشماله، تتبع السبئيين، ولاسيما سراة المصانع، الذي كان أعلى جزء فيه يسمى، حتى عصر الهمداني، حضور بني أزد (ويسمى اليوم حضور الشيخ). ولا يجد المرء في الواقع، في حضور النبي شعيب، سوى آثار قليلة جداً، من آثار الحميريين، في حين يصادف الكثير منها في جبل المصانع (وأذكر هنا فقط كوكبان وشبام وأقيان وشربب، التي حولها مولر إلى شريب، ودعان

وشاهر وهند وهنيدة ...إلخ). وهناك احتمال كبير، أن جبل حضور النبي شعيب، هو نفسه جبل كليمكس. فقد ذكر بطلموس، عند حديثه عن الفيضان، أنه من الداخل، أي من اتجاه الشرق والجنوب، إلى جبل كليمكس، يعيش الربانيون **Rabaniti**. والرحبة، بما فيها آثار مدينة الرحابة، هي، كما هو معروف، السهل الموجود قرب صنعاء، والممتد على طول الخارد، في شرق وشمال سلسلة جبال حضور. ويعتبر جزء كبير من بلاد همدان الحالية، الممتدة حتى جبل حضور، تابعاً للرحبة.

ويسكن الماذنيون أيضاً بالقرب من حضور. وإن كان ليس في جنوبه تماماً، كما ذهب إلى ذلك بطلموس (حين قال، إلى الجنوب من كليمكس يسكن الماذنيون).

وفي ما سأنشرة مستقبلاً عن الجغرافيا القديمة لليمن، التي جمعت حولها مادة غنية، سوف أتحدث أيضاً عن موضوع البخور، الذي لا أمتلك فقط بعض المخطوطات عنه، أو على الأقل بعض المخطوطات، التي يمكنني استخدامها، بل أيضاً، لم أدخر وسعاً في جمع بذور كل النباتات، ذات الروائح الطيبة، الموجودة في اليمن. وأكثر من ذلك جمعت بعض العينات، التي تستخدم كبخور، مثل اللبان والمر، التي سيتم ايصالها في أقرب وقت إلى أوربا، لإجراء البحوث عليها بغرض زراعتها فيها. ولأنني لست من علماء النبات، فلن أنشر شيئاً عن هذه المواد، قبل أن يعطي المتخصصون رأيهم. وسأكتفي مؤقتاً باستكمال المعلومات، حول أسماء هذه النباتات ومصادرها واستخداماتها. ويبقى علينا أن نذكر بعض المعلومات عن الزراعة في الجبال، وعن الجوانب الدينية في المناطق التي مررنا بها. أما الأوضاع السياسية والتجارية فلن نتطرق إليها هنا[318].

الزراعة الغالبة في الجبال هي زراعة الحبوب، ومن بين الحبوب نوع من القمح، يسمى بر، وبعض أنواع من الشعير (شعير وسقلة وسمرة)، وفي الأماكن المنخفضة جداً تفضل زراعة الذرة (صفراء وبيضاء) ونوع من الذرة التركية (رومي). وفي وديان شرق السراة توجد، إضافة إلى أنواع مختلفة من الفواكه، أشجار العنب المتميز. وحيث توجد المياه بكميات كافية، يزرع العرب في العام الواحد أحياناً أربعة محاصيل. ومع هذا فإن مساحات كبيرة، ولاسيما في شرق السراة، لاتزرع أبداً، وذلك بسبب نقص الرطوبة. وإلى جانب الطلح والتالق وشجر الدوم، هناك أيضاً

---

(318) سبق أن أشار إلى أن المعلومات التجارية لايمكن البوح بها، حتى لاتسارع الدول الأوربية الأخرى إلى الإستفادة منها، قبل أن تستفيد منها النمساء.

الأثل، الذي يكثر، خاصة في شرق السراة، على شكل أحراش أو كسياجات حول الحقول. وشجر الأثل قصير جداً ويستخدم، كما تستخدم أنواع كثيرة أخرى من الأشجار، كأحطاب، ولاتوجد أشجار ضخمة، سوى في غرب السراة، حيث يمكن أن تذكرنا بأشجار الحبشة. وتنمو النباتات ذات الروائح الزكية (مشاميم) في كل مكان تقريباً، كنباتات برية. وفي مناطق معينة معروفة تنمو النباتات نمواً رائعاً، ونوعيتها هناك نوعية ممتازة. وفي حدائق صنعاء تزرع أنواع معينة من النباتات. ويعتنى بها اعتناءً خاصاً. ويسمى مزارعوها بالقشامين، وينتمون إلى طبقة المنبوذين. في حين أن المزارعين الآخرين هم رجال أحرار[319]. وهذه النباتات ذات الروائح الزكية، يمكننا التعرف عليها، بالإستعانة بما ذكره عنها، في مواضع معينه، كل من بلينيوس وبطلموس. ويزرع الأتراك الخضروات في كل مكان يضعون أقدامهم عليه. حيث تنمو نمواً رائعاً. وبدون هذه الخضروات يمكن أن يصبح جنودهم فريسة لمرض الأسقربوط. وفي غياب الخضروات اضطروا مرة إلى تزويد جنودهم بالبرسيم العادي، الذي يمكن الحصول في اليمن على نوعية جيدة منه. وكان لهذا الدواء أثر هائل، فقد اختفى مرض الأسقربوط، الذي كان قد أصاب ألفي جندي، اختفى بعد أكل الجنود للبرسيم بأيام قليلة.

أما الجوانب الدينية فسأكتفي هنا ببضع كلمات عنها. يعيش في تهامة شوافع محافظون. وفي جبال حراز شوافع وإسماعيليون (داودية وسليمانية)[320]. وفي منطقة صنعاء شيعة، من الفرقة الزيدية. وفي جميع هذه المناطق يوجد أفراد من الصوفية ومن الإمامية الإثنا عشرية. ولا تتوفر معرفة كافية لدينا عن هذه الفرق. وسوف توفر لنا المخطوطات، التي جمعتها، المعلومات المطلوبة، أفضل مما يمكن أن أقدمه في ثنايا هذا التقرير، المخصص لوصف الرحلة. ولعل الأكاديمي الفرنسي ديرمبورج **j.Derembourg** يقرر أخيراً أن ينشر للعامة التقرير، الذي كنت قد وافيت به أكاديمية النقوش والفنون والآداب، عن طريقه، قبل عامين. وهو تقرير مستفيض، عن الحياة الدينية في العربية الجنوبية، لم يحظ بالاهتمام، شأنه شأن أربعة عشر تقريراً آخر ومئتين وستة وسبعين نقشاً حميرياً. وإضافة إلى خليط الإسماعيليين والزيود، يوجد عدد كبير من اليهود، في صعفان ومناخة وفي

(319) هنا استخدم المعيار الأوربي، لأن الفلاحين من الطبقة الدنيا، في عصر الإقطاع لم يكونو في الواقع أحراراً، بل كانوا أقناناً، والأمر هنا في اليمن مختلف.

(320) فرقتان من الفرق الإسماعيلية. أنظر: نوفل، حمود زايد، إسماعيلية اليمن السليمانية. رسالة ماجستير.

القرى حول مناخة وفي صنعاء على وجه الخصوص. وعلى خلاف اخوانهم في الحبشة، لا يحملون في أي مكان سلاحاً، ويتعرضون لكل أنواع الإحتقار من قبل العرب[321]. وكما توجه السبئيون والحميريون منذ أقدم الأزمان إلى الشمال وأسسوا لهم مستعمرات هناك، تطلع اليهود أيضاً نحو الخارج، ولاسيما نحو الجنوب، حيث وجدوا مملكة صديقة لهم. فمن الثابت أن عدداً كبيراً من اليهود توغلوا في طريق التجارة الرئيسية في قلب شب الجزيرة العربية حتى وصلوا إلى اليمن، حيث حلفاؤهم السبئيون، الذين تعاونوا معهم ودعم بعضهم بعضاً. وهاجر أوائل المهاجرين اليهود، ربما في عهد سليمان. وبالطبع كان عددهم لا يذكر. ومعظمهم لم يأت إلى اليمن قبل ١٢٠٠ عام بزمن طويل. وفي النقوش الحميرية، التي تعود إلى القرن الثالث أو الرابع الميلادي، لا يكاد يرد ذكر لليهود، تماماً كما هو الحال في المدونات السبئية. ويبدو أنهم عاشوا فقط كتجار، على امتداد طريق التجارة العربية الداخلية المعروفة، التي كانت تنطلق من مأرب عبر نجران إلى غزة، وإلى العراق والبحرين ثم إلى بعض الأماكن الساحلية في حضرموت. وعندما ظهرت الطريق الرئيسية بين مأرب وسوريا وانتقلت إلى جبال اليمن الغربية، قدم اليهود إلى اليمن نفسها. حيث شجعتهم الظروف السياسية الملائمة على تكثيف هجرتهم إلى اليمن فتكاثروا فيه. وحالياً يتحركون شيئاً فشيئاً باتجاه تهامة، إلى مناخة وصعفان وجبل برع ...إلخ. وعلى عكس ما يرد في كل التقارير الرائعة، فهم لم يلعبوا في أي وقت دوراً هاماً في البلاد، ولا يقدمون سوى هذا الأمر العجيب، وهو أن نطقهم للغة العبرية يتطابق مع نطق من يسمون بالاشكيناز (يهود روسيا والنمسا وألمانيا)، وهو مايستحق تخصيص حيز خاص للحديث عنه. وفي مايتعلق باليهود أيضاً تمكنت من امتلاك مخطوطة عربية قديمة جداً، تتضمن معلومات قيمة عن اليهود وعن علاقتهم بالقبائل العربية المختلفة، التي كانوا يسكنون معها في نفس المناطق، قبل ظهور محمد[322]. ومن المؤسف أن اسم مؤلف هذا المخطوط غير موجود. ولم تتغير علاقتهم بتلك القبائل بصورة جوهرية إلا عندما جاء الإسلام. ولعل المرء اليوم

---

(321) أشرنا في هامش سابق، إلى الأسباب التاريخية، التي يمكن أن تفسر نظرة اليمنيين إلى اليهود. فعندما أمسكوا بزمام الدولة اليمنية، أمعنوا في اضطهاد أتباع الديانات الأخرى، ولاسيما المسيحيين، وخيروهم بين الإرتداد عن دينهم، أو إلقائهم في نار الأخدود. وترتب على ذلك احتلال الأحباش المسيحيين لليمن.

(322) يقصد الرسول الكريم، محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وسلم.

يستطيع القول، إنه كان يمكن أن يكون من حسن الطالع بالنسبة لليهود اليمنيين، لو أن رسولاً طلق اللسان قد أخذ بأيديهم إلى المسيحية أو الإسلام.

أما الأتراك ثم اليونانيون، الذين يلحقون بالأتراك حيثما ذهبوا، والتاجر الإيطالي في صنعاء، فلا حاجة إلى إفراد حديث خاص عنهم. وفي الحديدة يعيش عدد من البينيان وثلاثة أو أربعة من الفرس. ومنذ سنوات يعيش هناك أيضاً اثنان من الإسرائيليين الأوربيين، أحدهما شريك القنصل الفخري الإيطالي، والآخر تاجر هاجر من القسطنطينية. وبالطبع هناك إلى جانب هؤلاء يوجد عدد من الأوربيين، مستقر فيها. ومعظم هؤلاء يشتغلون بتجارة البن. وأحدهم يقوم بتصدير الجلود.

ومعظم أسلحة عرب الجبال تتكون من البنادق القديمة، ذات الفتيل. ولا توجد الرماح الطويلة، إلا لدى القبائل الميسورة، التي تمتلك الخيول (في الجوف). وعدا عن ذلك يتسلح سكان الجبال بخنجر مقوس له حزام وغمد مزين جميل (يسمى جنبية).

ويختلف مظهر عرب الجبال، اختلافاً واضحاً، عن مظهر عرب تهامة. فبشرتهم ليست داكنة كثيراً كالتهاميين، وبنيتهم متينة وملامحهم أوربية تماماً. تتدلى شعورهم، المليئة بالدهون والصباغ الأزرق الداكن، على أكتافهم. ويرتدون صدرية من القطن الداكن المصبوغ بالنيل. وفي المدن يرتدون أيضاً نوعاً من الملابس، لونه الأصلي أبيض، لكنه سرعان ما يتشرب بلون النيل الأزرق، ويثبت بالحزام إلى الخصر[323]. وترتدي النساء عادة ملابس زرقاء (سراويل ضيقة من الأسفل ومطرزة بخيوط فضية أو ذهبية، وسترة (جاكت) وغطاء للرأس له ثنايا كثيرة). أما القمصان، التي تغطي الجسم كله، فهي نادرة[324]. وفي المدن تضع النساء على أجسامهن أيضاً رداءً، ويرتدين غطاءً للوجه ذا لون أحمر. أما الأطفال فلهم في الغالب وجوه لا ألطف منها. ويعتني الأباء بتربية الأطفال عناية كبيرة، كما هو الحال لدى المسلمين الآخرين. فيعوَّد الأطفال، حتى لدى القبائل المتوحشة، على طاعة الوالدين واحترام من هم أكبر منهم سناً. ولا يمكن للمرء أن يسمع في بلاد العربية، حتى لدى المجتمعات البدوية الأكثر فقراً، كلمة بذيئة. والعرب بشكل عام أناس دمثو الأخلاق إلى أقصى حد، ولطاف في معاشرتهم وفي محادثتهم، ومجاملون. أما مايضمرونه في نفوسهم،

---

(323) يسمى المقطب. وهو في شكله أشبه بالجنلة الأسكتلندية.

(324) قد يصح هذا بالنسبة للرجل، أما النساء فغير صحيح. وحتى الرجال كانوا غالباً يرتدون القمصان الطويلة تحت المقطب، ولكنها بالطبع تبدو للمشاهد الخارجي قمصاناً قصيرة. أما القمصان القصيرة فقد كانت نادرة.

فهذا أمر لا يعلمه إلا هم والقوي العزيز. ولذا فإن المرء لا يستطيع أن يتعامل مع هؤلاء الناس بثقة كاملة، مهما كان التعامل لطيفاً ومريحاً. والعربي الجنوبي لديه كل خصائص الجنس السامي، فهو مطيع ومنافق ولطيف ومريح، طالما له غرض ما، ممن يتعامل معه. وهو غشاش ومخادع وخائن، ما أن يدير المرء له ظهره، ومتعطش للثأر إلى درجة الوحشية، وعدواني تجاه كل من يعيق مصالحه. ولكنه دائماً ماكر. فلا يواجه مواجهة مكشوفة. وفي التجارة، فإن العربي بطبعه، مثله مثل جميع الساميين، لا يتورع عن الحاق الغبن بالآخر. وفي سبيل ذلك، كل الوسائل لدية مشروعة: تقديم الرشوة للموظفين والقضاة وحلف اليمين الكاذب وشهادة الزور. وتبدو كلها لدى الجنوبيين إرث، ورثوه عن سام بن نوح. وبشكل عام فإن هذا الإرث، بغض النظر عما لديهم من لياقة في التعامل وحياة عائلية محترمه، هو إرث غير طيب. ولا يعرف العربي القبلي في النهاية سوى العنف. فإذا ما هزم في الصراع، فإنه يعتبر من الطبيعي جداً أن يستخدم كل الأساليب والوسائل، لإخضاع خصمه. وهو في صراعه لا يعرف مفهوم الإنتماء الواحد مع القبائل الأخرى مطلقاً. إنهم كالبولنديين واليهود، الذين يتحمسون لقضايا معينة من بعيد. ولكنهم إذا ما جد الجد، ينقشعون متراجعين، يدفع بعضهم بعضاً. وحتى ضمن القبيلة الواحدة لا يسود الإتحاد. وهذا ما يمكن أصحاب السلطة في البلد من تطويع هذه القبائل، الواحدة تلو الأخرى ولولا ذلك لأصبحت صعبة القياد. والآن لنواصل السفر في الجزء المتبقي، الذي يفصلنا عن صنعاء.

ففي يوم الجمعة، الأول من مايو، في الساعة السادسة وخمس عشرة دقيقة صباحاً، ركبنا حيوانات الركوب لآخر مرة. إذ لم يتبق سوى خمس إلى ست ساعات بيننا وبين صنعاء (كرسي اليمن) كما يسميها العرب. وتقود الطريق أولاً إلى سهل، يسمى قاع سهمان. وفي أثناء الطريق سرنا بين قبرين، كان قد دفن فيهما جنديان تركيان، اغتالهما العرب في العام الماضي. وعند قرية (منذ) بدأنا النزول على الجهة الشرقية للسراة. ووصلنا إلى قاع خسمة والمساجد، الذي تنحدر مياهه، كما هو الحال بالنسبة لمياه منحدرات جبل النبي شعيب، إلى وادي ضهر الشهير. وحول وادي ضهر، منتجع صنعاء البديع، كنت حينها أيضاً قد بعثت بتقرير مفصل إلى باريس، ويبدو أنه فقد. وخلف منذ مباشرة تشد نظر المسافر صخرة ضخمة، نحتت بداخلها غرفة تسمى جرف. ويبدو أن هذا قد تم في زمن قديم. وقاع المساجد ينخفض عن مستوى الجبل، عند متنة، بحوالي مئة وعشرة أمتار. وبعد خسمة وصلنا جبل ريعان، وهو عبارة عن سلسلة جبال، تمتد نحو الشمال. ثم

وصلنا إلى واد تصب مياهه نحو ريعان، باتجاه الشرق أو الجنوب الشرقي. وهنا وجدنا بيراً اسمها بير الدفعة. وهذا الوادي تجري مياهه إلى وادي ضلاع، الذي يقع في جنوب وادي ضهر، ثم إلى الرحبة (الخارد). وبعد بضع دقائق وصلنا إلى السائلة، التي تنحدر نحو صنعاء، والتي تبدو، كما لو أنها أخدود منحوت وسط الجبال، وتنساب من بيت عذران إلى عصر، ومن عصر إلى شعوب، حيث تلتقي مياهها بالمياه التي تنساب من صنعاء، نحو الشمال، وتصب جميعها في سيل الخارد. وأخيراً لمحنا صنعاء للمرة الثانية، بعد غيبة طويلة. هناك في الأسفل، تقع أمامنا هذه المدينة، وسط سهل واسع، محاطة من كل الجهات، ولاسيما من الشمال والجنوب، بخضرة بديعة، متصلة في إحدى جهاتها حتى الروضة. وكأنها حديقة واحدة. ووسط كتل البيوت الداكنة يتلألأ، بالقرب من مسكني، مسجد البكيلي (المسجد التركي)، بقبته المدهونة باللون الأبيض. "لابد من صنعاء وإن طال السفر". هكذا يقول العرب. إن القلب لا يطاوع المرء في تجنب صنعاء وعدم المرور بها، حتى لو اقتضت الضرورة، السير في طريق ملتف حولها. وهبطنا نحو سهل صنعاء، بعواطف جياشة. ومررنا، قبيل أن نصل إلى أعلى عصر بمسافة قصيرة جداً، مررنا بموضع حدث فيه حادث لاثنين من رسل البريد. حيث هوجما من قبل عصابة. ورغم أنهما جرحا، جروحاً خطيرة، فقد أظهرا شجاعة نادرة، حيث تمكنا من قتل اثنين من أفراد العصابة. أحدهما كان ذلك الشخص، الذي ذكرته في تقريري، حول رحلتي إلى أرحب وحاشد، وهو المعروف بالحجّام، من أرحب. وهو نفسه الذي حال بيني وبين زيارة آثار أتوه وريام في العام الماضي. وقرية عصر، الواقعة عند أقدام الجبل، هي قرية وقف. أوقفها أهلها منذ مئات السنين، للجامع الكبير في صنعاء. ولذا فهي لا تتبع أي من المجموعات القبلية المحيطة بالعاصمة (بلاد البستان، شعوب، بلحارث، بني مطر، سنحان). وفي الساعة الحادية عشرة وخمسين دقيقة وصلنا إلى البئر، الواقعة في السهل، التي يسميها الأتراك (سوبشة)، ويسميها العرب (غيل عصر) أو (مصبنة عصر). وفي هذا المكان يُستقبل عادة القادمون إلى صنعاء. وقد وجدت أيضاً بعض أصدقائي القدماء هنا، الذين رافقوني، لندخل في الساعة الواحدة ظهراً، عبر باب القاع، أي قاع اليهود، إلى المدينة، التي كنت قد حددت ارتفاعها، أثناء إقامتي الأولى ب٢٢١٠ أمتار فوق سطح البحر. ووجدت هذه المدينة على ما هي عليه، لم يتغير فيها شيء.

صنعاء، في الأول من مايو ١٨٨٥م

الرحّال الألماني هرمن بورخاردت Hermann Burchardt

مقدمة:

هرمن بورخاردت هو أحد الرحالة الألمان، الذين قدموا إلى اليمن. زارها عامي ١٨٩١م و١٩٠٩م، ولقي حتفه في رحلته الأخيرة، قرب وادي الدور، وهو متجه من مدينة إب إلى العدين. وكان قد قدم صورة عن تجواله السابق، في بعض مناطق اليمن، في محاضرة ألقاها في برلين، في الخامس من يوليو عام ١٩٠٢م، ، قمنا بترجمتها إلى العربية قبل عقدين من الزمن، وحان الآن نشرها، بعد أن اطلعنا على وصف لرحلته الأخيرة، كتبه باللغة العربية مرافقه، الفقيه أحمد بن محمد الجرادي، وحققه ونشره أويجن متفوخ Eugen Mitwoch. قام بورخاردت برحلته الأخيرة، التي انتهت بمقتله، في عام ١٩٠٩م. ورأينا من المناسب أن نقدم ترجمتنا لمحاضرته، ثم نلحق بها النص العربي، الذي كتبه مرافقه الفقيه الجرادي، لتكتمل بذلك صورة رحلاته في اليمن ونهايته فيه.

وصف متفوخ، في مقدمة تحقيقه لنص الفقيه الجرادي، وصف الرحال بورخاردت بالعبارات التالية : "كان هرمن بورخاردت رجلاً هادئاً، يظن من لم يعرفه عن كثب بأنه شخص قليل الكلام، منغلق على نفسه وغريب الأطوار. ومع كثرة ماشاهد في حياته، لم يكن من السهل دفعه إلى الكلام عن ذلك، وسط جمع من الناس. كما كان عزوفاً عن تدوين مشاهداته ووضعها في متناول القراء. ولذا لم يجد سوى القليل من الناس فرصة للتعرف على مابلغه من علم غزير وما تمتع به من خلق قويم وقلب رحيم واستعداد دائم لمد يد العون للآخرين".

ويلقي متفوخ بعض الضوء على حياة بورخاردت وعلى نهايته المأساوية في اليمن. فقد ولد بورخاردت ونشأ في ألمانيا، وقضى نصف عمره في البلدان البعيدة. تلقى تعليمه في مدرسة تجارية. ثم زاول التجارة لبعض الوقت، ولكنه لم يجد فيها مايشبع ميوله. لذا تخلى عنها، مفضلاً الترحال في بلاد الله الواسعة. فزار إيطاليا وأسبانيا والمغرب العربي وتونس ومصر وفلسطين والهند وآيسلندا وأميركا واستراليا. وعلى مدى عقد من الزمن، طاف فيه أنحاء القارات الخمس، نضجت فيه طموحاته العلمية الجادة. لقد أدرك دوره في الحياة، فجعل من البلدان الإسلامية موضوعاً يكرس فيه أبحاثه. ولكي يعد نفسه لهذه المهمة، التحق بمعهد اللغات الشرقية في برلين، وانكب على تعلم

اللغة العربية. بعد ذلك عاش بصورة مستمرة في بلدان الشرق الإسلامي، حتى وفاته، ولم يزر ألمانيا إلا زيارات قصيرة، مرة كل عامين أو ثلاثة أعوام. وقد جعل من مدينة دمشق وطناً ثانياً له. ومن دمشق انطلق في رحلاته الطويلة، التي قادته إلى كل مناطق سوريا، ثم إلى العراق وإيران وشرق أفريقيا وشرق الجزيرة العربية، فاليمن.

وفي جميع رحلاته كان يدون، بقلم رصاص، ملاحظات سريعة، بعبارات قصيرة، أشبه بالرسائل البرقية. إنه لأمر مؤسف، أن هذا الرحال لم يدون مشاهداته وملاحظاته، بشكل تفصيلي ومتكامل، وهو الذي عرف الشرق الحديث، كما لم يعرفه سوى القليل من الناس، وزار مناطق فيه لم تطأها قدم أوربية، وعرف، بفضل هدوئه ولطفه، كيف يكسب ثقة الشرقيين، الذين ينظرون إلى الأوربيين للوهلة الأولي نظرة شك وارتياب. ومع ذلك فقد شكلت الكمية الكبيرة من الصور الفوتوغرافية والرسوم، والأسطوانات، التي سجل عليها بعض اللهجات المحلية، في سوريا واليمن، إضافة إلى كمية كبيرة من النقوش اليمنية القديمة، شكلت جميعها مادة علمية قيمة، عن حياة الشرق الإسلامي. وقد استقر معظم ماخلفه من صور ورسوم ونقوش واسطوانات في مكتبة معهد الدراسات الشرقية، وفي متحف الشعوب ببرلين. وتم نشر كمية من النقوش اليمنية، التي حملت اسم (بورخاردت) في مجلة **(Orientalistischen Literaturzeitung)** ، في الفترة من ١٩٠٧ وحتى ١٩٠٩م.

قام بورخاردت برحلته الأولى إلى اليمن عام ١٨٩١م، وعرض تفاصيلها في محاضرته، التي أشرنا إليها. وفي عام ١٩٠٩م قام برحلة أخرى، مكث فيها لبعض الوقت في العاصمة صنعاء، حيث كرس عدة ساعات يومياً، مع مرافقه اليمني، الفقيه أحمد محمد الجرادي[325]، لاكتساب بعض المعارف العربية. فتلقى من الجرادي حكايات باللهجة اليمنية، دونها بالحروف اللاتينية، كما دونها بالخط العربي. وحصل أثناء وجوده في صنعاء، وهو يعد نفسه للإنطلاق في رحلة إلى بعض مناطق اليمن، حصل على دعم كبير من تاجر إيطالي، مقيم في صنعاء، هو جويسبي كابروتي **Giuseppe Caprotti**، كان يتمتع بحب الأهالي ويعطف على بورخاردت. وحظيت خطة الرحلة باستحسان ودعم الإمام يحي بن محمد حميد الدين، الذي كان في ظل السلطة العثمانية هو

---

(325) أطلق الفقيه أحمد محمد الجرادي على نفسه، في مادونه عن وقائع الرحلة، التي رافق فيها الرحال بورخاردت، أطلق على نفسه وصف (كاتبه) أي كاتب بورخاردت.

الحاكم الفعلي لبعض مناطق شمال اليمن، ثم أصبح بعد الحرب العالمية الأولى حاكم اليمن المستقل.

وضمن مخلفات بورخاردت عُثر على رسالتين من الإمام يحي. الأولى مؤرخة في ١٤ جماد الأول ١٣٢٧هـ (٣يونيو١٩٠٩م). وهي عبارة عن رسالة حماية. ونصها:

"الخواجه هرمان بوخرت الماني ذاهب الى حجة في حماية الله سبحانه وأمانه فلا يُعترض من أحد فليُعلم هذا بتاريخه ١٤جمادي الأولى سنة ١٣٢٧هـ".

أما الرسالة الثانية، فمؤرخة في ١١جماد الثاني من العام نفسه (١يوليو ١٩٠٩م). وهي عبارة عن رسالة شكر موجهة إلى بورخاردت على المنظار، الذي أهداه للإمام، ووصفه الإمام بالعجيب الغريب. ونصها:

"مطيع الإسلام المكرّم هرمان بوخرط عافاه الله واصلح شانه هذه صحبة الحاج الاجل علي بن يحي عافاه الله نشكر لكم جميل ماصنعتم من الإرسال بالناظور العجيب الغريب الذي لم نر مثله وذلك من حسن صنعكم وحررنا هذا معاهدة ونسال الله التوفيق وحسن الختام وحرر في ١١ جمادي الاخرة سنة ١٣٢٧هـ" (أنظر نص الرسالتين في الملحق٢).

ومن الملاحظ أن اسم بورخاردت كتب في الرسالة الأولى (بوخرت) وفي الرسالة الثانية (بوخرط). وهذا أمر مألوف في الأسماء الأجنبية، إذ تعتمد كتابتها على الكيفية، التي يصل فيها الإسم إلى أذن المستمع.

أما كيف تمكن من التواصل مع الإمام يحي، وهل قابله، وأين قابله، إن كان قد تمكن من مقابلته؟ فهي تساؤلات لم نعثر على اجابات عنها. وإن كانت الرسالة الثانية، التي بعث بها الإمام يحي إلى بورخاردت، تدل على أن التواصل قد تم عن طريق شخص وسيط. وقد صادف مجيء بورخاردت إلى اليمن، عام ١٩٠٩م، وجود والي تركي، هو حسن تحسين باشا، الذي عرف بتسامحه وحسن تعامله مع اليمنيين، وبسماحه للإمام يحي بتعيين القضاة الشرعيين في بعض المناطق الشمالية، التي كان الإمام يتمتع بنفوذ فيها. وأثمرت هذه السياسة حالة من الإستقرار والأمن، كانت مفقودة قبل مجيئه، ولاسيما في عهد سلفه، الوالي أحمد فيضي، ثم فقدت بعده، وعلى وجه الخصوص في عهد الوالي محمد علي باشا، الذي عين عام ١٩١٠م. إذ أدت سياسة البطش والتنكيل، التي انتهجها الوالي محمد علي إلى عودة الإضطراب وتجدد القتال، بين أتباع الإمام وبين القوات التركية، وحوصر الوالي داخل أسوار صنعاء، من يناير حتى أبريل عام ١٩١١م. ولم يتم

فك الحصار إلا بوصول حملة عسكرية تركية كبيرة، على رأسها عزت باشا، الذي نجح في فك الحصار، في أبريل ١٩١١م، ثم تمكن من عقد (صلح دعان) الشهير، بين الإمام يحي والدولة العثمانية.

في التاسع من نوفمبر ١٩٠٩م انطلق بورخاردت من صنعاء، في رحلته الأخيرة. فاتجه إلى قعطبة، ومنها إلى تعز ثم المخا ، حيث انظم إليه بترويي **Benzoni** نائب القنصل الإيطالي. وعاد إلى تعز، ومنها إلى جبلة ثم إلى إب، عن طريق الحوبان وذي سفال والسياني. ومن إب توجه إلى العدين، عن طريق مشورة، وهبط النقيل المؤدي إلى العدين. وبعد أن تجاوز هو ومرافقيه وادي الدور، هجم عليهم بعض قطاع الطرق ببنادقهم، فقتل بورخاردت ونائب القنصل الإيطالي وجرح بعض مرافقيه. ولم يصل إليهم أهالي العدين، كما ذكر كاتب الرحلة، الفقيه أحمد الجرادي، إلا بعد ساعة، فقبروا بورخاردت ونائب القنصل بملابسهما، وأخذوا أغراضهما إلى المركز الحكومي بالعدين، ثم سُلمت بعد ذلك إلى قائم مقام قضاء إب. وبعد أيام قليلة نُبش قبرا القتيلين ووُضِع جثماناهما في صندوقين، حُملا مع أغراضهما إلى صنعاء.

وهكذا قتل الرحّال هرمن بورخاردت، كما قتل قبله اثنين من الرحالة الأجانب، وهما سيتزن ولنجر، اللذين انتهى بهما شغفهما، في دراسة واستكشاف مجاهل اليمن والتعرف على جغرافيته وتاريخه ومجتمعه وبيئته الطبيعية، إلى النهاية المأساوية، التي انتهى إليها بورخاردت. كان بورخاردت قد بلغ من العمر اثنين وخمسين عاماً، عندما لقي مصرعه، قرب وادي الدور. ويرجع الفضل في حفظ تفاصيل رحلة هرمن بورخاردت الأخيرة هذه، إلى مادونه الفقيه أحمد محمد الجرادي عن وقائعها، يوماً بيوم.

ولما عاد الجرادي إلى صنعاء، طلب منه صديق بورخاردت، التاجر الإيطالي (جويسبي كابروتي)، أن ينسخ له نسختين مما دونه عن الرحلة، فلبى الجرادي طلبه. وقام الإيطالي كابروتي بإرسال نسخة، إلى برلين ، لضمها إلى المواد، التي جمعها بورخاردت أثناء رحلاته، والنسخة الأخرى بعث بها إلى مكتبة الأمبروزيانا، في مايلاند بإيطاليا. ولكن النسختين لم تكونا متطابقتين. فقد كان الجرادي أثناء النسخ يسجل معلومات فاتت عليه في يومياته، فيضيف ويصحح وينقح. لهذا جاءت النسختات مختلفتين، بشكل ملحوظ. كما بدا الجرادي في النسخة، التي استقرت في الأمبروزيانا، نافذ الصبر، مما جعل تلك النسخة أقل تفصيلاً من النسخة، التي استقرت في برلين. مما

يدل على أن نسخة برلين هي النسخة الأولى، حيث نسخها بعناية أكثر، ثم أصبح أكثر استعجالاً أثناء نسخه للنسخة الثانية. وهذا هو التفسير، الذي توصل إليه المحقق متفوخ، وهو يراجع النسختين، ويقف على مافيهما من تباين.

وقبل أن أنهي هذه المقدمة، لابد أن أنبه القارئ إلى أن النص، الذي كتبه الفقيه أحمد محمد الجرادي، يحتوي على أخطاء إملائية وكلمات وتعبيرات باللهجة الصنعانية المتداولة، كما لم يتضمن علامات فاصلة، بين العبارات، ولاعلامات وقف، ولم يُرتَب في فقرات. وقد أوردته في الملحق رقم (١) كما كتبه الفقيه الجرادي تماماً، مراعاة للأمانة العلمية، ولوضع القارئ أمام طريقة الكتابة واسلوب التعبير، السائدة في الزمن، الذي كتب فيه النص.

وصف الرحلة(326):

ليست جميع أجزاء شبه الجزيرة العربية أرضاً قاحلة جدباء، تغطيها الرمال والحصى. فاذا صح هذا على وسطها، فإن بعض مناطقها الساحلية قد عُرف منذ القدم كأراض زراعية منتجة. والجزء الجنوبي الغربي (العربية السعيدة) منطقة صدّرت توابلها وبخورها إلى جميع أنحاء العالم المعروف في ذلك الحين. هذا الوضع، إضافة إلى الطقس المعتدل، الذي يسود هضابها العالية، منحاها الإسم الذي ذكرناه، وهو العربية السعيدة. وكان جنوب غرب شبه الجزيرة، أي اليمن، منذ القدم وحتى العصور الوسطى ممراً تجارياً رئيسياً للسلع القادمة من الهند، التي كانت تسلك طريقاً برياً طويلاً، من عدن عبر صنعاء فمكة فالمدينة إلى سوريا، يُفضّل على الطريق البحري، الشديد الخطورة، عبر البحر الأحمر. وفي زمن متأخر، بعد أن عُرف الطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح، وكذلك بعد أن أصبحت عدن ميناءً حراً مزدهراً، تحت الحكم البريطاني، في التاريخ المعاصر، تحولت الطرق العالمية عن اليمن.

ولم يعد يأتي إلى الحديدة، ميناء اليمن الوحيد، إلا بعض السفن التجارية، التابعة لخط المواصلات المصري في البحر الأحمر، وبعض سفن النقل التجارية التركية، إضافة إلى سفن بخارية

(326) محاضرة ألقيت في الجمعية الجغرافية ببرلين، في ٥ يوليو١٩٠٢م ، بعنوان (عرض موجز لرحلتي إلى اليمن)، ونشرت في مجلة الجمعية .

محلية صغيرة، تأتي من عدن. وأما اللحية الواقعة في شمال الحديدة، فليست سوى قرية صيادين صغيرة. والميناء الذي كان حتى القرن الماضي ميناء اليمن الرئيسي، وهو المخا، لم يعد يسكن فيه سوى بضع مئات من السكان، بعد أن كان عدد سكانه يتراوح بين ثلاثين إلى أربعين ألف نسمة، ولم تعد ترسو فيه أية سفينة. والأهمية القديمة لهذه البلاد هي التي شدت إليها أطماع المحتلين. فقد احتلها الأحباش مراراً، ثم الفرس. وفي زمن محمد[327] أصبحت تابعة لمكة. وفي عهد السلطان صلاح الدين تم احتلالها بواسطة أخيه[328]. ثم احتلها السلطان سليم الأول. وبتوجيه من الباب العالي احتل محمد علي في عشرينات القرن الماضي، بواسطة أبراهيم باشا، المناطق الساحلية. وفي عام ١٨٧١م[329]، تمكن الأتراك، بقيادة مختار باشا، بعد معارك طويلة في المناطق الجبلية، من الوصول إلى صنعاء، ثم توسيع منطقة سيطرهم حتى صعده. ولأن الحفاظ على المناطق المتوحشة في شمال اليمن لا يمكن أن يتم إلا بتضحيات كبيرة، بالمال والرجال، وبناء عدد هائل من المباني. فقد تخلى الأتراك عن صعده وانسحبوا إلى حجة والقفل **kufl**. وقد شن أحد أنسال الإمام الذي حكم سابقاً اليمن كله، شن في الشمال حربا مقدسة (جهاد) متصلة ضد الأتراك. ومعظم سكان اليمن هم من الزيود (شيعة) ويعتبرون الأتراك غير مؤمنين[330] ولا يعترفون بالسلطان التركي كخليفة. فمثلاً يسمي الإمام في صعده نفسه (أمير المؤمنين) ويسك عملته الخاصة، من الفضة والنحاس. ويمتد حالياً نطاق سلطة الباب العالي تقريباً إلى حجة والقفل في الشمال، والى مسافة بضع ساعات خارج صنعاء وعمران في الشمال الشرقي، وإلى مسافة نصف يوم سفر من رداع في الجنوب الشرقي، والى خط الجليلة ــ المخا، في الجنوب. ولكن حتى في هذه المناطق ليس من السهل على الأتراك تحصيل الضرائب.

وبين منطقة الحكم التركي ومنطقة الحكم البريطاني توجد مناطق صغيره مستقلة كلياً، أهمها سلطنة لحج.

---

(327) يقصد الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام.

(328) يقصد توران شاه، الذي احتل اليمن عام ١١٧٢م.

(329) إحتل العمثانيون صنعاء عام١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م.

(330) هذا تصور غير صحيح. فالزيدية من أكثر الفرق الإسلامية عقلانية، ولاتكفر أحداً من المسلمين المخالفين لمذهبها.

وما من شك في أن سلطة الباب العالي كان يمكن أن تصبح أكثر قوة ورسوخاً، لو أنه تم شق طرق مواصلات جيدة، ولكن مع الأسف لم يتم شئ في هذا المجال.

وتمتد خطوط التلغراف على النحو التالي: الحديدة _ اللحية، والحديدة _ بأجل _ مناخه _ صنعاء، والحديدة _ بيت الفقيه _ زبيد _ حيس _ المخا _ تعز. ويجري الآن مد خط اللحية _ القنفذه _ جدة.

وبعد أن ينجز هذا الخط، سوف يصبح لدى الباب العالي خطه التلغرافي الخاص، الذي يصل من اسطنبول إلى اليمن. وعندها سوف تكلف الكلمة ٢ بياستر (٤٠فنجاً)، بدلاً من الكلفة الحالية، وهي ثلاثة فرنكات.

وتجبر الشعاب المرجانية السفن على الرسو بعيداً عن الشاطئ بحوالي ٤ـ٥ كيلو مترات. وتستغرق عملية الشحن والتفريغ من ساعة إلى ست ساعات، بحسب حالة الرياح، إذا كانت مواتية أو غير مواتية. وتجهيزات الميناء[331] سيئة للغاية، مما يؤدي غالباً إلى تلف البضائع أو إلى ضياعها كلياً.

والحديدة هي أهم المدن على البحر الأحمر. ويسكن فيها، وفي المساكن الواقعة خارج أسوارها، حوالي أربعين ألف نسمة. والطقس فيها حار جداً، وتُعتبر درجة الحرارة ٢٦ سنتجريد في الظل، خلال وجودي في شهر ديسمبر، درجة منخفضة. ومما يلفت نظر من يعرف الشرق، نظافة الشوارع، نظافة غير عادية. وحول وضع المياه السيئ في الحديدة سمعت الكثير من المبالغات، فإذا أراد الشخص أن لا تصيبه الحمى فلابد أن لايشرب إلاماءً مغلياً. ولكن المقيمين هنا من الأوربيين يرون بأن الحالة الصحية هنا أفضل بكثير مما هي عليه في عدن أو مصوع. ويعزون هذا إلى عدم توفر الثلج في الحديدة، كما أن الثلج في مصوع يستخدم بطريقة سيئة جداً.

وأهم سلعة يتم تصديرها من اليمن هي بالطبع البن. وأفضل أنواع البن لا يصدر أبداً إلى أوربا. ففي عدن يتم خلط البن اليمني بأصناف البن السيئة، القادمة من الحبشة. وحتى البن الأمريكي يؤتى به إلى عدن لهذا الغرض. وفي الغالب لا يشرب سكان اليمن البن، بل يفضلون شرب القشر (نقيع قشرة البن)[332]. ويتم تحضيره على النحو الآتي: يضع المرء قشرة البن في إبريق

---

(331) يقصد ميناء الحديدة.

(332) قشر البن يُغلى ولا ينقّع.

مصنوع من الطين، يسمى جَمَنَة ، مملوء بالماء. ثم يضعه على النار ويتركه حتى يغلي الماء. وتغطى فوهة الجمنة بربطة صغيرة من أغصان الشجر الجاف، التي عند صب الماء المغلي تمنع خروج القشرة. وتكون الجمنة دائماً جاهزة، كالسموفار[333] في روسيا.

استأجرت لرحلتي إلى صنعاء سبع بغال، لمدة ستة أيام سفر متواصلة، مقابل تسعة ريالات ونصف لكل بغل. والريال(ريال مارياتيريزا) هو العملة الغالبة في اليمن، ويساوي حالياً، وفقاً لمحتواه من الفضة، فرنكين ونصف الفرنك فقط. ولأن القطع الصغيرة من العملة التركية نادرة، فإنها توجد قطع العانة والعانتين الهندية بكثرة.

وأول مكان للمبيت هو في العادة مقهاية حق جابر **Kave Hokk El Yabir**[334]، التي تبعد مسافة أربع ساعات من الحديدة، وتقع في تهامة. وتهامة هو الإسم الذي يطلق على المنطقة الساحلية غير الصحية، الواقعة بين الجبال والبحر. وتتكون المقهاية من كوخ واحد، مبني من فروع وأغصان الشجر ومغطى بالحشائش، التي تصد الشمس والأمطار، ولكنها تسمح للهواء بالمرور. والأثاث الوحيد في المقهاية هو ما يسمى بالقعادة، وهي عبارة عن مقعد طويل القوائم، مصنوع من الخشب ولحاء النخيل.

وتهامة إلى هذا المكان، الذي نحن فيه، عبارة عن سهل رملي، مغطى بالأحراش القصيرة. ولا تظهر بعض الأشجار المتفرقة وحقول الذرة، إلاقرب قرية دير بن حميد. أما المحطات الأخرى فهي:

باجل: وهي منطقة سوق كبير، ترتفع عن سطح البحر بمائتي متر، وتقع وسط سهل خصيب، وهي مركز حكومي، يستقر فيها قائم مقام[335] ووحدة عسكرية ومركز بريد وتلغراف.

حجيلة (تبعد تسع ساعات من باجل). وهي مديرية بريد وتلغراف، ومناخها غير صحي. يصل إليها البريد، المرسل من الحديدة إلى صنعاء والعكس، مرة كل اسبوع بانتظام ، ويستغرق في الطريق يومين ونصف إلى ثلاثة أيام، ويُحمل إليها على ظهور الجمال. وتمتد تهامة من البحر إلى حجيلة.

---

(333) وعاء يشبه الدلة، يغلى فيه الشاي.

(334) من الواضح أن بورخاردت قد دون اسم المقهاية بحسب السمع. ولعل اسمها (مقهاية جابر).

(335) يكتب هذا المنصب الإداري بطريقتين (قائممقام) وهي الطريقة الشائعة، وقد قُلبت الهمزة ياءً، و(قائم مقام). وأفضل استخدام الطريقة الثانية، إلا في حالة النقل الحرفي (التنصيص)، فإني ألتزم بالطريقة، التي اعتمدها كاتب النص.

وتبدأ المنطقة أمامنا تأخذ شكل تلال، وفي أعالي التلال تنتصب البيوت في كل مكان، إذ أن اليمنيين يفضلون السكن في القمم العالية[336].

مقهاية الواصل: (إرتفاعها حوالي ١٢٠٠متر عن سطح البحر) والجو هنا يميل إلى البرودة. وتختفي أكواخ تهامة، التي ينفذ من خلالها الهواء، لتحل محلها المنازل الحجرية المتماسكة. وعلى ارتفاع ١٤٠٠ متر عن سطح البحر تبدأ أشجار البن في الظهور. والمنطقة هنا مزروعة زراعه جيدة وحقولها آخذة شكل المدرجات، كما هو الحال في لبنان. وعلى ارتفاع ١٨٠٠متر عن سطح البحر توجد قرية عتّارة، التي كانت سابقاً مقراً للملك الداعي (الإسماعيلي)[337]. وتقع على بقعة صخرية، يصعب الوصول إليها، ولم يتمكن الأتراك من قهرها إلا با ستخدام الحيلة. وقد عمد الملك الداعي إلى استغلال السكان في المنطقة مستخدماً الدين. فأخذ يبيعهم أماكن في الجنة، مقابل مبالغ كبيرة من المال، وقايضهم بقطع من الأراضي في الجنة، مقابل أراضي في هذا العالم.

بعد ذلك تأتي مناخة، على ارتفاع ٢١٠٠متر عن سطح البحر. وهي أهم منطقة، من المناطق الواقعة بين الحديدة وصنعاء. ولأهمية موقعها يوجد فيها موقع عسكري، مكون من ثكنة عسكرية ضخمة ومباني حكومية ومكتب بريد وتلغراف. ويبلغ عدد سكان مدينة مناخة الصغيرة خمسة آلاف نسمة، بينهم كثير من اليهود. ومن الغريب، أن اليهود لا يوجدون في قرى ومدن تهامة، في حين أنهم يوجدون حتى في القرى الصغيرة في مناطق الجبال.

وبعد مناخة هبوطاً يُلاحظ اختلاف كبير في مقدار الإرتفاع عن سطح البحر، فا لطريق تتجه نحو الأسفل إلى حوالي ١٣٠٠متر عن سطح البحر. وتمر الطريق بمقهاية أحمد باشا، ثم تمتد إلى سوق الخميس (٢٢٠٠متر عن سطح البحر)، الذي يبدو في وضع بائس، وليس فيه سوى بيوت قليلة. وتتسع الطريق عبر منعطفات، وترتفع شيئاً فشيئاً، لتصل في أعلاها إلى ارتفاع ٣٠٠٠متر. ثم تبدأ با لإنخفاض، نحو متنه أو سوق سنان باشا (٢٤٠٠متر عن سطح البحر)، ويتخللها

---

(336) كان اليمنيون يبنون مساكنهم على التلال الصخرية وعلى قمم الجبال العالية لسببين: أولهما وأهمهما الحرص على الأراضي الزراعية والمحافظة عليها، وهو مالم يعد يراعيه يمنيو هذا الزمان. وثانيهما لدواعي أمنية.

(337) قرية عتّارة، انطلق منها ومن حصنها، حصن عتّارة، الدعاة الإسماعيليون من آل شبام، ومنهم الحسن بن اسماعيل شبام. أما الملك الداعي الإسماعيلي، فهو لقب، أطلق غالباً على مؤسس الدولة الصليحية، الملك على بن محمد الصليحي، الذي انطلق في دعوته من حصن مسار في حراز. أنظر: نوفل، حمود زايد، إسماعيلية اليمن السليمانية. رسالة ماجستير.

جسران حجريان جميلان. ومتنة أو سوق سنان هي منطقة صغيرة. ورغم ذلك فيها موقع عسكري ضخم، مكون من ثكنتين ومخيم. وتعتبر هذه المنطقة سيبيريا اليمن، فدرجة الحرارة في الصباح تبلغ ٥ درجات سيلزيوس فقط. وقد وجد خادمي الدمشقي صعوبة في إخراج المكاري[338] والخادم الذي أخذناه من الحديدة، إخراجهما من كيسي نومهما. وعادة ما يصطحب اليمنيون معهم كيساً من القماش المتين، يدخلون فيه ويربطون فتحته من الداخل، ليحموا أنفسهم من البرد والحشرات.

ومما يلفت النظر في قرية Min[339] وجود قبر، هوعبارة عن حُجْرة، نحتت داخل صخرة منعزلة، ويشبه ما يصادفه المرء في بعض المناطق في سوريا.

بعد ذلك انفتح أمامنا منظر وادي صنعاء الواسع. وعند الظهيرة وصلنا الباب الغربي، حيث سجل حرس الباب دخولي. وقد استغرق الطريق، عبر حي اليهود الواسع وحي الأتراك، بير العزب، حوالي نصف ساعة إلى المدينة العربية الحقيقية. وتطوع الأوربي الوحيد في صنعاء، السنيور كابروتي **Signor Caprotti**، فأخذني إلى سمسرته. لقد بلغه قدومي، فقام باستئجار مترل لي. وكان مترلاً مبنياً على الطريقة التركية ومكوناً من طابقين، كل طابق فيه غرفة كبيرة، لها أربع نوافذ، وغرفتان صغيرتان، في كل منهما نافذة واحدة، وفي الأسفل مطبخ واسطبل وحديقة. وكان الإيجار الشهري **M. 16**[340]. أما الأثاث فكان بسيطاً للغاية، بعض الحصر الممدودة وفوقها بعض المفارش. وفي الديوان منصة من الطين ووسائد. وطلبت من رجل يهودي أن يجهز لي ستائر للنوافذ.

والإجراءات القضائية هنا سريعة. فعندما سرق مني شاب قطعة قماش، صدر عليه حكم القاضي في اليوم التالي، بإيداعه السجن لمدة عام. ولاستكمال الأثاث قمت بشراء بعض الكراسي وطاولة، وما هو أكثر ضرورة من ذلك، وهي اللمبات وأواني المطبخ. وكان السعر مرتفعاً، بسبب صعوبة النقل وتكاليفه العالية وتحطم الكثير من المواد، في حالة اهمال المكاري.

كان الوالي حلمي باشا، الذي سلمته كتاب التوصية من ميتيليني **Mytilini**، يتحدث الفرنسية بطلاقة، كما يتحدث اليونانية والعربية. وبدأ عمله الرسمي منذ مطلع شبابه، لذا فهو

---

(338) الشخص الذي يؤجر حيوانات الركوب (الحمير والجمال)، وعادة ما يرافقها، ليعود بها في نهاية السفر.

(339) لعلها قرية منذ.

(340) لعله يقصد ماركاً ألمانياً.

يعرف كل نقاط الضعف لدى الموظفين، ويلاحق بلا هوادة كل الممارسات الجائرة والفاسدة، مما يعرضه للمخاطر، فقد أطلق عليه قائم مقام النار، قبل بضعة أشهر، لأنه عزله من منصبه.

ويرى الوالي حلمي أن خطاً حديدياً من الحديدة إلى صنعاء، عبر وادي صنفور **Sanfur**، سيدر عائداً مالياً طيباً. أما الآن فإن النقل شاق، كما ذكرت، وفي المواسم سيئة المحصول يصبح كل شيء مكلفاً جداً. ولكن الأسعار تتدنى في السنوات جيدة المحصول. وبسبب هذا التباين فإن إيجاد حالة من التوازن، عن طريق الإستيراد والتصدير، أمر غير ممكن.

وقمت بزيارة المشير في الثكنة العسكرية الكبيرة بباب اليمن. وتتكون الفرقة السابعة، الموجودة في اليمن، من ٤٠ إلى ٤٥ كتيبة، منها ٤ إلى ٥ كتائب في صنعاء. والخدمة العسكرية في اليمن تخيف الجنود الأتراك، لما فيها من مشقة ومخاطر. ولذا تُخفظ خدمة العلم العسكرية في الجيش التركي، ومدتها خمس سنوات، تخفض إلى ثلاث سنوات، في حالة أداء الخدمة في اليمن.

وتعتبرصنعاء، وهي عاصمة اليمن، تعتبر أقدم مدينة في العالم. أنشأها نوح. وتبعد عن ساحل البحر بحوالي مائتي كيلومتر. ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ٢٢٥٠ متر. وتقع على خط العرض خمسة عشر ونصف درجة شمالاً. وبسبب ارتفاعها، فإن مناخها، رغم قربها من خط الإستواء، أشبه بمناخ وسط إيطاليا. وفي حدائقها لاتزال توجد بعض أشجار النخيل، ولكن ثمارها لا تنضج. كما توجد فيها كل فواكه وخضروات المنطقة المعتدلة، كالتفاح والمشمش والسفرجل والجوز والرمان والعنب والبطاطس والملفوف والفاصوليا وغيرها.

وبناءً على إرادة سلطانية، فإن استيراد وصناعة المشروبات المسكرة في اليمن محظور، ومع ذلك فإن اليهود يصنعون نبيذاً رائعاً للغاية وعرقاً ممتازاً، يشاركهم في احتسائه أيضاً أناس مؤمنون من غير دينهم. ويبلغ عدد سكان صنعاء خمسين ألف نسمة. وتنقسم إلى ثلاثة أجزاء:

١ـ المدينة العربية: ويوجد فيها السرايا[341] ومعظم المدارس والمساجد الكبيرة والمقاهي والأسواق والسماسر[342]. وهذه السماسر هي عبارة عن مباني واسعة، تتم فيها الأعمال التجارية الكبيرة. وكل منازل هذه المدينة تقريباً بنيت على الطراز العربي. ويبنى المنزل إما كله من الحجارة، أو تبنى الطوابق السفلى من الحجارة، والطابق العلوي من الياجور. ولها مشربيات كثيرة، ذات

---

(341) مسكن الوالي.
(342) جمع سمسرة.

أنماط مختلفة. وفي جدران الغرف فتحات صغيرة، فيها مصاريع خشبية للإغلاق. والمشربيات المذكورة، مزينة فتحاتها من الداخل بقطع من الزجاج الأصفر والأزرق. وفي الجزء الأعلى من الجدار توجد نوافذ مستديرة، ولكنها مزودة، بدلاً من الزجاج، بصفائح من الرخام الرقيق. وعبر الرخام والزجاج الملون، تعطي المشربيات والنوافذ للغرف ضوءاً خافتاً مريحاً.

٢ـ الضاحية الممتدة، المسماة بير العزب (بير الماء العذب):[343] يسكنها كبار الموظفين والعسكريين الأتراك، وبيوتهم في الغالب محاطة بالحدائق.

٣ـ حي اليهود: وله سوقه الخاص. ويسكنه حوالي ٦ إلى ٧ آلاف يهودي، يتكسبون من العمل كحرفيين وحمّالين، ومنهم تجار صغار وخدامون. أما الأغنياء منهم فقد هاجروا إلى فلسطين.

ومدينة صنعاء محاطة بسور مبني من الطين (اللبن)، له ثلاثة أبواب كبيرة: باب اليمن في الجنوب وباب شعوب في الشمال وباب Ga El[344] في الغرب. ولم يحتفظ بطابعه العربي الواضح سوى هذا الباب الأخير. وفي الشرق على مقربة من المدينة يرتفع جبل نقم ٢٩٥٠متراً فوق سطح البحر، وعلى قمته توجد قلعة يرابط فيها خمسون جندياً تقريباً.

وتوجد في صنعاء مؤسسات عامة هي: مدرسة عسكرية ومدرسة مدنية ومدرسة صناعية، يتعلم فيها الفقراء العرب بعض الصناعات اليدوية، ومستشفى عسكري ومستشفى مدني كبير، تعمل في قسم النساء، التابع له، ممرضات يهوديات . كما توجد صيدلية مدنية أيضاً. ومن الغريب أن الصيدلية تبقى نظيفة دائماً، ويمكن الحصول فيها، إلى جانب الأدوية، على مياه معدنية، من نوع فيشي وبلين. ويعطى الفقراء الدواء مجاناً، بموجب وثيقة تمنح لهم من البلدية. وفي صنعاء مطبعة، تُطبع فيها صحيفة (صنعاء) باللغتين، العربية والتركية. والحياة في صنعاء ماتزال أكثر هدوءاً بكثير،

---

(343) هكذا فسر بورخاردت معنى اسم (بير العزب). ولم أجد هذا المعنى في أي مصدر.

(344) هكذا ورد اسم هذا الباب. وقديكون الإسم المقصود (باب القاع، أو باب الجاع، باللهجة الصنعانية) . ولم يورد هذا الإسم أي رحّال آخر. وقد أورد كارستن نيبور، في سياق وصفه لمدينة صنعاء أسماء أربعة أبواب كبيرة، وهي: باب اليمن وباب السبحة وباب شعوب وباب إستران . كما أورد أسماء ثلاثة أبواب صغيرة، وهي باب شرارة وباب حديد وباب فجير. وأورد الأستاذان حسين العمري ويوسف عبد الله، في الموسوعة اليمنية، (مادة صنعاء) أسماء أربعة أبواب رئيسية، وهي باب اليمن وباب شعوب وباب السبحة وباب ستران. ثم أضافا ، أن بقية الأبواب، مثل باب خزيمة وباب الشقاديف، أبواب أستحدثت، حينما أُستحدث حي بئر العزب.

من مدن الشرق الأخرى. فبعد غروب الشمس، نادراً ما يغادر المرء مترله. أما الضباط والجنود فإنهم يمنعون من ذلك رسمياً.

وللتخلص من الملل في شهر رمضان قررت القيام برحلة عبر المناطق المختلفة. وزودني الوالي بمرافقين، أحدهما باشت شاويش **Baschtschauwisch** (جاويش الجندرمة) والآخر ظبطية من أبناء اليمن، جعله الوالي مسؤولاً عن سلامتي الشخصية، ووجهه بشدة بأن لايأخذني إلى المناطق غير المأمونة. ولأنني لم آخذ معي سوى الأغراض الضرورية، فقد اكتفيت باستئجار ثلاث بغال من الشوتري **Schauteri**، وهو الإسم الذي يطلقه اليمنيون على مالكي حيوانات النقل، وهم عادة من الأغنياء، الذين، بطبيعة الحال، لايرافقون حيواناتهم، بل يكلفون بذلك سيّاق **Seijak** الحيوانات. ويتقاضى السيّاق مبلغاً محدداً، مقابل مدة الرحلة، أو مقابل كل يوم، بما في ذلك قيمة العلف ونعال البغال. كان اتجاه رحلتي نحو الشمال الغربي، ومررت بالقرب من مدينة الحدائق (الروضة)، التي تبعد مسافة ساعة ونصف عن صنعاء. وعبر أراضي بركانية وصلت بعد عشر ساعات إلى مدينة صغيرة وقديمة، لها سور وأبراج، اسمها (عمران). وهي مقر قائم مقام، وفيها حامية عسكرية. وقد تسبب هطول الأمطار فيها، قبل بضعة أشهر، في تدمير كثير من منازلها، بما في ذلك معظم المقاهي. ولذا قضيت ليلتي في مترل يحي اليهود، خارج أبواب المدينة. ومن عمران إلى مسور **Musvar** كانت الطريق وعرة جداً وتمتد عبر مرتفعات شاهقة، لم أتمكن من تحديد ارتفاعها، بسبب تحطم آلة قياس الإرتفاع. ومسور نفسها قرية غير ذات بال. والحي العربي فيها يتكون من عدد قليل من المنازل، أما الحي اليهودي المنعزل، وفيه السوق، فهو أكبر. وعلى المرتفعات المحيطة ينتصب عدد من المنازل.

ولما كانت الأنباء القادمة من حجة غير مطمئنة، فقد امتنع الباشت شاويش عن تحمل مسؤولية الذهاب إلى هناك. لهذا قررت، بدلاً عن ذلك، التوجه إلى شبام وكوكبان. فرجعنا على طريق عمران نفسه، لمدة ثلاث ساعات تقريباً، ثم انعطفنا نحو اليمين، عبر وادي مرارة الحمام **Mararet El Hamam**، على طريق تبدو قديمة، منحوتة على الصخور، حتى وصلنا شبام.

وهي مدينة صغيرة محاطة بسور، متصل من جهة الشرق بكتلة صخرية عالية، شديدة الإنحدار، على رأسها مدينة كوكبان. وفي الصخر نحتت كهوف، كان بنو حمير يستخدموها سكناً لهم[345].

وبعد خمس وأربعين دقيقة من الصعود بلغنا كوكبان. وعلى هضبة واسعة، مفتوحة على كل الجهات، تنتصب بيوتها الكثيرة، التي تتسع لثلاثين ألف ساكن، ومعظمها بيوت فخمة. ولكن كان كل شي فيها يبدو خاوياً، وكما لوأنها قد امتدت يد الموت إليها. ولم يكن يوجد في المدينة أكثر من مئة شخص، مع أن المساجد الكبيرة المهدمة تشهد على ماض عظيم.

ولكي أعود إلى تهامة، كان لابد أن أسلك طريق العروس وسوق سنان باشا إلى باجل، ومن باجل تحولت باتجاه الجنوب إلى المراوعة ثم بيت الفقيه، التي هي مدينة غير مسورة، وفيها سوق كبير، وتتداخل منازلها، المبنية بالياجور، تتداخل مع أكواخها، ولا توجد فيها بيوت مكونة من أكثر من طابق واحد، وذلك بسبب الإعتقاد السائد بين الناس بأن الولي الشيخ أحمد بن موسى عجيل، الذي يقع قبره على مقربة من المدينة ويمثل مزاراً للأهالي، لايسمح ببناء منازل مكونة من أكثر من طابق، وأن كل منزل يبنى من طابقين أو أكثر، لن يلبث أن ينهار. ومن الملفت للنظر أن منارة المسجد وحدها هي التي ترتفع عالياً. وتبد والأرض في هذه المنطقة مزروعة بعناية فائقة، وتنتشر فيها حقول الذرة والقطن والنيلة. كما أن بعض القرى تبدو جميلة، وكأنها تقع وسط حدائق غناء.

أما مدينة زبيد فليس فيها سوى قائم مقامية، مع أنها ثالث أكبر المدن اليمنية، وعدد سكانها يبلغ بالتأكيد عشرين ألف نسمة، ويوجد فيها حتى بعض الصناعات. فالقطن الذي يحاك فيها يُسوّق إلى جميع أنحا اليمن. وأبرز مساجدها جامع الجمعة **Gamae El Gumaa**[346].

ولأن مرافقيّ أرادوا قضاء عيد الفطر في تعز، فقد اتجهت مباشرة إلى هناك، عبر حيس وجباء وسوق الرماده، الذي يقع في منطقة خصبة جداً، مليئة بغابات النخيل. ورغم أن مدينة تعز أقل سكاناً وصناعة من زبيد، إلا أنها مركز متصرفية، والمناطق التابعة لها هي أكثر أهمية من المناطق التابعة لزبيد. ويوجد في تعز حامية عسكرية كبيرة ومكتب بريد وتلغراف. وسمعتها، كأكثر مدينة يمنية غير صحية، ترجع إلى موقعها وإلى انعدام النظافة فيها، انعداماً لامثيل له. ويشهد سورها الكبير الملتف، الذي يمتد إلى جبل صبر، كما تشهد كثرة أطلال المنازل، ومساجدها الفخمة، التي

---

(345) لم يُعرف عن الحميريين أنهم سكنوا في كهوف. وقد يصح القول أنهم نحتوا كهوفاً في الصخور، مقابر لموتاهم.

(346) تسمية غريبة. لعله يقصد المسجد الجامع.

ماتزال قائمة، مثل جامعي المظفر و الأشرفية ومنارة اسحاق، تشهد جميعها على حجمها الكبير في الماضي.

وفي الثاني والعشرين من يناير دوت المدافع، معلنة انتهاء شهر رمضان. وأقيم عرض كبير بهذه المناسبة، شارك فيه المدنيون والعسكريون. وبدوري قمت أنا أيضاً بزيارة تهنئة للمتصرف.

وتمر الطريق، عبر القاعدة إلى إب، بوديان خصبة، مزروعة بالقمح والنخيل والموز. وتنتشر أشجار العمق بأحجام كبيرة. ومدينة إب مقر قائم مقام. وهي مدينة صغيرة، يبلغ عدد سكانها حوالي أربعة آلاف نسمة. ومنازلها عالية ومتينة البناء، كمنازل صنعاء، وطرقها مرصوفة بالحجارة، ويزود مسجدها بالمياه، بواسطة مجرى مائي ممتد فوق قناطر، من خارج المدينة.

وفي مدينة يريم، التي وصلتها في اليوم التالي، يوجد أيضاً قائم مقام. وهي مدينة أكبر من مدينة إب. ولكن بيوتها ليست بمتانة بيوت إب. وقد تكونت، خارج سور المدينة، مستنقعات من مياه الأمطار، الراكدة في الحفر الصخرية الكثيرة، مما جعل المدينة غير صحية، إلى حد كبير. وتمتد الطريق إلى ذمار عبر منطقة جرداء، مملؤة بالحجارة. وقابلنا في الطريق أعداداً من بدو منطقة مأرب، يسوقون أمامهم جمالاً محملة بالملح، ويبدون أناساً أقوياء، لاينم مظهرهم عن أي أثر للتحضر، ولا ينامون تحت سقف قط، كما لايتناولون طوال نهارهم أكثر من خبز، يصنع من عجين الذرة: يوضع العجين حول حجر مدور، ويقذف به وسط النار ويترك حتى ينضج ويصبح خبزاً. وعلى صخرة في الطريق يوجد أثر قدم، يسمى دعسة علي، يمسحه البدو بالدهن، كتعبير عن الإحترام والإجلال.

ومدينة ذمار مدينة غير مسورة، وعدد سكانها حوالي إثنى عشرألف نسمة، وهي مقر قائم مقام ومعه جنرال، على رأس فرقة عسكرية. ويقع المعسكر الكبير والمستشفى العسكري خارج المدينة، على بعد عشر دقائق منها. وقد أكد لي الطبيب العسكري أنها توجد في الجوار مياه معدنية، كما توجد على قمم الجبال حمامات ساخنة.

وبعد مسير يومين ونصف، عبر منطقة معبر ووعلان، عدت إلى صنعاء، فوصلتها في ٣١ يناير١٨٩١. وفي الشمال الغربي على بعد أربع ساعات من صنعاء يقع وادي ضهر. وهو عبارة عن قاع منخفض، محمي من جميع الجهات، وتتوفر فيه المياه بكميات كبيرة، وحدائقه الغناء مليئة بمختلف نباتات المناطق شبه المدارية. وفي الأعلى تنتصب فوق الوادي آثار حصن قديم جداً.

وعلى بعد ساعة ونصف إلى الجنوب الغربي من صنعاء يقع وادي حدة، وهو وادي صغير، فيه نبع ماء غزير، استفادت منه إدارة الجيش لتشغيل مطحنة.

وكما هو الحال في دمشق، يحتفل هنا ببعثة الحج، احتفالاً مهيباً. ويشارك في الإحتفال المسؤولون المدنيون والعسكريون. ولايسافر إلى الحج على الطريق الشاق والطويل، عبر صعده وعسير حتى مكة، إلا الفقراء من الناس، لأنه طريق غير مُكْلف مالياً. أما الأغنياء فيسافرون بحراً، عبر الحديدة إلى جدة.

وفي بداية شهر مارس بدأت رحلتي إلى عدن. فاستأجرت بغالاً إلى قعطبة، وهي آخر موقع جمركي تابع للأتراك. ولأن الرحلة إلى هناك سهلة، ولا يتوقع أخذ أحمال ثقيلة، فقد دفعت أجرة كل حيوان ١٥ ريالاً (٣٠مارك)، وذلك للمدة التي ستستغرقها الرحلة، وهي سبعة إلى ثمانية أيام. وما كان يمكن أن يُطلب مني أكثر من هذه الأجرة، التي تعتبر أجرة عادية. وكان لابد من العودة إلى ذمار. ولكن قبل ذلك قمت بزيارة منطقة منشية **Menschije**، التي تقع على بعد ثلاث ساعات إلى الغرب من معبر.

وفي ذمار تركت حيوانات الحمول وركبت باتجاه الشرق، نحو جبل حيدر لسي **Haiderlesi**(347)، الذي يوجد في قمته حمام مياه ساخنة. ويقع خلف قرية ورقة، بمسافة ساعة وربع الساعة تقريباُ، وعلى بعد حوالي أربع ساعات، إلى أربع ساعات ونصف الساعة من مدينة ذمار. ويصعد المرء على طريق جبلي حاد الإرتفاع، مفروش بالحصى البركاني الأسود، الأشبه بالزجاج، ليجد نفسه في النهاية أمام فوهة بركانية هائلة، يبلغ قطرها ٤٠٠متر، محاطة بسور عالي وعريض. وفي داخل حافتها العليا صهريج ماء دائري، مبطن بالإسمنت. ويتكون الحمام من بضعة شقوق، في جدار فوهة البركان، يتصاعد البخار منها باستمرار. وفي هذه الشقوق يندس المستحمون، لتسخن أجسامهم ويتصبب عرقهم.

وفي اليوم التالي توجهت شرقاً نحو رداع، ماراً بمحاذاة منطقة ملاح، لأصل إلى رداع في ظهراليوم التالي. ورداع مدينة كبيرة ومهمة، وهي مقر لقائم مقام. ويطل على المدينة حصن، بني على مرتفع صخري. وفيها عدد من المساجد، التي كانت في الماضي مساجد فخمة. ولكنها الآن أصبحت نصف مدمرة، ومنها جامع العامرية وجامع أبو علي. ويقع حي اليهود في مكان منعزل تماماً. ولاتختلف ملابس اليهود في رداع عن ملابس بدو المشرق، إلا اختلافاً بسيطاً. وعلى بعد نصف ساعة من رداع نحو الشمال تستلقي، تحت الصخور الشاهقة، قرية، سكانها جميهم من اليهود، واسمها (الجراف).

ولأن الطريق المباشر إلى قعطبة شاق وغير مأمون، كان عليّ أن أسلك طريقاً عبر **Yemime** وهكر، إلى يريم. وهكر قرية قديمة، تقع على مرتفع، وبالقرب منها توجد نقوش حميرية. ولعدم توفر مياه جارية في المرتفعات اليمنية، توجد آبار في كل مكان، بما في ذلك في هكر.

---

(347) لعله يقصد جبل الأسي أو اللسي، الذي يوجد فيه معدن الكبريت وحمام طبيعي.

ومن يريم تتجه الطريق جنوباً نحو النادرة، وفيها موقع عسكري. ومن النادرة إلى وادي بيت الصباري. وللوصول إلى بيت الصباري هبطت لمدة ساعة ونصف الساعة، طريقاً متعباً للغاية، عبر منطقة جبلية بركانية وعرة، تنتصب في أعلاها قرية أزال. وفي اليوم الثالث وصلت إلى محطة جمارك قعطبة، الواقعة على بعد ساعة إلى الغرب من مدينة قعطبة. وكان مدير المحطة دمشقي، وهو أخ قائم مقام باجل. وقد أمر مقدم الجمّالة على الفور بأن يستأجر لي ثلاثة جمال. وكان إيجار الجمل الواحد إلى عدن ٣٥ ريالاً (٧٠مارك)، ويستغرق السفر إليها أربعة أيام. ولكن أخيراً أمكن الإتفاق على دفع ٢٠ ريالاً للجمل. وإلى جانب ذلك دفعت ١٥ ريالاً أجرة غرفة للمبيت. والسبب في ارتفاع أجرة الحيوانات، أن هناك أربعة مشايخ صغار، كل منهم مستقل تماماً ويفرض إتاوة على كل حيوان محمل يمر بمنطقته. ويدخل ضمن الأجرة المدفوعة ضمان سلامتي الشخصية وسلامة أمتعتي.

وعلى بعد ساعتين جنوباً من قعطبة تقع الجليلة، وفيها موقع عسكري تركي. وبعدها تبدأ المنطقة المستقلة. ومن حسن الحظ أن الطقس كان في هذه المنطقة طقساً غير حار ومريح، حتى أن السماء أمطرت خلال اليومين السابقين. وتوجد في هذه المنطقة كثير من الأشجار. وقبل الحوطة (لحج) ببضع ساعات، أصبحت المنطقة أكثرخصوبة واخضراراً.

وفي مساء اليوم الثالث حططنا الرحال بين أشجار النخيل، على أبواب الحوطة، عاصمة لحج، السلطنة الصغيرة المستقلة، ودخلناها في اليوم التالي. وقد أدخلت أمتعتي إلى مبنى الجمرك. ولأنه كان يوم جمعه، فقد رفض موظفو الجمرك إعادتها لي إلا في اليوم التالي. لذا توجهت إلى قصر السلطان، المبني على الطراز الهندي، وحصلت فوراً على الإذن بالدخول لمقابلة جلالته. وكان يجلس في قاعة بسيطة وواسعة ومعه حوالي ٤٠ شخصاً. ورحب بي بلطف وأمر حالاً بتسليمي أمتعتي. ولم يكن الحاضرون يحتسون البن، بل كان أمامهم ربط من أغصان القات، يتناولونها بشغف. وجلست بجانب سكرتير السلطان، الذي كان يتحدث الإنجليزية، وكان في تلك اللحظه يترجم للسلطان نشرة رويتر ديبيشن الإخبارية، التي وصلت للتو من عدن.

ومن الحوطة إلى عدن، التي تبعد حوالي ٩ ساعات، تمتد طريق سيارات ضيقة وسيئة. وعلى امتداد مسافة ساعتين بعد الحوطة كانت الأرض ماتزال مزروعة بعناية، وتبدو خصبة جداً. ثم تمتد بعد ذلك أرض رملية قاحلة. وفجأة يبدأ طريق عريض معتنى به، وعليه مبنى حراسة، مكتوب عليه (الشرطة البريطانية). هنا دخلنا المستعمرة البريطانية. وعبر ضاحية الشيخ عثمان الجميلة وصلنا، بعد ثلاث ساعات ونصف، مدينة عدن .

الملحـــــــق

١. الرحلة الأخيرة للرحّال بورخاردت، كما دونها مرافقه الفقيه أحمد محمد الجرادي

٢. رسالتا الإمام يحي محمد حميد الدين.



ملحق (١)

سيرت[348] الخواجة الاكرم المرحوم هرمان بورخرت الألماني

فانه قوا نيته[349] على السياحه والعزم[350] الى اليمن[351] لمعرفته ولاخذ الرسم[352] فوقع الخروج من صنعاء وعزم في يوم الثلوث الموافق سادس وعشرين في شهر شوال سنه سبعه وعشرين وثلاث ميه والف ووقع خروجه في ساعت سبع[353] في اليوم المذكور وبمعيته كاتبه الفقيه احمد ابن محمد الجرادي من اهالي صنعا وحسين ابن محمد النبهاني وواحد سواري من اهالي ارحب اسمه صالح حمود العذري وواحد زبطي من اهالي الجراف اسمه احمد سعيد الجمالي الاثنين المذكورين تملي لحتى يعود الخواجه وكذلك ثلاثه انفار محافظين وهم من الزاندرمه[354] اسماهم محمد عايض الجدري وناصر العمراني وعلي احمد من اهالي بير العزب الجميع محافظين فسافر الخواجه الافخم على الصحه والسلامه في اليوم المعلوم وخطينا من يسرت داع الخير ومشينا قليل واشرفنا على الجردا ودار القاع وسرحنا قليل لحتى اشرفنا على لكام يقلو لهن سواد حزيز وزد خطينا قدر نصف ساعه لحتى اشرفنا على قريت حزيز وهي مديره[355] وقرية متوصطه فوصلنا تبت بيت المقهوي وقد كان

---

(348) نكرر هنا ماذكرناه في المقدمه، بأن النص، الذي كتبه الفقيه أحمد محمد الجرادي، يحتوي على أخطاء إملائية وكلمات وتعبيرات باللهجة الصنعانية الدارجة، ولم يتضمن النص علامات فاصلة، بين العبارات، ولاعلامات وقف، ولم يُرتب في فقرات. وسوف نورده هنا كما كتبه الفقيه الجرادي تماماً.

(349) عقد العزم، نوى نية قوية.

(350) بمعنى السفر. ويبدو أن لفظ (العزم) قد حل في الإستخدام الدارج، محل لفظ (السفر) واكتسب معناه ودلالاته، بسبب مايلازم السفر من مشقة، ومايتطلبه من عزم وتحمل

(351) يقصد إلى جنوب صنعاء، أو ماكان يسمى باليمن الأسفل(المعروف الآن بالمناطق الوسطى). ومازال أكبر أبواب سور صنعاء يسمى حتى اليوم (باب اليمن)، لأنه مفتوح باتجاه المناطق الجنوبية.

(352) تحتمل معنيين: إلتقاط صور فوتوغرافية، و رسم خارطة للمنطقة. ولكن المقصود هنا التقاط صور فوتوغرافية.

(353) الساعة السابعة (عربي) تقابل الساعة الواحدة ظهراً، بحسب التوقيت العالمي الحالي. إذ يبدأ النهار في الساعة الواحدة صباحاً، وتقابل الساعة السابعة صباحاً. وينتصف في الساعة السادسة ظهراً، وتقابل الساعة الثانية عشرة ظهراً. وينتهي النهار في الساعة الثانية عشرة مساءً، وتقابل السادسة مساءً. ثم تبدأ ساعات الليل، بالساعة الواحدة ليلاً، وتقابل السابعة ليلاً، وتنتهي في الساعة الثانية عشرة صباحاً، وتقابل السادسة صباحاً.

(354) الجندرمة.

(355) مديّرة، بمعنى مسوّرة. والداير هو السور، المحيط بالمنزل أو القرية أو المدينة. ويسمى المفتاح أيضاً داير.

معانا بريال لحم اشتريناه من صنعا فدخلنا بيت المقهوي وقنبرو العسكر والخدم في المكان الاسفل والخواجه قنبر في منظر في علاو البيت وصار الخواجه في راحه وشتاق يسير عند الخواجات الذي بيفعلو ميزان الشومندفار فسار وبقي عندهم قدر ساعتين وسار ومعه اثنين من العسكر محافظين وبعد ذلك رجع وذك الليله تنفس الخواجه نفس كبير وبقي في راحه كبيره ويوم ثاني عزمنا الجميع من حزيز وتوكلنا على الله ساعت ثنتين يوم الربوع وخطينا من قريت رهم العليا ومشينا قليل وخطينا من قريت رهم السفلى وقريت الاجام وعمد وظبر خيره وقريت سامك وقريت قحازه والقصير لحتى وصلنا وعلان في الساعه السادسه فوصلنا تبت بيت المقهوي محمد الورش وبه معه ديوان كبير قنبرنا فيه والخواجه الاكرم قنبر في مكان شق الديوان واهل المحل كلهم مقهويين ووجدنا في المحل المذكور عساكر نظام مثل التراب في كل بيت وفي كل سمسره وابسرنا قريه مقابله له اسمها القصير وجميع اهالي القصير قبايل فقنبرنا ظاك اليوم واسترحنا ويوم ثاني توكلنا على الله من وعلان في الساعه الثانيه واول قريه خطينا وابسرناها قريت خدار وقريت المصلي واشرفنا على نقيل يسلح ونزلنا فيه وظاك اليوم الريح قويه فتملينا نزلنا من النقيل وبه في سفاله مكهايه للمسافرين فخطينا من قاع جهران وهو قاع كبير لوما وصلنا رقبت المنشيه وطلعنا نقيل زغير ونزلنا نقيل المنشيه وطيرنا سمسره كبيره عند المقهويه الحره حمده فمسينا عندها في السمسره المذكوره ووقعت لنا ليله عسره من كثر القمل وكثر نبيح الكلاب بقيين ينبحين طول الليل حتى اهٓن اوحشنا ويوم ثاني قمنا ونيتنا العزم الى ظوران فعزمنا ساعت ثنتين من المنشيه فما جا ساعت اربع الا وقد وصلنا مدينت ظوران والطريق منتظم فطيرنا تبت بيت الخادم وهو بيت من احسن البيوت فقنبرنا في ظوران اليوم الاول واليوم الثاني طلع الخواجه والعسكر وكاتبه الى راس جبل ظوران واخذ الخواجه رسم القرا الذي تحت الجبل جميعهن ونزلنا من الجبل وسرح الخواجه وكاتبه تبت القومندان لاجل التشريف ووجدوه مريض مضطجع وخرجو من عنده والخواجه اعجبته المدينه اعجاب كبير واخذ الخواجه رسم الجوامع والبيوت المنتظمه والمدينه في راس جبل والشق القبلي مفتوح جميعه والحصن حق ظوران مغطي المدينه على الشق العدني فقنبرنا فيها ثلاثه ايام ويوم رابع توكلنا على الله ونزلنا وخطينا من قاع بكيل وابسرنا قرا متكاثرات كلهن مرجعهن ظوران فاكملنا قاع بكليل وطلعنا نقيل المنشيه وخرجنا الى قاع جهران وخطينا من شق هجرت معبر وبيت الميبدي وقريت الواصطه وطيرنا معبر وهو مطرح احسن المطارح فقنبرنا في بيت الزبيدي

بيت نضيف مقصص وافتهنا ذك الليله ويوم ثاني قمنا توكلنا على الله وعزمنا من معبر وخطينا قريت طلحامه وحيد احمد واشرفنا على الضيق ودرب ذمار فابسر الخواجه الاكرم قبايل بيدقو زرع في وصط الجرن بالبقر فامر النبهاني يخرج المكينه وذلك لاجل اخذ رسم الرجال والبقر الذي بيدقين الزرع فاخذ الخواجه رسمهم وعزمنا الطريق مسرعين في سيرتنا حتى اشرفنا على مدينت ذمار المدينه المحميه وطيرناها في ساعت ست وهي مدينه متسعه ولكنها غير مديره واسم علاو المدينه الجراجيش واسم وصطها المحل واسم اسفلها المحمول فاعجبت الخواجه واخذ رسم الجوامع والصوامع كلهن وقنبرنا عند احمد حجيره في بيته ونسمنا ثلاثه ايام فيها واشترى الخواجه بغله من صاحب ذمار ووقعت بغله طيبه وبعد مانسمنا فيها ثلاثه ايام عزمنا منها ومعانا خمسه انفار من اهالي ذمار محافظين فتوكلنا على الله ونيتنا نعرف رداع فسافرنا على السلامه والعافيه وخطينا من قيعان كنا نبسر الرباح فيها والذياب مثل التراب طول اليوم ووجهنا تبت قريت سنبان ودخلنا امسينا عند يهودي اسمه شمعون لان المقهويين معدومين في سنبان فادخلنا اليهودي المذكور مكان فيه قدر ميتين سفره بيدبغهن والقمل ملاهن فهجمين علينا القمل حتى اسهرنا سهر عظيم ويوم ثاني الخميس خامس شهر القعده عزمنا من سنبان وخطينا من بيت المصري ودخلنا قاع فيه الرباح ملانه وخطينا من قريت ملح وقريت الصلا ولقينا باب القريه صانع بيشتغل فريد رداعيات هو وثلاث بناته فاخذ الخواجه رسم الصانع وبناته واعطاهم اربعه غروش وعزمنا من عندهم ولقينا في الطريق خمسين جمل محملات ملح فاخذ الخواجه رسم الجمال برضا الجمالين وسلم لهم فلوس وعزمنا فاشرفنا على مدينت رداع ودخلناها بالسلامه والعافيه ووجهنا تبت السمسره الكبيره الموجوده في وصط السوق حق مدينت رداع ولم وافقت الخواجه وبعد ذلك شلينا جميع القراش للحكومه وبقيين فيها والشيخ صالح ابن صالح الطيري موجود في المدينه فسرح الخواجه وكاتبه سلمو عليه لانه قايمقام واضافهم براس غنم هم والعسكر المحافظين والخواجه وكاتبه طلعو الى القلعه وهي اعلا من جميع الدور حق رداع ويوم ثاني سرح الخواجه وكاتبه والنبهاني واخذ الخواجه رسم العامريه من الاربع الجهات وهي اعظم العجايب بحسن عمارتها لانه عمرها السلطان عبد الوهاب وصور الخواجه جميع الجوامع وخرج الخواجه والعسكر الى قريه قريبه من رداع اسمها قريت الجراف فاخذ رسمها والساكنين فيها يهود يستعملو المدر من كل جنس وفوق القريه المذكوره جبل فاخذ الخواجه رسمه وبعد ذلك ان الخواجه ابسر خمسه محاريق الذي يحرقو فيهن

القص وبه فيهن عشر يهوديات بيضربين القص بمضارب من الخشب فاخذ الخواجه رسمهن واعطاهن فلوس وابسر الخواجه الاكرم عجوز يهوديه بتبرم فتله فوق الحلال فاخذ رسمها واعطاها غرش صاغ ورجع الخواجه ومن معه الى المدينه المذكوره ووقع السكون فيها ثلاثه ايام ويوم رابع يوم الاحد ثامن شهر القعده عزمنا من مدينت رداع بعد ان اعتنا فينا الباشه الشيخ صالح ابن صالح الطيري واداا معانا خمسه عسكر محافظين وكذلك ادا لنا مقدم الجمالين اسمه عبد ربه سيلان وحرضه تحريض شديد في انتباهه علينا وامره يرفقنا الى قعطبه فتوكلنا على الله وعزمنا من رداع وخطينا من قريت ملح وقريت المصلا ودخلنا سايلت الفرش واشرفنا على الحصن حق عزان وهو حصن منيع وفي علاوه دار تهيل العقول والابصار عمرها الشيخ صالح ابن صالح الطيري لنفسه بسبب ان اكثر الاراضي الموجوده تحت الحصن ملكه وابسرنا تحت الحصن قريه كبيره اسمها قريت عزان ولم نزال نسافر حتى اشرفنا على قريه راس الجبل وقدو وقت الظهر ساعت ست ونصف واسم القريه الماوره فصادف ان بيت عبد ربه سيلان فيها لانه هو المرفق لنا الذي بيورينا الطريق فحلف يمين بالغه ان لابد مانطلع القريه وندخل بيته نتغدا عنده فطلعنا تغدينا عنده والخواجه ابسر نسوان عجيبات في لبسهن فشتاق ياخذ رسمهن فقال لعبد ربه سيلان هو ممكن ناخذ رسم هذولا النسوان ونعطيهن فلوس فرضي عبد ربه وامر النسوان حقه وحق اخوته واولاده ان يطلعين الجبا وطلعين والخواجه امر النبهاني يطلع المكينه للجبا فاطلعها واخذ الخواجه رسم النسا وبعد ذلك ان الخواجه اعطا عبد ربه ثلاثه ريالات في مقابل الغدا الذي غدانا واخذ الرسم وتوكلنا على الله وسافرنا من الماوره وطلعنا جبال شديده وبقينا نسافر حتى اشرفنا على قريت بيت الصريمي وهي من احسن القرا فامسينا فيها وبات الخواجه في راحه كبيره بسبب افراح هوا المحل المذكور ويوم ثاني توكلنا على الله من بيت الصريمي ونزلنا من عقبت المسرب وقريت طلب وقراظه وخطينا من بيت الجهمي وبقينا نسافر الى ساعت عشر حتى اشرفنا على نقيل لم يرا الراءون اكبر منه فبقينا ننزل فيه قدر ساعتين واشرفنا على قريت دمت فدخلناها ووجهنا تبت بيت المقهوي فاسترحنا فيها يوم ويوم ثاني فعلنا دوره الى راس حصن دمت لانه حصن كبير واخذ رسم قريت دمت منه ودرنا على خارج القريه فسمع الخواجه ان به حمام قريب من دمت فشتاق يسير اليه فعزمنا الجميع الى الحمام ووصلنا وابسرناه واذا هو موضعين موضع للرجال وموضع للنسا وصفتهن انهن معمورات باحجار وبتخرج منهن انهار حاميه من الارض وابسرنا قبايل بيتحممو فيه وبعد ذلك تحمم الخواجه

فيه ورجعنا قريت دمت ومن العجايب ان الما معدوم في دمت وجميع المساجد لم فيها ما ويوم ثاني عزمنا من دمت ولقينا في الطريق ثلاثه يهود وخمس يهوديات محملات تناوير واليهود محملين حطب فقلهم الخواجه هم راضيين يرسمهم ويعطيهم اربعه غروش فرضيو فاخذ رسمهم وسلم لهم اربعه غروش وخطينا من قريت الحقب وهي اول قريت من قرا قعطبه وبقينا نسرع حتى وصلنا قريت الحشف فامسينا فيها عند قبيلي لان المقهويين معدومين مابه فيها الا قبايل فوقعت ليله ما ابرك منها ابدا ويوم الربوع <١١> شهر القعده عزمنا وخطينا من قريت محقن والعرفاف وحجلان وصولان وغول الديمه وبيت جعول والبديوه والحنكه وقطعت الشرف ونزلنا نقيل الشيم وبه قريه في سفال النقيل اسمها قردح وبقينا نسافر لو ما اشرفنا على مدينت قعطبه ساعت عشر ودخلناها بالسلامه ووجه الخواجه الاكرم وكاتبه الى بيت الحكومه سلمو على القايمقام عبد الله بيك العسيري واعطاه الخواجه امر المشير فجره وقريه وعلم بما فيه وانتبه انتباه كبير وشترى لنا راس غنم من احسن ما يكون وامر وكيله يسلم قدح شعير حسيك للقراش حقنا واضافنا يومين ويوم الخميس اخذ الخواجه رسم المدينه المذكوره من جميع الجهات واخذ رسم الجامع الكبير المسما جامع الفرح ودخلنا الى قاع اليهود وصور الخواجه خمسه يهود صانعين بيشتغلو مقاطب واخذ رسم ثلاث يهوديات لان ملبوسهن عجيب ورجع الخواجه الى الحكومه فامره القايمقام ان ياخذ رسم جميع المامورين فاجاب عليه الخواجه ان يامر الخدامين يفرشو الحوي حق الحكومه بمفارش ويقنبروا المامورين فوق المفارش وهو ايرسمهم فامر القايمقام الخدامين ان ينزلو المفارش من الحكومه ويفرشو الحوي فنزلو المفارش ووضعوهن في الحوي وقنبرو جميع المامورين فوق المفارش في دكه عاليه متصله بالحكومه واخذ الخواجه رسم جميع المامورين ويوم ثاني الجمعه <١٣> القعده عزمنا من قعطبه واول قريه خطينا منها قريت شحب ومشينا قدر ساعتين وابسرنا بير والما فيها كثير وبحرها قريب والسره فوقها والدلو واسمها بير الصلب فنزعنا منها ما للقراش واسقيناهن ومشينا من قبال قريت صبيره ولم نزال في مسافره طول اليوم الى ساعت عشر ووصلنا الى محل اسمه حبيل يحي ولم يوجد فيه بيت معمور باحجار انما هو عشش مثل تهامه فقنبرنا فيه وادخلنا صاحب حبيل يحي في مكان ارضي معمور بقصب فامسينا ذلك الليله عنده ويوم ثاني السبت عزمنا من حبيل يحي ومشينا من وادي كيشار وهو وادي كثير الانهار والاشجار التي ليس لها ثمره ماتصير الا حطب وخطينا من قريت كيشار ونزلنا من سايله كبيره اسمها سايلت السروه وفي وصطها جبل عالي اسمه جبل يراخ لم

احد يقتدر يطلعه معا عسارته ووصلنا قبال قريت اكمت بركات ودخلنا قاع الاحذوف وقريت المصواله والصبوه ووصلنا سوق الربوع تغدينا فيه وهو في راس جبل عالي واسقينا القراش فوق بير المصواله وافتهنا في سوق الربوع واسم المقهوي مثنا وبعد ذلك توكلنا على الله ونزلنا نقيل يفجع العقول لم قد راينا مثله اسمه نقيل جربت الفوّه وبعد مانزلناه خطينا من نجد نعمان ودخلنا وادي المساعده وورونا جبل سورق وبقينا نسرع في سيرتنا حتى وصلنا مكهايت ادمات وحال وصولنا ابسرنا المكهايه واذا هي حناويت معمورات من احجار ومابش فيهن ابواب فدخلنا احنا حانوت والخواجه حانوت وبه فيها قدر عشرين كاب شغلنا طول الليل لم رقدنا من شدت نبيحهن ويوم ثاني الأحد <١٥> القعده عزمنا من مكهايت ادمات وقت طلوع الشمس واول وادي خطيناه وادي ادمات وقريت الزرايب ووادي الشيخ عبيد وابسرنا قريت الشيخ عبيد فاعجبت الخواجه واخذ رسمها ورسم المسجد والصومعه معا حسن عمارتها وقدمها وخطينا من قاع السودان ودخلنا الجند وفيه جامع وصومعه مابه مثلها ابدا فاخذ الخواجه رسمهن وتقهوينا في مكهايت جند وخطينا من قريت الساكن وقاع حوبان وقاع ابليس وبقينا نسافر لوما اشرفنا على عرضي تعز فوصلنا معا السلامه مدينت تعز ساعت عشر وطيرنا سمسرت الجمروق وامسينا اول ليله فيها وقام الخواجه يوم ثاني دور بيت واخذ دايره وامرنا ننقل الاداه اليه فنقلناهن اليه واذا هو بيت من احسن البيوت ومن حسنه ان البستان تحته والغيل حق المدينه بيمر من الحوي حق البيت في الليل والنهار وجميع اماكن البيت مزججات ومنتظمات وبعد ذلك ان الخواجه اخذ رسم الجامع الكبير المسما جامع المظفر واخذ رسم جميع القبب والمدينه اخذ رسمها من الاربع الجهات وطلع الخواجه حصن القاهره وهو حصن عمره طغتكين ابن ايوب وتنفس الخواجه فيه لان جميع البلاد تحته ونزل الى المدينه واضافه الخواجه الموجود في تعز ويوم الخميس <١٩> شهر القعده توكلنا على الله وعزمنا من تعز بعد الغدا ساعت تسع في اليوم المذكور وبقينا نسافر حتى اظلم علينا الليل فوصلنا الرماده ساعت ثنتين في الليل وامسينا فيها ويوم ثاني توكلنا على الله من الرماده وقت طلوع الشمس وصحبتنا خمسه خياله محافظين وثلاثه زاندارمه من لوا تعز فعزمنا وسافرنا من الرماده وخطينا من قريت هجده وقاع الاحبوب وبلاد ابن يس وتغدينا في خزيجه وجو معانا محافظين نظام واثنين ملازمين من عند صالح زكي وبقينا نسافر حتى وصلنا البرح ولقينا القايممقام في البرح واسمه احمد نعمان فعزم على الخواجه فسار الخواجه امسا عنده ويوم ثاني امر القايممقام ان يجو معانا اثنين

ملازمين وقدر خمسين همشلي فجو معانا وعزمنا من البرح وبقينا نسافر الى اخر النهار حتى وصلنا الثوباني وامسينا فيه والملازمين قامو ذك الليله نصف الليل ونبهو الخواجه يقوم يسافر معاهم نصف الليل فلم اسعدهم الخواجه فعزمو العساكر والملازمين نصف الليل والخواجه بقي الى الصبح ويوم ثاني عزمنا من الثوباني ووصلنا الى القبه المسمايه الدابوليه وهي ناصفت طريق المخا وبقينا نسرع فوصلنا بالسلامه والعافيه المخا فوجهنا بجميع القراش تبت بيت الخواجه البتروايي قنصل ايتاليا وابسرنا معه بيت فوق البحر من احسن البيوت فطلعنا جميع الاداه عنده في بيته والقراش شليناهن مكهايت على جابر وقنبرنا احنا في المكهايه والخواجه عند القنصل في البيت المذكور واخذ الخواجه رسوم جميع المساجد ورسم دار السلطان حسن وبقينا ندور في المخا وطلعنا قلعت المدافع ولقينا فيها عشره مدافع قديمات ووجدنا اكثر المخا قدو مخرب لم عاد فيه موجود الا قدر عشرين بيت وبعد مارسمنا الدار حق السلطان حسن ضيع حسين النبهاني الحقه حق المكينه فحزن الخواجه حزن كبير فدورناها دوار شديد وسرحنا الى عند المره الموجوده في دار السلطان حسن وقلنا لها هل تعلم من اخذ الحقه اجابت علينا انهي ابسرت ثلاثه عسكر اخذوها فسرحنا ندور فوجدناها عند عسكري فاعطاه الخواجه ريالين بخشيشه واعطا الشاوش ريال وصار الخواجه مسرور بوجود الحقه ويوم الثلوث اخذ الخواجه رسم المحلات الذي بيخرجو منهن الملح وسار الخواجه وكاتبه الى الفنار الموجود في البحر وركبو فوق سنبوك وعزمو حتى وصلو الفنار وصورته مثل الصومعه الكبيره وفيه درجان ميتين وثمانين درج وفي اعلاه دوار مشتغل من حديد واخذ الخواجه رسم البحر ورسم المخا من الدوار وبعد ذلك ان الخواجه نزل من الفنار ودخل هو وكاتبه اماكن ارضيات وفيهن خواجات قدر عشرين خواجه فامرهم الخواجه ان يخرجو يصطفو لاجل اخذ رسومهم فخرجو اصطفوا واخذ الخواجه رسمهم الجميع ورجع الخواجه وكاتبه المخا ويوم ثاني الخميس <٢٦> القعده عزمنا من المخا بالسلامه والعافيه ومعانا القنصل البتروايي وخدامينه وتوكلنا على الله ساعت سبع في اليوم المذكور وبقينا نسافر حتى وصلنا بالسلامه والعافيه الثوباني ووقعت ليله ما احسن منها وكل واحد من من معانا اخذ له قعاده يمسي فوقها والخواجه الاكرم معه كرسي من حديد يرقد فوقه ويوم الجمعه <٢٧> شهر القعده عزمنا بالسلامه من الثوباني وخطينا قاع الثوباني ووادي حسي ابن علوان ووررونا جبل النار والبطحه والمقر والحجيره والعريش وهو محل ما احلا منه لاكنه خالي من الاوادم لم لقينا فيه احد من اهله هاربين وخايفين من الدوله ودخلنا وادي

الخرزه وجبل الحزن وجملت اوديه حتى وصلنا البرح فطيرنا عند المقهوي على ابن علي بلبله وغدونا دخن لونه اسود لم يصلح الا للبقر ولكن معا شدت الجوع اكلناه بالضروره ويوم ثاني <٢٨> القعده يوم السبت سافرنا منه بالسلامه والعافيه ونزلنا وادي الحايط وفيه اشجار الموز والعنب وفيه انهار كثير ودخلنا وادي رحابه وصحبتنا عساكر نظام وملازمين جو معانا من البرح ودخلنا وادي خزيجه وهجده ووصلنا بالسلامه الرماده ودخلنا مكهايت العزابي وامسينا فيها ويوم ثاني الأحد <٢٩> القعده عزمنا من الرماده بالسلامه ولم نزال نسافر حتى اشرفنا على مدينت تعز بالعافيه فدخلناها ونسمنا يوم ويوم ثاني اشتاق الخواجه الاكرم لمعفت جبل صبر وهو اعلا الجبال واشتاق لزيارة اهل الكهف لانهم مقبورين في مسجد في اعلا جبل صبر فعزمنا ساعت عشر من تعز وصحبتنا ثلاثه انفار زاندارمه من اهالي تعز وطلعنا الجبل وبقينا نطلع خمس ساعات ونصف حتى اشرفنا على مسجد اهل الكهف ودخلنا نزورهم وفوق قبورهم شباك كبير مصطنع من اخشاب وقبورهم متصله كانه قبر واحد كبير القامه فسالنا اين قبورهم السبعه فاخبرونا بان قبورهم تحت القبر الموجود ووجدنا خزقي عند اسفل القبر انما كبير فسالنا ماهو فاخبرونا بانه جرف كبير ولكن سدوه ولم بقي الا الخزقي الموجود فنزل الكاتب رجله إلى الخزقي فوجد ريح قويه فتيقن صحت كلامهم واخذ الخواجه رسم المسجد واعطا قيم المسجد ريال يشتري به فراش للمسجد المذكور وبعد ذلك طلعنا حصن العروس واخذ الخواجه رسم جميع المحلات الظاهره ونزل الخواجه وجميع من معه فوصلو تعز وقت اذان المغرب ويوم ثاني نسم الخواجه ومن معه ويوم ثالث الربوع <٢> شهر الحجه عزمنا الجميع من تعز بالسلامه ساعت ثنتين وخطينا من قاع حوبان ومن الجنديه ومن وادي الضبا ووادي الحوري ووجهنا مدينت ذي سفال ووصلنا ساعت هطعش ووجهنا تبت بيت الحكومه وسالنا عن المدير ولم قعدنا في الحكومه الا قدر دقيقه واقبل الينا السيد عبد الله الديلمي وهو المدير فعزم علينا فامتنع الخواجه فحلف المدير ان جميع المحتاجات لابد مايديهن هو واشترا لنا راس غنم وادا لنا جميع مانحتاج ويوم ثاني الخميس <٣> شهر الحجه نسمنا في ذي سفال واخذ الخواجه رسم المحل من جميع الجهات ورسم جميع المساجد والصوامع واعجبه المحل اعجاب كبير ويوم ثالث الجمعه <٤> شهر الحجه عزمنا من ذي سفال وخطينا من وادي الحوري ومن سايلت ذي شراق ودخلنا قريت ذي شراق واخذ الخواجه رسم الجامع حق ذي شراق وبعد ذلك طلعنا نقيل السياني ونقيل المحرس وورونا قريه منتظمه اسمها قريت النجاد وبه

قلعه كبيره ونزلنا نقيل المحمول ونزلنا نقيل جبله حتى وصلنا جبله ووجهنا تبت بيت شرف الدين الحشاش وقنبرنا في بيته لان معه بيت منتظم من احسن البيوت ووقعت ليله من احسن الليالي ويوم ثاني السبت خامس شهر الحجه الحرام نسمنا وقام الخواجه اخذ رسم المدينه المذكوره من جميع الجهات واخذ رسم الجوامع والصوامع وتغدينا وقد كان نيت الخواجه الاكرم يعزم من مدينت جبله الى العدين فجا امر من طرف القايمقام حق اب حسين اغا وفي الامر ان الخواجه يسرع الى اب فعزمنا الجميع في اليوم المذكور الى اب وقد كان في كاتب الخواجه حما وبعد وصولنا اب اضافنا القايمقام وسرحنا بيته وجميع الاشيا اطلعوها الخدامين الى مكان مخصوص وباتو الجميع عند القايمقام ويوم ثاني قام الخواجه الاكرم وامر الخدامين يشدو على القراش وطلب كاتبه يجي معه فاخبروه بانه محموم فلم صدق كلامهم وطلع بنفسه الى عند كاتبه فوجده راقد فجس يده وعلم بانه محموم فاعطاه خمس حبوب صولفاطه وعزم الخواجه وبمعيته القنصل البتزواني والمحافظين اربعه نفرات اثنين من اهالي اب واثنين من اهالي ارحب واسماهم احمد سعيد الجمالي وصالح حمود العذري ومعاهم العشي حسين ابن محمد النبهاني من اهالي صنعا وعلى ابن علي القعمي من اهالي صنعا فعزمو الجميع في يوم الاحد الموافق سادس يوم في شهر الحجه الحرام سنه ١٣٢٨ فوصلو الى مشوره والناس فيه متسوقين من كل محل فاخذ الخواجه رسم العدين من اعلا النقيل وبعد ذلك نزلو النقيل وخطيو من وادي الدور فهجمو عليهم الاشقيا بالبنادق وقتلو الخواجات والعسكر الذي من اب واحد وقع فيه كون في احقاوه والاخر وقعت في وجهه رصاصه حتى اخذت عيونه وبعد ذلك اخبرني العشي ان ماغارو عليهم الا بعد ساعه غارو من العدين وقبرو الخواجات باداتهم واخذو جميع مامعاهم الى حكومت العدين وبعد ثلاثه ايام ارجعو جميع ما اخذو الى حكومت قضا اب فوقت علم نايب القضا بقتل الخواجات جا الى بيت القايمقام كتب جميع الاشيا وامر الخدامين يحملو جميع الاشيا الى الحكومه فحملوها وعلم القاضي جميع الاشيا بقلمه فوقع الحزن الذي لا اشد منه في كاتبه وازداد مرضه ومرض شهر زمان في اب وبقيو جميع رفقا الخواجات في الاهانه بعد العز والشرف وقد كان نيتنا الطلوع الى محلاتنا لزيارت اهلنا واولادنا فعزمنا بالسلامه من اب وجميع الاشيا حق الخواجات معانا فوصلنا سوق السويق وكل واحد مننا قد نال التعب والنصب فامرنا المقهويه ان تفعل لنا قهوه ففعلت لكل واحد مننا جمنه وتقهوينا وافتهنا واذا قد اشرف علينا خيال وصل من اب قال لنا بان الاشقيا مناظرين لنا في طرف السحول وان قد ظنهم ان الذهب

معا الخواجه كثير وقد نيتهم يقتلونا وادا لنا امر من طرف القايممقام في رجوعنا اب فحمدنا الله ورجعنا وقعدنا في اب حتى وصل القوميسر محرم افندي ومعه كاتبه فاستنطق كل واحد مننا وزد بقينا مده فوصلو الخواجات ومعاهم طابور محافظين فاستقرو في اب اربعه ايام ويوم خامس عزمو الى العدين وبقيو في العدين اربعه ايام واخرجو الخواجات من قبورهم وكفنوهم وحملوهم فوق الجمال في صناديق وادوهم الى مدينت اب ويوم ثاني نسمو في اب ويوم ثالث عزمو من اب

وهذا تمام سيرت الخواجه الافخم هرمان بورخرت الألماني

واسال الله سبحان وتعالى ان يهلك وينتقم من قتل الخواجات

ويسرع بهلاكهم ونقمتهم

امين امين امين

بتاريخ <١٤> شهر صفر سنه ١٣٢٨

بخط كاتب الخواجه

احمد ابن محمد الجرادي

من اهالي صنعا

بسم الله الرحمن الرحيم

الخواجه هرمان بوخرت المانى
ذاهب الى حجة في حماية الله
سبحانه وامانه فلا يعترض
من أحد فليعلم هذا [illegible]
١٤ جمادى الاولى سنة ١٣٢٢ هـ

Erster Brief

بسم الله الرحمن الرحيم

مطيع الله المكرم هرمان بوخرط عافاه
الله واصلح شانه هذه صحبة اخ الاجل
علي بن يحيى عافاه الله شكركم الجميل
ما صنعتم من الارسال بالناظور العجيب
الغريب الذي لم نر مثله وذلك من حسن
صنعكم وحررنا هذا معاهدة
ومن الله التوفيق
وحسن الختام ١٩ في الحادي
الاصم ١٣٢٧ هـ

Zweiter Brief

von Imām Jaḥjā an Hermann Burchardt

الــطب التقلــيدي
في الجــمهورية اليمــنية

الدكتور: أرمن شوين

مقدمة:

الدكتور أرمن شوين هو أحد الباحثين الألمان المهتمين بالتراث اليمني. سبق له أن أعد بحثاً عن القات نال به درجة الدكتوراه عام ١٩٧٧م. ثم كرس جهده بعد ذلك لموضوع الأدوية اليمنية، فجاء إلى اليمن عدة مرات وطاف في أنحاء متفرقة منه، ملاحظاً وجامعاً ومسجلاً مختلف أنواع الأدوية المركبة والمفردة، النباتية منها وغير النباتية. وكانت حصيلة هذا الجهد كتاب، ضم بين دفتيه ما يزيد على مئتي مادة من المواد العلاجية، فصل فيه تركيب هذه المواد ودواعي استخدامها. أما هذا البحث الذي بين أيدينا، فقد خصصه للطب التقليدي، فتناول فيه التصورات، التي كانت سائدة في أوساط الشعب، عن أسباب الأمراض. كما تناول طرائق العلاج التقليدية المختلفة وانتشارها ومكانتها، في مجتمع ما بعد ثورة ٢٦ سبتمبر، وعلاقتها بالطب الحديث.

وأهم ما يلفت نظر القارئ في هذا البحث هو موقف الباحث، وهو باحث أوربي، من الطب التقليدي، كجزء من التراث، قابل للإنتفاع به من جديد، وتخوفه من أن يندثر تحت ضغط مصالح شركات انتاج الأدوية الحديثة.

ومثل هذا الموقف له عدة جوانب، تستحق الإهتمام:

١- الجانب التراثي: ويتمثل في إدراك أهمية التراث بالنسبة للشعوب وإمكانية الإنتفاع بالعناصر الإيجابية فيه وتطويرها، بما يخدم مصالح هذه الشعوب وحياتها الحاضرة والمستقبلة.

٢- الجانب الصحي: حيث يؤدي الإندفاع إلى استخدام العقاقير المصنعة الحديثة، دون ضوابط أو حدود، إلى أضرار صحية لاحقة.

٣- الجانب الإقتصادي: حيث يسهم الإهتمام بالطب التقليدي والإنتفاع به، في الحدود الممكنة، جنباً إلى جنب مع الطب الحديث، في انخفاض تكاليف العلاج وفي التقليل من استيراد المواد

العلاجية المصنعة الحديثة، في وقت أصبح فيه التقليل من الإستيراد عموماً شرط لا غنى عنه، لبناء اقتصاد وطني سليم.

وإنه من الشائع عند ذكر الطب التقليدي أن تتبادر إلى الذهن جملة الأساليب اللاعقلانية، التي يمارسها المشعوذون. وهي أساليب ساعدت على وجودها وتقبلها ظروف الجهل والتخلف. وقد ولد رد الفعل ضد هذه الأساليب، في مجتمع ما بعد ثورة ٢٦ سبتمبر، رفضا لمجمل النظام الطبي التقليدي. رغم أن هذا النظام يحتوي، شأنه في ذلك شأن مجمل التراث، إلى جانب العناصر اللاعقلانية، عناصر عقلانية وطرائق علاجية، نجمت لا عن الشعوذة والسحر، بل عن التجربة اليمنية والتجربة الإنسانية عامة، عبر قرون طويلة من الزمن.

لقد استعرض الباحث التصور الشعبي عن أسباب الأمراض، وهو تصور يرجع هذه الأمراض إلى قوى خارقة. مما يهيئ الإنسان لتقبل الأساليب المتسمة بالشعوذة. ومع ذلك فإن الباحث يميز، من بين هذه الأساليب، أساليب تستهدف بوعي معالجة المريض، عن طريق الأيهام وخلق قناعات لدية، تؤدي إلى شفائه من الأمراض ذات المنشأ النفسي، وتساعده على التكيف من جديد مع بيئته الإجتماعية. ولا يستبعد الباحث،كما هو واضح، امكانية الإستفادة من بعض هذه الأساليب في العلاج النفسي. أما التركيز الأكبر للباحث، سواء في كتابه، الذي خصصه للمواد العلاجية، أو في هذا البحث، فينصب على العلاج العقلاني، الذي يرتكز على التجربة ويستخدم مواداً علاجية نباتية وغير نباتية، مفردة أو مركبة، أثبتت التجربة خواصها العلاجية وجدواها في معالجة أمراض معينة. وهذا النوع من العلاج يرتكز لا على التجربة اليمنية وحدها، بل على ذخيرة من المعارف الطبية العربية والإنسانية بشكل عام. إن مثل هذا البحث يفتح مجالاً للتفكير والنقاش حول ما تضمنه من أفكار وما انتهى إليه من نتائج.

ومن الملاحظ أن الباحث قد استخدم اسم (الجمهورية اليمنية)، وهو الإسم، الذي أصبح فيما بعد اسماً لدولة الوحدة اليمنية، التي نشأت عام ١٩٩٠م، رغم أن البحث قد أعد في مطلع ثمانينيات القرن الماضي، وقمت بترجمته ونشره، في مجلة (دراسات يمنية عام ١٩٨٣م). وقصد الباحث باسم (الجمهورية اليمنية) شمال اليمن فقط، حيث أجرى بحثه الميداني فيه. ولم يتمكن حينذاك من إجرائه في جنوب اليمن. ومع ذلك فإن محتواه يمكن أن ينطبق على اليمن كله، شماله وجنوبه.

وفي نهاية البحث أوردت هوامشه، التي وضعها الباحث نفسه، كما أوضحت في مقدمة هذا الكتاب. في حين أن جميع هوامش الموضوعات الأخرى، هي من وضعي. وقد ذيلت بها صفحات تلك الموضوعات، صفحة صفحة.

نص البحث

تمهـــيد:

إن إيجاد خدمة صحية عامة حديثة، وفقاً للنمط الغربي، في بلدان العالم الثالث، يتطلب إنفاقاً مالياً هائلاً. وتواجه البلدان النامية صعوبة متزايدة في عملية توفير المال اللازم لذلك.

هذه الحقيقة، إضافة إلى إدراك ما يتضمنه التراث الخاص من إنجازات في المجال العلاجي، دفعت ببلدان من آسيا (كالصين والهند وبنجلادش وسريلانكا وغيرها) ومن افريقيا (كالسودان ومصر وتنزانيا والنيجر وغانا وغيرها) ومن أمريكا الوسطى (كالمكسيك وكوبا وغيرهما) إلى أن تهتم بتراثها الطبي، وأن تجعل من الطب التقليدي لديها جزءاً من مكونات الخدمة الصحية العامة. وبذلك تستطيع هذه البلدان أن تقترب من تحقيق هدف منظمة الصحة العالمية: الصحة للجميع في عام ٢٠٠٠م.

من هنا فإن هدف هذا البحث، في الجمهورية اليمنية، هو:

١- التعرف على الطب التقليدي، من حيث تركيبه وانتشاره، في كل من صنعاء ومنطقة عمران.

٢- التحقق من إمكانية جعل الطب التقليدي جزءاً من الخدمة الصحية الحديثة، والطريقة التي يمكن أن يتم بها ذلك.

وقد أجريت هذه الدراسة في الفترة من ١٥ فبراير حتى ٣٠ أغسطس ١٩٨٢م في:

أ- العاصمة صنعاء وبعض المناطق القريبة منها (سنحان، بلا الروس، بني بهلول).

ب-منطقة عمران الواقعة في شمال صنعاء.

كما تم جمع بعض المعلومات من المناطق الجنوبية (إب وتعز) وكذا من زبيد ومناخة وحراز، وأجريت عملية استبيان في مستشفى سوق البقر بصنعاء وفي المركز الصحي بعمران، كما في الوحدات الصحية المنشأة حديثاً في الغيل والجائف وعمد وبني الزبير والجنات والشاهل والسودة وبني حجاج وغيرها. وامتدت الدراسة في هذه المنطقة، فشملت كحلان وريدة وبيت هراش وذي بين وغيرها.

القاعدة التي يرتكز عليها الطب التقليدي في اليمن:

تصورات السكان حول أسباب الأمراض:

يسود الإعتقاد بين السكان اليمنيين،كما هو الحال أيضاً بالنسبة للمجتمعات العربية الأخرى[١]، بوجود الكائنات والقوى فوق الطبيعية، التي أكد وجودها القرآن الكريم، والتي يعتقد السكان أنها تتسبب في حدوث معظم الأمراض، ولاسيما تلك الأمراض ذات المنشأ النفسي. ومن هذه الكائنات والقوى فوق طبيعية: الملائكة والجن والشياطين. ويمكن للجن والشياطين أن يشكلا مصدر خطر بالنسبة للإنسان[٢]. ويمتلك الجن القدرة على أن يحلقوا في الفضاء وأن يخفوا أنفسهم عن العيون وأن يتقمصوا هيئة الإنسان أو الحيوان، فيتخذوا مثلاً هيئة الكلاب والحيات والعقارب. وهذه القدرة على التقمص يتمتع بها أيضاً الشياطين.

ويتصف الجن بأنهم يتكونون من قبائل وعشائر، وأنهم يتناولون الطعام والشراب ويرتدون الملابس وينجبون الأطفال. وهم على عكس الشياطين كائنات فانية، أي أنهم يموتون كما يموت الكائن الطبيعي. وبنفس الصورة التي عليها المجتمع اليمني، فإن الأب في مجتمع الجن هو رأس الأسرة. ويتبع النسب خط الأب. كما يسود في مجتمعهم زواج الأقارب. وصُنّف الجن بحسب مساكنهم (في الماء أو التربة، أو الهواء أو السماء). فهم يسكنون في الجزر وعلى قمم الجبال، في الآبار ومنابع المياه، في السوائل (جمع سائلة)، على الأشجار، في الفنادق الصغيرة (السماسر التي ينام فيها المسافرون)، في المزارع، تحت الأحجار، في باطن التربة، في المساجد، في المقابر، وبصورة خاصة في البيوت السكنية، حيث يقيمون في المراحيض والمطابخ وعتبات الأبواب ...إلخ. إنه لا يوجد مكان على الإطلاق يمكن استبعاد أن يكون الجن مقيمين فيه. وتسمى أنثى الجن (الجنيّة). وعندما تتخذ مظهراً إنسانياً فإنها تبدو رائعة الجمال. لذا ليس من النادر أن تعيش مع رجل من الأنس، يتخذها زوجة له، تحت تأثير جمالها، وخشية من الله أن يفتتن بهذا الجمال.

وفي حين يتصف الملائكة بالخير ويتولون حماية الإنسان، فإن الجن والشياطين يتصفون بالشر، ويجلبون للإنسان الأمراض والمصائب وسوء الطالع. وهم يقومون بدورهم الشرير هذا عن طريق نفوذهم إلى جسم الإنسان، أو بمجرد تواجدهم في المحيط، الذي يعيش فيه. فيصيبون الإنسان بأمراض المعدة والأمعاء وبالغثيان والإسهال والحمى والصداع وأمراض العيون والصفار والأرق وأمراض الرئة والقلب. وفوق هذا وذاك يهاجمون الأعصاب فيسببون لها التشنج والارتعاش. كما

يجعلون الإنسان أخرس، لا يقوى على الكلام ولا يقوى على الفهم والإدراك ...إلخ. وإلى جانب ذلك فإنهم يسببون له الحوادث بصورة متكررة.

إن هذه الأعمال الشريرة تصيب الإنسان بشكل عام، سواءً كان رجلاً أو امرأة، كهلاً أو شاباً. ولكنها تكون أشد خطراً على الأطفال والرضع والمسنين ومن يعانون ضعفاً في أجسامهم. ويصبح الأصحاء في أحوال معينة قابلين لتأثيرات الجن الشريرة (كالنساء في حالة الحيض أو الحمل أو الولادة). إذ أن الجن يترقبون مثل هذه الأحوال لكي يقوموا بأعمالهم المشؤومة. لهذا يتخذ الإنسان، في مثل هذه الحالات، إجراءات يعتقد أنها كفيلة بدرء أخطار الجن والشياطين.

وتعتبر الإجراءات التالية جزءاً من التراث المتوارث:

١- حمل القرآن أو ترديد اسم الله بصورة متكررة في الحياة اليومية، سواءً أثناء العمل خارج البيت أو في داخل البيت. إذ أنه لا شيء يخشى منه الجن والشياطين خشيتهم من اسم الله. ويعتبر هذا الإجراء مفيداً، لاسيما بالنسبة للنساء، أثناء الحمل. إذ يكنّ في هذه الحالة أكثر تعرضاً للخطر.

٢- إستخدام الأحجبة المأخوذة من النبات. إذ يعتبر الحجاب حارساً أميناً يقي الإنسان من الأرواح الشريرة. ويحمل الأطفال غالباً الكثير منها [٣]، كما توضع داخل أو على واجهات المنازل أو على الأواني المنزلية. وغالباً ما تحرق كالبخور. ويعلق على الجسم (على شكل سلسلة أو على شكل سوار) العقيق والمرجان والكرمان وقطع من الحديد. أما الشذاب والأنواع المختلفة من الصمغ، كالمر والمستكا والحلتيت، فإنها تحرق أو توضع في مكان ما، لما لها من رائحة نفاذة. وتعلق ثمار الحنظل داخل البيوت، وذلك لتحول دون دخول الجن إليها.

٣- الحياة وفقا للشريعة الإسلامية، بمعنى مراعاة التعاليم الدينية، بما فيها تلك المتعلقة بالنظام الغذائي وبالمحافظة على الصحة. فالحياة، التي يرضى عنها الله، يغدو صاحبها تحت الحماية الإلاهية، فيكتسب القوة والصحة، التي تمنع عنه عدوان الجن، وبالتالي تحميه من الأمراض.

وتعتبر النظرة الشريرة أو ما تسمى بــ(العين) قوة من القوى فوق الطبيعية، الأكثر إثارة للخوف والفزع في نفس الإنسان. إذ قد يؤدي تأثيرها إلى الموت. ويمكن لأي إنسان أن تكون له عين شريرة، تصيب الآخرين. وغالباً ما تمتلك النساء المسنات (العجائز)[٤] مثل هذه العين. وهناك فرق بين نظرة شريرة مقصودة، ونظرة شريرة غير مقصودة. فالنظرة الشريرة غير المقصودة لا

تسبب أي ضرر، إذا ما اقترن التعبير عن الإعجاب مثلاً، بذكر اسم الله (الله ما أجمل طفلك). أما من تصيبه النظرة المقصودة، فإنه وبصورة مؤكدة سيصاب بالنحس والأمراض (كالضعف الجنسي والعقم)، وربما بالموت. ومثل هذه النظرة الشريرة يكمن وراءها غالباً الحسد، الذي يعتمل في نفوس الجيران. لذا فإن (العين) تصيب غالباً الأصحاء وأولئك، الذين يتصفون بالجمال. كما تصيب الأغنياء والسعداء من الناس والأطفال (في حين أن الجن كما ذكرنا سابقاً يختارون ضحايا من بين الكهول والضعاف والمرضى). إن الأطفال هم مصدر اعتزاز وسعادة كل أسرة. ولذا فإنهم أكثر تعرضاً للخطر. وليس البشر وحدهم هم الذين يصابون بالعين، بل إنه يمكن أن تصاب الحيوانات [٥] والنباتات، بل قد تصاب حقول بكاملها.

وإذا ما أصيب أحد بالعين، فإن التأثير الضار بهذه العين يمكن أن يصبح أكثر حدة، إذا ما تدخل السحر في الأمر، عن طريق استخدام اسم المصاب، أو استخدام شعر أو أضافر منه، أو بعض الأدوات الخاصة به، في عمل سحري يتم بواسطة اللمس أو بواسطة حركات سحرية معينة. فالساحر يستخدم هذه الأشياء الخاصة بالمصاب، كسلاح فعال في يده.

ورغم خطورة العين الشريرة، فإن بالإمكان تأمين الوقاية منها. وذلك عن طريق ارتداء الأطفال ملابس متسخة مهلهلة، لاسيما عندما يكونون خارج منازلهم. كما يعطون أسماء غير أسمائهم الحقيقية، حتى لا يساء استخدام أسمائهم الحقيقية. ويمكن أن يرتدي الأولاد ملابس البنات، لأن البنات أقل عرضة للإصابة بالعين من الأولاد. كما تستخدم الأحجبة لتأمين الحماية للأطفال. فتملأ أكياس صغيرة، على شكل محفظة، بمادة (شب الفؤاد)، التي تستقبل العين وتبطل مفعولها السيء. وهناك مواد ذات فعالية متميزة ،تشبه العين في شكلها، منها مثلاً الصدف، الذي يثبّت عن طريق الخياطة على ظاهر الأحجبة كما يوضع أيضاً على الأدوات المنزلية كالمرايا وأوعية الكحل (المكاحل) وأوعية الزبدة وغيرها. ويحاول المرء أن يؤمن الوقاية للحيوانات (الجمال والثيران والغنم) من العين عن طريق صبغها بمادة الحناء.

وإلى جانب التفسيرات السابقة للأمراض، بإرجاعها إلى أسباب فوق طبيعية، هناك تفسيرات عقلية، تمت بصلة إلى التعاليم الخاصة بعصارات الجسم (أنظر هامش رقم ٧). من ذلك مثلاً، أن الطعام الفاسد أو المحتوي على السم يقوي في المعدة عصارة معينة. بذلك يؤدي إلى حدوث مرض. وتتسبب الظروف المناخية، لاسيما البرد، في ازدياد المادة المخاطية، مما يؤدي إلى حدوث أمراض الروماتيزم. كما يؤدي الخوف (يتضمن الخوف الفزع والإرتياع والفجيعة والإنفعال)، الذي قد ينشأ مثلاً عن موت قريب أو عن حدوث ضجة مفاجئة، إلى تزايد كمية الدم في المعدة، مما يتسبب مثلاً، في حدوث آلام في القلب.

الطب التقليدي:

عندما لا تفلح الإجراءات الوقائية السالفة الذكر وأمثالها، يأتي دور الجزء العلاجي من الطب التقليدي. والطب التقليدي في اليمن يشتمل على عناصر تجريبية_عقلية وعناصر سحرية ودينية، البعض منها مصدره الطب الشعبي والبعض الآخر مصدره الطب العربي. حيث امتزج النوعان خلال الممارسة، امتزاجاً متفاوتاً. وقام الطب الشعبي بالأساس على المعالجة بواسطة المواد النباتية والحجامة والفصد والكي والتجبير وأساليب السحر المختلفة.

إن هذا النشاط التطبيبي لا يزال بشكل عام ينتقل من شخص إلى آخر حتى يومنا هذا، انتقالاً شفوياً، ويمارس من قِبل: المعالج بالأعشاب والمجبر والمكوي والنقاش والحجام والمزين، الذي يتولى عملية الختان والفصد ومص الدم، بواسطة العلق. أما العلاج السحري فيمارس من قبل المعالج بواسطة الجن والمشعوذ والمقذي.

هذه الأساليب حفظت زمناً طويلاً، من قبل الطب العربي، الذي اقتبس كثيراً من عناصر الطب الشعبي وادخلها في وصفته المركبة، الخاصة بالصحة والمرض وكيفية التعرف على الأمراض ومعالجتها (نظرية الخلائط الأربعة)(٦). ويعتبر الطبيب أو الحكيم ممثلاً للطب العربي. ويستند في عمله على تراث هائل من الكتابات الطبية، التي دونها مؤلفون عرب (٧). أما الطب النبوي، الذي هو عبارة عن نوع من الطب الشعبي، فيشكل جزءاً من مجمل الطب العربي. وينظر الطب النبوي إلى الأمراض وأسبابها وشفائها من الزاوية الدينية، بصورة خاصة. إذ يستند إلى أقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) المتعلقة بالطب، وإلى كمية وافرة من الأحاديث المنسوبة إليه. وقد نشأ الطب النبوي، الذي لا يزال يوجد له أنصار حتى اليوم في أوساط الشعب، نشأ كرد فعل للطب الذي اعتبر طباً وثنياً، والذي يرجع إلى الطبيب اليوناني جالينوس (عاش في الفترة من ١٣٩ إلى ١٩٩م). وحمل لواء هذا الطب النبوي المسلمون المحافظون. وهكذا فإن مؤلفي الكتب المتعلقة بالطب النبوي (٨)، ليسوا أطباء بل علماء دين.

من هنا فإن ممارسي الطب النبوي، وكذا ممارسي السحر، الذي ينتقل مكتوباً من جيل إلى جيل _ يدخل في ذلك التنجيم والتلاوة وسحر الأعداد والأحرف المربعة وعمل التمائم والحروز_ ينتمون إلى الوجهاء الدينيين والدنيويين، كالسادة والمشائخ والفقهاء والقضاة. ومع ذلك فإن الأطباء والمعالجين بالأعشاب يستفيدون أيضاً من الطب النبوي.

ممارسو الطب التقليدي:

سبق أن أشرنا إلى أنه قد تحقق نوع من الأندماج، بين نظامي الطب الشعبي والطب العربي، الأمر الذي نتج عنه صعوبة نسبية، عند محاولة تصنيف المعالجين إلى فئات محددة. فالمعالجون ينحدرون من مختلف الطبقات الإجتماعية[٩]، بعضهم يمارس الطب كمهنة رئيسية، والبعض الآخر يمارسه كعمل ثانوي. ومنهم من يتقن كل فنون التطبيب الشائعة، كالعلاج بالأعشاب والكي والتجبير والأساليب السحرية والدينية. ومنهم المتخصصون بمعالجة أمراض محددة. وهناك أعمال تطبيبية يتخصص بممارستها إما الرجال أو النساء. في حين أن هناك أعمالاً أخرى، يمكن أن يمارسها كلا الجنسين. ويتقاضى بعض المعالجين أموالاً مقابل علاجهم، بينما يقوم البعض الآخر بذلك لوجه الله تعالى. ويستمد بعض المعالجين معارفهم من إحدى المدارس الإسلامية التقليدية، في حين يتلقى البعض الآخر فن التطبيب من الأب أو من أحد الأقارب. ويتواجد المعالجون في المدن، كما يتواجدون في المناطق الريفية. ويكتسب البعض شهرته نتيجة لانتمائه إلى مناطق معينة، كمنطقة خولان ومنطقة جبل برع، المعروفتان بالمعالجين بواسطة الأعشاب. وهم معالجون جيدو السمعة. أما مدن زبيد وبيت الفقيه واللحية، وهي من المدن التهامية، فتشتهر بمعالجيها الدينيين. إن تقسيم المعالجين إلى معالجين يعتمدون على التجربة والعقل ومعالجين يعتمدون على السحر والدين، يبدو وجيها دون شك. مع ذلك لا بد أن نضع في الإعتبار أن كلا المجالين ليسا قابلين دائماً للتقسيم. إذ غالباً مانجدهما متداخلين ومتشابكين معاً، في واقع الممارسة.

المعالجون المعتمدون على التجربة والعقل:

يمتلك الطبيب، بالمعنى العربي التقليدي، معرفة طبية واسعة، مرتكزة على طب جالينوس أو مشتقة منه. ويستخدم كتباً طبية تعليمية، مثل كتاب (القانون) لا بن سينا، وكتباً في الأدوية، مثل كتاب ابن البيطار وكتاب يوسف بن عمر الغساني وكتاب داود الانطاكي[١٠]. وإلى جانب ذلك فإنه يعرف استخدام النباتات الطبية اليمنية الموجودة في مختلف المناطق الجغرافية في اليمن، ولاسيما تلك التي يمكن الحصول عليها من المنطقة التي يعيش فيها ومن المناطق القريبة[١١]. ويعتمد في عملية تشخيص المرض على طبيعة البشرة وعلى أصابع الكفين والقدمين، وعن طريق جس النبض والتحقق من إحساس الجسم وحالة الشعر ولون البراز والبول. كما يستفسر عن نوم المريض،

ويضع في اعتباره كذلك حالته النفسية. كل ذلك يساعد على معرفة عصارة الجسم، التي طرأ عليها الإضطراب ففقدت توازنها، من بين عصارات الجسم الأخرى [١٢].

ويمضي المعالج بعد ذلك في عملية المعالجة، مستهدفاً إعادة التوازن لعصارات الجسم. وبما أن الغذاء هو مصدر العصارات، فإنه يقوم بتحديد ما يجب على المريض تناوله من أنواع الأطعمة والسوائل. اذ أن تناول المريض أطعمة وسوائل غير ملائمة، يؤدي إلى تفاقم الإضطراب. في حين أن الإضطراب يزول بواسطة الأطعمة والسوائل المناسبة، فيعود توازن العصارة إلى سابق عهدها. وفي الحالات التي لا يؤدي فيها التطبيب، بواسطة اتباع نظام غذائي محدد، نتائجه المرجوة، يسارع المعالج إلى زيادة فعالية هذا النظام، بواسطة مواد طبية مركبة، غالباً ما تكون نباتية، تساعد على الهضم أو تعمل كملين أو كقابض ...إلخ [١٣].

وتتصف العقاقير والمواد الطبية أيضاً بالصفات الأولية (حار، جاف، بارد، رطب). وتنقسم، وفقاً لمفعولها، إلى أربعة مستويات. وعند تناولها، يوصى أولاً بتنازل ما هو منها ذو مفعول خفيف. أما المواد الأقوى مفعولاً فيأتي دورها فيما بعد، إذا لم يتماثل المريض للشفاء. وخلال عملية العلاج لا بد أن يكون الغذاء، الذي يتناوله المريض، مناسباً لهذه المواد الطبية. اذ أن الغذاء غير المناسب يمكن أن يعكس المفعول الإيجابي لهذه المواد إلى مفعول ضار. وتحقق المادة الطبية هدفها، عندما يعود تركيب العصارات في جسم المريض إلى حالة الإعتدال والتوازن، فيقوى الجسم بذلك وينتعش.

إن أكثر الأمراض، التي يتكرر ذكرها ويتم علاجها وفقاً لهذه الطريقة العلاجية، هي: أمراض الهضم (سوء الهضم، آلام المعدة، كل أنواع الإمساك، ظواهر التسمم)، إلتهاب الأمعاء، الإسهال، أمراض الديدان، التهاب الشعب الهوائية، أمراض المثانة والكلا والجلد والعيون.

وقد تستخدم الحمامات الساخنة (التي تجعل الجسم يتصبب عرقاً) والتدليك في الحمامات العامة [١٤]، لتقوية مفعول العلاج، في حالات الإمساك مثلاً، وفقدان الشهية والسمنة والقلق، وكذا في حالة العقم (عدم الإنجاب). كما قد تستخدم لهذا الغرض أيضاً التمارين الجسمية.

ويمكن أن يوصي المعالج مريضه، لاسيما، في حالات أمراض الروماتيزم، بأن يمضي اسبوعين إلى أربعة أسابيع عند أحد ينابيع المياه الساخنة ،الموجودة بكثرة في اليمن (في جبل اللس مثلاً، بالقرب من ذمار، وفي السخنة بالقرب من الحديدة، أو في الجرف ببلاد الروس)[١٥].

ويمكن أن يتضمن العلاج نزع بعض دم المريض. أما الكي فيعتبر الوسيلة الأخيرة، التي يلجأ إليها المعالج. وفي حين يتواجد الأطباء غالباً في المدن، فإن المعالجين بواسطة الأعشاب يتواجدون في الأرياف، وفيهم نساء مسنات. وهم يمتلكون معرفة مدهشة بالأعشاب الطبية المحلية ومفعولها العلاجي. ويكتسب هؤلاء معارفهم العلاجية من الأب أو الأم أو من تجاربهم الخاصة، من خلال أمراضهم وخبراتهم الشخصية. وتتم عملية المعالجة على أساس هذه المعارف والخبرات. ويستفاد من النساء المعالجات في نطاق أمراض الأطفال والنساء.

وقد حقق بعض المعالجين نجاحاً في معالجة أنواع محددة من الأمراض، مما اكسبهم شهرة كبيرة، وأصبح الناس يقصدونهم من جميع أنحاء البلاد. ومنهم مثلاً محمد السراجي من مدينة صنعاء، الذي ينظر إليه كأخصائي في أمراض الجسم الخارجية، مثل الجروح والكسور. ويستخدمون أيديهم في عملية العلاج، مستعينين بأدوات معينة.

ويقصد الناس في الغالب المجبرين، الذين يقدر عددهم بين ٣٠٠ إلى ٥٠٠ مجبر. وقلما تخلو قرية من القرى من واحد أو اثنين يحسنون عملية تجبير العظام. ويميز المجبر، الذي اكتسب خبرته في التجبير من والده، أو كما يقال يمتلك موهبة طبيعية، يميز عند حدوث الكسور بين الحالات التالية:

- فيما إذا كان الكسر قد حدث في موضع واحد أو في أكثر من موضع في الجسم.
- فيما إذا كانت جهة واحدة من العضو قد كسرت أم الجهتين.
- اتجاه الكسر.
- فيما إذا كان الكسر يرافقه تفتت العظام.
- فيما إذا كان الكسر مجرد كسر في العظم مع بقائه متماسكاً، أم أن العظم قد انفصل عن بعضه.
- فيما إذا كان قد رافق انفصال العظم جروح داخلية.

وعلى أساس هذه التصنيفات يقرر المجبر العادي ما إذا كان بمقدوره أن يعالج الكسر أم لا[١٦]. وتحال الكسور الصعبة عادة إلى المجبرين المتخصصين، من أمثال محمد صالح الضلعي، الذي يمارس عملية التجبير في منطقة ضلع، القريبة من صنعاء، كما في صنعاء نفسها. وقد يصل عدد المرضى، الذين يقصدونه إلى عشرين مريضاً في اليوم الواحد. ومن المجبرين المشهورين أيضاً مجبر من شمال البلاد، من المصلوب في منطقة دهم، يتولى معالجة الكسور في الجمجمة.

ويعالج المجبرون كذلك حالات الإلتواء (العسف) والجروح، بما فيها الجروح الناتجة عن الأعيرة النارية. كما أنهم يتولون استئصال اللوزتين واللهاة. وفي قرى منطقة عمران يعالج المجبرون مرضاهم دون أجر، ويكسبون عيشهم عن طريق الزراعة.

وهناك مجموعة أخرى من المعالجين يتواجدون في المناطق الريفية، على وجه الخصوص، وهم المكوون (الموسمون). ويعتبر الكي أو الميسم، إلى جانب العلاج بالأعشاب، من أقدم الوسائل العلاجية. وينصح الطب العربي بالكي. كوسيلة أخيرة للعلاج، في حالة أمراض البرد والرطوبة (فالنار حارة وجافة). وفي الطب الشعبي يسود الإعتقاد أنه بواسطة الكي يُطرد الجن والشياطين من الجسم ويتم التغلب على المرض.

ويستخدم الكي في حالات أمراض داخلية وخارجية كثيرة، مثل: الإلتواء والبواسير وأمراض الصدر والروماتيزم والأورام الملتهبة وأوجاع المعدة والأمعاء وعرق النسا والصداع والشقيقة والدوخة والصرع وغيرها من الأمراض. ويصبح الحديد المتوهج أكثر مدعاة إلى الإستخدام في حالة الأمراض ذات المنشأ النفسي، مثل: الرجفة والرازم والارتياع والخوف والاكتئاب ...إلخ.

ويمارس فن الكي [١٧]، إما بناءً على الخبرة، التي انتقلت من الأب إلى الابن، أو بناءً على الخبرة الخاصة. والمعالجون بالكي في مناطق الأرياف يمارسون هذه المهنة كمهنة ثانوية، ولا يتقاضون عليها أجراً. أما أولئك المتخصصون في هذه المهنة، فشأنهم كشأن المتخصصين في التجبير. إذ يمارسونها كمهنة رئيسية ويتقاضون أجراً من مرضاهم. ومن هؤلاء مثلا شخص يدعى (الجدري) يسكن في بلدة (سحب)، التي تبعد عن عمران ١١ كيلو متر جنوباً. ويأتي إليه المرضى من مناطق مختلفة، فيقيمون في بيته أثناء فترة العلاج [١٨].

وحينما يكون المجبرون والمكوون (الموسِّمون) تابعين لإحدى القبائل فإنهم يصنفون ضمن فئة الحجامين والمزينين، التي تأتي في أسفل السلم الإجتماعي. ويأتي دور الحجامين [١٩] والفصادين، عندما يرى المريض أو المعالج أن هناك زيادة في الدم. وذلك في حالات الصداع والشقيقة وآلام العينين والربو والتهاب الشعب الهوائية وآلام الظهر وأمراض الكبد والحيض، الذي يرافقه نزيف حاد. وتعتبر عملية نزع الدم من المريض بواسطة الحجامين والفصادين أقل استخداماً من الكي. إذ أنها إحدى مخلفات الأتراك، ولم تكن شائعة الإستخدام قبل مجيئهم إلى اليمن.

المعالجون المعتمدون على الدين وعلى السحر:

ذكرنا سابقاً أن معظم السكان يعتبرون أن الأمراض والنوائب صادرة عن قوى وكائنات فوق طبيعية، حيث يسود تصور سحري وديني للعالم، ينسب الفرد إلى نفسه فيه القدرة الشاملة. إلا أنه من ناحية أخرى ينسب هذه القدرة إلى الله، ولكن دون أن يتنازل عنها تنازلاً كاملاً. وبعبارة أخرى، إن الإنسان، من ناحية، شديد الإعتقاد بقدرته على تسخير طاقته الروحية، للتحكم بأشياء الواقع الماثل (وذلك عن طريق العين الشريرة مثلاً أو السحر)، ومن ناحية أخرى، يتحكم به الخوف (الخوف من عقاب الله والخوف من الجن والشياطين). وفي الوقت نفسه يتصف بأنه خاضع تواب.

ويقترن هذا التصور السحري–الديني للعالم بتصور آخر للوسيلة، التي يجب أن يعرفها المرء، لكي يستطيع أن يسيطر على الأرواح والبشر والحيوانات. وهذه الوسيلة تكمن في السحر والشعوذة وفن التأثير.

وهناك من المعالجين من يزعمون، أنهم يستندون في علاجهم إلى فن التأثير على الجن وانتزاع قدرهم وإخضاعهم لارادة المعالج الخاصة وتخليص الناس من السحر، أي شفائهم من الأمراض ودرء المصائب عنهم. ويمكن تصنيف هؤلاء المعالجين في مجموعتين.

١- المعالجون المعتمدون على الدين: وهم من الرجال والنساء، ينتمون إلى النبلاء الدينيين (السادة) وإلى معلمي القرآن (الفقهاء) وإلى أولئك الذين يمتلكون معرفة عميقة بالعلوم الإسلامية (القضاة). يشغل هؤلاء وظائف دينية، أو أنهم لا يشغلون وظائف دينية ولكنهم في نظر الناس أناس (مبروكون)، كالسادة مثلاً، الذين ينتمون إلى الرسول (ص). وبفضل هذه البركة، التي هي بمثابة قوة ممنوحة من الله، يخشاها الجن والشياطين، أكثر ما يخشون، يستطيع هؤلاء الرجال والنساء أن يشفوا المرضى.

٢- المعالجون المعتمدون على السحر: وهم أولئك الذين يزعمون أنهم يسيطرون على الجن، فيعالجون مرضاهم بواسطتهم. وتوجد ضمن هؤلاء المعالجين، سواءً المشعوذين منهم أو المقذين، توجد نساء كذلك.

وإلى جانب ذلك، يفرق المرء بين معالجين يتمتعون فطرياً بقوى فوق طبيعية، أو تربطهم علاقات مباشرة بعالم الجن، عن طريق الزواج مثلا [٢٠]، وبين معالجين يكتسبون السيطرة على

القوى فوق الطبيعية بسبب امتلاكهم (علم الكتاب)[٢١]. ويشعر الساحر بأنه يتمتع بقوة عظيمة. ولا تتمثل هذه القوة في الواقع المعاش بل في نطاق التفكير. إذ أن التفكير المركز، المصحوب بالإنفعال والهيجان، هو الذي يعطي التأثير المطلوب. ولذا فإن الساحر في نظر الناس يمتلك قوى سحرية، تمنحه الهيمنة على الجن والشياطين، فيستطيع أن يحضرها ويصرفها ويسخرها. وبمعنى آخر إنه يستطيع أن يشفي مرضاه (باعتبار أن الجن والشياطين هم مصدر الأمراض). ولكنه يستطيع أيضاً أن يلحق الأضرار بالآخرين، مستخدماً معارفه وأساليبه السحرية (يسمى السحر في هذه الحالة، السحر الأسود). ومن هنا فإن الناس تخاف هؤلاء المعالجين (السحرة)، بل إنهم إلى حد ما مكروهون[٢٢].

وكان الإمام أحمد في نظر الناس أكثر المعالجين نجاحاً وأكثرهم إثارة للخوف، سواءً كساحر أو كمعالج. إذ يشاع أنه عند ولادته كان مكتوباً على فخذه الأيمن (أحمد ياجناه)، وأنه كان على اتصال بشيخ الجن.

ويتوجه الناس إلى المعالجين المعتمدين على السحر والدين في المناسبات والأمراض التالية:

- في حالات الضعف الجنسي عند الرجل والعقم عند المرأة.
- في حالات أوجاع الرأس والفزع والاكتئاب والأمراض العصبية والقلق وشرود الذهن والصرع والشلل والوهم (الذي يتبدى في توجيه المريض أو المريضة السباب والشتائم إلى الله). وحتى في حالات الأمراض الخفيفة كالسعال والبرد.
- في حالات أمراض الأطفال، عند استمرار البكاء والصراخ، وفي حالة عدم القدرة على النطق، وعند الشك بحدوث تسمم في الطعام.
- في حالات وجود مشاكل، تتعلق بالحب والزواج (لإتمام زواج، لتحقيق زواج العازبات، تقوية القدرة الجنسية، ضمان وفاء الزوجة لزوجها والزوج لزوجته).
- لإنزال العقاب بالاعداء (معاقبتهم بالضعف الجنسي والعقم وأمراض المعدة والأرق، أو بحادث سيئ وفقدان الثروة وتحطيم أدوات الزراعة، أو بالموت).
- في حالات مرض الحيوانات.

فإذا ما استدعي المعالج لمعالجة مريض، أو أحضر إليه المريض، فإنه يعيره كل اهتمامه ويتركه يتحدث على راحته (هذه الطريقة يتبعها أيضا المعالجون المعتمدون على التجربة والعقل).

ومن خلال قصة المرض، التي قد تشير إلى انعدام التكيف الإجتماعي لدى المريض (مثلاً، الخروج عن قواعد السلوك الشخصي والعائلي أو عن أعراف القبيلة أو تعاليم الدين)، يشخص المعالج المرض، فيحدد نوعه وسببه (قد يكون ناتجاً عن سحر أو عين أو جن)، ويضع نصب عينيه تحقيق الشفاء العاجل للمريض. ومن خلال الإعتقاد الراسخ لدى المريض بقدرة المعالج، فإنه يتوقع على يديه العافية.

أما الإجراءات العلاجية الفعلية فمتنوعة:

فقد يكتب المعالج للمريض آيات قرآنية ، بحبر خاص محضر من ماء الورد والزعفران والمردقوش، يكتبها على ورقة بياض أو صحفة. كما يمكن أن يكتب المعالج ما يُعرف بالمربعات السحرية، التي تحتوي في داخلها على اسم أو أسماء، من أسماء الله الحسنى، وعددها ٩٩ إسماً مكتوبة بالأرقام. كما تحتوي هذه المربعات على أسماء الكواكب وعلامات مختلفة للأختام السليمانية [٢٣].

ثم بعد ذلك تُعطى هذه الكتابة للمريض. فإما أن تذاب بالماء ويشربها أو تحرق ويتنشق دخانها أو يحمل على جسمه الآيات داخل كتاب أو توضع في مكان ما في بيته، أي في بيت المريض.

وهناك طرائق أخرى للمعالجة، مثل تلاوة الكلمات السحرية (كترتيل بعض الآيات القرآنية بصورة متكررة وترديد اسم الله وبعض الحروف والعبارات) ونذر النذور من قبل أفراد أسرة المريض (كالنذر بزيارة قبر أحد الأولياء) وتركيب مواد طبية نباتية والتبخير وحرق الشب واستخدام أحجار العقيق، التي ينتقل إليها جزء من القدرة فوق الطبيعية للمعالج.

أما السحر باللمس، فيمارس من قبل (المقذي)، الذي يضع نفسه في حالة من اللاوعي، شبيهة بالتنويم المغناطيسي، ويمرر يده على بطن المريض، فينتزع من جسمه العلة الكامنة فيه، بفعل ما يتمتع به من قوة فوق طبيعية. وكدليل على ذلك يبرز في يده مادة معينة (قطعة قماش مثلاً أو مسامير)، يدعي أنه قد انتزعها من جسم المريض.

وأما العلاج عن طريق الإيهام، فيمارسه المسيطر على الجن، حيث يستدعي الأرواح ويحضرها إليه، بالتهديد آناً وبالتزلف إليها آناً آخر. وعندما تحضر تتحدث من فم المريض، الذي

يكون في حالة تنويم مغناطيسي، فتذكر سبب دخولها في جسمه، ثم تطلب مقابل خروجها منه، أي مقابل شفائه، قطعاً من القماش أو الحلي أو البخور أو القات الجيد.

وكما هو الحال بالنسبة للمعالجين المعتمدين على التجربة والعقل، يمارس بعض المعالجين المعتمدين على السحر وعلى الدين مهنة المعالجة كمهنة ثانوية، لا يتقاضون عليها أجراً. في حين يعيش البعض الآخر منهم على هذه المهنة ويتقاضون أجوراً عالية جداً.

الوضع الاجتماعي للمعالجين:

إتضح لنا فيما تقدم أن ممارسي العلاج التقليدي يتكونون من أنماط مختلفة: فهناك الطبيب بالمعنى التقليدي العربي، وهناك المعالجون بواسطة الأعشاب والمكوون والمجبرون، وهناك المعالجون المعتمدون على السحر وعلى الدين. ومع ذلك فلا بد أن نضع في اعتبارنا أن شخصاً واحداً يمكن أن يمارس أكثر من نوع من أنواع المعالجة. وغالباً ما يكون هناك امتزاج بين المعالجة بالأعشاب وبين المعالجة بالسحر أو الدين.

ويختلف المعالجون بعضهم عن بعض، من حيث الأصل (النسب) والجنس (رجلاً أو امرأة) والثقافة والدخل والمكانة. فيتمتع أولئك، الذين يجمعون بين الجانب الديني وبين الأساليب الطبية، بمكانة عالية. ويرجع ذلك إلى مشاعر الخوف، التي تسيطر على السكان، أمام القوى فوق الطبيعية، والخشية من أن تقتحم هذه القوى حياة الفرد وتلحق بها الأضرار، المتمثلة بالأمراض والنكبات والنحس. وتتعزز مكانة المعالج ويصبح نفوذه أقوى، إذا تمتع، إضافة إلى معارفه الطبية وإلى ما يُضفى عليه من قوة فوق طبيعية أو (بركة) والى سنه المتقدم، إذا تمتع بموهبة ومقدرة في التفاعل مع المريض وكسب ثقته وثقة أسرته، بحيث يتمكن من خلال ذلك من معرفة قصة المرض، ثم يعمل بمهارة لتحقيق إعادة تكيف المريض مع محيطه الإجتماعي (الأسرة والقرية)[٢٤].

إن المعالجين الذين يتمتعون بمثل هذه المكانة المرموقة، يعتبرون من الناحية الاقتصادية، ذوو مكانة متميزة. ولكن كقاعدة عامة، لايستطيع المعالجون أن يعيشوا على مهنة المعالجة. ولذا عادة ما يشتغلون في أعمال أو مهن أخرى، وخاصة في الزراعة.

الطب الحديث:

اتضح لنا مما تقدم أن النظام العلاجي التقليدي نظام معقد، يشتمل على جوانب جسمية ونفسية واجتماعية، ويرتكز على التصور السائد بين الناس للصحة والمرض، مراعياً ظروف الحياة ومشكلاً جزءاً مكملاً للتراث الشعبي.

ومع قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢م بدأت اليمن تنفتح على العالم الغربي. وصاحب هذا الإنفتاح عملية استيراد لمنجزات الحضارة والتكنيك الغربيين. وهذا يعني في قطاع الصحة، إقامة نظام صحي مستهدياً بالنظام الغربي، بما يتضمنه من تصور للطب ووظائفه. وهو التصور السائد في البلدان الصناعية [٢٥].

فللطب الحديث تصوره الخاص للصحة وأسباب المرض (جراثيم وفيروسات بدلاً من الجن). ولم يطرأ هنا (في اليمن) حتى الآن تغير في وعي الجماهير العريضة من السكان، يتناسب مع هذا النظام الحديث. ولعل من الأسباب الكامنة وراء ذلك سلوك الأطباء والحالة السائدة في المستشفيات [٢٦].

وهكذا انحدر فهم الطب الحديث إلى مجرد ضرب الحقن وتناول الأدوية الحديثة [٢٧]، التي أخذ الناس ينظرون إليها وكأنها نوع من المعجزات، ويعتقدون بتفوقها على العقاقير الطبية التقليدية. وقد استغل التجار الأذكياء هذا الإعتقاد، فأخذت الصيدليات وحوانيت بيع الأدوية تظهر ولاسيما في المدن الكبيرة ومراكز النواحي، وكأنها الفطر ينشق من باطن الأرض [٢٨]. وتدار هذه الصيدليات والحوانيت في الغالب من قبل أناس لا يمتلكون إلا معرفة طبية بسيطة أو لا يمتلكونها إطلاقاً [٢٩]. وبسبب معرفتهم الضحلة أو المعدومة فإنهم يمارسون، إلى جانب نشاطهم التجاري بالأدوية، عملية ضرب الحقن، دون مراعاة للقواعد الصحية اللازمة.

إن عدم فرض رقابة على بيع الأدوية والإستخدام الخاطئ لها (فمثلاً ينصح البائع المريض في حالة الزكام بتناول مضادات حيوية) يؤدي في كثير من الأحيان إلى مضاعفات وآثار جانبية ويسهم في جعل هذه الأدوية تفقد تأثيرها ومفعولها بالنسبة لجسم المريض.

لقد أدركت الحكومة اليمنية هذه المشكلة [٣٠]، ولكن جهودها الهادفة إلى الحد من حوانيت بيع الأدوية، التي تزداد انتشاراً، وبالتالي يزداد سوء استخدام المواد الطبية، لم يحقق إلا نجاحاً محدوداً.

إستخدام الطب التقليدي، مع مراعاة الطب الحديث:

سيتناول حديثنا فيما يلي صنعاء بمؤسساها الصحية، وكذا منطقة عمران، التي يوجد فيها مركز صحي وإحدى عشرة وحدة صحية متفرقة.

صنعاء:

القول المأثور (كن طبيب نفسك) يمثل الخطوة الأولى في تصرف الشخص، عندما يلم به مرض من الأمراض. وتتضمن هذه الخطوة استخدام المواد الطبية التقليدية (فالثآليل مثلاً تعالج بعصارة عيدان العنب. والجروح تعالج بعصارة أوراق الصبر. وبكاء الطفل المستمر وعدم قدرته على النوم يعالج بالتبخير). ويتم شراء هذه المواد الطبية من السوق، أو تجمع من الأماكن القريبة. وغالباً ما تزرع النباتات الطبية المألوفة في حديقة البيت أو في سطحه.

وليس من الواضح فيما إذا كانت المواد الطبية الحديثة قد أصبحت تشكل جزءا من مواد المترل، وإلى أي مدى، إن كانت قد أصبحت كذلك.

ويعتبر التدليك من ضمن العلاج الذاتي. ففي حالة حدوث مغص في أسفل بطن الطفل، يلجأ، وفقاً لعملية الإستبيان، التي قمت بها [٣١]، ٧٠% [٣٢] ممن سألتهم، يلجأون إلى طريقة التدليك. في حين يستخدم الباقون (٣٠%) الطب الحديث وحده.

وإذا لم يحقق العلاج الذاتي نتائجه المرجوة، فإن حالة المريض تزداد سوءاً. وعند ذلك يلجأ ٣٥% إلى المعالجين، وذلك في حالات، كالعجز الجنسي عند الرجل والعقم عند المرأة، أو في حالات الأمراض، ذات المنشأ النفسي [٣٣]. أما الغالبية (٦٥%) فيتجهون إلى المستشفيات، أو إلى عيادات الأطباء، أو إلى الصيدليات وحوانيت بيع الأدوية. ويمكن هنا أن نفترض أن نشدان الصحة، عن طريق التوجه إلى أماكن بيع الأدوية مباشرة، يبدو في نظر المريض أقل كلفة، من الناحية المالية، وأكثر توفيراً للوقت، من التوجه إلى عيادة طبيب أو إلى أحد المستشفيات.

وفي محاولة لتفسير سبب الإستخدام المباشر للطب الحديث، ترد عادة الحجج التالية:

- إنعدام الثقة بالطب التقليدي. وذلك لأن المعالجين الجيدين أصبحوا نادرين.
- الإعتقاد بأن المواد الطبية الحديثة أكثر فعالية من المواد التقليدية.
- الطب التقليدي طب متخلف، والبلد الذي يسير نحو التقدم بحاجة إلى طب حديث.
- إن من يتناول غذاءً حديثاً لا بد أن يتناول أدوية حديثة[٣٤].

وهناك من بين من يستخدمون الطب الحديث ١٢٪ ليسوا راضين عن هذا الطب، ويفضلون أن يتجهوا إلى المعالجين التقليديين، لو توفر قدر أكبر من الثقة بالطب التقليدي [٣٥]. وهذا الشعور تجاه الطب الحديث له أسبابه. كالإنتظار الطويل في المستشفيات وفي العيادات الخاصة. ثم المعالجة، التي تتم في وقت قصير، من قبل طبيب لا يعرفه المريض، وكثيراً ما يكون طبيباً غير يمني (مصري، سوداني، أوربي). ومن هذه الأسباب أيضاً عدم مراعاة الطبيب للنواحي النفسية، أثناء عملية الفحص، وعدم قدرته على التفاعل الشعوري مع المريض ومشاركته أحاسيسه، وكذا اهتمام الطبيب اهتماماً كبيراً بالمال، والسلوك المتعالي في المستشفيات، من قبل المكلفين بالعناية بالمريض. حيث يسود وضع إداري سيئ. ثم ظهور أمراض جديدة، بعد تناول المريض للمواد الطبية[٣٦].

ويختلف الأمر في حالات الجروح والكسور. إذ يتجه ٨٠٪ ممن أجريت عليهم الإستبيان، يتجهون مباشرة إلى المجبر، لا إلى طبيب العظام (الجراح). وهذا ينطبق أيضاً على حالات الختان (إطهار الأطفال). إذ تتم عملية الختان، لا على يد طبيب، بل على يد (المزيّن). وهكذا يتضح لنا أن السكان يعتقدون، من حيث المبدأ، بفعالية وجدوى الأدوية الحديثة، أكثر من اعتقادهم بجدوى الطب الحديث ككل.

منطقة عمران:

وفي منطقة عمران يحتل العلاج الذاتي المرتبة الأولى كذلك. إلا أن العلاج هنا لا يقتصر على استخدام المواد النباتية، بل يشمل أيضاً (الكي)، الذي يكتسب هنا معنىً سحرياً. ومن المألوف أن يستخدم الكي حتى بالنسبة للرضع. فإذا لم يجد العلاج الذاتي نفعاً، فإن المرضى عادة يتجهون إلى المجبرين والمعالجين بالأعشاب والمكوّين وممارسي العلاج الديني [٣٧]. وإذا لم يجد العلاج أيضاً على يد هؤلاء، وأصبحت حالة المريض خطرة، فإنه يتم اللجو إلى الطب الحديث. فيؤخذ المريض من قبل أهله وأصدقائه إلى عمران، أو يؤخذ مباشرة إلى صنعاء. وهذا ينطبق على السكان، الذين يقطنون في مناطق قريبة من طرق السيارات المسفلتة، أكثر منه على أولئك الذين يصعب عليهم الوصول إلى هذه الطرق. ولكن حتى هناك في المناطق البعيدة عن الطرق الإسفلتية، توجد مناطق وصلت إليها الخدمات الصحية الحديثة (ففي كحلان مثلاً، يمكن للمرء الوصول بسهولة إلى مقر الخدمة الصحية الحديثة). ومع ذلك يتجه المريض أول مايتجه إلى المعالجين التقليديين [٣٨].

ومثل هذا السلوك لا يرجع إلى البعد الجغرافي أو الإقتصادي، الذي يفصل الناس عن المراكز الصحية الحديثة، بل يرجع بصورة رئيسية إلى ضعف الثقة بالطب الحديث، واستمرار الثقة بالمعالجين التقليديين. ويكمن السبب في ذلك، إلى حد كبير، إلى أن التركيب الإجتماعي في هذه المناطق، التي يقطنها سكان من حاشد وبكيل، لم يطرأ عليه تغير يذكر.

ويلمس العاملون في الوحدات الطبية الحديثة هذه المسافة، التي تفصل بين السكان والطب الحديث. إذ يقصدهم المرضى لا باعتبارهم ممثلين للطب الحديث، بل بالأحرى لأنهم غرباء عن المنطقة. وفي هذا الصدد يأمل بعض العاملين الصحيين أن يتمكنوا من إحراز معرفة بالطب التقليدي.

وقد ظهرت في هذه المنطقة مؤشرات نحو التغيير، تتمثل في فتح الصيدليات، التي يمكن أن يتجه إليها السكان، فيصبح الوضع شبيهاً بالوضع في صنعاء.

ويمكننا القول باختصار، أنه في مدن كصنعاء مثلاً، لا يزال الطب التقليدي موجوداً. ولكنه أخذ يتراجع تحت ضغط الطب الحديث. إذ أن السكان بدأوا يرون أن العلاج، وفقاً للطب الحديث (خاصة تناول العقاقير) ناجح إلى حد كبير. أما في مناطق الأرياف، لاسيما حيث تنعدم المنشآت الأساسية الحديثة (كالطرقات مثلاً) فإن السكان يعتمدون بشكل قوي على الطب التقليدي، لأن الناس هناك لا يزالون يثقون بالمعالجين التقليديين.

إمكانيات تطوير الطب التقليدي:

دارت نقاشات كثيرة، حول توثيق وتطوير الطب التقليدي وإدخاله ضمن النظام الصحي الأساسي، مع أطباء يمنيين ومصريين وسودانيين وأوربيين، ومع مستخدمين في قطاع الصحة ومعالجين وتجار أدوية (عطّارين) كما في ديوان وزارة الصحة. وكانت نتيجة هذه المناقشات الخروج بتصورات مختلفة، أوجزها فيما يلي:

تصورات الأطباء:

من المؤسف حقاً أنه ليس هناك سوى عدد ضئيل جداً من الأطباء، يرون أن الطب التقليدي هو جزء من تراث الشعب، وأنه لا بد من تطويره والإهتمام به، ليصبح ذا فائدة عامة. فرد الفعل الغالب لدى الأطباء تجاه هذه المسألة كان سلبياً. إن الطب التقليدي في نظرهم خطرٌ ومظهرٌ من

مظاهر التخلف وبقيةٌ من بقايا عهود الأئمة. ولابد، في نظرهم، أن يكون الهدف المرجو هو إقامة نظام صحي، يحاكي النمط الغربي، وليس فيه مكان للطب التقليدي. ولهذا فإن مسألة دمج عناصر من النظام التقليدي بالنظام الحديث أو إقامة تعاون بينهما، لا تزال مرفوضة. وحتى مجرد تبادل الآراء والخبرات مع المعالجين التقليديين، مسألة لا تحظى باهتمام جدي، من قبل هؤلاء.

من الواضح هنا أن هذا التصور السلبي يمكن أن يرجع إلى أن معظم الأطباء، الذين تحدثت معهم لا تتوفر لديهم معرفة كافية بنظام الطب التقليدي. كما أن الطب التقليدي في اليمن يوضع دائماً في مصاف الشعوذة والخرافة والوصفات العلاجية غير المجدية.

تصورات المستخدمين في قطاع الصحة:

على عكس الأطباء فإنه لا يرفض الطب التقليدي، باعتباره طباً عتيقاً ولا ينسجم مع العصر، سوى قلة من مستخدمي قطاع الصحة، الذين تحدثت معهم. أما الغالبية منهم فإنهم يرون فائدة في العلاج التقليدي. بل أكثر من ذلك عبر البعض منهم، لاسيما أولئك الذين يعملون في مناطق الأرياف، عن رغبتهم في اكتساب معرفة عن مايسمى (بنظام الطب الشعبي) وخبرة أكثر به. وأظهروا أسفهم لعدم وجود معهد أو مدرسة، تتولى تدريس مبادئ الطب التقليدي.

تصورات المعالجين التقليديين وتجار الأدوية (العطّارين):

يرى بعض المعالجين والعطّارين في الطب الحديث والأدوية الحديثة خطراً، يهدد نظام الطب التقليدي بالفناء والإندثار. وانطلاقاً من هذا التصور، فإنهم يرفضون النظام الطبي الحديث. إلا أن الغالبية منهم يبدون أكثر انفتاحاً تجاه هذه المسألة، مما هو الحال لدى الأطباء الحديثين. فالمعالجون التقليديون يعرفون ما يتمتع به النظام العلاجي التقليدي من ميزات، كنظام محلي، مقابل الطب المستورد. إنهم يعرفون أن نظامهم هذا يساعد في حل الكثير من المشاكل الصحية التقليدية. وفي الوقت نفسه يرون في الطب الحديث إمكانية لإغناء العلاج التقليدي، أكثر منه منافساً. إنهم وإن كانوا لا يستطيعون أن يتصوروا إمكانية دمج النظامين، التقليدي والحديث، إلا أنهم يرون إمكانية في التعاون وتبادل الخبرات والآراء، بين ممارسي العلاج التقليدي وممارسي الطب الحديث.

تصورات وزارة الصحة:

إزاء السؤال عن امكانية إدخال العلاج التقليدي، ليصبح جزءاً من الخدمة الصحية، ولاسيما الخدمة الصحية الأساسية، انقسم موظفو وزارة الصحة، الذين تحدثت معهم، إلى قسمين: القسم الأول يرفض الإستفادة من طرق العلاج التقليدي والمواد العلاجية القديمة، ويعتبرها معيقة للتقدم. أما القسم الثاني فيبدي اهتماماً بالعلاج التقليدي وتعاطفاً مع فكرة استخدامه في المجال الصحي، ولكنه لا يمتلك رؤية واضحة للكيفية، التي يتم بها استخدامه، ولذا يرحب بأية مقترحات إيجابية بهذا الصدد.

وهناك ثلاثة أسباب في رأيي تكمن وراء هذا الموقف:

١- إن النظام التقليدي، وتركيبه وخلفيته التراثية والإقتصادية، أي أهميته بالنسبة للسكان، ليس معروفاً ككل. فحتى الآن لم توضع دراسات وأبحاث خاصة بالطب التقليدي في اليمن.

٢- إن الطب التقليدي غير معترف به من قبل الجهات الرسمية.

٣- الاعتقاد بتقدمية الطب الحديث، هذا الإعتقاد الذي تنقصه النظرة النقدية إلى حد كبير.

نتائج وتوصيات:

إتضح لنا أن للطب التقليدي اليمني أشكالاً عديدة، انبثقت من حياة الناس وتكيفت معها. ولا بد هنا من التأكيد بأن هذا الطب التقليدي، الضارب جذوره في حياة السكان، والذي يحظى بالقبول لديهم، قد أخذ يتراجع تحت ضغط الطب الحديث، دون أن يكون البديل الأفضل قد وجد بعد. إن إيجاد طب حديث، وفقاً للنمط الغربي، يخلق لليمن مشاكل اقتصادية واجتماعية جمة، وسيمضي وقت طويل قبل أن تتمكن الخدمات الطبية الحديثة من الوصول إلى جميع المناطق وتلبية حاجات السكان القاطنين فيها. وهنا لا بد أن نضع الحقائق التالية بعين الإعتبار:

١- الأهمية التي يمثلها الطب التقليدي بالنسبة لقطاعات واسعة من السكان.

٢- غنى اليمن بالنباتات الطبية المتنوعة.

٣- غنى التراث الطبي ومعارف المعالجين التقليديين، التي يتناقلونها شفاهاً.

٤- إن المعالجة بواسطة مواد طبية محلية تعتبر زهيدة التكاليف بما لا يقاس.

٥- رغم ما أحرزه الطب الحديث من تقدم، فإن هناك أنواعاً من الأمراض يمكن معالجتها بالطرق التقليدية، بصورة أكثر فعالية.

ومن خلال هذه الحقائق يمكننا أن نستخلص النتيجة التالية:

إن الطب التقليدي ليس عديم الأهمية بالنسبة للتطور المستقبلي، لخدمات طبية وطنية في اليمن. إلا أن فائدته من ناحية أخرى ستكون ضعيفة على المدى البعيد، إذا ما اقتصر الأمر على اقتباس الطب الحديث لبعض طرائق العلاج التقليدي، أو استخدام بعض المواد العلاجية التقليدية، أو حتى توظيف المعالجين التقليديين في وظائف رسمية، ضمن النظام الصحي الحالي (القائم على النمط الغربي). إذ يخشى عندئذ أن يمسخ الطب الغربي عناصر الطب التقليدي، ثم يمتصها في نهاية الأمر، فيسهم ذلك في اختفاء الطب التقليدي نهائياً. ولهذا فان النظرة البعيدة للأمور تقتضي، من أجل استفادة السكان استفادة حقيقية، أن ينشأ نوع من التكامل والتعاون بين النظامين الطبيين، التقليدي والحديث، كما هو الحال مثلاً في الهند، حيث أتيح المجال للطب العربي، الذي يُنظر إليه هناك كطب يوناني، وللطب الهندي، جنباً إلى جنب وبنفس الدرجة من التقدير، مع الطب الحديث.

واستنادا إلى كل ما تقدم أوصي بالآتي:

١- الإعتراف الرسمي بالطب التقليدي، من قبل وزارة الصحة، والعمل على دعمه وتطويره واعتباره جزءاً من الخدمات الصحية الأساسية، خاصة بالنسبة لسكان الأرياف.

٢- إنشاء معهد يتولى المحافظة على الطب التقليدي وتطويره، يرتبط بكلية الطب بجامعة صنعاء، ويقترح الإجراءات الكفيلة بتحسين مستوى العمل المشترك بين النظامين الطبيين، التقليدي والحديث، ويضطلع بتكليف من وزارة الصحة، بالمهام التالية:

أ- القيام بعملية التوثيق الأساسية للطب التقليدي في اليمن:

- القيام بتدوين نباتي وإجراء بحوث كيميائية على النباتات الطبية المتوفرة في مختلف المناطق اليمنية، كسهل تهامة وشمال ووسط وجنوب المرتفعات الجبلية، وكذا في الهضبة الداخلية.

- إنشاء مجمع لتحنيط النباتات وأرشيف للعقاقير الطبية.
- إستحداث حديقة خاصة بالنباتات الطبية.
- وضع سجل طبي يمني، يتضمن تعليمات رسمية، خاصة بالمواد الطبية، تحدد تركيبها ومفعولها وحفظها ...إلخ.

ب-وضع سجل خاص بأسماء المعالجين العاملين في اليمن، بمن فيهم المولدات، تدون فيه الأسماء والأعمار والجنس (ذكر أو أنثى) ومستوى التعليم والمنطقة، التي ينتمي كل منهم إليها ... إلخ.

- القيام بدراسة للمناطق، التي يمارس هؤلاء أعمالهم العلاجية فيها، وكذا لطرق المعالجة، التي ينتهجها المعالجون المعتمدون على التجربة والعقل، مع إعطاء اهتمام خاص بالأمراض التي تعالج من قبل هؤلاء بنجاح.
- تحليل دور المعالجين المعتمدين على السحر والدين ومدى إمكانية الإستفادة منهم مستقبلاً، في مجال الأمراض النفسية.
- دراسة دور الطب التقليدي في مجال منع الحمل، كما في مجال العقم وعدم القدرة على الإنجاب والأمراض المعدية ...إلخ.
- وضع المقترحات اللازمة للإستفادة من نتائج الدراسات المذكورة أعلاه، في مجال الخدمة الصحية الحكومية.

ج- جمع وتصوير الكتب، التي يستخدمها المعالجون التقليديون.

د- تحليل عملية استفادة السكان من الطب التقليدي.

ه- تعزيز المهام والإجراءات التربوية، الخاصة بالتهيئة العامة، الهادفة إلى وضع الطب التقليدي في مكانه الصحيح.

- تشجيع عملية تبادل الخبرات، بين الأطباء وبين المعالجين التقليديين، من خلال إقامة (ندوات) مثلاً، تؤدي إلى تحسين مستوى التعاون والعمل المشترك.
- إقامة برامج تعليمية خاصة بالمعالجين التقليديين، تتضمن مواد عن الطب الحديث.
- إعداد مواد تعليمية عن الطب التقليدي، بهدف ادخالها في البرامج التعليمية الخاصة بكلية الطب ومعهد الطاقة الصحية.

هوامش البحث:

١) قــارن: Vgl. Canaa, T. aberglabube and Volksmedizin im Land der Bibel, Hamburg 1914.

٢) يمكن أن يوضح المثال التالي مدى الجدية التي يُنظر بها إلى (فوق الطبيعي).

فقد أبدى أحد الذين سألتهم استعداده لأن نقرأ معاً، ما أسماه ب (كتاب الجن). وعندما قابلتــه في اليوم التالي قال لي إنه لا يستطيع ذلك. ولما استفسرته عن السبب، ذكر لي أنه قرأ قلــيلاً في كتاب الجن هذا، ثم غلبه النوم. وأثناء النوم أيقظه جني ونهاه عن الإستمرار في قراءة الكتاب ونشر محتواه.

٣) هذا ما سمعته من امرأة كان لها سبعة أطفال، توفي منهم ستة وبقي طفل واحد ذكراً. ومن أجل حماية هذا الطفل علقت في جسمه أربعة أحجبة (عزائم) من بينها نسخة صغيرة من القرآن.

٤) هناك اعتقاد بأن نساء معينات متقدمات في السن، في سهل تهامة، لهن (عين) خطرة بل ومميتة. ويردد الناس حكايات كثيرة، عن رجال ونساء أصابتهم (العين) فأودت بحياتهم.

٥) حدث لي أن رأيت فلاحاً وقف أمام جمله، محاولاً أن يحجبه بجسمه. وقد قيل لي أنه كان خائفــاً من أن أصيب ذلك الحيوان (بالعين).

٦) تطور الطب العربي:

بدأ الطب عند العرب، تماماً كما هو الحال لدى الشعوب الأخرى، معتمداً على التجربة. وفي الزمن الذي عاش فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان الطب يتكون من الشعوذة وتضميد الجراح والكي والحجامة والفصد والأساليب السحرية. وكل ضروب المعالجة هذه مازلنا نجدها اليوم في اليمن.

كانت أولى الخطوات لإيجاد طب عربي، هي تلك التي قام بها العرب لاقتباس العلوم الطبية من الشعوب المجاورة، لاسيما الفرس، الذين كانوا قد اتصلوا بالطب اليوناني، منذ القرن الرابع الميلادي. وفي هذا الصدد يرد اسم حارث بن كلده الثقفي، الذي تعلم الطب في فارس واليمن وعرف الرسول (صلى الله عليه وسلم) طبه، فكان يوصي من يمرض من أصحابه أن يتداوى عنده.

أما الخطوة التالية، بالنسبة لتطور الطب العربي، فقد جاءت مع الفتوح الإسلامية. فمع فتح سوريا وفارس ومصر، حقق العرب اتصالاً مباشراً مع الأطباء، الذين كانوا يمثلون الطب اليوناني. وبسبب المشكلة اللغوية كان علم الطب ينقل شفاهاً. وفي العصر العباسي حدثت حركة ترجمة نشطة، شملت كتب الطب (لاسيما كتب هيبو قريطس وديوسكوريدس وجالينوس وغيرهم).

ولم يكتف الأطباء العرب بالترجمات، إذ مالبثوا أن بدأوا يضعون التعليقات والشروح للكتب المترجمة، وانتهوا إلى وضع مؤلفات طبية عربية. وبالطريقة نفسها نهل العرب من علوم الطب الشرقية، ولاسيما علوم فارس والهند.

ومع نهاية القرن التاسع الميلادي كان العرب قد أطلعوا اطلاعاً جيداً على علوم اليونان وفارس والهند، في مجال الطب كما في مجالات الفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعة. وأثر ذلك تأثيراً كبيراً في التطور اللاحق للطب العربي. وفي عصر ازدهار الطب العربي ظهر زكريا الرازي (٨٥٠م-٩٢٣م)، الذي وضع كتاباً ضخماً في الطب، أسماه (كتاب الحاوي)، يتكون من ٢٥ جزءاً، ويعتبر موسوعة طبية، تشتمل على إنجازات علماء اليونان (جالينوس وديوسكوريدس) وأعمال العرب، في مجال مسببات الأمراض وعلاجها، مع ملاحظات المؤلف.

ومن بين المؤلفات الطبية الكثيرة لزكريا الرازي، نشير هنا إلى ما كتبه حول أمراض الجدري والحصبة، إذ جاء بوصف دقيق للغاية، لمظاهر هذه الأمراض وتطورها وعلاجها.

وقد اشتهر من بين الأطباء العرب أبو القاسم الزهراوي (ت ١٠٠٩م) كجراح ماهر. وكان أبرز ما كتبه في مجال الطب (كتاب التصريف)، الذي اشتمل على كل ما يتعلق بالطب. وتعتبر العمليات الجراحية أبرز ما في هذا الكتاب الطبي التعليمي، كعمليات الكي وفتح الأورام والمجارحة والبتر والفصد والحجامة والتجبير ...إلخ.

وخلف الرازي والزهراوي وغيرهما في علم الطب آثاراً، تدل على أنهم، إضافة إلى استنادهم الواضح إلى الكتابات اليونانية في هذا المجال، قد أنجزوا إنجازات خاصة وتمكنوا تمكناً قوياً من هذا العلم. وعلى يد ابن سينا (٩٨٠م-١٠٣٧م) بلغ الطب العربي أوج ازدهاره. وقد حظي ابن سيناء بمكانة عالية بين علماء العرب، كطبيب وفيلسوف. وترتكز شهرته الطبية، أكثر ما

ترتكز، على كتابه المعروف (القانون في الطب)، الذي لا يزال ينتفع به من قبل الأطباء التقليديين اليمنيين حتى يومنا هذا.

ويتكون كتاب القانون من خمسة كتب، مبوبة بطريقة مكنت من عرض المادة الطبية المعروفة عرضاً منهجياً وشاملاً. وفي هذا تكمن أهمية كتاب القانون.

وقد أذنت المكانة العالية، التي بلغها الطب العربي على يد ابن سيناء، بانتهاء المرحلة الثانية وابتداء المرحلة الثالثة من مراحل تطور الطب العربي. فمنذ القرن الثاني عشر الميلادي أخذ الطب العربي يشهد مرحلة من الخفوت، بشكل عام. وهذه المرحلة لم تشهدها بلاد العالم الإسلامي كلها، ولم تحدث في وقت واحد. اذ أن الأندلس مثلاً، بقيت لوقت طويل، بلداً تحظى فيه العلوم المختلفة، لاسيما علم الطب، بعناية فائقة. واشتهر في هذه الفترة أبو الوليد بن رشد (١١٢٦م–١١٩٨م) والفيلسوف والطبيب اليهودي ميمون (١١٣٩م–١٢٠٤م) ومكتشف الدورة الدموية، إبن النفيس (ت١٢٨٨م) وأهم من هؤلاء جميعهم، إبن البيطار (ت ١٢٤٨م)، المولود بملقة. وهو أشهر كاتب عربي في مجال النباتات والصيدلة. وأهم كتبه (الجابي في مفردات الأدوية والأغذية). ويعتبر أهم كتاب عربي في مجال الصيدلة والأغذية. إذ يحتوي على ٢٣٣٠ فصلاً، تشتمل على كل ماكان معروفاً من مواد طبية، حتى عصر المؤلف. وقد اعتمد المؤلف على ديوسكوريدس وجالينوس والعلماء العرب السابقين. كما اعتمد أيضاً عل ملاحظاته الخاصة، وإن كانت قليلة جداً. وكان هذا العمل العلمي دافعاً لأعمال أخرى، نذكر منها، كتاب الملك الرسولي، المظفر يوسف بن عمر (حكم من ١٢٤٩م إلى ١٢٩٥م، وكانت مدينة تعز عاصمة الدولة الرسولية)، حول الأدوية، واسمه (كتاب المعتمد) ويتضمن ٦٦٠ صنفاً من أصناف الأدوية، المركبة من مواد نباتية وحيوانية ومعدنية.

ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي آل الطب العربي بكامله إلى أحد ممثليه المتأخرين، وهو داود الأنطاكي (ت ١٥٩٩م). وقد ألف كتاب التذكرة، الذي عرف باسمه (تذكرة داود)، والذي لايزال يستخدم في البلاد العربية حتى اليوم. ويحتوي الفصل الأول من هذا الكتاب على مدخل عام في الطب، أما الفصل الثاني فيشتمل على تاريخ علم الصيدلة، ويشتمل الفصل الثالث، وهو أشهر فصول الكتاب، على وصف للعقاقير والمواد العلاجية. ومن هذه المواد مثلاً، مادة القهوة (البن)، التي تذكر هنا لأول مرة. ويشتمل الفصل الرابع على ذكر موجز

لأسباب وأعراض وعلاج مختلف الأمراض، ويحتوي الجزء الأخير من الكتاب، وقد ألف من قبل تلميذ لداود غير معروف، يحتوي فيما يحتويه، على نظرية الأخلاط الأربعة، كما يحتوي أيضاً على موضوعات من الموسيقى والسحر والتنجيم والتصوف ...إلخ.

ولا يخلو علم الطب الإسلامي من التعبيرات السحرية. والسبب في ذلك يرجع إلى الطب اليوناني، الذي كانت إمكانيات المعرفة بالنسبة له محدودة أيضاً.

٧) نظرية الطب العربي:

يرتكز الطب العربي على نظرية الأخلاط الأربعة، المأخوذة أصلاً من الطب اليوناني. وتذهب هذه النظرية إلى أن جسم الإنسان يحتوي على أربع عصارات رئيسية: الدم والبلغم والمرة الصفراء والمرة السوداء. وتتكون هذه العصارات من الغذاء، الذي يدخل المعدة. حيث يطبخ هذا الغذاء في المعدة للمرة الأولى فينشأ عن ذلك البلغم والجزء المغذي (قيلوس) والفضلات وتسري المادة المغذية إلى الكبد. وفي الطبخة الثانية تنشأ المرة الصفراء والسوداء، كما ينشأ الدم، الذي يحتوي على أهم وأفيد المكونات، ويسري الدم إلى القلب، ومن القلب إلى شرايين الأعضاء المختلفة. وخلال هذه الطريق يخضع الدم للطبخة الرابعة والأخيرة. وتتناظر العصارات مع العناصر الأربعة (النار والماء والتربة والهواء)، وتتخذ صفاتها من خلال الكيفيات الأربع الأولية (الحرارة، البرودة، الرطوبة، الجفاف) وذلك على النحو الآتي:

الدم: حار، رطب، أحمر اللون، حلو. ويكون لدى الأصحاء من الناس عديم الرائحة.

البلغم: بارد، رطب، أبيض اللون، يمد الدماغ بالغذاء، ويجعل المفاصل مرنة، يحافظ على بقاء العضلات والأوتار والأعضاء رطبة.

المرة الصفراء: حارة، جافة، زعفرانية الإحمرار وحادة المذاق، وظيفتها ترقيق الدم، بحيث يتمكن من الوصول إلى جميع أجزاء الجسم وتنظيف جدران الأمعاء وتنشيطها.

المرة السوداء: باردة، جافة، وظيفتها إحداث الشهية.

وعندما تكون هذه العصارات في حالة تناسب، يكون الإنسان صحيحاً. أما عندما تضطرب نسب تركيب هذا الخليط من العصارات، فإن المرء يصاب بالمرض. ولكي يشفى المريض، لا بد من إعادة العصارات إلى حالة التوازن. ويتم ذلك عن طريق التغذية والمواد العلاجية، بما يتناسب مع الكيفيات الأولية، التي تتصف بها هذه العصارات. ويختلف الناس من شخص إلى

آخر في توزع هذه العصارات، فالطقس والمحيط، الذي يعيش فيه الإنسان، والسن، كل ذلك يؤثر في جعل عصارة معينة أو كيفية من الكيفيات غالبة على سواها، دون أن يعني ذلك بالضرورة أن نسب خليط العصارات يعاني من اضطراب.

٨) نذكر من الأعمال الكتابية، التي ظهرت في اليمن، تلك التي كتبها محمد الحبشي وابراهيم الصنوبري. أما الموضوعات التي تناولتها هذه الأعمال فمنها: طبيعة الإنسان، الملبس والغذاء، الصحة، الجماع، أسباب الأمراض، المعالجة، الأدوية، السحر، العين الشريرة. ويمكن أن نذكر هنا كتاباً حديثاً ظهر في صنعاء ينسجم في مضمونه مع هذه الأعمال الكتابية، واسمه (الإستشفاء بالقرآن الكريم، بيروت ١٩٨٢). لمؤلفه أحمد الصلاحي. ويدور حول المعالجة بواسطة القرآن: العلاج بالدعاء إلى الله وبذكر أسمائه الحنسى وبالوضوء والإستحمام والصلاة والصيام وممارسة التمارين الجسمية وقراءة الفاتحة والأعمال الصالحة والأحجبة. العلاج من النوائب والأحزان والهموم والمخاوف. العلاج بالعسل والأعشاب الطبية، كما أوصى الرسول (صلى الله عليه وسلم).

٩) يتكون سكان اليمن من الجماعات التالية: القبائل-السادة -سكان المدن، الذين ينحدرون بالأصل من القبائل، وإلى سكان المدن ينتمي غالباً القضاة -النواقص والأخدام، وإليهم ينتمي الجزارون والحلاقون والفصادون وغيرهم.

قـــارن: **Vgl. Gerholm, T. Market, mosque and mafrag, Stockholm. 1997.**

١٠) نذكر هنا أيضا أرجوزة (نتائج الفكر المعرب عن تفاضل الثمر) للطبيب والشاعر اليمني ضياء الدين شعبان بن سالم (١٦٥٠م-١٧٣٦م) حول الخصائص الطبية لواحد وأربعين نوعاً من أنواع الخضروات والفواكه، ن بينها الشمش والتفاح والعنب والجوز والخوخ والرمان والترنج والموز والعناب والقرع والدبة والحبحب والخيار والقثاء والتمر الهندي والحنطة والشعير والذرة والعدس واللوبيا والكشت والشمار والجلجلان ...إلخ.

١١) يميز المرء من الناحية الجغرافية بين أربع مناطق رئيسية:

١- تهامة: السهل الساحلي الموازي للبحر الأحمر، وهي منطقة صـــحراوية، إلا أنهـــا تصبح خصبة باتجاه الشرق بفعل المياه التي تنحدر من الجبال إلى وديانها المتعددة.

٢- المناطق الجبلية: في الجنوب والشرق من تهامة، تتلقى معظم مياه الأمطار، وهي أكثف المناطق سكاناً وفيها توجد المدرجات الزراعية.

٣- الهضبة: منطقة مرتفعة وجافة وتتميز بامتدادها وانبساطها، وهي موطن القبائل، مثل حاشد وبكيل.

٤- المنحدرات الشرقية: وهي منطقة شديدة الجفاف قليلة السكان. وتختلف النباتات وتتباين من منطقة إلى أخرى.

قارن: **Vgl. Dazu Schwarz, Flora des tropischen Arabien, Hamburg 1939.**

١٢) يُستدل على الزيادة في نسب العصارات من خلال الأعراض التالية:

الزيادة في الدم: الميل إلى النوم، الصداع النصفي، عدم القدرة على الفهم، التراخي، احمرار وتورم العروق، احمرار العينين، ظهور الدمامل والبثور، المذاق الحلو في الفم بصورة مستمرة، الحلم بأشياء حلوة.

الزيادة في المرة الصفراء: تلون الجسم باللون الأصفر، ضعف الشهية، المذاق المر في الفم، حرقة في منطقة المعدة، تقيؤ مادة صفراء، عدم السيطرة على حركة الجسم، العينين الذاويتين، جفاف الفم، حدوث حالات يكاد يفقد المريض فيها وعيه، الأحلام الحزينة، ضعف النبض.

الزيادة في المرة السوداء: سخونة الجسم، ضعف الشهية، المذاق الحامض في الفم، الآم مستمرة، ضعف النبض مع انتظامه، الإمساك، البراز الأبيض، الأفكار القاتمة، وسمات الألم والإنقباض على تقاطيع الوجه والأحلام المرعبة.

الزيادة في البلغم: الإحساس بثقل الرأس، طول فترة النوم، الحركة البطيئة، قلة العطش، سوء الهضم، البطء في التفكير، نعومة وترهل الوجه، البراز ذو الرائحة القوية، الحلم بالماء، الكوابيس.

١٣) نذكر من ذلك الأعشاب والحبوب والأوراق والجذور والنوار والفواكه والعصير والصمغ، وكذلك مواد طبية معدنية ومنتجات الحيوان. ويفرق المرء بين الأدوية المعروفة في الكتب الطبية، التي يمكن الحصول عليها في السوق لدى العطارين، وبين الأدوية المستخدمة بشكل محلي فقط، أي في منطقة دون أخرى. وهذه ليست معروفة على مستوى اليمن، بل في نطاق

محلي معين. وتستخدم المواد الطبية إما منقعة أو مغلية أو على شكل عصير طازج أو كمادات أو على شكل دهان أو مسحوق أو حبوب.

قارن: كتابي الموجز حول (الأدوية التقليدية في اليمن).

١٤) هناك نوعان من التدليك: التدليك الناعم (تمرير اليد بلطف مع الضغط الخفيف) والتدليك القوي بالفرشاة والأحجار والزيت. ويمارس هذا النوع من قبل الحمامين.

١٥) تبلغ منابع الإستشفاء ٤٠ منبعاً. وهي عبارة عن منابع مياه طبيعية ساخنة.

قارن: الويسي، اليمن الكبرى، ص١٤٢-١٤٧، القاهرة، ١٩٦٢م.

١٦) في حالة الكسور لا يُستخدم الجبس اطلاقاً، بل تستخدم مساطر من الخشب أو لحاء الشجر أو قصب الخيزران، فتربط إلى العضو المكسور، بشرائط قطنية، على شكل ضماد. فإذا ما حدثت آلام في العضو المكسور فإنه يعالج بالبيض وشحم الخراف ونبات الفتحه.

فإذا كان لابد من كسر العضو مرة أخرى، فلابد أولاً من معالجته بالجزء الداخلي من نبات الصبر وبالزيت. ومن المهم في معالجة المصاب بكسر أن يتقيد بتعليمات غذائية محددة. من ذلك مثلاً أن لا يأكل طوال شهر من اللحم إلا لحم الضان، ويجب أن يمتنع عن تناول الأطعمة الحادة والبهارات، مثل البسباس، وينصح بتناول مواد غذائية معينة كالزبيب مثلاً.

١٧) أداة الكي (المنقاز أو الميسام) عبارة عن قضيب من الحديد، طوله حوالي ١٥ سم، يتخذ في طرفه الأعلى أشكالاً مختلفة، فإما مستقيم حاد أو مدور أو مقوس ...إلخ. يوضع الحديد بين الجمر حتى يتوهج احمراراً، فيرفع ويكوى به أعلى أو خلف الرأس أو الظهر أو البطن أو الساق أو أعضاء أخرى من أعضاء الجسم. ويتخذ أثر الكي بعد ذلك شكل خط أو صليب أو دائرة أو بقعة بحجم قطعة النقود المعدنية.

١٨) يتقاضى المعالج من المريض، عندما يقيم هذا لديه حوالي اسبوع واحد، ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ريال. ويتقاضى المجبر، الذي يمارس هذه المهنة، كمهنة رئيسية، مقابل عملية التجبير ٢٠ إلى ٥٠٠ ريال.

١٩) هناك طريقتان مألوفتان: الحجامة الجافة وحجامة الدم. وتجرى الحجامة الجافة بربط قطعة عملة (ريال يمني) في قطعة قماش، بحيث ينشأ من ذلك شكل اسطواني. ويغمس طرف القماش الأعلى بمادة سائلة قابلة للإشتعال ثم يشعل، وتوضع قطعة العملة فوق منطقة الألم، ثم يكفأ

كوب فارغ فوق العملة والقماش المشتعل، فينشد الكوب إلى الجسم ويلصق به بقوة. أما الطريقة الثانية فتستخدم فيها قرون الثيران. إذ توضع هذه القرون فوق المنطقة المراد اجراء الحجامة فيها (الصدر، الظهر، منطقة الكتفين، الساعد، الخد، الصدغ)، بعد احداث قطع فيها بآلة حادة، ثم يفرغ الحجام الهواء من داخل القرن بواسطة المص المتكرر، فيندفع الدم، وتغلق الفتحة، التي في أعلى القرن بالشمع.

٢٠) من المألوف أن ينادي الرجل زوجته في اليمن ب (ياجنيّة).

٢١) لاسيما كتاب (شمس المعارف).

٢٢) يسمع المرء حكايات عن مشعوذين استغلوا ثقة الناس بهم، عند معالجتهم للنساء المريضات، فانتهى الأمر بهم إلى أن يقتلوا، على يد أزواج المريضات.

٢٣) تتنوع الأحجبة والتمائم، ويتنوع محتواها، ويحتفظ ممارسو هذه المهنة بكتب، تتضمن هذه الأنواع.

٢٤) لذلك فان المعالج يحرص دائما على فتح عينيه وأذنيه، ليقف باستمرار على المشاكل، التي يواجهها الاشخاص والجماعات. ويستطيع أن يلم بذلك، من خلال تواجده الدائم في المنطقة واحتكاكه بالناس، وخاصة من خلال مجالس القات.

٢٥) قارن: **Vgl. Hierzu Herrmann, J. Ambition and Reality, Frankfurt 1979.**

٢٦) نظريا يعتبر العلاج في المستشفيات مجانياً. إلا أن المريض يدفع (حق القات) بصورة متكررة وغير رسمية، قبل الكشف وبعده وأثناء الاستلقاء في المستشفى، وذلك للممرضين والعمال، الذين يعتنون به أثناء المرض.

٢٧) أورد كتاب الإحصاء السنوي (لعام ١٩٨١م ص٢٣١) الرقم ١٤٧٨٧٤.

٢٨) يذكر كتاب الإحصاء السنوي (١٩٨١م ص٢٢٩) أن عدد الصيدليات في اليمن يبلغ ٤٤، وحوانيت بيع الأدوية ٢١٣.

٢٩) يبلغ عدد الصيادلة المؤهلين في اليمن (عام ١٩٨١م) ٦٢ صيدلياً. قارن: كتاب الإحصاء السنوي عام١٩٨١، ص٢٤٩.

٣٠) قارن: وزارة الصحة، برنامج الصحة الوطنية ١٩٧٧/٧٦م-٨١-١٩٨٢م صنعاء ١٩٧٦م.

٣١) كان عدد الذين خضعوا لعملية الإستبيان ٢١٠. وأُجري الإستبيان في مستشفى سوق البقر وفي سوق الأدوية (العطّارين) بصنعاء.

٣٢) في استبيان أجرته السيدة كارمن فاكسموت، في مستشفى سوق، البقر أجاب ٧٨% ممن سألتهم، بأنهم يستخدمون العلاج التقليدي.

٣٣) من المحتمل أن نسبة المرضى النفسيين، الذين يذهبون إلى المعالجين التقليديين أعلى من هذه النسبة. لقد كان يبدو الخجل على من سألتهم، عندما نأتي إلى الحديث عن الأمراض النفسية.

٣٤) إن هذا الإرتباط بين الغذاء والدواء طريف دون شك. ففي الطب التقليدي يلعب الغذاء دوراً هاماً، بالنسبة للصحة والمرض، كما ذكرنا سابقاً. والغذاء في هذه الحالة يتمثل بالأطعمة اليمنية التقليدية (فإلى جانب اللحم والخضروات، هناك الخبز المعتاد، كالملوج والخبز واللحوح، وهناك الفتوت والشفوت والنشوف وبنت الصحن والعصيد والشربة ...إلخ). أما الغذاء الحديث فيتكون من المكرونة وحليب العلب والفاصوليا والفول والسمك والطماطم والفواكه المعلبة والروتي ...إلخ، وقبل هذا كله مسحوق الحليب للأطفال الرضع.

٣٥) إن الإفتراض يبدو غير بعيد عن الصحة، في أن هذه المجموعة يمكن أن تتحول من الطب الحديث إلى الطب التقليدي.

٣٦) يسمي اليمنيون هذه الأمراض (حساسية). ويجمع تجار الأدوية، الذين سألتهم على القول بأن عدد الأشخاص الذين يطلبون علاجاً ضد الحساسية، قد ازداد بشكل مستمر، في السنوات الأخيرة.

٣٧) في القرى، التي زرتها، يوجد في كل واحدة منها شخص إلى شخصين، يمارسون العلاج بالكي، كمهنة ثانوية.

٣٨) حُكي لي ما يشبه هذا الوضع عن المحويت، حيث يوجد مستشفى، يعمل فيه عدد من الأطباء، إلا أنه لا يقصده إلا قليل من المرضى.





تلفون ٦٠٧٩١٥ - فاكس: ٦٠٧٠٨٨ - صنعاء